

# بانتظار الفجر

رواية

عليم كيشوكوف عليم كيشوكوف



سلسلة الأدب العالمي سلسلة الأدب العالمي سلسلة الأدب العالمي سلسلة الأدب العالمي سلسلة الأدب العالمي

عليم كيشوكوف




رواية من الأدب السوفياتي في شمال القفقاس

نقلها عن الشركسية ممدوح قوموق

دار الفارابي

١٩٧٩

# مقدمة الطبعة العربية

ان العربي الذي سيقرا هذه الرواية قد قطع طريقا شاقا في دروب التقدم واعتقد انه اطلع خلال مسيرته على الثورة التي انجزناها في بلادنا بقوة سواعدنا . وانا ارجو بهذه المناسبة ان تتحقق امانيه .

انتقال اي كتاب من بلد الى آخر ، يعني الكثير بالنسبة الى كاتبه وانا سعيد جدا بنقل كتابي هذا الى العربية . فالبلاد العربية ليست غريبة عني ، وقد زرتها مرارا وخلال زياراتي التقيت بالعديد من الاصدقاء العرب وتحدثت معهم . ومن خلال لقاءاتي اطلعت على الكثير من جوانب الحياة العربية وهمومها . وبالاضافة الى ذلك، يعيش في البلدان العربية العديد من الشراكسة الذين هاجروا من القفقاس واستقروا فيها ، وهؤلاء ما زالت تربطنا بهم أوثق اواصر القربى . ولا يفوتنا في هذه المناسبة ان نشير الى ان الشعب العربي مد لهم يد العون والمساعدة في محنتهم ، واقتطع جزءا من اراضيه أسكنهم فيها . ومن يقف الى جانبك وقت الضيق هو الجدير ان تعتمد عليه كأخ حقيقي . لذلك لا يمكن أن ننسى هذا الجميل الى الابد . . ولكل هذا يخيل الي أن القارىء العربي سيفهم كل الامور التي تتحدث عنها هذه الرواية ، وسيتعاطف معها .

في هذه الايام بالذات ، يعيش عدد من البلدان العربية ظروفا صعبة نتيجة لما يحاك حولها من مؤامرات . وانني اذ اقدم روايتي « بانتظار الفجر » في مثل هذه الظروف اتمنى من كل قلبي ان تشكل اسهاما متواضعا في مواجهتها .

انني اتخيل نفسي جالسا الى جوار موقد كل قارىء عربي يحمل كتابي هذا . اتحدث اليه عما قاسته أمتي حتى وصلت الى ما هي عليه اليوم . وبهذه المناسبة فانني اغرس شجرة عرفان لمن ترجم كتابي ، لانه بعمله هذا اقام جسرا جميلا

بين اللغتين ، جسرا ارجو ان يقوى ويستمر على مر الايام .

وهكذا يتم تعارفنا اليوم ايها القارىء العربي حين نلتقي عبر هـــذا الكتاب . وارجو ان تزداد وتتوثق عرى المودة والصداقة بيننا ، ولا يفقد احدنا الآخر ابدا .

**علیم کیشوکوف**

**نالتشك ١٩٧٩**

# الكاتب في سطور

رای علیم كيشوكوف النور مع بداية نشوب الحرب العالمية الاولى ، وقد عاصر ثورة اكتوبر منذ نعومة اظفاره وعاش واحدة من اعظم فترات التحول في التاريخ البشري .

ان علیم كيشوكوف الشاعر والروائي والسياسي كل واحد ، لا يمكن الحديث عن اي من جوانب حياته المليئة دون ذكر الجانب الآخر . ولا نستطيع في هذه العجالة ان نفي الرجل كامل حقه في التعريف .

لقد كان عليم وهو يغني بشعره للحياة الجديدة ، يعمل في نفس الوقت على نقل شعبه من ظلام الجهل والتخلف الى عصر النور والاشتراكية . وفي الوقت الذي كان يسجل برواياته نضال الشعب الشركسي الطويل في فترة من أدق فترات تاريخه ، كان في واجهة العمل السياسي في جمهورية كاباردينو بالكاريا السوفيتية الاشتراكية ذات الحكم الذاتي .

واشتهر الشاعر والروائي والسياسي على نطاق الاتحاد السوفياتي . فصار نائبا في مجلس السوفييت الاعلى وعضوا بارزا في اتحاد الكتاب السوفييت . وترجمت اعماله الادبية الى معظم لغات الشعوب السوفييتية . وروايتنا هذه على سبيل المثال ترجمت الى ثماني عشرة لغة بينها الروسية والاوكرانية والجيورجية والارمنية والاوزبكية .. وغيرها ...

زار الكاتب العديد من البلدان العربية اكثر من مرة ممثلا لاتحاد الكتاب السوفييت الذي يشكل منصب السكرتارية فيه هو سكرتير فيه . وهو يكن صداقة خاصة للشعوب العربية وقد عبر عن مشاعره هذه خير تعبير في روايته الاخيرة التي صدرت في موسكو في العام الماضي باللغة الروسية والمكرسة للقضية الفلسطينية بعنوان

« بزوغ القمر » وقد لاقت رواجا منقطع النظير على مستوى الاتحاد السوفييتي وطبعت ثلاث مرات خلال عام واحد بمئات الآلاف من النسخ .

واننا اذ نقدم روايته هذه « بانتظار الفجر » نرجو أن يكون التوفيق قد حالفنا ، في اختيار الكاتب والكتاب ؛ ونأمل أن نكون قد ساهمنا بذلك في اغناء الثقافة العربية بالتراث الانساني .

**ممدوح قوموق**

# الجُزءُ الأوّل

# الفصل الاول

## نهر " شعلمفوقة "
## وقرية " شعلمفوقة "

في اليوم الذي ولد فيه الطفل « لو » ذو العينين الصغيرتين اللامعتين وقعت في القرية أحداث لا يمكن أن تمحى من ذاكرة أهلها ٠

وقبل أن نتكلم عن هذه الاحداث ، لا بد أن نتحدث قليلا عن القرية التي تعيش بجانب النهر ، والتي أخذت اسمها من اسم النهر ٠ في قديم الزمان كان أهل القرية ماهرين في صناعة رحى المطاحن ٠ ففي أعالي النهر تجد أفضل الحجارة التي يمكن أن يصنع منها الرحى ملقية عند قدمي الجبل ، أو في مجرى النهر وقد جرفه السيل ٠ كانت قبارديا كلها تأتي الى قرية «شعلمفوقة» عندما تحتاج الى حجارة الرحى ، وكان كل واحد يجد ما بريده ٠واذا لم يحضر أحد ، لم يكن أهل القرية ليهتموا بذلك ، فقد كانت « نالتشك » (٢) قريبة منهم على مسيرة ساعة اذا ذهبت فارسا ، وعلى مسيرة أقل من ساعتين اذا ذهبت بعربة يجرها الثيران ٠ وكان السوق الاسبوعي الكبير ينعقد في المدينة كل يوم اثنين ، فيحضر اهل القرية حجارة الرحى من مختلف الاحجام ، كبيرها وصغيرها ومتوسطها ، ويبيعونها لكل من يريد أن يشتري نقدا ، ويبادلونها لمن لا يملك النقود بالطحين أو ألواح الخشب او اللحم ٠

ولم يكن النهر الذي يدعى نهر « شعلمفوقة » ، رغم شهرته الواسعة، بالنهر الهام ٠ففي فصل الصيف ، عندما تذوب الثلوج على الجبل ، أو يهطل المطر الصيفي مع الرعد ، كان النهر يكبر ويفيض بضراوة ٠ اما في الربيع

---

(١) تعني ابن رحى الملحنة — ملاحظة : جميع الحواشي في هذا الكتاب هي من المترجم ٠

(٢) عاصمة جمهورية كاباردينو — بالكاريا السوفيتية ذات الحكم الذاتي في شمال القوقاز ٠

والخريف فلم يكن سوى ساقية • وفي فصل الشتاء ، عندما تهطل الثلوج، يتجمد النهر حتى تظن أنه قد جف تماما • أما في الايام العادية ، فان الاطفال ينتشرون في مجراه ، يصيدون السمك ، او يحفرون سواق جانبية صغيرة يبنون عليها مطاحن يلعبون بها • واذا وجد أحدهم سمكة ملونة تعم الفرحة الجميع • أما عندما يفيض النهر ، فانه يجرف معه كل شيء يصادفه •

وفي اليوم الذي ولد فيه « لو » فاض النهر • تلبدت السماء بالغيوم فاظلمت الدنيا ، قصف الرعد وهطل المطر ، فالتجأت الدجاجات والاوزات والكلاب الى أقرب مكان تحتمي فيه من البلل • وهرع الناس الذين فاجأهم المطر الى بيوتهم وقد غطوا رؤوسهم بأكياس من القنب • ولم تعد ترى في القرية أو تسمع من صوت سوى صوت المطر • وعصفت الريح بالبساتين، فتساقطت ثمار التفاح التي لم تنضج بعد •• وعندما انقطع المطر ، خرج الناس يتفقدون بساتينهم • وتراكض الرجال نحو النهر ليلتقطوا الاشياء التي يجرفها الفيضان عادة •

كانت « دومسارا » زوجة الناطور « أستيمر » حاملا ، ولم يكن من الممكن أن تخرج في ذلك اليوم ، فبقيت مع حماتها • كما أن أستيمر لم يكن يطمح بأن يثرى من لقيا يجدها في مياه الفيضان ، كان يأمل أن يرزق بولد وقد تحققت أمنيته •

انقشعت الغيوم وأشرقت الشمس على القرية من جديد ، وعادت الروح الى جميع الاحياء دفعة واحدة وكأن الهواء والمطر قد انعشها • وخرج الاولاد يجرون ويتصايحون ويخوضون مياه السواقي التي سالت بعد المطر وقد رفعوا أطراف سراويلهم ، وكان النهر وهو في أوج فيضانه يدمدم وقد ملأ الوادي جارفا معه ما هب ودب • وغطى ضجيج الماء في الوادي على لغط وضجيج الناس الذين تجمعوا ليخرجوا من النهر ما يجرفه الفيضان •

وصل موسى ومعه عربتان تجرهما الثيران حتى يستفيد من هذه المناسبة وجاء معه بتوقة ونورعلي ومسعود لمساعدته • كما جاءت الارملة ديسة ومعها ابنتها الصغيرة الجميلة ساريمة • ولم يستطع العجوز بلاتسه أن يمسك نفسه عن الحضور فجاء ومعه ولداه • وكانت العجوز الطبيبة تشاتشا بين الحاضرين أيضا وقد رفعت ذيل ثوبها الطويل وعلقته بحزامها فانكشفت ساقاها النحيلتان الشاحبتان • وأخذ سعيد ، امام القرية يقفز من حجر الى حجر حتى لا يبلل حذائيه الجديدين ، وهو يصدر الاوامر الى تابعه يلدار • وكان يلدار هذا شابا في مقتبل العمر يجيد السباحة ، ومستعدا في أي وقت لان يقفز في النهر متباهيا أمام أقرانه معتمدا على قوته البدنية• ولم يكن قد مضى أكثر من شهر على نفي والده الى سيبيريا بعد أن اتهموه

بالاشتراك في « حرب دزلوقة » (٣) ٠ وكانت أمه قد ماتت قبل ذلك بقليل فغدا يتيما ٠ ولما صادرت المحكمة ممتلكاته القليلة ، واستولى آل شردان على مواشيه ، أصبح يلدار مضطرا لان يبحث عما يقيم أوده ٠ وذهبت دومسارا عدة مرات الى سعيد ، ترجوه أن يستخدم الولد لحاجاته في الدار، ولم يقبل الامام على نفسه أن يخيب رجاء المرأة الحامل ، فقبل باستخدام يلدار وهكذا اصبح تابعا له ٠

ـ يلدار ، انظر ، هذه شجرة سنديان ، هيا اقفز الى الماء وأحضرها٠٠٠ قال سعيد وهو يقف على صخرة عالية ٠

ـ وماذا افعل اذا جرفني التيار يا سعيد ؟ ـ قال يلدار وبه رغبة ملحة لان يقفز الى النهر ٠

ـ لن يجرفك التيار اذا لم تنس الله ٠ هيا أسرع قبل أن يفوت الاوان ٠

وقفز يلدار الى النهر دون أن يخلع ملابسه وأخذ يسبح ٠

ـ هيه يا امام ، ماذا تظن ! أتتصور ان التيار لن يجرفك أنت ؟ ـ قال أحدهم ـ أقسم بسواد حروف الله أنه سيجرفك كما يجرف قبعة من اللباد ٠ لقد ضاع والد يلدار في المنفى ، فمن يبقى من العائلة اذا جرفه التيار ؟٠

ـ ماذا تقول ؟ انه يسحب الشجرة ـ قال الامام فرحا ٠

ـ لا تتدخل فيما لا يعنيك والا فسيكون نصيبك الضياع حتما ٠ لقد ضاع مراد والد يلدار لانه فعل ذلك ـ قال آخر ٠

ـ لا تتجادلوا كثيرا ٠ ان الواحد منا لا يعرف ما هي الزلة التي يمكن نضيعه ٠

ـ اذا جاء اجل الانسان ٠٠٠

ـ ليس من الصعب أن يغرق الانسان في مياه الفيضان ٠ الا تذكرون كيف غرق محمد أخو شردان بيرد ٠ أقسم أن الفيضان قد استل روحه بعد أن لامس الماء توا ٠

كان « مراد باشة » هو الوحيد من قرية شعلهفوقة الذي نفي الى سيبيريا بحجة أنه اشترك في « حرب دزلوقة » ولكن القليل فقط هم الذين كانوا يعرفون لماذا نفوه ، وما هي «حرب دزلوقة» ٠ في العام الماضي ، وفي مثل هذه الايام كان النهر قد فاض وكان شردان محمد عائدا من نالتشك على حصانه متعتعا من السكر ، وهو رجل قاس يخافه جميع أهل القرية ٠ وربما ظن أن النهر أيضا سيهابه ٠ ولما أخذ يخوض في الماء بحصانه ، صاح الناس الذين رأوه محاولين منعه ، ولكنه لم يتراجع حتى لا يسخروا منه فيما بعد ٠ وما أن وصل الى منتصف النهر ، حتى جرفه التيار فسبح الحصان الى الشاطىء دون فارسه ٠ وما زال الناس يذكرون الحادث ، من رآه منهم ومن لم يره ٠

---

(٣) اسم موقع في شمال القوقاز حصلت فيه انتفاضة للفلاحين عام ١٩١٣ ٠

وبينما كان الواقفون يتذكرون حادثة غرق عمدة البلد السابق ، سحب يلدار شجرة السنديان وسبح الى الشاطىء • ورأى موسى شيئا آخر فأصبح على عجلة من أمره :

ـ مسعود ، نورعلي ، هيا ، هيا ، ! اقفزوا الى النهر ولا تنتظروا بتوقة هذا الكسول • أسرعوا ، أسرعوا ، ألا ترون ما يجرفه الماء •

كان مسعود ونورعلي يعملان عند موسى منذ مدة طويلة ، ولم يكونا يطلبان منه أجرا أو أي مقابل • كان الرجلان وبتوقة ثالثهم ، يكثرون المكوث في دار موسى ليساعدوه في أعماله ، تاركين اعمالهم الخاصة • ولم يكن موسى ليزعجه ذلك ، بالعكس ، كان يستغلهم لانجاز اعماله • وها هو الآن يملأ العربتين بألواح الخشب وجذوع الاشجار وما شابه ذلك • من يعرف لمن تعود المطحنة التي جرفها التيار • من الواضح تماما أن هذه الالواح الخشبية كانت تؤلف مطحنة ما • وأخذ مسعود ورفيقاه ينفذون أوامر موسى وقد ابتلت أسمالهم •

كان نورعلي بلحيته التي تشبه لحية التيس وأسماله البالية التي لا يملك غيرها أشدهم حماسا وتفانيا في خدمة موسى بالرغم من أنه لا يملك في بيته قوت يومه • ولم يكن له من مصدر للرزق سوى ما يتصدق به عليه الميسورون كل خريف من الذرة الصفراء كزكاة عن غلالهم • ورغم انهم كانوا يتذكرونه دائما في موسم الزكاة ، فقد كان موضع سخرية أهل القرية وتندرهم •

ومسعود أيضا ، وهو من حاشية موسى ، كان يعيش وحيدا ، فلا زوجة له ولا أولاد ولا أهل • ولكنه كان يمارس بعض الفعاليات • فهو من حين الى آخر يشتري خروفا أو عجلا ويذبحه • ومع انه لا يربح كثيرا من وراء هذه العملية، فهو يستفيد من الرأس والارجل والاحشاء التي يستبقيها ويعيش عليها • ولكن لماذا يتفانى في خدمة موسى •

لو انعكست الآية وطلب مسعود من موسى أن يقفز الى النهر ليخرج له بعض الاشياء ، فماذا سيكون موقفه سوى أن يلقنه درسا لا ينساه مدى الحياة • ومع ذلك فان مسعود لا يتوانى عن اطاعة اوامر موسى • فما الذي يدفعه الى ذلك !! انه يعرف ان موسى سيدعوه الى البيت بعد أن يعودوا من النهر ، ولا بد أن يكرمهم • ستطبخ لهم زوجة موسى الجميلة « ماريات » أكلة ينسى معها تعب النهار كله • والجميع يعرفون انه يكثر التردد على دار موسى لاجل ذلك • وحتى اذا لم تطبخ لهم ، فان رؤيتها تعد من قمم أفراحه •

ما كان مسعود ليجوع أبدا ، فان أحشاء الذبائح التي يذبحها تكفيه• لذلك لقبه أهل القرية بـ « بطن الكبدة » ومع انهم يسخرون منه بهذا اللقب فان سخريتهم لا تهمه في شيء • فهو يؤمن معيشته على أية حال •

ـ يا مسعود ويا نورعلي ! سرير • ألا ترون السرير ؟ هيا أسرعا ولا تعتمدا على بتوقه •

كان التيار يجرف سريرا خشبا وهو يتأرجح فوق الماء تارة ، وتدفعه الامواج تارة أخرى فيغرق للحظات ثم يطفو من جديد • من يعرف لمن هذا السرير ؟ لا شك أن الفيضان قد مر بأحد بيوت « القرهشاي » (٤) في الاعالي • لا تستطيع ان تضيع الوقت بالتفكير في صاحب البيت ، والا ضاع منك هذا السرير الجيد • لذلك أسرع نورعلي وصاحبه الى النهر وهما في غاية السعادة وكأن الله وهبهما ملك الدنيا كلها ، وسبحا الى منتصف النهر حتى كادت الامواج تحجبهما وأمسكا بالسرير وأخذا يسبحان عائدين به ، بينما وقف موسى على الشاطىء سعيدا وهو يصدر الاوامر :

ـ يلدار ، هيا أيها الكسول ساعدهما أنت أيضا ! •

وقفز يلدار الذي كان يستريح قليلا بعد أن سحب شجرة الى النهر ثانية • وتعاون الثلاثة فأخرجوا السرير وأوقفوه أمام موسى •

ـ ان الله قد وهبك سريرا رائعا يا نورعلي ـ قال يلدار مبتسما ـ تقول دائما انك تريد الذهاب الى الاعالي لتجمع الذهب الموجود هنالك مثل الحصى في الوادي • لا حاجة بك الى ذلك • ما عليك سوى أن تقف هنا وتلتقط ما يجلبه لك النهر • ما أجمله من سرير !

كان هيكل نورعلي كله يرتجف من البرد ، كما تصطك أسنانه ، والماء يسيل من لحيته التي تشبه لحية التيس • قال وعيناه جامدتان على السرير :

ـ اقسم بالله أن صاحبه هو واحد من « القره شاي » • يا الهي ! من هذا الذي غضب عليه الرب ؟ مهما تكن المصيبة التي حلت بصاحبه ، فانك محظوظ اليوم بهذا السرير يا موسى • واقتربت منهم ديسة التي لم يكونوا قد انتبهوا لوجودها الى الآن :

ـ مبروك يا موسى ، يبدو أن الله راض عليك اليوم ، ما أجمله من سرير ـ قالت ديسة وهي تحشر نفسها في الحديث •

كان زوج ديسة قد توفي في العام الماضي ، وترملت لتربي ابنتيها الصغيرتين • وكيف لا يغري مثل هذا السرير أرملة فقيرة !• أخذت تدور حوله متفحصة متمنية لو أنها هي التي أخرجته من النهر ، وليس موسى وحاشيته • ولكنها لم تكن لتقدر على اخراجه حتى لو رأته قبلهم ، فقد جاءت ومعها ابنتها ساريمة علها تجمع بعض الاعواد وقطع الخشب وما شابه ذلك مما يحمله الفيضان ، ولم تكن تطمع بأكثر من ذلك •

---

(٤) من شعوب قبال القفقاس •

ـ هل أعجبك يا ديسة ؟ • اذا كان السرير قد أعجبك فانني أمنحك اياه ـ قال موسى وهو ينظر نحوها مبتسما •
ـ ماذا تقول يا رجل ؟ أتتخلى عن مثل هذا السرير لمجرد أن أحدا أعجب به ! والله لن آخذه منك • يكفيني أن أنام على الارض •
ـ والله انني أمنحه لك • ما حاجتي انا به ! •

واحتارت ديسة في أمرها • اذا أخذت السرير ، فانها ترى ذلك غير لائق ، ولكن قلبها لا يطاوعها على التخلي عنه • وأخذت ابنتها ساريمة تحتك بها وقد وقعت من يدها الاشياء الصغيرة التي كانت قد جمعتها من أطراف الماء•كان كل أهل القرية يعرفون أنه لا يوجد أي سرير في بيت ديسة، وأن الجميع ينامون على الارض •

ـ ما دام أنه قد منحك اياه فخذيه ـ قال يلدار •
ـ خذيه يا امرأة • أتظنين أن النهر يجرف كل يوم سريرا ! ـ قال آخر •

واقترب منهم الامام :

ـ اللهم اننا نتوب اليك ، فاغفر لنا • من هذا الذي حل عليه غضبك اليوم يا الله •
ـ هيا يا ديسة ، سأحمله لك ـ قال يلدار وهو يقترب من الارملة،وينظر نحو الامام •

كيف لا ينظر اليه فهو سيده الآن ولا يستطيع مساعدة الارملة دون موافقته • ولكن سعيد لم يعلق بشيء ، بل أضاف بعد قليل مؤيدا :

ـ من واجب المسلم أن يساعد أخاه المسلم •
ـ اذا اعطوك مثل هذا السرير ، فلا داعي للتردد في قبوله • ـ قال نورعلي وقد ظهر عليه بوضوح اعجابه بالسرير ورغبته فيه •
ـ احمليه وخذيه • عندما تجدد ماريات طينة البيت ، تعالي وساعديها ولا أريد منك شيئا آخر غير ذلك ـ قال موسى وهو يزيح السرير قليلا نحو الارملة •
ـ عوضك الله به خيرا ، وزاد في رزقك • هيا يا ساريمة لننقله الى البيت • ما أسعد هذا اليوم ! بعضهم يرزق بولد ، والبعض الآخر يهبهم الله سريرا ـ قالت ديسة وهي في غاية السعادة •

عندما خرجت ديسة من بيتها اليوم ، لم تكن تعلم أنها ستحصل على سرير • لذلك عرجت وهي في طريقها الى النهر على آل بوتش ، فعرفت أن دومسارا قد رزقت صباح اليوم بولد ، وسمعت صوت بكائه • ورأت كل عجائز الحارة مجتمعات عند حماة دومسارا • فأخذت تتخيل الآن كيف

ستقص عليهن كل ما رأته وما سمعته اليوم ، وكيف حصلت على سرير ·
ولم يرغب موسى في أن يسأل عن الذي رزق بولد اليوم ، وتجاهل ما سمعه من ديسة · ورأى الناس الواحا أخرى من الخشب يجرفها النهر فركضوا نحو الماء يتصايحون · كان بلاتسة يحرض ولديه ، ووقف الولدان في الماء ينظران بجدية واهتمام وكأنهما يتحديان فيلا ، كانا مستعدين لانتشال أي شيء يشار اليهما به · وأخذ بلاتسة يتمشى على ضفة النهر وقد رفع أحد ساقي بنطاله ، وابتل الساق الآخر بالماء ، وخنجره الطويل يتدلى من وسطه ·
ـ أمسك الغصن ، اجذبه الى هنا ، اجذبه · هيا أيها الكسول ! لا تقف مثل الباكي على الميت · شد مثل الرجال · انزل مع التيار قليلا ، هيا ، هيا · لا تدع مثل هذا الحطب الجيد يفلت من يدك ، اجذبه جيدا · ها · اذا قال الشركسي «ها» فان الامر على ما يرام · أما اذا قال «هه» فان هنالك خطأ ما · اسحبه الى الشاطىء ، اياك أن يفلت منك ويجرفه التيار · ها ، ها ، هل تسمعان ما أقول ؟ ها ـ ها · كان بلاتسه يوجه ولديه ويساعدهما من مكانه على ضفة النهر · وكان الاخوان « أصلان » و « قازجري » يبذلان كل ما في وسعهما لينفذا أوامر والدهما ·
ولما كان واحد من الموجودين حول مجرى النهر ، منصرفا الى ما يشغله ، لم ينتبه أحد منهم عندما اقترب العمدة « غومار » راكبا حصانه· العمدة هو ممثل جميع سلطات الدولة في القرية · فهو رجل البوليس ، ومنفذ القانون ، وحاكم القرية · ومع أن أحدا لم يكن بحاجة اليه الآن بالذات ، فقد وجد طريقة يصدر بها الاوامر :

ـ ليضع كل واحد منكم علامة على الكومة التي جمعها حتى لا تختلفوا ·

في الحقيقة ، كان غومار يعرف جيدا أن أهل القرية كثيرا ما يختلفون على أشياء لا قيمة لها · وأنه من الممكن أن يختلفوا اليوم بالذات على أتفه الاشياء التي التقطوها من الفيضان ·
وقفت « الطبيبة » تشاتشا بجانب كومة كبيرة من الاعواد والألواح الخشب وغيرها وهي تبربر وقد رفعت ذيل ثوبها الطويل عن الارض · وكان من عادتها أن تقرأ بعض آيات من القرآن بصوت مرتفع عندما يقترب منها أحد · أما عندما تعرف أنها وحيدة ، فكانت تكيل الشتائم لاعدائها الوهميين الذين تتخيلهم · وقد أمضت اليوم تتظاهر بأنها تخرج بعض الاعواد من النهر ، أما في الحقيقة ، فكانت تغافل الناس ، وتقترب من الاكوام الكبيرة التي جمعها آخرون وتأخذ منها ما تريده · وقد انتبه العمدة لذلك ، ولكنه لم يعرها أي اهتمام · وعندما سمعت هي صوته ، أخذت تتمتم بكلمات لم تكن بالتأكيد آيات قرآنية · ونظر غومار جانبا ، فرأى

أمهر حدادي القرية «بوت» ذو الرأس النحاسي ٠

ـ هل كل هذه الاشياء لك يا بوت ؟

ـ طبعا ، طبعا ٠

كان بوت يجمع الحطب بنشاط وهو يرتدي مريولا جلديا ثقبته شرارات متطايرة من الموقد في أماكن مختلفة ٠

ـ وهل جمعتها وحدك ؟

ـ وكيف اجمعها وحدي ؟ هل تستطيع أنت وحدك ان تجمع مثل هذه الكمية ؟

ـ اذن لماذا تأخذ ما ليس لك ، أتريد ان يكسروا لك رأسك النحاسي٠ وهل تظن أن العمدة سيقف معكم طوال الوقت ليفض منازعاتكم ؟

ـ اطمئن يا عمدة ، لن يكسر احد رأسي ٠ أتعرف ما يحتاج اليه الحداد ؟ هو السنديان ٠ لا شيء يعادل فحم حطب السنديان ٠ كل الموجودين هنا يأتون الى محل الحداد ، فما المانع اذا أخذت من كل واحد قليلا ؟ ـ قال بوت دون أن يظهر عليه أي حرج أو ارتباك ٠

ـ لا بأس ، ولكن اياك أن تأتي الي للشكوى اذا أكلت علقة ساخنة٠ أقسم أنني سأكمل عليك ٠

وفي هذه الاثناء ظهر فارس آخر ، ولكنه لم يكن يضع على رأسه قلبقا (٥) بل قبعة من اللباد (٦) ٠ ومع ذلك كان قريبا من القلب ، متناسق الجسم وشاربه الاسود مقصوص بعناية ٠ وكانت عيناه الجميلتان تطلان من تحت قبعة اللباد ، وقد غطى البرنس الاسود المبتل جسم الفارس وكفل الحصان ٠ وهذا الفارس هو بوتش استيمر ، ناطور الحقول البعيدة ، وكانت زوجته على وشك أن تضع بين ساعة وأخرى منذ بضعة أيام ٠ لذلك كان يفكر كل يوم وهو في طريق عودته الى البيت « سأجدها وقد وضعت » ماذا سيكون الوليد يا ترى ؟ زوجته تريد بنتا ، أما هو فانه يريد ولدا مع أن له ابنا اسمه تيميوت ، فانه يريد له أخا ، لانه يعرف جيدا معنى المثل الذي يقول : « الاخوان كالخنجر ذي الحدين » ٠ وكان الآن على عجلة من أمره ليصل الى البيت ٠

ولم يعرف استيمر بالمتاعب التي سيصادفها قبل أن يصل الى البيت وينظر الى وجه ابنه الوليد ٠

ولا نستطيع أن نمر بهذه المتاعب دون أن نذكرها لانها ستكون على علاقة بالتطورات التي ستأتي فيما بعد ٠

---

(٥) القلبق هو غطاء الرأس في الزي الشركسي التقليدي وهو مصنوع عادة من جلد ثمين ذي وبر مجعد ٠

(٦) قبعة اللباد كان يرتديها أبناء الطبقة الدنيا اثناء العمل ٠

## الذين صبروا
## والذين لم يستطيعوا الصبر

عندما اقترب الفارس من الجماعة وهو في طريقه الى القرية نزولا مع مجرى النهر ، لم يتجاهل دوسي والعمدة ، مع أن جميع النبلاء والوجهاء في قرية شعلمفوقة يكرهونه لاسباب تعود الى الماضي البعيد •

لم يشتهر أهالي قرية شعلمفوقة لمهارتهم في صنع احجار الرحى فقط وانما هنالك سبب آخر أيضا لشهرتهم • فهم عندما يعرضون بضاعتهم في السوق ، ويجد أحد المشترين ان السعر الذي يطلبونه غال ، ينهي المساومة قائلا « وكيف السبيل الى التفاهم مع جماعة المتسابقين الى الموائد ! » عندها ، لا يلغي أهل القرية الصفقة نهائيا فقط ، وانما يلجأون عادة الى خناجرهم يهددون بها • وهكذا كان أهل قرية شعلمفوقة يعرفون بـ « المتسابقين الى الموائد » أيضا •

وقد أطلق عليهم هذا اللقب منذ الواقعة التالية :

اجتمع أهالي قرية شعلمفوقة كلهم في يوم من الايام ، ينتظرون ضيوفا من منطقة « الاباظة » (٧) • في تلك الايام كان من عادة « الاديغيين » (٨) والاباظة أن يتبادلوا الزيارات كل عام •

انتشر أهل القرية عند مجرى النهر صغارا وكبارا ، كان اللحم يطبخ بحلل ضخمة ، وبأخرى كانوا يصنعون « الباستة » (٩) • وجمعوا كل ما في القرية من الموائد ذي الارجل الثلاثة ووضعوها صفا في مكان مناسب ،وامتلأت بالجبن و « اللقوم » (١٠) والخبز والبصل •• وكانوا قد طووا البرانس السوداء الفخمة وصفوها حول الموائد بدل الكراسي ، وانهمكت النسوة في الطبخ دون كلل أو ملل • فهذه تحضر « الجموكه » (١١) وتلك تطبخ « الشبس » (١٢) وأخريات تحمرن الدجاج • ولم تكن لتميز في هذا الحشد الهائل من المشرف على كل هذا • كان بعض الميسورين قد تبرعوا للحفلة حبا منهم في الظهور بأحسن العجول التي مضى عليها حول • ووقف الرجال جماعات يزجون الوقت بالحديث بانتظار وصول الضيوف ، بينما كان برميل خشبي مليء بالباخسمة (١٣) يرقد في مكان غير بعيد ، مع عدد من الجرار المليئة بالفودكا الروسية داخل كهف أقاموه على عجل لهذه الغاية •

---

(٧) من شعوب القوقاس يقطنون سواحل البحر الاسود •

(٨) هم الشركس •

(٩) (١٠) (١١) (١٢) اكلات شركسية •

(١٣) مشروب محلي •

ولما كان أهل القرية ينوون استقبال الضيوف استقبالا لائقا ، فقد تزينوا جميعا ، ولبسوا أحسن ملابسهم ، ونظفوا أولادهم ، وحلق الذين من عادتهم ان يحلقوا لحاهم • وطال انتظارهم بعد أن اصبح الطعام كله جاهزا ولكن الضيوف لم يصلوا • أرسلوا عددا من الفرسان الى مشارف القرية ، الى المكان الذي اتفقوا مع الضيوف أن يستقبلوهم فيه أكثر من مرة ، ولكن الفرسان عادوا بعد أن ملوا من الانتظار • وأخذ الندم يتسرب الى قلوب الذين تبرعوا بعجولهم السمينة • وأخيرا فرغ صبر القوم ، وأخذ منهم الجوع كل مأخذ وهم أمام أطايب الطعام ، فاجتمع كبارهم وتشاوروا في الامر « ماذا نعمل ؟ » وهل نستطيع ان نفعل شيئا آخر سوى أن نجلس ونأكل ؟ هذا ما قرروه • وقبل الجميع بهذا القرار سوى « بوتش آيتش » « هذا عار ، هذا منتهى العار ، انني أرفض هذا القرار » قال ايتش ، أحسن البنائين في القرية ، وغادرهم •

وهكذا كان والد أستيمر ، هو الوحيد من كل أهل القرية ، الذي استطاع أن يصبر • اما الآخرون فما كانوا ليهتموا لان رجلا واحدا خالف قرارهم •كانت الموائد عامرة والمشروب وفيرا ، فما أن سمعوا بقرار الكبار حتى تسابقوا الى الموائد ساخرين من أيتش الذي رفض القرار •

وما أن شربوا الكأس الاولى ومدوا أيديهم الى الطعام ، حتى أخذت قطع اللحم الكبيرة تنتقل الى تحت الموائد وقد غدت قطعا نظيفة من العظم• وكان بعض الشباب الذين تولوا الخدمة على الموائد ، يملاون الكؤوس دون توقف ، كما يملاون الاطباق التي كانت تفرغ باستمرار ، وتوقفت لغة الكلام امام اطايب الطعام •

لقد كان الجلوس الى المائدة سهلا ، ولكن القيام عنها لم يكن كذلك • ورغم أن الجميع قد شبعوا ، فان أحدا لم يفكر بالقيام ، بل أن بعضهم اخذ ينشد الاغاني • أما المسنون فان أحاديثهم قد بدأت الآن فقط ، والحديث عن ذكريات أيام الشباب طويل وذو شجون • وأخذ الاذكياء منهم ينجمون وهم ينظرون الى عظمة لوح الكتف • وهؤلاء لم يكن عددهم قليلا في تلك الايام •ورفع رجل مسن ذو لحية بيضاء وهو كبير القوم ، عظمة اللوح باتجاه الشمس وأمعن النظر اليها بعين واحدة :

ـ انظر واسمع ، ستقوم حرب !
ـ وكيف تعرف ذلك أيها المحترم ؟
ـ ان ذلك مسجل على هذا اللوح ، ما عليك الا ان تنظر اليه عبر أشعة الشمس • الا ترى بقع الدم ؟

وأخذ الذين يصدقون ذلك ، يتناقلون اللوح وينظرون اليه عبر أشعة الشمس •

ـ هذا صحيح ، ان اللوح غائم ٠
ـ دعني أنظر اليه قليلا ٠
ـ أعد اللوح الى المحترم ٠
ـ دعونا نسمع ما يقوله ٠

ويعيدون اللوح الى الشيخ ، فينظر اليه العجوز مرة اخرى عبر أشعة الشمس :
ـ يا الهي ! ما أكبر هذا الجيش ، اللهم احمنا منه ٠ ـ قال العجوز ـ لقد تحرك الجيش ٠
ـ من أين يأتي هذا الجيش ؟ الا يمكن أن يكون جيش جماعة الاباظة الذين ننتظرهم ؟
ـ لا ، لا تقل ذلك ٠ نحن الاديغيون والاباظة ، اخوة منذ القـــدم ٠ اذا هاجمنا أحد فلن يكون سوى خان القرم ٠ أقليل ما لاقيناه منه ـ قال الرجل العجوز ٠
وهل يوجد خان للقرم الآن ؟ ـ قاطعه أحد الذين تعتعهم السكر ـ ألـم يستول ملك الروس على القرم ٠ أنا لا يمكن أن أصدق ما تراه في هذا اللوح٠

ـ لا ، لماذا لا تترك الرجل الوقور يتم ما يريد قوله ؟
ـ وهل اللوح قرآن حتى أصدق كل ما جاء فيه ؟
ـ ايه ايها الاخ الصغير ، لا تقل هذا ـ اعترض الرجل الوقور ـ صحيـح ان اللوح يعود لحيوان ابكم ، ولكنه يوضح لنا أشياء كثيرة ٠ لماذا تهجـــر أسراب النمل الوديان قبل أن يأتي السيل ؟ ولماذا تهجر الفئران السفينــة التي ستغرق ؟ الحيوانات البكماء تعرف بالغريزة ما سيحدث ٠ انهـــا لا تستطيع أن تقول ذلك ، ولكنه مغروس في دمها ٠ انظر واسمع اذا لم تقـع حرب ٠٠٠

ـ ما دامت الحرب واقعة فلنشرب حتى الثمالة ـ قال أحد الثرثارين ٠
ـ هيا يا شباب ، أحضروا لكبارنا مشروبا ، أحسن مشروب في الكهف٠
ـ هيا ، أحضروا بعض الشبس أيضا ٠ رجاء أيها الزعيم ، انظر الى اللوح مرة اخرى ٠

وتابع « الذين لم يصبروا » الطعام والشراب ٠ روى الكبار ذكرياتهم ، وغنى القادرون على الغناء ٠ وبعد أن شبع القوم أحسوا بالتعب ، وخيـم عليهم شيء من الحزن والوجوم ، ثم عادوا وتنشطوا ثانية ، وأخذ كبيـــر القوم الذي كان ينجم في عظمة اللوح يروي قصة قرية « بزوقان » التي هلك أهلها بسبب منخل ٠

ـ لقد انقسموا الى فريقين ، فلم يبق منهم أحد ـ قال العجوز وكأنه

رأهم بنفسه ـ وتحولت القرية الى خراب ٠ أحد الفريقين حصل على منخل ، والله أعلم من أين ٠ ألم يكن القدماء مجانين ؟ أمضوا وقتا طويلا وهم لا يعرفون ما معنى المنخل ، ولا لماذا يستعمل ، وبعد أن اكتشفوا فائدته أخيرا ، أخذوا يتداولونه من بيت الى آخر ٠ ولكن ، هل يسد منخل واحد حاجة قرية بكاملها؟ بدأ الفريق الذي يملك المنخل،وهم أهل الحارة الشمالية، يضيقون ذرعا بالفريق الثاني وهم أهل الحارة الجنوبية لانهم يؤخرون المنخل ٠ وتحول الضيق الى غضب ٠ ولم يكن أهل الحارة الشمالية ممن يضبطون أنفسهم عند الغضب ٠ وهكذا اشتبك الفريقان ـ ولم يكن في القرية كلها محايد يحجز بينهما ـ ففني الجميع ٠ لذلك يطلقون على تلك المقبرة القديمة بجانب القرية « مقبرة المنخل المستعار » ٠

ـ الدنيا فانية ٠ والجبناء لا حصر لهم ، اما الشجعان مثلنا فهم قليلون ـ قال الثرثار فضحك الجميع ٠

ـ انتظر قليلا ، الم يستطيعوا الحصول على منخل آخر ؟

ـ « الشر ينبع أحيانا من قرن الثور » كما يقول المثل ٠ كانت تلك ارادة الله ، فهلك القوم بسبب المنخل ٠

كانت الكلاب التي بقيت تنبح عند مجرى النهر طوال النهار قد نامت بعد أن شبعت وأصبحت عاجزة عن النباح ٠ وكانت العظام ملقية في كل مكان ٠ ونسي الناس بعد الشبع لاي سبب كانوا مجتمعين اليوم ٠ ولم يعودوا يذكرون الضيوف القادمين من منطقة الاباظة ٠٠ وفي هذه الاثناء، رأوا بعض الاولاد يتراكضون نحوهم ، ولكنهم ظنوا أنهم يلعبون لعبة « خطف الطواقي » فلم يبالوا بهم ٠

ـ ضيوف من منطقة الاباظة ٠ ضيوف من منطقة الاباظة ـ كان أحدهم يردد بأعلى صوته ٠

ـ منذ الصباح ٠٠

ـ واقفون عند المطحنة القديمة ٠ ـ بدأ أحدهم فأكمل الآخر ٠

ـ عن أي ضيوف تتحدثون يا ذوي البطون المملوءة بالهواء !

ـ ضيوف من الاباظة ، والله انهم ضيوف من الاباظة ٠

ـ لقد رأيناهم ، رأيناهم بأعيننا والله ٠

ـ وكيف يقفون عند المطحنة القديمة ؟ ، ألم نرسل فرساننا الى هناك !

ـ وهل ذهب الفرسان الى تلك المطحنة ؟ لقد ذهبوا الى المطحنة الجنوبية ٠

ـ هل قلتم ضيوف أيها الاولاد ؟

ـ نعم ، نعم ٠

ـ من الاباظة ؟

ـ والله من الاباظة ، وكلهم فرسان ، وقد رأيناهم يطعمون خيولهم ،

وهم واقفون هنالك منذ الصباح • ـ قال ابن أيتك بوتش المسمى أستيمر • وكـــان الاولاد الآخرون يتكلمون جميعا معا دون ان يتوقفوا •

ـ اسكتوا ، وليتكلم واحد منكم فقط ، هيا يا أستيمر ، قل لنا أنـــت ما رأيتموه •

ـ ذهبنا لنعيد العجول ، فالتقينا بعدد كبير من الفرسان ، واقفين عند المطحنة القديمة وقد ترجلوا عن خيولهم • سألونا « من أنتم ، ومن تخصون» فقلت لهم نحن من قرية شعلمفوقة ، وأنا ابن بوتش آيتشـــس • قالـــوا « وأين قريتكم ؟ » قلت ، اذا صعدتم على هذا المرتفع ترونها ، تعالـــوا معنا ، سندلكم عليها • ولكنهم رفضوا وقالوا « اذهبوا وقولوا لآبائكـــم ان الضيوف من منطقة الاباظة قد وصلوا ، ولكنهم لا يعرفون أين سينزلون سروجهم عن الخيل ، هل فهمتم ؟ » •

وقعت الاخبار التي جاء بها الولد كالصاعقة عـلى الجميع فطـــارت سكرتهم •

ـ يا للمصيبة ! لقد جلبنا العار لانفسنا •

ـ لقد سودنا وجوهنا بأيدينا • لماذا لم تحددوا مكان اللقاء بشكل دقيق• ألا ترون أن عدد المطاحن في هذه القرية ليس قليلا •

ـ لقد اتفقنا على اللقاء عند المطحنة التي في آخر القرية •

ـ انتهى الامر الآن • لقد ضعنا وأضعنا ضيوفنا ، وهم ينتظروننا منـــذ الصباح •

كفوا عن الجدال وعن لوم بعضكم بعضا الآن والا حل بنا ما حل بأهـــل قرية « بزوقان » •

ـ فكروا كيف ننقذ ماء وجوهنا ـ قال المسنون •

ـ والله لقد تبهدلنا • لم يستطع واحد منا أن يتمالك نفسه ويصبر سوى آيتش بن بوتش ـ كان القوم يلومون انفسهم وقد أسقط في أيديهم •

ـ هيا أرفعوا كل شيء ، وخذوا ما تبقى من الطعام والشراب الـــى بيت آيتش بن بوتش وسنستقبل الضيوف عنده • واذبحوا بسرعة ذبائـــح أخرى وانصبوها على النار ـ هكذا قرر كبير القوم •

وخرج أهل القرية لاستقبال الضيوف •• وعندما سمع آيتش بن بوتش بما حصل لاهل القرية ، حزن كثيرا للعار الذي لحق بالجميع • صحيـــح أن المسنين امتدحوه وقالوا « ا نالوحيد الذي استطاع ان يصبر هو آيتش » ولكن المتنطعين للزعامة لم يرضوا بذلك ، وقالوا ان هذا يجعل لآيتش مكانـــة لا يستحقها •• ومهما يكن الامر ، فان أهل القرية حصلوا منذ ذلك اليـــوم على لقب « المتراكضين الى الموائد »* وحصل آيتش على لقـــب « الصابـــر » وكانوا يسخرون منه لذلك ، ولكن لقب « المتراكض الى الموائد » كان أقـــذع

سخرية ، بدليل أن كل من يعير بذلك ، كان يمد يده الى خنجره الطويل « القامة » (١٤) • وأخذ كل من يأتي الى القرية منذ ذلك اليوم ، يتذكر هذه الحادثة بطريقة أو بأخرى • وكان الناس يقولون « ان آل بوتش هم الوحيدون الذين استطاعوا أن يملكوا زمام انفسهم » حتى النبلاء لم يقدروا على ذلك •• وكان مثل هذا الكلام يجعل النبلاء يتميزون من الغيظ •

## الناطور أستيمر

نعود الى أستيمر الذي تركناه يدخل الى مجرى النهر فارسا • كان نسل الذين لم يستطيعوا الصبر ، يتصيدون ما يجرقه السيل في ذلك اليوم ، وكان سليل الصابر الوحيد ، قد قطع السيل في طريق عودته الى البيت • فرأى العمدة الذي لم يكن يرغب في مقابلته • فقرر أن يسلم عليه ويتابع سيره متباطئا دون أن يتوقف • كان في شوق للوصول الى البيت لذلك كان يسلم على كل من يلقاه دون توقف • وكان موسى يقف متباهيا بحذائيه الجديدين فلم ينتبه له • اما مسعود ونورعلي ، فكانا مشغولين بما يجرفه السيل ، وقد ابتلا حتى العظام • وعندما رآه يلدار ، صاح به يقول شيئا له ، ولكنه لم يسمع ما قاله بسبب ضجيج السيل • وكان بلاتسه ما يزال يصدر الاوامر لولديه ، وبوت ما يزال يجمع جذوع السنديان • والارملة ديسة ومعها كبرى ابنتيها تكرر الشكر لله على السرير الذي كان من نصيبهما اليوم •

وعندما وصل استيمر الى حيث يقف العمدة قال :

ـ السلام عليكم •

ـ وعليكم السلام • ما هي الاخبار ؟

ـ وهل توجد أخبار في البراري !•

ـ من أية نقطة قطعت السيل ؟

ـ قبل المطحنة القديمة بقليل •

ـ أظن أنك رزقت بابن آخر •

ـ لا اعرف • كل ما يهبه الله لنا فهو خير •

ـ تقول ما يهبه الله لنا فهو خير ؟ لكم أصبحت مؤدبا ! • أرجو أن لا تواجه المتاعب •

وتابع استيمر سيره ، وكانت المتاعب التي تحدث عنها العمدة ، بانتظاره في الزقاق الضيق الموصل الى بيته ، والذي حولته الامطار الى

---

(١٤) خنجر شركسي مستقيم النصل •

مستنقع من الوحل ، تقتطع قوائم الحصان كتلا منه وتلقيها على الجانبين كلما خطا خطوة · كان أحد جانبي الزقاق سياجا من القضبان الرفيعة المشبكة ، له ثقوب في أماكن متعددة تظهر منها افنية الدور القائمة على هذا الجانب ·بينما كان الجانب الآخر سورا حجريا منخفضا· فانطلق الحصان الذي يعرف طريقه الى البيت عبر هذا الزقاق ، يمشي الهوينا · ورأى أستيمر شخصا يرتدي عباءة زرقاء قادما في الاتجاه المعاكس · انه الحاج يونس ! « ما هذه الصدف التي تجعلني أقابل جميع الاشخاص الذين لا أحب لقاءهم اليوم » قال أستيمر لنفسه وحث حصانه · الحاج يونس رجل صعب المراس ، صعب المعاشرة · ورغم انه أدى فريضة الحج ، فلم يتغير شيء من سلوكه تجاه الناس · فقد كان ، ولا زال واحدا من الذين لا يهنأ لهم عيش يومهم ، اذا لم يتشاجر مع أحد الناس · ها هو الآن يسير مستعينا بعصا طويلة ، تنتهي بحديدة مدببة ، يستند اليها لينتقل من حجر الى آخر متجنبا الخوض في الوحل · ولصعوبة التعامل معه ، كان الناس يتجنبون مشاركته عندما يخرجون لحراثة حقولهم أيام الربيع بشكل جماعي ، فكان يحرث وحده « انه صعب المعاشرة حقا » هكذا كانوا يقولون عنه · على عكس زوجته « اوزيزة » التي فارقت الحياة ، فقد كانت نادرة المثيل في طيبة النفس وكرم الخلق · ولم يجد أحد فيها مثلبة سواه · فقد كانت عاقرا ، وهذا ما زاده عصبية · كان الحاج يونس وأستيمر ، لا يطيق احدهما الآخر · ولا بد أن نعرف سبب ذلك ان عاجلا ام آجلا ، ولكن دعونا الان ننظر الى ماسيحدث بين الرجلين اللذين تقابلا في هذا الزقاق الضيق ·

الحاج يونس غاضب ، وكيف لا يغضب وقد سمع للتو ، ان أستيمر رزق بولد ثان · كان مستعدا أن يدفع حياته كلها ثمنا لو عرف ان مثل هذه البشارة يمكن أن تأتيه الآن · وعندما اقترب منه أستيمر ، سلم عليه بحرارة :

ـ السلام عليكم يا حاج ·

ـ وعليكم السلام · من أين أنت قادم يا من كرهك الله ! ـ قال يونس بلهجة عدائية ·

ـ ومن أين تريدني أن آتي ؟ لقد جئت عبر الماء · انني أحرس الحقول ·

ـ متى يعود اليك عقلك ؟ هل ستقضي حياتك ناطورا ؟ أليس لك عين تخجل !

ـ لماذا تقول ذلك يا حاج ؟

ـ لانك تركت القرآن وراء ظهرك ، وانطلقت ناطورا في البراري · بعت كلام الله بحفنة من الذرة الصفراء ، وتجرؤ على الرد علي · كم انت رحيم يا الله عندما تتحمل أعمال هذا الرجل ·

ـ ان القرآن لا ينهى عن زراعة الذرة الصفراء ·

ماذا كنت تحمل عندما كنت في المعهد الديني ، اقرآنا ام عرنوس ذرة صفراء • وفوق كل هذا هجرت المسجد ، يا من هجرتك رحمة الله •
– من يزرع الذرة الصفراء اذا بقي الجميع في المسجد ؟
– يوجد كثيرون غيرك يزرعون الذرة • الرحمة يا الهي ! كيف تحملك الارض التي تقف عليها !
– لماذا تتحامل علي هكذا يا حاج ؟

كان حصان أستيمر على عجلة من أمره ، ففي البيت تنتظره كومة من الحشيش الاخضر • لذلك لم يكن يستطيع ضبطه الا بصعوبة • وعندما شد اللجام ، قفز واقفا على خلفيتيه وهو ينثر الطين •

– كيف يوفقنا الله وأمثالك يعيشون معنا في هذه القرية ، وهل تستحق الولد الذي جاءك اليوم ؟! ان ما تستحقه هو سوط العمدة •

وأفلت زمام غضب الحاج ولم يستطع السيطرة على نفسه • كانت عيناه حمراوين ولحيته ترتجف • ولم يعد أستيمر يستطيع السيطرة على غضبه أيضا •

– ان الله يعرف ما استحقه جيدا • من يستحق ولدا ، يهبه الله ولدا ، ومن لا يستحقه ، لا يهبه • لقد لبست انت عباءة الحجاج ، ولكن قلبك ليس مع الله •
– ماذا تقول يا ابن الارذلة ؟ – قال الحاج وهو يغلي غضبا •
– ما سمعته بالضبط •

وأراد أستيمر ان يتابع سيره ، فأطلق العنان لحصانه • وفي هذه اللحظة رفع الحاج عصاه ، فأجفل الحصان وقفز ملوثا بالطين الذي تناثر من تحت أقدامه عباءة الحاج •
– ثكلتك أمك – قال الحاج وهو يطعن أستيمر بعصاه المدببة • فأمسك أستيمر بالعصا وشدها ، ولكنه لم يستطع أن ينتزعها من يد الحاج لانها كانت معلقة بمعصمه • وانطلق الحصان جارا الحاج على طين الزقاق •

– ياه •• يقتلونني • من حلت عليه لعنة الله يقتلني •

ومع صوت الصياح قفز كلب كبير أشعث من ثقب في السياج وجرى نحو الحاج • وأوقف أستيمر حصانه وقفز عنه ليساعده على الوقوف • ولكن ما أن اقترب منه حتى ضربه على رأسه بالعصا فشجه ، ولولا قبعة اللباد ، لاحدث في رأسه جرحا عميقا بطرف العصا المدببة •
– لا تقترب مني ، سأبقر لك بطنك اذا اقتربت مني – كان الحاج يصيح بأعلى صوته • وعلى صوت نباح الكلب الاول ، تجمعت كلاب الحي واخذت تنبح في الزقاق ، فلم يعد يسمع سوى نباح الكلاب وصياح الحاج • ووقع

المنديل الذي كان الحاج يلفه حول رأسه في الطين ٠ ورغم غضب أستيمر ، فقد كان همه أن يساعد الحاج ، وعندما اقترب منه ضربه الحاج ثانية ٠ فجن جنون استيمر ، وركض الى حصانه ففك لجامه ٠ وأخذ يضرب الحاج باللجام ضربا مبرحا ٠ وجرى الحصان الذي أصبح طليقا الى البيت ٠

ـ آه ، انهم يذبحونني ـ كان الحاج يصيح دون توقف ٠

وتوقف استيمر اخيرا عن الضرب :

ـ خذ ، اربط رأس اليقطين الذي تحمله بين كتفيك ـ قال استيمر وهو يرمي الحاج بمنديله الذي التقطه من الطين ٠

وسار استيمر نحو الدار متعبا ، والدم يسيل من رأسه ٠ ملابسه ملطخة بالطين ٠ وصاح الحاج من خلفه :

ـ سأدبرك يا ابن الكلبة ٠ سأجعلك تستل روحك بيديك ٠ وسأجعل دارك خرابا ٠ لعنة الله عليك يا عديم الايمان بالله ٠

كان استيمر متأكدا من أن الحاج سينتقم منه ٠ وقد ندم على ضربه اياه ٠ انظر الى ما فعلت ، مع ان عائلتي لقبت بـ « الصابرين » وكيف تورطت مع هذا الرجل الباحث عن الشر ؟ لم يدخل استيمر البيت مباشرة ، وانما توجه نحو الساقية التي تجري في مؤخرة البستان الملحق بالدار ٠ وصهل الحصان الذي كان قد سبقه الى الاسطبل لما سمع صوته ٠ وكانت ثمة دجاجات تشرب الماء من الحفر التي امتلأت بمياه المطر ٠ وتدلت بضع ثمرات من التفاح والاجاص من شجيرات حملت قبل الاوان ٠ وأحس استيمر بآلام في جروحه ، فأخذ يبحث بين الحشائش عن نبتة معينة ، وقطف منها بعض الاوراق ٠

لماذا يخيم كل هذا الوجوم على البيت ؟٠ تساءل استيمر ـ ماذا أفعل اذا كان الله قد انتقم مني الآن لما فعلته اليوم ٠ وكيف حال دومسارا يا ترى ؟ ٠

نظف استيمر جرحه ، وأزال آثار الدم والوحل عن وجهه وملابسه ٠ وعندما اتجه الى البيت ، فتحت أمه العجوز الباب ، فجمد استيمر في مكانه ينظرها ٠

ـ أهذا أنت يا أستيمر ؟ ـ سألته الام ٠

ـ نعم ، انا ، ولكن ما كل هذا الوجوم الذي يخيم عليكم ؟

ـ وهل نحن واجمون فقط ٠ لقد انقطعت انفاسنا عندما رأينا حصانك يعود بدونك قبل قليل ٠ تعال أيها الاشعث ٠ تعال ادخل ، عندك ابن ما شاء الله عليه ٠ ألا تسمع صوته ، جعله الله سندا لنا جميعا ، وجعل مجيئه خيرا وبركة لك ، لقد تقدم بي العمر وهرمت « يا تقبرني » ما أسعد الايام التي

سأقضيها وأنا أرعى الصغير ، بدلا من رعي « الحبشات » ٠

وامتلأت عينا الام بالدموع ٠ كان من عادتها رغم تقدمها بالسن ، أن تمضي أيامها جالسة على التلة القريبة ترعى الديكة الرومية ٠ ولكنها كانت قد توقفت عن ذلك في الآونة الاخيرة منذ أن اقترب موعد ولادة دومسارا ٠

ـ يا أمي ! ـ قال أستيمر منفعلا وعانق العجوز ـ ادعي الله ان يوفقني٠
ـ سيوفقك يا صغيري ٠ سيوفقك ٠

## حكاية اوزيزة المسكينة

لكي تترابط الاحداث ، لا بد أن نعود الى قصة الحاج يونس وأستيمر ثانية ، لاننا لا نستطيع أن نتقدم خطوة اخرى ، حتى نعرف سبب هـذا العداء المستحكم بين الرجلين ٠
كان الرجلان جارين ، لم يوجه احدهما الى الآخر كلمة نابية ، ولم يسحب أحدهما يوما خنجره في وجه الاخر ٠ على العكس من ذلك ، فقد كانا أحسن جارين ٠ اذا احتاج احدهما نارا استعار جمرة من بيت الآخر ٠ واذا ذبح احدهما خروفا ، كان يرسل لجاره الرأس ونصف الظهر ٠
ولما كان الجميع يعرفون طباع الحاج يونس ، فقد كانوا يتحاشون الاحتكاك به ، واغضابه ٠ أما زوجته ، فكل من يراها كان يتساءل : « ما الذي جمع بين هذين المخلوقين » فهي امرأة مهذبة وجميلة ، شعرها الاسود يسترسل وراء ظهرها كالبرنس ٠ وهي دائمة الابتسام والبشاشة ٠ تنفذ جميع رغبات زوجها ، حلوة المعشر مع زوجها ومع الجيران ٠ ولم يسمع منها أحد قط كلمة فظة ٠

ـ لا تلد ، انها مثل الجفنة الفارغة ، ليس لي من يرثني بعد موتي ٠
ـ الله تعالى يعرف ، انني امرأة طبيعية ـ تقول أوزيزة وهي في غاية الحزن لانها لم ترزق بولد ٠ كانت على استعداد لتحمل اي شيء في سبيل أن ترزق بطفل ٠ وقد جربت اصنافا من الطب والادوية والوصفات لاجل ذلك٠ ولم يبق « حكيم ، اوحكيمة » في الارجاء الا ولجأت اليه ٠ وقد نفذت كل ما قيل لها وما وصف لها ماعدا وصفة واحدة « اتخذي عشيقا » ٠

كان يونس في البداية يعتقد أن الله لم يرزقه بولد عقابا له على الذنوب التي اقترفها ٠ لذلك فكر انه اذا حج الى بيت الله ، فسيغفر الله ذنوبه ويرزقه بولد يكون عمودا لبيته ٠ وبعد أن عاد من مكة بقي عامين وهو يأمل وينتظر الوريث ٠ ولكنه بعد العامين قطع الامل ٠
أما أوزيزة فكانت تتحمل من زوجها كل شيء ٠ ولم تكن تعارضه ، او

نجادله في شيء خشية أن يطلقها • ويمكن القول أنها لم تكن تخطو خطوة واحدة ، بل لم تكن تتنفس دون مشورته •

واستمرت الحال هكذا حتى مرضت مرضا شديدا ، وبدأت هذه المرأة الجميلة الموفورة صحة تذوب وتذوي تحت الابصار • وبدأ وجهها الجميل ينتفخ ويزداد شحوبا ، وحركاتها تتثاقل وتزداد كسلا • فكرت بادىء الامر أن ذلك من عوارض الحمل وفرحت ، ولكن الامر لم يكن كما ظنت • وكان الحاج كلما رأى زوجته وهي على هذه الحالة يبتسم من الفرح • « ان ذهابي الى الحج لم يكن سدى ، والاموال التي خسرتها في سبيل ذلك لم تضع عبثا » وبعد أن عجزت أوزيزة عن العمل والحركة ورقدت في الفراش ، لم يصدق أنها مريضة ، ولم تكن هي قد أخبرته بما تعاني من آلام •

ويوما بعد يوم كان مرضها يتفاقم ، وجسمها يتورم • وفي النهاية أصبحت عاجزة عن العمل ، وفقدت الاحساس بجسمها • وذات يوم كانت ترقع جرابا وهي تجلس في فراشها فوخزت نفسها دون أن تنتبه ، وعندما سحبت الابرة ، رأت سائلا أبيض يسيل من مكان الوخزة بدل الدم ، فارتاعت لذلك واخذت تقرص جسمها وتفركه ، ولكنها لم تحس بشيء ، وكأنها تفرك جسم انسان آخر • فازداد ارتياعها وبقيت تبكي في فراشها مدة طويلة دون أن تتحرك •

وفي المساء عاد الحاج ، وبينما كان يوقد النار التي أوشكت على الانطفاء ، سمع صوت بكاء زوجته • كانت راقدة على ظهرها وقد جمدت عيناها على السقف • وكلما شهقت اهتز بطنها المنتفخ تحت اللحاف •

كان يونس قد يئس تماما بعد الأمل الذي داعبه اثر مرضها الاخير • وها هو الآن يجلس أمام الموقد باستسلام ، وقد نبش من بين الرماد بضع جمرات ، وانتقى قطعا رقيقة من كسارة الحطب وأسندها ببعضها حول الجمر وكأنه يبني خيمة صغيرة ، ثم أخذ ينفخ فيها بهدوء وبطء شديدين، فتصاعد دخان خفيف بادىء الامر ثم اشتعلت قطع الحطب الجافة فجأة فأنارت لحيته المشعثة وأنفه الحاد الطويل ، وحاجبيه اللذين بدأ الشيب يغزوهما •

ـ يا حاج ، أرجو ان يجمعنا الله يوم القيامة بوجوه بيضاء ـ قالت أوزيزة ـ لقد انتهت رحلتي القصيرة في هذه الدنيا •

ـ لا تقنطي من رحمة الله يا امرأة ـ قال يونس •

ـ سأعترف أمام الله أنني لم استطع ان أخلف لك ولدا •

ـ لا تدعي الشيطان يغلبك يا امرأة ، ان الله هو الذي لم يرزقنا بولد، جلت حكمته •

ـ لم أجلب لك عارا ، لقد حافظت على شرفك •

ولما أدرك خطورة حالتها ، أحضر لها يونس الامام ليعالجها ويكتب لها

بعض الحجب • وفوجيء سعيد لما رأى أوزيزة • كانت المرأة الجميلة التي عرفها من قبل ، غير هذه التي ترقد في الفراش • ولم يكن قد بقي من جمالها سوى شعرها الاسود الذي غطى الوسادة ، فلم يستطع النظر اليها لشدة تأثره •

ـ أرجو لك الشفاء يا أخت ، كان الله في عونك ـ قال الشيخ وهو يجلس على كرسي بدون مسند قرب الحاج •

ـ فليشملك الله بلطفه يا شيخ •

واستدارت أوزيزة برأسها نحو الامام وأخذت تنظر اليه بعينيها الكابيتين وكأنها تقول له « أنقذني من هذا المرض ، ولا تدعني أموت ان كانت لديك وسيلة لذلك » وفهم سعيد هذه النظرة ولم يعد يقوى على البقاء فوق كرسيه • فاقترب من المريضة وأخذ يتمتم ببعض الادعية ويكور شفتيه مثل الكعكة وينفخ عليها • كان عدد من أسنانه الصفراء منخورا ؛ لذلك كانت رائحة أنفاسه كريهة بشكل لا يطاق • ومع ذلك تحملت أوزيزة هذه الرائحة حتى لا تجرح شعور الامام ، وبقي يونس واقفا عند الباب وهو يضع يديه فوق بطنه حتى انتهى الامام من أدعيته •

الله أعلم بماذا كان يفكر طوال هذه المدة ، ربما عادت به الذاكرة الى تلك المريضة التي صادفها في طريقه الى الحج بين مكة والمدينة • وكان قد روى أكثر من مرة كيف أن زوج المريضة لف زوجته بجلد ثور أسود طري وخاطه حولها حتى طرد الشيطان من جسدها • حدث ذلك في قرية صغيرة بات فيها يونس وصحبه ليلة أثناء ادائه فريضة الحج • وبعد أن أنهى الامام علاجه ، قرب كرسيه نحو الموقد محاولا الدخول في أحاديث اخرى مع الحاج ، ولكنهما لم يجدا موضوعا يطرقانه في هذه الامسية رغم أنهما كانا يتصرفان وكأنهما يعرفان كل شيء عن أي شيء • ولما وجد الشيخ سعيد جو السهرة ثقيلا قام لينصرف وهو يقول « سأكتب لك الحجاب غدا » وقام معه الحاج يونس يوصله الى الباب وهو يشكره •

ـ لقد مسها جني ، هذا هو مرضها ، كان الله في عونها ـ قال الشيخ •

ـ هذا ما كنت أظنه ـ قال الحاج يونس وهو يفكر تفكيرا عميقا ـ ان جنيا فقط يمكن أن يوصلها الى الحالة التي وصلت اليها •

ـ ان الامراض الناشئة عن الجن والشياطين صعبة للغاية ، وشفاؤها ليس سهلا ، كما أن هنالك احتمالا بأن ينتقل المرض الى الرأس ـ وافتعل الشيخ سعالا حتى لا يصرح بما خطر له في هذه اللحظة ، وبعد قليل أضاف ـ سأكتب لك الحجاب غدا ، أرجو أن تخيط حوله قطعة من الجلد وتعلقه في عنق المريضة • ان الشياطين تخاف من الحجب كثيرا •

ـ استودعك الله ، سآتيك صباح غد بعد صلاة الفجر •

ـ هذا ضروري جدا •

وبعد أن اختفى الشيخ في عتمة الليل ، بقي الحاج فترة يحدق في الظلمة وراءه ثم أغلق باب الدار ، وعاد متثاقلا وكأنه يعد خطاه او يقيس المسافة بين باب الدار والبيت • وتحرش كلبهم العجوز به وقد ضمر كثيرا بعد مرض ربة البيت ، وكأنه يسأله ، متى تشفى السيدة لتطعمني ، ولكن الحاج كان في واد آخر فلم يلق بالا للكلب •

لم تشف أدعية الشيخ ولا حجبه اوزيزة من مرضها • فلجأ الحاج الى العجوز تشاتشا التي كانت معروفة بمزاولتها للحكمة والطب • كانت عجوزا عجفاء ، بشرتها أقرب الى السواد • وكان وجهها بأنفها الكبير وشاربيها النابتين فوق شفتها العليا ، والخال البارز الذي نبتت فيه شعيرات طويلة على ذقنها ، أقرب الى وجوه الرجال • وكان شكلها الاجمالي اقرب الى فزاعة الحقول • تضع يديها دائما تحت منديلها الاسود حيث تخبىء أدويتها ، وما يقدم اليها من نقود • وما أن وصلت حتى بدأت تتمتم بأدعية غير مفهومة •

ـ يا حبيبتي الغالية • أي مرض خبيث هذا الذي أصابك • اطمئني يا صغيرتي ، سأشفيك • لا بد أن يفيدك دوائي هذا ، فقد أفاد الجميع •

واخذت تتفحص المريضة وكأنها تقول لنفسها « ماذا سيقدمون لي اذا شفيتها » مع أنها كانت تعلم أن تعبها لن يضيع حتى ولو لم تستطع شفاءها ، ومع ذلك فان أجرة الشفاء اقرب الى النفس •

ـ أطال الله في عمرك ، انك ترين كل شيء ـ قالت أوزيزة بصعوبة •

ـ ان مرضك من النوع الذي يمكن شفاؤه • ان نفس هذا المرض أصاب زوجة النبيل « طالب » وشفيتها منه • كما أصاب ابنة البائع المتجول « فيتسه » فكان دوائي ـ بعد الله ـ هو السبب في شفائها • ـ وجلست تشاتشا وهي تتكلم على طرف سرير المريضة بتردد وكأنها تخشى أن توخزها ابرة ما •

ـ لا يؤلمني شيء محدد ، ومع ذلك لم تبق لدي أية قوة ، ان الله وحده هو الذي يعلم ، ولكنني اظن أن أجلي قد حان •

ـ لقد سمحت للمرض بأن يتغلغل الى جسدك يا صغيرتي • لماذا لم تخبريني من قبل ، كيف تحملين نفسك فوق طاقتها ؟ ان بيتي ليس بعيدا ، وكل من يحتاجني يجدني •

ـ لم أعرف ان المرض سيتطور بهذا الشكل • لقد حاول الحاج أكثر من مرة أن يستدعيك ، ولكنني منعته من ذلك • لقد ندمت الآن ، ولكن ما الفائدة ، لم تبق لدي أية قوة •

وأخذت تشاتشا تروي الاخبار للمريضة لتسليتها او ربما لاشياء

اخرى • اخبرتها اولا عن المريضة التي كانت على شفا الموت ، وكيف أرسلوا في طلبها هي وعالجتها حتى شفتها ولم تنس ان تروي كيف أعطوها خروفا ثمنا للادوية التي قدمتها • ولم تستطع ان تمنع نفسها من رواية قصة ذلك الرجل الذي وضعت زوجته بعد خمسة اشهر فقط من زواجه بها • وكيف ان والد الفتاة ، بعد أن عرف بالقصة رد مهرها كاملا حتى لا يطردوا ابنته ويجلبوا العار له • وكان واضحا أن القصة التي أحبت روايتها أكثر من أية قصة أخرى ، والتي مطمطت في روايتها ، هي قصة تلك المرأة التي اتخذت عشيقا • ورغم انها تظاهرت باستهجانها ، فانها لم تعتبر ذلك عملا في غير محله • ماذا كان بامكانها ان تفعل غير ذلك • كانت امرأة كاملة ، بينما زوجها هو العقيم • وهل تمضي حياتها وهي تشتاق الى الاطفال ؟ عندما كان زوجها يذهب الى الغابة او الى الحقول البعيدة ، فيضطره العمل الى المبيت خارج الدار ، كانت تستدعي جارها للمبيت عندها • وقد منحها الله الآن طفلا كالملائكة ، جميلا وكأنه ضوء الشمس • ثم خفضت صوتها وأخبرتها كيف كانت تتظاهر بمعالجة تلك المرأة حتى لا يشك زوجها في الموضوع • « وأخيرا اشترى لي الزوج الذي وجد طفلا يحمل اسم عائلته منديلا كبيرا مكافأة لي » وضحكت تشاتشا ، فظهر السنان اليتيمان الباقيان في فمها •

كانت العجوز ستحكي المزيد من القصص ، لو لم تسمع صوت دخول الحاج الى البيت ، فاختصرت ولملمت الحديث • ثم تظاهرت بالوقوف احتراما وقالت كأنها تعاتبه :

ـ لقد تعبنا ونحن بانتظارك • ان أوزيزة تتحمل من العذاب ما لا طاقة لها به • تعال وأجلس العروس ـ قالت تشاتشا وذهبت الى الغرفة الاخرى•

ـ سنتحمل كل ما يأتينا من عند الله • ـ قال الحاج ووضع يده تحت كتفي المريضة المتورمتين وأجلسها ، ثم وضع وسادة خلفها واسند ظهرها الى الوسادة • وعادت تشاتشا وهي تحمل صحنا من التوتياء فيه كومة من قطع الجمر الصغيرة • وضعت الطبيبة الصحن بجانب السرير وأخذت تتمتم ببعض الادعية وهي تغطي المريضة بلبادة كبيرة • وكان « الدواء » الذي وضعته فوق الجمر مع قليل من الصوف ، بلون التراب ، وبدأت تبخرها به • وأخذ الدواء يحترق بدون لهب ناشرا دخانا كثيفا طيب الرائحة • وكانت أوزيزة صابرة رغم كل ما تلقاه من عناء فوق مرضها ، وتنفذ كل ما يطلب منها • ولكن الدخان تكاثر تحت اللباد بشكل لم تعد تقوى على احتماله ، ولم تعد تستطيع التنفس معه • وبعد قليل شعرت انها على وشك ان يغمى عليها ولم تستطع أن تصرخ ، فأخذت تبحث عن ممسك للباد حتى ترفعه من فوق رأسها ولكن قوتها لم تكن كافية لذلك ، لان تشاتشا كانت تمسك باللباد •

وأخيرا استجمعت كل ما تبقى لديها من قوة لتقول :

ـ هذا يكفي ، انني اختنق ٠
ـ أصبري قليلا يا عزيزتي ، سيشفيك ذلك بشكل اسرع ـ قالت تشاتشا وهي تبعثر الجمرات فازدادت كثافة الدخان ٠
ـ من أجل الله ٠٠٠ ـ قالت أوزيزة بآخر ما لديها من جهد ، ثم أغمي عليها ٠ وعندما سحبت تشاتشا اللبادة عنها امتلأت الغرفة بالدخان الذي كان محتبسا تحتها ٠ وظهر وجه المريضة في منتهى الشحوب ، ولم يكن يبدو عليها أي اثر للحياة ٠ فأعاد الحاج رأسها الى الوسادة في منتهى الحذر ، وعندما سمعت تشاتشا نهنهة الحاج الذي ظن ان زوجته فارقت الحياة ، قالت تطيب خاطره :

ـ ما عليش يا حاج ، سوف تتحسن ٠

أعادت الطبيبة الصحن إلى الغرفة الاخرى ، ثم عادت وفتحت النافذة والباب ٠ وجلس الحاج يحملق في المريضة منتظرا أن تفيق من غيبوبتها ، ولكن أوزيزة كانت ترقد كالجثة دون حراك ٠
وفي اليوم التالي ، عندما أفاقت اوزيزة ، وفتحت عينيها على عيني تشاتشا اللتين كانتا تحملقان فيها كعيني غراب ، خافت من أن تبخرها مرة أخرى فيغمى عليها فقالت مستعطفة :

ـ اتركوني ، أرجوكم ، دعوني أموت بسلام ٠

وأخذت تشاتشا تزورها كل يوم ، وفي كل يوم كانت تأتي وهي تمسك تحت منديلها بدواء جديد ٠ ولكن المريضة لم تكن لتتحسن ، بل كان مرضها يزداد ويستفحل يوما بعد يوم ٠ وأيقنت تشاتشا أنها لا تستطيع ان تنفع المريضة بشيء ، فتباعدت أوقات زيارتها تدريجيا متذرعة بحجج مختلفة ، ثم انقطعت نهائيا ٠

وعندما رأى الحاج يونس ان الامور لا تسير على ما يرام ، قرر أن يعالجها بنفسه ٠ فحزم أمره ، وألقى بأكسل ثوريه أرضا وذبحه بمساعدة أحد الجيران ، ثم سلخه بعناية وغسل الجلد وأحضره الى البيت ٠ نحى زوجته جانبا ونشر الجلد على السرير ٠ ثم أرقد زوجته وهي بملابسها الداخلية فوق الجلد وقمطها به كما يقمط الاطفال وخاطه حولها باحكام بخيط جلدي رفيع ، ثم غطاها بلحاف دافيء ٠ وأرسل حصة كبيرة من لحم الثور الى الشيخ ، ووزع الاضلاع وبقية الثور على الفقراء والمساكين في القرية ٠

ـ لقد جربنا كل علاج معروف دون طائل ، ولم يبق الا العلاج الذي أعرفه أنا ـ قال يونس وهو يجلس بجانب زوجته يغمره شعور بالارتياح ٠
ـ افعل ما شئت ، لقد انتهى الامر ولن يفيدني شيء ٠ ـ قالت أوزيزة

وهي تنظر الى زوجها منشرحة وقد سلمت بمصيرها • دون أن يخطر ببالها ما ينتظرها من عذاب •

أخذ الجلد يلتصق ببشرتها تدريجيا ، ولم تعد تطيق رائحة الدم والبول المنبعثة منه والتي تجعلها تحس بالدوار وتحرمها من متعة التنفس • وبدأت بشرتها تحكها كلما ازداد التصاق جلد الثور الرطب بها ، ولكنها لم تكن تستطيع الوصول الى مكان الحكة حتى تريح نفسها • حاولت ان تتقلب على جنبيها حتى تعالج هذه الحكة ، لكنها لم تستطع فبقيت جامدة في مكانها رغما عنها • وكلما جف الجلد وتقلص حول جسد المريضة المنتفخ ، كانت آلامها تزداد • ولم يكن يبدو على الحاج أنه ينوي فك وثاقها • وقد صبرت وتحملت حتى المساء ؛ ولكن الجلد الذي كان يجف ويتقلص بسرعة تحت اللحاف الدافيء ، سبب لها آلاما لا تطاق ولم تعد تقوى على التحمل ، فاستعطفت الحاج ان يستدعي لها أحد الناس ، ولكنه لم يقبل أن ينادي حتى أقرب الجيران •

وبقيت أوزيزة تبكي وتستعطف وتئن طوال الليل ، ثم غابت عن الوعي وأخذت تهذي بكلام غير مفهوم • كان واضحا انها تعاني من عذاب فوق طاقة احتمال الانسان • وقبيل الفجر عاد اليها وعيها وسمعها الحاج تقول :

ـ يا الهي ، ماذا جنيت بحقك ، لماذا لا تقبض روحي وتخلصني من هذا العذاب • كانت تشعر الآن وكأن قالبا حديديا قد صب حولها فلم تعد قادرة على أية حركة • « الآن سيغمى على الجني الاسود فتتحرر المريضة منه » • هذا ما كان يفكر به الحاج •

ـ اصبري قليلا ولا تدعي هذا الجني الكافر يتغلب عليك ـ هذا ما كان يردده الحاج دون توقف جوابا على كل تأوهات وتوسلات المريضة • ولكن المريضة لم تكن تعي ما يقول • كانت ترقد ووجهها شاحب شحوب الاموات•

وعندما جاءت بعض النسوة وعلى رأسهن دومسارا في الصباح ، كانت المريضة في الرمق الاخير • ورغم الدوار الذي في رأسها والغشاوة التي على عينيها ، فقد أحست بأن بعض الناس دخلوا الى البيت ، فقالت بصوت لا يكاد يسمع :

ـ دعوني أتنفس ولو مرة واحدة • مرة واحدة فقط دعوني أتنفس •• يا حاج ، انني أنام في قبر ، اذا كنت مسلما •• أعطني فرصة واحدة لاتنفس •

ـ أيتها المسكينة ، كم أنت شاحبة ـ قالت دومسارا وهي تقترب من المريضة وتمسح على جبينها • ولم تكن قد عرفت الى الآن مصدر رائحة البول • وعندما انتبهت الى جلد الثور ، احتدت فجأة •

ـ يا الهي ، ما هذا الشيء العجيب الذي أراه ؟ ـ قالت وهي تزيح اللحاف •

ـ يا ويلتاه · انك تقتلها يا حاج ؛هذا حرام ·كيف يقبل الله منك حجتك وأنت تعذب انسانا بهذا الشكل ؟ أضافت دومسارا وهي تؤنب يونس ·
ـ لا تتدخلن فيما لا يعنيكن ـ قال الحاج رافضا اي احتجاج ·
ورددت النسوة بأصوات متداخلة :

ـ يا حرام ، يا مسكينة ·
ـ عيب هذا · هذا عيب يا حاج ·
ـ لا تظلمها اطلق سراحها · لقد فقدت المسكينة وعيها ·
ـ فليأخذني الله اليه · ماذا تقول ! أليس في قلبك مكان للرحمة ؟ ·
ـ كلنا سنموت · لا تعذب زوجتك المسكينة ·
ـ ستحل كارثة ، هيا بنا ، لا بد أن نجد من يقدر عليك ـ قالت دومسارا باكية وهي في منتهى الغضب · وخرجت والنسوة من ورائها ـ والله ان ندع المرأة المسكينة تموت ونحن ننظر اليها ·
ـ ان الله الذي خلقنا يرانا ، هيا بنا · ـ قالت امرأة اخرى ·
ـ يا أوزيزة المسكينة ، ما أتعسك أيتها الجميلة !
ـ اذهبن ، أريد أن تذهبن الى حيث ذهب أبي · هل سمعتن ؟ ـ صاح الحاج وقد تأجج من الغضب ·
ـ أذهب انت الى حيث ذهب ابوك ، لن يسامحك الله على هذا الظلم ـ قالت دومسارا وهي تخرج من الباب دون أن تلتفت ·
وقف الحاج يراقب النسوة وهن يخرجن ، كان واضحا أنهن لم يغادرن الدار بسلام بهذه السهولة ، وأن في نيتهن العودة · وكان الحاج وقد أصابته احدى نوبات العناد ، لا ينوي ان يتراجع أمامهن ، ولا أن يفك جلد الثور عن المريضة ·
« هؤلاء النسوة نوين أمرا » ـ قال الحاج لنفسه وأغلق الباب ، وقد قرر أن لا يسمح لاحد بالدخول · كانت دومسارا تضر اكثر مما تنفع في نظر الحاج · وهل ذبح الثور عبثا ؟ واذا فك جلد الثور عن المريضة الآن ، الا يمكن أن يقضي الجني الاسود عليها ! لا ، لا يمكن أن يتراجع · اذا كان لجلد الثور أية فائدة ، فيجب أن ينتظر حتى تتحقق هذه الفائدة ·
حاول يونس تمضية الوقت بصنع سلة من القضبان ، ولكن القضبان اخذت تتكسر بين يديه · وجلس يراقب البوابة باستمرار ، فرأى النسوة عائدات وأمامهن رجلان · ولا مفر الآن من الصدام مع هذين الرجلين « لماذا لا يتركونني وشأني » ـ قال يونس لنفسه وهو يحدق في القادمين ، ولا يدري ماذا يفعل · كان أحد الرجلين أستيمر والآخر يلدار ، والنسوة الثلاث وراءهما واحدة بعد الاخرى وهن يتكلمن دون انقطاع ·

ـ ماذا تريدون ؟ لماذا لا تتركونني وشأني ، هل قتلت آباءكم أنا ؟ ـ قال يونس وهو يسد الطريق أمام القادمين ·

ـ ادخلوا وانظروا الى تلك المسكينة ، ان في قلوب الكلاب شفقة ورحمة اكثر مما في قلب يونس ـ قالت دومسارا متجاهلة كلامه ٠

ـ كيف يرضى الله بذلك ! لا بد أن تأخذك صاعقة يا حاج ٠ يا الهي ، تلك المسكينة ٠٠!

ـ لن اسمح لكم بالدخول ٠ عم تبحثون ! ابتعدوا ٠٠٠ هيا ٠٠ قلت لكم ابتعدوا ـ قال الحاج متوترا ٠

ـ يقول ابتعدوا ٠! مع كل ما رأيناه ، يقول ابتعدوا ٠٠! يا الهي ، يا حاج !!

ـ ابتعدووا ٠٠٠!

ـ صبرا يا حاج ٠ تمالك نفسك يا حاج ، لن نؤذيها ٠ ـ قال أستيمر وهو يحاول الدخول ٠

ـ لا تخربوا بيتي ٠٠ لا تخربوا بيتي ٠٠٠

ـ دعنا نلقي نظرة عليها ، لن نلمسها ـ قال يلدار ٠ وبينما كان الرجال منهمكين في الجدال ، تسللت النسوة الى البيت ٠ كانت أوزيزة تتنفس الآن ببطء شديد لا يكاد يلحظ ٠ وكان تنفسها يتوقف لحظة تبدو معها أنها فارقت الحياة ٠ وأخذت النسوة تراقبنها بقلق شديد ٠ وسمع صوت دومسارا الآسي من الداخل مستغيثا :

ـ انها تموت ٠٠ انها تموت ٠٠

ـ آه يا أوزيزة المسكينة ٠٠٠

وعندما سمع استيمر اصوات النسوة ، خلص نفسه من الحاج واندفع الى الغرفة وهو يقول :

ـ أمسك به جيدا ولا تدعه يفلت منك ٠ وأمسك يلدار بالحاج بين ذراعيه القويتين ، فأخذ يهدد محاولا تخليص نفسه دون جدوى ٠ واستل أستيمر خنجره الحاد الطويل بسرعة ، وألقى باللحاف من فوق أوزيزة وقطع الخيط الجلدي الذي يمسك بجلد الثور حولها ، وترك الباقي للنسوة عائدا الى المدخل حيث كان الحاج ما يزال يحاول الخلاص من قبضة الشاب ٠ ولما رآه فهم ما حدث ٠ وبعد لحظة أخرجت دومسارا جلد الثور الذي كان قد جف تماما حول المريضة آخذا شكل حوض ، وألقت به أمام الرجال وهي تقول :

ـ فليطمئن قلبك الآن يا حاج ٠٠ لقد ماتت ٠

ـ ماذا قلت ٠٠؟

ـ لن يسامحك الله ٠٠

ـ لقد خربتم بيتي ٠ ـ قال الحاج وهو يندفع الى الغرفة ٠ كانت زوجته مستلقية دون حراك ٠ فعاد نحو المدخل وكأنه قد نسي شيئا ٠ ولكنه رجع مرة اخرى الى الغرفة وكأن مسا أصابه ، ثم تهافت أمام الجثة ، كانت أوزيزة ترقد بسلام وكأنها ستفتح عينيها بعد قليل لترجو الحاج ان يسوي

الوسادة تحت رأسها •

ـ لقد غادرتنا لتلقى وجه ربها ـ قالت دومسارا باكية ، واقتربت من الميتة وغطت وجهها باللحاف •

ـ أنت الذي خربت بيتي يا ابن الارملة ـ قال الحاج موجها كلامه الى استيمر ـ لن أغفر لك ، لن اغفر لك حتى أموت •

وفي اليوم التالي دفنوا أوزيزة • ومنذ ذلك الحين استحكم العداء بين الحاج يونس واستيمر •

## قـــرار المسنين

اجتمع المصلون يوم الجمعة مبكرين • وامتلأ حرم المسجد المحاط بسور حجري بالناس • كان موضوع الاجتماع في ذلك اليوم مثيرا بالنسبة للكثيرين• فأخذوا ينظرون الى بعضهم بعضا متساءلين عن موعد وصول المتخاصمين• وكان مسنون ذوو لحى بيضاء يتوضؤون بماء الساقية الصغيرة الفاتر ،والتي تجري بالقرب من الجامع ، وقد رفعوا أطراف سراويلهم • وأخذوا يغطسون أرجلهم في الماء ، ويبللون أحذيتهم الجافة ببطء شديد وكأنهم يقومون بعمل جليل ، غير عابئين بأشعة شمس الصيف الحادة •

ـ « ذو الحظ السيء ، يعضه الكلب ولو كان راكبا على جمل » ـ قالَ اسحق وهو يقف متوكئا على عصاه ليتوجه الى الجامع •

ـ هذا صحيح كل شيء بيد الله ـ قال موسى وهو يتبعه •

وكان عدد من الثرثارين الذين تقاعدوا عن العمل لان أولادهم قد كبروا ، وان لم يتقدموا في السن ، جالسين على طول شرفة المسجد وهم يتجادلون • مسعود الذي هو أكثرهم عصبية ، كان يقف بين فينة وأخرى ويقول شيئا وهو يقسم الايمان المغلظة • نورعلي ، كان يضع الحق على الناطور • وكان الجميع يرقبون وصول الحاج يونس والناطور • « اذا التقى الاثنان في طريقهما الى الجامع ، سوف يتقاتلان مرة اخرى » ـ قال أحدهم مازحا • كانت البوابة الخارجية للمسجد مصنوعة من شبك حديدي ، ولم يكونوا يغلقون هذه البوابة أبدا • وعندما اجتازها الحاج يونس ، وقفوا جميعا باحترام ما كانوا قادرين على اظهار المزيد منه ، لو ان النبي نفسه اجتاز هذه البوابة الآن •

بالرغم من أن الحاج يونس يعتبر نفسه من أشد الناس تدينا ، فانه لم يكن يجهلُ كتاب الله فقط ، بل لم يكن يعرف فيما اذا كانت الالف مثلُ العصا أم لا • وعندما يقف ليصلي في المسجد ، كان يحرك شفتيه موحيا

بانه يقرأ ٠ وأحيانا ينظر الى الاعلى مقربا ما بين عينيه ويبقى لحظـات كذلك ، ثم يمسح وجهه المغطى بلحية كثيفة بيديه السمراوين ٠

ها هو يدخل الآن فناء المسجد متخذا سحة الشهداء الذين تلقوا كـل عذاب الدنيا من أجل دينهم ، المستعدين دوما للتضحية بأرواحهم في سبيل عقيدتهم ٠ كانت عباءته الزرقات ما زالت ملطخة بالوحل ، ولم يكن قـد غسل آثار الدم عن جبينه وأنفه ٠ وعندما رآه الناس بهذه الصورة ، غضب البعض ، واشفق عليه البعض الآخر ٠

ـ في أي مكان أصابك ذلك الشرير بهذه الجروح يا حاج ؟ ـ سـأل بتوقة ذو الساقين الرفيعتين ٠

ـ الجرح ليس مهما ، طوبى لمن يتحمل العذاب من أجل دينه ٠ ولكـن الذي يزعجني هو أن ذلك اللعين قد لوث ملابس الحج التي جئت بها من مكة المكرمة بالروث ٠ هذا هو المهم ٠ قال الحاج متظاهرا بأن الوقوف يزعجه ، ثم وهو يجلس في مكان مريح بتثاقل متكئا على عصاه بعد أن جعـل صاحب المكان يفسح له ٠

ـ آي ٠٠ آي ٠٠ آي ٠٠ ـ قال موسى وهو يحرك رأسه ذات اليمين وذات اليسار ـ فليعاقبك الله يا أستيمر ٠

لم يكن موسى يملك الكثير ، بضع مئات من رؤوس الغنم ، وحوالـي عشرة رؤوس من الخيل والثيران ولكنه كان متأنقا في ملبسه ، مقتصدا في مصروفه ٠ولم يكن ليتخلى عن أناقته ولو على حساب طعامه ٠ وكان يجعل زوجته الجميلة التي هي محط انظار الجميع تتأنق أيضا ٠ ولم يكن أحد فـي القرية يحمل خنجرا في جمال خنجره ، ولا يملك أحد عربة في سرعة عربته ٠

ـ من يقبل أن يدفن في المقبرة التي يرقد فيها مثل هذا اللعين ٠! انـه ليس انسانا ، انه ابليس بعينه ٠ من يصدق أن مثله يحمل كتاب اللـه ؟ أليس واضحا للعيان أنه مارق ؟ ـ كان الحاج يبربر ٠

ورأى المجتمعون الشيخ قادما ٠ كانت ازرار المعطف الشركسي الـذي يرتديه مفككة يظهر منها قميصه الابيض ٠ وكانت الزخارف التي تزيـن حزامه مطلية بالذهب ، ولحيته السوداء بدأ الشيب يغزوها ٠ كان يسيـر الهوينى برصانة وتثاقل ٠ وعندما وصل الى البوابة مرر عصاه الى قضبانها الحديدية كمألوف عادته محدثا صوتا يشبه الرنين لينبه الحاضرين الـى قدومه ٠ وكانت تلك الحركة خاصة به فقط ، ويعتبر الآخرون أنه من غـير اللائق مشاركته بها ٠

ـ السلام عليكم ـ قالَ الشيخ محييا الجميع دون توقف واتجه مباشرة الى شرفة الجامع ٠

ـ وعليكم السلام ـ قالَ الآخرون وتبعوه في جماعة كبيرة ٠

صعد الشيخ الى الشرفة الطويلة ، وبدأ كلامه وهو يمسك بأحد الاعمدة الكثيرة التي تنتصب في واجهة الشرفة :

ـ أدعو الى الله أن يغفر لنا ذنوبنا ، وان لا يؤاخذنا على اخطائنا ·· انه هو تعالى يرى : المذنب هو من ترك كتاب الله وتبع المسيحيين الكفار، اللهم صب لعنتك عليهم يا رب ·

ـ اللهم آمين ـ قال عدد كبير بصوت واحد ·

ـ انشاء الله ···

ـ فليستجب الله لدعائك ·

ـ ما دمنا جميعا مسلمين ، فكيف نعالج الامر ؟ ماذا نفعل بمن لوث عباءة الحاج الذي حباه الله فحج الى بيته ؟ بماذا نحكم على من جعل دين الله وراء ظهره دون أن نوقع به ظلما ·

ـ سنطرده من الجامع ، ونحيل الامر الى المحكمة ـ قال الحاج بلهجة قاطعة ـ كيف يقبل الله صلاتنا وهو يدنس الجامع بقدمه الوسخة ! كيف لا ينتقض وضوءك اذا صافحت اليد التي تخلت عن القرآن !· سنطرده وننبذه ، ونلعنه حين نلقاه ، هذا ما يستحقه · واذا لم نفعل ذلك ، فسوف يؤاخذنا الله ·

أخذ الناس ينظرون الى الارض ، ولم ينبس أحد بكلمة · وكان الشيخ يفرك عينيه بأصابع معقوفة ماسحا الدموع التي شوشت نظره ·

ـ « من حفر حفرة لاخيه وقع فيها » ـ قال الحاج منهيا كلامه ·

ـ هذا صحيح ، ولكن لا نجوز أن نلقي في الحفرة بانسان لم يحن أجله بعد ـ قال اسحق معترضا ·

ـ من يدلي برأيه ايضا ؟ ـ سأل الشيخ ـ دعونا نتشاور حتى لا نقع في الخطأ ·

ـ هل تسمح لي بكلمة ؟ ـ سأل بلاتسة ـ ليس من أجل صلة القربى بيني وبين الذي نتكلم عنه · ولكنني لا أرى من العدل أن نطرد مسلما من الجامع ونحرمه من الدخول اليه · الامر كما ترون ، ولن يعترض أحد على قرار المسنين · ومع ذلك ، فانكم اذا ألقيتم بالمخطىء الى الشارع ، فسيزداد خطأ · اذا حرمتم من جعل الدين ظاهر يده فانكم كمن يقطع ذيل الذئب ويرسله الى الغابة ·

ـ أليس هو ذئبا ؟ عندما يمسك بالحاج وينزل به ضربا مبرحا ، أليس ذئبا أكثر من الذئب ؟ ـ قال موسى من مكانه تحت ظل شجرة ·

ـ دع بلاتسه يكمل كلامه ·!

ـ كيف ينظر بلاتسه الى الامر ؟ أيريد منا أن نتحمل كل ما يفعلونه بنا ! ـ قال الحاج غاضبا ·

ـ أنا أفكر هكذا ·· ـ قال رجل من بين الجمع ذو رقبة طويلة ورفيعة

وعلى رأسه الذي يشبه « الدبسة » قبعة من اللباد ، مسترخيـــة كأوراق خضراء محرومة من الماء ٠ ـ كان ذلك مسعود ٠

ـ وهل أنت أيضا تفكر ؟

سكت مسعود متهيبا ٠

ـ من حمله الله كتابه ، كيف نأخذه نحن منه ٠

ـ لم نر في حياتنا صديقين أصدق لبعضهما منهما ـ قال بلاسته نافذ الصبر ـ والآن أصبحا ككلبين يتنازعان على قطعة عظم واحدة ٠

ـ اصبحا كذلك بعد أن ماتت زوجة الحاج ، فليوسع الله في آخرتها ـ قال العجوز اسحق متدخلا في الحديث مرة أخرى ٠

ـ ان اسحق يرسل قطته لتخرمش جرحي ـ قال الحاج وهو يقفز مـــن مجلسه ـ بأمر من الله تعالى فارقت من يتكلم عنها اسحق الحياة ٠ ولكن من الذي كان سببا في ذلك ؟ كأنكم لا تعرفون ؟ من الذي يستطيع أن يغفر مثـل ذلك العمل لجاره ؟ كيف يستطيع أحدكم أن يعيش مع جار مثله ؟٠ هل كان مرضها ميؤوسا منه ٠ لقد قضوا على المريضة التي كانت في طريقها الـــى الشفاء ٠ من رأى كيف ماتت اوزيزة المسكينة ، لا يستطيع أن يمنع نفســه عن قتل ذلك الرجل ـ اختنق صوت الحاج بالدمع فسكت ٠

ـ فلنطرده من الجامع ـ قال موسى غاضبا ٠

ـ هذا هو الافضل ـ قال بتوقه متضايقا من الوقوف تحت اشعـــــة الشمس ٠

ولم يكن الشيخ متعجلا في انهاء الموضوع ٠ كان يعرف أفضل من أي شخص آخر كيف ماتت أوزيزة ٠ فطالما كان يزورهم اثناء مرضها وقبله ٠ ورغم انه يضع اللوم في موتها على جاره ، فقد كانوا يعرفون خطأه ايضا ٠ وهكذا بقيت قصة يونس بدون خاتمة ٠

حل الشتاء وهطلت الامطار ، وتوقف أهالي القرية عن الذهاب الـــى المدينة الا للضرورة ولزموا بيوتهم ٠ أما الحاج يونس فلم يستطع الاستقرار في بيته ٠ كان قد أقسم على أن لا يهدأ له بال حتى يجعل عدوه يرى نجوم عينيه ٠ لذلك لم يكن يستقر له قرار ٠

وفي احد أيام الاحاد ، ذهب يونس الى المدينة وباع بعض الاشيــاء واشترى اشياء اخرى ٠ ولما كان الجو ممطرا فقد اراد ان يختصر الطريـــق فسلك طريق الوادي بدل الطريق العام ٠ وكان هذا الطريق قليل السابلـــة حتى في أيام الصيف ٠ وبالاضافة الى ذلك كان مدخل الوادي متجمدا في هذا الوقت من العام ٠ ولكن الحاج المعروف بعناده لم يكن ليتراجع عن قـــرار اتخذه ٠ وكانت شمس اليوم الشتائي القصير قد أوشكت على الغـــروب ٠ فاخذ يزحف على أربع وحمله على ظهره محاولا نزول المنحدر الى الـوادي، وهو يتمسك بالشجيرات والاعشاب المتجمدة التي يصادفها بحذر شديد ٠ ولكن الحذر لا ينجي من القدر ـ كما يقولون ـ فقد تزحلق وانقصمت الشجيرة

التي كان يتمسك بها ووقع في الوادي •

وفي صباح اليوم التالي رأى بعض الذاهبين الى المدينة جثتـــه فـــي الوادي •

ـ لا •• ! هذا هو الحاج ـ قال بوت منفعلا •

ـ انه هو بعينه • يا الهي ، كيف حدث هذا ! • وعندما اقترب منه كان الحاج جثة متجمدة • وما كان يحمله في كيسه من لحم مقدد وملح وسكاكـر وغيرها ، كان منثورا حوله فوق الثلج •

ـ مسكين ايها العنيد • انظر الى هذه النهاية ـ قال بوت •

وفي ذلك اليوم اعادوا الحاج على زحافة ودفنوه •

# الفصل الثاني

## اجتماع .
## النبيل سارق الخيل

موقع قرية شعلمفوقة جميل جمالا نادرا ٠ هنا تنتهي سلسلة الجبال ويبدأ السهل الفسيح الذي يمتد بعيدا حيث ترى قمة البروز ٠ والطريق الجبلي المؤدي الى سلسلة الجبال ، يبدأ من هنا أيضا ٠

التلال المنخفضة مكسوة بالغابات الخضراء ، وخلفها تبدأ القمم المكسوة بالثلوج على مدار السنة ، والتي تبقى محتجبة وراء الغيوم حتى في ايام الصحو ٠ ولكنها عند الغروب أو الشروق ، تكتسي بحمرة خفيفة ؛فتغدو متعة للنظر لا تشبع منها العين ٠

كان ظلام الغسق قد خيم بعد يوم حار فهبت النسيمات الباردة ٠ وكان صوت خرير الماء الخافت في الجدولين اللذين يعبران القرية مسموعا بصعوبة ٠ وبدت القمم العالية البيضاء وراء التلال القريبة كأنها أعمدة تسند الغيوم المرتفعة ٠ وكلما تكاثف الظلام خفت ضجيج الناس ٠ حتى الكلاب لم تعد تنبح الا بين حين وآخر ٠ أما الابقار التي أمضت يومها تحلم بعجولها فلم تعد الآن تصدر أي صوت ٠ وكان الرجال الذين عادوا من الحقول منهكين ، قد تعشوا جيدا وجلسوا يتحدثون عن الموسم ، وعمن سيكون حظه من الغلال أوفر هذا العام ، وكيف دخل الثور او الحصان الى حقل الذرة ٠

في هذا الوقت بالذات انطلق صوت الحواط « يرول » :

ـ يا أهل القرية ٠٠ على كل بالغ ان يحضر غدا الى الاجتماع في مقر العمدة ومن لا يحضر سيعاقب ٠

وما ان سمع الناس هذا الصوت حتى أسرعوا خارج بيوتهم ليستمعوا

جيدا • وهل من الممكن عدم الاهتمام بنداء الحواط ! كما أن الرجال لم يكونوا يستطيعون النوم مبكرين بعد سماع هذا الصوت • كانوا يفكرون : ما سبب الاجتماع هذه المرة أيضا ؟ ويسوؤهم ان يعطلوا أعمالهم في هذا الموسم من أجل أي اجتماع •

أما يرول فقد كان هذا عمله • فهو مناد يؤدي عمله • وكانت الفرس الشقراء الضئيلة الحجم التي يمتطيها معتادة على أن تنقل الرجل العجوز على ظهرها وهي تسير الهوينا عبر الازقة الضيقة • وعندما يبدأ يرول نداءه فيثبت قدميه في الركاب ، ويرفع مؤخرته عن السرج ، كانت الفرس تتوقف فجأة عن السير وحدها وتبقى دون حراك حتى يقول « ومن لا يحضر سيعاقب » مختتما نداءه ، فتنطلق الفرس من جديد • كان في القرية خمسة من الشيوخ « رجال الدين » وعمدة ولم يكن ليحدث شيء يذكر دون رأيهم • كان رجال الدين يعرفون من يمرض ، ومن يوشك على الموت ، ومن سيتزوج ولم يكن من الممكن أن يفوتهم معرفة أية فتاة ستتزوج • وكان العمدة يعرف من يسرق ومن عليه دين ، ومن يستحق ان تفرض عليه غرامة • ولكن عندما يكون الامر متعلقا بفرض عقوبة على من يصنع خمرا مهربا ، كان يخبرهم بأنه سيفتش المكان بنفسه • وفي هذه الحالة كانت النسوة الماكرات اللواتي يتعاطين هذه الصناعة ، يخبئن ادواتهن ، ويقدمن له خمرا مهربا مدعيات انهن اشترينه من قرية أخرى •

وكان الذين لم يفهموا ما قاله يرول ، يتساءلون :

ـ ماذا حدث يا ترى ؟•
ـ ماذا قال ؟•
ـ يقول انهم يبيعون آذانا لثقيلي السمع •
ـ أليس من الممكن أنهم جلبوا بعض العقل من أجلك ؟
ـ ومن الذي يبيع شيئا لم يكن يملك مثله أبوك ؟
ـ هل قلت انهم جلبوا بعضا من زيت الكاز ؟
ـ طبعا •
ـ وكيف يبيعونه ، بالنقود أم بالبيض ؟
ـ اليوم يبيعونه نقدا ، وغدا بالبيض •

أما الذين يهتمون بنداء الحواط اكثر من ذلك ، فقد كانوا يهرعون خارج بوابات دورهم ويرجون المنادي ان يعيد ما قاله بمزيد من الوضوح •• اذا لم تسمع جيدا ، فلا تدع كلبك ينبح في المره القادمة، أو أرسل وراءه ولدا صغيرا ليستمع اليه جيدا • والا فكيف يستطيع المنادي أن ينهي جولته في القرية اذا كان سيعيد نداءه لكل واحد على حدة ؟ لا داعي لان تسمع كل ما يقوله المنادي • عندما يخرج المنادي فيجب أن تفهم أن ثمة اجتماعا فاذهب الى الاجتماع وهنالك سيخبرونك لماذا نادوك • هكذا تجري الامور منذ القدم •

ـ يا أهل القرية ! اسمعوا ...

ارتفع صوت المنادي من شمال القرية ، فارتفع صوت نباح الكلاب وراءه . وحيثما اتجه ، كان نباح الكلاب المتواصل يتبعه .

وفي الصباح امتلأت أزقة القرية بالرجال البالغين الذاهبين الى الاجتماع . كان مقر العمدة عبارة عن دار مربعة على مرتفع . كانوا يسيرون متباطئين ينتظرون بعضهم بعضا ليلحق بهم المتأخرون . يتشاورون ويتحدثون عن القرارات التي يمكن أن يسفر عنها الاجتماع ، ويتبادلون الاخبار العامة ، وهم ينقلون المعاول من كتف الى آخر . ما الداعي للعجلة ! سيقولون لنا مرة أخرى « ادفعوا هذا » « واعملوا ذاك » . هنالك مصيبة جديدة بانتظارنا ، هذا ما يستدعينا العمدة من أجله . ولا يذكر أهل القرية ان اجتماعا واحدا عقد من أجل شيء مفرح . وفي هذه الايام ، حيث الحروب في كل مكان لا داعي لانتظار شيء سار .

كانت مجموعة من الرجال تتحدث :

ـ سمعت أن روسيا تضايق الالمان ، فهل هذا صحيح يا ترى ؟

ـ روسيا قوية جدا ، وليس هنالك من يستطيع ان يقهرها . ولكنهم سيأخذون منا بعض الخيل ، وربما بعض الرجال أيضا .

ـ يا ليتهم يقبلون دفع البدل . عندها ، اذا كنت تملك مالاً ادفع وأرسل غيرك الى الحرب اما اذا كنت لا تملك فلا حيلة لك .

ـ أظن ان اجتماعنا من أجل الاتراك .

ـ ومن هم الاتراك ؟ انهم الآن مع الغالب .

وكان المسنون يسيرون وهم يتحدثون معبرين عن كل ما يخطر لهم ، دون أن يعترض احدهم على ما يقوله الآخر .

والتقى أهل القرية في فناء مقر العمدة . ووقف المسنون تحت ظل شجرة وارفة . بينما وقف الآخرون بمحاذاة السور الحجري المحيط بالفناء او قرفصوا في أماكنهم . ووقف الوجهاء والنبلاء في ظل البناء أمام مدخل مقر العمدة . وكان بعض هؤلاء ينقل أحذية جلدية طويلة العنق بالرغم من أن الوقت صيف . أما الفقراء فقد وقفوا تحت الشمس بقبعاتهم اللبادية المهترئة وأحذيتهم الجافة المثقوبة .. وكان الذي يميز بين الفقراء والاغنياء المجتمعين في هذا الفناء هو شكل الخناجر الشركسية التي يتمنطقون بها . كان كل واحد من الرجال هنا يتمنطق بخنجر ، ولكن شتان ما بين خنجر وآخر . فخناجر الاغنياء والنبلاء مطلية بماء الذهب ، وهي لامعة وجميلة وقد نقش اسم صاحب الخنجر ورمز (١) عائلته خلف المقبض . اما الذين

---

(١) شكل معين تسم به العائلة مواشيها وأسلحتها وكل ما يخصها . وكان لكل عائلة نبيلة رمز .

لا يملكون سوى ثورين وبقرتين ، فقد كانت خناجرهم سوداء ذات مقبض فضي • وخناجر الشباب قصيرة معقوفة بينما خناجر الشيوخ عريضة النصل وطويلة بطول السيف وكثيرا ما تصل الى ركبهم • خناجر الفقراء لم تكن حادة من جراء استخدامها في قطع سيقان الذرة الصفراء وقضبان الدوالي ليجدلوا منها الاسيجة لمنازلهم ، وكان غمدها مهترئا ومثقوبا في أكثر من مكان ثقوبا كبيرة يظهر منها النصل •

وسمع الناس صوت صهيل جواد من ناحية النهر • ثم ظهر فارس أنيق يركب جواده بشكل لائق كما يفعل أمهر الفرسان • كان الجواد الاسود المحجل يسير بخطوات راقصة مرفوع الرأس • وتعلقت أنظار الناس جميعا بالفارس • ولما عرفوه ، ظهر الاستغراب على وجوههم بشكل مفاجيء ، وأخذوا يتهامسون • وكان عجوز ضئيل يجلس القرفصاء في الظل فقام من مكانه ونظر نحو الفارس ولما عرفه هتف فجأة :

ـ جراسلان !

لم يكن أحدقد رأى من قبل هذا اللص الكبير ذا الاصل النبيل قادما الى أي اجتماع • ولم يكن من أطلق عليه هذا الاسم المركب من « جر » بمعنى الفولا و « أسلان » بمعنى أسد مخطئا •• الله وحده يعلم ما الذي جاء به الى هذا الاجتماع الآن • لا بد أنه شم رائحة شيء ما • والا فليس من عادته ان يحضر مثل هذه الاجتماعات •

لم يلمس جراسلان طوال حياته البالغة اربعين عاما معولا او محراثا • ولم يكن قد مر عرس في القرية لم يحضره اذا اعجبه صاحب العرس • واذا تواجد مع جماعة من الناس في أحد المجالس ، فان الابتسامة لا تفارق وجهه• وهو محدث لبق ، يروي امتع القصص والاحداث • واذا اجلسوه في مكان الصدارة على مائدة فانه يدير الحديث كأي كبير للقوم • بل لن تجد له مثيلا بين كبار القوم • لذلك فان الكثيرين كانوا معجبين به ويحاولون ان يقلدوه ويتعلموا منه آداب السلوك •

وكثيرا ما كانوا يمتدحونه عندما يأتون على ذكره :

« من يستطيع ان يبث روح الجماعة بين الناس ، فهو يساوي جماعة » ذلك أنه اذا دخل الى جمع من الناس وقد أخذ منهم الملل والسأم، فان الحيوية تدب فيهم وهم يستمعون الى قصصه وأخباره ونوادره • كان يحترم الكبار ويشجع الشبان ويرضي الجميع • فهو تارة يروي لهم كيف جلب قطيعا كاملا من الخيل • أو قصة علاقته بابنة احد النبلاء في منطقة « بسيج » أو كيف التقى بجماعة من الخارجين على القانون واضطر لقتالهم ••• كثيرة كانت النوادر والاخبار التي يرويها ، ولم تكن تنضب •• أما اذا مازح الفتيات ، فقد كن يبتسمن له راضيات مهما قال لهن • أما أم البنت التي يمازحها ، فقد كانت تروي للجيران ان جراسلان قد أعجب بابنتها وأنه قد يخطبها •• ولكن ما أن يعتلي جراسلان صهوة جواده ، حتى

كان ينقلب الى رجل آخر تماما ٠ فيغدو نادر الكلام ، وتصبح نظراته حادة كنظرات نسور قمم الجبال العالية ٠٠ يرى ما خلفه وهو يحدق أمامه ، ويسمع كل حركة حوله ٠

وعندما تزوج جراسلان ، لم يكن زواجه كالآخرين ٠فقد عاد ذات مرة بعد غياب طويل ومعه فتاة متقدمة في السن ٠ كانت أجمل فتاة في القرية تتمنى الزواج منه ٠ وعندما عاد ومعه هذه الفتاة العانس أصيبت كل فتاة في القرية بخيبة أمل ٠ وبحثت النسوة في القرية عن أعذار مختلفة لزيارة زوجة جراسلان في بيته ذي النوافذ الزجاجية الملونة ٠ وبعدما رأين هذه المرأة النبيلة من « البسلني » (٢) ولم يجدن فيها ما يبرر زواجه منها ، علقن قائلات : « ربما تزوجها من أجل مالها » ٠

وكان من رأي جراسلان ان المرأة التي يختارها شريكة لحياته ، يجب أن تكون قادرة على تحمل ما تفرضه عليها ظروف حياته ٠ ولكن كل نساء العالم يتشابهن في شيء واحد ٠ فان المرأة لا يمكن ان تقبل او ترضى بأن يسافر زوجها كثيرا ويتركها وحيدة في البيت ٠ وذات مرة تأخر جراسلان في نواحي « بسيج » بضعة أشهر ٠ وعندما عاد ، لم يجد زوجته في البيت ، كانت قد رحلت ٠ ولم يسأل عنها بعد ذلك أبدا ، كما لم يجد من اللائق بكرامته ان يرسل احدا ليسأل عنها ٠ وقال في نفسه : اذا أرادت ان تكون طالقة فهي طالق ٠

وعندما وصل جراسلان الى فناء مقر العمدة ، ترجل عن جواده بقفزة واحدة ، وربت على ظهره قائلا :

ــ عد ٠٠ ــ وترك له العنان ٠

وعاد الجواد من حيث أتى ٠ وأخذ جميع الحاضرين يتابعون هذا الجواد الرائع معجبين به ، وكأنهم يريدون أن يلتهموه بعيونهم ٠ ولم يكن هدف جراسلان ان يلفت انظار الناس لحصانه ، ولكنه لم يستطع المجيء راجلا وهو يملك حصانا ٠ وكما اختفى الجواد بعد أن تركه صاحبه ، كذلك اختفى جراسلان بين الجموع ٠

وقف غومار على المصطبة المرتفعة أمام المدخل ٠ وعندما رآه الناس نهض الرجال الذين كانوا جالسين تحت الاشجار واخذوا يقتربون منه ٠ واصطف الشباب وراء المسنين ٠ كان العمدة يطل على الناس بهامته الطويلة المنحنية قليلا ، موحيا بأن المهام الثقيلة التي يحملها على عاتقه قد أحنت ظهره ٠ ثم أزاح بيده الضخمة قلبقه الى مؤخرة رأسه ، وهبط درجة واحدة عن المصطبة مفسحا للضابط الذي معه ٠

كان وراء العمدة ضابط يرتدي معطفا شركسيا ابيض وقد غطيت

---

(٢) قبيلة من القبائل الشركسية ٠

حافظات البارود في جيوب الصدرية بأغطية ذهبية وشدت الى بعضهــا بسلسلة ذهبية أيضا وفي وسطه مسدس « ماوزر » • كان الجميع يعرفونه جيدا • فهو مفوض الشرطة في المنطقة واسمه «أرالب زالمجري» وقد أطلق على نفسه « قرال جاته » أي « سيف الحكومة » • وهو ذو عينين لامعتين وبطن ضامر رغم انه يستطيع أن يأكل خروفا كاملا مع زجاجة من الفودكا في أي وقت تدعوه فيه الى ذلك • كان الضابط يحدق في الجمع بنظرات نارية • هذا الرجل يستطيع ان يجدع انفك ، او يفقأ عينيك وهو يبتسم في وجهك بكل براءة • أو يسلخ جلدك وهو يشرح لك ساخرا كيف يسلخ جلد الانسان •• وعندما يصادف في طريقه مجموعة ديكة رومية وهو في احدى زياراته الروتينية ، يخرج مسدسه الماوزر القاتل ، ويصيد واحدا منها ويأخذه معه ، وينزل ضيفا في بيت احد صانعي الفودكا المهربة • وبينما ينهمك أهل البيت في اعداد الديك الرومي وتجهيز المائدة ، يقلب عالي البيت سافله • يصب الحليب فوق اللبن ، واذا وجد لحما وضعه في الرماد • ويعلق القطة من عنقها ، ويفت الخبز في الخمر ويطعمه للكلب حتى يسكره • وعندما يسكر الكلب يغتبط الضابط ويضحك • وعندما يأكل الديك الرومي ويشرب حتى يسكر ، يقسم على أنه سيضع ربة البيت في السجن •

كان الجميع ينتظرون ما سيقوله العمدة ،ولكن العمدة لم يكن على عجلة من أمره • حتى أنه لم يكن قد رتب في ذهنه ما يريد قوله • وربما كانت لعيني جراسلان المصوبتين اليه تأثير على تشتت ذهنه • كان يقول لنفسه:

« اذا تعرضت لهذا العفريت بكلمة سوء ربما يختفي حصاني الذي فاز في السباق الاخير من الدار » وأخيرا مسح غومار انفه جانبا بأصابعه الضخمة وبدأ الكلام :

ـ أيها الناس ! كنا سنعيش جميعا في راحة بال ، لو كان كل واحد منا يقنع بما يكسبه من عرق جبينه ـ قطع العمدة كلامه وفكر لحظة ثم تابع ـ ولكن من الذي ينغص حياتنا بالمتاعب ؟ من الذي يجعلنا نعيش وعيوننا على خيلنا خوفا عليها من السرقة ؟ هم اولئك الذين يعيشون ليس من أملاكهم او من عملهم ، وانما من مد أيديهم هنا وهناك • ـ ونظر العمدة بالرغم عنه نحو جراسلان ، ولما رأى أن عينيه ما زالتا مصوبتين اليه انخفض صوته بالرغم عنه ـ من يعرف فيما اذا كان يعيش في بلدتنا مثل هؤلاء ام لا ! •

ـ اذا لم يكن بيننا واحد منهم ، فمن الذي سرق حصان « قنديت » ؟• أقسم بالله انه لم يأت غريب الى هنا ليسرقه ـ قال رجل مسن نحيل يبلله العرق ، من بين الواقفين تحت الشمس •

ـ لا تتعجل ، لم نمنحك بعد حق الكلام ـ قال العمدة معترضا ـ لقد استدعينا هذا الضابط ليرشدنا الى طريقة القبض على صاحب اليد

الخفيفة فاستمعوا اليه ـ قال العمدة ذلك وهو يلتفت ناحية الضابط ـ أنصتوا ٠

وقف « أرالب » وراء المنضدة العالية ، وأوقف السوط الذي يحمله على الطاولة من مقبضة ٠ ونظر الى مستمعيه بطرف عينه معوجا فمه ٠ كان الجميع يعرفونه جيدا ، لذلك لم يكن احد منهم ينوي مناقشته ٠ « لا يمكن التفاهم مع امثاله » هذا ما كان يردده الجميع ٠

ـ أيها القوم ! تريدون ان تعيشوا ؟ ها ؟ ٠ لقد أرسلني « قلشبي » نفسه لاحلق لكم ٠ سأقطع اي نتوء يصادفني ٠ هل فهمتم ؟ كل سارق او بلشفي نصادفه ، سوف نجعل الغبار يتصاعد منه ٠ اذا كنتم تريدون أن تعيشوا حقا ، دلوني على اي سارق او بلشفي تعرفونه ٠ هل هذا مفهوم ؟ هذا مفهوم ٠ ولكن ليكن في علمكم أيضا انكم اذا أخفيتم سارقا او بلشفيا ، سأجعلكم تزحفون من ثقب النير ، وقد أعذر من أنذر ٠

كان الضابط يضرب الطاولة بمقبض سوطه بعد كل جملة ، فتقفز المحبرة قليلا ثم تعود الى مكانها ، وتوقف عن الكلام لحظة ليتفحص وجوه مستمعيه ويرى ردود فعلهم على كلامه ٠ ثم تابع يقول :

ـ ايها السادة ، انني أوجه كلامي اليكم ٠ اذكروا لي الآن هنا ، اسماء اللصوص والبلاشفة الدين تعرفونهم ، او تعالوا الى المكتب اذا كنتم تفضلون ذلك ، فالامر متروك لكم ٠

ولكن الجميع بقوا صامتين ، ينظرون الى الحشيش الذي داسته الاقدام ، وكأنهم يبحثون عن شيء اضاعوه ٠ كان جراسلان وحده ينظر الى عيني العمدة مباشرة وكأنه يريد أن يقتلعهما ٠ وكان غومار يشعر برعدة خفيفة تسري في جسمه من هذه النظرات المصوبة اليه ٠ لم يكن جراسلان قد حضر اليوم مصادفة ٠ فرغم انه لم يسرق شيئا في حياته من بلدته ، فقد كان بين الحاضرين عدة أشخاص مستعدين لأن يشوا به كلص ٠ ان طباع الذئاب ولصوص الخيل متشابهة ٠ ان الذئب لا يفترس حيوانا في المنطقة التي يعيش فيها ٠ وكذلك لص الخيل ، لا يسرق من بلدته وما جاورها ٠

ـ من يريد الكلام ؟ ـ سأل العمدة غاضبا من صمتهم ، ولكن أحدا لم يرفع رأسه ٠ كان أصحاب الخيول الاصيلة خائفين من ذكر أسم لص الخيل ، فسكتوا حتى لا ينتقم منهم فيسرقهم اذا وشوا به ٠ أما الفقراء الذين لا يملكون خيلا ، فكانوا يقولون لانفسهم « ليس لدينا ما نخاف عليه » لذلك بقي الجميع صامتين ٠

ـ لماذا لاتقولون شيئا ، هل جمدت ألسنتكم ؟ ـ صاح العمدة غاضبا ٠

وكان يفكر ، اذا لم ينته هذا الامر على خير اليوم ، فلا الديكة الرومية ، ولا الخمر المهرب يمكن أن يحمينا من غضب الضابط . وفي هذه اللحظة سمع صوتا من بعيد يقول :

ـ كنت أريد أن اقول شيئا .

كان المتكلم هو جراسلان نفسه . ولم يكن واردا حتى في أحلام العمدة أن يتكلم في مثل هذا الموقف .

ـ تكلم .

لو كان باستطاعة العمدة ، لما سمح له بالكلام . ولكنه لم يجد مناصا من السماح له . فقد كان يخشاه ، وكيف لا يخشاه وهو زعيم لصوص الخيل في البلاد كلها دون منازع . وهو يستطيع ان يخرب بيت اي واحد يضايقه في ليلة واحدة ، ولو كان عشرون فارسا يحرسون خيله .

ذات ليلة ، كان ينزل ضيفا في دار احد معارفه . ونزل عدد من الشباب النبلاء ضيوفا في نفس الدار ليقضوا ليلتهم . وبعد أن سكر الشباب سمعهم يتحدثون عن بطولات وأمجاد لم يحققوها . وفهم من حديثهم وهو يستمع اليهم من غرفته المجاورة لغرفتهم انهم ذاهبون لسرقة الخيل ، كما عرف وجهتهم . وفي الصباح الباكر ركبوا جيادهم ورحلوا . فلحق بهم جراسلان وكمن لهم . وفي طريق عودتهم وهم يسوقون القطيع الذي سرقوه ، هجم عليهم من الخلف واقتلعهم من ظهور جيادهم واحدا بعد الآخر ، ثم استدار اليهم واخذ يطلق عليهم النار من رشاشه اليدوي وساق القطيع دون أن يمكنهم من رفع رؤوسهم وخبأه في مكان أمين ، وعاد الى حيث كان ينزل ضيفا . وفي الليل عاد الشباب منكسي الرؤوس . فدخل جراسلان عليهم وروى لهم ما فعله بهم ، واعاد اليهم القطيع ، فاعتبروه منذ ذلك اليوم سيد لصوص الخيل .

ـ ليس في قريتنا أحد من لصوص الخيل ـ قال جراسلان ـ لا يوجد سوق لم أذهب اليه ، ومع ذلك لم أصادف مرة حصانا من قريتنا معروضا للبيع ـ كان يتحدث ببطء وكأنه يزن كل كلمة يقولها بميزان دقيق قبل أن ينطق بها .

ـ من الذي سرق حصان قنديت اذن ؟ ـ سأل أحد المسنين وهو حاج ضئيل الجسم .

ـ وهل تصدق أن حصان قنديت قد سرق ؟ أقسم أنه سكر بثمنه كاملا . اذا لم تصدقوني فاسألوا قنديت نفسه ، ولينكر ذلك اذا استطاع .

كان قنديت يقف صامتا وهو يتكىء على جذع شجرة ولم ينبس بكلمة واحدة . فاستدارت عدة رؤوس نحوه . الجميع يعرفون أن قنديت كان قد ورث عن أبيه ثروة من رؤوس الخيل والمواشي . ولكنه لم يستطع ان يحتفظ بما ورثه سوى ثلاثة اعوام . تزوج خلالها ثلاث نساء . وفي كل مرة كان

يدفع مهرا كبيرا ويقيم عرسا أكبر ٠ وكلما طلق واحدة ، كانت تسوق أمامها عددا لا يستهان به من المواشي وتأخذ كل ما تستطيع أخذه من أملاكـــه ٠ وكيف لا ، وهن جميعا من بنات النبلاء ٠ وكان كل ما بقي له من التركة ، حصان واحد للركوب هو مدار الحديث الآن ٠

ـ لن يضيع من البلدة اي حصان ، بل لن تضيع شعرة واحدة من خيلكم ـ قال جراسلان مؤكدا ٠

ـ لماذا تراهن أنت على ذلك ؟

ـ اني أراهن لانه لا يوجد في البلدة لص ـ قال جراسلان وهو ينظر الى اللحام الذي تحداه بحدة ٠

ـ وأنتم ؟ ـ سأل يرول باللغة الروسية ثم اختبأ بين الحشد وقد خاف من مغبة سؤاله ٠

ـ لا اعرف على أي شيء تخاف انت أيها المنادي ٠ اذا أخذت شيئا من دارك ، فلن يكون بالتاكيد فرسك العجوز ٠ ـ رد عليه جراسلان فضحـــك الجميع ٠

كان يرول قد اختبأ بعد أن ندم على سؤاله ٠ ولما سمع ما قاله جراسلان، خاف خوفا شديدا ٠ وكيف لا يخاف وليس له سوى ابنة واحدة في الدنيـــا كلها ٠ وكانت هي من عناها جراسلان بتهديده ٠٠ ثم قلب الامر على وجهــه الآخر ٠ ان جراسلان غني ونبيل ، وابنته لا تليق به ، فلم الخوف ٠

ـ الخلاصة ، ماذا تختارون ، ان يتعايش الذئب والخراف ، ام تفضلون أن تسلموا الذئب للصياد ؟ ـ سأل زالمجري وهو يسخر من الجميع ٠ ـ ام أن في فم كل واحد منكم حبة من البطاطا المسلوقة ! اليس هذا صحيحا ؟ ها ؟ صحيح ٠

وعندما ضرب زالمجري الطاولة بمقبض سوطه ، قفزت المحبرة مــرة اخرى الى الاعلى ٠ كان بتوقة يجلس وراء الطاولة ليدون محضر الاجتماع ، فوقف مذعورا ٠

ـ انتهى الاجتماع ! ـ قال زالمجري ـ من يخاف أن يتكلم هنا ،فليتبعني الى المكتب ٠ هيا من يريد أن يتكلم أولا ؟٠

## استيمر ويلدار
## يرفعـان صوتيهما

لم يقلْ أحد من المجتمعين شيئا ٠ كان المسنون مطرقين ينظرون الـــى الارض ٠ أما الشباب فقد كانوا يتبادلون النظرات ويبتسمون ٠ ولم يبـــد

على أحدهم أنه يريد أن يتكلم ٠
ـ ها ٠٠ أهذه هي شجاعتكم ؟ ـ قال زالمجري معوجا فمه ٠
ـ أليس بينكم من يريد الكلام ؟ من العار ان تقفوا هكذا مثل الدواب
قال العمدة مؤنبا الجميع ٠

ولكنهم بقوا صامتين وكأن في فم كل واحد منهم قطعة من الحجر ٠

ـ اذا كنتم لا تريدون ان تتكلموا هنا ، ستجدونني فيما بعد ٠ أليس كذلك ؟ ـ قال أرالب وهو يحدق في الجمع ثانية ، ثم استدار بشكل مفاجىء لينصرف ٠ كان العمدة يعرف أن المفوض اذا انصرف الآن ، فلن يسامحه على وقائع هذا الاجتماع ابدا ، لذلك أخذ يصدر من أنفه ، كل ما يستطيع اخراجه من أصوات ونحنحة وشخير وكأنه يقول للناس « فليقل أحدكم شيئا » ٠ وعندما لم يصل الى نتيجة قال :
ـ هل خاط أحد أفواهكم ؟ لماذا لا تقولون شيئا ٠ أم أنه ليس بينكم من يجرؤ على الكلام سوى مسعود ؟

كان كلام العمدة هذه المرة مجديا أكثر من تهديدات زالمجري فقد تكلم عدد من الرجال دفعة واحدة طالبين الاذن بالكلام ٠ وكان صوت الناطور أستيمر مرتفعا أكثر من أصوات بقية الرجال ٠

ـ سأقول يا عمدة ! ـ هكذا بدأ أستيمر حديثه ، ولكن جراسلان قاطعه :
ـ ابق في مكانك انت أيها الحذاء الريفي ٠ أنا الذي سيتكلم ٠

لم يخطر ببال العمدة ان الامور ستجري بهذا الشكل ٠ وما كان ليسمح لجراسلان بالكلام مجددا لو لم يكن يخشاه ٠ وكان الآخر يعرف بأن العمدة يهابه ، لذلك أخذ يضغط عليه بنظراته الحادة ٠ وكان المفوض في حيرة من أمره ٠ ليس من اللائق ان يسكت جراسلان لانه من أصل نبيل ٠ واذا سمح له بالكلام ، فهو يعرف بأنه لن يقول شيئا مجديا ٠

ـ اذا كنتم تريدون اللصوص ، فاذهبوا الى حيث تقع السرقات ـ قال جراسلان وهو يمط كلامه بشكل جميل وموزون ـ والقوا القبض عليهم ، فهذا سيكون امتحانا كافيا للشجاعة ، اذا كنتم تريدون ان تجربوا شجاعتكم ٠
ـ أهذا ما تريد قوله ؟
ـ نعم يا عمدة ٠
اقترب استيمر منهم أكثر ، وقال بطريقة ما :

ـ اسمحوا لي أنا أيضا بالكلام ٠
ـ لماذا تنفجر أنت ؟ وماذا تريد ؟٠ هنالك من يريد الاستماع اليك اذا قابلته ٠ هل تعرف ان « ابن قلشبي » يبحث عنك ؟ ـ قال زالمجري غاضبا

محاولا اسكاته ٠

ـ اذا كان ابن قلشبي يبحث عني فانه يستطيع ان يجدني ، فانا لم اقترف شيئا ، كما أنني لست واحدا من أولئك الذين يأكلون كل ما يجدونه ولا يدفعون ثمن ما أكلوه ٠

وارتفع هرج من بين الجمع ٠

ـ دعوه يكمل ما يريد قوله ، فربما رعت المواشي حقل أحد ٠

وازداد أستيمر حنقا وقال لنفسه « لماذا لا اقتل هذا المفوض الآن ؟ وهؤلاء الرجال الذين يسخرون مني ؟ » ولكنه هدأ نفسه ، واحتل مكانا أنسب للحديث ، ووقف ينظر الى الجميع مرفوع الرأس ٠

ـ هذا ما أريد قوله : من يدخل الاسطبل ويسرق جوادا فهو لص وأمره معروف ٠ ومن يسرق سرجا أو برنسا فهو لص ايضا ، وليس الحكم عليه صعبا ٠٠٠ « وأية فائدة فيما يقوله هذا الرجل ؟ » ـ سأل العمدة نفسه ٠

ولكن الذي لا أفهمه هو هذا : شاب يعمل أجيرا عند أحدهم بكل ما أوتي من قوة حتى ينال رضى مستخدميه ، لا يقصر ولا يهمل او يتكاسل ٠ ومع كل ذلك ، انظر ! ماذا تسمي من لا يعطي مثل هذا الاجير حقه ؟ أهـــو لص أم ماذا ؟ ٠

كان زالمجري ينظر الى المتكلم بعيني أفعى توشك أن تبتلعه ٠

وهاج الجمع ٠

ـ ما هذا الذي تهرف به أيتها النفاية ؟ ـ صاح أرالب ٠

ـ اتسمعون ما يقوله ابن المزبلة هذا ؟ ـ قال موسى وهو يضع يده على خنجره بحركة سريعة ٠ انه يريد ان يشوه سمعتي ٠ هل اشتكى يلدار اليك أنت أم ماذا ؟ لماذا لا يفرح هذا الصعلوك اذا قبلت أن أطعمه بعد أن طرده سعيد ! ٠ لقد أكل في داري بأكثر من عمله ٠ اتريد مني أن اعطيه أجـــرا فوق ذلك بينما هو يتسكع بدون عمل ؟ هذا بعيد عليك ٠ أقسم انني لـــن اعطيه لقمة واحدة ، ولن يدخل هذا الصعلوك ، وجه البومة بيتي بعد اليوم٠

ـ وما حاجتك الى أجير لا هم له سوى تشويه سمعتك ؟ ـ قالَ مسعـود موافقا ، وقد ظن أن موسى لا يتحامل على الشاب بهذا الشكل الا لانه نظـر الى زوجته الجميلة ماريات نظرة خاصة ٠

واعترض الحداد بوت على كلام مسعود :

ـ ان موسى مخطىء ٠ اذا استخدمت اجيرا يجب أن تدفع له اجره ٠ أما اذا كنت لا تنوي أن تدفع له ، فلا تستخدمه ٠

ـ اذا قال الاديغي « ها » فان الامر على ما يرام ٠ أما اذا قالَ « هه » فان في الامر شيئا ٠انني أرى أن شكوى يلدار تستحق النظر ٠ ـ قالَ بلاتسه٠

ونفد صبر يلدار الذي تمالك نفسه الى الآن · فشق طريقه بين الحشد وهو يدفع الناس بمنكبيه ويكاد يوقعهم ، واقترب من المنصة ·

ـ جئتم تبحثون عن اللصوص ، اليس كذلك ؟ ـ قال وهو يقف وجهـا نوجه أمام الارالب · هنالك آخرون غير موسى يمكن أن نسميهم لصوصـا أيضا · أليس كل مستغل جشع لصا ؟

وازداد هياج الجمع ·

ـ ما هذا الكلام ؟
ـ أقسم أنه يقول عين الصواب ·
ـ اغلق فمك أيها الشاب ! ·

ـ من تعني بكلامك ؟ ـ استدار اليه موسى وجماعته ·
ـ النبلاء وأشياعهم الاغنياء ـ قال يلدار دون أن يرف له جفن ·

لم يكن المسنون قد سمعوا مثل هذا الكلام ، وبهذه الحدة من قبـل ، لذلك وقفوا صامتين لا يدرون كيف يتصرفون · وكان كل املهم أن ينفض الاجتماع قبل أن تحدث مصيبة ·
وزادت حدة النقاش ·
وانفجر غضب الارالب :
ـ أهذا ما تقوله ؟ انتظر ، سأجعلك تزحف على جلدة بطنك ، انتظر ـ ولم يستطع أن يزيد على ذلك من شدة غضبه ·

وأخذ العمدة ايضا يشتم يلدار :
ـ ليأخذك الوباء ! · هل اجتمعنا اليوم ، لنستمع اليك انت !

يجب أن يوضع حد لكل هذا ـ قال الارالب لنفسه ـ ان يلدار لا يقـول ما يقوله لانه يحس بألم في بطنه · صحيح انه لا يدرك ابعاد كل ما يقوله، ولكن لا بد أنه سمع ببعض الاشياء ، يجب ايقافهم عند حدهم الآن ·وأخرج مسدسه الماوزر ورفعه الى الاعلى · وفي غمضة عين مد الكثيرون ايديهم الى خناجرهم · ورفع جراسلان سوطه وكأنه يقول لهم « اهـدأوا » وانطلـق المسدس ·
وقفز استيمر الذي كان قريبا من الطاولة الى جانب الارالب وقال له :
ـ سيدي ، يستحسن ان تبتعد ، اذا حدث شيء فسنقع جميعا فـي مصيبة ، أرجوك يا سيدي لا توقعنا في ورطة ، من يريد الحديث معك ، سيأتي اليك ·
ـ انصرف بسرعة ـ قال العمدة مرتبكا ·
ـ سوف نلتقي مرة اخرى ، اليس كذلك ؟ ـ قال الارالب وهو يتراجـع وقد شعر بالخوف ·

وبعد لحظات سمع وقع حوافر حصانه • كان الحصان يجري •واحتدم النقاش بين المجتمعين ، واشتد الخلاف بينهم تدريجيا • وأوشك بعضهم أن يمسك بتلابيب البعض الآخر • فقد كانت جميع الخلافات العائلية قد تحركت أيضا •

ـ أغلقوا أفواهكم جميعا ، اسكتوا • ! ـ صاح غومار بأعلى صوته ، ولكن أحدا لم يسكت •

ـ أيها الناس ، اسكتوا والا جعلت أمهاتكم تبكي عليكم •

وتحرك الذين سمعوا تهديده الاخير نحوه ، فشعر بالخوف وأضاف بسرعة :

ـ وسأجعل أمي تبكي علي أيضا ! •

وعندما سمعوا هذه الجملة ، توقف الذين أوشكوا أن يهجموا عليه •

ـ انتما ! استيمر ويلدار ، السبب في كل ما حصل اليوم •! ستـرون جميعا كيف أطوع هذين الرجلين • والا فكل ما أقوله كذب في كذب •

ـ من الافضل لك أن تهتم بأمورك الخاصة • ـ قال أستيمر دون أن يخاف من تهديداته •

ورغم ان الاجتماع كان قد انتهى منذ مدة طويلة ، فقد بقي الجميع يتصايحون ويتجادلون في فناء مقر العمدة حتى المساء •

## قرص الجبن المعلق

تكلموا طويلا عن وقائع الاجتماع ، وعن كل ما جرى فيه ، ولكنهم في النهاية نسوا كل شيء • فقد رزق موسى بابن ، وعلقوا قرصا من الجبن الاحمر في الاحتفال الذي أقيم بهذه المناسبة • وكان هذا الاحتفال حديث الساعة في القرية كلها • كيف لا وماريات أجمل امرأة ليس في الحي فقط ، وانما في كل القرية •وقد كانت عاقرا وها هي مع ذلك ترزق بابن • وقد وجد الكثيرون ما يقولونه حول ذلك •
وكان فرح الزوجين بهذه المناسبة عظيما • كيف لا وقد رزقهما الله بولد يحمل اسم العائلة ويرث املاكها •! ولم يقبل موسى ان تمر المناسبة دون أن يقيم احتفالا كبيرا يجمع الاقارب والمعارف وأهل القرية ، ويعلق قرص الجبن الاحمر • وهكذا ، غرزوا في وسط باحة الدار عمودين كبيرين بينهما حوالي أربعة امتار • وفي منتصف الجسر الذي يصل بين العمودين علقوا رغيفا كبيرا من الخبز الروسي الابيض ، وقرصا من الجبن الشركسي

المدخن والمحمر ٠ وعلقوا حولهما قطعا من الملبس والحلوى ، ومنديلا حريريا، وعلبة دخان ، وزجاجات صغيرة من العطر ، وقطعا من الصابون المعطر وزجاجة فودكا ، وأشياء اخرى كثيرة ٠ وغير بعيد عن هذه الاشياء ، تدلى حبل من الجلد المجدول مشبع بالدهن ، والصابون المخلوط بالماء جيدا ٠ واذا استطعت ان تتسلق الحبل لمسافة ستة او سبعة أذرع ، فانك تصل الى قرص الجبن والرغيف ، ويمكنك عندها أن تختار ما يعجبك من المعلقات وتقطفه ٠

تجمهر الشباب حول الحبل الجلدي وأخذوا يتجاذبونه وهم يتصايحون، وكان من يستطيع الامساك به ويحاول أن يتسلقه ، يقع قبل أن يرتفع كثيرا عن الارض ٠ واقتحم شاب مخمور الجمع وأمسك بالحبل محاولا تسلقه ، ولكنه كان يتلوى وهو يحرك ساقيه بطريقة مضحكة ملوثا ملابسه فأخذ الجميع يضحكون ٠ وعندما وقع على الارض اخيرا ، عاد الشباب يتخاطفون الحبل ويتصايحون وهم يحاولون اعاقة بعضهم بعضا ٠ أما الفتيات ، فقد انتحين جانبا متماسكات بالاذرع ووقفن يتفرجن على الشباب ٠

وقف يتمبوت و « لو » ينظران الى المعلقات وبهما رغبة جامحة لتسلق الحبل ، وكانا يغبطان كل من يقع الحبل في يده من الشبان ٠ ورغم أن يتمبوت حاول أكثر من مرة أن يمسك بالحبل ، فقد أرتد على اعقابه ككرة من المطاط في كل مرة اقترب فيها من المتزاحمين ٠

ـ لا تستعجل الامور ٠ بعد أن ينظفوا الحبل في محاولاتهم المتكررة ، سوف يصبح تسلقه اسهل ـ قال تيمبوت وهو يطيب خاطر اخيه ٠

ولما كان « لو » يعرف أنه لن يستطيع الوصول الى الحبل ، فلم يكن على عجلة من أمره ابدا ٠ وكان مثار استغرابه هو كيف لا يستطيع الشبان الكبار تسلق هذا الحبل ! فهو قادر على تسلق الاشجار المحيطة ببيتهم والسير فوقها منتقلا من شجرة الى أخرى دون أن تصل قدماه الى الارض، ولا يمكن لاحد ان ينافسه في ذلك ٠ ولكنه لم يكن واثقا من قدرته على تسلق هذا الحبل ٠ ومع ذلك ، فلو استطاع تسلقه : ماذا سيختار ؟ المنديل الحريري ، أم الملبس ، ام ماذا ؟ ٠ آه لو سمحوا لي بأن أقطع كل هذه المعلقات ! ٠ ولكن هذا مستحيل ، سيسحبونك اذا حاولت ، ويعطونك علقة ساخنة ٠٠ كان « لو » يحلم ٠٠٠

تعب الشباب من محاولاتهم المتكررة المضنية لاظهار بأسهم وقوة سواعدهم للفتيات ٠ ومع ذلك كانوا يتحاملون على أنفسهم ، ولم يقبلوا التوقف ٠ وكان القليل جدا منهم يتمكن من تسلق الحبل وقطف بعض الاشياء ، فيغبطه نصفهم ، بينما يحسده النصف الآخر ٠ وتبتسم له الفتيات ٠ أما ذلك المحظوظ فيبتعد عن الزحمة متباهيا وكأنه حقق بطولة نادرة المثال ، يتبعه رهط من أصحابه ٠

وقفت ساريمة مع صاحباتها وهي تنظر نحو يلدار بين الفينة والاخرى، وكأنها تقول له « لماذا أنت واقف هكذا ، هيا الى الحبل ودعنا نرى ما تستطيع ان تفعله ! » ولكن يلدار لم يتجرأ على ذلك ، بل لم تكن به رغبة في أن يمسك بالحبل القذر ويوسخ ملابسه ، كان يقول في نفسه ، ليتسلق أولئك الشبان الاصغر سنا فهم أجدر بذلك • لو كان الامر متعلقا بسباق للخيل أو أية مباراة اخرى ، لما سمح لاحد أن يتقدمه • ومع ذلك كله ، فكر بالمحاولة أكثر من مرة ، من أجل عيني ساريمة •

كان « لو » ما زال ينظر مأخوذا ، والشباب ما زالوا يتزاحمون محاولين اظهار مهارتهم • وكان هؤلاء هم الشغل الشاغل للفتيات • فكل واحدة منهن تراقب شابا بعينه اينما ذهب •• وفي هذه اللحظة انطلقت صيحة اعجاب من الجميع • فها هو أحدهم يتسلق الحبل بمهارة فائقة •

ـ هيا ، تابع •••
ـ ابن من هذا العفريت ؟
ـ ليكن من يكون ، فهو في منتهى المهارة والحيوية •

وعندما نظر « لو » رأى أخاه قد وصل الى منتصف الحبل ، فأخذ يحملق فيه وقد فغر فاه اعجابا ودهشة • يقولون « ان الاخوين مثل الخنجر ذي الحدين » ان أخاه قد أصبح رجلا ، فمتى يصير هو الآخر رجلا •

وصل تيمبوت الى المعلقات ، فأخذ ينظر اليها ويقلبها ويبتسم وهو في حيرة من أمره • كان معجبا بعدة أشياء • ولكن هل يجوز أن تأخذ كل ما يعجبك !•

ـ خذ زجاجة الفودكا •
ـ خذ ملبسا وانزل •
ـ خذ يا صغيري ما يعجبك •
ـ كفاك ترددا • خذ شيئا •

تذكر «لو» ما قاله يلدار وتيمبوت عندما كانا يتحدثان قبل قليل ؟

ـ هل تستطيع أن تتسلق ؟ ـ سأل يلدار •
ـ في غمضة عين •
ـ اذن ، عندما تصعد ، اقطف لي شيئا من أجل ساريمة • سنذهب معا فيما بعد الى سوق نالتشك ، وسأرضيك •
ـ ماذا تفضل ، زجاجة العطر ، ام المنديل الحريري ؟ ـ سأل تيمبوت مستوضحا • لم يسمع «لو» جواب يلدار ، ولكنه فهم انهما اتفقا على زجاجة العطر • كان « لو » قد أصبح يدرك هذه الاشياء • ليته فقط يستطيع الوصول الى هذا الحبل •

وكان يلدار قادرا على تسلق الحبل بنفسه · ولكنه لا يملك سوى الملابس التي يرتديها ، فمن أين له بملابس اخرى اذا لوثها ! فليتسلق الشبان الصغار اذن فأكثرهم لا يرتدي الا رث الثيا ب·

كانت ساريمة قد كبرت وأصبحت فتاة فائقة الجمال ، متميزة من بين لداتها ولو أنها لا ترتدي مثل ثيابهن · ومن المستحيل ان تعرف الآن ، انها هي نفس الفتاة الصغيرة التي كانت ترافق ديسة في مجرى النهر يوم مولد « لو » · انها فتاة نحيلة ، ولكنها متناسقة الجسم ، تأسر الالباب بحركاتها · ورغم انها لم تكن قد حضرت أية حفلة راقصة الى الآن ، فقد كان الشباب يطيلون نظراتهم اليها · وكان يلدار مستعدا لان يعمل اي شيء من أجل هذه الفتاة المهذبة الرقيقة · ولو طلبت منه الصعود الى السماء لما تردد لحظة واحدة · ولم تكن ساريمة تجهل ذلك · فهي تلتفت اليه دائما، ولا تستطيع ان تمنع عينها من النظر نحوه ·

كانت الفتاة كثيرة التردد على آل بوتش ، وتعتبر تيمبوت آخا لها ، وتحب الصغير « لو » حبا شديدا ·

أخذ «لو» يحملق بأخيه باعجاب شديد ، وكان تيمبوت ما يزال متعلقا بالحبل ينظر الى الناس من أعلى ، متباهيا ، وخاصة نحو الفتيات وكأنه يقوم بعمل خارق · وكانت ساريمة ايضا تنظر الى تيمبوت وقد عانقت صديقاتها ·

ـ ماذا يريد بزجاجة العطر ؟ ، المنديل الحريري أفضل ـ قالت ساريمة

ـ ليته يأخذ المنديل الحريري · وعندما سمع « لو » ذلك اخذ يصيح :

ـ يا تيمبوت ! خذ المنديل الحريري ·

ولكن تيمبوت لم يسمع ما قاله «لو» لشدة الضوضاء ·

نزل تيمبوت وقد حصل على مبتغاه · كان من المحتمل أن يخطفه منه بعضهم ويهربوا ، لذلك أمسك بزجاجة العطر الصغيرة جيدا وهو يقفز · واخذوا يعلقون عليه : لماذا لم تأخذ زجاجة الفودكا ؟ ماذا ستفعل بالعطر ؟ ألا تكفيك الرائحة الطيبة المنبعثة منك ؟

ـ لم يكن ينقصك سوى العطر !

ولم يهتم تيمبوت أو يلدار بهذه التعليقات · وكان «لو» يغبط أخاه · أليس من دواعي الغبطة أن تحقق عملا مثل هذا لم يستطع الكثيرون تحقيقه ! ·

ـ والله ما كنت أظن انك تستطيع التسلق بهذه المهارة · أين زجاجة العطر ؟ سأل يلدار ·

ـ ها هي · آه ما ازكى رائحتها !

ـ « لو » ، هل تستطيع أن تعطي هذه الزجاجة لساريمة ؟ ـ قال يلدار

وهو يلتفت الى « لو » ٠

ـ طبعا أستطيع ٠

ـ ولكن اياك أن يراك احد ٠

ـ حاضر ٠ ولكن اتعرف يا يلدار ماذا كانت تريد ساريمة ؟

ـ ماذا ؟

ـ لقد سمعتها تقول « المنديل الحريري افضل » عندما كان تيميوت ياخذ زجاجة العطر ٠

ـ هل سمعتها أنت ؟

ـ والله سمعتها ٠

ـ صحيح ؟

ـ طبعا ، لقد سمعتها باذني ، وفور سماعي ، ناديت تيمبوت طالبا منه أن يأخذ المنديل ولكنه لم يسمعني ٠ ما أطيب رائحة هذا العطر !٠

ـ لقد اخطأنا يا تيمبوت ٠ أتسمع ما يقوله «لو» ؟ قال يلدار وهو يفكر ٠

وتعالى الصياح ثانية :

ـ توقف ، ليأخذك الوباء ٠

آخذ البعض يحاول تخليص الحبل من المتسلق ، والبعض الآخر يهدد بقبضته ٠ بينما كان قلب « لو » ينبض بعنف « ماذا لو أمسكت انا بالحبل هذه المرة » ٠

جحظت عينا الشاب النحيل الذي كان يحاول ان يتسلق ، ومع ذلك لم يبد عليه أنه ينوي التراجع كان يمد يديه بالتناوب الى جيبي معطفه ويخرجها والرماد يتساقط منها ٠ ولو عرف الواقفون ان الشاب سيحتال عليهم بهذا الشكل لما سمحوا له بالامساك بالحبل ٠ وتعالى الصياح :

ـ في جيبه رماد !٠

ـ هذا غير مسموح به ٠ انزل !

ـ اقسم اننا سننتزع منك ما تأخذه ٠

ـ من الواجب تسلق الحبل بقوة الساعدين ، اما الحيل ، فاتركها للصوص الخيل يا صغيري ٠

ـ ألم يقولوا لك انزل ؟ اقسم انني سألقي بك على الارض ٠

وأخذت الفتيات ينظرن الى الشاب باستغراب ، وكان قد وصل الى الاعلى واخذ يقلب المعلقات مبتسما وهو يكشر عن أسنانه ، لا يدري ماذا يختار ٠ وكان يمسك الجسر باحدى يديه ٠ وفجأة ارتفع صياح الفتيات٠ فقد وقع الشاب النحيل فوق زملائه ، ثم قام مذعورا وهو يعرج ٠ وتنحى جانبا بين ضحكات الشماتة والسخرية ٠

وفي اللحظة التي كان يلدار يقول فيها « سنجرب الان مهارة لو » وصل

يرول يحمل سلما ودلوا مليئا بماء محلول فيه كمية كبيرة من الصابون • وشق طريقه مبعدا الشباب الى الجانبين • أسند السلم على العمود ، وصعد عليه ، وأمسك بالحبل وأخذ يشربه بالماء والصابون من جديد • وأخذ الشباب يستعطفونه :

ـ هذا يكفي يا يرول !

ـ لقد شبع هذا الحبل دهنا وصابونا !

ـ اذا لم يستطع احد تسلقه ، فستبقى المعلقات لصاحبها •!

ولم يتمهل يرول ليرد على هذه الاقوال ، بل مسح شاربيه الاحمرين جانبا ، وتابع عمله بهمة ونشاط •

ـ اذا كان الحبل جافا ، فان أي واحد يستطيع تسلقه • هل هذا عدل ؟ • من كانت يده ناعمة ، فعبثا يحاول التسلق • اما من كانت يده خشنة متشققة من العمل ، فلن يؤخره الماء والصابون • سقيا لايام الشباب• عندما كنا نتقاتل مع أهالي « قوشروقوي » بالنبال ، من كان يرمي سهمه أبعد ؟ انه أقوى الجميع ساعدا •

كان يرول يتحدث وفي صوته حنين ، فأخذ الشباب ينصتون اليه هادئين• وأخيرا قرب الرجل العجوز الحبل من عينيه وفحصه جيدا ثم حبسه بأصابعه، وتركه راضيا •

ـ هيا الآن ، يا شباب !

وقبل أن يهبط يرول درجات السلم ، عاد الشباب يتخاطفون الحبل •

ـ أنت ، يا من تشبه كيس الذرة ، ابتعد !

ـ عندما كانوا يوزعون المهارة والقوة ، كنت أنت في بيتك ، هات الحبل !

ـ يدك أنت لا تستطيع ان تحمل سوى رغيف الخبز • كفاك ثرثرة ! •

وكان يرول يستمع الى نقاش الشبان معجبا •

ـ دعونا نجرب حظنا نحن أيضا مع هذا الحبل ـ قال يلدار وهو يزيح من طريقه بعض الشبان • وعندما نجح في الامساك بالحبل ، نادى نحو تيمبوت و « لو » :

ـ أحضر أخاك الصغير الى هنا •

ـ هيا بنا ـ قال تيمبوت وهو يمسك بذراع أخيه مخترقا الجمع • ولم يكن « لو » يصدق حتى هذه اللحظة ، أن الحظ سيساعده ويمسك بالحبل • ورفعه يلدار عن الارض ومكنه من الامساك بالحبل ، فلفه حول يده • وأخذ أخوه يشجعه :

ـ هيا ، أرهم كيف يتم التسلق !

وحاول «لو» التسلق بمجرد أن أمسك بالحبل ، ولكنه تزحلق وكاد يقـع أرضا • عندها بدأ يلدار التسلق دافعا « لو » الذي أجلسه على كتفيه الـى الاعلى • وكلما ارتفع يلدار قليلا ، كان « لو » يرتفع معه الى المعلقـات • واستغرب المتفرجون هذا المنظر :

ـ اذا كنت تريد ساعدين قويتين ، فها هما أمامك •
ـ سينقطع الحبل ، لا يستطيع حمل اثنين •
ـ أوه • ما أقواه من ساعد !

كان قد انضم الى الجمع متفرجون جدد :

ـ انظر الى ذاك القرد الصغير ! ـ كانوا يقولون وهم ينظرون الى «لو»•
ـ لا يطعمونه سوى الديكة الرومية !
ـ هذا ليس غريبا • انه من آل بوتش !
ـ هؤلاء متميزون طوال حياتهم •

لم يسمع « لو » أي تعليق • كيف يسمع ، وقد بدأ يشم بحرية رائحـة الملبس والصابون المعطر ، وحتى رائحة رغيف الخبز الابيض ، والجبـن الاحمر • وشد « لو » نفسه للمرة الاخيرة ، فالتصق بالحبل •

ـ بماذا ينفعك المنديل الحريري ؟ خذ الملبس ـ قـال بعضهم مـن الاسفل • ولكن « لو » كان يعرف جيدا ما يفعله ، فأخذ المنديل الحريـري وخبأه في عبه ، ثم قفز الى الارض ، الى حضن يلدار الذي كان ينتظره •

ـ هل ستأخذني معك أنا ايضا الى نالتشك يا يلدار ؟ ـ سأل « لـو » وهو يعتبر أن اسعد شيء في الدنيا ، هو تسلق الحبل والذهاب الى نالتشك •
ـ طبعا يا أخي • أنت شاب ممتاز ـ قال يلدار مفعما بالفرحة لحصوله على ما أراد •
ـ لقد أخذت اجمل المناديل ، اليس كذلك بربك ؟
ـ أنت شاب نادر ، والآن ، أعط زجاجة العطر ، وهذا المنديل الحريري لساريمة • هل فهمت ؟•
ـ حالا ، سأعطيها حالا •

كان يلدار يخجل من الاقتراب من ساريمة • على أية حال ، سيقول لهـا كل ما في قلبه الليلة في حلبة الرقص • كانت ساريمة تنظر بين حين وآخر الى يلدار وعلى شفتيها ابتسامة لا تكاد تظهر • وكان يلدار يراقب كـل حركاتها وسكناتها ولا يفوته اذا لمعت عيناها ، او افتر ثغرها عن ابتسامة، أو رفعت حاجبيها وهي تخاطب زميلاتها • فهي شغله الشاغل • ورغم أنـه يظن أن بينهما حديثا لا يمكن أن ينتهي ، كان اذا التقى بها في الطريـق أو في مجرى النهر أحيانا ، يقفان قبالة بعضهما صامتين ، لا يدري احدهما

ما يقوله للآخر •

شعر « لو » منذ تسلق الجبل ، أنه قد أصبح رجلا ، ولم يعد يقل رجولة عن أخيه وملاه هذا الشعور بالرضا • فأخذ يتمشى الى حيث تقف الفتيات متباهيا وفي هذه اللحظة ، سمعت ضجة غريبة ، فأجفلت الفتيات •

ـ هذا هو الارالب بدون شك ، أقسم انه قادم ـ قال أحدهم •

كان هذا صحيحا •

## أرالب يستعرض شجاعته

سمع صوت اطلاق رصاص بشكل مفاجىء ، فركض الشبان الى الشارع ، وذعرت الفتيات فتلاصقن ومددن أعناقهن مستطلعات نحو مصدر الطلقات • وعندما رأى الشباب العربة عادوا الى الدار دون تأخير ووقفوا جانبا • واقتحمت العربة دون أن تخفف من سرعتها باحة الدار الواسعة • كان فيها زالمجري مخمورا بشكل جيد ومعه العمدة • وكان الضابط يحمل الديك الرومي الذي اصطاده في القرية وهو ما يزال حيا ، يحرك جناحيه ببطء بين الفينة والاخرى •

وركض موسى مرتبكا لاستقبال الضيوف ، بينما قفز زالمجري من العربة :

ـ بارك الله لك بالمولود الجديد ، وجعله خلفا صالحا للعائلة • ولكن قل لي ، لماذا كانت زوجتك ترفض الولادة الى الآن ؟ قل لي ، لماذا لم يولد لك ابن الى الآن ؟ هه ؟•

ـ كان الله يرانا لو أراد ان يرزقنا •

ـ لا توجد امرأة في البلدة أجمل من زوجتك ، اليس كذلك ؟ ولكن لماذا لم تقبل أن تلد لك ولدا من قبل ؟ سأرسل لك شرطيا اذا أردت •• ها •• ها •• ها • وسترى بعد ذلك ان كانت تقبل أن تلد ام لا سأسجن زوجتك • اقسم بالله أنني سأسجنها •

ـ وماذا أفعل انا اذا لم أكن اسجنها !

ـ تقول انك تسجنها ! أيجوز ان تسجن امرأة مثلها ؟ أتظن أنني لا أعرف لماذا لم تلد الى الآن ؟ أتريد أن أقول لك ؟

ـ قل •

ـ حتى لا تؤذي جمالها • وحتى تبقى أنت ، بشاربيك الطويلين تجري وراءها • هل فهمت ما أقوله ؟

ـ تفضلوا الى البيت • لقد سررت بمجيئكم والله • ـ قالّ موسى مستعجلا دخول الضيوف ـ هيا لماذا تجمهرتم هنا ، أفسحوا الطريق •

ـ سأسجن زوجتك الآن ـ قال الضابط وقد عاد الى هذيانه من جديد ـ حذ هذه الحبشة • انا لا أستطيع ان أرى هذه الطيور الا مطبوخة ، وعلى المائدة • ها • ها • ها • ها • أين زوجتك ماريات هذه ؟ سأسجنها والله •

ـ من هذا الذي يريد أن يسجنني ؟ تفضل يازالمجري • كيف حالك ؟ ـ قالت زوجة موسى الجميلة مبتسمة وقد خرجت لاستقبال الضيوف •

ـ هل أنت بصحة جيدة يا عروستنا • أرجو أن يبارك الله لك في ولدك الصغير • أظن أنك انت التي ستسجنيننا اولا • أليس كذلك ؟ ـ قال العمدة وهو يمازحها بعد أن شم رائحة الطعام على المائدة العامرة وهو يهم بدخول الغرفة •

ـ كنت أخشى أن لا تأتوا •

ـ لقد اشتكى زوجك عليك ، هل تعرفين ذلك ؟ ـ قال زالمجري متابعا مزاحه ـ لقد قدم دعوى بحقك لانك ولدت متأخرة • اقسم بالله انه فعل •

وفي هذه اللحظة ، وبينما كان الضيوف يهمون بالدخول الى البيت ، اقتحمت الدار امرأة تغطي رأسها بمنديل كبير وهي تصيح • كانت تستمطر اللعنات وأقذع الشتائم على قاتل « حبشتها » بأعلى صوتها • وتتابعت الشتائم تتساقط من فمها كتساقط حبات التفاح من أشجارها بفعل ريح صيفية قوية • كانت ديسة تحمل بيدها بضعة ريشات من حبشتها كدليل ادانة للقاتل •

ـ فليأكل امراضي أولا من يريد أكل حبشتي • ولييتم الله اطفاله كما يتم فراخها • وليخرب الله بيته ، كائنا من كان هذا الفاجر الذي لا يخجل• لماذا قتلت أم الفراخ يا من استوطنت الامراض في خاصرتك ؟ أدعو الى الله أن تنغرز عظامها في حنجرتك ، وأن يريني جثتك وهي تنقل الى القبر•

ـ اسكتي يا ديسة • كفاك دعاء وشتائم ـ قال موسى وهو يتجه نحوها محاولا ايقافها وتهدئتها • ولكن أنى لديسة أن تهدأ •

ـ ولماذا تريدني أن أسكت أنا ؟ ـ قالت ديسة وهي تزداد هياجا ـ فليسكت أولئك الذين يسببون لنا العذاب « ويجعلوننا نعيش ونحن نربط أحذيتنا بأمعائنا » •

ـ بماذا تهذي هذه الحيزبون ؟ ـ قال زالمجري وهو يستدير ناحيتها •ثم أخذ ينظر اليها مضيقا ما بين عينيه محاولا اخافتها • ولكن ديسة لم يخفها ذلك •

ـ هذه ليست مشكلة • تعالوا ، ادخلوا ـ قال موسى محاولا تجنب الصدام• دخل العمدة الى الغرفة ، ولكن الضابط بقي في مكانه غاضبا لا يدري ما يفعل •

ـ لقد قتلوا لي حبشة لا مثيل لها في القرية كلها • قتل الله من قتلها •

ـ بماذا تخرفين ؟ قولي لي ، هل الحبشة هي التي خلقتك ؟ ـ قال زالمجري مقتربا منها وقد طارت سكرته من الغضب ـ يجب أن تفرحي عندما

يتنازل واحد مثلي ليأكل حبشتك • هل فهمت يا سيدة المقابر ! سيف امبراطور روسيا هو الذي سيأكل حبشتك ! •

ـ أرجو من الله أن تكون آخر حبشة يأكلها امبراطور روسيا •

ـ أغلقي فمك قبل أن أحطمه ـ قال زالمجري وقد بدأ يرتجف من الغضب •

ـ ولماذا اغلق فمي ، يا من حلت عليك لعنة الله •• وهل أنا الذي أكل حق غيري !

اقترب الضابط من العجوز النحيلة حتى كاد يلاصقها ، وسلط عليها عينيه القاسيتين محاولا ارهابها • ولكن ديسة لم تبال به ، وانما تابعت حديثها بنفس لهجتها الاولى •

ـ أقسم أنني سأرسلك الى حيث ذهبت حبشتك ـ قال الضابط مهددا •

ـ انني اقبل الذهاب عن طيب خاطر ، الى أي مكان لا أرى وجهك فيه ـ قالت ديسة دون أن تبدي أي دليل على التراجع •

ـ اذن اذهبي ولتحل عليك اللعنة ـ قال الضابط وهو يخرج مسدسه الماوزر بحركة خاطفة ، ويطلقه تحت قدمي ديسه •

ظنت ديسة أن الرصاصة قد أصابتها ، وكادت تقع أرضا • ولكنها فهمت بسرعة أنها لم تصبها فازدادت هياجا وصياحا •

ـ من أجل خاطر الله توقفي • ـ قال أحدهم وهو يرجو ديسه • ولكن ديسة كانت تزداد شراسة •

ـ اذا لم يتوقف ذلك الذي يذرع الشوارع مثل الخارجين عن القانون ، فلماذا أتوقف أنا ؟

ـ من هو الخارج على القانون ؟ ـ صاح بها الارالب •

ـ أنت يا صغيري • افعل كل ما تقدر عليه • غضبك ولا رضاك •

ـ اظنك لا تعرفين ، انني أنا الذي يطلقون عليه لقب « سيف الحكومة » ؟

ـ أعرف والله ، فلتكن سيف شؤم لصاحبك •

وارتبك الارالب حين لم يجد طريقة يسكت بها العجوز • وكان يلدار واقفا غير بعيد ، يتفرج على ما يحدث صامتا • فتوجه اليه :

ـ ماذا تفعل أنت ايضا هنا • هل جئت الى هنا لتثرثر كعادتك ؟

ولم يجبه يلدار بشيء •

ـ لماذا لا تدافع عن تلك المرأة التي تقيم القيامة ؟ أين استيمر هذا الذي دافع عنك ؟ أم انه هرب عندما رآني •

وتظاهر بأنه يبحث عنه بين الواقفين •

ـ استيمر ليس هنا ، انما ولداه هنا • ـ قال أحدهم من بين الجمع •
وعندما ذكروا اسم الاولاد • تذكر لماذا جاء الى هنا • وكانت ديسة واقفة في مكانها ما تزال تشتم • وكان زالمجري ما يزال يحمل مسدسه بيده، فوجهه صوب ديسة وأطلق النار مرة أخرى • أشفق يلدار على المرأة العجوز وأمسك بذراعها ليقودها خارج الدار •

وقال زالمجري وهو يصيح وراءهما :

ـ خذي هذه من أجل حبشتك ـ وأطلق رصاصة مرت من جانب أذنها •
ـ يا أمي المسكينة ! ـ قالت ساريمة وهي تركض خارجة من الغرفة • ولم تكن قد عرفت الى الآن سبب اطلاق النار •

كان نومار وموسى وماريات يقفون مرتبكين ، وهم يخشون الاقتراب من المفوض الذي يعرفون طباعه جيدا • فهو يفعل كل ما يخطر له ، ومن المستحيل ردعه عن أي شيء • وجميع من في الدار يعرف ذلك • لهذا لم يحاول أحد أن يتدخل •

ـ لماذا انتم واقفون هكذا ! وكأن الدم يغلي في أنوفكم ! هيا ! سنشرب حتى تبكي الكلاب • ـ قال زالمجري وهو يتجه الى البيت •

لم يعد أحد من الحاضرين يرغب في شيء من الطعام • ولكنهم خجلوا من الانصراف بحضور الضيوف • ومع الاقداح الاولى تنفسوا الصعداء شيئا فشيئا • وسمع عزف أكورديون • كانت الحفلة الراقصة على وشك أن تبدأ•

## حفلة راقصة
## جراسلان ويلدار

كانت حفلة الشكر التي أقامها موسى تيمنا بقدوم ولده الاول مستمرة• وكل من رأى الموائد المنصوبة وعليها ألوان من أطايب الطعام ، لم يستطع أن يمنع نفسه من الدخول • ولم يكن موسى في الحقيقة قد خسر شيئا من جيبه على هذا الاحتفال • فقد كانت عربات تجرها الثيران وأخرى تجرها الخيل تدخل الى باحة الدار باستمرار • وكانت محملة بجرار « الباخسمة » والذبائح وزجاجات الخمر المهربة وقد سدت فوهاتها بعرانيس الذرة • وسلال كبيرة تظهر منها أرجل الدجاج او الديكة الرومية •
كان أقارب موسى كثيرين •وكانت طريقة استقباله لكل واحد منهم

تتناسب مع الهدية التي أحضرها . فمن جاء منهم بعربة محملة بالهدايا كان يستقبله مبتسما ومرحبا به من بعيد ، ثم يعانقه ويصافحه بكلتا يديه . ومع أنه كان يتظاهر بأنه لا يرى الهدية التي أحضرها الضيف ، فلم يكن ليفوته شيء .. أما زوجة موسى الجميلة ، فقد كانت تخرج أحيانا لاستقبال الضيوف من النساء مستبشرة ، لا ينقطع لسانها عن ترديد أحلى كلمات الترحيب ، وأسنانها البيضاء تظهر من خلال ابتسامتها العريضة . وكانت تستقبل أخريات وهي في حالة رصينة كعادة السيدات من نساء النبلاء . فتعانق النساء ثلاث مرات وهي لا تتكلم الا همسا ، أو صامتة . ثم تصافحهن وتطرق برأسها . وكان بعض الشباب بقبعاتهم البيضاء المصنوعة من اللباد وأحذيتهم الريفية ، يدخلون هدايا الضيوف الى المطبخ . ويحملون الخراف الحية وهي تضرب بأرجلها ، ويتعاون اثنان أو ثلاثة منهم على حمل الجرار المليئة .

ـ انتبهوا ، اياكم ان تكسروها ـ كان الضيوف يقولون محذرين وهم يراقبونهم .

ـ طالت افراحكم ـ يبادر الضيوف بالدعاء ـ وجعل قدوم ابنكم الصغير خيرا وبركة ـ وأطال الله عمره وجعله سندا لكم في شيخوختكم .. أقسم بالله العلي القدير ، اننا عندما سمعنا بالخبر ، فرحنا فرحا عظيما وجئناكم مسرعين دون أن نتمكن من تحضير شيء يليق بهذه المناسبة . يا ولدي ، انتبه ، ربما أغمي على الخروف .

ـ والله كنت سأزعل لو لم تأتوا . ـ تقول زوجة موسى وهي توزع الضيوف بين المطبخ والبيت . تأخذ الضيوف الهامين الى البيت ، وتدخل الآخرين الى المطبخ .

وما أن حل المساء حتى بدأ الشبان حفلة الرقص في باحة الدار . ووقفت الفتيات بملابسهن الزاهية صفا بجانب الجدار . كان الشباب الذين لا يحق لهم الرقص عندما يحضر الكبار وتصبح الحفلة رسمية ، قد افتتحوا الحفلة الراقصة مغتنمين الفرصة للرقص قبل أن يحضر الضيوف والكبار ، وأخذوا يصفقون ضابطين ايقاع العزف بكل ما أوتوا من قوة . ووضعت عازفة الاوكورديون احدى قدميها على كرسي صغير ذي ثلاث أرجل حتى لا تتعب. وكلما امتد اللحن ، واتسعت مع اللحن فتحة الاكورديون ، كانت تميل برأسها ذات اليمين وذات اليسار وهي تعزف الالحان القديمة . وكانت تؤجل عزف لحنها المفضل حتى يأتي الشاب الذي تحبه . وكان الشباب الذين يصلون الى الاحتفال ، يقفون في الحلقة مباشرة ويبدأون بالتصفيق باحثين بأعينهم عن الفتاة التي أسرت البابهم .

وكانت الفتيات يرقصن حسب دور كل واحدة منهن في الصف . وعندما يأتي دور فتاة جميلة للرقص ، يقفز الى الساحة عدة شباب في وقت واحد.

وفي هذه الحالة كانوا يتركون اكبرهم سنا ويتراجعون وهم يدارون ندمهم على ترك الحلبة ، مصفقين بقوة ، مبتسمين للفتاة الجميلة ٠

عاد يلدار ووقف في الحلبة منتظرا دور ساريمة ليرقص معها ٠ ولكن ماذا اذا رفضت ان ترقص ! سيجمد في مكانه حتما دون أن يستطيع تحريك قدميه ، وسيتراجع بعد ذلك دون أن يرقص مع غيرها ٠ وكانت ساريمة تنظر نحوه وهي تحمل بحنان كبير المنديل الحريري الذي أرسله لها اليوم ٠ ورغم انها كانت تعتبر صغيرة السن لحضور حفلات الرقص ، فقد خصها الشباب بنظراتهم الطويلة ٠ وكان بعض الراقصين يتوقفون امامها أحيانا، ويقفزون عدة مرات في الهواء تعبيرا عن اعجابهم ٠ ولكنها كانت تقف وراء زميلاتها الاكبر سنا منها مؤدبة ، خجولة بعض الشيء ، ولم تقبل الوقوف في الصف الامامي ٠

كانت ساريمة تقول لنفسها أحيانا ، لماذا لا أتقدم وأرقص مع يلدار مستمتعة بقربه والنظر الى وجهه مباشرة ٠ ولكنها ما أن تنظر الى يلدار حتى يغلبها الخجل وتجمد في مكانها وهي تعبث بالمنديل الحريري ٠ وكان هم الشاب ان يتصيد نظراتها ، لذلك كان ينظر اليها طوال الوقت ٠ وكانت ساريمة تبتسم له أحيانا بكل وجهها ابتسامة خفيفة لا يمكن أن يلحظها أحد غيره ٠

قفز الى حلبة الرقص شاب نحيل طويل القامة ووقف امام ساريمة على رؤوس اصابعه كخنجر شركسي مغروز في الارض ، واخذ يدعوها الى الرقص بحركات سريعة متلاحقة من حاجبيه الطويلين المعقوفين ٠ كان الشاب ينادي ساريمة الى الرقص بكل كيانه ، بوقفته ونظراته ، وبذراعيه الممدودتين كجناحي نسر ٠ وفهمت الفتاة هذا النداء ، ولكنها وقفت مرتبكة لا تدري ما تفعل « هيا الى الرقص » همست في أذنها الفتاة التي تقف بجانبها ٠ وطارت ساريمة من الزاوية الى الساحة كفرخ السنونو الذي يخرج من عشه للمرة الاولى ٠ وأخذت ترقص أمام الشاب بخطوات تشبه حركة انسياب الماء ٠ وعندما مرت من جانب يلدار نظرت اليه من خلال رموشها نظرة تشبه لمعان النار في غابة كثيفة ، وكأنها تقول له : هل تراني ، لقد كبرت ! ٠

وعندما عادت ساريمة الى مكانها وقد احمرت وجنتاها بعد أن أنهت رقصتها ، بدأت عازفة الاكوردیون تعزف معزوفة « الوج » بالحاح من الشباب ٠ كان يلدار ينتظر هذه الرقصة بفارغ الصبر ليحدث ساريمة بكل مكنونات قلبه ٠ وكان خائفا من أن تنساها عريفة الحفل ولا تدعوها الى الرقص ٠ ولكن يبدو أن الشاب الطويل كان بانتظارها أيضا ٠فما أن امسكت عريفة الحفلة بأناملها لتقودها الى الحلبة ، حتى سارع اليها حارما يلدار من الرقص معها ٠ وبينما كان يلدار واقفا وهو يشعر بالندم على تباطؤه ، قدمت له العريفة فتاة شقراء صغيرة ، فانساق معها الى الحلبة ٠

أخذ عدد من الشباب يتناوبون الرقص مع ساريمة ، فما أن يمسك واحد بيدها ، حتى يخطفها آخر منه • وكان كل واحد منهم يضغط بقوة على يدها ليشعرها بميله اليها ، فشعرت بألم شديد في يدها ، وغامت عيناها بالدموع • وكان يلدار يرقص مع الفتاة الشقراء الصغيرة ، ويراقب ساريمة اينما ذهبت ، ويتعمد الاقتراب منها ويصيح « هيه » كأنه يحمس الراقصين ليلفت انتباهها ويحييها بحاجبيه • ونقل عينيه على أصدقائه متمنيا ان يأخذ أحدهم منه الفتاة الشقراء ويصبح طليقا ليرقص مع ساريمة ، ولكن احدا لم ينتبه الى مشكلته ، كما لم يجد من اللائق ان يعيد الفتاة الى مكانها قبل أن تنتهي الرقصة حتى لا يجرح مشاعرها •

وقبل أن تنتهي الرقصة ببضع دقائق ، انتبه أحد اصدقائه لما يعانيه وأخذ منه رفيقته • وعندما اصبح طليقا ، أسرع الى حيث ترقص فتاته ليخطف يدها من مراقصها • وكانت الفتاة بدورها لما رأته يقترب منها قد حررت نفسها ووقفت بجانبه مستسلمة وعندما أمسك يدها أخيرا انطلقا وقد تشابكت أصابعهما • وأخذت ساريمة ترقص ماتصقة بفتاها وقد انحنت قليلا • ونسي يلدار كل ما كان يريد أن يقوله لها • وبدلا من ذلك ضغط على يدها قليلا ، ولما أجابته بضغطة مماثلة على يده ، شعر بسعادة غامرة جعلته عاجزا عن فتح فمه بكلمة واحدة • وهكذا دارا معا حول الحلبة مرتين او ثلاثا • وعندما هم بأن يسر اليها بشيء ، اقترب منهما شاب ذو غرة كبيرة ، يرتدي معطفا رماديا وقال بضراعة :

ـ اسمح لي ، أرجوك •

وفي غمضة عين سحب منه الفتاة ، وانطلق بها يرقص متمايلا مع أنغام الاكورديون ، وهو ينظر اليها من فوق كتفيه نظرة نسر •• ومع أن يلدار كره أن يتركها بهذا الشكل ، فقد تحامل على نفسه وعاد الى مكانه وكأن شيئا لم يحدث وعيناه ما زالتا معلقتين بها • وعبرت غمامة وجه ساريمة وأخذت تنظر الى يلدار بعينين لامعتين من خلال رموشها السوداء الكثيفة بينما كانت ترقص بخطوات متباطئة غير مبالية بشريكها في الرقص •

خرج جراسلان من الغرفة ووقف رافعا ذراعيه وصاح :

ـ أوقفوا الرقص قليلا •

توقفت عازفة الاكورديون عن العزف ، وعادت الفتيات الى اماكنهن ، وتنحى الشباب جانبا مفسحين للرجل الذي وقف ليتكلم •

ـ اخوتي الصغار الطيبين ، اذا كان ذلك لا يزعجكم ، سيأتي المسنون الى الرقص ليتذكروا ايام شبابهم • ـ قال جراسلان •

ـ والله ان هذا لا يزعجنا •

ـ أقسم أن هذا من حقهم •

ـ ونحن سنصفق لهم ـ قال الشباب راضين ٠
ـ اعزفي رقصة « القافه » أيتها الجميلة ٠

وعاد جراسلان الى الغرفة ٠ وخرج معه بعد لحظة مجموعة من المسنين ٠ وأخذ الشباب يصفقون وكأنهم على وشك تحطيم أكفهم ٠

كان يرول هو أول من جرى الى ساحة الرقص وهو يبتسم ويمد يديه اليابستين كجناحي نسر لم يعد قادرا على الطيران ٠ ومر من أمام الفتيات اللواتي كن يبتسمن له ، وضاعف الشباب من تصفيقهم ٠٠٠

ومرت مسحة من القلق على وجوه الفتيات ، وبدأن بالتهامس ٠ وأخذت الفتاة الشقراء الواقفة بجانب ساريمة تنظر بخوف الى العتمة ٠ وأخذ الشباب يلتفتون وقد شغلهم شيء ما ٠ وكان المسنون الذين يصفقون وهم يتمايلون ، يرون المفوض الذي يبعث القلق لدى الجميع ٠ ولكن اعجابهم بطريقة رقص يرول شغلهم فاستغرقوا في النظر اليه ٠ وما أن أنهى يرول رقصته حتى دخل الساحة بلاتسة شامخا متظاهرا بالعظمة والخشونة ٠ لم يكن أهل القرية فقط هم الذين يعرفونه ، بل كان معروفا في المنطقة كلها ٠

وعندما يذكر اسم بلاتسة ، فان الكبار والصغار يضحكون لاخباره ونوادره التي يعرفونها جيدا ٠ ذات مرة ، ذهب بلاتسة الى غابة يملكها أحد النبلاء ، فصادفه حارس الغابة العنيد ٠ وعندما رأى الجسر الذي يحمله بلاتسه ، اعترضه قائلا : « ارم الجسر » « ارجوك اتركني ، لقد تزوجت حديثا وانني أبني بيتا يأوينا » تضرع اليه الرجل ٠ ولكن الحارس لم يقبل أن يتركه ٠ عندئذ سحبه بلاتسه عن ظهر حصانه ، وعمل له اللازم ، ثم ربطه الى دولاب عربته وخلع له سرواله ودهن قفاه جيدا بشحم الدولاب ، وأعاده الى ظهر حصانه كما هو وربطه جيدا فوقه كما يربط كيس من التبن، ثم ساقه امامه الى القرية ٠ وأخذ الحارس يستعطفه ، ويقسم له الايمان المغلظة انه لن يعترض طريقه مرة اخرى ولو قطع الغابة كلها ، فتركه ٠ ومنذ ذلك اليوم صار بلاتسة يذهب الى الغابة كلما أراد ، ويحتطب كما يشاء ٠

ومع أن بلاتسة أصبح الآن عجوزا ، فما زال ظاهر الحيوية ، كثير الكلام والمزاح ٠ وبالرغم من انه يتظاهر أحيانا أنه يشتم النساء ، فانه لم يغضب منهن طوال حياته ٠ لذلك كله أخذ الشباب يصفقون له راضين مبتسمين ٠ وارتفعت نداءات من هنا وهنالك :

ـ تذكر أيام شبابك يا بلاتسة ٠
ـ انني أشتري اليوم الذي بلغت فيه العشرين ، بعام كامل من حياتي بعد أن صار عمري مائة عام ٠ ـ قال العجوز مازحا ٠

رقص المسنون جميعا واحدا بعد الآخر ٠ ثم خرجوا ودخلَ جراسلان الى حلبة الرقص ٠ كان الناس يهابون جراسلان ويحترمونه ٠ وكانوا يعتبرون

الحفلة التي لا يحضرها ، ناقصة ، وغير جديرة بالحضور ·· اذا قيل ان حفلة قد أقيمت في مكان ما ، كان السؤال الاول الذي يتبادر الى الذهن « وهل حضرها جراسلان ؟ » فاذا قيل « لا » كانوا يعتبرون انهم لم يخسروا شيئا بعدم حضورهم تلك الحفلة · وكان الشاب ذو الاصل النبيل يعرف هذا جيدا ، فترك كل الاملاك التي ورثها عن أبيه لاخيه الاكبر ، وانطلق ليعيش حرا كما يشتهي · وكان يعيش فعلا حياة مليئة ، غير محتاج لاي شيء · وعندما نرى الفتيات هذا الشاب النبيل الصارم ، يقفن كطائر القطا الذي أرعبه النسر ·

عندما يصل الدور الى ساريمة ثانية لترقص ، سأقفز الى الحلبة لارقص معها · هكذا كان يلدار يخطط · ولما فرغت الحلبة من الراقصين وقف أمامها مليئا بالثقة وهو يدور حول نفسه · وتقدم في هذه اللحظة جراسلان الى الحلبة ، غير مبال بالشاب الذي يستعد ليرقص ، وقد لمع خنجره المذهب ، وأوعية البارود المذهبة التي يزين بها صدر سترته الشركسية · كان الاثنان يريدان مراقصة ساريمة · ووقفت الفتاة مرتبكة وقد احمرت وجنتاها خجلا ، وجمد الخوف قدميها بانتظار لمن ستكون الغلبة· ولكن لم يبد على أي واحد منهما أنه ينوي التراجع · في نظر جراسلان ، الشاب الذي يمكن أن يقف في طريقه لم يولد بعد ، هذا بالاضافة الى أنه من النبلاء ، وقد سبق له واستطاع ان يعلق تحت حزامه عددا كبيرا من الشباب أمثال يلدار · لذلك وقف يبتسم للفتاة متجاهلا الشاب الذي يزاحمه·

ولم يكن يلدار يستطيع أن يتنازل عن الرقصة التي انتظرها طوال الليل مع فتاته · اذا كان جراسلان نبيلا ، فليبق في حدود نبالته ، وليبحث عن فتاة نبيلة مثله · وفهمت ساريمة أن الامر لن ينتهي على خير ، لذلك شعرت بقلق عظيم ·

ووقف الشباب يفكرون بالجانب الذي سينحازون اليه ، اذا نشب عراك · واستدار جراسلان فجأة ونظر الى وجه الشاب مباشرة وقد اشتعل غضبه ووضع يده على مقبض خنجره المذهب · لكن يلدار لم يتراجع ، وبقي واقفا في مكانه مستعدا أن يسحب خنجره في لمح البصر حين يستدعي الامر ذلك · حدث كل هذا بشكل مفاجيء ، فأجفلت عازفة الاكورديون ، وصاحت مذعورة وسقط منها الاكورديون ووقع على الارض · وأسرعت ساريمة تقف بين الشابين :

ـ توقفا من أجل خاطر الله ـ قالت الفتاة بلهجة حازمة وغير متوقعة ممن كان في مثل سنها ·

ـ أنت لم تنل تربية كافية في بيتك لتتقيد بالتقاليد · ـ قال جراسلان·

ـ لن آتي اليك لاتعلم ما أجهله ـ رد يلدار بخشونة ٠

وأسرع بعض الشباب ، وسحبوا يلدار من الحلبة ٠ وفرحت ساريمـــة على انتهاء الموضوع بهذا الشكل ٠

# الفصل الثالث

## الحاكم يستدعي استيمر

خيم القلق على البيت ، فلم يغمض لاحد جفن حتى الفجر • فانشغل استيمر بتجهيز اسلحته وملابسه • ثم جلس يتحدث الى دومسارا والجدة بهدوء • ولما رأى أن الفجر قد طلع ، اخرج حصانه وأسرجه ثم انطلق تاركا المرأتين عند البوابة تدعوان له بالتوفيق • وعادت دومسارا والجدة الى البيت تمسحان دموعهما ، وفي هذه الاثناء كان « لو » قد قفز من فراشه وتسلق الشجرة دون أن يراه أحد ليراقب الطريق التي سيسلكها والده • أن قرية شعلمفوقة تطل على نالتشك بطبيعة الحال • أما اذا تسلقت شجرة ، فانك تراها بشكل افضل • لم يكن « لو » قد ذهب الى المدينة بعد ، وهو في شوق لزيارتها • لقد وعده يلدار أن يأخذه معه • ولكن متى يذهب ؟

وصل استيمر الى نالتشك بعد حوالي نصف ساعة • وترك حصانه عند احد معارفه ، ومضى صعدا في شارع « اليزابت » متجها الى شارع تسيركوف •

وصادف في الشارع عددا كبيرا من الضباط المهندمين الذين يلبسون أزهى الملابس ، ويحملون أفضل المسدسات ، والسيوف القوزاقية تتدلى من أوساطهم ، وعلى أكتافهم تلمع الكتافيات المذهبة • وكان بعضهم يضع مهمازا على عقبيه ، فيصدر عندما يمشي ايقاعا موزونا « دزم ، دزم » وكانت البرانس المشدودة الى أجسادهم بخيوط حريرية مجدولة ، ملقية وراء ظهورهم • لم تكن على شارع اليزابت في ذلك الوقت أية بيوت من طابقين• فالبيوت كلها عوجاء من طابق واحد • وهنالك مطعم في أحد تلك البيوت تفوح منه رائحة مرق اللحم الطيبة والشواء • وسمع أصوات الضباط الذين يأكلون في الداخل ممزوجا بضحكات نسائية •

وكان أستيمر يلتقي في طريقه ، بعدد كبير من النساء الجميلات • وعلم

في المدينة ، أن قائد فرقة « توزيمن » النبيل كفكفادزة ، وقائد الفوج القباردي فورونسوف داشكوف ابن صاحب السمو الملكي سيزوران نالتشك قريبا ٠

بالرغم من قرب المدينة ، لم يكن من عادة استيمر ان يأتي اليها كثيرا ٠ وما كان ليأتي اليوم لو لم يستدعوه ٠ اذا استدعاك الحاكم فكأن الله هو الذي استدعاك ولا بد من الطاعة ٠ والآن ، وفي مثل هذا الزحام قد تلتقي بمن لا تود لقاءه ٠ هكذا كان يفكر استيمر وهو يسير نحو مقر حاكم قبارديا ٠٠ كان الشارع موحلا بسبب الامطار التي هطلت منذ مدة قريبة ٠ ورأى عددا من الخنازير تمرح في برك الماء القذرة ٠ الستائر مسدلة على النوافذ المطلة على الشارع ، اما الجدران فمهترئة ، تساقط عنها الطين وبانت الالواح الخشبية التي بنيت بها هذه الجدران ٠ وعلى اغصان الاشجار القليلة في باحات الدور ، جلست دجاجات كسولة ٠ وعندما وصل أستيمر الى مقر « قلشبي » سمع صوت تصايح الضباط من جديد ٠ لم يكن مقر الحاكم مؤلفا سوى من طابق واحد أيضا ٠ وهو عبارة عن بيت طويل مبني باللبن ، ومسقوف بالتوتياء ٠ في منتصفه درج منخفض ، ويطل أحد جانبيه على بستان تظهر أشجاره من وراء سور حجري ٠ وبعد البستان ، انتصبت بيوت قليلة على مرتفع من الارض ٠ وبين البستان وهذه البيوت انتصبت كنيسة ، وعلى يمينها ثانوية قبارديا المؤلفة منطابقين ، وغير بعيد عن الثانوية يقع مستشفى ، وبجانب المستشفى ، السجن المحاط بأسلاك شائكة ٠

وقف أمام باب مقر قلشبي عدد من الشراكسة والقرهشاي ٠ وكانت العربات والخيل والحمير التي جاءوا بها تقف غير بعيد عن المبني ٠ ولكل واحد منهم مشكلته الخاصة ولكنهم كانوا جميعا يقفون هنا لسبب واحد ، هو لقاء الحاكم ٠ ولكنهم لا يعرفون متى يحين دورهم للدخول عليه ٠ لذلك جلس بعضهم في عرباتهم بينما وقف آخرون يتفرجون ٠

لم يجرؤ أستيمر على الدخول الى مقر الحاكم مباشرة ٠ وبعد أن انتظر قليلا فكر : « بما أنه هو الذي استدعاني ، فلا بد انه بحاجة الي ، ومن الافضل أن ادخل » وهكذا تجاهل الدور ودلف الى المبنى ٠

في الغرفة الكبيرة التي دخل اليها كان يجلس سكرتير أصلع وراء الطاولة وقد مال برأسه جانبا متمتما اثناء الكتابة ، وكانت نظارته معلقة فوق أرنبة أنفه ، وبدا منشغلا بما بين يديه عن كل ما يجري حوله ٠

ـ السلام عليكم أيها المواطن ! ـ قال أستيمر ٠ ولكن السكرتير تظاهر بأنه لم يسمعه ٠ وبعد قليل توقف عن الكتابة ونظر اليه من فوق نظارته متسائلا :

ـ هل أنت ايضا من المشتركين في قضية جراسلان ؟

ـ والله لا أعرف أيها المواطن ٠ قالوا لي انهم يطلبونك فجئت ـ تمتم أستيمر مضطربا ٠

ـ هل أنت مشترك أم لا ؟
ـ أنا حارس مزروعات ٠
ـ من أين جئت ؟

وذكر له أستيمر من أين جاء ، ولماذا جاء ، ومن أرسله ، آملا ان يكونوا قد استدعوه خطأ ٠ وطلب السماح له بالانصراف اذا لم يكونوا بحاجة اليه٠

ـ من أنت ؟
ـ انا أستيمر ٠
ـ أنا لا أريد اسمك ، اذكر لي اسم عائلتك أيها الغبي !
وذكر له أستيمر اسم عائلته ٠
ـ وكيف ذلك ؟ تأتي الى الحاكم دون ان تعرف لماذا أتيت ! مـــاذا ستقول له عندما تدخل عليه ؟٠ ماذا قلت انه اسم عائلتك ؟

وذكر له أستيمر اسمه واسم عائلته مرة ثانية ٠ وبدا على الرجل انه تذكر شيئا ٠
ـ آه ٠٠٠ تنح جانبا واجلس ، قال السكرتير أخيرا ، ثم عاد الى أوراقه ٠

وقف أستيمر بجانب النافذة المطلة على الشارع العام وأخذ ينظر الـى المتجمهرين ٠ ولفت نظره رجل طويل القامة من « الاستين » (١) وهو يلاسن أحدهم ملوحا بسوطه ، وعرف غريم الرجل رأسا ٠ انه جراسلان ، وقد وقف غير مبال بكلام الاستيني ممسكا بلجام حصانه الجميل ٠ ولم يفهم أستيمر لماذا سأله الموظف « هل أنت أيضا من المشتركين في قضية جراسلان ؟ » ولا لماذا وقف الاخير ساكنا لا يرد على تهجم الاستيني عليه ٠ وفي هذه اللحظـة دخل ضابطان يحدثان رنينا بمهمازيهما وتوجها الى مكتب قلشبي دون أن يتوقفا ٠ ودخل وراءهما مباشرة « أرالب زالمجري » وهو في غاية التأنــق وتوقف في غرفة السكرتير ٠ وقد اتخذ هيئة من يتابع قضية هامة ومعقـدة٠ ورغم أن لحيته محلوقة حديثا ، فلم يكن ذلك قد جعل وجهه اكثر قبـولا ٠ وأخذ يحرك كتفيه بالتناوب ، ويأتي بحركات تدل على نفاذ الصبر ٠وعندما رأى استيمر أخذ يتمتم بكلام غير واضح من قبيل « اظن انهم جروك كما يجر التيس ٠ أصبروا قليلا ، سأحرقكم حرقا ٠ » ٠ ولكن استيمـــر لم يعـــره اهتماما كبيرا ، فقد سمع صوت الحاكم بعد دخول الضابطين واغلاق البـاب مباشرة ٠ وحاول من خلال أحاديثهم التي استطاع ان يلتقطها ، ان يفهـــم لماذا استدعوه ، ولكنه لم يتوصل الى شيء ٠

انفتح باب مكتب الحاكم فجأة واندفع منه كالقنبلة رجل أشقر بديـن يرتدي معطفا شركسيا أبيض وقلبقا رماديا ، ومزين صدره بمواسير صغيرة

---

(١) ـــ من شعوب القفقاس

من العاج تستعمل لحفظ البارود (٢) • ومظهره يوحي بالسلطة وحدة الطباع • هذا الرجل هو قلشبي نفسه ، الذي كان الناس يتجنبونه لما عرف عنه من الخشونة •

## قلشبي وجراسلان

ـ أين هو ؟ ـ قال قلشبي وهو يقتحم الغرفة غاضبا والشرر يتطاير من عينيه ، وأمعن النظر في أرالب ثم في أستيمر ـ أقسم انني سأريه نجوم عينيه • ومن هذا ؟

أخذ الضابطان ينظران الى أرالب وكأنهما يطلبان منه أن يقول شيئا • وبالرغم من أن أرالب لم يكن يتمتع بشكل جذاب ، فقد كان يعرف ما يقول في الوقت المناسب •

ـ هذا بوتش الناظور الذي استدعيته بعد أن حدثتك عنه • ـ قال باختصار •

آه • انتظر انت هنا الآن ـ وخرج قلشبي من المبنى وهو يقول :

ـ هيا معي يا أرالب •

وصمت الجميع • كان جراسلان ما يزال واقفا يستمع الى شتائم النبيل الاستيني الذي صمت هو الآخر بعد خروج الحاكم ، وتوجهت جميع الانظار الى جراسلان •

لم يرفع جراسلان رأسه • كانت نظراته معلقة بركاب حصان أحدهم • ورغم أنه يخيل اليك انه لا ينظر الى أحد ، فقد كان يرى كل الواقفين حوله، ويسمع كل ما يقال جيدا • كانقلشبي من أبناء عم جراسلان ويعتبره أخا أكبر له ، لذلك وقف متأدبا ، معتبرا ان كل ما سيقوله له هي أوامر واجبة الطاعة والتنفيذ • وقال في نفسه ، انه مهما كان قاسيا فلن يهينني أمام الناس ، فنحن أخوة على أية حال • ولشدة غضب الحاكم وقف وهو يتنفس بصعوبة ، ولا يجد الكلمات المناسبة • فقال النبيل الاستيني بالروسية :

ـ ماذا عملت لك حتى تفعل بي هذا ! هل بيني وبينك أي عداء سابق! هل اسأت اليك من قبل ؟

ـ اغفر لي ايها النبيل « خازبولات » لقد اساؤوا اليك اساءة بالغة ـ قال ابن قلشبي مسايرا • وخطا بضع خطوات ، وهو ينظر بعينين مشحونتين بالغضب نحو أخيه الذي القي القبض عليه وهو يسرق الخيل •

ـ أنت أيها الساقط ، لقد جلبت لنا العار • كيف سننظر الى وجوه

(٢) من متممات الزي الشركسي •

الناس بعد الآن ؟ • لقد جلبت العار للعائلة كلها • كنت أفضل لو مت ودفنتك بيدي هاتين قبل أن نراك اليوم في مثل هذا الموقف • لقد جلبت العار لبلاد « قباردیا » كلها • لقد دست بقدميك على كل سمعتنا وشرفنا ، وجعلتنا نطرق من الخجل • هل تفهم معنى هذا أيها اللعين ! وممن سرقت ؟ الا تعرف ان النبيل «خازبولات» قد أنتقى ثمانين حصانا من أفضل خيله وقدمها هدية الى فرقة « توزيمن » ؟ لماذا لم تفكر بذلك ؟ نبيل يسرق من نبيل ، أهذا ما وصلنا اليه الآن ؟ اليس هذا ما يتمناه لابسو جلود الغنم المهترئة (٣) ؟ قل !

لم ينبس جراسلان ببنت شفة • بينما قال النبيل الاستيني وقد نزلت كلمات قلشبي كالبلسم على قلبه :

ـ يا سيدي ، اذا كان جراسلان يحتاج الى حصان للركوب ، فهل يضن عليه مثلي بحصان مسرج ؟ الآن أمنحه حصانا اذا طلبه مني • واذا كان يريد أن يدعو بعض الضيوف وليس عنده ما يقدمه لهم ، فان عشرة رؤوس من الغنم ليست شيئا ذا بال ، ليسألني فقط وانا أقدمها له • نحن جيران (٤) ، وبيننا زيارات ومن واجبنا ان نتعارف • أصابع اليد الخمسة مجتمعة قوية ، أما متفرقة فهي لا شيء • نحن الامراء والنبلاء ، قوتنا في تضامننا ، اما اذا كنا فرادى فنحن لا شيء • وكما يقول المثل « اذا كنت وحدك فكأنك اثنان ، أما اذا لم تكونا سوى اثنين فأنتما ضائعان » لماذا يسرق جراسلان من عند واحد مثلي ؟ •

ـ انت مصيب في كل ما قلته يا خازبولات • وفي كلامك منتهي العقل والحكمة لمن يفهم •

ـ قال قلشبي ـ جراسلان ليس نبيلا ، انه لص من ذوي الاظافر القذرة (٥) •

لم يكن أستيمر يرى من موقفه عند النافذة غير جراسلان • كان الشاب الذي لم يخفض رأسه طوال حياته ، يقف الآن مطأطئا شاحبا شحوب الاموات ، لا تكاد تعرفه لشدة شحوبه • ورفع رأسه فجأة وقال :

ـ نحن كلنا لصوص •

فوجيء الجميع ومرت لحظة صمت ثقيلة • انفجر بعدها قلشبي •

ـ من هو اللص غيرك ؟ من تعني بقولك « جميعا » ؟ أنت اللص • أنت أيها الظفر القذر • اذا لم يقيدوا يديك وقدميك فذلك من أجل اسم أبي

(٣) ـ يقصد عامة الشعب

(٤) ـ منطقة الاستين محاذية لمنطقة قباردیا • (٥) ـ يقصد عامة الشعب الذين يعملون بأيديهم •

الذي تحمله .لولا ذلك ، لاتوا بك مربوطا ككيس من القنب . ألا تفهم ذلك ؟ كيف لا تخجل ، الست رجلا ، اليس لك شاربان ؟

عند ذلك لم يعد جراسلان يطيق صبرا فاستدار نحو أخيه قائلا :

ـ مهما فعلت يا أخي ، فلم أهرب خوفا من خنجر سحب علي .

فهم قلشبي ما يعنيه جراسلان . فأيام انتفاضة « دزلوقة » ، كان قلشبي قد ذهب الى المدينة يخمد الانتفاضة التي حمل فيها الكادحون السلاح وألقى القبض على عدد كبير من الناس وأودعهم السجن . وفي أثناء تلك الانتفاضة ، صادف ذات مرة جمهرة كبيرة من الناس فأراد أن يخيفهم ويفرقهم . ولكن عددا من الشباب سحبوا خناجرهم وهجموا عليه فولى ابن قلشبي الادبار (٦) .

ـ انت الذي حققت البطولات اذن ؟ . يا من مرغت اسم العائلة في الوحل ! أنت الذي تستحق الاحترام ؟ ـ قال ابن قلشبي وركض نحو جراسلان ، وفي غمضة عين أمسك شارب الرجل وشده بكل قوته فخلعه مع قطعة من الجلد واللحم . وأخذ الدم يسيل بغزارة منه وينحدر من ذقنه على صدره وعلى حافظات البارود الموشاة بالذهب والتي يزين بها صدر معطفه الشركسي . ومع ذلك لم ينبس جراسلان بكلمة ولم تبدر منه أية حركة سوى تقطيبة جبينه . وألقى ابن قلشبي ضمة الشعر التي علقت بين أصابعه على الارض قريبا من النبيل الاستيني . فأخذ الجميع ينظرون اليها ، وكأنهم ينظرون الى شيء رهيب وثمين .

ـ قل لي يا خازبولات .هل بقي لك دين علي ؟ ـ قال قلشبي وهو يلتفت الى الاستيني .

ـ لا يا سيدي . ان الله يرانا . ـ قال النبيل الاستيني والتقط ضمة الشعر التي أمامه ، وكان سيضعها في عبه مع كل ما تثيره في نفسه من عواطف متناقضة ، ولكنه عدل عن رأيه وأعادها الى الارض بهدوء .

ـ اذن مع السلامة .

صعد قلشبي الدرجات المؤدية الى المبنى بسرعة واستدار بعصبية وقال :

ـ انا لن أرحم أي واحد يعتدي على أملاك النبلاء كائنا من كان . اللصوص والبلاشفة لا فرق بينهم ، وسأستل أرواحهم بيدي هاتين . بلغوا ذلك عني للجميع .

قفز جراسلان على ظهر جواده وانطلق راكضا وقد وضع منديلا على الجرح فوق شفته العليا . ولم يخطر ببال أحد أن يوقفه . ورغم أن قلشبي

---

(٦) اكبر ما يعير به الرجل في زمن الفروسية .

دخل المبنى ، فقد بقي النبيل الاستيني واقفا يحدق في الباب الذي دخل منه ٠ واخيرا قال راضيا عن كل ما رآه :

ـ رفع الله من شأنك ! الى اللقاء ! ٠

ولم يتفرق الناس ٠ بل كان عددهم يزيد باستمرار ٠ كان شعور مزيج من الاستغراب والاستهجان لما حدث يعمرهم وهم ينظرون الى ضمة الشعر المخلوعة من شارب جراسلان نظرتهم الى بطل صريع ٠ وقد شهد ما حدث، كل الاولاد الموجودين في الاحياء المجاورة ، وكذلك الرجال الذين حضروا الى سوق المدينة الاسبوعي ٠ ورغم الزحام الشديد ، فقد تجنب الجميع ان يدوسوا على نقط الدم المتجمدة على حجر ٠
ورسخت أحداث ذلك اليوم في أذهان الكثيرين ٠

## ابن قلشبي واستيمر

بقي أستيمر طوال النهار في مكانه لا يبرحه بانتظار استدعائه الى مكتب الحاكم ٠ ولم يكن يسمح بالدخول سوى لبعض الضباط ، او الذين جاؤوا بمهمات خاصة من أماكن بعيدة ٠ أكثر ما كان يقلق أستيمر هو بقاء « أرالب زالمجري » في نفس الغرفة ٠ وكان الاخير في غاية الاعجاب بما فعله الحاكم اليوم ٠ وهو الآن لا يستقر على كرسيه ، يتكلم أحيانا دون أن تفهم ما يقول ٠ ويلتفت احيانا أخرى الى استيمر وكأنه يريد أن يقول شيئا ثم يعدل عن رأيه ويتنحنح ٠
نادى الحاجب ، فقفز السكرتير فوق كرسيه ٠

ـ ليدخل آرالب ورفيقه ٠

وقفز زالمجري ايضا وأخذ يسوي من هندامه ، ثم مشى بخطوات موزونة وهو يمسك سيفه المتدلي من وسطه بيده اليسرى ، ولكنه ما أن عبر الباب حتى توقف بعد بضع خطوات ٠

ـ أين الآخر ، هل انصرف ؟
ـ لماذا لا تدخل أيها الكسول ؟ ـ قال السكرتير قلقا ٠

ومشى أستيمر بخطوات بطيئة متثاقلا ، وعبر الباب متأدبا شأن من يحترم نفسه ووقف بجانب زالمجري ٠
كان حاكم قبارديا جالسا يطل عليهما من وراء طاولة فخمة ٠ ورغم أن المحبرة أنيقة وبارزة ، فلم يكن يبدو على الرجل أنه من الذين يستعملون القلم والمحبرة كثيرا ٠

ـ أهذا هو الذي طردوه من المسجد ، والذي يملأ الدنيا ثرثرة ؟ ـ سأل الحاكم ٠

ـ هذا هو بعينه ٠٠ من لا يملك سوى هذا الشكل هو الذي يشكو منه المتدينون المحترمون ٠

انه لا يحترم كبيرا ، ولا يشفق على صغير ٠ ما قاله في اجتماع القرية وحده كاف لان تجعلهم يجرونه الى سيبريا بسببه ـ قال أرالب وهو يفرغ كل ما في جعبته ٠

ـ حسبما أسمع عنك فأنت رجل لا يستهان به ٠ من أين لك كل هذه الشجاعة ؟ ـ سأله الحاكم ٠

لم يعرف استيمر ماذا يقول ٠ وكان الحاكم يقرأ من ورقة أمامه ويسأل:

ـ هل أنت من آل بوتش ؟

ـ نعم أنا بوتش أستيمر ٠

ـ عندما تخاطب من هو أكبر منك ، فتكلم كما ينبغي ٠ قل يا « سيدي » أو يا « صاحب المعالي » الم تسمع بمثل هذه الكلمات ؟ اذا لم تكن قد سمعتها فها أنا قدقلتها لك ٠ لماذا طردوك من المسجد ؟

لم يخطر ببال أستيمر انه سيوجه اليه مثل هذا السؤال ٠ فقد مضى وقت طويل على شجاره مع الحاج ٠ حتى أهل القرية كانوا قد نسوا ذلك ولم يعد أحد يتذكره ٠ ولكن يبدو أن هنالك بعض الناس الذين لا ينسون مثل هذه الاحداث ٠ وكان من الواجب ان يجيب على سؤال الحاكم ٠

ـ لانني كنت قد تشاجرت مع الحاج ٠

ـ ذلك الذي مات متجمدا من البرد ؟

ـ نعم يا سيدي ٠

ـ فقط من أجل ذلك ؟

ـ ندمت على ذلك الآن ٠ لقد مات المرحوم ٠ ورغم ان المثل يقول « اذا أردت أن تكذب فضع الحق على الميت » فأنا لا أستطيع ان أكذب ٠ لا يوجد غير ذلك ٠

ـ من رأى عالما يقاتل ؟ كيف تحمل عصا وتقاتل وأنت تحمل كتاب الله ؟ أظن أنك تحفظ القرآن جيدا ٠٠٠ أنت مثل يأجوج ومأجوج ، وماذا كنت ستعمل لو لم تكن متعلما ! هل لك أولاد ؟ ـ وسأله ابن قلشبي اسئلة اخرى كثيرة ، مثل الى أي الامكنة ذهب ، وبمن التقى ٠٠ الخ ٠ وشعر استيمر بالقلق بسبب كل هذه الاسئلة ٠

ـ وهكذا وضعت القرآن الذي حفظته جانبا ٠ ألم تخطىء يا ترى عند هذه النقطة ؟٠ ها ؟ هذه بداية جيدة ، اليس كذلك ؟ لا عدمت طالب علم مثلك ! ٠

ـ لم أعد طالب علم ٠٠ سنختصر حديثنا ٠ هيا يا زالمجري ، اذهب وأنجز اعمالك لن نوقف أحدا اليوم ٠ لا تقلق يا أستيمر فانا لا أعنيك ٠ هل رأيت ما فعلته اليوم بسارق الخيل ؟ سيكون الامر كذلك دائما ٠ لا مجال للرحمة بعد اليوم ، اذا لم أسلخ جلودهم بأظافري فأنا لست قلشبي ٠ ان دمي يغلي كلما رأيت واحدا تفوح منه رائحة البلشفية ٠ هل فهمت ؟ ها ؟ لا تنس ذلك من أجل مصلحتك يا آرالب ٠ أبق عينيك مفتوحتين عليهم ، وأبلغني بكل ما يقولونه ٠ أحضرهم الي فقط ودع لي الباقي ٠ هيا الآن ، انصرف ٠ سأهتم بنفسي بأمر هذا ٠ وأنت يا بوتش اغلق الباب ٠

لم يفهم زالمجري لماذا ينبغي عليه أن يخرج ، ولكنه خرج لان الحاكم أمره بذلك ٠ وأغلق الباب ٠

ـ تعال الى هنا ٠!

اقترب استيمر من مكتب الحاكم وقد شعر بالخوف قليلا ٠ وبالرغم من انه طمأن نفسه بأنه سيتركه بعد أن صرف أرالب ولن يوقفه ، فلم يفارقه القلق ٠ وأخذ قلشبي يفكر بشيء ما وهو يقلب بين يديه تمثالا صغيرا يستعمل ثقالة أوراق ويمعن النظر في هذا البوتش ٠

ـ لقد سمعت « شروان بيرد » يمتدحك ٠ يقول انك تحفظ القرآن ٠ ان أمثالك أيضا ينفعون ٠ اننا نحتاج الى واعظ في فوج قبارديا ، وقد استدعيتك من أجل ذلك ٠ كيف تنظر الى الامر ؟٠

لم يفهم استيمر تماما ما يريده الحاكم ٠

ـ اننا نجند المزيد من الفرسان للفوج ٠ شردان بيرد يهتم بهذا الامر ، هل فهمت ؟ الكونت فورنسوف داشكوف قائد فوج قبارديا سيصل غدا مع قائد الفرقة الجناز (٧) « كفكفادزة » سأخبرهم اذا كنت موافقا ٠ هل فهمت ؟ لن أقبل أي اعتذار ٠ اذا اختاروك لمنصب كهذا فيجب ان تقبل به وتكتفي بهذا القدر من التقدير ٠ اتظن أنني لا أعرف ما يدور من أخبار ؟ ـ قال قلشبي وهو يرفع صوته ـ لقد استشهد « محضيدة » نتيجة لتهوره ٠ نحن لا نريد مجانين ٠ هذه أوقات عصيبة ٠ من لا يستطيع أن يفكر ، لا يمكن ان ينفعنا في شيء ٠ اذا قالوا لك « الوطن والملك امانة في عنقك ، يجب أن لا تتراجع حتى لو ضحيت بروحك » هذا ما يجب ان يقال للجنود ٠ لقد لاقى محضيدة المصير الذي يستحقه ٠ هيا الآن افرنقع ، وفكر بما قلته لك وعد الي ٠لن اقبل اي اعتذار ، اذا لم تقبل بما عرضته عليك سأجعلهم يجندونك ويجروك كجندي ٠ هيا افرنقع الآن ـ صاح به قلشبي ٠

(٧) ـ من ألقاب النبلاء ٠

كان واضحا تماما كيف ينظر حاكم قبارديا الى الامر • فقد ذكر امامه اسم « بوتش استيمر » مرارا بمناسبة نزاعه مع الحاج يونس • وكان جماعة شردان بيرد يقولون أشياء كثيرة عنه • يقولون مثلا ، انه يحفظ القرآن ، ولكن قلبه ليس مع الله • وأن الفقراء يستمعون اليه ويوقظهم ، ويدفعهم الى التفكير في اشياء لا تخطر ببالهم •• انه لا يؤمن بالدين ، ولكنه يعرف اللغة العربية جيدا ويشرح لهم معاني القرآن باللغة الشركسية بطريقة تدفعهم الى التمرد • وهو بالاضافة لذلك عنيد وشرس • فقد تشاجر مع الحاج يونس وضربه ضربا مبرحا • والخطر يكمن في أن الناس يصدقونه •• وبعد أن فكر ابن قلشبي في كل هذه الاشياء خطر له :

كان « محضيدة علي » واعظا للفوج فاستشهد ويجب ان نجد بديلا له يحفظ القرآن • وأن يكون متحدثا بارعا • ان استيمر هو الرجل المناسب تماما ، فلماذا لا نرسله •

اما محضيدة علي فكان قد استشهد بالشكل التالي : في الجبهة ، كثر عدد القتلى من الجنود فأخذ يعظهم ، وأكد لهم أن من يضع حجابا سيكتبه لهم فلن يصيبه الرصاص • وكيف لن يصيبه ؟ لان الله تعالى سوف يحميه •• اذن ، أرنا ذلك ! انظروا • سأضع انا الحجاب اولا وأطلقوا علي النار • ووقف المحضيدة بعيدا ظانا أن احدا لن يصوب عليه • ولكنه أصيب من الطلقة الاولى •

كان من واجبات الواعظ أن يقنع عددا كبيرا من الفرسان بالذهاب الى الجبهة • ولا يوجد أحسن من بوتش أستيمر لهذه المهمة • واغتم استيمر • لم يكن قد خطر بباله أن اموره ستتعقد بهذا الشكل • انه يستطيع ان يتدبر أمر نفسه ، ولكن الاولاد ، ماذا سيكون مصيرهم بعد رحيله •

ـ ماذا ؟ لماذا لا تقول شيئا ؟ •

ـ لن أقدر على هذه المهمة يا سيدي • لن اقدر •

ـ اأنت الذي تقرر هذا أم أنا ؟ ـ قال ابن قلشبي غاضبا •

ـ أنا أب لاسرة كبيرة ، ولا يوجد أحد يهتم بأولادي ، سيلحقهم غبن كبير ، أرجوك •

ـ اذا لم تذهب بالحسنى فسأجعلهم يجرونك كالتيس • أهكذا تقابل المعروف ، الا تخجل !

ـ أنا انتهيت مما أريد قوله • اذا قبلت رجائي كان بها ، واذا لم تقبل فلا أرى داعيا للنقاش أكثر من ذلك •

ـ ماذا قلت ؟ ما الذي لا تراه ؟ من الذي ينهي النقاش أنت ام انا يا ابن الارملة ! انت •• أتظن أنني سأرجوك جاثيا على ركبتي ؟ اذا كان هذا لا يعجبك فالى الجحيم • أمهلك حتى الغد • هيا انقلع • قال لا أرى داعيا للنقاش • لقد زدتها يا أبن الكلبة السائبة •

كان المساء قد حل عندما ركب أستيمر جواده للعودة الى القرية • ورغم الحاح مضيفه أن يبقى للعشاء لم يقبل قائلا انه على عجلة من امره وعليه أن يصل الى البيت بسرعة • وعندما اقترب استيمر من القرية ورأى هياكل أشجار الحور العالية ؛ وشجرة الصفصاف الكبيرة التي تغطي طاحونة الماء العتيقة ، وشم رائحة دخان الجلة ، غمرت الطمأنينة قلبه • وأفلت القمر من بين الغيوم السوداء فغمر نوره نهر شعلمفوقة وكل بيوت القرية • وفكر أستيمر ، انه لا يستطيع أن يترك هذه القرية ويرحل • وعندما قطع النهر ودخل القرية ، أخذت بعض الكلاب تنبح ، وسمع صوت عجلات عربة • « مهما حدث فلن أترك هذه القرية • وليفعل ابن قلشبي ما يشاء » أكد استيمر لنفسه •

وعندما وصل الى شجرة السفرجل عند المقبرة القديمة ، قفز من العتمة شيء كاد يجفل منه الحصان •

ـ أبي ! اهذا انت ؟ ـ قال «لو» وهو يركض نحوه •

كان الولد ينتظر أباه قلقا تحت الشجرة •

ـ ماذا تفعل هنا ؟ ـ قال أستيمر وهو يلجم حصانه •

ـ الجدة ودومسارا تيكيان ، تظنان أنهم قد حبسوك ، وقد خرجت انا لارى اذا كنت قادما •

ـ ولماذا يسجنونني ، لقد عدت كما ترى •

ـ كنت سآتي أنا ويلدار غدا لزيارتك في السجن • لقد زارنا يلدار وقال : « سوف نذهب الى السجن أنا وأنت ونجعلهم يطلقون سراحه » • يقول ان الجيش سيغادر المدينة غدا • وأن جنرالا سيأتي • هل تسمح لي بالذهاب مع يلدار يا أبي ؟ ـ قال « لو » وهو يهرول بجانب الحصان •

ـ سنرى غدا يا «لو» •

لم ينم أستيمر في تلك الليلة باكرا • وجلست دومسارا والجدة تستمعان الى حديثه حزينتين مطرقتين • ولم تنبسا طوال الليل سوى ببضع كلمات متفرقات • وبقي « لو » يسترق السمع الى أحاديثهم مستغربا قصة ابن قلشبي • وعندما وصل الحديث الى شارب جراسلان كان النعاس قد غلبه تماما وأصبح عاجزا عن فتح عينيه ، ولكنه استمر في الاستماع الى الحديث، وأخيرا قامت دومسارا وأوقدت نارا وأخذت تسخن العشاء وبقيت الجدة جالسة على فروة الصلاة وهي تعيد كل ما حفظته من أدعية وآيات باللغة العربية مرة بعد أخرى • ثم أخذت تسبح بمسبحتها وتهمس دون انقطاع لفترة طويلة •

ان الكبار لا يفهمون • ويضيعون الوقت بالجدال والنقاش • غدا يوجد احتفال كبير ، ومع ذلك لا يقول هيا الى نالتشك غدا ، يلدار أمضى نهاره وهو يتهيأ ؛ استعار معطفا جديدا ، ولمع حذاءه ، ونظف قلبقه • كم أصبح

أنيقا . لو رأته ساريمة بهندامه الجديد لوقعت في حبائله فورا . وهـــذا بالضبط ما كان يسعى اليه يلدار . نام « لو » وهو يفكر بكل هذه الاشياء ، ولا يجد تفسيرا لماذا لا يريد والده أن يرى الفرسان الذين سيلتحقون بفـــوج قبارديا ، والجنرال القادم الى نالتشك . وفي الصباح الباكر وصل يلدار .

ـ « تيمبوت » « لو » هيا اذا كنتما ذاهبين . أما زلتما نائمـــين ؟ دومسارا ، أيقظيهما رجاء ـ كان يلدار ينادي وكلاب الحي تنبح .

ـ دومسارا ! هذا يلدار . هل ستسمحين لنا بالذهاب ! ـ قال تيمبـوت وهو يجلس في فراشه .

وكان « لو » أيضا قد أفاق وأخذ يفرك عينيه .

ـ أنا لا أعرف يا صغيري . اسأل أباكما . لقد نام الآن فقط ، وانا لـن أوقظه . ـ قالت دومسارا .

ـ ليذهبا ، وليتفرجا على فوج قبارديا الذي سأصبح واعظا له . ـ قال أستيمر من الغرفة الداخلية .

ـ وماذا سيستفيد أولادك من الفوج ؟ ـ قالت دومسارا معترضـــة . دعيهما يذهبان . سيغيران الجو . ثم ان الرجل يجب ان يفوح منه قليل من رائحة البارود ورائحة الدخان . ـ قالت الجدة وهي تؤيد الولدين وارتـــدى « لو » و « تيمبوت » ملابسهما بسرعة وأكلا قليلا . ولكن يلدار لم يكن عـلى عجلة من أمره ، كان ينتظر أن تطل ساريمه وتراه بهندامه الكامل ، فأخـذ يروح ويجيء على مهله . وانتبهت الجدة فقالت وكأنها غير مبالية :

ـ لقد ذهبت ديسة وساريمة الى المدينة في عربة رحيم مبكرتـــين جدا . الله اعلم ماذا ستشتريان . ان من له معارف مثل رحيم محظوظ . كافأه الله ، انه يشفق على الارملة المسكينة .

ـ هل قلت مع رحيم ؟.

ـ نعم يا روحي . لقد جاء مبكرا جدا بعربته وأخذ الام وابنتها .

ـ هيا يا يلدار قبل أن نتأخر . ـ قال « لو » وهو على عجلة من أمره .

ـ هيا بنا ، قدنصادفعربة ما نحن أيضا .

ـ سنصل ولو لم نصادف أية عربة .

وانطلق تيمبوت و « لو » يتقدمهما يلدار . كان «لو» نشيطا وخفيفا من شدة الفرح . وكان قادرا على الذهاب حتى الى ما وراء نالتشك . فهو سيرى المدينة اليوم لاول مرة في حياته ، وسيرى أيضا الجيش والجنرال .

# جيش راحل
# وقلب حزين

لم تكن المغريات التي تستحق الرؤية قليلة فقد ازدحمت ساحة « حطوقشوقة » بالفرسان والمشاة ،وكان الاولاد قد تسلقوا الاشجار وجلسوا على أغصانها وهم يتصايحون ويتأرجحون • وتمنى « لو » أن يفعل مثلهم • واصطفت عربات مختلفة الاشكال والاحجام ، بعضها تجرها الثيران والبعض الآخر تجرها الخيل ، وكأنها في سوق كبير لا نهاية له • كانت العربات كلها مفروشة بقطع من اللباد ، وفوق اللباد مخدات تجلس عليها نسوة من مختلف الاعمار بمناديلهن السوداء وعلى أذرع بعضهن أطفال صغار ، تسيل دموعهن فتمسحنه بأطراف مناديلهن • وكان المسنون الذين حضروا يحملون عصيا معقوفة ، وخناجرهم الشركسية تتدلى من أوساطهم ، يحاولون أن يتفرجوا فلا يستطيعون ، لان أشعة الشمس ترمش عيونهم ، ولا يتبادلون الا النادر من الاحاديث على خلاف عادتهم • وكان البعض يقف في عرباتهم•• وأمام الجميع ، وقف الفرسان المتجهون الى الجبهة وهؤلاء الفرسان هم الابن والاخ والزوج والقريب لهذا الجمهور الذي جاء لتوديعهم •• وكان بعض المودعين ينوي مرافقة الفوج راكبا بعض الوقت • وقفت بعض النسوة على رؤوس اصابعهن وأخذن يلوحن بأيديهن باكيات ، يتمتمن ببعض الادعية :

ـ يا ولدي ! سأدعو الله لك بالسلامة بعد كل صلاة •

ـ اذا لم نلتق احياء ، أرجو ان يجمعنا الله بوجوه بيضاء • ليرضى الله عنك كما أنا راضية عليك •

ـ هيه ••• ! اقد وضعت بين أمتعتك ورقا بقيمة روبل ، فاكتب لي بمجرد وصولك وسأطلب من موظف البريد ان يقرأ لي رسالتك •

ـ أسلان ، يا ولدي الصغير ، لا تلق بالحجاب يا صغيري وعند بدء المعركة كرر الادعية التي علمتك اياها •

وقف الرجال المسنون صامتين • ولم يعلقوا بشيء على ذهاب الشباب الى الحرب • ورغم عدم الاهتمام الذي كانوا يتظاهرون به ، فقد كانوا متأثرين وقلقين على أبنائهم وأقاربهم • وحين يوشك الدمع أن يغلب أحدهم كان يتنحنح ليخفيه •

كان الفرسان مصطفين فصائل ، فصائل ، وامام كل فصيلة قائدها متباهيا بكتافيتيه ومهمازيه ، وقد ركب جوادا أفضل من جياد افراد فصيلته • وكان الجميع مهندمين ومسلحين بشكل جيد • السيوف السوداء المعقوفة تتدلى من أوساطهم الى جانب الخناجر • والبنادق القصيرة معلقة على ظهورهم وهي تبرز من تحت البرانس المصنوعة من اللباد • وكان

الضباط يطيلون النظر ناحية المدرج المزين بالاعلام والاغصان الخضراء ، حيث وقف الموسيقيون بآلاتهم النحاسية التي عملوا على تلميعها بترابة الآجر • اما الخيل فكانت تكش الذباب عنها بأذيالها بصبر نافذ •

عندما أطلت عربة تجري من ناحية السجن الى الساحة والحصى ينطاير من تحت عجلاتها ؛ ووراءها يجري الفارس المرافق ، اضطرب الموسيقيون لحظة ، ثم اخذوا يعزفون وركض ضابط نحو العربة بسيف مسلول وصاح « سميرنو ١٠٠! » ثم قدم تقريرا للجالسين في العربة بينما كان حصانه يقف على خلفيتيه • خرج الضيوف من العربة يتقدمهم كبيرهم ، واستعرضوا الفرسان ماشين على أقدامهم • وأخذ الكونت « فورنتسوف داشكوف » قائد الفوج والجنرال الاسمر القصير يتوقفان عند كل فصيلة ووراءهما الحاكم ، للتأكد من جاهزية الفرسان للقتال •

وبعد الانتهاء من ذلك قدم قائد كل فصيلة تقريرا للكونت الذي غطت الاوسمة صدره • ثم قدم الاخير بدوره تقريرا الى قائد الفرقة •

ولما كانوا قد اتفقوا على تأجيل البحث في موضوع صلاحية بعض الخيل والرجال الى ما بعد ، فقد مر كل شيء بهدوء • كان يوما خريفيا قائضا • وقد بدأت أوراق الاشجار تصفر •

وعزف الموسيقيون لحن « انصتوا جميعا » • ثم صعد قائد الفرقة وقائد الفوج ومعهما كل وجهاء قبارديا الى المنصة • وكان أول المتكلمين هو قلشبي :

ـ يا شباب قبارديا ، أناشدكم ان لا تجلبوا العار للوطن ـ هكذا بدأ خطابه ـ اننا نرسلكم لخدمة الوطن والملك ، وسيكون سرورنا عظيما حين نسمع انباء طيبة عنكم • أنتم من لحمنا وعظمنا ، وسيحزننا أية مصيبة تقع لكم • أناشدكم مرة أخرى أن ترفعوا اسم فوج قبارديا عاليا •

وتكلم الجنرال الاسمر القصير وهو يصيح بأعلى صوته ، وكان يعجن كلماته عجنا • وكلما استدار الى ناحية ، لمعت الاوسمة التي تغطي صدره أمام الجماهير • ولما رأى المسنون من الرجال والنساء صليبا بين هذه الاوسمة ، حزنوا أشد الحزن وهم يقولون « ان قائدهم مسيحي ، ولن يبالي اذا قتل شبابنا نحن المسلمين » •

وكان آخر المتكلمين ، شركسي عجوز • وقد تكلم بفصاحة غير متوقعة:

ـ من أمثالنا القديمة التي نعتز بها مثل يقول : « اذا كان النسر دليلك فسيقودك الى الاعالي ، أما اذا كان الغراب دليلك فلن يقودك الا الى الخرائب » • اننا نأمل أن تقود شبابنا كالنسر ايها الجنرال • ثم استدار نحو الجنرال وصافحه • وما كاد ينهي كلامه حتى أطل رجل مسن آخر يقود جوادا شركسيا جميلا محجلا ذا قوائم رفيعة ورأس صغير وعليه سرج أسود من صنع محلي موشى بالفضة • وركائبه من الفضة الخالصة أيضا •

كان هذا الرجل مشهورا ومعروفا من قبل الجميع • فهو صاحب مزرعة للخيل واسمه « كوتسه حزيشة » • وعلا تصفيق حاد • وصاح الجميع « ورا •• » • وقدموا الحصان هدية لقائد الفرقة • ثم قدموا حصانا اخر مثله للكونـت « فورنسوف داشكوف » •

ووقف قائد الفوج بدوره ، وشكرهم على هذه الهدية ، ثم أكد لهم بأنه لن يوفر جهده في قيادة الفوج حتى يعيده سالما وقد حقق الانتصارات ورفـع اسم قبارديا عاليا • وأنهى كلامه قائلا « وأنتم بدوركم ادعوا لنا الله ليـلا نهارا ، حتى يأتي سريعا يوم الفرحة الكبرى ، يوم لقائنا » •

وارتفعت صيحة « ورا •• » مرة اخرى وأخذ الموسيقيون يعزفون • وركض فارس جميل الهيئة الى الساحة وأصدر امرا ببدء العرض ، فبـدل الموسيقيون اللحن ، ثم بدأ فوج الفرسان يتحرك فصيلة بعد أخرى ليمر من امام المنصة المزدانة بالاعلام والزينات •

ما أجمل كل هذا ••! كان «لو» و « تيمبوت » ينظران الـى الفرسان بأعين محدقة • يا الله ، ما أجملهذا ! • كل هؤلاء الفرسان يسيرون جنبا الى جنب في نسق عجيب • الركائب تتحرك وتصدر رنينا عذبا ، سيوفهم ، بنادقهم ، خناجرهم ، كلها جميلة ومتناسقة • ولشدة استغراق « لو » في النظر اليهم ، لم ينتبه للنسوة الباكيات النادبات • مر جميع الفرسـان• وهرعت بعض عربات وراءهم ، وبعد العربات مشى حشد هائل من الفرسان والمشاة والعربات • كانت النسوة تبكين بأصوات مرتفعة ، وبعضهن تصيح بكلمات غير مفهومة • وسار الجميع وراء فرسان الفوج مودعين •

أما القادة فقد نزلوا عن المنصة ، وركبوا جيادهم الجميلة التي أهديت اليهم وانطلقوا ، ووراءهم عدد من الضباط •

واكتظ شارع « بولفار » بالفرسان المتجهين الى المحطة ليركبوا القطار وبمودعيهم • ولم يكن « لو » و « تيمبوت » يعرفان أن والدهم يجب أن يرحل مع هؤلاء الفرسان اليوم •

وفي طريق العودة ، كان « لو » يفكر بأنه ما أن يصل الى البيت حتـى يرتاح في حجر والده ويروي له كل ما شاهده اليوم • وسيحكي مـا شاهـده للجدة أيضا ، وسيغبطه رفاقه حين يروي لهم عن كل الاشياء التي رآها •

ولكن الفرحة بهذه الاشياء الصغيرة لم تطل ، فقـد تحـول يـوم الاستعراض الى يوم حزين بالنسبة للعائلة • فما أن ركض الاخوان الـى الدار متزاحمين على من سيبدأ بالحديث اولا ، حتى فوجئا بالجدة ودومسارا تبكيان بكاء مرا وقد أرسلا العنان لدموعهما • فصمت الاثنان معا •

ـ لقد رحل أباكما المسكين يا ولداي ـ قالت الجدة بصعوبة •

ـ والى أين ذهب ؟

ـ الله وحده يعلم الى أين ذهب . لقد أرسل زالمجري في طلبه ثلاث مرات ليعرف الى أين ذهب .

وهكذا حكم على « لو » في ذلك اليوم ، أن يعيش بدون رعايـــــة الاب الى اجل غير مسمى .

# الفصل الرابع

## احزان يلـــدار

ما رآه يلدار أيضا في ذلك اليوم أصابه بجرح عميق في قلبه • فلم يكن العرض العسكري شغله الشاغل شأن « لو » و « تيمبوت » بل كان يبحـث بعينيه بين الجموع المحتشدة عن « ساريمة » التي لا بد ان تكون واقفة في مكان ما • وأخيرا وجدها ولكن رحيم كان يقف الى جانبها فلم يجرؤ عـلى الاقتراب منها •

ما شأنه بها ••! قال يلدار لنفسه محنقا •• أما رحيم هذا فلـم يكن أحد في القرية يجهله • فقد عرفوه ، مذ عرفوه ،بائعا متجولا من أصل فارسي يتكلم الشركسية بصعوبة • له لحية سوداء مدببة وشاربان شركسيان • عمره حوالي خمسين عاما ومع ذلك فليست له أسرة ولا اولاد •• كانت عربة رحيم تحمل كل شيء • ملح ، صابون ، ملبس ، حلويات متنوعة ، زيـت كاز • ولكن بضاعته اليومية الرائجة التي اغتنى منها كانت هي الخبـز الروسي • وبالاضافة الى كل ذلك كان يبيع المناجل أيام الحصاد ، والاقمشة الصوفية في أول الشتاء • ولكن أية بضاعة لم تزاحم الخبز الروسي الابيض الذي كان يصنعه بنفسه ويبيعه طازجا •• وجميع اهالي القريـة زبائـن دائمون لرحيم • بعضهم يبيعه دينا ، وآخرون لا يأخذ منهم الا نصف الثمن• وقد أحضر رحيم معه اليوم ديسة وساريمة بعربة البضاعة الكبيرة الــى المدينة • وأوقف عربته الحمراء جانبا ليرافق الام وابنتها • وحزن يلـدار من أجل ذلك ، فلم يعد يستمتع بأي شيء يراه • « ماذا يريد هذا الفارسي من هاتين المرأتين ! هل له علاقة ما بالام يا ترى ؟ » فكر يلدار •• وغـاب عنه وجه ساريمة التي كانت تنظر مأخوذة الى الاستعراض • أما يلـدار فلم يكن له من هم سواها •

عندما عادوا في مساء ذلك اليوم ، كانت ساريمة قد سبقتهم في عربة رحيم • ولما كانت الشكوك قد بدأت تنهش قلب يلدار ، فقد فكر بزيارتها علّه يعرف شيئا من أخبارها ، ولكنه لم يجد حجة لذلك • فهو بالكاد يجرؤ على الحديث معها اذا رآها في الطريق ، فكيف يدخل دارها •

لم تمض مدة طويلة حتى التقيا صدفة • وكانت ساريمة ايضا في حاجة الى هذا اللقاء • فلما رأته في الطريق سعت نحوه •

ـ كيف حالك يا ساريمة ؟

ـ بخير والحمد لله •

كان بود ساريمة ان تقول أشياء كثيرة ، ولكنها بعد أن نطقت هذه الجملة أحست أنها قد بذلت مجهودا كبيرا فلم تستطع ان تزيد كلمة أخرى • ووجد يلدار الفرصة سانحة ليفضفض عن قلبه •

ـ لقد رأيتك في نالتشك •
ـ آه •• ذهبت لاتفرج على الفرسان •
ـ كنت هنالك ايضا •
ـ ولماذا لم تقترب مني ؟
ـ أظن أن رحيم كان معكم •
ـ كان معنا • لو لم يأخذنا بعربته ، فما كانت ديسة لتذهب •
ـ شيء جميل ••!
ـ الى اللقاء يا يلدار •• سررت لانك أصبحت تكثر التردد على بيت جيراننا • لقد قطعت كمية كبيرة من الحطب اليوم • وقد استمعت اليك حين كنت تغني دون أن تنتبه •
ـ يحدث مثل هذا أحيانا • لماذا لم تعودي تترددين على دار دومسارا ؟
ـ ديسة منعتني من ذلك •
ـ لماذا ؟
ـ لا اعرف والله •
ـ الى اللقاء •
ـ رافقتك السلامة •

« ما الذي يدفع ديسة الى منع ساريمة من زيارة دومسارا ؟ » فكر يلدار وقد عادت اليه شكوكه من جديد • وكانت هذه الشكوك في محلها ، فقد كثر تردد رحيم على بيت ديسة في الايام الاخيرة •

أما قصة رحيم مع ساريمة قد بدأت كالتالي : ذات يوم ذهبت ساريمة لتشتري قليلا من الملح من عربته • والله أعلم بماذا فكر هذا العازب المزمن عندما رأى هذه الفتاة النحيلة المتناسقة الجسم ، فقد أمعن فيها النظر وهو يفتل شاربه • ولم تستطع الفتاة الخجولة ان ترفع رأسها •

ـ هل « كلت مله • تريدين تاسة مله ؟ خودي شوي ملبس كمان » ـ قال رحيم بلغة مكسرة وهو يبتسم للفتاة • ووجدت ساريمة طريقة كلامه مضحكة فلم تستطع ان تمنع نفسها من الابتسام •

ـ هذا ما معي من النقود فقط ـ قالت الفتاة وهي تبسط كفها • وعندما قال رحيم :

ـ اهذا ما ماك فكط ؟ ـ كادت ساريمة ان تنفجر ضاحكة ولكنها تمالكت نفسها •

ـ لا يا حلوتي • أعطي هذه النكود الى ماما ، وخودي ما تريدين وسأحاسب ديسة فيما بعد • خودي الملة والملبس ـ قال رحيم وهو يمعن النظر الى الفتاة ـ وخذي هذا المنديل الجميل بدون مقابل •

لم تستطع ساريمة ان تمنع نفسها من أخذ المنديل ، فلم تكن قد رأت مثله في حياتها • أما الملبس فقد رأت الناس يأكلونه ، ولكنها لم تكن قد ذاقته • وفرحت ديسة بما أعطي لابنتها •

وقبل مضي مدة طويلة كانت ديسة نفسها في زيارة لعربة رحيم • وحين شمت رائحة الخبز الروسي الطازج والكعك وغيرها من المأكولات التي في العربة ، شعرت الارملة الفقيرة بالدوار • كانت أرغفة الخبز الطازج بشكل خاص مصفوفة على نسق جميل فوق الرفوف الطويلة • وأحست المرأة انها لم تشبع في حياتها قط • وقد كانت ديسة في الحقيقة تهتم باطعام ابنتيها اكثر مما تهتم باطعام نفسها ، لذلك صارت تحس مع مرور الوقت بجوع مرمن لم تكن في غالب الاحيان تهتم به • ولكنه أخذ يتحرك الآن أمام أرغفة الخبز البيضاء الطازجة • ولم يفت البائع المتجول ملاحظة ذلك •

ـ لقد رحل عن هذه الدنيا تاركا لي ابنتيه • ـ قالت ديسة شاكية ـ انني أقضي العمر وأنا أحدب عليهما • أطال الله عمرك ، وزاد في رزقك ، وفتح لك أبواب السعادة ، فقد ملأت قلب الفتاة الصغيرة سعادة •

ـ نعم • الامر هكذا « من واجب المسلم أن يساعد أخاه المسلم » ـ قال رحيم بصعوبة وهو يبحث عن الكلمات المناسبة ، متباهيا في نفس الوقت بكونه مسلما •

ـ هذا كلام جميل جدا « الله يرضى عليك ويطول عمرك » • أعطني خبزا بثمن هذه فان ساريمة تحب الخبز الروسي اكثر من أي شيء آخر ـ قالت ديسة وهي تقدم له قطعة صغيرة من النقد •

ـ هذا قليل • عندك طفلة اخرى قد تشتهي الخبز أيضا • خذي أكثر ـ قال رحيم وهو يبتسم لها • ثم أخذ يبحث بين الارغفة الكبيرة عن رغيف ناضج • وارتجفت ساقا ديسة من الفرح •

ـ ولكنني لن أستطيع ان أسدد لك ثمنه بسرعة •

ـ لن ألح عليك في الطلب يا عزيزتي ، فلا تقلقي من أجل ذلك • واذا لم

تسددي لي ثمنه فلن أرفع دعوى بحقك ـ قال رحيم وهو لا يكف عن الابتسام • ثم قدم لها رغيفا كبيرا ، وزاد عليه كمية من الملبس ، وكمية من الرز في كيس ورق ـ خذي هذه أيضا يا عزيزتي •

ـ ما هذه الغلبة ! عوضك الله بالسعادة في الدنيا ، وجعل الجنة مثواك في الآخرة •• وفقك الله ـ قالت ديسة وهي تحمل ما قدمه لها •

وبعد عدة لقاءات بين ديسة ورحيم على هذا الشكل ، بدأ يتردد على دارها • وكان في كل مرة يحضر معه شيئا • ملبس ، رز •• الخ • وفي بعض الاحيان كان يحمل قطعة قماش ، او حذاء نسائيا • حتى انه لم ينس أن يحضر لكلبهم العجوز الذي لا يغادر حفرة في الدار شيئا يأكله • كان البائع المتجول قد سحر الارملة بكرمه •

ـ عندك ابنة جميلة • ابنتك جميلة جدا ـ قال رحيم وهو ينظر الى ساريمة •

ـ الحمد لله • لقد ربيتها وانني أرعاها دون انقطاع •

وفهمت ديسة هدف البائع المتجول ، فأخذت تتشاغل وتترك رحيم مع ابنتها • ورغم ان الفاقة قد جعلتها تهرم قبل أوانها ، فقد كانت امرأة نشيطة وعملية وتجيد التدبير دون أن تثرثر كثيرا • فعندما تذهب النسوة مثلا للتعزية بوفاة احد الناس وتجلسن بعد أن تبكينه قليلا للثرثرة والنميمة، كانت ديسة تقول « من الافضل ان انصرف لاشغالي » وتتركهن عائدة الى البيت • واذا سألتها احداهن في جمع من النساء عن تردد البائع المتجول على بيتها كثيرا ، كانت تتظاهر بأنها لم تفهم السؤال وتتركهن • كانت قد قررت ان تصاهر رحيم • ولكنها لم تبح بذلك لاحد خشية أن تسبقها احداهن وتحرمها من هذه النعمة • وكانت اذا جرت اليها الصغيرة « روم » ومعها قطعة من الحلوى أثناء زيارات رحيم ، تمسكها وتجلسها الى جانبها حتى لا تعكر صفو رحيم وساريمة •

أما رحيم فقد أخذ يجالس ساريمة في زياراته ، ويروي لها اخبارا عجيبة عن حياة الفتيات في المدينة وملابسهن • ويمد يده احيانا الى كتفها او الى ظهرها مربتا بحنان • ولم تكن ساريمة تمانعه قائلة في نفسها « انه في مقام أبي » • كما لم تكن قد فهمت سبب زياراته المتكررة ، ولا سبب هداياه • « ربما يشفق علينا لاننا يتيمات » هكذا كانت تقول لنفسها • ولو عرفت أن سبب غضب يلدار ومقاطعته لها هو كثرة تردد رحيم على دارهم ، لفهمت شيئا • ولكن انى لها أن تعرف • كان يلدار مهموما منذ يوم الاحتفال الكبير في دار موسى • ولكن ساريمة لم تكن تعرف سببا يدعوه الى مقاطعتها • وكلما سمعت صوته في دار دومسارا كانت تجري الى السياج لتطل من فوقه • ولكن ما أن تراها ديسة حتى تركض من البيت غاضبة

مؤنبة • « كيف تصعدين الى السياج ! ألا تخجلين ؟ لقد كبرت الآن ، ام أنك تظنين نفسك ما زلت فتاة صغيرة ؟ عودي وانصرفي لاعمالك » •

وكان رحيم يدخل حتى الى الاسطبل ، ويربت على ظهر البقرة الوحيدة فيتطاير منها الغبار ، ثم يخرج راضيا عن نفسه كل الرضا ليراقب ساريمة وهي تطعم الدجاجات ، مبتسما ومعلقا :

ـ انثري الحب أمام تلك الدجاجة الصغيرة • أنها دجاجة جميلة ، انظري اليها ، انها تشبهك • انظري كيف تنقر الحب •• هه ، ساريمة ؟ستصبحين عروسا جميلة جدا • ألا تريدين أن تتزوجي ؟ قولي !•

ـ أنا ما زلت صغيرة ، لم أحضر حفلات الرقص بعد •

ـ سترقصين فيما بعد ، هذه ليست مشكلة •

ـ بعد أن أتزوج ؟ الفتاة لا تذهب الى الرقص بعد أن تتزوج • لم أرقص بعد سوى مرة واحدة في حياتي • كان ذلك في دار موسى •

وذات يوم اقتربت ساريمة من السياج وهي تسير تحت اشجار الدراق• كان يلدار وتيمبوت يعشبان البستان المزروع بالذرة الصفراء • وعندما رأت يلدار ، فرحت ونسيت ما كانت بصدده من أعمال ، وتسارعت دقات قلبها• وأطلت من فوق السياج وهي تختبىء تحت دغلة حتـــى لا تراها أمهـــا وتناديها • كان يلدار وتيمبوت يعملان بهمة والغبار يتطاير من فوقهما • أما « لو » فقد جلس في مكان ما يعبث • نادت ساريمة بصوت منخفض :

ـ «لو» ، تيمبوت ! •

وسمع يلدار والولدان صوت ساريمة فالتفتوا اليها •

ـ ساريمة ! تعالي الينا ، لماذا لا تزورينا ؟ ـ قال « لو » وهو يقفـــز نحوها ـ اعبري من فوق السياج •

ـ اتركها ، سوف تتزوج ـ قاطعه تيمبوت •

ـ أوه •• اسمعوا ما يقول • ألا تخجل ؟ • ومن الذي سأتزوجه ؟ ربمـا تكون انت •

ـ ماذا ؟ الا تعرفين من الذي ستتزوجينه ؟ أتظنين اننا لا نعرف شيئا؟ البائع المتجول الا تعرفينه ؟ لقد سمعت دومسارا والجدة تتحدثان عن ذلك • ما الذي اعجبك في رحيم ؟ انفه الطويل ! ـ قال تيمبوت مفرغا كـل ما في قلبه وما سمعه دفعة واحدة •

ـ كفى يا تيمبوت ! لنعد الى عملنا ، فالاعشاب تكاد تقضي عـــلى الذرة • أما ساريمة فانها تستطيع ان تدبر أمورها • ـ قال يلدار وهو يرفع المعول عاليا ـ على أية حال لا تنسينا يا ساريمة • تعالي الينا كلما وجدت وقتا لذلك • ان « لو » يشتاق اليك •

ـ أتظن أن البائع المتجول سيسمح لها بزيارتنا بعد أن تتزوج ؟ ـ قال تيمبوت معترضا ·

امتلأت عينا ساريمة بالدموع حزنا على ما سمعت ، ولكن أحدا لم ينتبه اليها · وأخذ « لو » ينظر اليها وهو لا يدري ما يقول · كان يلدار وتيمبوت قد استغرقا في العمل ولم يعد أحد يقول شيئا ·

ـ هل سيتزوجها رحيم حقا ؟ ـ سأل « لو » ·
ـ لا تقلق يا « لو » · أتظن أنها ستنسانا حقا حتى لو تزوجته ؟· ـ قال يلدار وهو يجفف العرق عن جبينه اليس كذلك يا ساريمة ـ كان يلدار يمزح رغم أنه يتمزق في أعماقه ·
ـ ساريمة ···! أين ذهبت أيتها اللعينة ؟ الا تخجلين ؟ ـ ارتفع صوت ديسة ·

وتجهمت ملامح الفتاة · الآن فقط فهمت لماذا تراقبها ديسة طوال الوقت · ولماذا صارت تفكر في تدبير ثياب جديدة لها · ولماذا أصبحت أكثر حدبا عليها · ولماذا منعتها من مقابلة يلدار · وفهمت نوايا رحيم الحقيقية · ولماذا كلمها تيمبوت بهذه اللهجة القاسية ، ولماذا كان يلدار غاضبا منها · وبالرغم من كل ذلك لم تستطع ان تصدق أن مثل هذا الامر يمكن أن يحدث · ولكن رحيم زارهم بعد يوم واحد واقتربت لحظة الحقيقة ·

## يوم مخيف

قلقت الحارة كلها عندما رأوا رحيم يدخل دار ديسة بعربته الحمراء الكبيرة · فتحت البوابة وعبرت العربة مسرعة الى الداخل قبل ان يهدأ الغبار الذي أثارته في الشارع ··لم يكن قد بقي مجال للشك ان البائع المتجول قد قرر أن يقوم بعمل كبير · وكان ما يحمله في العربة شاهدا على ذلك ، فليس من المعقول أن يأتي رحيم ليخطب دون أن يقدم مهرا كبيرا ·
وفي هذا اليوم كان يلدار ما يزال يعشب في بستان دومسارا · ولم يكن من الممكن أن لا يرى هو والولدان ، العربة التي دخلت دار ديسة ·
اصفر وجه يلدار وأصبح شاحبا شحوب الاموات · وحين سمع هو وتيمبوت صوت رحيم من دار ديسة وهو يلاطف الصغيرة « روم » قائلا ، « وهنا أيضا يوجد شيء » لتمد يدها وتخرج انواع الحلوى التي كان يخبئها في جيوبه ، غضبا غضبا شديدا وأوشكا أن يهجما على الدار لطرده ·
ـ انك تدللها كثيرا · لماذا تعطيها كل هذه الحلوى ؟ ـ قالت ديسة متظاهرة بالاحتجاج ·
ـ انها ليست سوى طفلة · وما تقدمه للاطفال تجده يوم القيامة · أين

ملاكك الجميل ؟ لقد أحضرت لها أيضا بعض الاشياء ٠
ـ ساريمة ٠٠ أين أنت ، أسرعي الى هنا وانظري كم عندي من الحلوى سيعطيك أنت أيضا ـ صاحت « روم » الصغيرة ٠

ـ تحركي أيتها اللعينة ٠ يوجد عندنا ضيف ـ صاحت ديسة، ثم غيرت من لهجة حديثها من أجل الضيف ـ تعالي يا صغيرتي الجميلة ٠ تعالي يا عزيزتي ٠٠

كان يلدار قد توقف عن العمل وأخذ يستمع الى ما يدور من حديث في الدار الملاصقة ، منتظرا سماع صوت ساريمة ٠ أما تيمبوت و « لو » فكانا يتلصصان من ثقب في السياج٠ «أنا قادمة» قالت ساريمة بصعوبة بالغة ٠ وعاد يلدار الى عمله دون أن يعلق بشيء ٠ ولفت نظر تيمبوت أن يلدار يحفر الارض بعنف مقتلعا الاعشاب واعواد الذرة الغضة ٠ كان واضحا للجميع ان أمرا جللا يحدث في دار ديسة ٠
وسمعوا صوت ديسة بعد لحظات ، غاضبا يحمل أقصى درجات الهياج والانفعال :

ـ عودي أيتها الكلبة المتشردة !٠ ما الذي لا يعجبك ؟ سوف يطعمك السمن والعسل ، فماذا تريدين أكثر من ذلك لماذا لا تطيعينني ، هل ربيتك طوال هذه السنوات لتفعلي بي هذا !؟٠ الله يشهد انني ربيتك وأنا «أربط حذائي بامعائي » (١) فلماذا لا تسمعين ما أقوله لك ؟ الست أمك ؟ ان الغبار الذي يتساقط من تحت حوافر بغلة رحيم افضل منك ، ومع ذلك انظري الى نفسك كيف تتصرفين ! لا تجعلي صبري ينفذ ، اذا غضبت فسأسلخ جلدك٠ آه لو كان ابوك المسكين حيا ٠٠٠! اذا سمحت لك أن تخطي خطوة واحدة اخرى فالله عدوي ٠٠ خطوة واحدة ٠٠٠ ـ ستقتلك والله ـ قال «لو» قلقا ٠

ونظر تيمبوت نحو يلدار وكأنه يقول « ماذا سنفعل » ولكن يلدار كان يعشب مكفهرا ، وهو يقتلع اعواد الذرة الغضة مع الاعشاب ٠
وعندما سمعت الجدة ودومسارا صوت ديسة ، خرجتا من البيت مسرعتين ٠
ـ الله ٠٠ الله ٠٠ الله ٠٠ لا أصدق أن الفتاة المسكينة ستنجو من يدي أمها ٠٠ أتذكرين يا دومسارا يوم كاد الحاج يونس يقضي على أوزيزة المسكينة وركضنا الى دارهم ؟ لا ارانا الله يوما مثله يا الله كم كنا يومها نشيطات ، كنا نجري ولا نشعر بالتعب ٠
ـ لحسن حظنا كان أستيمر في الدار في ذلك اليوم ٠ لو حدث شيء مثله الآن ٠ ماذا سنفعل ؟ تيمبوت لن يقدر على شيء ٠ و « لو » ليس الا طفلا ٠

---

(١) ـ تعبير يدل على الفقر المدقع والشقاء ٠

ـ جدتي ، لا تدعيها تقتل ساريحة • ـ ركض « لو » نحوها وهو يلهث •
ـ أمسك أنفك • ما الذي مزق بنطالك ؟
ـ تيمبوت مزقه لي بعصا •
ـ لماذا تكذب ! الست أنت الذي مزقته حين تسلقت شجرة الاجاص ؟•
ـ هيا الآن • لقد طبخت لكم • تركتكم تجوعون اليوم • هيا يا ولدي يلدار • جزاك الله خيرا ، لقد ساعدتنا بعمل ممتاز •

كان المساء قد أخذ يخيم ببطء ، فعادت البقرة من المرعى ووقفت تخور أمام البوابة الخارجية •

ولم ينقطع الصياح في دار جارتهم ديسة • أما بيت الجار الآخر فقد كان خاويا ، صامتا • فبعد أن مات الحاج يونس متجمدا من الصقيع ودفن، آل بيته وكل ما يملكه الى أخيه « نورعلي » ولكن هذا الاخير لم يستقر في الدار • فهو مثل أخيه الذي حج الى مكة والمدينة يحب الاسفار • وهكذا ما لبث ان رحل بعد وفاة أخيه • وبعد رحيله بفترة قصيرة ، قامت الحرب العالمية الاولى فاختلط الحابل بالنابل وانقطعت اخباره تماما ، وكأن الارض قد انشقت وابتلعته • وبعد مضي مدة طويلة اخذ اهالي قرية شعلمفوقة يرددون شائعة لا يعرف احد مصدرها أن « نورعلي » سيعود • « فليعد ، على الاقل عنده بيت الآن،ولن يضطر للعودة الى سيرته السابقة خادما لكل من يطعمه » هكذا كان يقول كل من يسمع بخبر عودته • على أية حال ، ليس الان مجال الحديث عن نورعلي • فلنعد الى دار ديسة لنتابع ما يجري هنالك •• كان الصغير «لو» حزينا الى حد البكاء لما تلاقيه ساريمة • ولم يكن وحده الحزين من أجل ذلك •

ظن الجميع أن كل شيء قد هدأ ، فأكل يلدار والولدان اللحم ، ثم اللبن و « المرامسة » (٢) الساخنة وارتخوا قليلا • وجلست دومسارا وحدها أمام الموقد تأكل اللحم المشوي و « المرامسة » من القدر مباشرة • أما الجدة فقد خرجت متذرعة باعادة البقرة الى الاسطبل • فمنذ ان سقطت اسنانها ترفض الاكل بحضور اي انسان •

أخذ يلدار يمزح مع الولدين •• وبعد أن أحس «لو» بالشبع ، كان سيركض مباشرة الى دار ديسة ، لكنه تردد بسبب خوفه من أمه • وكانت دومسارا تنظر اليه وقد اكتشفت نواياه • وهكذا حل الظلام ، وسمع صوت صياح امرأتين • كان أحد الصوتين يبكي ويولول في رعب •

اندفعت دومسارا خارجة وقد اقشعر بدنها ، فرأت ساريمة شاحبة جاحظة العينين وهي تستنجد •

ـ يا الهي ! ماذا حدث ؟ ما ذنبك انت الصغيرة المسكينة ؟ ـ قالت

---

(٢) نوع من عصيدة طحين الذرة الصفراء •

دومسارا وهي تحتضن الفتاة المذعورة ٠

وكانت الجدة في الحوش فرأت ديسة وهي تحاول اللحاق بالفتاة من خلال الثقب الذي هربت منه ، فعلق جسمها بعد أن اخرجت رأسها ٠ كانت المرأة الشرسة مشعثة الشعر ،تحمل سفودا ، وهي تجاهد للخروج من الثقب، وتكاد تحطم السياج كله في محاولتها الغاضبة للمرور ٠

ـ سأقتل هذه الفتاة النجسة ، سأستل روحها بيدي ـ كانت ديسة تكرر وهي تتقد غضبا ٠ ـ أنا المخطئة لانني لم اخنقها يوم ولادتها بالوسادة ٠ الله عدوي اذا لم أروضك أيتها الكلبة المتشردة ٠أتنوين ان تبقي راكبة على رقبتي طوال حياتك ؟ اين هي ؟ اتركوني ، الذبح بالنسبة لها رأفة كبيرة بها ٠ !

بعد أن تخلصت ديسة من الثقب اتجهت نحو البيت وهي تحمل السفود كالسيف المسلول ٠ ولكن دومسارا اعترضت طريقها ٠

ـ لن اسمح لك والله أن تظلميها في بيتي ٠ ساريمة ضيفة الله ٠ثم انها استنجدت بي ويجب ان تسيري فوق جثتي أولا ٠ لقد استوطن الشر في بطنك ولكنني لن اسمح لك بأن تلمسيها ما دمت حية ٠ لن تلمسيها حتى باصبعك٠
ـ افسحي الطريق قلت لك ! البنت ابنتي وأنا حرة فيها ٠استحلفك الله والانبياء ، ابتعدي ! فليلعنني الله اذا لم اقتلك مع ابنتي !٠٠ ابتعدي ٠٠

أسرع يلدار وتيمبوت لنجدة دومسارا ٠ وعندما سمع « لو » صوت انشجار ركض نحوهم وهو يبكي ٠ وأسرع يلدار الى باب الغرفة التي التجأت اليها ساريمة وسده بجسمه ليمنع ديسة من الدخول ٠ وسمع بلاتسة ايضا أصوات الصياح فجاء راكضا وهو لا يعرف ماذا حدث ٠

ـ أنك أيضا هنا ؟٠ ـ صاحت ديسة عندما رأت يلدار ـ يا قليل الحياء، أتظن أنني لا أعرف نواياكم ٠ ابتعد عن طريقي يا سليل العقب المتشققة ـ ورفعت السفود لتطعن به يلدار فأسرع تيمبوت يمسك بالسفود بيديه الاثنتين ، ولكنه سرعان ما ارتمى على الارض وهو يبكي ٠
ـ السفود محمى بالنار ـ قال تيمبوت ودموعه تسيل غزارا وهو ينفخ على يديه ٠

كانت ديسة تشوي اللحم على السفود ، فلما غضبت ، حملته ولحقت بساريمة ٠وعندما ركضت دومسارا ويلدار نحو تيمبوت الذي يبكي من الالم، القت ديسة بنفسها على باب الغرفة ، ولكن ، « لو » أوقع المقعد الطويل المسند على الجدار في طريقها فتعثرت العجوز ووقعت على الارض ٠ وقبل

ان تقف على قدميها ، كان يلدار قد عاد قفزا الى باب الغرفة ليقف في وجهها من جديد ٠

ـ انصرفي من هنا يا ديسة ١٠ عودي الى بيتك فذلك افضل لك !٠
وكان بلاتسة أيضا قد وصل فأخذ يصيح في وجه ديسة :
ـ اقسم بالله انني سأجعلك تحرثين الارض بعقبيك ، اخرجي من هـذه الدار حالا ٠ اخرجي يا وجه النحس ٠
ـ سأهدم هذا البيت فوق رؤوسكم اذا لم تعيدوا الي ابنتي الآن ،اقسم أنني سأهدمه فوق رؤوسكم ٠

كانت ديسة لشدة غضبها تظن أنها أصبحت قادرة عـلى فعل كـل شيء ٠ ولكنها أدركت بعد قليل أنها لن تستطيع ان تقاوم كل هؤلاء الذين وقفوا في وجهها ٠ فارتمت أرضا وأخذت تستعطف :

ـ أعطوني ابنتي ، أسألكم باسم الرب الذي تعبدونه ان تعيدوا الـي ابنتي ٠ انني على وشك تزويجها ٠
ولكن بلاتسة اعترض :
ـ ألم تجدي صهرا افضل من البائع المتجول ! انه في سن أبي ٠ بـأي وجه ستزوجينه هذه الطفلة ، لم تعد له اسنان يا قليلة الحياء ، اخجلـي ولو قليلا ٠
ـ انتظريها حتى تبلغ سن الرشد على الاقل اذا كان لا بد من تزويجها ـ قالت دومسارا وقد تشجعت بعد أن أحست بالانتصار ٠

وقف تيمبوت الى جانب امه وهو ينشج ٠ وأخذ يلدار ينظر اليه نظـرة عتاب وكأنه يقول له « أنت شاب وتهزمك عجوز ! » ٠٠ بينما وقفت ديسة متعبة تنظر حواليها بحيرة ، لا تدري ماذا تفعل ، ولم تعد تسمع ما يقـال لها ٠

وبقي رحيم وحده يطعم الكلب الجائع ويستمع الى صوت مضـغ الحصانين للذرة التي علقها لها ٠ أما سائق العربة «موطة » ذو الوجه المجدور فلم يكن في العير ولا في النفير ، فهو ، وربما بسبب اللطخة البيضاء التـي على عينه ، ينعس في أي مكان يجلس فيه ٠ وكان الآن نائما في مكانه على مقعد قيادة العربة ٠ ولم يكن قد سمع اي شيء من كل الضجيج الذي دار حوله ٠ وكان رحيم يرى أنه من الافضل ان لا يفيق من نومه ، لانه لم يكـن بحاجة الى شهود على ما حصل له ٠

وكان المهر الذي أحضره ما يزال في العربة ، والاثواب التي أحضرهـا للعروس ما تزال في الصندوق ٠ كما أن قطعة القماش التي أحضرها لديسة، والبغل « اللعبة » التي أحضرها للصغيرة «روم» ما تزال في العربة أيضا ٠ وبعد أن انتظر رحيم فترة اضافية اخرى ، فكر قائلا في نفسه « بما أننـي

قد انفضحت وانتهى الامر ، فمن الافضل أن أنصرف قبل أن يأتي بعض الناس ويزداد الطين بلة » ٠

ـ ايه يا رحيم ٠٠ يا رحيم ٠٠ لقد نلت ما تستحقه ٠ لو لم تكن مجنونا ما كنت لتورط نفسك مع هؤلاء ٠ والآن اجن نتيجة ما قدمت يداك ٠ ـ هكذا اخذ رحيم يلوم نفسه ، ويضرب صدره بقبضتيه ٠

ـ موطة ٠٠ يا موطة ٠٠! كفاك نوما ، أفق الآن ٠

ولم يكن « موطة » يبالي بكل ما يجري حوله ٠ بينما كانت الصغيرة « روم » تلاحق رحيم أينما ذهب ، وتراقب كل ما يفعل ٠ وحزنت عندما رأته يجمع الهدايا ويعيدها الى الصندوق الذي في العربة ٠ ولما وصل رحيم الى الحذاء الذي أحضر، لها لم تعد الصغيرة تطيق السكوت ، فاعترضت قائلة :

ـ لا تلمسهما ، ستغضب امي عندما تعود ٠ لم تسمح لي أنا أيضا أن ألمسهما ٠

ـ ستغضب ٠٠ ستغضب ٠ ـ قال رحيم مبربرا ٠ كان ينوي ان يجمع هداياه ويرحل قبل عودة ديسة ـ « موطة » ! هل نمت ثانية ؟ تعال الى هنا ـ ودخل موطة الى البيت وتناول حذاء « روم » منه ٠ فأخذت الصغيرة تبكي بمرارة ٠

ـ لماذا تبكين يا صغيرتي ، اتريدين علقة ساخنة ٠ هيا اسكتي وخذي هذه الحلوى ٠ وأخرج بعض الحلوى من جيبه وقدمها للصغيرة فسكتت ٠

ـ كم أنا مجنون يا الهي ، كم أنا احمق ـ قال رحيم وهو يعاتب نفسه على ما جرى له ـ موطة ، هيابنا،بسرعة٠

ـ هيا بنا ـ قال موطة ، ثم فتح البوابة وقاد العربة الى الخارج وحاول أن يرجع ليغلقها ولكن رحيم لم يقبل قائلا انه من الممكن أن تعود ديسة اذا تأخرا أكثر من ذلك ٠ وأمسك البائع المتجول بالاعنة ولوح بالسوط فانطلقت العربة مسرعة وهي تعلو وتهبط مثيرة استغراب الناس الذين رأوها من وراء النوافذ ، ولكن الامر الاعجب لم يكن قد حدث بعد ٠

## ليلة مخيفة

كان تيمبوت و « لو » يشعران بالرضا لان ديسة لم تستطع ان تعيد ساريمة بالرغم من كل الجهود التي بذلتها وبكافة الوسائل ٠ فقد قبلت دوجسارا رجاء الفتاة ولم تتخل عنها ٠ وكان الولدان في غاية السعادة من أجل ذلك ٠٠ لقد نال رحيم العجوز « ذو الفم المتدلي » كما يسميه تيمبوت،

ما يستحقه • فليعد ثانية اذا كان رجلا ، فهناك من يدافع عن ساريمة الآن • وكانت دومسارا تستمع الى حوار الولدين وهي تحاول أن تمنع نفسها من الضحك • أما ساريمة فهي تعرف ان عليها ان تعود الى بيتها في آخر الامر ، وكان شعر رأسها يقف كلما فكرت في ذلك •• وأصبح واضحا للجميع أن ديسة لن تغفر لابنتها تمردها ، فهي ليست بالمرأة السهلة ولن تتراجع عن قرار اتخذته بمثل هذه البساطة •

وكان القانون في الحقيقة الى جانبها • فالام حرة في تقرير مصير ابنتها ، والكل يعرفون ذلك • وكان من الواضح ايضا ان ديسة بيتت امرا ما • فقد هددت قبل أن تنصرف الى بيتها منهية النزاع : « أنا أعرف كيف أدبركم »• ومن الافضل ان يؤخذ هذا التهديد على محمل الجد •• ولم تضع ديسة وقتها •

ذهبت اولا لزيارة البائع المتجول • ولم يكن رحيم يتوقع هذه الزيارة فاضطرب وتظاهر بأنه يقيس القماش •

ـ كيف الصحة يا رحيم ؟

ـ آه • حفظ الله صحتك ، كيف حالك انت ؟ لقد سررت بزيارتك • ـ قال رحيم دون أن ينظر اليها •

ـ وكيف تريد أن يكون حالي يا روحي بعد الذي جرى ؟ يبدو ان الله تعالى غاضب علينا فلم ييسر لنا الطريق • قلت سأزوج ابنتي لمن قسمه الله لها ، ولكنك رأيت النتيجة • لماذا غضب الله علينا يا ترى ؟

وعندما وجد رحيم أنها لا تلومه ، استجمع شجاعته من جديد :

ـ أنت تعرفين يا ديسة أنني لم أكن انوي شرا بكم ، كنت أنوي مساعدتكم • ولكن ما العمل ؟ لقد أخجلتني ساريمة • أوقعتني في موقف لم أقف مثله طوال حياتي • لقد جلبت العار علي و « أصبحت أفضل باطن الارض على وجهها » ـ ألا يقولون كذلك ؟ •

ـ انه موقف مخجل فعلا • مخجل • هذه اللعينة ! انها تستحق ان تذبح ويسلخ جلدها • أنا لا الومك مقدار شعرة يا رحيم ، مقدار شعرة واحدة • كلمة « رحيم » تعني الذي يشفق على الآخرين • أنت قلبك عامر بالرحمة والشفقة • وفقك الله •

ـ ما فعلته بي ساريمة ••؟ آي •• آي •• ما الذي وجدته في ذلك الشاب الذي لا مأوى له ؟ استغفر الله • لم يخطر ببالي ان الامور ستجري بهذا الشكل ولا في المنام •

ـ اذن ، ماذا أفعل انا يا رحيم وماذا اقول ؟

ـ والله لن أسامح ذلك الشاب على الاهانة التي ألحقها بي • أنا لست من رجال الضرب والطعن • ومع ذلك فانني أستطيع ان أفعل شيئا •

ـ والله لو أمسكت به في ذلك اليوم ، كنت رأيت كيف اجعله يندم ويتراجع هذا « اليلدار » • لا تقلق يا عزيزي • ما زالت ساريمة ملك يديك• من عادة الفتاة أن تترك حتى دينها عندما ترى وجه شاب جميل • ولكن الامهات والآباء هم الذين يقررون مصير بناتهم •

اطمأن قلب رحيم لما سمعه وترك القماش الذي كان يتشاغل به وانتصب على قدميه •

ـ ماذا سنفعل اذن يا ديسة ؟•
ـ قلت ماذا سنفعل ؟ سنضرب اخماسا بأسداس ، ونزوجك الفتاة •
ـ تعنين سنذهب ونخطف الفتاة ؟
ـ نعم يا عزيزي • ساريمة تنام ليلا في السرير الذي بجانب النافذة تماما • اذا مددت يدك من النافذة وأخرجت الفتاة ، انتهى الامر • وبعد أن تصبح بين يديك ، فمن الذي يستطيع اعتراض طريقك • عندهم ولدان صغيران لا يحلان ولا يربطان •

لم يكن رحيم يتجرأ على تنفيذ الفكرة ، ولكنها لاقت استحسانا في نفسه « اذا رفضت ستعتبرني جبانا » قال في نفسه ، ومال الى موافقة ديسة على اقتراحها •

ـ هذه فكرة جيدة والله يا ديسة ـ قال رحيم وهو يفرك يديه ـ هل ستساعدينني ؟
ـ سأساعدك فقط ؟!

وانصرف رحيم وديسة الى تدبير العملية • كان عليهما باديء ذي بدء أن يجدا رجلا جريئا يقبل مساعدتهما • ولم يكن رحيم ممن تنقصهم النقود، وفي هذه الحالة ليس من الصعب ايجاد الرجل المناسب •• وفكر بشاب فارسي يعيش في قرية « باتغة » ويدعى عبدالله ، لم يكن ليرد له طلبا أو يتوانى عن خدمته • ووعد أبا عبد الله أيضا أن يقدم له مبلغا من النقود• وفي مساء اليوم الذي اتفقوا فيه على خطف الفتاة ، تناول عبدالله العشاء في بيت البائع المتجول ، وشرب كمية كبيرة من العرق الروسي « الفودكا »• ولفوا حول عجلات العربة التي سيستعملونها خرقا وأكياسا حتى لا تصدر ضجيجا • كما شرب سائق العربة « موطة » عدة اقداح مع عبد الله • كانت الليلة مظلمة • وكانت ديسة قد راقبت بيت دومسارا من فوق السياج طوال النهار ، فلم تلاحظ شيئا جديدا يمكن أن يضر بالعملية • اما ساريمة فلم تخرج من البيت طوال النهار وحدها • ورأتها ديسة تطل من نافذة المطبخ مرتين أو ثلاثا ، لكنها لم تستطع ان تتأكد تماما من الغرفة التي ستنام فيها • ومع ذلك فلم تكن ديسة لتتراجع • وممن تخاف حتى تتراجع ، فليس في البيت رجل ، ومن السهل اخافة المرأتين مهما شجعتا بعضهما بعضا •

وقبل أن يتقدم الليل كثيرا ، فرشت دومسارا للجميع ، وأطفأت السراج ٠
لم يكن آل بوتش يعرفون شيئا مما ينتظرهم ، لذلك نام الجميع مطمئنين وسكنت كل حركة في الدار ٠ ولم يفت ديسة ان الجميع ناموا في غرفة واحدة ، وكان هذا افضل وأدعى للاطمئنان ٠ ونامت ساريمة في السرير الذي بجانب النافذة كما توقعت فشعرت ديسة بالارتياح ٠ لا بد أن يفتح أحد الباب ويخرج خلال الليل لقضاء حاجته ٠ فاذا دخلت في هذه اللحظة وخطفت الفتاة انتهى كل شيء ٠ وستكون عربة رحيم الحمراء جاهزة أمام البوابة ٠ كان رأي عبد الله أن يخلعوا السياج كله ويدخلوا الى الدار ٠ ولكن ديسة رفضت ذلك مع أن اسياج الذي يتحدثون عنه ضعيف جدا ٠ لا داعي لاحداث اية ضجة لا لزوم لها وتنبيه أهل الدار ٠

كان الاتفاق قد تم على أن يدخل عبدالله ورحيم معا لاخراج الفتاة ، وأن تفتح ديسة بوابة الدار فيدخل « موطة » بالعربة ٠ وعندما يصلون الى العربة ، فمن الذي يستطيع اللحاق بهم على قدميه ٠ سيأخذون الفتاة الى قرية « باتغة » ويودعونها أمانة عند والد عبدالله ٠

كانوا قد فكروا بالموضوع من جميع جوانبه ، ولم يكونوا يشكون في نجاح خطتهم ٠٠ وسكن الحي كله تماما فلم تعد تسمع آية حركة ٠ وعند منتصف الليل انطلقت عربة رحيم بهدوء تام ، ووقفت عند البوابة دون أن يصدر عنها أي صوت ٠ ونزل عبدالله ورحيم منها ووقفا تحت شجرة قريبة ، بينما وقفت ديسة بالقرب من بيت آل بوتش ملتصقة بالسياج تراقب الطريق ٠ كان رحيم قلقا وخائفا وان لم يفصح عن ذلك ٠ ووقف وراء عبدالله حتى يتلقى عنه اذا حدث شيء ٠ ثم طمأن نفسه قائلا : لا يوجد أحد في الدار يستطيع أن يستعمل بندقية او يواجهنا بالخنجر فلماذا أخاف ؟ نحن رجلان ـ هم الذين يجب أن يخافوا منا ٠ ومع ذلك اضطر أن يضع يديه على ركبتيه حتى يوقف ارتجافهما ٠ وعندما اقتربا من البيت صمم قائلا « لا ، لن أذهب ، فليذهب عبدالله ويخرجها ، من أجل ذلك دفعت له النقود، وسقيته العرق الروسي » ثم شد قميص عبدالله وهمس في أذنه « اذهب انت وحدك ، لا داعي لذهابنا نحن الاثنين » ٠ لم يكن عبدالله يعرف اللغة الشركسية ، ولكن كان يفهما ٠ وقد فهم جيدا أن عليه ان يدخل الى ذلك البيت ويخرج حاملا بين يديه فتاة جميلة جدا ٠ لذلك انطلق دون أي تأخير ، وجثم غير بعيد عن رحيم وبالقرب من باب البيت ٠

صر باب البيت ، وخرجت دومسارا ، وكان هذا ما تنتظره ديسة ٠ وقفت دومسارا تنظر حواليها بحذر ، ثم انطلقت نحو الباحة الداخلية للدار٠ وهمس رحيم وكأنه يستحث عبدالله على العجلة ٠ وفهم عبدالله الاشارة فانطلق مسرعا الى البيت ٠ وأخذت ركبتا رحيم تصطكان بعنف بينما كان ينظر حواليه مذعورا ، راجيا أن لا تعود دومسارا بسرعة ٠ أما ديسة فقد التصقت بالسياج متكورة على نفسها وعيناها تلمعان وهي تقول لنفسها

« ماذا ينتظر هذان الاحمقان ؟ » .

في تلك الليلة كان الصغير « لو » نائما بجانب ساريمة في السرير . وعندما فتحت دومسارا الباب سمعها « لو » ولكنه استغرق في النوم ثانية دون أن يفتح عينيه . وعندما أحس أن شخصا ما يربت عليه أفاق من جديد وظن أن دومسارا تحكم الغطاء عليهما . ولكنه عندما شم رائحة العرق فتح عينيه فرأى رجلا ذا لحية كثيفة فوق رأسه يمد يده هنا وهنالك. عندها صاح بملء صوته وألقى بنفسه على ساريمة والتصق بها بكل ما أوتي من قوة . وأفاقت ساريمة مذعورة والتصقت بدورها بالصبي . وكان الرجل يشد به ليفكه عن ساريمة دون جدوى .

ـ رحيم ! تعال الى هنا قليلا ! ـ نادى عبدالله . وفي هذه اللحظة سمعت أصوات أخرى في الخارج . كانت دومسارا قد سمعت صياح الاولاد فحملت عصا غليظة في رأسها « دبسة » وعادت مسرعة الى البيت . وظن رحيم أن ما تحمله دومسارا ليس الا بندقية ، فأعطى ساقيه للريح ، وعيناه لا تريان الارض . « لماذا رافقت هذا المجنون » قال رحيم مؤنبا نفسه وهو يلقي بجسده في العربة التي انطلقت به . وأخذت دومسارا تضرب الباب بالعصا وهي تصيح :

ـ اخرج من هنا اذا كنت رجلا يا ابن الكلبة !.. ياه ..! يا جيران ! اللصوص ! .

ذعر عبدالله ، وقفز من النافذة هاربا واختفى في ظلمة البستان خلف البيت وهو يكسر أعواد الذرة الصفراء . واستمر « لو » وساريمة في الصياح صياحا يوقف شعر الرأس . واستنفر الحي كله لهذه الاصوات وبدأ الرجال يصلون من جميع الجهات ، وأخذت الكلاب تنبح بشدة . وكانت دومسارا قد رأت العربة التي فرت ففهمت كل شيء . ووصل الجيران يحملون العصي والمعاول ، وبعضهم يحمل الخناجر الطويلة .

وظن عبدالله أن كل أهل القرية يجرون خلفه ، فأخذ يركض بكل ما أوتي من قوة ، ولشدة ارتباكه لم ينتبه للساقية التي في طريقه فوقع فيها فازداد ذعره وخرج من الماء وهو يتخبط بصعوبة . ودون أن يلتفت الى الوراء زحف عبر السياج الشوكي الى البرية .

واختفت ديسة ، وعادت الى بيتها وهي ترجف ، وجلست تلاطف الصغيرة « روم » التي افاقت مذعورة وأخذت تبكي .

« كانوا سيخطفون ساريمة الليلة . ولكن «لو» هو الذي منعهم من ذلك . لقد التصق بها فلم يستطيعوا أن يخلصوها منه » هكذا قال الجميع . ووجد الصغير في هذا الكلام اطراء ارتاح له .

وما أن طلع النهار حتى عرف أهل القرية بما حدث عند آل بوتش . وكان الناس عندما يلتقون وهم يخرجون ابقارهم الى المراعي او في طريقهم الى

أعمالهم ، يتوقفون ويتحدثون عن ذلك ··· كان البائع المتجول قد ذهب ليخطف عروسا ومعه أم البنت التي سيخطفها ـ هكذا كانوا يبدأون حديثهم وهم يضحكون · في الحقيقة لم يكن قد حدث في قرية شعلمفوقة أمر بمثل هذه الغرابة من قبل ·

ورحل رحيم مع عربته عن القرية نهائيا · فصار لزاما على أهل القرية أن يذهبوا الى المدينة كلما احتاجوا الى قليل من الملح او زيت الكاز او غير ذلك ·وكانوا لهذا السبب يشتمونه·ولو عاد البائع المتجول كانوا سيضحكون عليه وينتهي كل شيء ، وما كانوا ليمسوه بسوء · ولكن رحيم اختفى وكأن الارض قد انشقت وابتلعته ·

# الفصل الخامس

## نورعلـــــــي

حان الوقت للحديث عن نورعلي • ليس ما حدث له مهما جدا ، ومـــع ذلك يعتبر من الاحداث الهامة في قرية شعلمفوقة ، لذلك لا بـد من الكـلام عنـه • لقد وقعت أحداث كبيرة في القرية ، لم تحدث مثلها من قبل أبدا •ولم يكن احد يستطيع أن يفهم ما يجري • واحد من الذين ساعدوا على فهم الاحداث الجديدة هو « كولوميتسيف ستيبان ايليتش » • وكان ما جـــرى لنورعلي ، هو بداية الاحداث الكبيرة اللاحقة •

بعد ولادة « لو » بحوالي عام واحد ، مات الحاج يونس متجمدا مـــن البرد عند مشارف القرية ، وقد غادر الحاج الحياة متحسرا على أنه لم يترك ولدا يرثه • وهكذا آلت أملاكه الى أخيه نورعلي الذي عاش طوال حياتـــه فقيرا يأكل مما يقدمه اليه الناس • وما أن استلم نورعلي الميراث حتـــى بدأت تراوده أحلام حمقاء • فقد بدأ يفكر ليل نهار بأفضل السبل للوصول الى الثراء • فهو تارة يفكر بأن يصبح تاجرا ، وتارة أخرى يفكر بـــأن يسافر كما سافر أخوه • وحزم أمره أخيرا وقرر السفر ، ولكن ليس الى مكة•

كان غومار ، والارالب ، والقاضي قد وصلهم نصيب من تركة الحـــاج فسكتوا • ولكن نورعلي لم يقنع ويسكت مثلهم • « ان الحظ لن يسعـــى اليك وأنت جالس في بيتك ، لا بد من الحركة » هكذا كان نورعلي يحـــدث نفسه • فها هو الآن يستطيع أن يحقق ما تاقت اليه نفسه منذ زمن طويل• السفر •• يقولون أن هنالك بلادا يكثر فيها الذهب حيث تجده منثـورا على الارض مثل الذرة الصفراء • اذا ذهبت الى هنالك وجلبت ما تستطيـع أن

تجلبه ، فانت هو الثري بعينه • وحتى اذا لم تستطع ان تحضر سوى ملء قبعة ، فلن يكفيك ذلك طوال حياتك فقط ، بل سيكفي اولادك من بعدك •

« انظروا الى أين يريد أن يذهب ، لن يستطيع حتى الغراب أن يوصل شعرة واحدة من رأسك الى تلك البلاد » هكذا كان يعترض عليه كل من يسمع ما يقول •

ـ ان النبي نفسه لم يستطع الذهاب الى تلك البلاد • وأخوك المرحوم ايضا لم يستطع ، فكيف تستطيع أنت ؟•

ـ والله أن يونس لم يذهب الى حيث ينبغي الذهاب ـ يقول نورعلي وهو يزداد تصميما على تنفيذ خطته •

ـ ان « لبش » (١) بالرغم من أنه كان ينتعل حذاء حديديا ويحمل عصا حديدية ، وتجول في أرجاء الارض حتى وصل الى حيث تلتقي السماء بالارض ، لكنه لم يجد ذهبا منثورا كما تقول في أي مكان •

ـ أنا سوف اسافر بالباخرة • أتظن أن الباخرة يمكن أن تأخذك الى حيث لا ينبغي الذهاب ؟•

ويهز الامام سعيد برأسه :

ـ ولكن كيف ستتفاهم مع الناس ؟ ماذا ستقول لهم مثلا حين تريد أن تأكل أو تشرب ؟ انك لا تعرف لغة الشعوب التي ستمر بها في طريقك • والله ، والله لن تستطيع أن تصل ، وستنقطع في منتصف الطريق • انك تمزح بالتأكيد • ألا تعرف أن على الارض لغات بعدد شعرات لحيتك ؟

جاء في القرآن ـ قال سعيد وهو يروي حكاية يدعم بها موعظته ـ « سأل الله تعالى البشر ذات يوم ، ايهما تفضلون ، ان تعيشوا على الارض والذهب يتناثر بين أيديكم هنا وهنالك ، ام تؤجلوا سعادتكم الى الآخرة؟ » لم يتفق الناس • بعضهم فضل سعادة الدنيا ، العاجلة ، بينما اختار آخرون الجنة والسعادة الآجلة في الاخرة • ومنذ ذلك اليوم انقسم الناس الى فريقين ، مسلمين وكفار • اذا كانت سعادة المسلم في الدنيا قليلة ، فان نعيم الآخرة بانتظاره • أما الاخرون فالى جهنم وبئس المصير مهما كانت سعادتهم في الدنيا •

ومع ذلك لم يستمع نورعلي الى أحد •

باع المشؤوم القسط الاكبر من نصيبه في التركة في بضعة أيام ولم يترك سوى الدار • وتزود بكمية من الاضلاع المجففة والدجاج والبيض المسلوق والمعجنات ووضعها في كيس حمله على ظهره وانطلق بعد أن أغلق نوافذ وأبواب بيته جيدا • يوم رحيله زار جيرانه آل بوتش وبقي عندهم قليلا • مازح «لو» الصغير ، ورجا دومسارا ان تطل على الدار بين حين وآخر • وبعد ذلك ، وكما يقولون « الذي تنتظره المصائب اصم لا يسمع » توجه نورعلي

---

(١) هو اله الحديد في الاساطير التركية ، ولكنه يعيش بين الناس على هيئة حداد •

الى محطة القطار ٠

وبعد مدة طويلة ، سمعت بعض الاخبار عن نورعلي ٠ قيل أنه شوهد في مدينة كبيرة ، على شاطىء بحر كبير ٠ وكانت اكثر نقوده قد سرقت منه ٠ ولم يعرف من الذي سرقه ٠ ومع ذلك لم يقبل بالعودة بل ركب الباخرة المتجهة الى أبعد مكان في الدنيا ، كما روى شاهد عيان ٠ « الله أعلم ما هو المكتوب على جبينه » هكذا كانوا ينهون الحديث عنه ٠٠ ولم يسمع عنه بعد ذلك شيء ، لا خيرا ولا شرا ٠ وقامت الحرب العالمية الاولى فشغلت أهالي قرية « شعلمفوقة » عن تتبع اخبار نورعلي ٠ وأخذوا يعانون المصائب المتتابعة من رجال الدولة ، الذين يزورونهم من حين لآخر ، ويقولون أن الالمان على وشك أن يصلوا فيطلبون منهم تقديم الحبوب والخيل ٠ ويقولون تارة اخرى ، اذا كنتم لا تريدون أن يدوسكم الالمان بحوافر خيلهم ، فهاتوا نقودا وفرسانا ٠٠ وهكذا مرت الأيام والاشهر حتى جاء يوم سمعوا فيه خبرا عجيبا ٠ « لقد حطموا حكومة روسيا وقلبوا الملك » ومع ذلك لم يغير زالمجري الذي كان يلقب نفسه « قرال جاتة » (٢) عادته في اصطياد الديكة الرومية ٠ وكان هنالك من يشكك في هذه الاخبار ٠ وفي هذه الايام بالذات عاد نورعلي ذات يوم الى القرية فجأة دون أية مقدمات وكان ريحا قد أعادته، ولم يعرفوا من أين جاء ولا كيف جاء ٠ عاد حزينا ذليلا محطما ينظر حواليه بعينين جاحظتين ، منطويا على نفسه لا يحدث احدا الا لماما ، واذا تحدث لا يذكر شيئا عما رآه في أسفاره أو في البلدان التي زارها ٠ وكان يود أهل القرية أن يعرفوا أين كان طوال السنوات الثلاث الماضية ، ويعرفوا ماذا رأى وماذا سمع وكمية الذهب التي عاد بها ٠ ولكن نورعلي لم يكن يتكلم عن ذلك أبدا ٠ كان في خنوعه ومسكنته يشبه كلبا ضربه صاحبه ضربا مبرحا ٠ يخرج من بيته الذي كان قد أغلق نوافذه وابوابه باللبن والطين قبل سفره ، فلم يفتح بعد عودته سوى ما هو ضروري لدخوله وخروجه ، وبعد أن يصيب قليلا من الطعام ، يعود الى بيته ويلازمه ٠ وكانت هذه التصرفات مبعث ريبة وشك ٠

ورغم كل شكوك أهل القرية ، فان نورعلي كان قد عاد خاوي اليدين ٠ كانت أمريكا هي وجهته ، ولما وصل الى هنالك ، أبدل النقود القلية التي كانت قد بقيت معه ، وبعد أن صرفها بقي في الشارع لا يدري ماذا يفعل ولا الى أين يذهب ٠ وقضى معظم وقته في السجن ٠ وفي هذه الاثناء قامت ثورة شباط (٣) ، ودخلت أمريكا الحرب فتحسنت العلاقات بين الدولتين ٠ وعندها جمعوا أمثال نورعلي من المتشردين المفلسين واعادوهم في باخرة

(٢) معناها سيف الحكومة .

(٣) جاءت بالحكومة المؤقتة الى السلطة قبل ثورة اكتوبر .

واحدة ، عن طريق « ادخانجلسك » (٤) • لم يشاهد نورعلي في كل اسفاره المكان الذي تلتقي فيه السماء بالارض ، كما لم ير الذهب منثورا كالحصى في مجاري الانهار • ولكن كيف يمكن ان تحمل أهالي قرية « شعلمفوقة » على تصديق ذلك ؟• معطف قديم ذو قبة من المخمل ، وقبعة مدعوكة ، وكفان جلديان مثل الكفوف التي يستعملها الضباط ، وغليون • هذا كل ما عاد به نورعلي من حطام الدنيا • وكان المعطف مثقوبا في عدة أماكن ، تظهر منها البطانة • ومع ذلك كان الناس يقولون : « هذه النتوءات في معطف نورعلي ، الا يحتمل أن يكون الذهب مخبأ فيها ؟ ان بطانة المعطف يمكن أن تخفي كمية لا يستهان بها » •

الاعجب من كل هذا ، ان نورعلي لم يكن يسمح حتى للضوء بالدخول الى بيته • فالابواب والنوافذ بقيت مغلقة ، وهو لا يزور أحدا ، كما لم يروا أحدا يزوره • يعرج احيانا على بيت دومسارا ويجلس قليلا دون أن يقول شيئا ، واذا طلبت منه أن يؤدي بعض الاعمال قام بها ، فتطعمه قليلا ثم يعود الى البيت •

وأخذ كل واحد من أهالي القرية يروي شكوكه للآخر حتى صدقوا في نهاية الامر أن نورعلي يخبىء ذهبا • وكانوا يهزأون من أي شيء يقوله ، ولم يبالوا بفقره ولا بجوعه • « رويدك أيها الشرير !•• انه يخبىء ذهبه في أرض البيت ، لذلك لا يجرؤ على الابتعاد عنه • يا له من عفريت » •

وكان الشباب يتحينون الفرص ليسطوا على نورعلي ، ولكن لم تسنح لهم أية فرصة •

ـ هه •• هذا العجوز الشرير • تأملوا في عودته ماشيا •

ـ الذهب يدفعك لان تعمل كلّ شيء • لقد سحره الذهب •

ـ أقسم انه لن يسمح لك أن تلقي ولو نظرة واحدة على ذهبه ، وهو مستعد للموت دون ذلك •

غاب نورعلي ذات يوم عن الدار لبعض الوقت ، ولما عاد وجد أرض غرفته محفورا وحوائجه القليلة مبعثرة • ومنذ ذلك اليوم لم يعد يجرؤ على الخروج من الدار •

واضطر في يوم آخر ان يذهب الى الغابة ليحتطب ، فخلع معطفه ووضعه تحت شجرة • ولكن المعطف اختفى وكأن الارض قد انشقت وابتلعته • وعاد بدون معطف يقاسي من برودة اليوم الخريفي • وفي اليوم التالي وجد المعطف ملقيا امام داره وبطانته مبقورة ، ولم يستطع أن يعرف من الذي أخذه ولا من الذي أعاده • وفي بعض الليالي كان نورعلي يسمع أصواتا في الغرفة الخلفية ولكنه لا ينهض خوفا •

---

(٤) شرق الاتحاد السوفياتي •

في النهار ، لم يكن نورعلي يجد ما يأكله ، وفي الليل لم يكن يستطيع النوم بسبب الجوع والزوار الغامضين ، فهزل واصبح هيكله كالجثة ، جلدا على عظم ، ولم يعد يطيق صبرا على حالته · فدخل على دومسارا يشكي لها همومه :

ـ ما اتعسني يا دومسارا ، وما اسوأ حظي ! لقد غضب الله علي ولم اعد أدري ماذا أفعل ولا كيف أعيش · أنت من بيت ذي سمعة طيبة ، وعند عائلة معروفة برجاحة العقل ، لم يطلقوا عليها « المتهالكون على الموائد » أشيري علي ، قولي لي ماذا افعل !

كانت لحية نورعلي التي تشبه لحية التيس مضحكة· ولم يكن تيمبوت يستطيع أن يمسك ضحكته كلما نظر اليها · وكان نورعلي حزينا الى حد البكاء ، ولم يكن فيه شيء يستطيع أن يقنعك انه هو بعينه ذلك الذي قطع كل تلك المسافات وزار كل تلك البلدان ·· عندما يقول أنه بقي في الطريق على ظهر الباخرة شهرا كاملا ، كان الناس يضحكون قائلين « انك تبالغ قليلا » · أما تيمبوت فلم يقنع أن احدا يمكن أن يسافر لمدة شهر في رحلة واحدة سوى أستيمر · أستيمر رجل قوي ، كبير ، لا يخاف حتى من غومار الذي يهابه كل أهل القرية · وليس نورعلي سوى قط ضئيل الحجم بالمقارنة به ·

ـ « لو » ، هل تفرح اذا عاد أبونا ؟ ـ سأل تيمبوت أخاه ·
ـ طبعا ، سأفرح كثيرا ·
ـ انظر الى نورعلي ! ان شكله يبعث على الضحك ·
ـ عندما يأتي الحر سوف يتداعى ولن تتماسك أعضاء جسده ·
ـ اسكتوا ·! ما هذه الاقوال ؟ ـ نهرتهما دومسارا ·

هدأ الولدان ، وقدمت دومسارا لنورعلي الذي يجلس مطرقا صحنا كبيرا من اللبن وطبقا من عصيدة الذرة الصفراء ·

ـ لن يتخلى عنك الله ، ولا بد أن يشملك برحمته · ماذا أقول لك أنا ؟ والله لا أعرف · أقسم لهم على مصحف « آل خليل » انك لا تملك ذهبا· ألن يصدقوا بعد ذلك ؟ ·

أعجب نورعلي بالفكرة فتوقف عن الاكل ومسح فمه بكمه ·

ـ أقسم انك نطقت عين الصواب · سأذهب الى سعيد دون اي تأجيل· اشكرك ·

ـ لا داعي للتأجيل · ولكن أقسم عليه أمام الجميع ، وسترى كيف يصدقونك بعد ذلك · أنا لم ار احدا يقسم على مصحف « آل خليل » ولكن

الجدة رأت · يا ويلي من مصحف « آل خليل » ·

ـ لا أظن أنني أستطيع أن أقف امام الجميع دون أن اخجل · ولكن مـــا العمل اذا لم يكن بد من ذلك ·

ـ ولماذا تخجل ؟ أنت لا تكذب · فليخجل أولئك الذين يكذبون ·

ـ يا الهي ! هل أستطيع أن أتحمل ذلك ·

ـ كيف لا تستطيع ؟ أنت رجل ، لا تخف · ان كلام الله لن يؤذيك فلست لصا ولا قاطع طريق ·

ـ أنت مسلم نقي يا صغيري · لا تخف ـ قالت الجدة مشجعة ·

ومد نورعلي يده بتردد الى «قلبق» أستيمر القديم الذي كانت دومسارا قد وهبته له ·

« لماذا يأخذ قلبق والدنا ؟ » قال تيمبوت في نفسه غير راض عما يفعله· اذا أقسم على مصحف آل خليل وانفجر (٥) ، فقد ضاع القلبق · وبقـــي نورعلي واقفا يفرك القلبق بين يديه مدة طويلة ، ثم انصرف مبديا امتنانه لدومسارا والجدة ·

## مصحف ال الخليل

لم ينم تيمبوت طوال الليل وهو يفكر · الطربوش الاحمر الذي ذهـــب به الحاج يونس الى الحج موجود في المستودع · ومن الافضل ان يرتديـــه نورعلي عندما يقسم اليمين على مصحف « آل خليل » ؟ ولكن كيف السبيـل الى افهامه ذلك · يجب مناقشة يلدار حول الموضوع · ولكن أين يلدار ؟ لا أحد يعرف · سأشاور ساريمة على الاقل · ساريمة تقيم عندهم منذ حاول ان يختطفها رحيم ، وهي تخاف من أن يحاول خطفها ثانية اذا عادت الـى بيتها · انها تساعد أمه في أعمال البيت ولا تهدأ طوال النهار ·

لم يستطع تيمبوت أن يقابل يلدار · وعندما حدث ساريمـــة بسره رفضت الفكرة رفضا قاطعا وهي تقول « لا تتدخل فيما لا يعنيك · بالنسبة للذي سينفجر بعد أن يقسم اليمين ، لا فرق بين القلبق والطربوش » ·

ـ هل ستذهبين لتتفرجي على نورعلي عندما يقسم اليمين ؟

ـ انني خائفة ·

ـ وأنا أيضا خائف · فربما طارت يد نورعلي أو رجله وأصابتنا ،ستلقي بنا أرضا ·

ـ دعنا نذهب ، وليحدث ما يحدث ·

---

(٥) من المعتقد الشعبية أن من يقسم يمينا كاذبا ، ينتفخ وينفجر على الفور ·

ـ لنذهب ٠
ـ لكن لن نأخذ « لو » معنا ، انه صغير وسيبكي ٠ واذا اصابته قطعة من نورعلي قد تؤذيه ٠
ـ هذا صحيح ٠ ليبق مع الجدة في البيت ٠

وأخذ «لو» يبكي عندما سمع أنهم لن يصحبوه ٠ ولكن ساريمة جلست الى جانبه وأفهمته أن الذهاب الى هناك مخيف أكثر بكثير من الليلة التي جاؤوا فيها ليخطفوها ٠ وعندما سمع « لو » ذلك اقتنع أن البقاء في البيت افضل وكف عن البكاء ٠

هاج الناس عندما سمعوا أن نورعلي سوف يقسم اليمين على مصحف « آل خليل » ٠ وفي اليوم المحدد ، أخذوا يتوافدون الى فناء المسجد ، دون أن يمنعهم البرد أو الثلج ٠ ولم يندم تيمبوت وساريمة على ذهابهما ٠ وما أن اجتازا المنعطف حتى رأيا الناس متجمهرين ٠ كان مشوقا للجميع أن يروا كيف يفجر المصحف انسانا يقسم عليه ٠ وأسرعا في سيرهما ، ورغم أن عقب تيمبوت الاحمر قد برز من حذائه المثقوب ، فلم يكن يشعر بالبرد لشدة انشغاله بما سيراه ٠ كان عدد من الاولاد يلعبون في فناء المسجد ويتصارعون فوق الثلج ٠ وعندما رآتهم ساريمة اطمأن قلبها قليلا ٠ ووقف نورعلي مرتديا معطفه المرقع بقطع من الخيش وقد برز عقباه من حذائيه المثقوبين عند الكعب ٠ حليق الشارب يكاد أنفه يلتقي بذقنه ٠ كان بمجمله متميزا عن الآخرين ٠ واتجهت جميع الانظار اليه كان يقف وحيدا ٠ وكلما مر شاب من جانبه ، ينظر اليه مقطبا ٠

ووقف عدد من المسنين مستندين على عصيهم دون أن يقولوا شيئا يذكر ٠ وبعد أن طال وقوفهم ، تذكر أحدهم بصعوبة ، مثلا :

ـ « اذا كنت سيء الحظ ، حتى العصيدة تقلع ضرسك » ٠
ـ لقد أصاب كبد الحقيقة ٠ كان يعرف ما يقول ذاك الذي أطلق هذا المثل ٠ وانقطع الحديث من جديد ٠ كان يلدار وبلاتسه اكثر أهل القرية حيوية ونشاطا ، فقد أخذا يمزحان ويسليان الناس ٠ وكان الاطفال يتصارعون كالديكة، والكبار يحرضونهم فيشتعلون غضبا ويتماسكون بعنف ويتمرغون فوق الثلوج ٠ ٠وعندما يرون ولدا وقف بعيدا عن حلبة الصراع يحرضونه من جديد :
ـ انظروا اليه كيف يخاف ، المسكين ليست لديه القوة الكافية للمصارعة !٠

وقفت دومسارا مع تيمبوت وساريمة ، وكان يلدار يلتفت اليهم بين الحين والآخر ٠

ـ وماذا يفعل المسكين ، ان أمه لا تطعمه ٠

ـ هيا أمسكه من خرامه ، من الحزام •
ـ أنت • انك تستعمل قدمك ، هذا غير مسموح به •
ـ لماذا تقاتل أنت ! هذا ليس شجارا أيها الغبي •
ـ الذي لا يعرف أصول المصارعة ، هو الذي يقاتل بقبضتيه •

واستمر الاولاد في المصارعة بثيابهم الرثة ، وطواقيهم الصوفية التي أكلها العث ، وهم يفلحون الثلج بأقدامهم ووجوههم ويتصايحون بحمية بالغة •• « كل مغلوب لا يقنع » لذلك كانوا يقومون بحيوية ليعودوا الى الصراع من جديد •وكان المتفرجون يضحكون ، بعضهم يسخر من المغلوب، والبعض الآخر يشجع الغالب •

اقترب رجل رث الثياب من موسى وجلس على الثلج بجانبه • كان هذا « مسعود » الذي يعرفه الجميع بأنفه المعصور فوق شاربه وذقنه الضئيلة المدورة • وما أن رأى موسى « بطن الكبدة » الذي جلس الى جانبه حتى غمز الآخرين وبدأ يستهزيء به :

ـ مسعود ! أهذا أنت يا أخي الكبير ؟
ـ أنا والله •
ـ يا أهلا ، قل لنا بالله عليك ، كيف لا تخاف من تلك المرأة التي تزوجتها • هه ؟ الم تجد امرأة اخرى غيرها يمكن النظر اليها ؟•
ـ أتظنني جبانا اخاف بهذه السهولة ؟
ـ يقول « أتظنني جبانا » دعها تقف في بستانك وانظر الى النتيجة • ستفزع منها حتى العصافير •• ها • ها • ها • ـ ضحك موسى •
ـ أنا لست ممن يخافون من النساء •
ـ اذا كانت سوداء ، وفمها عريض كالصندوق ، وأنفها يشبه الحذاء المبلول ، وعيناها عينا غراب •• ها • ها • ها • يا الهي ، هل دفعت مهرا لمثل هذه المرأة ! •
ـ آه • كل النساء متشابهات والله •
ـ صحيح متشابهات ، ولكنني لا أصدق أنك لا تخاف عندما تأوي الى فراشك ليلا هه ؟
ـ في الليل أطفيء السراج واتخيل زوجتك الجميلة نائمة الى جانبي • اقسم لك •
ـ ماذا ؟ ماذا قلت ؟ سأبقر لك بطنك ـ يقول موسى فيضحك الجميع • وليسحب موسى خنجره ويركض وراء مسعود الذي فر من أمامه • ولكنه لا يستطيع اللحاق به ، فيعود لاهثا •

وينظر الناس نحو البيت المسقوف بالقرميد الذي سوده الدخان لعدم وجود مدخنة فوقه ، فيرون مجموعة من الرجال قادمة من هناك • الشيخ

سعيد وحاج أفكح في المقدمة ·· انقطع الضجيج فجأة وعلقت الابصار بالقادمين · كان سعيد يتأبط بعناية مصحفا مغلفا بالجلد ويلتفت حواليه · وأخيرا وقع نظره على نورعلي الذي ميزه بسهولة ؛ لانه كان وحده من بين جميع الحاضرين يرتدي معطفا · وكان الآن واقفا يشعر بالدوار ·

رفع سعيد يده ؛ فخطا نورعلي بضع خطوات وكأنه يجتاز حقلا وعرا ، ثم جمد على بعد خطوات قليلة من الشيخ وهو يضيق ما بين كتفيه؛ وقد رفع ياقة معطفه المخملي · وسكن جميع الحاضرين · حتى الاولاد الذين كانوا يملأون المكان ضجيجا قبل قليل سكنوا وكأن على رؤوسهم الطير · بقي ولدان يتراشقان بكتل الثلج فصاح أحدهم عليهما فتوقفا أيضا ·

ـ أيها المسلمون ! ـ بدأ سعيد كلامه ـ لا داعي للوقوف طويلا في هذا البرد · سنباشر في عملنا الذي اجتمعنا من أجله فورا ·

ـ صحيح والله · لم نقدم الماء لدوابنا بعد ·

ـ فلنبدأ ، لم يبق ما ننتظره ·

أخذ نور علي ينظر الى الناس والدموع تسيل من عينيه المنتفختين على لحيته السوداء المدببة ·

ـ ردد ما أقوله يا نورعلي !· اذا لم تكن تخفي في قلبك شيئا آخر ، فانك تقسم على ما تقوله · هذا « مصحف آل خليل » ، احلف ـ قال سعيد وهو يقف في الفسحة ·

وجم الجمع · وتقدم نورعلي وهو يرتحف بضع خطوات اخرى وتوقف ثانية · ولم تفهم ساريمة لماذا لم يهرب الناس · فان لحظة الخطر قد دنت · كانت تتوقع أن تتناثر عظام نورعلي بين لحظة واخرى ويتصاعد الدخان ، ومن الممكن ان يصاب الواقفون بهذه العظام · ولكن ، اذا لم يكن القريبون منه لا يخافون فلماذا تخاف هي ؟ ·

ـ هذا المصحف من عند الله تعالى ـ قال الشيخ ـ كل من يقسم عليه كاذبا سينفجر ، أما اذا كان صادقا ، فسيكون سعيدا ببراءته · أتعرف ذلك يا نورعلي ؟ ·

ـ أعرف والله · ولن أقول الا الصدق ان شاء الله ·

ـ « بسم الله الرحمن الرحيم » ـ بدأ الشيخ ·

ـ « بسم الله الرحمن الرحيم » ـ ردد نورعلي وراء الشيخ بصوت متهدج وركبتاه تصطكان وكأنه مصاب بالبرداء · وأخذ ينظر الى الشيخ نظرات أقلقت سعيد ·

كان الجميع يرون كيف ترتجف لحيته ·وكيف يسيل أنفه ، وكيف تسيل الدموع من عينيه وكأن مآقيه قد ملئت ماء ساخنا · وامتلأ قلب نورعلي في

هذه اللحظة بالايمان • وكان كلما نطق بكلمة من لغة القرآن ، ازداد قلبه خفقانا وخشوعا واضطرب جسمه كله « اذا كذبت دون أن أشعر ، كذبة غير مقصودة فسأنفجر وينتهي كل شيء » وعندما فكر بذلك ، ازداد خوفه وأظلمت الدنيا في عينيه •

ردد الشيخ بعض الادعية ، ورفع يديه وهو يدعو الى الله ، وفعل الحاج العجوز مثله • ولم تعد ساقا نورعلي قادرتين على حمله ، وأوشك أن يغمى عليه • كانت حاله كمن شرب كمية كبيرة من الخمر ، وهو يتأرجح في مهب الريح •

ـ ردد معي ولا تنقص كلمة واحدة مما أقول « أقسم بالله العظيم ،الذي يخرج النهار من الليل ، ويخرج الليل من النهار • وجماعة المسلمين تسمع قسمي • يا الله ، اقبض روحي من مكاني هذا ، اذا كنت قد جلبت معي من أمريكا التي كنت فيها ذهبا او نقودا ، أو كنت اخفيها ، لا ترزقني يا الله ما أخفيه عن الناس • » •

كان نورعلي يردد ما يقوله الشيخ وكأنه يهذي ولا يدري ما يقول • صحيح أنه لا يخفي شيئا من الذهب ، وليست يمينه كاذبة • وكانت غاية أفراحه أنه استطاع ان يعود حيا من هناك • ومع ذلك من الممكن أن تزل لسان الانسان في مثل هذا الموقف •• سبحان الله ، لم يتذكر نورعلي سوى هذه اللحظة ، الكيس الجلدي الصغير المعلق في عنقه وفيه بضعة نقود ذهبية • لقد قضي علي الآن • أقسمت يمينا كاذبة ، قال نورعلي لنفسه مرعوبا « يا الهي ، يا الهي الكبير •• اذا كان فيما قلته الآن اي كذب ، أو كنت احمل ذهبا ولو بحجم سن الكلب ، فلتصب علي لعنتك » • وعند هذا المقطع نظر نورعلي الى الشيخ فتخيل ان طائرا اسود يخرج منه • ـ اقترب وضع يدك على المصحف ـ قال الشيخ منهيا كلامه •

لم يستطع نورعلي أن يتحرك • ولما دفعه أحدهم قليلا الى الامام ليساعده ، كاد يقع أرضا لولا ان هرع احد القريبين منه وأسنده • ومد يده ليضعها على المصحف ولكنه اجفل وسحبها بسرعة وكأنه يلمس حديدا محمى • وأجفل الشيخ وتراجع خطوة الى الوراء • وصاح نورعلي بأعلى صوته :

ـ هات المصحف • هات مصحفك • ـ ثم وقع على الارض •

ـ لقد انفجر •

ـ استغفر الله •

ـ يا « مصحف آل خليل » الامر هكذا دائما معك •

ـ لن يسامح الله من يحلف يمينا كاذبة ـ قال سعيد وهو ينظر الى الرجل الذي يزحف على الارض •

ـ أين كان يخبىء ذهبه طوال الوقت ؟ ـ سأل رجل وقد عيل صبره •

وما أن سمع نورعلي كلمة « ذهب » حتى دبت فيه القوة من جديد ، وأخذ يبكي ويئن ، ثم وقف متحاملا على يديه ورجليه ، وأخذ ينظر الى الشيخ وكأنه يوشك أن ينقض عليه . وأخيرا انتصب على قدميه وسار يضع خطوات نحو سعيد ، والثلج الذي التصق بوجهه يذوب ويتساقط قطرات تختلط بالدموع التي كانت تسيل من عينيه . وخاف بعض الاولاد وهربوا ، بينما وضع بعض الرجال أيديهم على خناجرهم .

ـ أقسم على « مصحف آل خليل » أنني لا املك قطعة ذهب واحدة ـ قال نورعلي ـ هات المصحف يا سعيد ودعني أضع يدي عليه . أتسمعني ؟ هات المصحف .

ـ ابتعد يا قليل الحظ . أتظن انني سأسمح لك بتدنيس المصحف . لقد غلبك ابليس ، انت . ابتعد عني . ـ قال الشيخ .

ـ هات مصحفك !

ـ أمسكوا به ، لقد جن الرجل .

ـ أنا مجنون ؟ ها . ها . ها . ان الشيخ خائف مني . ها . ها . ها . أعطني المصحف .

ـ أعطه المصحف يا سعيد ، أعطه . ربما نفعه ـ قال بلاتسه وهو يتقدم الى الفسحة .

ـ أعطه ، ولماذا تمنعه عنه !

ـ خذ ، خذ أيها الخاطىء .

ـ وفقك الله ـ قال نورعلي وهو يمسك المصحف ـ أقسم بكلام الله وأعيد ـ صاح وهو يرفع المصحف عاليا ـ حمى الذهب تدفع الى الجنون ولكنني لست مجنونا . من يظن ان عندي ذهبا ، أرجو أن لا يحصل في حياته سوى ....

ـ خذوا المصحف منه ـ قاطعه سعيد وهو يخطو نحوه ـ سيسقط من يده .

ـ لن يسقط مني كلام الله يا شيخ .. من يملك الذهب هو الذي يضيع كل شيء من أجل الذهب . ربما يأتي يوم تحتاجني فيه يا سعيد ، وستجدني . خذ المصحف .

وأعاد نورعلي المصحف الى اول شخص اقترب منه . ثم استدار عائدا لا يلوي على شيء . وكانت آثار اقدامه تنطبع على الثلج كخطين متوازيين .وبعد أن راقبه الناس مدة من الزمن وهو ينصرف قال أحدهم :

ـ هذا كل شيء . والآن هيا نعود الى بيوتنا .

وتراكض الاطفال كذلك وهم يتراشقون بكتل الثلج . وانطلقت دومسارا عائدة الى البيت ومعها تيمبوت وساريمة . ورغم أن تيمبوت لم يفهم كل

ما حدث فقد كان شديد التأثر ، وكان يشعر بشيء من الرضا على سلامة « قلبق » أستيمر الذي كان يرتديه نورعلي ، ولكنه لم يجرؤ على الحديث عن ذلك ٠

وأحسن موسى اغتنام الفرصة ، فقد وصل في مساء ذلك اليوم نفسه متأخرا الى بيت نورعلي ٠ وكان الاخير نائما وهو يرى احلاما مزعجة ٠ البيت ؟ يستطيع أن يبيعه ويرحل ليعمل حيث يجد العمل ٠ ولكن الى أين يذهب ؟ ففي كل يوم تصل الى القرية اخبار اسوأ من اليوم الذي قبله ٠ الجنود الروس في كل مكان ٠ والهاربون من الجيش التجأوا الى الغابات ٠ وفي نالتشك ، المدينة الممتدة طولا ، شكلوا شيئا يرضي الفقراء سموه « سوفييت » ولكن يقولون أن الجنرال الروسي « كاراولوف » سيحضر جيشا لطرد السوفييت الذين ينوون أن يوزعوا الارض ، وأنه سيعيد القيصر ٠ والفوج القباردي الذي كان في الجبهة ، هو في طريق العودة ٠ وهناك من يقول أنه ظهر في بطرسبرج رجل يخيف « كيرنيسكي » ويدعى « لينين » ٠ من الذي يستطيع أن يرتب كل هذه الاشياء ويفهمها ٠ ومن يستطيع أن يخبر نورعلي ما ينبغي عليه أن يفعله في ظل هذه الظروف ٠ لقد ضاع منه كل شيء ٠ كان قد اشعل قليلا من الحطب في الموقد ، وسخن عصيدة الذرة المتجمدة من البرد ، وتعشى ونام بعد أن أرق طويلا ٠ ولكن ما أن فتح عينيه حتى رأى موسى واقفا قبالته ٠

## اختبار الرجولة

كلما أظهر أحد شجاعة ، او تخاذل في موقف ما وكلله العار ، يرددون مثلا شائعا يقول : « الشجاعة أمر مشاع ، وليست وقفا على أحد » وبالرغم من أن أستيمر وضعته ظروف حياته في مواقف قاسية ، فقد غادر القرية دون أن يصفوه يوما بأنه متخاذل أو جبان ٠

عندما اقسم نورعلي اليمين على مصحف آل خليل ، كان ذلك اختبارا قاسيا لرجولته ٠ وقد وصفه بعضهم بعدما أبداه من تخاذل « مسكين انه ناقص القلب والعقل » حتى أن بلاتسة قالها بصراحة : « الشجاعة لا تتوارث عن الآباء كالفروة العتيقة » ملمحا الى المرحوم والد نورعلي الذي كان من الذين قاتلوا في اليابان وأظهروا بطولات خارقة ٠ « وردة خلفت شوكة » لم يصبح مثل والده ٠ (١) ٠

نتكلم عن هذه الاشياء الآن ، لان الحديث سيتجه بنا الى أستيمر ،ومن عادة الشراكسة عندما يتحدثون عن خصال احد الناس ، ان يذكروا نقيضه٠

---

(١) في الاصل مثل مشابه ولكن ليس بالمعنى الحرفي ٠

فاذا كان نورعلي قد وقف أمام الجماعة وتخاذل ، وجلب العار على نفسه ، فان أستيمر ما كان ليقف موقفا مشابها • كانوا يقولون عنه انه رجـل وأخ للرجال ، حافظ في أحلك الظروف على شرف شاربيه •

بعد أن رحل الجيش عن ناتشك ، اختفى استيمر فجأة ، ولم يعـرف أحد الى أين ذهب •

وكان غومار عمدة القرية يبحث عنه ، ولكنه فقد أثره تماما ، ولم يجرؤ على اعلام مفوض الشرطة قبل أن يعرف جلية الامر • كما أن خوفه من أن يؤنبه كان يلجم لسانه • ولم ينتبه الارالب بسرعة الى أن الارض انشقت وابتلعت أستيمر • ولو عرف بالامر ، ما كان ليتردد في اعلام ابن قلشبـي الذي كان سيجده ولو استدعى الامر التنقيب في أرجاء الارض • وما كـان الارالب ليتوانى عن تشويه سمعة أستيمر قائلا : « انه اختبأ حتى لا يذهب الى الجبهة» • وربما كان السبب في عدم ملاحقة أستيمر بعد رحيله مباشرة، هو العمدة نفسه • فقد عاد يوم مغادرة الجيش مدينة نالتشك وهو في حالة سكر شديدة ، وأقسم الايمان المغلظة بأنه أرسل أستيمر الى حيث لن يعود أبدا •

وصدق الكثيرون كلام العمدة • وكانت دومسارا اذا خرجت الى الطريق يتقدم منها كل من يراها ويقول : « اعاد الله زوجك الى أولاده سالمـا » • وكان بعضهم يمعن في ايلامها قائلا : « لا تقلقي ، سيعود مسلمك وعـلى صدره صليب » (٢) •

ربما كانت دومسارا وحدها هي التي تعرف الحقيقة ؛ لذلك لم تبـال بكل ما يقال لها • ولم ترد على أحد ، وتابعت حياتها وهي تعمل كل ما في وسعها حتى لا يجوع الولدان •

وظهر الارالب في القرية ليتأكد من حقيقة الاشاعة التي تقول أن أستيمر ذهب الى الجبهة • ولكن المشكلة هي كيف تحصل من هذا العمدة عـلى شيء • وبينما كان المفوض والعمدة يتجادلان حول حقيقة هذه الاشاعـة ، غادر أستيمر بلاد قباردیا ، واستقر في نواحي «بسيج» •كانت أسرة زوجته في تلك المنطقة كبيرة ، وكانوا يحبون صهرهم ومن المستحيل أن يخبـروا عنه • ولكن الرجل وهو في أوج قوته وشبابه ، لم يستطع البقاء ضيفا هكذا مدة طويلة • لذلك اتجه الى مدينة « شق شوكيج » (٣) •

في القديم كانت هذه المدينة محطة لتجميع الاسرى • ويذكر جميـع الشراكسة في تلك المناطق (٤) ، كيف كان الاسرى يحتجزون هناك حتى يأتي

---

(٢) يقصد وسام الشجاعة .

(٣) معناها النكاك من الاسر .

(٤) القفقاس الغربـي .

من يدفع الفدية عنهم • أما الاسير الذي لم يسأل عنه أحد ولا يستطيع دفع الفدية ، فقد كانوا يبيعونه كمملوك لمن يرغب في شرائه • وفكر أستيمر وهو يقطع الطرق الجبلية عبر الغابات الكثيفة • « أنا أيضا مثل الاسير ، ما كان أسعدني لو استطعت شراء حريتي والعودة الى بلدي وأسرتي » ولكن ذلك كان مستحيلا لانهم سيمسكون به بمجرد عودته ويرجون به في السجن •

وانبسطت الطريق امامه الى مدينة « شق شوكيج » فداهمته الذكريات •• عندما دخل الى المدرسة الدينية في منطقة الاباظة وهو في اول شبابه ، كان قد صادق شابا في مثل سنه يدعى « داور الياس » وترافق طالبا العلم دون أن يفترقا سنوات عديدة • وذات يوم ذهبا الى قرية « حكورنة » حيث كانت القرية تقيم احتفالا كبيرا للجنرال « خانوقة » وفي حلبة الرقص ، وقعت انظار استيمر على الفتاة الجميلة « دومسارا » للمرة الاولى • فأعجب بها وأقسم امام صديقه انه لن يتزوج غيرها مهما حدث • ولكن أهل الفتاة رفضوا قائلين : « لن نزوج اختنا من ابن أرملة ترعى الديكة الرومية » وحاول أستيمر ان يخطبها من جديد وقد عزم على ترك المدرسة والعودة بها • ولكن أخواها رفضا طلبه ثانية :

ـ ان الدخان لا يعرف طريقه الى مدخنة بيتكم •• (٥) ألا تنقصك سوى زوجة ؟ ـ ووصل الامر الى ان سحبوا خناجرهم وطردوه من البيت •

ولم يكن أستيمر من ذوي الاملاك ، ولكنه كان بارزا بين أقرانه بقامته المديدة ، ورجاحة عقله ، وطلاوة حديثه ، ومظهره القريب الى القلب •وكانت دومسارا قد وقعت في غرامه ولم تكن لترضى عنه بديلا بالرغم من اعتراض اخويها • فألفت اغنية حب حزينة انتشرت بسرعة وذاعت في كل الارجاء، لصدقها وشدة تأثيرها في النفس •

وكلما سأل احدهم « لمن قيلت هذه الاغنية ؟ » كانوا يذكرون طالب العلم الشاب من قبارديا • أما أخواها ، فقد كانت صورتهما في الاغنية مثالا لبشاعة الظلم والاضطهاد • « هل كرها أختهما لهذه الدرجة ؟ » هكذا كان يستهجن عملهما كل من يسمع الاغنية •

وكان هذا ما يسعى اليه أستيمر ودومسارا ، فلم تمض فترة طويلة على انتشار الاغنية ، حتى لان الاخوان • ورحل العروسان في عربة استأجراها الى مدينة « شق شوكيج » على نفس الطريق التي يسير عليها وحده الآن • كانا شابين مليئين سعادة وأملا • ولم يكونا يعلمان شيئا عما تخبئه لهما الايام •• واليوم أيضا ، لم يكن أستيمر يعرف ماذا سيكون مصيره • كان في السابق قد أمضى أياما سعيدة في هذه المدينة ، وها هو

---

(٥) يعيرونه بالاملاق .

يسعى اليها الآن ، يحدوه أمل غامض .

لو استطاع صديقه أن يساعده ويجد له عملا كحارس غابات أو ناطور مزروعات ! ولكن الخريف قد أقبل ، فأية مزروعات سينطر ؟. ان مهنة حارس غابات هي الافضل . فالغابات في نواحي « بسيج » كثيفة ، ومن المستحيل أن يجده فيها أحد حتى ابن قلشبي نفسه .

اذا عمل حارس غابات سيرسل اول راتب الى أسرته ، وسيشتري لهم قمحا وملابس شتوية ويرسلها مع بعض المسافرين ، وسيموت المفوض والعمدة غيظا وهما يريان ما يرسله لاسرته من حاجات دون أن يعرفا مصدرها .

ووصل أستيمر الى المدينة دون أن يشعر وقد استغرقته هذه الافكار . وخشي أن يضيع الشارع الذي يقع فيه بيت صديقه ، ولكنه وجده بسهولة. وبعد أن استمع الى قصته ، تعجب صديقه وقال وهو يمازحه مرحبا :

ـ أهلا ، أهلا . أنت فار من وجه العدالة اذن !. أحسنت صنعا بمجيئك الي . سنجد لك عملا .

واطمأن قلب أستيمر على حسن استقبال صديقه له . وفي صباح اليوم التالي ذهب الصديقان الى تاجر الخيل « مراد شمعون » الذي يقيم في المدينة . وفي الطريق كان صديقه يمازحه . اذا عرف انك فار من وجه العدالة فلن يستخدمك . ولكن لماذا لا نخبره ، فقد يشجعه ذلك .

كان الياس يعرف طباع مراد شمعون جيدا ، ولكنه لم يكن قد تعامل معه من قبل . كان رجلا ذا حيوية فائقة ، وفيه شيء من التهور بل قل الجنون ، ولم يسبق له أن رفض استخدام احد طلب منه عملا ، ولكنه بالمقابل كان يسرح واحدا من عماله القدامى . وكان من عادته قبل أن يستخدم أي عامل جديد ، أن يختبر قوته وهو يجد في ذلك تسلية كبيرة .

كان مستخدمو شمعون يجوبون نواحي « بسيج » (٦) و « ترك » (٧) و «لابة» (٨) دون كلل أو ملل لينقلوا اليه المعلومات عن الخيل المعروضة للبيع ، أوصافها وعددها وأسعارها . وكان مراد يذهب بنفسه بعد ذلك ليعاين الخيل ، او يطلب من أصحابها أن يسوقوها اليه ليعاينها ويشتريها بعد ذلك اذا اعجبته .. ولم يكن عمله سهلا . فمن أجل أن تشتري الخيل عليك أن تعرف طباعها واجناسها .. وكان من الواجب ان تبقى على ظهر حصانك أسبوعا او اسبوعين . وحتى تتحمل ذلك يجب أن تكون ذا جلد كبير . ولذلك كان شمعون يرغب في أن يختبر كل واحد يطلب عملا قبل أن يستخدمه .

كان شمعون معروفا لدى الجميع بـ « الرمادي » ، ربما بسبب شاربية

---

(٦) ، (٧) ، (٨) أسماء انهر .

اللذين يبدوان وكأن الصقيع قد غطاها • ولم يكن يحلق لحيته الا نـادرا • وحين يحلقها ، تبدو ذقنه مقسومة بحفرة في منتصفها ، كفرعي شجرة • وكانت احدى يديه مشلولة ، لا يخرجها من جيبه أبدا •

روى له أستيمر والياس مشكلتهما بالتفصيل • ولكن « الرمادي » لم يكن يستمع الى تفاصيل ما يرويه الصديقان • كان يقبل باستخدام أستيمر بالرغم من أنه فار من وجه السلطة بشرط أن ينفذ تعليماته جيدا ، ويذهب الى كل مكان يرسله اليه • ثم مسد شاربه الرمادي بيده السليمة واستمع الى بقية حديث الصديقين دون أن يتثاءب سوى بضع مرات •

كان الرمادي يحمل وسام صليب القديس « جيورجيف » وهذا هـو الصليب الذي كان يعنيه الناس عندما قالوا لدومسارا « سيعود مسلمك وهو يحمل الصليب » • وقد حصل عليه في حرب اليابان بعد أن اظهر بطـولات عديدة وفقد يده في تلك الحرب • والآن ها هو يشتري الخيل ويبيعها للجيش• وبذلك لم يقطع صلته بالجيش الذي احب الحياة العسكرية فيه ، وبقـي يشعر أنه ما يزال في الخدمة الفعلية •

وبعد أن قال أستيمر كل ما ينبغي عليه قوله ، خيم الصمت على الرجال الثلاثة • وأخذ شمعون يفكر : « بأية طريقة سأختبر شجاعته الآن ؟ » بينما كان الاخران يفكران صامتين « هل يعتزم أن يلبي طلبنا يا ترى ؟ » •

وبعد قليل قام شمعون واتجه الى فناء الدار وهو يقول « تعالوا معي » وتبعه أستيمر والياس وقد انفرجت أساريرهما • ورآهم اثنان من مستخدمي شمعون فأيقنا ان واحدا منهما سيفقد عمله ، وشعرا بالقلق لاجل ذلـك • وأخذا يتساءلان :

ـ من الذي سيقع عليه الاختيار هذه المرة ؟•

ـ هاتوا المهر الى هنا بدون سرج ـ أصدر الرمادي أوامره • فأخذ عمال الاسطبل يتراكضون مضطربين • وبعد دقيقة واحدة ، قاد رجلان بصعوبـة بالغة مهرا أزرق جميلا وهو يصهل ويقفز على قائمتيه محاولا تحرير نفسه، والبخار يندفع من منخريه ، وعيناه مذعورتان • ولكن الرجلين كانا يمسكان باللجام جيدا فلم يتركا له مجالا للافلات •

ـ أعطوه سوطا ـ قال شمعون وهو يؤشر بعينيه ناحية أستيمر •

ـ خذ ، خبئه في حزامك قبل أن يراه الحصان •

ـ اركب الآن • اذا كنت فارسا ، فهذا حصان • ـ قال شمعون وهـو يلتفت الى أستيمر •

ثبت أستيمر السوط في عنق حذائه العالي ، وبحركة واحدة أمسـك عرف الحصان وقفز ، فاستوى على ظهره في غمضة عين • وسحب الرجلان اللجام عن رأس الحصان الذي انطلق باستيمر عاريا يجري في أرض الـدار الواسعة •

أخذ الحصان الازرق يقفز الى أعلى والى اسفل ، ويحاول أن يعض ساق راكبه ، ثم يقف على خلفيتيه وينفضه عن ظهره ، ويجري وهو يهز رأسه هزا عنيفا ٠٠ ووقف شمعون يتفرج ويضحك وهو يمسك ببطنه ٠ وحافظ أستيمر على توازنه فوق ظهر الحصان العاري الاملس بصعوبة بالغة ، مستعينا بركبتيه ، وعرفه الذي تشبث به باحدى يديه ، بينما كان يمسك باليد الاخرى السوط الذي يجلد به خاصرة الحصان بعنف كلما قام بحركة من حركاته البهلوانية ٠ وانطلق الحصان غير المدرب يجري في الشارع والبخار يتصاعد من منخريه ، وقام بحركة يائسة ليلقي براكبه ، فقد قفز الى الاعلى على قوائمه الاربعة ثم هبط وهو يميل جانبا ٠ وكاد أستيمر يقع أرضا ولكنه تعلق بذراعيه بعنق الحصان وتماسك ٠ ووجد شمعون في كل ذلك تسلية ما بعدها تسلية ، واخذ يضحك وقد جحظت عيناه ٠٠ ولم ينزل أستيمر عن ظهر الحصان حتى تعب وتوقف لوحده ٠

ـ ترجل الآن ٠ « يبدو أنك ستصير رجلا » كما يقولون ٠ ـ قال الرمادي ٠

وقفز أستيمر عن ظهر الحصان وأعاد السوط الى صاحبه ٠

ـ ضعوا سرجا عليه وسوقوه الى « بسيج » قال مراد وهو يتجه صوب النهر ٠

كان ما ينتظر أستيمر هو الاسوأ ٠

ـ الآن والله ، يجب أن يقرأ سورة « قل هو الله أحد » ثلاث مرات ٠ ـ قال أكبر المستخدمين سنا ، وهو الرجل العجوز الشاحب الذي كان قد أعطى السوط لاستيمر ـ ستسبح جيدا يا أخي ٠

ـ وكيف أسبح في هذا الجو الخريفي البارد ؟٠

لم يكن الرجل العجوز يكذب ٠

وعرف الناس أن شمعون سيقدم أحد عروضه الغريبة فتجمهروا على ضفة النهر ٠

وكان النهر في ذلك الوقت من السنة بلون قشر البطيخ الاسود ، وقد انعكست على صفحته التي تبدو للوهلة الاولى راكدة صورة الغابة التي تكاثفت على الضفة الاخرى من النهر ٠

ولم تكن هذه هي المرة الاولى التي يأتي فيها شمعون لمثل هذه الغابة ، فقد طلب من قبل ، من رجل آخر أن يقطع النهر وغرق كما غرق شروان محمد ٠ وها هو الآن يعيد الكرة من جديد لان أحدا لم يحاسبه على الحادثة الاولى ٠ وعندما رأى شمعون عماله يقودون الحصان الى النهر ، أخذ قلبه يخفق بعنف كما يخفق قلب صياد محترف رأى فريسته ٠

ـ هيا ، اركب الآن واقطع النهر ، واجلب لي غصنا من البلوط من الضفة الاخرى ـ قال شمعون وهو يشير بيده الى الغابة على الضفة المقابلة ٠

غضب أستيمر وهو يقول في نفسه « هل يجب أن ننفذ كل ما يخطر ببال هذا الرجل من أعمال جنونية ؟ » ولكنه كظم غيظه مقلبا الامر على وجوهه : « والى أين سأذهب اذا غضبت وتركته ؟ » ٠

وكان الياس ينظر باستياء الى طلب « الرمادي » ٠

ـ أتريد أن تركب ، أم ٠٠٠ ؟ ـ سأله الرمادي ٠

بما أن الحصان سرج ، وفي فمه لجام ، فقد كان أستيمر قادرا على أن يطوعه هذه المرة تماما ٠ ولكن ليس من المستحسن أن تتعب الحصان وهو على وشك أن يقطع النهر ٠ لذلك اخذ يلاطفه ويمسد على رقبته لفترة طويلة ٠ وعندما هدأ الحصان تماما ، حثه بعقبيه فقفز الازرق الى الماء البارد وهو يرتجف ٠

كان شمعون ينظر الى ما يجري وقد قوس ظهره ٠اذا سحبت اعماق النهر الحصان الى الاسفل ، فماذا سيفعل الفارس ؟ هذا ما كان شمعون يعتبره التسلية الكبرى في الموضوع كله ٠

أخذ أستيمر يتابع مجرى النهر ٠ وحاول الحصان العودة مرتين ولكنه لم ينجح في ذلك ٠ ولم تمض مدة طويلة حتى وصل الى الاماكن العميقة ، وغاص استيمر حتى ركبتيه في الماء ٠ وبعد بضع خطوات اخرى ازداد الماء عمقا ، وأخذ الحصان يسبح لان قوائمه لم تعد تطال القاع ٠ ورأى المتفرجون على الضفة أستيمر وقد غاص حتى كتفيه ، ولم يعد يظهر من الحصان سوى منخريه ٠ فأخذوا يتصايحون :

ـ الحصان لا يعرف السباحة ٠
ـ انه غير مدرب ، ولم يركبه أحد من قبل ٠
ـ سيضيع هذا الرجل المسكين ٠

وما أن اتموا الجملة الاخيرة حتى سحبت الاعماق الحصان من تحت أستيمر ٠ وطفا على وجه الماء وهو يسبح ٠ أما الحصان فقد طفا بعد أستيمر ، ثم عاد وغاص من جديد في مثل لمح البصر ٠ ويبدو ان قوائمه كانت قد علقت بشيء ما تحت الماء ، فأخذ يكافح بكل ما في جسمه من قوة حتى حرر نفسه وطفا فوق الماء من جديد ٠ وسبح استيمر نحوه ليمسكه ٠

ـ عد الى الضفة ، اتركه وعد الى الضفة ـ أخذ المتفرجون يصيحون٠ بينما كان شمعون يضحك باستمتاع مرضي وهو يمسك بطنه بكلتا يديه ٠
ـ عد ، هذا يكفي ٠٠٠!

لم يسمع أستيمر ضحكات « الرمادي » ومع ذلك فقد كان في منتهى الغضب ، ولم يكن يريد شيئا من الدنيا في هذه اللحظة ، سوى ان يخرج من الماء ٠

وأخذ الحصان يبتعد عن الاماكن العميقة وهو يسبح سباحة الكلاب ٠ وتابع أستيمر السباحة نحو الحصان بصعوبة وأمسك بلجامه ، ولكنه لم يجذبه لان ذلك كفيل باربا كه في مثل هذه الظروف ٠ بل أمسك بركابه وسبح معه حتى وصل الضفة الضحلة ولامست قوائم الحصان الارض ٠ عند ذلك أمسك لجام الحصان وقاده خارجا من الماء ٠ كان الحصان متعبا ، مطواعا ، وأخذ ينفض رأسه باستمرار ، ربما ليخرج الماء من أذنيه ٠

وركض جميع الواقفين نحوه ،ونفض الحصان جسمه كله بعنف فرشقهم برذاذ الماء البارد ٠

وقبل أستيمر مستخدما ٠

## راعي الخيل الجديد

الذي قال : « كيف يقوى عدوك وأنت تأكل ما هو من نصيب غيرك » عرف ما يقوله ٠ وهكذا كانت بداية عمل أستيمر عند مراد شمعون ، بداية خاطئة ٠ ذلك لانه أخذ مكان رجل فقير سرحه رب العمل دون مبرر ، او خطأ اقترفه ٠ كان رجلا نحيلا شاحبا ، يدب كجثة تمشي على الارض ٠

عندما جاء هذا الرجل الى شمعون يطلب عملا قبل بعض الوقت ، ضحك منه حتى شبع وهو يقول «أنا لا اصدق أن عظامك لن تتساقط عندما تركب حصانا » ٠

ـ يقولون « ثور مقتول ، ورجل نحيل » ـ قال الرجل معترضا ٠

ـ « اذا أطعمت حيوانا نحيلا فانه يبلل شفتيك بالدهن ، اما اذا أطعمت انسانا نحيلا فانه يضرب شفتيك » ـ قال شمعون ٠

ومع ذلك ، فانه لم يطل الجدال معه ٠ سقاه نصف دلو من الحليب الفاسد وأحضر له حصانا نحيلا ناتيء العظام ، وأركبه عليه دون سرج ٠ وعندما رأى شمعون هذا المنظر انفجر ضاحكا وهو يقول : « فارس من الآخرة » ٠

انطلق الحصان العجوز يمشي خببا ، فازدادت آلام راكبه ٠ كان الجلوس على حد الفأس أسهل عليه من الجلوس فوق الهيكل العظمي لهذا الحصان٠ ورغم أن « فارس الآخرة » كان يستند تارة على فخذه الايمن ، وأخرى على فخذه الايسر ، فان البقاء على ظهر الحصان سبب له آلاما لا تطاق ٠

ازداد شحوب وجه فارس الآخرة ، ولكن شمعون رفض أن يسمح له بالترجل قبل أن يعرف ما اذا كان بامكانه ان يصبح فارسا أم لا ٠ وهكذا تابع الركوب حتى تقيأ كل كمية الحليب التي شربها وصبغ الحصان الاحمر باللون الابيض ٠ وكان هذا ما ينتظره شمعون ، فارتفعت ضحكاته مجلجلة٠

أما فارس الآخرة فقد بدأ رأسه يدور ، ولم يتوقف عن الدوران حتى وقـع على الارض ٠

ـ لا بأس ، يمكنه أن يعمل في الاسطبل ـ قال شمعون وهو يوافق على استخدامه ، بعد ان سرح واحدا من عماله القدامى ٠

ولما كان أستيمر قد أظهر شجاعة فائقة اليوم ، فقد سرح فارس الآخرة واستخدمه بدلا منه ٠ كان عملا بدون جدوى أن تسأل شمعـون « لمـاذا سرحتني ؟ » فهو لا يبالي بمثل هذا السؤال ، وقد لا يجيبك بالمرة ٠ كمـا أنه لا يحتاج الى أي تبرير ليطرد أي عامل من عماله ٠ ولكنه الآن بدأ يعلق على غير عادته وكأنه يدين فارس الآخرة بشيء ٠

ـ « لا تركب القن وراءك على ظهر الحصان حتى لا يستولي عـلى سرجك » ـ قال شمعون متصنعا الغضب لان فارس الآخرة كان قد نقل فراشه من الاسطبل الى مستودع صغير توضع فيه عدة الخيل ، بعد أن أشفـق عليه زملاؤه من برد الخريف القارس ٠ وكان هذا ما يعلق عليه شمعـون وهو يطرده من الدار ٠

أخذ أستيمر يجوب أنحاء «لابة» و «بسيج» و «ترك» ، لا يغادر سرج حصانه ليلا او نهارا ، وكان شمعون يذهب ليشتري الخيل التي يدله عليها أستيمر ، أو يوصيه بأن يسوقوها اليه ٠ وهكذا يجمع قطيعـا يطعمـه بالكرسنة والذرة الصفراء ٠ ويسوقون القطيع نهارا الى البراري ويجعلونها نركض والقيود في أرجلها حتى تقوى قوائمها ، ثم يسوقونها الى بسيـج لتسبح ، وينظفونها ٠ وهكذا تتغير الخيل حتى لا تكاد تعرفها خلال ثلاثـة أو أربعة أسابيع ٠ فتلمع جلودها ، وتمتلىء أجسامها ، وتصبح نشيطـة وقوية ٠

وعندما تصبح الخيل جاهزة للبيع ، يذهب شمعـون الـى مدينـة « باتايسك » ويعود ومعه رجل قوزاقي طويل الشاربين ليريه الخيل ٠ ثـم يتفقان على السعر ، وغالبا ما يكون ضعفي السعر الذي اشتراهـا بـه ٠ ويبقى القوزاقي بضعة أيام في ضيافة شمعون يأكلان ويشربان بينما يسوق المستخدمون القطيع الى باتايسك ٠ فينطلق أستيمر مرة أخرى باحثا عـن خيل جديدة ٠

ليس من السهل ان تقطع كل يوم ثلاثين الى أربعين فرسخا ٠ كـان أستيمر يقطع هذه المسافة على ظهر جواده الازرق الذي دربه بعد أن خرج به من النهر يوم أراد شمعون اختباره ٠ وقد صار حصانا مطواعا قويا ، لا يتعب ولا يتوقف على غير ما توقعه منه ٠

ويفكر أستيمر وهو يقطع المسافات على ظهر جواده ٠ كيف ينسـى الولدين اللذين تركهما في رعاية دومسارا ٠ قد يجوعان أو يعريان وليس له

أحد في القرية يلتفت اليهما أو يزورهما سوى غومار او الارالب • في الحقيقة لم يكن الارالب قد ترك في طول البلاد وعرضها مفوضية بوليس الا وأرسل لها مذكرة بحث عن أستيمر • وكان قد وصل به الامر أن يرسل مخبريه ليلا الى دار أستيمر ينتظرونه في الاسطبل ، عله يعود فليقوا القبض عليه • ولكن أستيمر لم يكن يبقى في مكان واحد ليلتين متتاليتين • فهو في سفر دائم •

وكان الرمادي راضيا تمام الرضا عن أستيمر ، وكيف لا يرضى عنه وهو يسوق اليه كل اسبوع ما يساوي ثروة من الخيل • ولو جاءه اليوم من يطلب استخدامه فليس من المعقول أن يسرحه من العمل •

ذات يوم التقى أستيمر في سوق روسي بالقرب من قرية « قانوقوي » برجلين شركسيين يبيعان حصانا جميلا للركوب • ولم يكن في الحصان أي عيب سوى أنه لم يدرب ولم يركبه أحد منذ فترة طويلة • وكان ثمنه مقبولا• ولما كان شمعون قد فوضه بشراء أي حصان يعجبه دون الرجوع اليه ، فقد اشتراه وعاد به يقوده وراءه • ورغم أن أستيمر كان قلقا ، فقد لا يعجبه الحصان ، الا أن شمعون فرح به وقال له « أحسنت صنعا » وكان اعجابه بالحصان واضحا من شاربيه اللذين أخذا يتراقصان • وبالرغم من أن الرجلين لم يتصارحا ، فقد كانا يفكران معا بشيء واحد « الحصان رخيص لانه مسروق » لذلك أصدر شمعون أمرا بأن لا يخرجوا الحصان الاشقر من الاسطبل •

ـ اذا سأل عنه أحد ، لا تسمحوا له برؤيته حتى تخبروني ـ هكذا أوصى شمعون مستخدميه •

ـ عندما يعود اليه لونه فهو يليق بجنرال ، انه حصان حقيقي ـ قال سواس الخيل الذين يعملون عنده •

ولو جاءه صاحب الحصان نفسه ، فلم يكن ليعيده اليه قبل أن يدفع ضعف ما دفعه فيه • ومن الافضل أن لا يراه احد بالمرة حتى يبيعه • ولكن الامور لم تجر كما اشتهى شمعون •

استعاد الحصان الاشقر عافيته بسرعة ، وعاد اللمعان الى شعره ، كما عادت له سرعته وحيويته ، وصارت عيناه تلمعان وكأن بريقا يخرج منهما • وكانت فيجبينه غرة بيضاء تزيده جمالا • كان يقف على خلفيتيه متحفزا ، وما أن يطلق عنانه حتى ينساب وهو يسابق الريح ، ولا يمكن أن يلحقه حصان آخر • وكان شمعون لشدة اعجابه بالحصان يخرجه من الاسطبل عندما يحل الظلام ويمتطيه منطلقا في البراري • وبعد جولة طويلة يعود به وهو يقاوم اللجام وأذناه منتصبتان يحركهما في كافة الاتجاهات •

ـ أقسم أنك جلبت لي ثروة يا ابن الكلبة ـ هكذا كان شمعون يمازح أستيمر الذي اشترى له الحصان •

ـ مبروك يا شمعون • يبدو انه حصان جيد ـ يجيبه أستيمر •

تجمع عدد كاف من الخيول ، فسافر شمعون الى باتاياسك ليرى صديقه الفوزاقي • وكان أستيمر قد أصبح المسؤول في غيابه ، فأطعم الخيل ، وأوى المستخدمون الى مراقدهم،وانصرف الحارس الذي يحرس الاسطبل ليلا بعدما أذن له أستيمر لمرض أحد أهل بيته •

وأوى أستيمر الى المستودع الذي كان فارس الآخرة ينام فيه قبل تسريحه ، والذي تنبعث منه رائحة نفط حادة ، لان عدة الخيل المعلقة على الجدران ، كانت قد مسحت حديثا بالنفط • ولم يستطع أستيمر الاستغراق في النوم ، ربما بسبب هذه الرائحة • واذا نام قليلا ، كان يفيق وفي عينيه صور أسرته • وأخذ القمر يطل عليه من خلال النافذة الوحيدة ، ثم يختفي وراء الغيوم وكأنه يمازحه •

وسمع صوت حوافر خيل في الفناء وهو موشك على النوم ، فخيل اليه أن شمعون عاد بعربته • ولكن لماذا يصهل الحصان ؟ وما هذه الضجة ؟ أهو سارق خيل يا ترى ؟• ويصحو أستيمر • ليته لم يسمح للحارس بالعودة الى البيت • يوجد شيء في الاسطبل • ويرتدي ثيابه على عجل • أين المسدس الذي وضعه تحت الوسادة قبل نومه ؟ ويسمع صوت تحطم ألواح خشبية من جهة الاسطبل •• يجري الى هناك فيرى فارسين يهربان من خلال السياج الخشبي المحطم وهما يقودان حصانا وراءهما ويختفيان عن الانظار •

ـ من هذا ؟ الى أين تأخذ الحصان ؟

لا أحد يجيب • فيطلق أستيمر الرصاص من المسدس الذي يحمله في يده ، ويجري نحو الاسطبل ولكنه لا يجد الحصان الاشقر •

يشد أستيمر السرج على حصانه الازرق ويلحق بالفارسين • ولكن الى أين يتجه ؟ لقد ذاب اللصان في الظلام • يطلق العنان لحصانه الازرق وهو يقول في نفسه ، ليذهب الى حيث يشاء • ولكن أنى للحصان أن يعرف الاتجاه الصحيح •

لن يذهب السارق الى المدينة بالتأكيد • والاتجاه المحتمل في هذه الحالة هو نحو « أرمضير الثانية » • لا يوجد أدنى شك في أن السارقين هما من شراكسة منطقة الاباظة ولا بد أنهما اتجها نحو موطنهما • وفي هذه اللحظة اقشعر بدنه • فلم يخطر له سوى الآن ان السارقين هما نفسهما الرجلان اللذان اشتراه منهما • اذا كانا قد فعلا ذلك ، فقد خدعاه كما تفعل « حبة الجوز الفاسدة » • من عادة لصوص الخيل المحترفين أن يبيعوا خيلهم عندما تضعف بثمن بخس ، حتى اذا ما أطعمها شاريها واعتنى بها فاستعادت نياقتها ، يعودون اليه فيسرقونها منه • وانطلق الازرق يجري وهو يمط جسده الى الامام كلما أمعن في التقدم • ويصيخ أستيمر السمع فيخيل اليه

انه يسمع وقع حوافر خيل أمامه • ما كان الازرق ليمط جسده بهذا الشكل لو لم يكن يسمع شيئا • هذا صحيح ، ويخيل اليه أنه يرى فارسا في الظلام • ولكن هل هذا صحيح ام مجرد تخيل ؟•

ـ الى أين تأخذ الحصان ، ساريك نجوم عينيك • ـ قال أستيمر وهو يطلق النار من مسدسه !

وزاد الفارس في الظلام من سرعته ، وكأنه يشجع مطارديه على اللحاق به • « سأطلق العنان للازرق والحق به » ، قال أستيمر في نفسه • وفي هذه اللحظة سمع وقع حوافر حصان خلفه « آه • لقد أصبحنا الآن اثنين ، ولا بد أن نفعل شيئا » قال أستيمر وهو يطلق رصاصة أخرى •

رأى أستيمر لمعان النار في الظلام ، ثم صوت اطلاق الرصاص • كان اللص قد استدار الى الخلف وأطلق عليه النار من بندقيته •

« لماذا لا يلحق بي الفارس الذي جاء لنجدتي • ربما أسرع أكثر من اللازم • ولكن اللص سيفلت مني اذا ابطأت • أليس من الافضل أن اذهب الى المحطة وأخبر العمدة ؟ اذا أرسل جماعة من المطاردين قبل طلوع النهار ، سيلقون القبض على اللصين » •

ولحق به الفارس الذي خلفه • من هو يا ترى ؟ أهو شمعون ؟ • فليكن من يكون ، يستطيعان ان يفعلا شيئا الآن ، وقد صار معه رفيق • حاول أستيمر أن يلجم حصانه ولكن الازرق لم يطاوعه • ها هو الفارس • لقد اقترب منه الآن ، وأصبح يرى البرنس الابيض الذي يلفه حول رأسه • ان حصانه متعب •

ـ من هذا ؟ •

لجم استيمر حصانه ، فلحق به الفارس الذي خلفه ، وأطلق عليه النار من مسدسه • لمعت النار في وجه أستيمر ووقع في العتمة • كان هذا احد اللصين ، وقد اختبأ حتى اجتازه المطارد فلحق به • وانطلت الحيلة على استيمر •• وحث الفارس الذي أطلق عليه النار جواده فابتلعه الظلام •

عندما طلع الصباح ، كان أستيمر يرقد في بركة من دمه ، والازرق يقف مطأطيء الرأس بالقرب منه • وكان عدد من الجنود ، بعضهم يربط يده ، والبعض الآخر يربط رأسه عائدين من المقبرة الى المحطة فوجدوا أستيمر في طريقهم • أمعنوا النظر فيه ، فوجدوه يرتدي الزي الشركسي ، وكانت ملامحه كذلك شركسية • ورفع أحدهم المسدس الذي كان يحمله أستيمر فوجد فيه رصاصتين ، فأفرغهما في رأس الازرق الذي كانت ساقه مكسورة بشكل لا شفاء منه •

وقع الحصان على الارض ومات دونجلبة كبيرة •
وأخذ الجنود يتناقشون :

ـ أما زال حيا ؟
ـ نعم ، انه يتنفس ·

خيل لاستيمر أنه يسمع هذا النقاش ، ولكنه لم يستطع ان يتحرك · كان عضده الايمن يؤلمه ، وكذلك كتفه ·

ـ انتبه · حذار ان تؤذيه ·
ـ لقد جف قميصه على الجرح ·

ولم يعرف أستيمر المتحدثين ، ولكنه كان يسمع الحديث · وخيل اليه انهم يخلعون احدى ذراعيه ثم أغمي عليه من جديد · ولم يعرف كم من الوقت مضى عليه عندما فتح عينيه ورأى فتاة تقف بجانب رأسه · ولكنه لم يعرف معنى الصليب الاحمر المطرز على المنديل الذي كانت الفتاة تلف رأسها به ·

ورأى عددا آخر من الناس غير الفتاة ، ولكنه لم يعرف أين هو ، ولا ماذا حصل له · وأحس كما لو أن ساقه وذراعه قد بترا من جسده ·

ـ لقد أفاق والله · انظروا !
وفتح أستيمر عينيه جيدا ·
ـ أنت محظوظ والله أيها الرجل ·
ـ الامر هكذا دائما اذا لم يكن اجلك قد حان ·
ويسمع صوت من الزاوية البعيدة ·
ـ وهل كان أجل الذين دفنتموهم اليوم قد حان ؟
ـ وهل كنا ندفنهم لو لم يحن اجلهم ؟ لقد أخذنا ثلاثة ، وعدنا بواحد· انظروا اليه ، انه يتحرك ·
ـ من هو يا ترى ؟
ـ اسأله ·

وفهم أستيمر النقاش الذي دار حوله في عربة القطار الصحي · وحيثما اتجه بنظره كان يرى جنودا جرحى من فوج قبارديا · ولولا هؤلاء الجنود الذين انقذوه ، كان أستيمر قد انتهى · كانوا قد وجهوا القطار بموجب أمر من ادارة الصحة العسكرية الى مدينة روستوف · ولكن ادارة المستشفى في المدينة رفضت استقبالهم قائلة : « عندنا ما يكفي منهم » فوجهوا القطار الى « أرمفير » ولكن الوضع في أرمفير كان أسوأ · فبقي القطار في المحطة بانتظار نتائج البرقيات التي كان المسؤولون يتبادلونها · ولكن بعض الجرحى كانوا يموتون دون أن يستطيعوا انتظار هذه النتائج · وفي هذا الصباح مات ثلاثة منهم فقام عدد من الممرضين ، ومن ذوي الجراح الخفيفة من الجرحى بدفنهم · وفي طريق عودتهم من المقبرة ، وجدوا أستيمر فأحضروه الى عربة الاسعاف ·

عرف أستيمر انه الآن مع جرحى الفوج الذي كان سيلحقه به ابن قلشبي واعظا · وتذكر لهجته القاسية وهو يقول له : « اذا لم تذهب برضاك فسأجعلهم يجرونك كالتيس » ·

دخل أحد الضباط الى العربة وتوقف بجانب أستيمر وهو يسأل :

ـ من هذا ؟

ـ هذا واحد منا ·عندما ذهبنا الى المقبرة اليوم ، وقع في حفرة فانفجرت جراحه ·

وفي هذه اللحظة وقع أحد الجرحى من السرير العلوي على زميل له في السرير السفلي فصاح الاثنان مولولين · فأسرع اليهما الضابط والممرضات·

كان أستيمر يرقد وهو لا يكاد يقوى على التنفس ، بعد أن اختلطت روائح الادوية والجروح في رائحة واحدة ثقيلة تحبس الانفاس · وعندما انطلق القطار متجها الى روستوف ، تنفس الجميع الصعداء ·

## في المستشفى

سمع أستيمر في المستشفى ورأى اكثر من كل ما رآه وسمعه في حياته كلها · لم تكن جروحه قد شفيت ، كما أن عظم فخذه كان يؤلمه ولا يستطيع الوقوف عليه ، فقد بقيت احدى الرصاصتين في فخذه · ولو لم يكن الاطباء قد عالجوه في الوقت المناسب لكان من المحتمل أن تقطع ساقه من الفخذ ·

كان الجرحى من الجنود المسلمين يرسلونهم الى المستشفى الذي ينام فيه أستيمر ، وربما لهذا السبب أطلقوا عليه « مستشفى المسلمين » ·وكان عبارة عن دار للعجزة تبرع بها أحد المحسنين في السابق ، وقد حولوها الآن الى مستشفى جمعوا فيه المسلمين من الجنود الجرحى ، لان مستشفيات روستوف كلها غاصة بالجرحى ·

أمام باب المستشفى حارس عجوز مهمته أن يمنع الغرباء من الدخول· ولكن جميع الذين يأتون الى المستشفى كانوا يرتدون المعاطف الشركسية ، فصار من الصعب عليه أن يميز الغريب من القريب · وكان العجوز يقول لكل من يدخل محاولا أن يجعل لهجته قاسية :

ـ ممنوع الدخول ·

ولكن كان من الصعب جدا ان تمنع الناس من الدخول الى المستشفى · فان أهالي الجرحى من سكان قباردينا يأتون لزيارة اقاربهم واخوتهم وعيونهم مليئة بالدموع بعد أن سمعوا الخبر المحزن ، وهم في حالة من

الاضطراب واللهفة ، ويدخلون الى المستشفى دون أن يسمعوا أو يفهموا ما يقال لهم ، بعد أن وجدوا أخيرا المكان الذي يرقد فيه قريبهم · وكانوا يحملون معهم كميات كبيرة من الزاد وقد أصابها العفن في الطريق بعد أن بقيت في صناديق محكمة الاغلاق مدة طويلة ، حتى لا يأكل أقاربهم من طعام المستشفى الذي قد يحتوي على لحم الخنزير ·

وفضل المسؤولون عن الصحة العسكرية ، أن يجمعوا الجرحى من الجنود المسلمين في مستشفى واحد ، لانهم في فترة نقاهتهم لم يكونوا يأكلون الطعام الذي يقدم اليهم خوفا من أن يكون محتويا على لحم خنزير · وهذا يؤخر شفاءهم ويطيل فترة مكوثهم في المستشفى · ولذلك أمروا ألا يقدم للمسلمين طعام يحتوي على لحم خنزير ·

ورغم هذه الاحتياطات ، فان هذا الموضوع لم يمر دون أن يثير بعض المشاكل · فقد أرسلوا الى « مستشفى المسلمين » جريحا شركسيا من « مزدوك » (١) وكان الذين أرسلوه يظنون ان جميع الشراكسة مسلمون وليس بينهم مسيحيين · ورقد هذا الجريح الذي يدعى « كوبشة » في سرير بجانب سرير أستيمر ·

لم يكن في المستشفى أحد لا يزوره أقاربه سوى أستيمر ، وذلك الشاب من مزدوك · وبدأ « كوبشة » يتعافى من جروحه ، فصار بحاجة الى المزيد من الطعام · وكان ينال حصته من كل ما يجلبه ذوو الجرحى الى زملائه في المستشفى · وقد اخفى عن الجميع كونه مسيحيا حتى لا يقاطعوه ويكفوا عن دعوته لتناول الطعام معهم ، ولكنه لم يستطع ان يحتفظ بسره طويلا ·

وعندما عرفوا حقيقته ، قاطعه الجميع ، وكان هذا ما يخشاه المسكين· أصبح وحيدا كخروف ضال ، لا يجالسه أحد ، ولا يدعوه لتناول الطعام معه ·

وهكذا فكر « كوبشة » بحيلة · فدبر قطعة من لحم الخنزير ، أكل نصفها وخبأ الباقي · وعندما أحضروا مرقة اللحم ووزعوها على المرضى · أكل حصته من اللحم بسرعة ووضع قطعة لحم الخنزير التي كان قد أخفاها في صحنه ·

ـ أيها المسلمون ! انظروا ! يوجد اليوم لحم خنزير · ـ صاح كوبشة بأعلى صوته ·

وتوقف جميع الجرحى الذين كانوا قد جلسوا لتناول الطعام عن الاكل ·

ـ صحيح ؟ أين هو ؟ ·

ـ انظروا هنا ! هذا هو · ـ وعرض قطعة اللحم التي في صحنه على الجميع ·

ترك الجرحى الطعام وأخذوا يتناقشون ويتصايحون · وبينما هم

---

(١) منطقة سكانها من الشراكسة المسيحيين ·

مشغولون في ذلك ، أخذ كوبشة يدور عليهم ، ويزدرد قطع اللحم التي في صحونهم ·

ـ نادوا الطباخ ! يجب أن يبقر بطن ذلك اللعين ·
ـ نادوا الطباخ !

ووصل الطباخ وهو يضع على رأسه طاقية عالية من القماش الابيض، ويشد وسطه بجريول أبيض ·

ـ من المستحيل أن يكون في الطعام لحم خنزير · انهم لا يقدمون لنا لحم خنزير ·

ولكنه لم يجد في المستشفى أحدا عنده استعداد لان يستمع اليه · فتظاهر الطباخ بالخشونة ، ولكنه خاف وتراجع عندما رأى جنديا يخرج من تحت وسادته خنجرا شركسيا طويلا · وكان « كوبشة » قد أكل جيدا وشبع، ولكنه عندما رأى الخنجر خشي من النتائج التي يمكن أن يسفر عنها المقلب الذي دبره لهم ·

وأخذ الجرحى يتصايحون وهم يضربون الارض بأرجلهم الخشبية وبعصيهم ·

ـ يا جماعة ! استمعوا الي قليلا · أريد أن أقول لكم كلمة ، كلمة واحدة فقط ـ قال أحدهم · وعندما التفتوا اليه ، رأوا الجريح الذي كانوا قد وجدوه قرب أرنفير ، والذي لا يعرفه أحد بالرغم من أنه اخذ يتماثل للشفاء واقفا فوق السرير وهو يمسك العارضة بيده السليمة ·

ـ أيها الشراكسة المساكين ! بحق الخبز والملح أنصتوا قليلا ·
ـ ماذا يريد هذا الرجل ؟· اصبروا قليلا ودعونا نستمع اليه ·
ـ لا تكونوا سريعي الغضب يا اخوتي ـ بدأ استيمر كلامه ـ اذا كان احدكم أكل من لحم الخنزير الآن ، فان الله سيغفر له · هذا مكتوب في القرآن · أقسم لكم بالله ·

وضج الجنود :

ـ وما أدراك أنت بما هو مكتوب في القرآن ·
ـ الزم مكانك ، وكفاك ثرثرة ·
ـ دعوه يكمل كلامه ، ربما يعرف شيئا ـ قال آخرون ·
ـ أقسم بالله أن هذا مكتوب في القرآن · ان الله لن يؤاخذكم على أكلكم لحم الخنزير وأنتم تجهلون انه لحم خنزير · ان الذي يأثم في هذه الحالة ، هو الذي أطعمكم · فلا داعي لكل هذه الضجة التي تقومون بها ·

واستجمع الطباخ قواه ·

ـ هذا الطباخ ذو العينين الحمراوين هو الذي سيصير وقودا لجهنم ،

لا تقلقوا ـ صاح كوبشة ٠

كان الطباخ يفضل أن يذهب الى جهنم في هذه اللحظة ويقيم فيها ، على أن يواجه هؤلاء الجرحى الغاضبين ٠

وهدأ الجرحى قليلا بفضل كلام أستيمر ، وتوقفوا عن ضرب الارض باقدامهم الخشبية ٠ وأعاد الجندي الذي كان قد سحب خنجره الى مخبئه ٠ وكانوا قد اقتنعوا بأن أستيمر يعرف ما جاء في القرآن ٠

وسمع المسؤولون عن المستشفى بما حدث من فوضى ، فوصلوا غاضبين ٠

ـ ما هذا ؟ تفرقوا ! ـ قال ضابط بدين تتدلى غدته كديك رومي معلوف ، واللعاب يتناثر من فمه عندما يتكلم ٠ لكن الجنود لم يتحركوا من أماكنهم ٠

ـ من أخاطب أنا عندما اقول لكم تفرقوا ؟ ومن هذا الذي يقف فوق السرير ويحرضكم ؟

ـ ليس هذا الذي يحرضهم يا سيدي ـ قال الطباخ وهو يقترب من الضابط ـ لولاه لكان هؤلاء المجانين قد قتلوني٠هؤلاء الناس مثل الحيوانات٠

ـ هذا حسن ، أن يوجد بين هذه المجموعة من الخرفان واحد يفهم ـ قال الضابط ـ هيا الآن ، ليعد كل واحد الى سريره بسرعة ٠ اذا كان لحم الخنزير محرما لديكم ، أنا المخطيء اذا جعلتكم ترون اللحم بعيونكم اعتبارا من اليوم ٠ فهل فهمتم ؟٠

ـ أنهم لم يحلفوا على أنهم لن يذوقوا اللحم ٠ اذا لم يأكل المريض لحما ٠٠٠ ـ قال أستيمر وهو يرد على الضابط ٠

ـ اخرس ، انا لم اسألك عن هذا ٠ ـ وأخذ الجنود يتفرقون ، بعضهم يقفز على رجل واحدة ، والبعض الآخر يمشي على رجل خشبية ٠

ـ سأعاقب من كان سببا في اثارة الاضطراب اليوم ، بحرمانه لمدة ثلاثة ايام من الطعام الساخن ـ قال الضابط ـ اذا جاع ستضعف شوكته ، والا فان الواحد منكم لا يعرف ماذا يفعل بطاقته ـ انتظروا ! سأجعلكم تبكون على اسلامكم ٠

ـ هل يجوز أن تحرم الجريح من الطعام ؟ ـ قال أحدهم وهو يدخل من الباب ٠

ـ ماذا قلت ؟ ٠

ـ قلت ، هل يجوز أن تحرم الجريح من الطعام ؟ ـ قال المتكلم بجرأة وهو يقترب من الضابط ٠ وكان يرتدي معطفا طويلا ويعتمر بقبعة الجنود ٠

ـ وما ادراك أنت بالذي يجوز والذي لا يجوز ؟ ـ قال الضابط البدين وهو يلتفت اليه ـ من أنت ؟ ٠

ـ أنا عضو في لجنة الجنود ـ قال الجندي دون أن يبدر منه ما ينم

عن أنه ينوي التراجع ـ ايجوز ان لا يذوق الجريح اللحم ؟ وما معنى أن تسخر أنت من دين نشأ عليه الناس ٠
ـ اذن ، كما تشاؤون ٠ ما دمتم تعرفون الافضل ـ قال الضابط وقد بدأ يلين ـ انا حر فيما أفعله ، ولن اقبل منكم أن تقوموا بأعمال غير لائقة ٠ لا تعتمدوا على ذلك ٠

واتجه الضابط الى الباب وهو على عجلة من أمره ، فلحق به كل مرافقيه ٠ وقال الجندي ـ عضو اللجنة العسكرية ـ وهو يتابعهم بنظره :

ـ الى الجحيم ! كيف يمنعون اللحم عن جندي سال دمه في الجبهة ؟ أيجوز ان نقبل منهم ذلك ؟ امنعوا اللحم عنه هو يوما واحدا وانظروا اليه بعد ذلك كيف يتصرف !٠
استمع الجرحى الى الجندي بارتياح ٠ وكان الطباخ قد تسلل مع الضابط ومرافقية ٠
ـ انه يقتر اللحم ، ولكن الناس لم يوفروا أرواحهم ٠٠٠ ـ قال أستيمر بالروسية ثم توقف وهو لا يجد الكلمات المناسبة ليكمل فكرته ٠
ـ لماذا لم يوفروا أرواحهم في رأيك ؟ ـ سأله الجندي عضو اللجنة وهو يتجه اليه ٠ وبينما كان أستيمر مستغرقا في التفكير ، صاح أحدهم :
ـ من أجل الدين ، والملك ، والوطن ٠
ـ هذا هو ، باختصار ووضوح ٠
ـ هذا مختصر ، ولكن ليس واضحا ٠ ـ اعترض الجندي ـ دعونا نفكر ـ أردف وهو يجلس على سرير أستيمر وتحلق حوله الجنود الجرحى ، ومن لم يستطع التحرك من مكانه جلس متحفزا يستمع اليه بانتباه ـ دعونا نفكر ! قولوا لي كيف تقاتلون من أجل الدين والملك والوطن ٠ أنتم مسلمون، فهل ذهبتم الى الجبهة لتدافعوا عن دين الكفار ؟ الاتراك مسلمون ، فلماذا تقاتلون الاتراك اذن ؟ وهكذا من الواضح أنكم لا تقاتلون من أجل الدين ٠ والملك ؟ ليس صحيحا أيضا أنكم تقاتلون من أجل الملك ، فقد عزلوه عن العرش وثقبوا له قبعته ٠ فمن أجل من تقاتلون اذن ؟ من أجل الوطن ؟ اذا كان ذلك صحيحا ، فلماذا كنتم قد اندفعتم خارج الحدود ؟!٠
ـ يا جماعة ، سمعت أحدهم يقول مثل هذا الكلام في الجبهة فسجنوه
ـ قال أحد الجنود باللغة الشركسية ٠
ـ ماذا قلت ؟ ـ سأل الجندي عضو اللجنة العسكرية ٠
ـ يقول ان كلامك صحيح ٠ ـ قال كوبشة مترجما الى الروسية ٠ ولكن الجندي عضو اللجنة ضحك بملء صوته :
ـ ليس هذا ما قاله ٠
ـ يبدو أنه يعرف اللغة الشركسية أيضا ـ قال كوبشة متراجعا على حجل ٠

ـ أعرف ، انني أعرف قليلا ٠

وضحك الجميع وهم يشعرون بالرضا بعد أن تبين لهم ان الروسي يعرف اللغة الشركسية ٠ وحتى الذين جراحهم ثخينة ، كانوا قد اتكأوا على وسائدهم يتابعون النقاش ٠ أن يستلم العمال والفلاحون السلطة ٠ وأن لا يبقى عاطل عن العمل ٠ وتوزع الارض وكذلك الماء بالتساوي ٠ باختصار ، أن يملك الفلاحون أرضهم ، والعمال مصانعهم ، هذا ما يتطلع اليه الناس ٠٠٠ وكان الكثير من الجنود قد سمعوا مثل هذا الكلام في الجبهة ٠ حتى أن بعضهم وصلته منشورات تقول مثل هذا الكلام ٠ ولكن جهلهم بالقراءة ، كان يدفعهم للبحث عمن يقرؤها لهم حتى يصل الامر الى الضباط فيصادرون المنشورات منهم ٠

اذا كان الجنود قد سمعوا مثل هذا الكلام من قبل ، فان أستيمر يسمعه المرة الاولى في حياته ٠ لذلك أخذ ينصت بانتباه ويقظة ، معطيا كل اهتمامه بشكل لم يسبق له أن فعل في درس من دروسه عندما كان في المدرسة الدينية ٠ كان يخيل اليه أنه يرى عالما جديدا تماما من خلال كلمات الجندي الواضحة المفهومة التي تنفس عن هموم كبتها طويلا ٠

ـ اعمل وكل ، عليك اللعنة اذا كنت ممن يستغلون غيرهم ولا يعملون ٠ لست بحاجة الى أمير أو نبيل او صاحب مصنع او وسيط لتعيش ٠٠ الاخوة الحقيقية هي أخوة العمل ، الكادح المسلم اخ للكادح المسيحي ٠ ان النبيل المسيحي لا يقبل أن تكون له أية صلة مع عامل مسلم ، ولكن علاقته بأمير مسلم ستكون وثيقة جدا لان مصالحهما واحدة ، وان اختلفت معتقداتهما الدينية ٠

لم يكن واحد من الجنود الجرحى قد فكر بهذه الأمور ، بمثل هذه البساطة وهذا الوضوح ، لذلك بقوا متحلقين حول عضو اللجنة العسكرية مدة طويلة ٠ ولم يتفرقوا الا حين بدأوا يوزعون طعام العشاء ٠

ـ يكفي ما قلناه اليوم ٠ الى اللقاء « يا اخوتي المسلمين » ـ قال الجندي الضيف وهو يتأهب للرحيل ٠ وكانت لكلمة « يا اخوتي المسلمين » من فم الروسي ، مدلول جديد لم يألفوه من قبل ٠

ـ اذا حدث شيء ، تعالوا الى اللجنة العسكرية ٠ هل فهمتم ؟

ـ كيف نجدك ونحن لا نعرف اسمك ـ سأله أستيمر ٠

ـ أنا اسمي « ستيفان ايليتش كولوميتسيف » ٠ ومن أنت ؟٠

تظاهر أستيمر أنه لم يسمع السؤال ٠ فقد كان يخفي شخصيته ، ولم يعرف أحد الى الآن من هو بالضبط ، وكان حريصا على أن يحافظ على سره حتى لا يطردوه من المستشفى ٠

ـ سأزورك حتما يا ستيبان ـ قال أستيمر وهو يستلقي على سريره ٠

ـ حسنا ، تعال في أي وقت تشاء • والآن ، الى اللقاء •
ـ الى اللقاء •

وما ان خرج ستيبان ، حتى احتدم النقاش من جديد • كان بعضهم يشتم الروسي عضو اللجنة ، ويؤكد ان الاستماع الى ثرثرته قد يؤدي الى ما لا تحمد عقباه • بينما كان آخرون يدافعون عنه معتبرين ان ما يقوله هو عين الصواب • وقال آخرون وهم يتخذون سيماء من يفهم كل الامور « نحن مثل الحيوانات ، يسوقنا غيرنا الى حيث يريدون فننساق معهم • أنبقى طويلا هكذا ؟ أما آن لنا ان نعرف طريقنا ؟ » وفكر أستيمر « كم يساوي أن تعيش ولو يوما واحدا في عالم اختفى منه الى الابد ، غومار والارالب وموسى ودن لف لفهم » وشردت به أفكاره بعيدا • بينما تابع الجنود جدالهم دون أن يلتفتوا الى الطعام الذي أحضروه لهم • وكانت أذهان الجميع متفتحة ، وغدت كحقل فلح حديثا ونزل عليه المطر فأصبح جاهزا للبذار •

وبعد هذه الزيارة بمدة طويلة ، كان الجرحى يعودون الى الجدال كلما جاء ذكر ستيبان لسبب من الاسباب •

ـ كفاكم جدالا « ان فتيل الفقراء يحترق ولا ينتهي حديثهم عن الاغنياء » كما يقول المثل •
ـ ها • يبدو أن عنبرك مليء بالذرة •
ـ وما علاقتك بذلك أنت ؟ أهو مليء بعمل أبيك ؟•
ـ بعمل من اذن ، أهو من عملك ؟• كم أجيرا تستخدمون ؟
ـ ولماذا لا تعمل أنت أيضا ، هل يؤلمك بطنك ؟
ويعود أستيمر الى توجيه النصائح لهم •
ـ اسكتوا يا شباب • « لا يمكن أن يتفاهم الفارغ والمليء » كما يقول المثل ، ان هذا النقاش لن يؤدي الى نتيجة •

ولكن النقاش لم ينقطع لان الجنود الذين أخذوا يتماثلون للشفاء ، كانوا قد أصبحوا نافدي الصبر ، عصبيي المزاج ، يثورون لاتفه الاسباب• وكان من الممكن ان يتحول النقاش الى شجار ، لولا أن حدثت ضجة جديدة• فقد احضروا جنديا تهشمت ساقه ، وفي نفس اليوم خدروه وبتروها • وبقي الشاب هادئا وكأنه نائم حتى بدأ أثر المخدر يزول • وعندما أفاق بدأ يبكي ويئن ويتوجع بشكل ازعج الجميع • كان سريره بجانب سرير كوبشة • فأخذ ينصحه ويهدئه قائلا « كفى يا أخي ، ان النواح بهذا الشكل لن يفيدك • لقد حدث ، ما حدث وانتهى » ولكن الآخر لم يستمع اليه ، ولم يكف عن النواح •

ـ آخ يا ساقي المسكينة • أوو •• ان الالم يكاد يبتر ساقي •• آخ ••

ولم يعد كوبشة يطيق صبرا فصاح به :
ـ كفاك عويلا • أتظن أنك وحدك منا ! كيف تؤلمك ساقك وقد بترت •
وما أن سمع ذلك ، حتى كف عن البكاء فجأة وجلس في فراشه • وأخذ الجميع ينظرون اليه منتظرين ما سيفعل • ربت الجندي على ساقه من فوق اللحاف ، ثم رفع اللحاف قليلا ونظر تحته وهو لا يصدق ان ساقه مبتورة • وبعد ذلك ألقى عنه اللحاف فجأة ونظر الى مكان ساقه المقطوعة من عند الفخذ برعب ، وبقي مشدوها بعض الوقت • وبحركة لا شعورية أخذ يبحث تحت السرير ، فلم يجد سوى فردة حذاء واحدة ، احتضنها وأخذ يبكي بمرارة •
ـ واه ، واه • ما أسوأ حظي • من سيطعمني بعد الآن ؟ ومن الذي يقبل بأن يستخدمني وأنا بساق واحدة • لن أستطيع ان احرث الارض بعد اليوم أو ان أركب حصانا • واه •• واه •• ـ كان الشاب يشد شعره ويمزق قميصه ، ودمعه يسيل مدرارا •
ـ لا تبك هكذا •!
ـ وكيف لا أبكي • من الذي يبكي اذا لم ابك انا ؟• كيف ستكون أيامي بعد الآن • لقد انتهيت •• من التي ستقبل بي زوجا لها •؟
ـ اهدأ يا صغيري • ما زالت ساقك الاخرى سليمة ـ قال أحدهم وهو يقف بجانبه ـ اهدأ • انت شاب كبير ومع ذلك تبكي كالاطفال ! بدل من ذهبت الى الحرب ، ألست أنت الذي تطوعت بدلا من « ابن أبوق عزيز » ؟
ـ نعم ، يا ويلتاه •
ـ ولماذا تبكي اذن ؟ ان ساقيه ما زالتا سليمتين وهو يرقص بهما في الحفلات •
ـ آه لو عرفت • ـ قال الشاب وهو يبكي بحرقة •
ـ خذ احدى ساقي ابن عزيز السليمتين وأعطه ساقك المقطوعة ••• ! اتظن أن البكاء يعيد اليك ساقك !
ـ لا تستطيع أن تدين أحدا ـ قال كوبشة متدخلا في الحديث •
ـ المذنب الحقيقي في هذا الامر هي الحرب فاشتك على من بدأها •
ـ من ؟•• بل المذنب هو من يرى أن أملاكه قليلة ويحارب من أجل أن يزيدها • ـ قال أستيمر وهو يتجاوز الجنود بأفكاره • وكان قد سمع ستيبان يقول : « الحرب تزيد الفقراء فقرا وتزيد غنى الاغنياء » فارضوا بنصيبكم •
ـ ولكن أليس قليلا •؟

## الجد الشركسي

عندما خرج أستيمر من المستشفى ، بقي يتجول في الشوارع لا يدري

الى أين يذهب • كانوا قد أعطوه عند خروجه كتابا ليتوجه بموجبه الى فيلق « توزيمن » ولكنه لم يكن واردا عنده ان يذهب • ثم ان الشائعات كانت تقول ان معظم رجال الفيلق قد انسحبوا الى نالتشك واستقروا فيها• ولم يكن واردا عنده أيضا أن يعود الى مراد شمعون ، من يعرف ، ربما اشتكى عليه قائلا « أن أستيمر سرق حصاني وهرب » • وقد يهجم عليه بمجرد ان يراه •

سأل أستيمر عن الاحوال في قبارديا دون أن يصل الى ما يشفي غليله، ولكن الشائعات كانت تقول أن ثورة اكتوبر العظمى قد انتصرت في المدن والمراكز • وأما المناطق النائية مثل قبارديا فقد بقيت على حالها • وكل ما حصل من تغيير فيها أن المسؤولين المحليين مثل العمدة ، قد استبدلوا أسماءهم وأصبحوا يدعون برؤساء سوفييتات القرى • أما غومار فقد بقي في مكانه ، وكل ما حصل من تغيير بالنسبة له ، هو أنه عندما كان في السابق يجلس الى مائدة للطعام والشراب ، يرفع النخب الثالث في صحة الملك •أما الآن فقد صار يرفعه في صحة « رئيس الوزراء » •

ولم يجد أستيمر من يذهب اليه في هذه المدينة سوى ستيبان الذي اخبره بكل ما حصل معه ، ابتداء من شجاره مع الحاج يونس ، وانتهاء بما قاله له ابن قلشبي ، دون أن يغفل صغيرة أو كبيرة • وأنس به ستيبان أيضا وأخبره بقصة حياته • وعندما انتهيا من ذلك ، شعر كل واحد منهما بأنه قريب من الاخر ، وبأنه يعرفه منذ زمن طويل جدا • وتعجب أستيمر مما رواه له ستيبان ، وأصبح واضحا لديه لماذا يعرف اللغة الشركسية ، ويعرف تعاليم القرآن أيضا بالاضافة الى ذلك •

ـ لا تعد الى أسرتك خاوي اليدين • يجب أن تعمل لتجمع بعض النقود، والى ذلك الحين قد تستقر الامور • ـ هذا كان رأي ستيبان ايليتش • وأيده أستيمر •

وبطريقة ما ، دبر له عملا • وقبلوه بصعوبة لانه لم يكن يحمل أية أوراق رسمية تثبت شخصيته •وكانت مهمته ان يجمع الفضلات من صالة مصنع الحديد الواسعة ، ويخرجها بعربة يد ، ويفرغها في عربة قطار تقف على سكة الحديد • وعندما ينتهي من ذلك ، يجمع قطع الحديد وينقلها الى الفرن لتصهر •

ورغم أنه يعمل طوال النهار ، فقد كانت أجرته قليلة جدا ، وخلال بضعة أيام تمزقت ملابسه التي لا يملك غيرها • ولحسن حظه استدعوه بعد فترة للعمل في صب الحديد • ومع أن اجرته لم تزد من جراء ذلك ، الا انه كان سعيدا لانه وجد الدفء في الصالة • وصار لزاما عليه ان يتعلم كيفية صنع القوالب الفخارية التي يصبون فيها الحديد السائل • ولما كان ذكيا ، فقد تعلم كل ما يتعلق بصب الحديد خلال اسبوع واحد •

كانوا يصنعون القوالب المختلفة الاشكال والاحجام في أرض الصالة ، ثم يفتحون ثقبا مسدودا بالنضار في أسفل المرجل ويجمعون الحديد السائل في وعاء كبير ، ليفرغوه في القوالب بحذر شديد • ورغم أن الشرر المتطاير أحرق معطف أستيمر في عدة أماكن ، فقد كان يقوم بالعمل بعد أن تعلمه بحماس بالغ • وكانوا يوزعون على عمال الصب حصة يومية من الحليب بسعر معقول ، وقد أعجبه ذلك أيضا •

وعندما شعر بأنه بدأ يستقر في عمله ، ويتفاهم مع رفاقه في العمل ، استدعته الادارة التي شكت بأمره بعد أن عرفت أنه لا يحمل جواز سفر ، وظنت أنه أحد أفراد فيلق « توزيمن » الذين هربوا وتفرقوا في كافة الارجاء• ولما سألوا عنه في أرمفير قيل بأن مراد شمعون يبحث عن احد مستخدميه واسمه « بوتش أستيمر » وقد اختفى نهائيا •

ـ ان رب عملك السابق يبحث عنك ، انصرف من هنا • ـ قال له مدير المعمل •

ولكن أستيمر لم يكن يفكر في العودة الى شمعون • فأخذ يبحث عن ستيفان الذي لم يكن له ملجأ سواه • فاذا وجده كان بها ، والا من الواجب الذهاب الى المحطة لقضاء الليل هناك ، فذلك افضل من التسكع في الشوارع الباردة ، وبينما كان أستيمر يسير في الشارع مستغرقا في هذه الافكار ، لم ينتبه الى عدد من الاولاد الذين أخذوا يسيرون وراءه • كان البعض يسبقونه قليلا ويتفرجون على خنجره الشركسي المتدلي من وسطه •

ـ أتظن انه خنجر حقيقي ؟•
ـ أهو خلبي اذن !
ـ انه مغلف بالفضة الحقيقية • ـ هكذا كان الاطفال يتناقشون •
ونفذ صبر طفل أشقر منفوخ البطن وأخذ يتوسل الى أستيمر :
ـ يا جدي ، اسحب خنجرك وأرنا اياه • ـ قال الطفل •

نظر استيمر الى الاطفال ، كانت ملابسهم موحدة ، يرتدون معاطف سوداء ، وقمصانا بيضاء نظيفة • وقفز تفكيره الى ولديه • كم كانت سعادته عظيمة لو رآهما في المدرسة مثل هؤلاء الاولاد • ينالان كفايتهما من الطعام واللباس والدفء والتعليم • من يدري أين هما الآن • ربما يلعبان حافيين في طرقات القرية • وقد يكونان خاويي البطون • « لا أظن أنه من الافضل أن أعود الى القرية » فكر أستيمر فجأة •

ـ جدي ، اسحب الخنجر أرجوك ـ سأله الطفل بضراعة مرة ثانية
ـ وبماذا ينفعك الخنجر ؟
ـ سننظر اليه فقط • لم نر مثله في حياتنا •
ـ أنتم تنالون نصيبكم من العلم بدل الخنجر ، لن تنفعكم الخناجر ـ

قال أستيمر وهو يمازح الاولاد ٠

وتحلق الاولاد حوله يتفرجون على خنجره ٠ وعندما سحبه ليريهم اياه بناء على الحاحهم ، اجفل بعضهم وهرب ؛ ولكنهم عادوا بعد قليل ٠ وكان آخرون يمررون اصابعهم الصغيرة على حده ، ويلمسون غمده وهم يتناقشون ٠ وكان أستيمر بطبعه يحب الاطفال فوقف معهم يمازحهم ٠ ولشدة انشغالهم بالخنجر ، لم يسمعوا صوت الجرس الذي رن معلنا ساعة الدخول الى الدرس ٠

ـ لماذا تعطل الاولاد يا سيدي ؟ ـ قال رجل طويل أشقر الشعر والحاجبين يرتدي معطفا أسود وهو يقترب منه ٠ وما أن سمع الأولاد صوته حتى هربوا تاركين أستيمر يقف وحده وهو يحمل خنجره المسلول بيده ٠ وفكر أستيمر بسرعة « اذا كان هذا الرجل من أفراد الشرطة السرية فقد وقعت » ٠

ـ وما هذا الذي تحمله بيدك ؟ هل سحبته لتخيف الاولاد وتسلبهم أشياءهم ؟ ـ أضاف الرجل بلهجة عدائية ٠ ونظارته الطبية تعلو وتهبط ـ ألا تخجل انت بطولك وعرضك ٠ سترى ما يحل بك بعد أن استدعي لك البوليس ٠

ـ لم أفعل ما يستدعي طلب البوليس يا سيدي ! كل ما هنالك ان الاطفال الحوا علي لاريهم الخنجر ـ قال أستيمر وهو يعيد الخنجر الى غمده ثم اضاف ـ اسألهم اذا كنت لا تصدقني ٠

ـ سامحني يا سيدي اذا كان الامر كذلك ٠ هل أنت شركسي ؟

ـ نعم ، أنا شركسي ٠

ـ وهل تعيش في روستوف ؟

ـ جئت أبحث عن عمل فلم أجد ٠ وأنا عائد الآن ٠

ـ جئت تبحث عن عمل ؟٠ انتظر قليلا ٠ من الممكن أن نتفق ٠ نحن نحتاج الى حارس ، والى من يشعل النار في المدافىء ٠ كيف ترى ذلك ؟

ـ أنا لا ابحث عن عمل معين ، أقبل بأي عمل أجده ٠

ـ هيا معي اذن ، أنا مدير المدرسة ٠

واتجه أستيمر مع الرجل الى المبنى الكبير القريب ، وبدا له ان المدرسة كبيرة جدا ٠ فقد دخل كل الاولاد الذين كانوا يلعبون في الباحة الواسعة الى صفوفهم الواقعة في المبنى ٠ وكان على المدخل الرئيسي لوحة كبيرة كتب عليها « المدرسة التجارية » ولكن أستيمر لم يستطع قراءتها الا فيما بعد ٠

ـ أرجو أن تخفي خنجرك ٠ ـ قال المدير ـ لا داعي لان تعرضه على الاولاد ، فقد تحدث مشكلة ليست في الحسبان ٠

ـ لا تقلق من أجل ذلك ٠ لن أمس الخنجر الا في اوقات الحراسة بعد أن

ينصرف الاطفال ٠

ـ هذا ما أريده منك ٠

ورغم أن أجرة أستيمر من المدرسة لم تكن كبيرة ، فقد أعجبه العمل، خاصة وأنهم قدموا له غرفة صغيرة ، وسريرا قديما لينام عليه بعد أن يصلح احدى قوائمه ، كان طوال النهار يقطع الحطب بلطة حادة ، ويوقد النار في المدافيء ٠ وفي المساء يحرس المبنى من غرفته الصغيرة أمام المدخل٠ وعندما يجلس الى قنديله ، يمسك كتاب القراءة للصف الاول باللغة الروسية ، ويتعلم القراءة والكتابة ٠ وكانت دراسته السابقة في المدرسة الشرعية تسهل الامر عليه ٠
وجد أستيمر سرجا قديما في المستودع الملحق بالاسطبل فأصلحه ووضعه فوق مربط الخيل ، وأخذ يعلم الاولاد في أوقات الاستراحة على ركوب الخيل٠ وأعجب الاولاد بهذه اللعبة ، فغدوا لا يفارقونه ٠ يتعلمون منه ركوب الخيل وألعاب الفرسان أيضا ٠ وأراهم بنفسه ، كيف يرفع الفارس منديلا او قبعة من الارض وهو يجري دون أن يترجل ٠ وكان هذا ما يريده الاطفال فأخذوا يمتطون السرج بالدور مقلدين أستيمر ٠ وكان بعضهم يقع على الارض ولكن بما أنهم اتفقوا على أن لا يبكي أحد ، فقد كانوا يسكتون على مضض ٠

ـ أيها الجد الشركسي ، الآن دوري أنا ٠
ـ هل تستطيع أن تركب الحصان وهو يجري ؟ ارني ذلك مرة اخرى ٠

وكان منهم من أصبح قادرا على المطاردة بالحصان واقفا على ظهر السرج ٠وهكذا غدا أستيمر مقربا من الاطفال ، وأصبحوا يساعدونه في نقل الحطب الى الغرف ٠ وبعض الذين أصبحوا موضع ثقته صاروا يزورونه في غرفته سرا ليتفرجوا على خنجره ، ويجربوا كيف يعلقونه على خصورهم ٠ ولو عرف المدير ذلك ، ربما طرده دون تردد ٠
لم يكن بعض الاطفال هم الذين يزورون أستيمر سرا ، فقد كان يزوره ستيبان ايليتش أيضا في بعض الاحيان ويبقيان معا مدة طويلة وهما يتحدثان ٠ ولما كان على أستيمر أن يسهر طويلا بحكم طبيعة عمله ، فقد وجد في زيارات ستيبان تسلية كبيرة ٠ وبالاضافة الى ذلك أصبح بالنسبة له معلما لا غنى عنه ، يعلمه ويشرح له أشياء كثيرة ٠ وكان يستمع اليه بانتباه زائد حتى لا يخلط بين مبادىء الاحزاب الكثيرة التي يحدثه عنها ٠

وتعلم أستيمر القراءة والكتابة باللغة الروسية ، فصار يقرأ المنشورات ، وجريدة « الجندي » وبعض الكراريس التي يحضرها اليه ستيبان سرا ٠ وكان يشرح له الاشياء التي لا يستطيع فهمها ٠ ولا يغادره

الاعند منتصفات الليالي قائلا :

ـ يكفيك ان تهضم هذه الاشياء الليلة • سنرى ما يكون بعد ذلك •
ـ لن أنام حتى أقرأها • مع السلامة •

ويعود أستيمر الى مجلسه ، يقرأ بنهم وهو يفك الحروف ويجمعها حرفا حرفا • وكان من الممكن أن تستمر الحال على هذا المنوال مدة أطول• ولكن قيل له ذات يوم : « المدير يطلبك • تعال بسرعة » •

لماذا يطلبه المدير يا ترى ؟ فهو يوقد المدافىء في كل غرف المدرسة باستمرار • صحيح ، ان المدفأة التي في غرفة الاساتذة تدخن ، ولكن هل هو المسؤول عن ذلك ! كل ما عليه هو أن يختار الحطب الجاف لهذه المدفأة، وهو لا يقصر في ذلك • هل يعارض دخول الغرباء الى المبنى ؟ ولكن ستيبان عندما يزوره لا يتجاوز غرفته الصغيرة أمام المدخل • هل اشتكى عليه الطباخ يا ترى ؟ لقد اتفق معه على أن يقطع له مقدار خمسة أحمال باليد من الحطب ، مقابل ما يفيض من طعام الاولاد من الحساء او المرقة • ولكنه لم ينقض اتفاقه معه يوما واحدا ، فهو يكسر الحطب ويحمله اليه بنفسه•• ولم يجد أستيمر اي سبب يستدعي طلبه من قبل المدير • وأخيرا قال في نفسه ، ربما يريد أن يوجه الي بعض الاوامر ، وتوجه اليه •

وما أن دخل غرفة المدير حتى أحس ان مصيبة ما قد حلت • فقد قفز الرجل الاشقر الحاجبين من مكانه وأغلق الباب وأقفله بالمفتاح حتي لا يدخل عليهما أحد • ثم عاد الى مكانه وأخرج من درج مكتبه كتيبا وقد أصبح وجهه رماديا • وعرف أستيمر الكتيب على الفور • كان موجها الى الجنود، وبتوقيع لينين • وكانت يد المدير ترتجف •

ـ أي نوع من الكتب هذا يا عزيزي ! ـ سأله المدير ـ كيف تجعل مثل هذا الكتاب يصل الى أيدي الاولاد دون خوف او خجل ؟ هذا الكتاب اخطر من خنجرك •

ـ لست أنا الذي أوصله اليهم •
ـ من اذن ؟
ـ لا أعرف •

ـ أنت تكذب ،لقد وقع هذا الكتاب من جيبك والتقطه الاطفال • ولحسن حظي صادفتهم وصادرته منهم • من أين حصلت عليه ؟ قل لي الآن • لن اسمح لك بأن تخطو خطوة واحدة قبل ان تخبرني •

وأسقط في يد أستيمر ولم يدر ما يقول •

ـ من أين حصلت عليه ؟ وماذا ستفعل به ؟ هل ستعلقه على جبينك ؟•
ـ كنت افكر بأن آخذه الى ديارنا •

فقال المدير وهو يكاد ينفجر من الغيظ :

ـ « آخذه الى ديارنا » ! لتجعلهم يقرأونه ؟ هل تريد أن تجعل الشراكسة يقرأون الكتب البلشفية ؟ اجمع كتبك يا عزيزي وارحل فورا. هكذا باختصار . ارحل فورا ! ستخرب بيتنا اذا بقيت . سيقول الناس ان « المدرسة التجارية » انتشر فيها وباء البلشفية . وهذا سيخرب بيتنا تماما . أتظن أن السادة الذين يعلمون أولادهم عندنا سيسكتون ؟ سيستعيدون أولادهم ويعملون على احراقنا دون تردد . أتفهم هذا يا حيوان !

ـ وفكر أستيمر « ربما وقع من جيبي وأنا الاعبهم لعبة الحصان » ـ أتظن ان الشراكسة سيفرحون بهذا الكتاب ويشكرونك ؟

ـ هنالك من يفرح به حتى في روستوف نفسها .

ـ كيف تعرف انت ما يوجد في روستوف وما لا يوجد . هل لك علاقة بالبلاشفة ؟ هذا هو الموضوع ، اليس هذا واضحا بما فيه الكفاية ، ارحل فورا . فورا دون ابطاء . موعدك الغد . اذا لم ترحل غدا فلا تلومن الا نفسك. هل فهمت ؟.

ـ فهمت يا سيدي المدير .

ـ كنت سأستدعي البوليس ليجروك دون ابطاء لولا خوفي من الفضيحة . عليك أن ترحل دون ابطاء .

في صباح اليوم التالي كان أستيمر يركب القطار ، وكان ستيبان ايليتش في وداعه .

ـ رافقتك السلامة . سنلتقي قريبا .

ـ لا تتأخر علينا ! الى اللقاء !..

## موسى يعرف ماذا يفعل

عندما يريدون الامساك بحصان غير مروض ، يخفون اللجام خلف ظهورهم ، ويمدون اليه عرنوسا من الذرة ويلاطفونه . وفي اللحظة التي يعض فيها الحصان العرنوس ، يطوقونه باللجام . وهكذا كان الامر بالنسبة الى موسى . فعندما يريد أن يمسك بشخص ، كان يخدعه بطريقة ما حتى يمسك به ويجعله رهن يديه . وكان ماهرا جدا في اساليب الخداع ، لدرجة أن الشخص الذي يمسك به ما كان ليشعر أنه تخلى عن ارادته وصار رهن

ارادة موسى • حتى الناس ، كانوا يصفون موسى نتيجة لذلك بأنه «مسلم صالح » وبأن قلبه عامر بالرحمة والشفقة • حتى الشيخ سعيد امام الجامع، قال للمصلين عدة مرات « كونوا مثل موسى » أما الشخص الذي يمسك به موسى ، فلم يكن من السهل عليه أن يفلت منه قبل أن « يمص دمه » • وكان نورعلي يعرف موسى واحابيله منذمدة طويلة • ولم يكن قد عمل عند أحد بالاجرة خلال حياة اخيه الحاج يونس • وكان يكتفي بمساعدته في موسم الربيع حيث تكثر الاعمال • اما بعد أن عاد من جولته « حول العالم » فقد اصبح يفكر بشكل جدي ان يعمل اجيرا عند احدهم ، ولكنه آثر الانتظار ريثما يرتاح قليلا من كل ما عاناه في رحلته الطويلة من تعب واذلال • ورغم ان موسى سأل عنه عدة مرات‌ودعاه ، فلم يقبل ان يزوره • وها هو موسى الان يزوره بنفسه •

ـ كيف حالك يا نورعلي ، هل تشكو من مرض ما ؟ ـ سأله موسى وهو يتصنع التواضع •

ـ أهذا أنت يا موسى ؟ تفضل مع انني لا املك ما أقدمه لك من واجبات الضيافة ، ادخل ، سنجلس سويا •

ـ ومع ذلك تتصرف وكأنك تملك ما يكفيك طوال حياتك من الحبوب • هه ، أيها الكسول •

ـ انني متعب • قلبي لم يعد يتحمل شيئا ، كما أن يدي لا تطاوعاني على أي عمل •

ـ لا ! هل يجوز ذلك ؟ الن يحاسبك الله ؟ الله تعالى يقول « واسعوا في مناكبها » •

لم يكن نورعلي يرغب في الحديث عن رحلته ، او عن المتاعب التي صادفته • كما أن جسمه كله كان يرتجف كلما تذكر مصحف « آل خليل » وكان موسى نفسه يفهم هذا وان تظاهر الآن بأنه لا يفهم شيئا • ولكن لماذا يتظاهر ؟ وماذا يريد ؟

ـ أنا متعب يا أخي ، لم تعد لدي أية قدرة على العمل • انني بحاجة ماسة الى الراحة • ولكنني لا أستطيع أن أرتاح حتى في بيتي • وهنالك من يراقبني ويتلصص علي اينما ذهبت • ماذا يريدون مني ؟ لا أملك شيئا كما ترى • لماذا لا يصدقونني ؟ • حتى دينك الصغير يا موسى لا أستطيع أن أوفيك اياه الآن • اذا حل الربيع وبقيت حيا ، سوف أعمل عندك بما يقابله • أرجو أن لا تلح علي في الطلب •

ـ أنا لا أشك في كلمة واحدة مما تقوله يا نورعلي • ولا ألح عليك • كل الناس في ضيق هذه الايام • حتى أولئك الذين أنعم الله عليهم يعيشون في قلق دائم • لا تستطيع أن تصدق كلام أحد • ولكن قل لي يا نورعلي ، ماذا ستفعل حتى الربيع ؟

ـ لا أعرف يا موسى . حتى البهائم ترعى في الربيع . وفي الشتاء تلحس الثلج . انا اعيش بين جماعة من المسلمين . اتظن انهم سيتركونني اموت من الجوع ؟

ـ دعك من هذه الافكار يا نورعلي . رأيتك تتردد على الحداد بوت كثيرا . ألا تستطيع أن تصنع قفلا حديديا ؟.

ـ لا يا موسى . لقد تشاجرت معه . انه ضيق الافق . يقول ان الارض معلقة بسلسلة حديدية كما يعلق القدر فوق النار . ولكن أي وتد سيحمل هذه الكرة الارضية ؟ قل لي ! والله حتى النارتيون (١) لم يكونوا يعرفون هذه الاشياء . أنا رأيت صورة مجسمة للارض . انها تشبه اليقطينة ، اذا كنت تريد أن تعرف ماذا تشبه . « والله يا نورعلي بالرغم من أنك سافرت فوق البحر لمدة شهر . فانك لم تفهم معنى ما رأيته » هكذا قال لي . ولكن هل يجوز أن تقول مثل هذا الكلام ؟. معنى ذلك أنني بهيمة . كيف يمكن أن تقبل مثل هذا الكلام من بوت ؟ والله لن أقبل منه حتى لو بقي حدادا الف عام ، ولو جاء معه أبوه من القبر .

ـ لماذا انت خشن الطباع هكذا يا نورعلي ؟ وكيف تتشاجر مع انسان يمكن أن ينفعك ؟ أنت مخطىء من هذه الناحية . انظر الى يلدار ! هل يمكن ان يتشاجر مع بوت ؟ يقولون « ما تراه العين ، تصنعه اليد » لقد استمر في مراقبة بوت حتى تعلم منه صنع الاقفال . ظننتك انت أيضا تعلمت مثل يلدار . أنا بحاجة ماسة الى قفل لا يستطيع ان يفتحه احد سواي . من الذي يمكن أن تؤمنه على صنع قفل كهذا في هذه الايام ؟ لو كان يلدار موضع ثقة ! ولكن كيف يمكن أن تثق به . أنا كنت اعتمد عليك . انني اثق بك وأصدق كل ما تقوله . تعال معي الى البيت . سنتكلم . أظن أننا نستطيع ان نتفاهم نحن الاثنين . آه . كدت أنسى ، لقد أحضرت لك معي هذا ...

كان موسى قد وضع وراء الباب عندما دخل كيسا صغيرا قديما من القنب ، يحتوي على قليل من الذرة ونصف أضلاع خروف مجفف .

ـ خذ يا أخي ، لقد فرض الله علينا مساعدة الفقراء .

وعندما ذهب نورعلي لزيارة موسى في اليوم التالي ، فهم ماذا يريد منه ذلك الذي « أشفق عليه » .

كان موسى قد قرر أن يفتح مطعما في « نالتشك » . وهذا العمل مربح ، لان المدينة الصغيرة بدأت تنتعش ، ويكثر يوما بعد يوم سكانها وروادها . فهذا عدد كبير من رجال المدفعية العائدين من الجبهة التركية . والامراء والنبلاء يأتونها من كل حدب وصوب للبيع والشراء . والذين يأتونها للتسوق

---

(١) اجداد الشراكسة وبعض شعوب القفقاس .

لا حصر لهم . ثم أن عددا كبيرا من أهالي مدن « بسه كوابه » و « ترك قاله » و « قاله كيح » و « غرزوني » يؤمها يوميا . باختصار ، اصبحت نالتشك مدينة مزدحمة . وبالاضافة الى ذلك ، ارتخت عنها قبضة الحكام الذين أصبحوا مترددين لا يعرفون ماذا يريدون . زالمجري الذي يلقب نفسه « قرال جاته » اختفى ولا يعرف احد الى أين ذهب . أما ابن قلشبي،فيقولون انه عاد الى « ترك قاله » بعد أن سلم منصبه الى قائد المدفعية . ويقولون انه اخذ أسرته معه . « كراولوف » قائد القوزاق كان يتخذ « ترك قاله » مقرا لقيادته في العام الماضي . ولكن هل تستطيع هذه المدينة أن تحميه هذا العام أيضا .

أما اذا ذهبت الى الجامع فان الاخبار التي تروى فيه تحطم الاعصاب. يقولون ان الاتراك يعملون على ضم الشراكسة والقوشحة والقرهشاي لتوحيد جميع المسلمين . ارحمني يا رب ! يبدو أن الفوضى ستعم العالم . اذا لم تكن بلا عقل ، يجب أن تفهم بأنه لم يبق أمان . أما اذا كانت لديك أموال، فأخف ما تستطيع اخفاءه . واذا كان عندك أجير موثوق فمن المستحسن أن تترك له اعمالك وتبتعد عن مهب الريح لبعض الوقت حتى تتضح الامور .

كان نورعلي « لقطة نادرة » في مثل هذه الايام . اذا فتحت مطعما وسلمته له ، فسيبقى فيه ليل نهار . وسيقدم لك الغلة كل مساء . ولم يتردد نورعلي في قبول العرض الذي قدمه له . ولماذا يرفض ! لا زوجة له ، ولا أولاد ، ولا بيت دافىء . هل يترك نفسه يموت من الجوع ؟.

عاد تيمبوت مسرعا الى البيت ذات يوم وقال :

ـ ان نورعلي يغلق ابوابه ونوافذه من جديد .

وفعلا جاء نورعلي لزيارة دومسارا بعد قليل ورجاها أن تنتبه الى بيته . كان في غاية السعادة : « من نعم الله تعالى انني وقفت الآن على الطريق الصحيح . أظن أنني أستطيع أن أجمع الآن بعض المال ،وذلك بفضل الله ، وبفضل موسى . يا له من انسان كريم . يا الهي ، موسى ! » وفي غمرة الفرح ، وعد دومسارا أن يشتري لها منديلا . ووعد تيمبوت و «لو» أن يشتري لهما الحلوى . وأخذ يمازح الصغير «لو» ويحاول أن يمسك أنفه. فأفلت منه وولى هاربا .

ـ سأفتح مطعما في نالتشك بمساعدة موسى . عندما تأتين الى السوق تعالي لزيارتي . ليس من السيء ان يشرب الانسان مرقة ساخنة عندما يكون مسافرا . وسأشتري لك منديلا تتزينين به لعودة استيمر .

ـ ليته يعود . لم تعد تهمني الزينة . لا نعرف شيئا عنه . اهو حي أم ميت . على كل حال ان أملنا بالله كبير . انني أرعى الاولاد بكل

طاقتي • ومؤونتنا قد تكفي للربيع أو لا تكفي • لولا يلدار كنا قد ضعنا • لم يكن قد بقي لدينا شيء من الحبوب فأحضر لنا يلدار كيسا من الذرة ونحن نعيش منه ، اللهم ارحمنا • ـ قالت دومسارا وقد هاجت أحزانها •

## عودة أستيمـــر

بعد أن حل الظلام واجتمع شمل عائلة بوتش استيمر في البيت ، تحدثت دومسارا عن مطعم نورعلي وعن موسى ، وعن السوق الكبير في نالتشـــك وما فيه من بضائع • « نحن فقط الذين نسيهم الله ، ماذا سيحل بنا اذا حل الربيع من جديد وليس في بيتنا رجل » هكذا انهت حديثها •

ـ سيفعل يلدار شيئا من أجلنا • ـ قالت ساريمة •

ـ هذا صحيح • ان الله لن ينسى ما عمله هذا الشاب من أجلنا • ـ قالت الجدة راضية • ولكن دومسارا تنهدت بعمق ولم تعلق بشيء • وكـان البيت مظلما ، فلم ينتبه احد الى أنها كانت تتضرع الى اللـــه ويداهـــا مرفوعتان •• ولم يكونوا قد اشتروا الكاز منذ مدة طويلة لانه أصبـــح غاليا جدا ، وكانوا ينامون مبكرين ، ويستيقظون مبكرين عند الفجر •

وكانت الاسرة كلها تنام في الغرفة الكبيرة التي فيها الموقد • ولم يكن احد منهم يجرؤ على النوم وحده • واعتادت ساريمة أن تنام مع «لو» ذي الاعوام الخمسة في فراش واحد ، فيغطيان رأسيهما باللحاف ليدفآ بسرعة• أما دومسارا والجدة وتيمبوت فينامون قرب الموقد ، واذا أفاق اي واحـــد منهم ليلا ، يقوم ليجدد النار في الموقد •

كانت الاسرة قد أستلمت من أستيمر خلال العامين الماضيين ، ثلاثـة رسائل فقط • وكان يرول هو الذي أحضر هذه الرسائل ، فهو يعمل ساعـي بريد أيضا الى جانب عمله كحواط • ولكنه لم يكن يذكر عمله الثاني كثيرا• ذلك أن عدد زيارات ابن قلشبي للقرية كان أكثر من عدد الرسائل التـــي يوزعها بكثير • وعندما تصل أية رسالة ، كان العمدة يستدعيه ، ويأمـره أن يوصلها الى صاحبها بأقصى سرعة :

ـ قل له انني ذاهب اليه مع الشيخ لنقرأ له الرسالة • هل فهمت ؟•

ـ نعم ، مفهوم • وعليهم أن يهيئوا الخمر والدجاج •

ـ هذا هو • كالعادة • هيا انصرف •

ها قد وصلت رسالة • ولكن ماذا يمكن ان تقدم دومسارا ، فهي لا تكاد تجد ما تطعمه لاولادها • ولا عمل لها سوى أن تتجول ومعها سلة صغيرة • وكاتب الرسالة لا يستحق سوى أن يسحب الشوك فوق شفتيـــه • خـــذ

الرسالة وأعطها لها .

عندما أحضر يرول الرسالة الى دومسارا ، جلس عندها مدة طويلة وهو يقلبها بين يديه ، محاولا ان يتحدث عما فيها . كان الحواط يعرف جيدا ان للطابع والخاتم على الرسالة معنى ، فتحدث عن ذلك ، ولم يعد يجد ما يقوله . بقيت الرسالة في يد يرول ، حتى هيأت دومسارا عشر بيضات وتوجها الى الشيخ سعيد ليقرأها لهما . ولم يستطع تيمبوت وساريمة الانتظار حتى تعود دومسارا ، فلحقا بهما من بعيد . ومسح الشيخ سعيد على شاربيه وتمتم الادعية ، ورجا من الله تعالى أن لا يأتي مرض من الطريق التي جاءت منها الرسالة ، وأن يكون كاتبها سعيدا ومعافى ، وأطلت ساريمة وتيمبوت من ثقب الباب ودقات قلبهما تزداد عنفا وهما يتفرجان على الشيخ سعيد الذي يفتح الرسالة .

لم يكن في الرسالة اي جديد . ومع ذلك فقد استمعت دومسارا بانتباه حتى تحفظ كل كلمة يقولها . يقول انه يجد صعوبة في العيش بعيدا عن اهله وأولاده ، وكأنها لا تعرف ذلك . « ان الله يرعاني ، ورغم كل ما أعانيه الآن فاننا سنلتقي قريبا » .

عندما كان في جهات « بسيج » لم يكن أستيمر يكتب بهذه اللهجة . والآن يقول في رسالته أنه يعيش في أكبر مدينة ، على نهر كبير جدا يقال له « الدون » ما الذي أخذه الى هنالك ؟ . لقد قطع نورعلي البحر ، فلم يستطع العودة الا بصعوبة شديدة . كيف يستطيع أستيمر ان يخرج من هذه المدينة دون أن يضيع فيها ؟ مهما كان الامر ، لو عاد الى اولاده لعادت اليهم الطمأنينة .

رغم وصول الرسالة ، كانت دومسارا كثيرا ما تغرق في أفكارها . لم يخطر ببالها ولا في الحلم أن أستيمر يمكن أن يهجر بيته وأولاده . فهو ليس من النوع الذي يقدم على عمل كهذا . ولكن ما الذي يمنعه من العودة . ليته كتب لهم ماذا يعمل بالضبط . هل يمكن أن استيمر لم يعد حيا وان أحد اصدقائه يكتب لهم مقلدا خطه . ولكن دومسارا تعرف جيدا طريقته في كتابة حرف «غ» التي لا يستطيع احد أن يقلدها .. الولدان أيضا يذكران اباهما كثيرا ويتمنيان عودته . ومع أن تيمبوت لم يتجاوز الحادية عشرة بعد ، فهو ذكي ويفهم كل شيء ، وهو برفقة يلدار دائما ولا يغادران محل « بوت » الحدادة . وفق الله بوت ، انه لا يطرد الولد من أجل خاطر أستيمر . ولكن متى سيتعلم تيمبوت المهنة . « لو » ما يزال صغيرا . انه يدور في الازقة في حالة يرثى لها ، وكأن الكلاب مزقت ثيابه . لو عدت يا أستيمر « كان المسكينان العاريان سيكتسيان » والربيع يقترب ولا يوجد عندنا بذار .. كانت دومسارا تبكي وهي تفكر بهذه الاشياء ضاغطة على أسنانها حتى لا يسمع صوتها . وعندما تبتل وسادتها ، كانت تنام بوجهها على دموعها فتجف الوسادة حتى الصباح . ورغم أنها تظن أن أحدا من أهل البيت لا

ينتبه الى بكائها ، فما كانت تستطيع ان تخفي ذلك على الجدة التي تقضي ايااليها وهي تتمتم بالادعية ٠

وعندما تفيق ساريمة ليلا ، كانت تسمع ادعية الجدة ، وبكاء دومسارا ، فيغلبها البكاء هي الاخرى وتدفن رأسها تحت اللحاف وتفكر : « الم يكن من الافضل لو اطعت امي وتزوجت من رحيم ٠ فهو غني ، وكنت وجدت طريقة لمساعدة « روم » الصغيرة ودومسارا ٠ ولكن كيف كنت ساتحمل ذلك الفم المتدلي ، والعينين الدامعتين دائما ! وأفضل أن أموت على ان أتزوج ذلك الابله الذي يحتاج الى ساعة حتى تخرج الكلمة من فمه ٠ لحسن حظي والله لم أتزوجه ٠ وترفع اللحاف عن وجهها وهي تبتسم لصورة يلدار الذي ارتسم أمامها في الظلام ٠ ثم تعود الغيوم فتغطي الصورة ٠ ماذا يفعل يلدار يا ترى ؟ لماذا لم يعد يبتسم ويمزح كسابق عهده ؟ ثم لماذا يختفي كمن يبحث عن حصانه كلما رآها ٠

ودون أن تعرف احداهن ما تعانيه الاخرى تماما ، كانت الجدة ودومسارا تمضيان ليالي الشتاء الطويلة غارقتين في افكارهما الخاصة ٠ كانت النافذة المسدودة بطبق من الورق مغطاة بالجليد ٠ ولم يكن ضوء القمر يتسرب الى الغرفة ٠ نظرت ساريمة نحو النافذة فرأت خيال رجل يقف في الخارج ٠ وتذكرت الفتاة تلك الليلة التي جاؤوا فيها ليخطفوها ٠ فذعرت وتدثرت باللحاف ، ولكنها لم تستطع ان تبقى كذلك طويلا ، نظرت نحو النافذة مرة اخرى ، فرأت خيال الرجل الذي ما زال يقف في الخارج بوضوح ٠

ـ دومسارا ! ـ نادت الفتاة مذعورة ، وجلست دومسارا في فراشها ٠

ـ دومسارا ! ـ كان الرجل وراء النافذةيهمس ايضا باسمها ٠

أفاق «لو» من نومه أيضا وأخذ يبكي ٠ كان الرجل الذي يقف خلف النافذة متدثرا ببرنس ، وأخذ ينقر برفق على اللوح الزجاجي الوحيد الذي بقي سليما في النافذة ٠ وتذكر الجميع ليلة جاء رحيم ليخطف ساريمة فجلسوا قلقين مترددين ٠

ـ دومسارا ! أستحلفك بالله لا تفتحي الباب ـ قالت ساريمة خائفة متوسلة ٠

ـ كان الله في عوننا ٠ لماذا لا يتركوننا وشأننا ، لا يوجد هنا سوى أطفال ، ساريمة ليست هنا ، لقد عادت الى بيتها ـ قالت دومسارا بصوت مرتفع ليسمع الرجل وراء النافذة كلامها وينصرف ٠ ولكن الرجل لم ينصرف٠ فأخذت دومسارا تبحث عن حذائها ، واستمر «لو» في البكاء ، ودفنت ساريمة رأسها تحت اللحاف وقد تلاشت من الرعب ، بينما أخذ تيمبوت ينظر نحو النافذة بعينين متسعتين ٠ وهنا صاحت الجدة

ـ يا الهي ! هذا أستيمر ٠ التوبة ، يا الهي ٠

وقفز الجميع وهرعوا نحو النافذة •كان الرجل ينظر الى داخل الغرفة التي قام فيها هرج ومرج كبيران • ولم يكونوا يصدقون أن أستيمر قد عاد فعلا •

ـ انه هو ، لقد وصل ، يا الهي ! ـ قالت دومسارا وهي تقفز نحو الباب •

وعندما رفعت الرتاج وفتحت الباب ، هبت ريح باردة من الخارج ، ودخل أستيمر وهو يضيق ما بين كتفيه من شدة البرد • كان يبتسم والصقيع يغطي برنسه الاسود ، وتحت البرنس كان يمسك بحقيبة كبيرة •

ـ أبي ! ـ قال تيمبوت ـ لقد عاد ابي ••

ـ تيمبوت ، أهذا أنت ؟ لكم كبرت ؟ ـ قال أستيمر ـ الله ، الله ، انظروا الى هذا أيضا • والله لم أستطع أن أعرف «لو» الصغير لاول وهلة• لقد أصبح شابا • من الذي سينزع السرج عن حصاني الآن ؟ ساريمة ايضا هنا ؟•

ـ أين حصانك ، سأذهب أنا واجهزه للمبيت ـ قالت ساريمة خجلى •

ـ سأذهب أنا أيضا والله • قال تيمبوت وهو يرتدي ملابسه على عجل • بينما جلس «لو» صامتا في حضن والده غير مبال بالريح الباردة المتسللة الى الغرفة •

ـ ليكن يوم عودتك خيرا • الشكر لله على سلامتك ـ قالت دومسارا غير مبالية باخفاء دموعها • وكان التأثر يغلب أستيمر أيضا ، ولكنه تماسك حتى يسكت الآخرون • أما الجدة فقد جلست الى جانب ولدها واخذت تردد أجمل الكلمات وهي تمسح على برنسه •

ـ أين الحصان ؟

ـ لم يعد لدي حصان يا تيمبوت • من الصعب أن يعود الرجل الى بيته دون حصان ، ولكن ما الحيلة ، لم يعد لدي حصان ولكن لدي هذا ـ قال أستيمر وهو ينقر على الحقيبة التي كان يحملها •

عاد أستيمر في ليلة عيد الميلاد التي يحتفل فيها الروس مزينين بيوتهم بأغصان الاشجار المزركشة ويعلقون عليها الهدايا لافراد الاسرة فتجلب لهم الفرح والسرور •• لقد تشرد طويلا هاربا متخفيا ، وعانى الكثير • وفي الصباح توافد أهل القرية الى بيت أستيمر • كان عدد الذين يحبون الاستماع الى ما يقوله كبيرا •

## أنباء هامة

ماذا سيروي لهم من أخبار ؟ أين كان ؟ وماذا رأى ؟• ان ما حدث في

قبارديا نفسها خلال فترة غيابه لم يكن بالشيء اليسير • فالذين أخافوه ر غر هاربا منهم ، لم يعودوا موجودين في مواقع السلطة • أين ذهب قلشبي؟ في أية زاوية اختفى الارالب ؟ صحيح أن غومار بقي في منصبه ، ولكن الفرق بين سلطاته الآن ، وسلطاته في الماضي كالفرق بين الفارس والراجل • كان في السابق شرسا متسلطا يأكل الاخضر واليابس ، ولا يتورع عن بلع حقوق الناس • أما الآن فانه يتلفت حواليه بعيني كلب ذليل عاقبه صاحبه عقابا صارما • واذا كان يلدار يعمل ويتعلم مهنة ، فان غومار لم يكن يدري ماذا يفعل بنفسه •

كان غومار من أوائل الوافدين الذين وصلوا لزيارة أستيمر ، مدفوعا بفضول ملح لسؤاله عما رآه وسمعه في أسفاره • وتلاحق الناس فامتلا البيت بالزوار • وكان يلدار وبلاتسه قد سمعا نبأ عودته قبل طلوع النهار ، وجاء معهما بوت أيضا ، وجلس مسعود « بطن الكبدة » في زاوية من الغرفة • ووصل يرول الذي اعتاد الناس على الاستماع اليه ، مشرعا أذنيه يستمع هو الآن الى أستيمر • وجاء موسى وبتوقة معا • وكان رأس ديسة يبرز من بين النساء في الغرفة المجاورة • ولم يبق قريب أو بعيد في القرية الا وجاء لزيارة استيمر اليوم • أخذ «لو» الصغير ينظر بعينين لامعتين الى أستيمر الذي جمدت عليه نظرات دومسارا • وكانت الجدة تمسح دموعها بالرغم من أن أستيمر لم يقل شيئا عما عاناه حتى الآن •

ـ السلام عليكم ـ قال غومار حين دخل •

ـ وعليكم السلام • ـ وقام أستيمر الذي كان يجلس بين صديقيه يلدار وبلاتسه وقدم له كرسيا :

ـ اجلس وكن ضيفنا •

ـ لقد طال غيابك •

ـ تجولنا هنا وهنالك قليلا •

ـ ان الله يحب العائدين •

ـ اذن ، عدنا • ـ قال أستيمر وهو يجلس «لو» في حضنه ويضغطه بين ركبتيه • وأحب الولد ذلك فازداد التصاقا بأبيه •

ـ الحمد لله ، الاسرة كلها بخير •

ـ انظروا الى العمدة كيف اصبح كريما • ـ قال بلاتسه وهو ينظر نحو غومار بعينين ماكرتين ـ في الماضي كان يقول : « اذا ذبحت لي ذبيحة سأزورك لاكون ضيفك » أما الآن فلم يعد يشترط ذلك فقط ، وانما أصبح على استعداد كما أرى لان يذبح لك ذبيحة اذا عرف أنك ستزوره ـ ها •• ها •• ها •• أليس كذلك ؟ •

ـ لم نأت لنستمع اليك انت !•• كيف أحوالك يا أستيمر • ان وجهك ليس شاحبا ، يبدو انك مهما لاقيت من صعوبات حيث كنت ، فان ذلك لم

يؤثر على صحتك • لو انك عانيت ما عاناه نورعلي ، لكان الامر قد اختلف•
ـ وهل عاد نورعلي ؟ ـ سأل أستيمر عندما ورد ذكره •
ـ والى أين كان سيذهب لو لم يعد • لقد أصبح « تاجرا » كبيرا الآن • ألم يفتتح مطعما في نالتشك !•
ـ وكيف حصل ذلك ؟
ـ هذا والله ما حصل •
ـ فليذهب نورعلي الى الجحيم • هيا يا أستيمر ، قل لنا أين كنت، وماذا رأيت ؟ أصحيح يا ترى كل هذه الانباء المزعجة التي نسمعها • يقال أن البلاشفة بزعامة لينين قد استولوا على السلطة في روسيا ، وانهم اوقفوا الحرب مع الالمان وسرحوا الجنود ليوزعوا عليهم الارض • هل يمكن أن يفعل لينين مثل هذا ؟ في الماضي كان الملك عندما يوزع الارض يمنحها الامراء والنبلاء • والآن يبدو أن لينين في جانب الجنود ، ما معنى ذلك ؟•
ـ أستيمر يعرف كل هذه الاشياء ، لا أصدق أنه لم ير لينين نفسه في المدينة الكبيرة التي كان يعيش فيها • ـ كان الناس يتجادلون متحلقين حول أستيمر •
ـ اصبروا قليلا ودعوه يتنفس • ان استيمر يعرف اللغة ، ويعرف القراءة والكتابة ، فكيف لا يعرف هذه الاشياء •

كان أستيمر يحب أن يتكلم فعلا في هذا الجمع ، ولكنه لم يكن يستطيع أن يقول كل ما يريد قوله ، فهو لا يثق بغومار •
عندما قالوا : « يعرف اللغة » كانوا يقصدون اللغة الروسية • في الماضي كانوا يحترمونه لانه يستطيع قراءة القرآن وفهمه وتفسيره لهم • أما الآن وقد أصبح يعرف اللغة الروسية قراءة وكتابة ، فليس في القرية كلها « رجل يحمل رأسا مثل رأس استيمر » • ومن أجل ذلك كانوا قد أصبحوا ينظرون اليه باحترام وتقدير زائدين • ولم يخطر ببال احد أن يكذب ما يقوله •
وروى لهم أستيمر كيف أنه عندما هرب من القرية اتجه الى نواحي « يسيج » وعمل وكيلا عند أحد الاغنياء الذين يتعاطون تجارة الخيل • وعندما حل الشتاء خطر له أن يتوجه الى مدينة روستوف :

ـ يا لها من مدينة كبيرة ـ قال أستيمر ـ في شوارعها سكك حديدية• واذا نظرت الى أعلى بيوتها يسقط قلبقك عن رأسك ، ولا تستطيع أن تحصي نوافذ بناية واحدة في يوم كامل • لا يمكن أن تصدق من أن هذه المدينة ليست من صنع الجن • والناس فيها كالنمل لا يمكن عدهم ولا حصرهم ، ولا تستطيع التمييز بين القادم والمغادر • مداخنها عالية تناطح السحاب ، والدخان يتصاعد منها دون انقطاع في الليل أو في النهار ، فيتكاثف فوق المدينة كالسحب السوداء •

في البداية عملت في نقل قطع الحديد بواسطة عربة يد في مصنع عجلات القطارات • في ذلك المعمل فرن كبير لصهر الحديد • كم أحب ان تـــراه يا بوت • المطرقة هناك تعمل بواسطة البخار • ضع ما تريده على السندان، وبعد ضربتين او ثلاث ، انتهى الامر • ولما كانت اجرتي في ذلـك المعمـل قليلة ، فقد عملت حارسا في مدرسة داخلية • تلك مدرسة حقيقية ، اذا كنت تريد مدرسة • لو استطعت أن أعلم اولادي في تلك المدرسة ، لاعتبـرت نفسي أسعد رجل في العالم • والتلاميذ فيها يرتدون ملابس جميلة ونظيفة•• ايه •• أين نحن من العلم الذي في تلك المدرسة •! روستوف تقع على نهـر كبير جدا اسمه الدون • وبالرغم من أن النهر عريض جدا ، فان عليه جسرا حديديا ، تستطيع السفن أن تمر من تحته • ولشدة عمق النهر ، لا تستطيع العين أن تميز جريان الماء فتظنه راكدا • لو زاد على نهرنا مائة نهر أخرى مثله ، لا يمكن أن يصل الى حجم الدون •

ـ وأين احتفظت بحصانك ؟ ـ سأل غومار •

ـ وماذا افعل بحصان هناك ؟• هل أطلب من الاولاد أن يلهوا به !

ـ أقسم بالله أن هذا صحيح • اذا كانت الشوارع فيها سكك حديدية، يمكنك أن تذهب بالقطار او بالترام الى حيث تشاء ، فماذا تفعل بالحصان اذن ؟ حتى جراسلان نفسه لم يكن يستعمل حصانا في مثل تلك المدينـة ـ قال موسى وهو يحشر نفسه في الحديث •

ـ كيف حال جراسلان ، هل نبت نصف شاربيه ثانية ؟ ـ سأل أستيمر•

ـ لقد عاد ، ولكنه لا يدعنا نراه •

ـ انه الآن وحده في البيت بعد أن هجرته زوجته •

ـ وعادت زوجته الى آل شردان ـ أضاف أحدهم •

ـ وهل شردان موجود في القرية ؟•

ـ لقد رحل ، ذهب الى حيث توجه صديقه قلشبي •

ـ أستيمر ! أخبرني بالحقيقة • يقولون أنك هربت خوفا مـن أبـن قلشبي وشردان ، فهل هذا صحيح ؟ ـ سأل بلاتسه •

ـ دعونا من الحديث عن النبلاء الآن • ـ قال يلدار الذي لم يشارك في الحديث الى الان محتدا ، ثم أضاف ـ أستيمر ! ، بالله عليك حدثنا عـن الثورة التي قامت في روسيا • وهنا بدأ الجو يتكهرب •

ـ انظروا الى من يريد الحديث عن « الثورة » • من أين لك المقدرة أنت على فهم معنى هذه الكلمة ؟ ـ قال غومار منفعلا •

ولم يكن غومار وحده الذي لا يريد ان يسمع اي حديث عن الثورة •

ـ انهم يستمعون بأفواههم وليس بآذانهم • هذه ليست ســوى حكايات • انهم مجانين ، وستزيدهم مثل هذه الحكايات جنونا • ـ قـال أحدهم وهو يقوم لينصرف محتجا •

ـ هذا صحيح والله • والمشكلة ان أستيمر ماهر في رواية الحكايات • أقسم بالله أنه سيخرب بيت من يستمع اليه • هيا بنا ـ قال موسى وهو يتجه نحو الباب محتجا لينصرف بدوره • وتبعه بتوقة ، ثم غومار وهو يغمغم غير راض •

ـ هذا هو الموضوع اذن ! تصبحون على خير يا أستيمر • لا تقولوا عيدا بعد أنني لم احذركم ! لا أعرف الى أين يريد أن يصل يلدار ، ولكنه لا يسعى الى الخير بالتأكيد •• ثورة ! أية ثورة ثورتك أنت يا يلدار ؟ انك لا تعرف كوعك من بوعك ولا تستطيع ان تميز من أين تهب الريح ، فماذا تعرف عن الثورة ! لست سوى جاهل • أبوك أمضى حياته أجيرا عند القوشحة حتى جلب عليه لسانه المصائب فمات منفيا ذليلا • والآن يعيد سيرة أبيه ويمضي مثرثرا بين الناس •

وبينما كان غومار يخرج ، نقر موسى على الباب بعصاه مظهرا رضاه عما قاله غومار :

ـ سمعت ان « الاتمان جنرال كراولوف » عندما يصادف شخصا مثل يلدار يرقصه بالسوط حتى يعود الى جادة الصواب • احذر أنت ايضا من سوط الاتمان يا أستيمر ، يبدو أن لديك حكايات عن الثورة •

ـ هذا صحيح • لا يجوز أن تنسى أصلك • ـ قال بتوقة مراوغا وهو يحاول ان يبطن كلامه •

ـ لا ينبغي على أستيمر أن ينسى أصله • واذا نسي فسوط الاتمان كفيل بأن يذكره بكل شيء •

ـ اذن ، انت تخدم كراولوف الآن ؟! ـ قال أستيمر وقد نفد صبره •

ـ والله أنا لا اخدم احدا • كيف يمكنك أن تعرف من تخدم او من يخدمك في هذه الايام ••

ـ أليس واضحا من كلامك من الذي تخدمه ؟ ـ قال يلدار بحدة ، مقطب الملامح •

ـ ها ، ها ، لقد غلبته والله يا يلدار ـ قال بلاتسه معلقا •

قام الجميع لينصرفوا ، ولكنهم وقفوا يتجادلون بعنف • كان عدد الذين يرفضون أي حديث عن الثورة كبيرا • ولكن لم يكن عدد الذين يحبون الاستماع الى استيمر والى « الحكايات » عن الثورة قليلا أيضا • بينما وقف معظمهم صامتين يستمعون الى الطرفين متكئين على عصيهم ، يتظاهرون بالابتسام بين الحين والآخر • أما بتوقة فلم يكن يريد أن يستمع الى احد • وتوقف النقاش حين صاح استيمر فيهم •

ـ ربما كنت لا أجيد الحديث • ولكن انتظروا قليلا • سيأتي لزيارتي روسي من « بسه كوابه » ، رجل يعرف كل ما يجري ، وستعرفون منه كل ما تريدون •• انظروا الى هذا ، فهذا من صلب الموضوع ايضا •• هذا ما

يحتاج اليه اطفالنا ، نحن نلحق الخيل والخناجر ، ولا نفكر بأطفالنا ـ ثم فتح حقيبته بانفعال وأفرغ ما فيها من كتب في وسط الغرفة ، وكان بين الكتب قطع كبيرة من الورق السميك عليها صور طيور وحيوانات ونباتات مختلفة ، وبعضها رسمت عليها الابجدية الروسية بحروف كبيرة ، وبعضها الآخر تحمل أرقاما وعمليات حسابية لتعليم الحساب • وأخذأستيمر يفتح هذه مرة وتلك مرة اخرى ، ويعرضها على الذين وقفوا يتفرجون مشدوهين • أما معارضوه فقد أخذوا ينظرون الى وجوه بعضهم البعض بالتناوب • بينما وقف تيمبوت و «لو» ينظران الى الكتب بسعادة غامرة • ونظرت ساريمة نحو يلدار وكأنها تقول « ليتنا كنا نعرف كل ما في هذه الكتب » • أما دومسارا ، فقد شرد ذهنها في أشياء كثيرة عندما رأت الكتب المكومة في أرض الغرفة • لقد سافر نورعلي بحثا عن الذهب وغاب مدة طويلة ، ولكنه عاد خاوي الوفاض كما ذهب • أما أستيمر فقد عاد رجلا آخر تكاد لا تعرفه • انه باختصار لم يعد ذلك الرجل الذي شاجر الحاج يونس •

وكل مساء كان يتوافد على بيت أستيمر عدد كبير من الناس • ربما أكبر من عدد الذين يذهبون لصلاة العشاء • وعلق على ذلك غومار وموسى قائلين « ان مواعظ أستيمر ستخرب بيوتكم » •

## ستيان ايليتش
## ماهر في صنع الاقفال

لو عرف دولت من الذي سيصادفه اليوم ، لفكر بالتأكيد بشيء ما ، رهيأ نفسه لهذا اللقاء • ولكنه لم يكن قد خطر بباله أنه سيصادف احدا او شيئا يجدد رتابة حياته اليومية •• جلس عند البئر أمام داره وتوضأ بهدوء ثم توجه الى المسجد دون أية عجلة • وسار ببطء شديد • الوقت ما يزال مبكرا لصلاة الظهر ، فما الداعي الى العجلة ! ليستعجل أولئك الذين ما زالت محاصيلهم في الحقول • وليستعجل غومار عمدة البلد الذي يجري تارة الى موطن ابن قلشبي واخرى الى مخبأ الارالب • وليستعجل أستيمر بن بوتش الذي أقترب أوان خراب بيته • أما دولت فلا يوجد شيء في هذه الدنيا يدعوه الى العجلة • كان يغرز عصاه في الارض الرطبة ، ثم يحركها عدة حركات وهو يمسك بها من رأسها وبعد ذلك يخطو نحوها خطوة قصيرة وهو يؤرجح ذراعه الطليقة • وبينما هو يسير بهذه الخطوات الوئيدة التي لا تخلو من الخيلاء ، تنبه الى أن أحدهم يتبعه ولكنه لم يلتفت • فسمع صوتا يسأله بالروسية :

ـ أين يقع بيت بوتش أستيمر يا حبيبي ؟

التفت دولت فرأى روسيا أشقر • واضطرب لمرآه فلم يستطع أن يقول شيئا . فأعاد الروسي سؤاله ظانا أن الرجل لم يسمعه ولكن دولت كان قلقا يفكر بشيء آخر « سوف ينتقض وضوئي الآن اذا نطقت كلمة بالروسية » فقال باللغة الشركسية وهو لا يعرف كيف يتخلص من الروسي :

ـ والله لا أعرف • ـ ولكنه تذكر فجأة انه لا يجوز للمتوضيء ان يكذب أيضا فقال في نفسه « لقد ضاع الوضوء » وأشار بعصاه بحركة سريعة وهو ينطق بكلمة واحدة •

ـ هناك •

ـ شكرا • ـ وفهم ستيبان انه يقصد البيت المغطى بالقش الذي يظهر من بين أشجار الحور العالية •

وفكر دولت حتى وصل الى المسجد « هل انتقض وضوئي حقا ام لا » وأخيرا اعتبر أن اللقاء بكافر ينقض الوضوء فاتجه الى النهر الذي يمر بالقرب من المسجد • ولما لم يكن من عادته أن يتوضأ من النهر ، فقد استغرب ذلك كل من رآه • وحتى يقطع الطريق أمام تساؤلات الناس بسبب تغيير عادته اليوم ، فقد أخذ يخبر كل من يراه ، سواء سأله ام لم يسأله، انه صادف اليوم روسيا وهو في طريقه الى المسجد ، وأن هذا الروسي سأله عن بيت أستيمر •• « انظر الى أصدقاء أستيمر ! بينما يذهب الناس الى المسجد لعبادة الله ، يجلس هو في بيته ليستقبل الكفار » « ألم يحضر له قليلا من لحم الخنزير يا ترى ؟ » ـ قال أحدهم مازحا ، ولكن المسنين انتهروه : « لماذا تنطق بهذه الكلمة وأنت متوضيء ؟ » • وبعد أن انتهى المصلون من صلاتهم ، توجهت الجماعة نحو بيت أستيمر ، كان الجميع بشوق الى سماع الاخبار من ذلك الروسي الماهر في صنع الاقفال القادم من «بسه كوابه» هذا هو بدون شك ستيبان ايليتش الذي حدثهم عنه أستيمر•

كان « لو » واقفا عند الباب • وعندما رأى الروسي الذي يرتدي ملابس غير مألوفة ويضع قبعة على رأسه كاد يهرب ، ولكنه تريث فسأله الروسي من بعيد :

ـ أنت اسمك « لو » أليس كذلك ؟

وقف « لو » دون حراك وهو يفكر : « اذا اقترب مني الروسي اكثر من ذلك سوف أهرب » وفي هذه اللحظة أسرع استيمر خارجا من باب الدار وعانق الروسي الذي خاف منه « لو » ، بحرارة •

ـ اركض يا « لو » وأحضر يلدار بسرعة •

وانطلق الولد يجري ليروي ما رآه من عجب ليلدار ويحضره • كان سيخفي عليه خوفه من الروسي • ولكنه كان يعتبر من الشجاعة بقاءه واقفا حتى اقترب منه • وجاء يلدار على عجل و « لو » يهرول وراءه وهو

لا يستطيع أن يروي له الخبر بشكل مفصل لتقطع أنفاسه • ورغم أن يلدار جاء على عجل ، فقد كان قلقا يفكر باللغة التي سيتفاهم بها مع الروسي •

ـ هذا هو يلدار بن مراد ـ قال أستيمر وهو يقدمه للضيف ـ تفضل يا يلدار •

ـ السلام عليكم ـ قال يلدار مسلما على الروسي • ونظر اليه مترددا • كان على وجهه نمش خفيف ، وشارباه حليقان ، وكانت فتحة قميصه المطرز مضمومة بخيط احمر مجدول ينتهي بعقدة صغيرة •

وكان « لو » يرى مثل هذا القميص لاول مرة في حياته •

ونظر الضيف الروسي أيضا بامعان الى يلدار •

ـ حسنا ، حسنا • وعليك السلام يا ابن مراد ـ قال الضيف مسرورا •

ـ أنا لا أعرف اللغة الروسية ـ قال يلدار بصعوبة وهو يبحث عن الكلمات الروسية •

ـ هذا غير مهم • سنتفاهم ، وسيكون أستيمر مترجما •

ـ سنتفاهم حتى لو اضطررنا لاستعمال الاشارات ـ قال أستيمر مازحا •

قيل ان ستيبان حداد ، ولكنه لم يكن ضخم الجثة كما تصوره يلدار • وعندما تعانق الرجلان ، ضاع الضيف بين ذراعي يلدار المفتولين • وكيف لا يتعانقان • كان والد يلدار قد لفظ انفاسه الاخيرة منفيا في سيبيريا ، ومات بين ذراعي ستيبان •

وقبل أن يتوصلا للحديث عن ذلك ، وصل عدد من الرجال يتقدمهم دولت • فعج دار أستيمر بالناس وكأنه مسجد أو دار للقضاء • كان الجميع يريدون الاستماع الى أي رجل يعرف ماذا يجري في هذه الايام •

وكان دولت يعرف بعض أسرار الضيف الروسي ، لانه اخذ اليه من قبل مسدسا لاصلاحه ولو أنه لم يتذكره عندما رآه لاول وهلة اليوم • أما الضيف فقد وقف يستمع الى ما يقوله دولت منطلق الأسارير •

أستيمر ويلدار فقط هما اللذان يعرفان لماذا اشترى ستيبان بيتا في قرية « شأبس » ولماذا هجر مدينة « بسة كوابة » • ومهما بلغت شكوك دولت فليس بامكانه ان يعرف شيئا عن ذلك •

أما السر المشترك بين الضيف وأستيمر ويلدار فيرجع الى عشر سنوات خلت ، حيث كان قد جرى حادث هام جدا في قرية « شأبس » القريبة من حصن للقوزاق • ولما كان كلّ ما نتحدث عنه الآن قد تأثر بشكلٍ أو بآخر بذلك الحدث ، فلا بد من الحديث عنه مطولا • أما الآن فسنكتفي بذكر الضروري لفهم مجرى الاحداث •

كان في قرية « شأبس » رجلٌ متقدم في السن يدعى « متخان

كورغوقة » له ولدان ، ويعيش من عمل يديه ٠ ولم تكن له أية مشاكل ، وكان يعرف حق جيرانه ولا يكرهه أحد ٠ ولكن « الشر يخرج من قرن الثور أحيانا » كما يقولون ٠ اختلف مع جاره على شيء تافه ، فأطلق عليه النار من بندقيته في لحظة غضب وأرداه قتيلا ٠ اجتمع المسنون في القرية وقرروا أن يدفع « كورغوقة » دية جاره « مريمقان قاسبوت » وأن يرحل من جواره، وهكذا كان ٠ فقد دفع عددا من رؤوس الخيل والبقر ، والاقمشة وغير ذلك، وكان المغدور قاسبوت قد خلف أربعة أولاد أكبرهم يدعى ينال ولم يكن قد جاوز الثانية عشرة من عمره ٠ ولما كانت دار كورغوقة في حالة جيدة فقد فكر أن يبيعها قبل رحيله ٠ وذلك أفضل من أن يتركها لتتهدم ٠

ولم تمض مدة طويلة حتى ظهر شار للبيت هو ستيبان ايليتش ٠ « لن أعيش مع جار روسي » قالت « وارة » أرملة قاسبوت معترضة ٠ ولكنها سحبت اعتراضها بعد أن حصلت على تأكيدات بأن الجار الجديد لن يربي أية خنازير ٠

كان الجار الروسي مهنيا بارعا لا يعجز عن تصليح أي شيء ٠ فحول أكبر غرفة من الدار التي اشتراها الى ورشة علقت على جدرانها مختلف الادوات ٠ كما وضع فيها عدة آلات ٠ ولم تستطع « وارة » أن تمنع أولادها من زيارة مثل هذا الجار ، فأخذ ينال واخوته يزورون الروسي الذي لقبوه بـ « الجد » تحببا في أي وقت من أوقات الليل والنهار بحجة مساعدته، بالرغم من أنهم لم يكونوا قادرين على فعل أي شيء له ٠

وأخذ زواره يتكاثرون يوما بعد يوم ٠ كان بعضهم يحضر ماكينات خياطة ، وآخرون مسدسات أو بنادق أو أقفال راجين تصليحها ٠ ورغم مهارة ستيبان بتصليح كل هذه الاشياء ، فان شهرته في القرية ونواحيها جاءته من شيء آخر مختلف تماما ٠ فقد اعتاد ستيبان أن يفتح مصحفا كبيرا ويقرأ لهم منه عندما تمتلىء الورشة بالناس ، ثم يفسر لهم ما يقرأه بالطريقة التي يمكن ان يفهموها ٠ « استغفر الله ، وكيف يقرأ الكافر القرآن ؟ » هكذا كان يقول كل من يسمع بذلك ٠ ولما كان أي واحد من الذين يلتقون في ورشته لم يكن يعرف القراءة والكتابة ، فلم ينتبه احد الى أن المصحف الذي يقرأ منه مكتوب باللغتين العربية والروسية ٠ وعندما يبدأ بقراءة القرآن وتفسيره لهم تقشعر أبدان الجميع خوفا وقلقا ٠ « ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها » يقول ستيبان وهو ينظر الى الكتاب : « لن تستقيم احوال الدنيا ما بقي الامراء والنبلاء الجشعون » أما ينال فكان ينصت اليه باهتمام وهو يقف في مكانه عند العتبة ٠ « لو كان الناس يعيشون دون تفاوت كبير بينهم ، لارتاح الجميع ٠ المصائب كلها تأتي من غنى الاغنياء الذين يرفضون ان يقترب الفقراء من أموالهم » كان هذا صحيحا في نظر ينال أيضا ٠ ان « قازجري بن كورغوقة » يتعلم في مدرسة دينية ، فهل يعرف هذه الاشياء يا ترى ؟ على أية حال سيناقشه

فيها عندما يعود ٠

وتوطدت أواصر الصداقة بين ينال وستيبان : فأصبحا يلتقيان يوميا ، وكثيرا ما كانا يتناولان طعامهما معا ٠ ولم يتقن ينال اللغة الروسية فحسب ، بل بدأ يتعلم القراءة والكتابة ٠ ولكن مشيئة الله قضت على ان لا يبقيا معا مدة طويلة ٠

ذات مساء ، وفي وقت متقدم من الليل ، دخل عـــدد مـــن الفرسان القوزاق دار ستيبان مسرعين ٠ وترجل فارسان آخران أمام دار ينال وركضا الى البيت ٠ « لن يتخطى عتبة بيتي أي انسان » قالت أم ينال وهي تبكي ظانة أنهم يبحثون عن مجرم هارب او عن احد الفارين من وجه العدالة ٠٠ ثم وقفت عربة يجرها حصانان ضخمان أمام دار ستيبان ووضعوا فيها كل ما يملكه جارهم من متاع ، وجلس ستيبان أيضا في العربة مخفورا ٠

ـ الى اللقاء ، أرجو أن لا تنزعجوا بعد رحيلي ٠ سأعود ولن أطيل غيابي كثيرا ـ قال ستيبان موجها كلامه الى ورارة ٠ ولكن ينال فهم ماذا يقصد من كلامه ٠

وخافت ورارة ان يعود القوزاق ثانية لالقاء القبض على ينال أيضا ٠ فهيأت له في تلك الليلة زوادة وجمعت ملابسه ، ورحل ينال في الصبـــاح الباكر الى محطة « ميزال فود »التي قد ذهب اليها بصحبة ستيبان من قبل وأوصاه أن يختبىء فيها عند الضرورة ٠ ولم تمض مدة طويلة حتى وجـد عملا واستقر فيها ٠

وعندما نفي ستيبان ايليتش الى سيبيريا ، التقى هنالك بوالد يلدار ، ولما كان الرجلان ينتميان الى منطقة واحدة فقد تآلفا بسرعة ٠

دخل العائدون من المسجد الى دار أستيمر ليستمعوا الى الاخبار التي جاء بها الضيف الروسي ٠ كان أهل القرية وخاصة المسنون منهم قد اعتادوا على سماع انباء التغيرات التي تحصل في روسيا من أستيمر الذي اخــذ دور المترجم الآن ٠ ولم يحدث أن عجز ستيبان عن الاجابة على أي سـؤال وجهوه اليه ٠٠ وصار يلدار يلازم دار استيمر بعد أن جاء الحداد الروسي٠ واخبره كيف مات والده بعد أن أصيب بمرض السل بين ذراعيه ٠ ولم يكن قد عرف الحقيقة عن موت والده من قبل بعد أن نفي لاشتراكه في معركــة « دزلوقة » ٠

كان ستيبان يجيب راضيا على جميع اسئلة يلدار ، ويراقبه جيـدا آملا توثيق علاقته به ٠ انه يشبه والده وهو شاب نشيط وذكي ٠ وكانـت اكثر احاديث ستيبان تدور حول الثورة التي قامت في روسيا ٠ ولماذا خلعوا الملك ، ومن الذين خلعوه ، ومن الذين استلموا السلطة ٠ وكان يعـرف مـا يقوله للذين يصرون على ان « الحياة مستحيلة بدون ملك » ٠

ومع مرور الايام صارت هذه الانباء مألوفة ، وخرج أستيمر من دائـرة

اهتمام القرية .

## أعمال شاذة

من النادر أن تصادف انسانا سيء الحظ مثل نورعلي . « هذه نهاية متاعبي » قال في نفسه بعد أن افتتح المطعم . وأخذ يعمل بهمة ونشاط واتقان وكأنه أمضى حياته كلها وهو يعمل في المطاعم ، في محاولة منه للتعويض عما اضاعه من عمره وهو يحلم بالثراء والسفر الى البلاد البعيدة. فها هو يدقق في اختيار اللحم ، ويميز بين القطع الصالحة للشواء أو للمرقة. وكان أحيانا يذبح خروفا بنفسه . وبما أنه يبتعد عن تقديم أي لحم محرم، فقد أصبح جميع المسلمين الذين يرتادون المدينة للتسوق يأتون الى مطعمه. فيجلس الزبائن على مقاعد خشبية طويلة مثبتة في الارض على جانبي طاولة خشبية كبيرة . ولم يكن في المطعم بالاضافة الى الطاولة والمقعدين سوى قدر كبير وبضعة قدور صغيرة وعدد من الاواني والملاعق الخشبية .

وكانت هذه الاشياء كافية وزيادة في نظر موسى ، لانه كان ينوي أن يفتتح مطعما آخر مجهزا بشكل أفضل عندما يتحسن العمل .

اما نورعلي فقد أخذ يستمتع بعمله الجديد ، وخاصة عندما ينضج اللحم فيخرج القطع الكبيرة من القدر الذي يبقيه على النار حتى لا تبرد المرقة ، ويقسمها قطعا متساوية فيقدمها للزبائن مع صحن من المرقة .وبعد أن ينتهوا من طعامهم كان الزبائن يدفعون له نقودا من أنواع مختلفة . فبعضهم يدفع بالعملة الملكية القديمة ، وآخرون من عملة أصدرها كيرنسكي (١) ، وغيرهم يدفع له نقودا صكت في روستوف أو « ترك قالة » . وكان نورعلي يقبل كل انواع هذه النقود ويحفظ كلا منها على حدة ولا يخلط بينها .

في بعض الاحيان كان الزبائن يضايقون نورعلي ، اذ يخاطب زبون ماكر زميله على مسمع منه « ألم يدفن بعض الذهب هنا يا ترى ؟ » أو يأتيه أحدهم فيطلب صحنا من المرقة ويجلس ساعة كاملة يراقبه محاولا أن يكتشف مكان الذهب الذي خبأه . أو يأتيه زبون يطلب ملء صحنه من جديد بعد أن قضى على محتوياته ، أو يطلب تبديل الصحن لان المرقة بردت . « زدني قليلا من المرقة ، هل سيخرب بيتك من أجل بعض الملاعق من المرقة ، ان الارض ستبتلع ذهبك اذا بقيت على هذا البخل ! » ولم يكن نورعلي يستطيع الا ان يغضب على مثل هذه الملاحظات ، ولكنه يتمالك

---

(١) رئيس الحكومة المؤقتة قبل ثورة اكتوبر .

أعصابه ويضع على الطاولة كتل «الباستة» (٢) و « المرامسه » (٣) بمغرفة خشبية مسطحة • ثم ينفجر دون مقدمات :

ـ هيا ، انقلع من هنا • لا أريد أن أرى وجهك ولا نقودك •

ـ حسنا • سأنصرف طبعا ولن أقيم في مطعمك !

ـ هيا ، أغرب عن وجهي •

وكان هذا ما يريده الزبون الشاب الماكر الذي يشاكسه ، فيقوم وهو يمسح فمه بكمه ويتجه الى الباب •

ـ والنقود ؟

ـ أتريد نقودا مقابل هذا الشيء الذي أطعمتني اياه ؟

ـ أتظن أنك أكلت في بيت جدك اذن ؟

ـ انظروا اليه ! يبدو أنك تركت الحياء في الجانب الآخر من البحر •

ـ قلت لك انقلع من هنا •

وهكذا ينصرف الشاب وهو يخفي ابتسامته في عبه • ورغم مثل هذه المضايقات ، فقد احب نورعلي العمل في المطعم بشكل عام ، وكانت أحواله في تحسن مستمر • ولكن المصائب حين تأتي ، فانها تحل دون مقدمات •

كان مسعود من الذين يكثرون التردد على المطعم ، خاصة عندما يربح قليلا من عمليات البيع والشراء الصغيرة التي يمارسها في السوق • ولم يكن هذا شيئا غير مألوف • ولكن غير المألوف في الامر ، ان تشاتشا بدأت تأتي معه منذ بعض الوقت ، وتجلس الى جانبه ، ويبقيان معا مدة طويلة لا يتكلمان الا همسا • ولم يكن نورعلي يجد وقتا ليسترق السمع الى ما يقولانه • كان مسعود يبدو مترددا ، ومن الواضح أن تشاتشا تشجعه على عمل شيء معين ، ولكن ما هو هذا السر الذي بينهما يا ترى ؟•

ازدادت تشاتشا في العامين الاخيرين هرما ، حتى غدت كخشبة جافة ، تحس بنظراتها الباردة كأسلاك من الحديد عندما تتطلع اليك من تحت منديلها السميك • كانت في الماضي تتمتم دون انقطاع ببعض الادعية والآيات القرآنية • أما الان فانها تدب هنا وهناك وهي تبربر دائما وتخاطب نفسها بكلام غير مفهوم • وعندما تقترب منك تحس أنها قادمة لتفضي اليك بسر خطير • وكان مسعود من القلائل الذين يبادلونها الحديث • ها هي قد جلست من جديد الى جانب مسعود وبدأت توشوشه ، فيتغير لون مسعود ولا يتكلم • أما تشاتشا ، فهي تسايره تارة ، وتارة أخرى تنحني على اذنه وتقول شيئا •• ولكن ماذا تقول يا ترى ؟•

أخذ نورعلي يراقبهما بينما كان منهمكا في عمله، مستغربا أشد الاستغراب

---

(٢) عصيدة تصنع من البرغل او حب الذرة البيضاء الصغيرة •

(٣) عصيدة طحين الذرة الصفراء وكلاهما من المأكولات الشعبية الشركسية •

هذه العلاقة التي بينهما . ولديه فضول شديد لمعرفة ما يدور بينهما .. ولكن أنى له أن يعرف سر مسعود وزوجة موسى الجميلة . كان مسعود معجبا بماريات الى حد الوله منذ مدة طويلة ، ولكنها كانت تبدو بعيدة المنال مثل « الحرير في أعالي الجبال » كما يقول المثل .

ما زالت ذكريات الحفلة التي أقامها موسى عندما جاءه الولد الثالث عالقة في أذهان أهل القرية صغارا وكبارا . وقد قالوا وقتها « هذا الوليد جميل مثل ضوء الشمس » . ولكن مشيئة الله قضت أن يموت الصغير في عمر البراعم ، ويلحق بأخويه اللذين سبقاه قبل أوانهما . ورغم أن ماريات لم تيأس من رحمة الله ، فانها لم تعد تصدق أنها سترزق بولد من جديد. وأصيبت بغم شديد خوفا من أن تلقى مصير المرحومة « أوزيزة » . ولم تكن ماريات لتبوح بسرها وهمومها لاحد ، يكفي أن تشاتشا تعرف به . واذا كان موسى يظن أن الاولاد الثلاثة من صلبه ، فان سر ذلك سيذهب الى القبر مع تشاتشا وماريات دون أن يبوحا به الى أحد . لقد وعدتها تشاتشا بأنها ستجد لها واحدا آخر هذه المرة أيضا « بعون الله سأجد لك واحدا قويا بهي الطلعة » قالت لها تشاتشا وانطلقت تبحث متكتمة دون أن تخبر أحدا حتى ماريات عن هدفها الجديد . كان رأيها قد استقر هذه المرة على مسعود « بطن الكبدة » بسبب الالفة والمعرفة الطويلة . ورغم أن هذا صعب التصديق ، ولكنها كانت الحقيقة . فمن مميزات مسعود أنه ليس ذكيا جدا ، وهو كتوم ولن يخبر أحدا . على أية حال ، من الذي سيصدق هذا الشيء اذا خطر له أن يتكلم . وعلى رأي تشاتشا ، فان الرجل غير العاقل كثيرا أفضل في مثل هذه المواضيع . ومسعود بالاضافة الى ذلك قوي البنية ويسهل الاتفاق معه . وهل من المعقول أن لا يقبل وهو مغرم بها منذ مدة طويلة ؟. تشاتشا تعرف أن « الثوب المستعار لا يدفيء ، واذا دفأ لا يدوم » ومع ذلك ، سيولد لموسى ولد جديد ، ولن يخسر مسعود شيئا !.

وبينما كان نورعلي مستغرقا في عمله وفي مراقبة تشاتشا ومسعود ، لم ينتبه الى معطفه الذي أفلت من المسمار الذي علق به ووقع بجانب النار فأخذ الدخان يتصاعد منه ولم ينتبه أحد الى ذلك لان الزبائن كانوا قد الفوا تناول الطعام مع الدخان . اشتعل المعطف وتصاعد اللهب الى السقف الواطيء المغطى بالقش اليابس . فهرب الزبائن ، ورأى رواد السوق الدخان يتصاعد من نوافذ وباب المطعم . وركض نورعلي ايضا مذعورا واخذ يكافح النار بكيس من القنب تارة ، وتارة أخرى بمريوله .

ـ النار ، حريق .. مسعود الى أين تهرب ؟ الست مسلما ! . ماء ! ماء ! ـ كان نورعلي يصيح بأعلى صوته وبكل ما يخطر له من كلمات النجدة والاستغاثة .

يا نورعلي المسكين ! هذا هو حظك « اذا لم يكن عندك حظ فان الكلب

يعضك حتى ولو كنت راكبا على ظهر الجمل » • كما يقول المثل •
وقفت تشاتشا مذعورة ترتجف • وعاد مسعود ومعه بعض الرجال ، وهرع آخرون من السوق ولكن من أين يأتون بالماء • كانت النار تمتد بسرعة في الهشيم • وصعد أحد الرجال الى السطح وأخذ يلقي بالقش الذي لم تصل اليه النار ، ويرفع العوارض الخشبية التي لم تحترق بعد ويلقي بها والشرر يتطاير من أطرافها المشتعلة • ثم هبط السقف كله الى الداخل وتصاعد دخان كثيف • وسمع صوت جدي يصيح صيحات مذعورة • فتذكر نورعلي الجدي الذي اشتراه ليذبحه •

ـ الى أين أنت ذاهب أيها التعيس ؟•

ولكن نورعلي ألقى بنفسه الى الداخل دون أن يستمع الى التحذيرات التي كانت تلاحقه وسحب الجدي نصف المحترق من تحت الركام ، وخرج وقد علقت النار بملابسه •

ـ ان المعطف قد احترق ـ قال نورعلي بعد أن تنفس الصعداء •

ـ آه ، يا للخسارة !

وبعد أن أتت النار على المطعم ، أخذ البعض ممن لم يصدقوا أن نورعلي لا يملك ذهبا ، ينقبون تحت الجمر والرماد باحثين عن الذهب ، ولكنهم لم يجدوا سوى أواني المطعم • فيما انهمك نورعلي في البحث عن نصف كيس من الطحين حتى وجده على حالة لا رجاء منها •

ـ لقد أصبح طحينا محمصا • ـ قال أحدهم معلقا وهو يضحك • ولكن نورعلي لم يكن في حالة تسمح له بالمزاح • لقد ضاع كل شيء •••

لم تعتبر تشاتشا أن ما حدث يعنيها من قريب أو بعيد ، ولكنها كانت هي ومسعود أول من أخبر موسى بالحادث معبرين عن أسفهما ، ورويا له ما حدث بالتفصيل •

ـ يا للخسارة ! ـ قال موسى ـ يا رب هل كرهتني ؟ يا خراب بيتي • آه يا مطعمي الصغير !•

ـ هل قلت مطعمي ؟ اهو مطعم نورعلي أم مطعمك ؟

ـ ومن اين لنورعلي بمطعم كهذا ؟ كان مطعمي • لقد افتتحه بنقودي• وأنا الذي اعتمدت على هذا المنكود • يا الهي • يا الهي • لقد خرب بيتنا • ماريات ! أين فروتي ؟ سأذهب الى تالتشك الآن • يا الهي !

لم يعلم الا القليل صاحب المطعم الحقيقي الذي كان يديره نورعلي سوى الآن • وعندما رأت تشاتشا ومسعود أن موسى قد أخذ طريقه الى المدينة ، نظر أحدهما الى وجه الآخر وتهامسا • الله أعلم ماذا قالا ، ولكنه كان من الواضح انهما ليسا على عجلة من أمرهما لمغادرة الدار •

عاد موسى ومعه نورعلي في وقت متأخر من تلك الليلة ، وقد وضعا في مؤخرة العربة الاواني التي نجت من الحريق والجدي الوحيد • وعندما دخلت العربة الى الدار محدثة ضجيجا ، تسلل مسعود من غرفة نوم موسى « هل ستسخر مني بعد الآن أيها اللعين ! لقد انتصرت عليك » كان مسعود يخاطب نفسه وهو يتسلل عبر طريق البستان خارجا من الدار •

الله وحده يعرف كل خبايا قرية « شعلمفوقة » ولكن من الذي يستطيع أن يعيد الامور الى نصابها !•

# الفصل السادس

## حـــروف صغـــيرة واعمال كبيرة

بالرغم من احزان موسى ونورعلي ، فقد حصلت أفراح كثيرة في القرية. عاد من فوج قبارديا الذي كان مشتركا مع فرقة توزيمن ، كل مـــن أولاد « كابي أندوليح » و « بش لوطة » و « دزغاشتوقة عليم » و « ابن الارملة بابوك » ولم تكن القرية قد عرفت مثل هذه الافراح منذ مدة طويلة ، فنسي الناس أستيمر في غمرتها . واجتمع أهل القرية في بيوت العائدين حيـــث أقيمت الاحتفالات . أما الاخبار والقصص التي عاد بها الشباب فلم تكـــن لها نهاية . وكان أطرف هذه الاخبار هو خبر زحف الجنرال « كورنيلــوف » على رأس فرقة توزيمن الى بطرسبرج للقضاء على البلاشفة فيها . وبينما كانوا في طريقهم اليها بالقطار ، استقبلهم البلاشفة خارج المدينة ومعهـم عدد من المندوبين المسنين من قبارديا وداغستان والقوشمة لمناقشتهم . وما أن التقى الفريقان حتى أصبح واضحا للعيان سبب عـــداء الجنـــرالات للبلاشفة . وعندما طرح الفريقان حججهما وآراءهما ، مال قسم كبير مـــن الشباب في فوج قبارديا الى البلاشفة ولكن الضباط والنبلاء عارضوهـــم فوقعت مشادات عنيفة في الفوج . واخيرا ، القى كيرنسكي القبض عـلى كورنيلوف وأوقفه . ولكن كيرنسكي نفسه لم يطل بقاؤه في السلطة ، فقـد قام البلاشفة و « ثقبوا له قبعته » وأقاموا السلطة السوفييتية .

ـ اذن ، يبدو أن ما يقوله أستيمر صحيح ؟. ـ قال بعضهم مندهشين من كون البلاشفة يوزعون الارض والماء على جماهير الفلاحين ـ لن يجد الامراء والنبلاء من يستعبدونهم بعد اليوم . ألم يسقط في أيديهم ؟

ـ ولكنهم خربوا بيوتنا كذلك ، اذا لم يستخدمك الاغنياء ، فأين تعمل؟ هل سنضع أكياسا على أكتافنا وندور مثل الشحاذين ؟ ـ قال آخرون ٠

ولم يكن الجنود العائدون من الجبهة قادرين على الاجابة على مثل هذه الاسئلة ولكن استيمر كان يقول :

ـ لم يبق في روسيا كلها اليوم ملك أو امير او عبد ٠ كل الفقراء واقنان الارض صاروا يملكون أرضهم الخاصة بهم ٠ كم هو جميل أن نطبق ذلك في قبارديا أيضا ٠

ـ انك تخرف يا أستيمر ٠ وهل يقبل صاحب الارض أن يعطيك أرضه ؟ هل يوجد قانون يسمح بذلك ؟ أسكت يا أستيمر ! اقسم أنهم سيجعلونك تفلح الارض بأنفك ٠

ـ ان ما يقوله العمدةصحيح ٠ لا يجوز ان تستمع الى أستيمر « من كان الغراب دليله أرشده الى حصان ميت » كما يقول المثل ٠

لم يكن يلدار وحده الذي يجري هنا وهنالك ، وكأنه يؤدي مهام جسيمة هو الذي تغير ٠ من الواضح ان القرية كلها قد تغيرت ولم تعد تعيش كما في السابق ٠ كان الناس يستيقظون مبكرين رغم أن الموسم ليس موسم عمل ويطيلون السهر في الامسيات يتناقشون ويتبادلون آخر الاخبار ٠ وكانت الجدة نفسها تفكر في الاحداث الجديدة :

ـ يقولون يا دومسارا أنه جاء في القرآن : عندما يقترب موعد قيام الساعة ، سيظهر يأجوج ومأجوج على الارض ٠ أرجو من الله أن لا يريني ذلك اليوم ٠ يا الهي خذني اليك قبل ذلك اليوم ٠٠ كيف استطيع ان أرى أستيمر مع قوم يأجوج ومأجوج ! الرحمة يا رب ٠

كان الجميع ينادي أم أستيمر بـ « الجدة » ولتعودهم على ذلك فقد نسوا اسمها الحقيقي ٠ وهي الآن ضعيفة قعيدة الفراش ٠ وانهمك أستيمر ودومسارا وتيمبوت في اعادة بناء حياة الاسرة بعد أن تضعضعت في غياب رب البيت ٠ ولم يكن يلدار يوفر جهدا في مساعدتهم ٠

ـ لا أظن انني أستطيع رد هذا الجميل لك يوما يا يلدار ـ يقول أستيمر ٠

ـ أعطني الحروف التي جلبتها معك ، ولا أريد منك شيئا آخر ٠

وعندما يحل المساء ويتناول أستيمر ويلدار عشاءهما ، كانا يبدآن الدراسة ٠ ويسأل أستيمر وهو ينظر الى الحروف الكبيرة :

ـ أي حرف هذا الذي يشبه فتاة ذاهبة الى الماء وعلى كتفها عصا علق في طرفيها دلوان ؟ ٠ وماذا يشبه حرف الـ « × » ويتصبب العرق من جبين يلدار لانه لا يستطيع أن يتذكر ماذا يشبه حرف الـ « × » ويقول في نفسه « ان العمل في البراري أسهل من تعلم القراءة » وبعد فترة ، فكر بطريقة تسهل عليه الامر ٠ كانت ساريمة هي التي فكرت بذلك في الحقيقة لانها اشفقت عليه بسبب ما يعانيه من مشقة ٠ فقالت له ذات يوم :

– يلدار ! دعني أطرز لك الحروف على قميصك ، انك تستطيع بذلك مراجعتها في كل وقت وحفظها ٠
– يا الهي ! كيف لم يخطر ذلك ببالي من قبل ؟ والله انني موافق ٠
وهكذا طرزت ساريمة الحروف على قميص يلدار بشكل متناسق وجميل بمساعدة تيمبوت ٠
وأخذ يلدار يكلم نفسه وهو يعمل في البراري :
– الحرف الذي يشبه فتاة تحمل على كتفها عصا في نهايته دلوان هو حرف الـ «T» والحرف الذي يشبه مفترق الطرق هو حرف «X» ٠٠٠الخ ٠

كان أستيمر هو الذي ابتكر هذه الطريقة للتعليم ٠ وبدأ تيمبوت وساريمة أيضا يتعلمان القراءة بعد يلدار ٠ أما الاخير ، فانه كان ينظر الى قميصه المصنوع من الكتان كلما خطر له أن يراجع دروسه ٠
وكان ستيبان يساعد التلاميذ والمعلم معا ٠ وعندما رأى الابجدية على قميص يلدار ، بقي يضحك طوال النهار ٠ ورغم أنه أصبح كثير الاسفار وخاصة الى مدينة « بسه كوابه » فانه يرجع الى القرية دائما ويقيم في بيت أستيمر ٠
وذات يوم عاد ستيبان الى القرية بعربة تحمل صندوقا حديديا كبيرا كتلك الصناديق التي تستعمل لحفظ الاموال ٠ وكان العمدة يسير خلف العربة ممتطيا حصانه وهو بكامل سلاحه ٠ وجرى خلف العربة عدد من الاولاد ليتفرجوا على ذلك الصندوق الذي لم يروا مثله من قبل ٠ وتوقفت العربة أمام مقر العمدة ٠ وركب يرول فرسه وأخذ يطوف في القرية معلنا عن اجتماع هام في نفس اليوم ، بالرغم من أن العادة قد جرت أن يدعى للاجتماع قبل يوم من موعده ٠ وكان النداء يشمل ان يأتي الشباب الذين عادوا من الجبهة الى الاجتماع بكامل أسلحتهم ٠

واجتمعت القرية كما في الايام الماضية ، في باحة مقر العمدة ، فبدوا كجيش صغير ، لان الجنود كانوا قد جاؤوا بكامل أسلحتهم فعلا ، وكل من يملك سلاحا من أهل القرية مهما كان نوعه حمله معه الى الاجتماع ٠
كانت أمسية هادئة ودافئة ٠ والشمس التي لم تغب بعد فتظهر من خلال السحب بين حين وآخر ٠ وسمعت ضجة من ناحية بيت آل شروان ٠ ربما يهيئون آلات البذار للبدء في الحراثة ، فقد استدعوا ستيبان ايليتش ليلقي عليها ولو نظرة سريعة قبل موعد الاجتماع ٠
وكان ستيبان هو أول من عرف سبب الدعوة للاجتماع ، كما عرف قبل غيره سبب احضار الصندوق الحديدي ، وقد أخبر بدوره أستيمر ٠ واذا صدقت ما يقوله أستيمر ، فان أحداثا هامة موشكة الوقوع : سيعيد شردان بيرد تشكيل فوج قبارديا وسيضعه تحت امرة « الاتمانات » الجنرالات القوزاق ، وهذا هو سبب الاجتماع ٠ كيف يمكن انجاز هذه المهمة دون

مساهمة الناس ؟ فتشكيل الفوج من جديد يحتاج الى مصاريف ، وخيـــل، وملابس ، ومؤن ، وما الى ذلك • والبلاشفة يهددون السلطات المحلية فـي مدينة « ترك قالة » ولا بد من تشكيل جيش بالسرعـــة القصوى • ابـــن قلشبي أيضا عاد الى نالتشك ، وكذلك الارالب « سيف الحكومة » •

ها هم الآن جميع أهل القرية ، يعرفون سبب الاجتماع ، وقد التقـــوا في مكانهم المعهود من مقر العمدة ، وأخذوا ينظرون باهتمام الى ستيبـــان الذي كان يهيء مكانا لائقا لـ « صندوق الحكومة » في مكتـــب العمدة ، ليضعوا فيه الاموال التي سيجبونها •

ـ وما حاجتهم بهذا الصندوق ؟ والله لو وضعوا فيه كل اموال رحيـــم وموسى فلن يمتلىء ـ قال بعضهم معلقا •

ـ يقولون انهم سيهيؤون قبوا في دار آل شردان ليفرغوا فيه الصندوق كلما امتلأ بالنقود ـ قال أستيمر •

وزينوا مقر العمدة بأعلام مختلفة ، ولكن لم يهتم أحد بنوع هـــذه الاعلام ، أهي أعلام ملكية بيضاء ، ام أعلام حمراء ، أم رمادية • وكانوا يجهزون الطعام في احدى دور القرية ليستقبلوا فيها الضيوف القادمين مـن نالتشك • وانهمكت النسوة في ترتيب ذلك البيت ومسح نوافذه • وأخـــذ العمدة يصدر أوامر مختلفة وهو يمسك بسماعة الهاتف •• وخرج أخـــيرا ليلقي نظرة على المجتمعين ، وعندما رأى عددهم شعر بالرضا عن نفسه •

## صنـــدوق الحكومـــة

ـ اهدأوا قليلا •! اسمعوا ـ قال العمدة مبتدئا كلامه ، ثم أخبرهم عـن سبب الدعوة الى الاجتماع رغم أنهم يعرفونه ـ لقد عرفنا أن ابن قلشبـــي قادم بنفسه ، وهذا تكريم كبير لنا • وهو بالتأكيد لن يأتي وحده ، بـــل سيكون معه عدد كبير من الضباط ، كما سيأتي معه سيد غال علينـــا وتعرفونه جيدا • شردان بيرد • يا شباب فوج قبارديا ـ تابع غومار خطابه وهو يرفع من نبرة صوته ـ اقتربوا الى هنا • وأنت يا أستيمر ، أليـــس من الافضل أن تنسحب ؟• انصرف ، فقد تلتقي اليوم بأحد الذين لا تحـب لقاءهم• ثم انك تعرف أن يدي تحكني عليك • أتظن أن ابن قلشبي لـــم يسمع بالاشاعات التي تروجها في القرية ؟ خذ معك ذلك الذي طرزوا قميصه بالحروف الروسية أيضا ، ستجلبان لي المتاعب انتما الاثنان ، انـنـــي أنذركما ، وقد أعذر من أنذر •

خرج ستيبان من مكتب العمدة بعد أن أستقر الصندوق الحديدي فـــي مكانه اللائق ، وفحص قفله وبين لهم طريقة عمله • وأخذ أهل القريـــــة

ينظرون الى الحداد الروسي وكأنه قام بانجاز عظيم • وكانوا قد تساءلوا بعد أن رأوا الصندوق بفضول شديد : « ماذا سيفعلون به » والآن اصبحوا في شوق للنظر الى داخل المكتب ليروا كيف يبدو بعد أن وضع الصندوق فيه • ولكن من المستحيل أن يستوعبهم المكتب جميعا ، لذلك منعوهم من الدخول •

ووقف الرجال الذين ساعدوا ستيبان في نقل الصندوق ، ومعهم أستيمر يقسمون الايمان المغلظة ، أن أحدا لا يمكنه زحزحة الصندوق حتى لو جاء « بدنوقة » (١) النارتي بنفسه • وكان أعجب ما في الامر ، الموسيقى التي تنبعث من الصندوق عندما يفتح بابه •

ـ ما رأيك بقفل مثله يا موسى ؟ ـ سأل أحدهم •

ـ أحسنت يا غومار • لقد اشتريت متاعا مفيدا جدا ـ قال بعض المتقدمين في السن لمعرفتهم أن العمدة يحب المديح • وكلما سمع غومار كلمة مديح كان ينهر أستيمر ويشته فاعترض بعضهم على ذلك :

ـ ماذا تريد منه ؟ • الروسي ضيفه ، وهو يساعده في تدبير أمور « صندوق الحكومة » • وكان من الممكن أن يبدأ نقاش حاد في تلك اللحظة لولا أن ركض نحوهم بعض الاولاد وهم يصيحون : « وصلوا » « وصلوا » • وظهرت فجأة مجموعة كبيرة من الفرسان • واقترب ستيبان ايليتش من أستيمر وهمس في أذنه :

ـ أستيمر ، يستحسن أن تنسحب • عندنا مثل روسي يقول « من يستطيع أن يحمي نفسه ، يحميه الله » انك كالقذى في عيونهم •

ويبدو أن الناس قد انشغلوا بدون مبرر • فلم يأت ابن قلشبي وانما ارسل أحد مرافقيه وأخبرهم على لسانه أنه لا يستطيع المجيء اليوم ، وان شردان سيبلغهم اوامره • وندم غومار وصحبه على كل الاستعدادات والزينات التي أقاموها ولكن ما حيلتهم ، ما عليهم سوى تنفيذ الاوامر • وسيصل شردان بيرد اليوم دون تأخير كما أخبرهم رسول ابن قلشبي •

ـ أيها الناس !

ـ لو وجد الضيوف وقتا ، لما كانوا قد تأخروا عن المجيء • انهم معذورون ، ولا نستطيع أن نلومهم ، فعلى عاتقهم مسؤوليات حكومية جسيمة • وما دمنا قد اجتمعنا ، فأمامنا عمل مفيد علينا أن ننجزه • يجب أن ننتخب اليوم عن طريق التصويت برفع الايدي « أمينا للصندوق » ونسلمه الاموال التي نجمعها ليحفظها في « صندوق الحكومة » فاختاروا من هو جدير بثقتكم ، ومن هو قادر على أن يقوم بالمهمة ، وله خبرة في حفظ الاموال • وقد شاورت اولي الامر اليوم ، فوجدوا ان « حتسوك » جدير بالثقة • والامر

---

(١) أحد أبطال الاساطير وهو مشهور بقوته الخارقة •

متروك لكم ٠

وما أن أنهى العمدة كلامه حتى دخل اهل القرية في نقاش حاد ، وكثرت الآراء ، واقترح بعضهم استشارة الامام في الموضوع ٠

ـ ولماذا « حتسوك » بالذات ؟ وبماذا يمتاز عن غيره ؟

ـ وهل هو قادر على تدبير امور « صندوق الحكومة » حقا !

ـ دعونا ننتخب «خاخو باشا ابراهيم » ٠

ـ ابراهيم أعور ، وقد يسرقونه من جهة العين التي لا يرى بها ٠

ـ ولماذا لا ننتخب « حتسوك » ؟ انه ضليع في الامور المالية ٠

ـ ألا تعرف لماذا لا نريد أن ننتخبه ؟ انه يفهم في الامور المالية ، ولكنه يعرف أيضا كيف ينفق النقود ٠٠ سامحني يا رب ! اظن أن موسى هو الذي اقترحه على العمدة ٠

ـ وماذا يستفيد موسى من ذلك ؟

ـ سيستمع معه الى صوت الموسيقى الصادر عن القفل ٠

ـ وماذا تخسر انت ؟ فليستمع ٠ ولكن من الذي اقترح المرشح الآخر أيضا ٠ انه غومار بدون شك ٠ أحسن أمين صندوق بالنسبة له هو من لا يفهم شيئا حتى يكون طوع بنانه ٠

ـ ألا يوجد رجال في القرية غيرهما ؟٠ دعونا ننتخب واحدا آخر ٠

ـ قل لي ، من ترشح غيرهما ؟٠

ـ دعونا ننتخب نورعلي ٠

وضج الجمع : « سننتخب نورعلي ، كيف لم يخطر ذلك ببالنا الى الآن ؟ » وأخذوا يضحكون معلقين على اختيارهم الذي ما لجأوا اليه الا نكاية بالعمدة ، وهكذا تم انتخاب نورعلي أمينا للصندوق ٠ ومما ساعد في انتخابه أيضا أن المرشحين كانا من عائلتين متنافستين ، فلم يقبل أي منهما أن ينسحب لصالح الآخر ٠ كانوا يعرفون « حتسوك » جيدا ، « سيبيعك ويشتريك دون أن تدري » وبالاضافة الى ذلك فانه من أصدقاء موسى المقربين ، « صحيح أن نورعلي ليس من الاذكياء ، ولكنه لا يشرب الماء من أنفه أيضا » ٠

وهكذا انتصر نورعلي ، وصار من حقه أن يستلم مفتاح « صندوق الحكومة » في نفس اليوم سواء رضي غومار ام لم يرض ، فاستدعى نورعلي الى مكتبه ٠ ولما كان ستيبان هو وحده الذي يعرف أسرار الصندوق، أخذ يدله عليها ٠ وتدافع الناس الى المكتب دون أن يوقفهم صياح العمدة وشتائمه ٠

كان « صندوق الحكومة » جديدا ، والقفل أبيض لامعا وكذلك المقبض٠ وعندما يفتح بابه ، ينبعث منه صوت موسيقي جميل « دزن ٠٠ دزن ٠٠ درن » وفتح ستيبان الباب وأغلقه عدة مرات حتى يرضي المتفرجين الذين

تزاحموا عليه ٠

واقترب الشباب من فوج قبارديا وهم على ظهور خيلهم من النافذة ، وأخذوا يطلون منها الى داخل الغرفة ٠ كان هؤلاء الفرسان يفهمون بعض « أسرار اللغة الروسية » لذلك قال أحدهم بلهجة العارف ٠ « ان في الصندوق عازفا » ٠

ـ أبوك هو الذي يعزف من داخل الصندوق ـ قال موسى مستهزئا ٠

وقال آخر محللا :

ـ صنعوه كذلك لحماية النقود ٠

ـ اي نعم ٠ وقد وجدنا الرجل المناسب لحفظه ٠ ان نورعلي الذي حافظ على ذهبه الى الآن ، قادر على المحافظة على هذا الصندوق دون أية صعوبة ٠

ـ سيضع ذهبه فيه ٠

ـ هذا أفضل ، سيزداد حرصه بذلك عليه ٠

ـ أتضعون الاموال والذهب في هذا الصندوق ؟

ـ أي والله !

ـ أقسم بالله ـ قال مسعود بطن الكبدة الذي لم يتكلم الى الآن ـ أنني أستطيع أن أحمله على كتفي وأهرب به ٠

ـ هل سمعتم ما قاله ؟ ـ صاح الحداد بوت من بين الجميع وكأن بطن الكبدة يتحداه هو ٠

ـ دعوه يجرب ، فقد يتمكن من حمله ٠ ـ قال ستيبان وهو يقود بطن الكبدة نحو الصندوق ٠

أحاط مسعود « صندوق الحكومة » بذراعيه الطويلتين وجذبه بكل ما أوتي من عزم ولكن « صندوق الحكومة » بقي في مكانه ولم يتزحزح ٠ فضج الجميع بالضحك ، بينما تراجع مسعود نادما وقد أحمر وجهه من الخجل ومن الجهد الذي بذله ٠

ـ أقسم انك لن تستطيع تحريكه حتى لو احضرت اباك معك ـ قال موسى معلقا ـ ليتك كنت تقدر على زوجتك بدل أن تبعثر جهودك في مثل هذه المحاولات ٠

ونظر مسعود الى موسى وأوشك أن يقول شيئا ، ولكنه اكتفى بأن يحملق فيه شزرا ٠

ـ ان ثورين لا يستطيعان تحريك هذا الصندوق ٠

ـ ليس المهم تحريكه ٠ لنفرض انك حملته ، فالى اين تذهب به ؟ المهم هو المفتاح ، اذا ضاع المفتاح ضاعت أموالك ـ قال الحداد بوت مدليا برأيه ـ انظروا الى قفله !

ـ أرنا المفتاح يا نورعلي ، أتظن أننا سنأكله ! ٠ يا لطيف ، اذا

أضعته ، فلن يستطيع أحد أن يصنع مثله • اياك أن تضيعه يا نورعلي ، ستقع القرية كلها في مازق • أتظن أن المحافظة على « صندوق الحكومة » بالامر اليسير ؟•
وهكذا صار نورعلي موظفا حكوميا هاما ، وأخذ يفتح باب الصندوق ويغلقه مستمعا الى الالحان التي تنبعث منه • بينما كان ستيبان يمازح الجميع •

ـ من يعرف لماذا يعزف الصندوق هذه الالحان ؟ ـ قال يلدار ـ اقسم أن ذلك ليس عبثا • انه مثل الكلب • الا ينبح الكلب عندما يدخل غريب الى الدار ؟ كذلك هذا الصندوق ، يعزف الموسيقى كلما امتدت اليه يد •
وأعجب موسى بما قاله يلدار :
ـ هل تظنون أن غومار اشتراه عبثا ؟ الخارجون على القانون في كل مكان ، والحرص مطلوب • ـ ولكن وجد بين الجمع من لم يعجبه كلام موسى ـ « لو لم يكن له صوت موسيقى ربما كان أرخص ، ماذا تفيد هذه الاصوات ! في القرية يفضل أن تقتني كلبا بدل أن تشتري صندوقا يعزف الموسيقى •
وكان من المستحيل ارضاء الجميع • وفتح نورعلي الباب للمرة الاخيرة ثم أغلقه ولف المفتاح بمنديل قذر ثم وضعه في جيبه •
وقال ستيبان الذي فهم سبب قلق الموجودين في الغرفة :
ـ انتبه للمفتاح ! اياك أن تضيعه •
ولم يجد الشيخ سعيد الذي لم يتكلم الى الآن أن من اللائق أن يخرج دون أن يقول شيئا :
ـ علقه بخيط جلدي وأربطه حول عنقك كالحجاب •
ـ أقسم أن هذا صحيح ، علقه حول عنقك كما تفعل سيدة آل شردان بالنقود الذهبية ـ قال غومار مؤيدا كلام الامام • وأخرج من جيبه قطعة خيط من الجلد وقدمها لنورعلي مضيفا ـ خذ ، اربط المفتاح بهذا الخيط • اقترب مني •
ولكن نورعلي رفض أن يقترب من العمدة • فحول عنقه كيس جلدي صغير يحوي بضعة نقود ذهبية ، واذا رآها العمدة طارت منه • لا ، لا يمكن أن يسمح لغومار بأن يمد يده الى عنقه •
ـ لا ، لا أستطيع أن اضعه حول عنقي • ـ رفض نورعلي رفضا قاطعا ـ وهل أنا مثل آل شردان ! وهل أنا امرأة حتى أضع حول عنقي ذهبا ! ثم ان هذا مفتاح حديدي كبير ولن يضيع مني •
ـ صحيح أنه مفتاح حديدي ، ولكنه أغلى من الذهب أيها الغبي •
ـ لن أضيعه ، لا تقلقوا من أجل ذلك • سأربطه الى حزامي وأحفظه في جيبي • عندما ذهبت الى استامبول رأيتهم يحملون ساعات ذهبية بهذه الطريقة •

وكان نورعلي يربط وسطه بحزام جلدي أسود قديم ورثه من الحاج يونس ، فرضي الجميع باقتراحه الاخير • وقال ستيبان ايليتش وهو يدافع عنه :

ـ لا تضغطوا على أمين الصندوق أكثر من اللازم •

وفي وقت متأخر من المساء ، عاد أهالي قرية « شعلمفوقة » الى بيوتهم راضين لانهم كانوا قد رأوا اليوم شيئا لم يروا مثله من قبل • وكان لديهم الآن ما يشغلهم : متى سيبدأ العمدة بجباية الاموال ؟ كم سيأخذ من الاغنياء ، وكم سيفرض على الفقراء ؟ ومتى سيجمعون الخيل ؟

## حملة شراء الخيل

عندما طلع الصباح ، ودع ستيبان ايليتش مضيفه وعاد الى مدينة « بسه كوابه » وبعد ذلك بيوم واحد انطلق نورعلي يتجول على بيوت القرية وهو يربط مفتاح الصندوق الى حزامه ، ويحمل أوراقا يقرأ منها المبلغ المترتب على كل واحد ، او ما عليه ان يقدمه من خيل وسروج وبرانس وغير ذلك من لوازم الفرسان • كانت المبالغ المفروضة على الناس كبيرة ، فارتفعت أصوات التذمر والشكوى • وأبدى بعضهم استعداده لتقديم الرشوة الى نورعلي فلم يكره ذلك ، وأخذ يفكر بشكل جدي بشراء خنجر شركسي جديد • وكيف يستحق منصب « أمين الصندوق » دون أن يعلق خنجرا في وسطه ! وكان نورعلي معجبا بعمله الجديد أكثر من عمله السابق في المطعم ، وربما فكر قريبا أن يشتري سيفا أيضا •

كان غومار وحده هو الذي حدد المبالغ التي يجب أن يدفعها كل واحد • أما نورعلي ، فما عليه الا أن يقرأ ما هو مسجل في القائمة • وكلما تذمر أحدهم كان يقول له : « اذهب وقدم طلبا اليه » وعندما يراجعه أحد ، لم يكن يسمح له حتى بمناقشة ما جاء من أجله :

ـ سأجعلك تفلح الارض بأنفك اذا لم تدفع في الوقت المحدد • لا تقل أنني لم أنذرك • هل فهمت ؟ ـ يقول غومار لكل معترض وهو يضرب بقبضته على الطاولة •

وأخذ الناس ، من خوفهم ، يستدينون أو يبيعون بعض ابقارهم ، ليسددوا ما فرض عليهم •

وبدأ نورعلي يفتح باب الصندوق ويغلقه ، وتصدح الموسيقى في مكتبه طوال النهار • وتراكمت الاموال في الصندوق ، وتصاعدت أفراح نورعلي•

وصار غومار يكثر التردد على بيت آل شردان منتظرا قدوم ابن قلشبي وشردان بيرد نفسه • ولكنه لم يكن يجد سوى الضابط الانيق

مرافق شردان ، والكاتب الاصلع ذي الرأس النحاسي الذي يعمل في مكتب ابن قلشبي ٠

أما الاخيران ، فكانا يزوران غومار في مقره كلما خطر لهما ذلك ويفتشان على أمين الصندوق ٠ وذات يوم أوعزا الى يرول فركب جواده العجوز وانطلق مناديا في القرية ، وفي القرى المجاورة « بأن من يود أن يبيع حصانا فليحضره الى الاجتماع الذي سيعقد في باحة مقر العمدة » ٠

وفي اليوم المحدد أخذ الناس يتوافدون الى مقر العمدة فرسانا يقودون وراءهم الجياد التي يريدون بيعها وعليها سروجها او بدون سروج ٠ أما لوازم الفرسان من برانس وأحزمة وغيرها ، فقد نقلوها بعربات تجرها الثيران او الخيل ، أو على ظهور الحمير ، كانوا يتصايحون ويحاولون أن يوجهوا ثيرانهم فتأبى أن تطيعهم ،ويشتد تزاحمهم ظانين أن من يصل أولا سيشترون منه قبل غيره ٠ ووقفت النساء والاولاد بجانب السياج الذي يحيط بالباحة للفرجة ٠

وعلى المرتفع الذي أمام مكتب العمدة ، وضعت طاولة كبيرة جلس وراءها السكرتير الاصلع وجندي يضع كتافيات ، بينما جلس نورعلي بينهما وهو يشد على وسطه خنجرا ويضع على رأسه قلبقا جديدا جميلا٠ ووضعوا أمامهم على الطاولة ، كومتين من العملة الورقية ٠ عملة « كيرنسكي » وعملة « رومانسكي » الملكية ٠ ومع أنهم لم يكونوا يعرفون القيمة الحقيقية لكل من العملتين ، فقد كانوا يدفعون بشكل تقديري ما يأمر به « المخمن » ٠ وكانوا يستفيدون ايضا من عملة « روستوف » وعملة « ترك قاله » فيدفعون كمية من كل نوع من أنواع العملة لكل من يشترون منه شيئا ٠ أما نورعلي فكان يعمل بهمة ونشاط ، مستمتعا بعمله الذي لم يكن يفكر بأي شيء آخر سواه ، وهو يمسح العرق عن جبينه بكمه بين آونة وأخرى ٠ بينما كان « المخمن » وغومار يتمشيان وكل واحد منهما يرتدي معطفا شركسيا جميلا ويتمنطق بخنجر مصنوع من الفضة ، يدققان في المعروضات ويسعرانها ٠ « اشترينا حصانك ، خذ منهم ثمانين روبلا » « البرنسان بستين روبلا ، مع السلامة » ٠ ويحاول كل من الشاري والبائع خداع الآخر ٠ ولكن من الذي يستطيع أن ينجح في خداع غومار ؟ فعندما يقطب جبينه وينظر الى البائع كان يسيطر عليه ٠ أما اذا قال « هذا يكفي، هات ما عندك » أو « كفاك ثرثرة ، انقلع من هنا » فلم تكن هنالك قوة تستطيع أن تجعله يغير رأيه ٠

وكان منهم من أحضر حصانا ليعرضه ويتباهى به لا ليبيعه ٠ فاذا صادفه غومار وطلب منه سعرا تعجيزيا ، غادره دون أن يتوقف عنده طويلا ٠ وعندما يرى المخمن حصانا جميلا تنبسط أساريره ، ويترك كل شيء ويبقى مدة طويلة يراقبه ٠ وكان بين الناس أيضا من جاء بحصان اصيل ، ولكن فيه عيبا غير واضح ويحاول جهده ليخدع العمدة ٠ وعندما

يبدأ صاحب مثل هذا الحصان بامتداح حصانه وهو يقسم الايمان المغلظة بأنه حصان لا مثيل له ، يكتشف المخمن الذي يفهم في أمور الخيل العيب فورا فتنتهي المساومة . وعندما يريد العمدة أن يحابي أحدهم ، كان يرفع سعر حصانه . وقد اشترى حصانين من موسى بهذه الطريقة ودفع له ضعف ما يساوي الحصان الواحد . ولكن المخمن لم يعجبه ذلك .

ـ خذ عني هذا القط ! ـ قال المخمن غاضبا ، ولكن غومار همس في أذنه شيئا ، فسكت الضابط .

وفي هذه الاثناء وصل فارس يمتطي حصانا من منطقة «كانجا أوز» (١) صغير الرأس مرفوعه . « هذا حصان شركسي كامل » قال المتفرجون وقد تحلقوا حوله وهم ينظرون اليه . ولكن موسى بدأ يبربر وقد شعر بالحسد :

ـ أقسم أن عمره لا يقل عن عشرين عاما . ان شكله الجميل خادع . انظروا اليه كيف يقف مثل مسعود « بطن الكبدة » وقفة العجول الحديثة الولادة !

ـ لقد مات أبوك حسرة لانه لم يكن يملك حصانا كهذا ! ـ قال مسعود غاضبا ـ لماذا تسخر مني دائما ؟ وفر سخريتك لزوجتك .

ـ عندما يتحدث الجميع عن الخيل يجب أن تسكت أنت يا بطن الكبدة. انك لا تفهم في الخيل اكثر مما تفهم في النساء . ـ قال موسى وهو يرد عليه بعنف .

كان موسى قد عاد يتكلم بصوت عال أكثر من المعتاد في هذه الايام، فقد أخبرته زوجته أنها حامل ، وهما بانتظار مولود جديد .

واستمرت عملية البيع والشراء على قدم وساق بالرغم من النزاعات الجانبية التي كانت تنشب هنا وهناك . وكان السكرتير الاصلع يسجل في دفتر أمامه ، اسم كل حصان وعمره وثمنه . ويسجل عدد البرانس والسروج وغيرها من لوازم الفرسان والى جانبها يسجل أسماء بائعيها وأسعارها . وكان نورعلي يعد النقود بأصابعه السوداء الغليظة التي يبصق عليها دون انقطاع .

وحين يستلم البائعون نقودهم ، ينظرون اليه وهم يتساءلون : « ألم يخدعنا يا ترى ؟ » ولكن كان من الصعب التأكد من ذلك لانه كان يدفع لهم بعدد من العملات لا يعرف هو نفسه قيمتها الحقيقية . فمن الذي يستطيع أن يعرف كم تساوي العملة القوزاقية التي أصدرها الاتمان « كراولوف » بالمقارنة مع عملة رومانسكي ؟ على أية حال ، كان كل من يستلم نقوده ، يطويها جيدا ثم يلفها بمنديله ويضعها في عبه ، ويذهب لينضم الى

(١) احدى مناطق شمال القفقاس .

مجموعة من الرجال يتحدثون عن الاسعار التي باعوا بها بضائعهم • وكانوا ينظرون باعجاب الى من حصل على سعر أعلى من الآخرين •

واقبل جراسلان الى السوق يجري وقد اوشكت عمليات البيع والشراء على الانتهاء ولكنه لم يلفت الانظار كسابق عهده • فقد تغير كثيرا بعد ان اقتلع ابن قلشبي فردة شاربه ، واصبح منطويا علـى نفسـه يتجنـب حضور الاحتفالات والمجالس العامة وخاصة في بيوت النبلاء • كـان نصف شاربه خفيفا ، وفوق شفته العليا ندبة كبيرة • ومع ذلك فما يزال يراعي آداب اللياقة عندما يلتقي بالناس ولكنـه يتجنب الحديث قدر الامكـان • ويكتفي بان ينظر الـى محدثيه نظرات باردة تنم عـن حقد دفين ممزوج بالحزن • ولم يعر جراسلان اي التفات للخيل التي اشتروها والتي كانت مربوطة على طول السياج • بل أخذ يدقق النظر في الخيل الاصيلة التـي احضرها اصحابها للعرض • وكان حصانه عاديا ، والناس مشغولون بمتابعة عمليات الشراء الاخيرة ، فلم ينتبه اليه سوى الضابط « المخمن » الذي كان يعرفه من قبل ، والذي خاف منه فاخذ يراقبه اينما ذهب وهو يقول في نفسه « ربما ينوي ان يفعل شيئا بنا » • اما جراسلان فقد تابـع فحص الخيل المعروضة وهو يقول لاصحابها بأنه ينوي ان يبدل حصانه • ولكن السوق كان قد اقترب من نهايته ، واخذ الناس يعودون الـى بيوتهم • وفي هذه اللحظة ظهر ستيبان واستيمر في السوق • ماذا يريدان يا ترى ؟ فليس لديهما ما يبيعانه ولكن عندما خيم الظلام اتضح ماذا يريدان •

## المتآمـــرون

كان من عادة ستيبان ايليتش ان يحضر معه شيئا لتيمبوت و « لو » • ولكن حبهما له لم يكن مـن اجل ذلـك فقط • بل لانه يمازحهما ، ويلقي النكات لاضحاكهما ، فيمتليء البيت حيوية ومرحا نتيجة لذلك ، وبالاضافة الى هذا كله ، فهو يملك يدين ماهرتين • ولم تقتصر مهارته على معالجة أمور « صندوق الحكومة » بل كان قادرا على صنع الاقفال ، وسن المناجل وصنع « السياخ » والفخاخ لصيد العصافير ، ورسم صورة حصان أيضـا اذا طلبت منه ذلك • والاهم من كل هذا هو قدرته على الاجابة عن كل سؤال تسأله اياه دون تذمر وكأنه لا يوجد شيء في العالم يخفى عليه •

وعندما جاء ستيبان اليوم ، استقبله الولدان وقد غمرتهما السعـادة ولكنهما صدما قليلا عندما وجداه على غير حالته ، فهـو جاد وحزيـن ، وبالاضافة الى ذلك ، دخل البيت متخفيا عن طريق البستان • ثم جلس مـع أستيمر وأخذا يتحدثان همسا ، في الوقت الذي أراد فيه تيمبوت و « لو »

أن يرسم لهما صورة غومار وجراسلان · أما يلدار فقد شعر بخيبة الامل لانه لم يعلق على قميصه المطرز كعادته · كان قد تعلم عددا لا بأس به من الكلمات الروسية ولكنه كان ينطقها على طريقة الحداد بوت الذي يعمل في محله ، وهو يضع حرف الياء امام كل كلمة فيقول « يستيبان » مثلا ، وينهي الكلمة غالبا بمقطع « سيا » معتقدا أنه بذلك يمسك باللغة الروسية من ناصيتها ·

وجلس يلدار يستمع الى حديث الرجلين بالروسية ، وهو قادر الآن على فهم الكثير مما يقوله الضيف ، فأخذ يتدخل في الحديث احيانا ليدلي برأيه، وكان ستيبان يستمع الى ملاحظاته بانتباه ، فهو معجب بذكائه ·

سمع وقع حوافر جواد في الطريق ، فقطع ستيبان حديثه وأخذ ينصت مفكرا ، وحذا الآخرون حذوه ·

ـ ان جيش شردان يستجمع قواه ـ قال ستيبان ·

وتنهد أستيمر بعمق ، بينما قال يلدار وعيناه تلتمعان :

ـ يجب أن نرغمهم على الترجل عن خيلهم ·

ـ انت على حق يا يلدار · هذا ما يجب أن نفعله ·

ـ لا بد أن نجد وسيلة الى ذلك ·

ـ هنالك وسيلة ما · نعم ، هنالك وسيلة يا أستيمر ·

وفي تلك الامسية ، سمع أستيمر ورفاقه اسم « كيروف » لاول مرة ·

ـ انه مبعوث لينين نفسه · ـ قال ستيبان ـ ان لينين لا يختار مبعوثيه هكذا جزافا ·

ـ لينين ···!

ـ نعم · وأنتم المسؤولون عن نقل رأي البلاشفة الى الناس · كم واحد يأتي الى محل حدادة بوت في اليوم ؟· اذا نقل كل واحد منهم كلمة من عندك يا بوت ، فستنتشر آراؤنا بسرعة بين الناس · انقلوا رأي البلاشفة الى الجماهير « الارض لمن يعمل فيها » هذا ما يقوله لينين · ليعد الجنود الى بيوتهم فليس هنالك ما نقاتل من أجله · اذا كان النبلاء يريدون القتال ، فليقاتلوا بعضهم بعضا · هذا هو رأينا · هل فهمتم ؟ ·

وأعجب يلدار بفكرة « فليقاتل النبلاء بعضهم بعضا » ·

ـ البلاشفة عديدون في قبارديا وفي داغستان وعند القوشمة وفي كل مكان · ومن واجبنا جميعا أن ننفذ اوامر كيروف الذي يتلقى اوامره من لينين مباشرة · هل أنتم موافقون على ذلك ؟

ـ أقسم اننا موافقون ـ قال يلدار متحمسا ·

ـ لن نتراجع ابدا يا ستيبان ·

ـ لن نتزحزح خطوة واحدة عن مواقفنا ما دامت الارض ثابتة تحت أقدامنا · ـ قال بوت مؤكدا ·

عندما نظر ستيبان الى وجه يلدار المتأجج ، عادت الى ذاكرته صورة رفيقه في المنفى « عندي ابن يا ستيبان وسيثأر لي » هذا ما قاله له مراد والد يلدار يوم وفاته • كم كان مفيدا لو كان معنا اليوم ، قال ستيبان في نفسه •

ــ ان دمي يغلي منذ زمن طويل يا أستيمر • أقسم برأس ابي الميت أنني لن اهدأ حتى اغلق ابواب بيت آل شردان • أليس هو الذي أرسل ابي الى سيبيريا ؟! انا لم أنس ذلك يوما واحدا • انني مع لينين • يجب القضاء على النبلاء • اليس هذا ما يقوله لينين ؟ هذا ما أريده أنا أيضا • أنا منذ هذه الساعة تحت امرة لينين ولن أتراجع • قل له هذا يا أستيمر ، اشرح له بالروسية ما أقوله •

ــ ولماذا لا تشرح له أنت ؟

ــ ان لغتي الروسية لا تساعدني على ذلك •

ــ ستيبان ، ان يلدار يعرف ما يريده تماما ، وهو معنا • انه رجل ، لم تخطىء بشأنه ، تستطيع أن تثق به ثقة كاملة ولن تندم على ذلك •

ــ ان قلبي يعرف هذا • لقد فهمت كل ما قاله يلدار ولو أنني لم أفهم كل كلماته •

كانت الجماهير قد تحركت في كل مكان وليس في قبارديا وحدها • واذا كان الناس لم يعرفوا مدى قوتهم الحقيقية الى الآن ، فانهم قد عرفوا ماذا يريدون ، والى اي جانب ينحازون • وفي هذه الليلة ، فهم يلدار ماذا يجب عليه أن يفعل ، ولذلك تفاهم مع أستيمر وستيبان بسرعة • ولشدة حماسه ، خيل اليه انه يملك قوة هائلة •

« يجب منع الثورة المضادة من تجميع قواتها ، وعرقلة عمليات شراء الاسلحة » كانت تلك المهمة التي أمر كيروف بتنفيذها •

ــ وكيف نحقق ذلك ؟ ــ سأل ستيبان •

فكر أستيمر وستيبان بذلك طويلا واقترحا عدة حلول ولكنهما لم يتفقا على حل معين • اذا جمعت الناس في محل يوت وخطبت فيهم ، وقعت بين يدي زالمجري • واذا اتفقت مع جراسلان وجعلته يسرق الخيل التي اشتروها، سيشترون غيرها من جديد •

وأطرق أستيمر مفكرا • اما يلدار فقد قال على حماسه المعهود :

ــ أوكلوا الي المهمة التي ترونها ، واذا لم أنفذها فأنا استحق ما تفعلونه بي • ــ وأخذ ينظر تارة الى ستيبان ، واخرى الى أستيمر • ثم هتف فجأة :

ــ أنا اعرف ما يجب علينا أن نفعله •

ــ ما هو يا يلدار ؟ هل فكرت بشيء عملي ؟

ــ يجب أن نستولي على « صندوق الحكومة » •

ونظر كل من ستيبان وأستيمر الى بعضهما ، بينما كان يلدار ينتظر

رأيهما على أحر من الجمر ٠

ـ أنا سأنفذ المهمة ، وسأجد لنفسي رفيقا ٠ ما عليكما الا أن تطلقا يدي ، أموال القرية والقرى المجاورة هي ملك للجماهير ٠ لماذا نشتري لهم بأموالنا العصا التي سيضربوننا بها ؟ قولا شيئا ٠

ـ أنت ذكي وجريء يا يلدار ٠

ـ ولكن هل هذا ممكن يا ستيبان ؟

ـ ليس ممكنا فقط ، بل هو حل نادر ٠ نحن بحاجة ماسة الى الاموال٠ اتظن أن كيروف غافل عما يجري ؟ فنحن أيضا نجهز جيشا ٠ وعلينا أن نعتمد على الموارد المحلية ٠

ـ أموال الجماهير يجب أن تنفق لصالح الجماهير ـ قال أستيمر موافقا ٠

ـ بقي علينا أن نجد طريقة للوصول الى الصندوق ٠

ـ سنهاجمهم ، ونستولي على الصندوق وننقله الى الجبل وهناك يفتحه ستيبان ـ قال يلدار ٠

لم يكن هذا الرأي قابلا للتنفيذ ٠ فصندوق الحكومة في حراسة عدد من الجنود ، والضابط المرافق ليس له من عمل سوى ذلك ٠٠ فما العمل ٠٠؟ يجب الاستعانة بنورعلي ٠ ولكن أستيمر لم يعجبه ذلك ولو أنه لم يستبعده ٠ وعاد الجميع يفكرون من جديد ٠ وأخذ ستيبان يفرك لحيته ، وأستيمر ينظر الى الارض ٠

ـ أتعرفون ماذا سنفعل ؟ ـ قال يلدار دون أن يفقد حماسه ـ لن يرفض لنا نورعلي طلبا اذا لوحنا له بالنقود ، فهي روحه ٠ فليأخذ الاموال من الصندوق ويحضرها لنا ، وسنعطيه ما يريد منها ونأخذ الباقي ٠

ـ وبعد ذلك ٠

ـ وبعد ذلك ليذهب ويقدم شكوى قائلا : لقد هجموا علي وسلبوا مني المفتاح ، وأنا سأوصل الاموال الى ستيبان ، وسيوصلها ستيبان بدوره الى كيروف ٠

ـ واذا أمسكوا به من عنقه وسألوه عن الذين هاجموه سيشي بنا جميعا ـ قال أستيمر معترضا ٠

ـ هذه ليست مشكلة ، فليقل لهم نورعلي ان يلدار هو الذي هاجمني ٠ سيهرب يلدار الى الجبل ، وليبحثوا عنه بعد ذلك حتى يشبعوا ٠ وسأدبر لك يا يلدار فيما بعد مكانا اخر ٠٠ قال ستيبان مؤيدا ٠

وبعد أن اتفقوا على الخطة ، أخذ يلدار ينتظر انتصاف الليل بفارغ الصبر ٠ ولم يكن يشك أبدا في نجاح العملية ٠ هل يمكن أن يتردد نورعلي في تنفيذ عملية يحصل منها على نقود ! سيأخذ الاموال أولا ، وبعد ذلك سيجد طريقة ليدبر بها أموره معهم ٠

وبعد أن رأى ستيبان تصميم يلدار وثقته بنفسه ، قام وقد انفرجت أساريره وهو يقول في سره : « هذا الشاب سيصير رجلا حقيقيا » • قبل أيام قليلة كان الناس ينظرون الى ستيبان باعجاب لامتناه عندما جلب « صندوق الحكومة » وها هو الآن ينظر بنفس الاعجاب الى يلدار مقدرا شجاعته وذكاءه • وكان ستيبان قلقا رغم أنه حاول اخفاء ذلك • « من الممكن أن يخدعنا نورعلي ، وبعد ذلك يضيع كل شيء ، وسنفقد هذا الشاب الشجاع دون مقابل » ولكن يلدار كان حاسما في تصميمه ، فقام الجميع وتصافحوا وهم يبتسمون •

ـ عمليتنا لا يستهان بها • انها أول امتحان عملي لطاقاتنا • ـ قال ستيبان •

ـ أية خطوة في غير مكانها ، أو زلة لسان ، وينتهي كل شيء •

ـ أنا أفهم هذا ، أفهمه جيدا • ـ قال يلدار بالروسية •

ـ وهكذا ، نحن الثلاثة متفقون ومتفاهمون على كل شيء • تعالوا نقسم اليمين بأن نبقى على الطريق معا ، ونتابع القضية باستقامة وشرف • وليسمع أولادنا ذلك • لا تنس ما تسمعه اليوم يا تيمبوت • وأنت يا دومسارا ، رأيت وسمعت كل شيء • سنبقى متضامنين مهما حدث لنا •

وشد أستيمر اذن الولدين مرارا ، ونبههما أن لا يرويا لاحد كلمة واحدة مما سمعاه • وكانا متعبين فناما بمجرد أن أويا الى فراشهما • ونامت دومسارا أيضا •وكانت القريةكلها قد نامت عندما تسلل يلدار منالبيت وغرق في العتمة • وتمدد ستيبان ايليتش محاولا النوم ولكنه لم يستطع ، بينما بقي أستيمر جالسا • وكلما سمع الرجلان حركة أو صوتا كانا يصيخان السمع بانتباه •

وتقدم الليل ، ولكن يلدار لم يعد • ما الذي أخره الى الآن ؟ هل هرب نورعلي للاخبار عنه واضطر للحاق به يا ترى ؟ ولكننا كنا سمعنا شيئا فالبيت قريب • وفي هذه الاثناء تسلل أحدهم الى الغرفة • فقد عاد يلدار •

ـ أقسم برأس أبي أن العملية ستنجح •

ـ على مهلك •

ـ لقد اتفقنا • اعتبروا أن صندوق الحكومة أصبح في أيدينا • وجدت نورعلي نفسه يفكر في سرقته ، ولكنه لم يكن يجد طريقة مناسبة لذلك • وهكذا اتفقنا دون صعوبة •

ـ ألا يمكن أن يكون في الامر خدعة ؟•

ـ لا داعي للقلق من هذه الناحية • ـ قال يلدار ـ لن يكتشف أمركما مهما حدث • لم أجعل نورعلي ينتبه الى شيء مما خططناه • وزيادة في الحيطة لم آت الى هنا مباشرة بل اتجهت جنوبا ودرت حول القرية ، ولم أصادف أي انسان •

ـ أنت في غاية الحرص يا يلدار ـ قال ستيبان معجبا ٠

ولم يبق عليهم الآن سوى تحديد الموعد ٠ وبعد ذلك يباشرون بالتنفيذ دون ابطاء ٠ وقد قرروا أن من واجب ستيبان أن لا يظهر في القرية هذه الايام حتى لا يلفت الانظار ، وعليه أن يرحل فورا ويعود الى مدينة «بسهكوابه» ٠

أوشك الفجر أن يطلع ، وبدأت الكلاب تنبح ، وسار أستيمر عبر البستان الذي يقع خلف الدار ٠ كان الجدول الصغير يتسلل دون ضجيج ٠ وتذكر أستيمر اليوم الذي تشاجر فيه مع الحاج يونس وتسلل الى البستان ليغسل جرحه في هذا الجدول ٠ في ذلك اليوم ولد الصغير « لو » ما أسرع مرور السنين ٠ وكم وقعت من أحداث منذ ذلك الحين ، والاحداث التي سيشهدها « لو » وأقرانه أهم وأكبر ربما ٠٠ أليسوا محظوظين ! اذا نجحنا فيما نعمل من أجله ، فستصبح الحياة جديرة بأن تعاش حقا ٠

وعند الجدول تعانق ستيبان وأستيمر دون كلمة وتصافحا بحرارة ٠ وعندما قفز ستيبان من فوق الجدول بخفة واختفى بين الاشجار ، قال أستيمر وهو ينظر نحو رفيقه : « حماك الله » ٠

## الذين نجحوا

ـ وماذا عن نورعلي ؟ ماذا يريد أن يفعل بنقوده ؟ ـ سأل أستيمر ٠
فقال يلدار : « ان نورعلي لم يعد يفكر برأسه » كان هذا الانطباع السريع حقيقيا ، فالمال افقد أمين الصندوق صوابه تماما ٠

بعد أن فاتحه يلدار بموضوع الاستيلاء على الاموال التي في صندوق الحكومة ، لم يغمض لنورعلي جفن طول الليل ٠٠ كانت الافكار في رأسه تغلي غليان « الباخسمة » في البرميل الخشبي المغلق ، وأصبح عاجزا عن الاستقرار في مكان واحد فأخذ يدور في أرجاء البيت وعيناه لا تريان الارض التي يقف عليها ٠

حتى لو أقسم على أن ينقض اتفاقه مع يلدار ، فلم تكن هنالك قوة في العالم تمسكه عن الحنث بيمينه ٠ ذلك لانه أمضى حياته كلها وهو يحلم بالمال ٠ ولكنه كان في نفس الوقت مترددا خائفا من اكتشاف أمره ٠ لقد وصل الى الحالة التي يقول عنها المثل : « البارد يحرقني كما يحرقني الساخن » قال نورعلي لنفسه ٠ أما غومار فقد غدا لا يطاق منذ أن أصبح قيما على « صندوق الحكومة » وعمد الى فرض غرامة جديدة على كل من لا يصلي في الجامع ٠ وزادت بذلك كمية الاموال التي تدخل يوميا الى الصندوق ٠ لم يكن عدد الذين يترددون على الجامع حتى أيام الجمعة كبيرا ، ولكنهم وجدوا أنفسهم مضطرين للذهاب الى الجامع هربا من الغرامة ٠

ووجد نورعلي من ذلك حجة جديدة يبرر بها لنفسه ما أزمع على القيـــام به • « لماذا يجب أن تذهب الاموال التي يدفعها المسلمون الى جيب غومارا » ولم يكن غومار يتوقف عند هذا الحد • كان يأتيه بين الحين والآخر ويقول له « هات • افتح هذا الشيء • كيف تذهب لمقابلة الحاكم وليس في عبـك روبل واحد ! » •

ـ ستخرب بيتي • أعطني ايصالا على الاقل ـ عارض نورعلي عـــدة مرات • ولكن العمدة لم يقبل •

ـ « لا توجع رأسي » ! قلت لك افتحه • ـ هكذا كان جوابه دائما •

عندما يستولي العمدة على الاموال التي في الصندوق تدريجيا بهـــذه الطريقة ، فمن الذي سيخربون بيته ! أليس نورعلي نفسه ؟ آه لو كنـــت قادرا على الشكوى • ولكن الى من تشتكي « اذا كان الامام نفسه هو الذي اختطف أمك » كما يقول المثل • اذا بدرت منك كلمـــة شكـــوى واحـدة هسيحرقونك • من الافضل ان تبقى صامتا • ولكن ماذا سيحصل لك اذا جاء بعض المسؤولين واكتشفوا أمرك ؟ انني ضائع في جميع الحالات فما العمل !

ألن أندم اذا لم أنفذ اتفاقي مع يلدار ؟ فمتى تحين مثل هذه الفرصـة فيما بعد • وأين تجد من يتحمل مسؤولية ما يحدث مثل يلدار ؟ هل قضـت أرادت الله أن تنتهي متاعب نورعلي تعويضا له عما عاناه طوال حياته من ذل وبؤس ؟ لماذا لا يأخذ حصته من الاموال ويختفي من القرية ليفتح مطعما في أي مكان لا يعرفونه فيه ! أليس هو مثل الآخرين ، وبماذا يفضله رحيـم وموسى ؟ • وبعد أن تستقر أحواله ، اليس من السهل ان يجد زوجة له • يا الهي ! لماذا تعذبني هكذا ! لماذا لا تهديني الى الطريق الصحيح ؟ •

وكاد نورعلي يضيع في دوامة دون أن يستقر على رأي نهائي • ولانـه كان جبانا ، داهمه الخوف كلما صمم على شيء معين ، وأمضى ليله مسهدا في حالة يرثى لها • وفي النهار جاء غومار اليه وقال « هات أربعمائة روبل » وحصل العمدة على ما يريد ، ولم يستطع أمين الصندوق معارضته • وكـان العمدة في مثل هذه الاحوال يتجه الى المدينة أو الى دار آل شردان ويختفـي طوال النهار •

وأحصى نورعلي ما بقي في الصندوق من أموال ، لم تكن قليلة • ليته كان يملك هذه الكمية دون اللجوء الى مغامرة لا تحمد عقباها •

وعاد غومار في وقت متأخر من مساء ذلك اليوم الى مكتبه ، وأغلـق الباب وراءه وبدأ يخرج من عبه رزم النقود دون أن يشعل الضوء ، ويضعها على الطاولة • كانت هذه الكمية أكثر بعشر مرات ، وقل عشرين مرة مـن مجموع الاموال التي استلفها من نورعلي •

ـ ضع هذه الاموال في الصندوق يا نورعلي • واياك ان تنسى من أنت ، ومن أنا • اذا عصيت أوامري وجعلتني أغضب ، انتهت مهمتك في أمانـــة

الصندوق • أتظن ان الآخرين لن يأخذوا شيئا أيها الاحمق ؟ أقسم أنني سأوزعها على الشياطين اذا أردت • هيا أحصها وضعها في الصندوق •

لم يكن نورعلي قد رأى طوال حياته مثل هذه الكمية من الاموال سوى في مصرف في نيويورك • وكانت تلك الكمية محاطة بشبك حديدي ولم يكن يعرف صاحبها • وهل كان باستطاعة نورعلي أن يلمسها حتى لو قامت القيامة ؟ أما هذه الكمية التي وضعها غومار على الطاولة ، فهي تحت تصرفه • واشتعل نورعلي هياجا ، وأخذت عيناه تلمعان •

ـ بعد عودتك الى البيت ، اذهب الى يرول • هل فهمت ؟ وقل له أن يأتي للحراسة الليلة • وعليه أن يذهب غدا الى «قورشوقوي» و « قلشيي حبله » و « شجم » ويبلغهم أن شردان سيزور بنفسه هذه القرى لشراء الخيل بعد غد • أفهمه ذلك جيدا • ـ قال غومار بلهجة آمرة •

وبقي العمدة ينتظر انتهاء أمين الصندوق من عد النقود • ولكنه كان قد شرب أكثر من المعتاد ، وبدأ النعاس يغالبه • وكان نورعلي يلتفت اليه بين الحين والآخر وهو يحصي النقود •

وعندما جاء يلدار الى بيت نورعلي حوالي منتصف تلك الليلة ، كان كل شيء قد انتهى • ووجده يجلس في غرفته المظلمة وهو يقلب رزم النقود التي كومها في صحن كبير من الفخار •

ـ هذه لي ، وهل هذه ايضا لي ؟ ـ كان نورعلي يثرثر وعليه كل مظاهر الجنون ـ هذه لك • خذ • هات • هات قبل أن يلقوا القبض علينا • هذا كثير • أنا لا أريد كل هذه الكمية • أين سنضع كل هذه الاموال ؟ • سنضعها في العش • هل طرق أحد الباب ؟ نعم ؟ •

وفهم يلدار أنه لا ينبغي أن يتأخر • فمن الافضل له أن يأخذ الاموال ويرحل بأقصى سرعة •

ـ أين مفتاح الصندوق يا نورعلي ؟

ـ لقد أضعته • ماذا تريد به ؟ •

ـ كيف أضعته ؟ •

ـ رميت به في البئر التي تشرب منها الخيل • من الذي سيبحث عنه هناك ؟ لن يستطيع أحد أن يجده • ـ كان يبدو على نورعلي وهو يتكلم، أنه مصاب بالبرداء •

ـ أظن أنك فقدت صوابك أيها المجنون • هل أخذت كل ما كان في الصندوق ؟

ـ طبعا ، طبعا يا أخي • لم أترك شيئا • هذه لك ، وهذه لي • يجب اخفاء الكل • هل تستطيع العصافير أن تخبر عنك !

عندما دخل نورعلي الى الاسطبل باحثا عن مكان يخبىء فيه النقود ، طارت سنونوة من عشها فأرعبته ، وخيل اليه ان نسرا أسود ينقض عليه، وعندما زال الخطر واستجمع انفاسه ، فكر بأن يخبىء النقود في عش طائر

على الشجرة العالية في صحن الدار • كان قد فقد توازنه العقلي تماما •وكان يهمس أحيانا « حتى الطيور تناديني » •

ولما كان يلدار قد أدرك الموقف كله ، فقد كان على عجلة من أمره • ونظر الى الطبق الفخاري الكبير الذي هو افضل ما يملكه نورعلي من أواني، والذي وضع فيه النقود • وسحب نورعلي بعض الخرق البالية من مكان ما ، وأخذ يلف بها الرزم التي اعتبرها له •

ـ لا تأخذ كثيرا يا نورعلي ؛ لن تستطيع اخفاءها • من الافضل ان آخذها أنا • ووافقه نورعلي على الفور :

ـ خذها يا أخي العجوز • أين اخفي كل هذه الكمية ؟ خذ • سأضع حصتي أنا في العش •

ـ أنت على حق • ان العش لن يتسع لكمية كبيرة • ولكن اياك أن تنطق بكلمة واحدة ، والا فاقرأ على روحك السلام • ـ قال يلدار وهو يجمع رزم النقود •

وحتى يتخلص يلدار من رفقة المجنون •جمع رزم النقود بسرعة وربطها بقطعة من القماش ووضعها في عب قميصه الذي كانت ساريمة قد طرزته له ثم قال وهو ينصرف :

ـ نورعلي ، اغلق الباب بعد أن اخرج مباشرة ، ولا تخرج ورائي • أفهمت ؟

ـ وكيف لا أفهم • يا الهي ! ما أكبر المشكلة التي نحن فيها •

كانت ليلة مقمرة باردة ، وكان أستيمر ينتظره على الجانب الآخر من السياج الذي يحيط بدار نورعلي ومعه بندقية وحقيبة كتف فيها بعض الزاد • ولم يكن يصدق ان كل شيء سينتهي بمثل هذه السهولة •

ـ ماذا جرى يا يلدار ؟

ـ نجحت العملية • ان الله يساعدنا •

ـ وهل حصلت على كل شيء •

ـ ملء طبق من الفخار • لقد جن نورعلي •

ـ انه نصف مجنون منذ زمن طويل • هل أفرغ الصندوق ؟

ـ يقول انه لم يترك شيئا •

ـ هل بقي في البيت •

ـ انه جالس بجانب الطبق وهو يهذي • نقود ، عش ، عصافير • وبكلمات غير مفهومة • الى اللقاء • ان الله معنا • سأذهب الى « بسه كوابه » كما اتفقنا • وسأجد ستيبان ولو كان تحت الارض • لا تقلق من اجلي • لن ينالوا مني ما دمت حيا • أحرص على ساريمة •

ـ كن مطمئنا عليها • ان دومسارا تحبها كابنتها •

ـ اذا ضايقوك اهرب الى « بسه كوابه » أنت أيضا •

ـ سنرى ما يحدث ٠

ـ سنعود معا بالتأكيد فيما بعد ٠

ـ هيا انطلق الآن ، لن استطيع توديعك الى خارج القرية ٠ يجب ان تخرج قبل أن يطل القمر من جديد وراء الغيوم ٠ البندقية محشوة ، انتبه٠ أليس من الافضل أن تضع النقود في الحقيبة ٠

ـ لا ، أفضل أن أبقيها في عبي ٠ مسكين نورعلي ٠ لقد جن تماما ٠ هذا أيضا بأمر من الله ٠ ربما كان ذلك أفضل لنا ٠

ـ الله وحده يعلم ما هوالافضل لنا ٠ يجب أن نسلم بمشيئة الله ٠

رتب يلدار رزم النقود في عبه جيدا ٠ وتناول البندقية وحافظة الرصاص من أستيمر وانطلق في طريق البستان الخلفي ٠ واختفى في عتمة الليل ٠

ـ سنرى ما يحدث ٠ ـ قال استيمر مهموما ـ وبعد أن انتظر قليـــلا يستمع الى الضجة الخفيفة التي يحدثها يلدار وهو يقفز من فوق الجـــدول ويجتاز السياج ، دخل الى البيت ٠

ـ لماذا لا تنام ، ولا تدعنا ننام ؟ ـ قالت دومسارا ـ أنت تقوم بأعمال خطيرة ٠ كان الله في عوننامن نتائج ما تعمل ٠ عندك اولاد ، وبيت ٠ لمـــاذا لا تستقر في بيتك وترحمنا ؟٠

ولم يجب أستيمر بكلمة ٠ كانت دومسارا على حق ٠ ولكنه كان يفكـر بشيء آخر ٠ ليتني رحلت مع يلدار ٠ اذا عرفوا أنه هو الذي افرغ الصندوق، سيمسكون بي من تلابيبي ٠ وغرق في أفكاره حتى أوشك النهار أن يطلـع وبدأت الديكة تصيح ٠

ـ دومسارا ! يجب أن تفرحي اذا لم نجلب لك المزيد من المتاعب ٠ مـا زال أمامنا الكثير ٠ نحن بالكاد بدأنا ٠

ـ وهل أنت الذي بدأت ؟

ـ أنا ؟ الثورة هي التي بدأت ٠

ـ الثورة هي ما كانت تنقصنا ٠ ـ قالت دومسارا وهي لا تدرك تمامـا معنى الكلمة ٠ ولكنها كانت تدرك بغريزتها أنها تعني أمرا خطيرا ٠ « ان الجدة على حق ٠ لقد اقتربت الساعة ، فما طعم الحياة التـــي نعيشهـــا الآن » ٠

ولم يكن حتى أستيمر نفسه يفهم بوضوح تام ماذا ستجلـــب لهـــم الثورة ، ولكنه كان يدرك أنه على حق ، نتيجـــة لمـــا رآه وسمعه فـــي روستوف ، وما فهمه من ستيبان الذي كان يشعر أنه يعبر عما في نفسه هو عندما يستمع اليه ٠ وكان قد أعجبه أكثر من أي شيء آخر قول ستيبـــان أن كل قرية سيصير فيها مدرسة وستكون فيها كتب باللغة الشركسية ٠

ـ دومسارا ! ألن تفرحي اذا بنينا في القرية مدرسة كبيرة ، وأخـــذ تيموت و « لو » يذهبان اليها ؟

ـ ومن الذي سيبني تلك المدرسة ؟

ـ سنبنيها نحن • أتظنين اننا لن نستطيع ذلك ؟ هذا يا عزيزتي ما نسعى اليه • من أجل هذا لا ننام ملء جفوننا • انظري واسمعي • سترين بعينيك كيف نحقق ما نسعى اليه •

ـ ليت ذلك يحدث • وهل انا التي لا تحب ذلك ؟

## ضجـــة كبـــيرة

جاء غومار الى مكتبه مبكرا في صباح ذلك اليوم • ولـــم يكن أمـين الصندوق قد وصل بعد • والتقى بيرول الذي كانت مهامه قد زادت مهمـة جديدة بعد أن بدأت الاموال تتكدس في الصندوق • وصار لزامـــا عليه أن يشارك الجنود في حراسة الصندوق •

ـ اركب « حمارك » واخرج للنداء ـ قال العمدة مقطبا ـ سينعقد سوق لشراء الخيل في كل من قرى « قوشروقوي » و « قلشبي حبلة » و « شحم » أوصل الخبر اليهم • لماذا تنظر الي هكذا ؟ الم يخبرك نورعلي !

ـ أقسم انني لم التق بأمين الصندوق •

ـ كيف لم تلتق به ايها اللعين ؛ لقد أوصيته البارحة أن يخبرك • هيا انقلع الآن •

وعرف غومار أن يرول لم يقابل أحدا ، ولم يقل له أحد شيئا ، فشعـــر بالقلق ؛ وأسرع الى الصندوق وأخذ يفحصه ، وينقر عليه بأصابعه الغليظة، ولكن أنى له أن يعرف شيئا بهذه الطريقة •

في وقت مبكر من الضحى ؛ كانت الكلاب قد أفاقت من اغفاءتهـــا الاخيرة ،وخرجت اسراب الدجاج تبحث عن طعامها في المزابل • وكانت النسوة قد انتهين لتوهن من حلب بقراتهن • وأخذت كتل صغيرة من الدخان تتصاعد من المداخن المنتصبة فوق أسطحة المنازل ، وتملأ أزقة القريـــة برائحة الروث المحروق •

وخرج يرول ينادي حصانه وهو يسير الهوينا على طول الشارع الرئيسي في القرية • وأجفل استيمر عندما سمع صوت المنادي وقفز من مكانه ليقـف بجانب النافذة • كان أستيمر قد قضى ليلته دون أن يخلع ملابسه تحسبـا لاي طارىء • الله أعلم بما يخبئه لنا اليوم ، قال في نفسه وهو ينظـر الـى أشعة الشمس المنعكسة على الجبال البيضاء • الى أين وصل يلدار الآن يا ترى ؟ قد يلتقي بمن لا يستحب اللقاء بهم • ليته يلقى ستيبان بسرعـة ويسلمه النقود • وكيف يخبر دومسارا بأن عليه أن يهرب من القرية مجددا • أخذ أستيمر يفكر بهذه الاشياء وهو يستمع الى صوت يرول الـــذي كـان

يتلاشى تدريجيا ويطغى عليه نباح الكلاب كلما ابتعد . وبعد أن اختفى صوته نهائيا سمع صوت ساريمة من ناحية دار ديسة . كانت ذاهبة لجلب الماء . وسمع صوت نورعلي وكأنه يكلم أحدهم . وخرج الى البستان وتوجه الى الجدول يستطلع الموضوع . وغسل يديه ووجهه بالماء البارد ، ثم اقترب من السياج الذي يفصل البستان عن دار نورعلي . فرآه يتسلق شجرة ويهذي ويبربر بكلمات غير مفهومة . كان في أعلى الشجرة عش بحجم قبعة ، وما أن اقترب نورعلي منه حتى اندفع منه طائر وحلق عاليا .

ـ ما زالت في العش . أموالي ما زالت في العش ـ قال نورعلي غير مبال بملابسه التي تمزقت ـ مشكلتنا عويصة ، يا الهي .

وفهم أستيمر بعض كلمات نورعلي . كانت مشكلته قد تعقدت فعلا .

وفي هذه اللحظة وقف يرول بجانب دار نورعلي وهو على ظهر حصانه . كان متعبا ، مبحوح الصوت .

ـ نورعلي ... يا أمين الصندوق ... ! هل تسمعني . غدا توجد حملة لشراء الخيل . الجنرال الذي يسمونه كراولوف يجهز جيشا وهو يطلب خيلا أتسمعني . تعال معي الى مقر العمدة . غومار هناك بانتظارك ، لا تتأخر . سيغضب العمدة . أتسمعني ؟.

وعندما سمع نورعلي صوت يرول أصيب بالذعر والتصق بجذع الشجرة عاجزا عن النطق . وكان أستيمر يراقبه وهو لا يقل عنه قلقا . وكيف لا يقلق وكل علامات الجنون واضحة على نورعلي .

وقف يرول عند البوابة دون أن ينتبه الى حالة نورعلي ، وبقي على ظهر حصانه دون أن يفهم سبب صمته . وعندما سأله :

ـ هل تفهم ما أقوله ؟ ـ فر هاربا واختبأ وراء دغلة قريبة في البستان.

ورغم أن يرول كان على عجلة من أمره ليعود الى مقر العمدة ومن ثم الى بيته ، فقد ترجل ودخل دار نورعلي ليستطلع جلية الامر .كانت الفوضى تعم البيت . نادى على نورعلي عدة مرات ولكنه لم يلق جوابا . فعاد أدراجه . وقال أستيمر في نفسه « ان الامور تسير لصالحنا ، فبعد جنون نورعلي لن يعرفوا مصير الاموال التي كانت في الصندوق » .

وعندما وصل الخبر الى مقر العمدة ، قامت ضجة كبيرة . غضب غومار غضبا شديدا . وانتشرت اشاعة تقول بأن نورعلي سرق الاموال التي كانت في الصندوق واختفى . فخرج أهالي القرية من بيوتهم . وعجت باحة مقر العمدة بالناس ، وكأنهم جاؤوا يطالبون بنقودهم التي كانوا قد أودعوها في صندوق نورعلي . وأخذ الجميع يتساءلون : كيف استطاع الهرب وهو لا يملك حصانا ؟

واختلفت الآراء . فبعضهم يقول : أرسلوا في طلب الحداد بوت ، فلا احد يستطيع فتح الصندوق سواه . وبعضهم الآخر يقول : ان يلدار أيضا

يستطيع فتحه • بينما يقول آخرون : استدعوا « تشاتشا » لتربط الصندوق بأدعيتها وحجبها السحرية حتى لا يستطيع غريب فتحه • وكان المسنون يقتربون من العمدة ويسرون اليه أن من الافضل ارسال فرقة لمطاردة السارق دون ابطاء • أين يستطيع أن يختفي هذا اللعين ! هل سيدخل الى باطن الارض ؟

ووصل بوت ، وبعد أن فحص « صندوق الحكومة » جيدا قرر : « يجب تحطيمه » ولكن بلاتسة رفض : « من الافضل أن ترسلوا من يطارد السارق ويمسك به ، لا يجوز تحطيم الصندوق الا اذا أعيتنا الحيلة • وعندها نصعد به الى الجبل ونلقي به فينفتح بكل بساطة » بينما وقف آخرون يتناقشون حول جدوى صوت الموسيقى الذي كان ينبعث منه • أنه صامت الآن • كلب مدرب كان أجدى من هذا الصوت •

وكان غومار لشدة قلقه وانفعاله ، قد أصبح عاجزا عن فهم اي شيء يقال له • أو التفكير بحل معين •

ـ أرسلوا من يبحث عنه في محطة القطار فورا • أراهن على جدع أنفي أنهم سيجدونه هناك ، لقد سافر من قبل الى أمريكا عن طريق المحطة • أقسم أنه عائد الى هناك ثانية هذا الكافر • آه منه ـ قال موسى وهو يغرز عصاه في الارض الرخوة ثم يسحبها ـ ألم أقل لكم يا غومار أنه لا يصلح أمينا للصندوق ؟ ولكنكم لم تسمعوا مني • لو أننا انتخبنا بتوقة ، ما كان ذلك ليحدث لكم •

ـ اغرب من وجهي أنت ايضا ! ـ قال غومار غاضبا •

وأرسلوا عددا من الفرسان • سلك بعضهم طريق « بسه كوابة » بينما سار آخرون في طريق « قالة كيخ » ولكن لم ينقص عدد المتجمهرين في باحة مقر العمدة •

وبقي « صندوق الحكومة » منتصبا في زاوية مكتب العمدة كسابق عهده • وعاد الفرسان بعد الظهر دون أن يجدوه • « وهل الارض قد انشقت وابتلعت نورعلي ؟ » وأخذ الناس يطلقون الشتائم • ووصل من المدينة على عجل ضابط روسي ليحقق في الموضوع • ولكن كان عليه أن يفتح الصندوق أولا حتى يستطيع البدء في التحقيق • من يستطيع أن يفتحه ؟ لا يوجد أحد يستطيع أن يفعل ذلك سوى ستيبان ايليتش الذي يعيش في « بسه كوابه » ، اذن ، أرسلوا في طلبه • من ترون أن نرسله ؟ أستيمر ويلدار هما صديقاه من بين أهل القرية • ولكن أين يلدار ؟ لماذا لم يظهر بين الناس ؟ ورأى العمدة أن استيمر افضل لهذه المهمة فهو صديقه الحميم ويستطيع أن يؤثر فيه •

وأرسلوا فارسا في طلب أستيمر • فسرت قشعريرة في جسمه عندما رآه ظانا أنه جاء ليلقي القبض عليه • ولكن الفارس لم يكن يحمل سلاحا ،

ولم يبد عليه أنه يريد به شرا • فارتدى ملابسه على عجل وخرج •

نظر اليه الضابط طويلا ، وشرح له المهمة التي وضعها العمدة على عاتقه • ولم تكن هنالك مهمة أخرى يمكن أن تكون أحب الى قلب أستيمر من هذه المهمة • سينطلق لهذه المهمة بكل رحابة صدر وسيخبر ستيبان بما حصل من تطورات • واذا لم يكن يلدار قد انطلق الى الجبال ، فلا حاجة لان يختبيء بعد الآن • « يبدو ان الله يساعدنا حقا » قال أستيمر في نفسه واتجه نحو مدينة « بسه كوابه » •

# الفصل السابع

## نبأ هام

لم يكن من السهل متابعة الاحداث التي أخذت تتلاحق • ففي زمن الثورة تزداد وتيرة الاحداث سرعة •

حاول الضابط الذي أرسله شردان بيرد فتح « صندوق الحكومة » بالقوة، ولكنه لم يفلح ولم يجد الوقت الكافي لذلك • فحين اختل حبل الامن في المنطقة ، ترك بيت شردان الذي كان يقيم فيه وولى الادبار دون أن ينتظر « المعلم » الذي أرسلوا في طلبه من « بسه كوابة » وقد أقام الدنيا وأقعدها على تأخر الفارس الذي أرسلوه في طلب المعلم • فأرسلوا ابن بلاتسة الاكبر قازجري الذي كان جنديا في فوج قبارديا على جناح السرعة الى « بسه كوابه » ولكن لم يظهر له أثر أيضا ، فصب الضابط جام غضبه على العمدة •

عندما وصل قازجري الى « بسه كوابة » ، كان مؤتمر عموم سكان مناطق « ترك » قد أوشك على نهايته • ولما كان المؤتمر قد وافق على قيام سلطة السوفيات ، فقد أخذ المندوبون يلقون الخطابات في الشوارع أو من شرفات العمارات الجميلة ، وهم يلوحون بالاعلام الحمراء الكبيرة ، ويفرغون رشاشات الماوزر في الهواء • واحتدم النقاش بين الناس في الشوارع ، وكان النقاش يتطور في بعض الاحيان الى مشادات تسحب فيها الخناجر •• وكان يعيش في « بسه كوابه » عدد كبير من الشراكسة يعملون في بيع البرانس وصنع السروج وغيرها ، ولكن أحدا من الذين سألهم قازجري عن مكان أستيمر ، لم يهتد اليه • « ابحث عنه في المبنى الذي علق عليه أكبر عدد

من الاعلام الحمراء » هذا ما استطاعوا ان يجيبوا به · وكان ذلك المكـان المحتمل أن تجد فيه ستيبان ايليتش ايضا ·

كان من الصعب تقدير الموقف بدقة في تلك المدينة · فالنبلاء والامـراء الذين استجمعوا قواهم واستلموا السلطة في نالتشك من جديد ، رفضـوا مقررات مؤتمر « بسه كوابه » · لذلك وقف مندوبو قبارديا للمؤتمر ضد هذه المقررات · فكيف يخضع أمثال النبيل « شاجوقة » لسلطة السوفياتات ؟ انه ضد أي تحرك جماهيري على طول الخط · ولو استطاع « ما انبت فـي أرضهم حشيشا يكفي ثورين » كما يقول المثل · ولكن موقـف مندوبـي الجماهير كان حازما : « ان قبارديا لم تعد تريدكم · لا نريدكم ولا نريـد شرطتكم · اذهبوا الى الجحيم ·· اذا كنتم تريدون ان تخضعوا لسلطـة رئيس واغستان ـ ترك فاذهبوا اليه · نستطيع تدبير أمورنا بدونكم » ·· وأخذ شاجوقة يقسم الايمان المغلظة أنه هو الوحيد الذي يحق له الكـلام باسم قبارديا في المؤتمر ، وأن قبارديا ومنطقة القوشمة لن تخضعا لمقررات المؤتمر الثاني المنعقد حاليا في بسه كوابه · ورد عليه مندوبون آخرون وهم يصيحون « نحن نعرف جيدا السلطة التي سنخضع لها » · وكان من الصعب على من يدخل في مثل هذا الجمع ، ان يخرج منه · كان مندوبو الفقـراء والاغنياء يسيرون في الشوارع جماعات ، جماعات · وكان جميع المتكلمين ، سواء من الشرفات أو من فوق الحجارة الكبيرة ، يدورون حـول نفـس الموضوع ·

وانتقل النبأ الهام من « بسه كوابه » الى كافة القرى والمناطـق · ووصل الى قرية شعلمقوقة أيضا · وكيف يمكن أن يسكت دولت عن نقـل مثل هذا النبأ والتعليق عليه · واذا لم تنقل تشاتشا هذا النبأ من بيـت الى آخر ، فهذا معناه أن كارثة قد حلت بها · ولو كان دولت ممثلا جوالا ، لبدأ رواياته بهذا النبأ الذي لا مثيل له للاخذ والرد حوله · ولكن هيهات ما بينه وبين « الممثل الجوال النارتي »(١) أما تشاتشا فكانت مثل طائـر « الكيكوك » الذي يبحث عن عش طير آخر يضع بيضه فيه · تدخل كل بيت يصادفها ، وتفرغ ما لديها من أخبار بعد أن تزيد عليها ضعف ما سمعتـه ثم تنتقل الى بيت آخر ·

وأخذ دولت يتشاجر مع كل من يشكك بالاخبار التي يرويها ، ويصل به الامر أحيانا الى وضع يده على خنجره · وبعد أن ينشف ريقه وهـو يجادل ويناقش ويطلق الشتائم ، كان يتابع سيره مخوضا في الارض الرطبة التي لم تجف بعد تماما · وعندما يزيح فروته ، يظهر سرواله العريض من الخلف وكأنه مليء بالاخبار ، وتابعت تشاتشا أيضا تجوالهـا والاخبـار

---

(١) شخصية وردت في الاساطير النارتية ، تجمع بين المهرج والشاعر والناقد الاجتماعي ·

تتساقط من ثنيات ملابسها مع كل خطوة تخطوها ٠
والتقت دومسارا في طريق عودتها الى البيت بدولت ، فأخذ يعزيها دون مقدمات :
ـ دومسارا ، هل سمعت كيف انهزم البلاشفة امام القوزاق ٠ أقسم أن الذين نجوا فروا الى الغابات وقد اشتعلت النار في ذيولهم ٠
ـ لعنة الله عليك ، ما هذا الذي تقوله ؟ ـ قالت دومسارا متأثرة ٠ فهي منذ زمن طويل تعتبر أن مايمس البلاشفة ، يمس أستيمر بالذات ٠٠ لذلك نزعت وتعالت نبضات قلبها ٠ أما بالنسبة لدولت فان كلمة بلاشفة كانت تعني « الموجيك » (١) لذلك لم يحزن كثيرا على نبأ هزيمتهم ٠

وروت لها تشاتشا النبأ بالشكل التالي : «لقد اجتمع كل الامراء والنبلاء في البلاد واخذوا يبيدون البلاشفة من جذورهم » ٠
ـ ومن الذي أخبرك بذلك يا حسرتي ؟ ـ سألت دومسارا وقد هبط قلبها الى قدميها ٠
ـ الله عدوي اذا لم أكن سمعت دولت يقول ذلك بأذني الاثنتين ٠ آه يا عزيزتي ٠ لقد جاء موعد قيام الساعة ٠ ألم تسمعي نبأ ذلك الذي خاطب الشيخ سعيد مساء البارحة ؟ ٠ سامحنا يا رب ٠ يقولون أنه عند حلول الظلام دخل الى داره مخلوق لم يعرفوا أهو في صورة كلب أم في صورة حصان ونادى: « يا ٠٠٠ » ويخرج الشيخ سعيد فلا يرى أحدا ويسأل : « من هذا » فيسمع صوتا : « من فاحت رائحة البلشفية من بيته ، فليضع (جرومة) (٢) ليلة الجمعة » ٠ لقد قضي على البلاشفة بأمر من الله ٠ لم تبق شجرة في الغابة الا وعلق عليها رأس بلشفي ٠ ماؤنا لم يعد صالحا للشرب بسبب رائحة الدم ٠ اذا لم أكن قد سمعت هذا من الشيخ سعيد نفسه ، فلتخسف بي الارض يا رب العالمين ٠ يا من نأمل أن نلقاك بوجوه بيضاء ٠
ولم تكن دومسارا لتقلق بسبب كل هذه الانباء كثيرا لولا انها سمعت أن الصراع بين الكادحين والنبلاء قد بلغ الذروة ٠ « الدنيا تدور مثل الدولاب » تذكرت دومسارا كلمات أستيمر فقالت في نفسها « لن يصيبنا الا ما هو مكتوب على جبيننا » ٠
وبعد مدة قصيرة وصلت تشاتشا مسرعة الى بيت دومسارا وروت لها خبرا جديدا ٠ « نزل من السماء مخلوق لم يعرفوا أهو نبي أم ملاك ، وساعد البلاشفة على عبور نهر «ترك» ورغم انه لم يكن على النهر جسر ، فان قدم اي واحد منهم لم تبتل بالماء ٠ لقد أرسله الله ليعبر بهم النهر ٠
وكان من المستحسن ان يشارك موسى وبتوقة في رواية النبأ الاخير ٠

(١) فقراء الفلاحين الروس ٠

(٢) نوع من المعجنات التي تقلى بالسمن او الزيت وتوزع على الفقراء في ليلة الجمعة على ارواح الموتى٠

فأخذا يقسمان الايمان المغلظة أنه لا يوجد أحد في الدنيا كلها يعرف حقيقة البلاشفة مثلهما . ان البلاشفة هم وقود جهنم ، فكيف تعيش في بيت واحد مع الحطب الذي سيحرقك في جهنم ؟ ان الله عز وجل يجرب الناس ويمتحنهم فيكافىء الصادقين ويعاقب الكاذبين . أما البلاشفة ! من الافضل أن تسكت ....

ولكن دولت الذي تعود أن لا يطيب له طعام اذا لم يجادل أحدا ، لم يكن ليقبل منهما هذا القول :

ـ يبدو أن انتصار البلاشفة قد قصم ظهريكما . ستريان كيف يسحق البلاشفة الكاديت . أنتما تمزحان ولا ريب ، ولكن النار اشتعلت في ذيليكما. اذا لم تريا أستيمر عائدا الى القرية على حصان أشقر والعلم الاحمر في يده ، امسخني خنزيرا بريا يا رب !. والله ، وبالله ، وتالله ، انني أرى يستيبان العجوز أيضا بعيني مخيلتي . ستسمعان وستريان وهم يختارونه « كوميسارا » . أنتما تمزحان ولا ريب . أي كتاب تظنان أنه وضع في صندوق الحكومة الذي جلبه ، والذي لم يستطع احد فتحه الى الآن أليس خارطة قبارديا ؟ من الافضل ان تسكتا ، فان القمل يزحف في رأسيكما أنتما الاثنان .

لم يكن دولت يعرف أن فيما قاله الكثير من الصواب . ووافقه بوت على ذلك ، ولكن الحداد شكك في بقية الحديث .

ـ أين ذهبت الاموال التي كانت في « صندوق الحكومة » ؟ ولماذا لم ير نورعلي الذي كان أمينا للصندوق هذه الخارطة ؟.. ولكن دولت لم يكن من الذين يقبلون الهزيمة في أي نقاش يبدأ به :

ـ أموال ، ما أموال ، هذه كلها أكاذيب . اذا لم يكن صندوق الحكومة مسحورا من قبلهم ، فسأسمح لك بأن تجدع أنفي . أتعرفون ما الذي ضرب بيت نورعلي ؟ انه السحر بعينه .. ولكن لتفهم ذلك ، تحتاج الى مخ .

بعد سفر أستيمر الى بسه كوابه بثلاثة أيام ، وجدوا نورعلي في دغلة قريبة من ساحة «حطوقشوقة» في نالتشك ، جاحظ العينين متدلي الشفتين. له شكل انسان متوحش ، كان واضحا انه مجنون تماما . ورغم أن العمدة والضابط المرافق قد أسرعا لالقاء القبض عليه ، فلم يستطيعا أن يحصلا منه على شيء ، وبقي ملازما الصمت . وعاد نورعلي يتجول في الشوارع مخيفا الاولاد . وذهبت التقارير التي ذكر فيها تصوراته لكيفية حدوث السرقة سدى . ولم ييأس غومار ، ولكن نورعلي كلما رأى العمدة كان يبدأ في النباح مثل الكلاب ولا يسمح له بالاقتراب منه .

ـ اتركه يا غومار . اترك هذا المسكين في محنته . حرام عليك أن تزعجه . ـ قال بوت وعدد من الرجال وهم يلومون العمدة .

وتناقل أهل القرية أن الضابط المرافق ترك نورعلي نهائيا وهرب من القرية • وكانوا يرجحون أنه ذهب الى مدينة « ترك قاله » كما أن زوجة حراسلان التي كانت مقيمة في بيت آل شردان الجميل ، عادت الى بيت زوجها • كانوا قد شموا رائحة شيء ما دون شك • ولم يكن دولت ليفوت مثل هذه الاحداث دون تعليق :

ـ والله ، وبالله ، لقد حدث شيء مهم • لماذا يهربون من بيوتهم بهذا الشكل اذن ! هيا بنا الى بيت آل شردان ! كانوا قد سلبوني خروفين ، الا تذكرون ؟ غدا سينهبون كل شيء ولا يبقى لنا ما نأخذه ، هيا بنا •

كان دولت معروفا طوال عمره بالغوغائية ، يبحث عن منفعته الشخصية في كل شيء • ومن الواضح انه يخطط الآن لشيء ما •

ويبدو أن الآخرين فكروا بما فكر به دولت ، فقاموا جميعا • كان لكل واحد منهم مطلب عند آل شردان الذين لم يتركوا احدا في القرية لم يسلبوا منه شيئا • موسى وحده لم يوافق على اقتراح دولت • وكيف يوافق وعنده قطيع من الخراف وآخر من الابقار •

ـ ما هذا الذي تخرف به ؟ الا تخجل ؟ الآن فقط خرجت من الصلاة •كيف تستطيع أن تذهب لنهب الناس وقد غادرت لتوك بيت الله !

ـ أعوذ بالله • ان دولت يقودكم الى التهلكة ـ قال بتوقة مؤيدا كلام موسى ـ هذا عيب يا دولت • سيحل علينا غضب الله • لا ترفع صوتك بمثل هذا الكلام في باحة المسجد •

ـ من يرى عيبا في هذا ، فهو حر ولا أحد يجبره على المجيء معنا • ـ قال مسعود الملقب بطن الكبدة ـ هيا بنا يا جماعة • عندما سلبني آل شردان العجل السمين الذي اشتريته لاذبحه ، الم يكونوا مسلمين ؟ أم كانوا قد وضعوا اسلامهم جانبا ! قالوا ان العجل قد أكل من ذرتهم واستولوا عليه •• أملاك آل شردان لا تأكلها النيران ، هيا بنا لنحصل على نصيبنا منها •

ـ أنت كافر يا مسعود • انك تضع صليبا في عنقك !

ـ الذي يضع الصليب هو من أصبح عاجزا عن المحافظة على الأملاك التي سلبها من الناس • ـ قال مسعود دون تراجع •

ـ ربما نهبوا كل ما خلفه آل شردان وراءهم فيما نحن نتجادل دون نتيجة • من يخش الحرام فليبق في مكانه • هيا بنا ـ قال دولت وهو يستعد للانطلاق ـ سنأخذ حصانا من أجل يرول على الاقل • أقسم بالله أن الحبوب التي في عنابر آل شردان تكفي القرية كلها • ماذا يضير أرملة مثل ديسة اذا نالت شيئا من هذه الحبوب ؟

وبقي بلاتسه صامتا دون أن يشارك في الحديث • كان الناس يحترمون رأيه ، فانتظروه لعله يعلق بشيء ، وأخيرا قال :

ـ ايه يا دولت ، دولت• عمل غوغائي هذا الذي تدعو اليه ولا يـؤدي الا الى الفوضى • والله لست ممن يشاركون في مثل هذا العمل •
ـ أنت على حق • دعونا نتشاور ـ قال بوت وقد بدا عليه النـــدم ـ يقولون « اذا لم تجد أحدا تشاوره فاخلع قبعتك وشاورها » •
ـ اننا نضيع الوقت في النقاش • أتظنون أن الآخرين سينتظروننا • أقسم أن جماعة « الاسود » قد وصلوا الى هناك ـ قال دولت مصرا ـ هـل يضيرنا اذا أخذ كل واحد منا خروفا ؟
ـ هيا بنا ، ـ قال احدهم وهو على عجلة من أمره •
ـ من لا يأتي معنا ، فلا حصة له • ـ قال دولت وهو ينطلق بخطـــوات فكحاء • وتبعته الجماعة الى بيت آل شردان •
كانوا هم أنفسهم الذين خرجوا قبل قليل من المسجد بعد الصلاة •

## اجتمـــــاع

عاد أستيمر بعد فترة من الزمن ، كما عاد يلدار أيضا • ولكن عودتهما لم تدخل الفرحة الى قلب حاكم قبارديا •
عندما اختلف مندوبو المؤتمر الذي انعقد في « بسه كوابه » مع مؤيدي النظام القديم من النبلاء والامراء والاقطاعيين ، صار لزاما عـلى أعضـاء المؤتمر من ممثلي الجماهير التوجه الى مدينة « ترك قالة » ولحراسة أعضاء المؤتمر في الطريق أرسلوهم في القطار المدرع المسمى « الفقراء الحقيقيون » ولما كان العدو بانتظارهم هناك ، فقد بدأت المعارك على الفور • ولكنهـــم تغلبوا على الكاديت وطردوهم من المدينة • وعندما وصلت هذه الاخبار الى قرية « شعلمفوقة » فهم الجميع أن الثورة لا تمزح •

في ذلك اليوم كان عدد من الاولاد ومعهم تيمبوت و « لو » يضايقـــون دولت بألعابهم وتعليقاتهم • ورغم قيظ النهار أخذ الاولاد يجرون من مكـان الى آخر •• ولم يكن دولت هذا يشبه اي واحد اخر في القرية • ذلك لانه اعتبر الثورة والحرب الاهلية الطاحنة ، مجرد فوضى كبيرة ، وزمنا ذهبيا لمحبـي الجدال والنقاش • وهكذا صار من عادته ، اذا رأى رجلين يقفان معا يذهب اليهما ليناقشهما • واذا قال أحد اي شيء ، كان دولت يعارضه لمجـــرد المعارضة • كأنما عاد لايام شبابه حين زرع قطعة أرض على مفترق الطرق بالذرة الصفراء ليتسنى له ايقاف المارة ومناقشتهم • واذا قال له أحدهـم « لا تجادل كثيرا يا دولت » رد عليه مستغربا « ولماذا اذن خضت في وحـل الطريق لآتي الى هنا ؟! » •
عندما رأى عددا كبيرا من الناس يترددون على بيت أستيمر فكـــر :

« ولماذا لا يأتي أحد الى بيتي ؟ » ولكن من يذهب الى بيته ؟ ولماذا ؟ . ففكر ودبر ، وحفر بئرا في باحة داره بالقرب من البوابة . الجدول الذي تستقي منه النساء معرض للتلوث والجفاف . وستضطر النسوة الى التردد على داره لضخ الماء النقي .. ما كان أحد يفكر بهذه الطريقة سوى دولت . ولكن هذا التدبير كان يفشل عندما يغضب دولت ويربط كلبه الضخم أمام البئر . فيمنع النسوة من ضخ الماء . وكان اطرف ما في الامر ، أنه في اليوم الذي يسمح فيه بضخ الماء ، يرفع علما أحمر صغيرا . وعندما لا ترى النسوة هذا العلم يتساءلن :

ـ ماذا جرى ؟ لماذا منع دولت الماء ثانية ؟.

وكانت تنتصب أمام باب داره شجرة اجاص بري كبيرة تحيط بها أربعة أذرع بصعوبة . ولضخامة الشجرة ، كان أهل القرية يقسمون بأنها من مخلفات النارتيين . وعندما يحل فصل الخريف كان الاولاد يتسابقون الى اخراج أبقارهم من البيوت مبكرين ليسلموها الى الراعي ، وليسارعوا الى التقاط ثمرها المتساقط على الارض . اما طوال فصل الصيف ، فكانت الشجرة هي المرتع المفضل للاولاد .

ربما لم يكن في القرية كلها صبي واحد لم يصح « كيكوك » وهو يتسلق الشجرة . ولم يكن أحد يعرف مصدر هذه الكلمة بالضبط . ربما جاءت من المثل القديم الذي يقول : « طائر الكيكوك يمدح نفسه » وحسب رأي أهل القرية ، فان آل دولت هم أكثر الناس ثناء على أنفسهم ، وكان هذا صحيحا الى حد كبير .فان دولت يحب الثناء على نفسه كثيرا . فأينما تكلم ، وفي كل مناسبة ، كان ينفش نفسه كالديك ظانا انه لا مثيل له . واذا كان آل بوتش قد اعتبروا في القرية « من ذوي الاخلاق الحميدة » بعد زيارة ضيوف الايخاز للقرية ، فان آل دولت لقبوا سخرية مع مرور الزمن بـ « الكيكوك » . وعندما ينادي أحد الاولاد « كيكوك » كان دولت يغضب غضبا شديدا ويجري وراءه وقد حمل عصا ، او استل خنجره . ولكن أنى له أن يلحق بهؤلاء العفاريت !! وزيادة في مشاكسته ، كان اذا لحق بأحدهم ، ناداه آخرون من خلفه بصوت أعلى « كيكوك » فيرتد اليهم محنقا « أنتم أيها الملاعين سوف اقطع آذانكم وأصفها في خيط كالكعك لآخذها الى السوق وأبيعها » ثم يلحق بهم .

وكان الاولاد يهربون الى الشجرة الضخمة ويتسلقونها بأمر من تيمبوت . فيجلس كل واحد على غصن ويعاودون النداء من جديد . ويبقى دولت تحت الشجرة يركض من مكان الى آخر وهو يضرب بعصاه دون هدى . ولم يكن الصغير « لو » يتخلف عن الآخرين في شيطنته ومقدرته على التسلق . وكان في شوق لرؤية والده رغم أنه لم يمض سوى اسبوعين على سفره الى «بسه كوابه» ، ولم يعد قادرا على الاستقرار في البيت. حتى

ستيبان الذي كان يحضر له الحلوى قطع زياراته • وأخذ الاولاد يصيحون وقد انتشروا على اغصان الشجرة كالقردة « كيكووك » • وكان «لو» أيضا يصيح ملء صوته الرفيع وهو يتأرجح على الغصن الذي يجلس عليه •

كان تيمبوت و « لو » يظنان أنهما ينتقمان من دولت الذي سمعاه يقول ذات مرة : « أستيمر ثرثار • أنا لست رجلا ، وليس لي شارب اذا كانت كلمة واحدة من كل ما يقوله صحيحا • ستلمسون صدق ما أقوله بأيديكم • أنا أحمق اذا لم يصل الكاديت ، بينما أنتم بانتظار البلاشفة »• هذا ما كان يردده دولت في هذه الايام وهو يتجول من مكان الى آخر • لذلك كان تيمبوت و « لو » قد جمعا أقرانهما للانتقام منه •

وأخذ جميع الاولاد يتأرجحون على الاغصان في ايقاع متناسق • فعندما تهبط الاغصان يصيحون « كيـ ••• » وعندما ترتفع الى الاعلى يكملون « كووك » ووجد الاولاد متعة كبيرة في ذلك ، فالنهار قائظ والشجرة عالية، ودولت لا يستطيع الوصول اليهم • ولم يعد يطيق صبرا فذهب الى البيت وعاد ومعه عصا طويلة جدا ، ولما رآه الاولاد تساقطوا مسرعين من فوق الشجرة وهرب كل واحد منهم في الاتجاه الذي صادفه •

ولما كان « لو » قد تسلق الى أعالي الشجرة ، فقد وقع في حرج كبير • ولم يكن من الممكن أن يهرب تيمبوت تاركا أخاه • « فالاخوان مثل سيف ذي حدين » كما يقول المثل الذي لم ينسه تيمبوت حتى في هذه المحنة • فأخذ يركض على الغصن الطويل كلاعبي السيرك ، ويتسلق حتى وصل الى مكان أخيه •

ـ أنزل بسرعة •

ـ دعنا نبقى • سيضربنا اذا نزلنا الآن • ـ قال « لو » معترضا •

ـ انزلا الى هنا ، سأسلخ جلد من أمسك به منكما بأظافري يا أولاد الكلب • انتما مثل ابيكما تماما • أبوهما يحرض الناس مرددا كلمة «حرية» وولداه لا يتركان لي وقتا للراحة • أنزلا الى هنا • ـ قال دولت وهو يهددهما بعصاه الطويلة من تحت الشجرة •

وأظلمت الدنيا في عيني الولدين • وتابع دولت صياحه وشتائمه • وعندما سمع ولداه صياحه ، أسرعا من الدار لنجدته ، فشعر تيمبوت و « لو » أنهما في مأزق حقيقي • وأخذا يبحثان عن طريقة للنجاة من الاب وولديه • كان ابن دولت الاكبر قد أصبح رجلا ولا يستطيع تيمبوت أن يتغلب عليه • فأخذ الاخوان يزحفان من غصن الى آخر بحثا عن طريق الهرب • وزاد قلق تيمبوت على أخيه فقد يقع من فوق الشجرة ويسقط بين أيديهم في أية لحظة •

ـ ستقعان الآن بين يدي يا نسل أستيمر • اذا لم اجعلكما تحكان المكان الخاطىء من جلدكما فلا شارب لي • ـ قال دولت وهو يضرب بعصاه

الطويلة الى الاعلى فتتساقط الفروع الصغيرة متكسرة ٠

وفي هذه اللحظة رأى الجميع مجموعة من الفرسان تجري نحو القرية والغبار يتطاير فوقها ٠ فأخذ دولت ينظر نحو الفرسان منفعلا ٠ وكانت فرصة مناسبة لتيمبوت و « لو » أن يقفزا من الشجرة ويهربا ٠ولكن أعينهما تعلقت بالفرسان ٠ كان يلدار في مقدمتهم وقد علق قطعة من القماش الاحمر على صدر برنسه ٠ وكانوا جميعا يرفعون بنادقهم بيد واحدة في الهواء ، ويطلقونها بين الحين والآخر ، فتزحف الكلاب التي حاولت القفز من الابواب عائدة من حيث أتت ٠ لو عرف يلدار أن تيمبوت و « لو » على الشجرة ، ما كان ليمرهكذا متجاهلا اياهما ٠ ولكن أنى له أن يعرف المأزق الذي وقع فيه الاخوان ٠ كانت الفرحة بادية على أساريره ومر من جانب الشجرة سريعا كطائر السنونو ٠

لم يكن الغبار الذي اثاره الفرسان قد هدأ بعد ، عندما ظهرت عربة يجرها حصانان جميلان ٠ كانت العربة تتهادى وقد أحاطت بهما مجموعة أخرى من الفرسان وكأنهم يحضرون عروسا في العربة ٠ وكان سائق العربة يسوق الخيل خببا بخطوات متناسقة ٠ وأخذت أسراب الاوز والدجاج في الشارع الرئيسي تتطاير الى جانبي الطريق ٠ وكاد قلب « لو » يقفز من بين أضلاعه فرحا عندما رأى الجالسين في العربة وهما يحملان العلم الاحمر الكبير ٠ كان أستيمر وستيبان قد جلسا جنبا الى جنب ، وقد طرز على العلم الاحمر الذي يحملانه بحروف بيضاء « لقد انتصر السوفييت » ٠ وسار دولت بخطوات بطيئة وراء الركب ٠ وعندما وصل أستيمر الى باب دارهم ، أطلق رصاصة من بندقيته في الهواء اشارة الى أهل بيته بعودته ، فلم يكن لديه وقت ليتوقف ويسلم على أهله ٠ ولم يفت تيمبوت و « لو » ملاحظة ذلك ٠

قفز الاخوان عن الشجرة وركضا الى البيت يسابق احدهما الآخر وقد زال عنهما كل أثر للخوف من دولت أو غيره ٠ وما كان دولت ليمس الاخوين بعد أن رأى طريقة عودة والدهما ٠ وأخبر الاخوان أمهما والجدة المريضة النائمة في الفراش بعودة أبيهما ٠ ولكن دومسارا كانت قد رأت استيمر عندما مر مسرعا من أمام الباب ورأته عندما أطلق النار في الهواء ٠

ورغم أن يرول لم يناد معلنا عنأي اجتماع ، فقد خرج الناس من بيوتهم وتوجهوا نحو مقر العمدة ٠ وذهب « لو » وتيمبوت مع رفاقهما الى حيث يذهب الناس وهما لا يشكان مطلقا في أن والدهما قد أصبح زعيما ملشفيا ، فما المانع أن يصبح تيمبوت زعيما للاولاد !٠

وغصت باحة مقر العمدة بالناس ٠ كان الفرسان قد تجمعوا أيضا دون أن يترجلوا ٠ بينما وقف ستيبان وأستيمر ويلدار ثالثهما في العربة المكشوفة يتحدثون الى الناس ٠ وقد أمسك أستيمر بالعلم الاحمر الذي

يداعبه الهواء • كان الثلاثة فرحين يلقون بالتحيات في كل اتجاه ، ويتحدثون بصوت مرتفع •

ـ أيها الكادحون ! قال أستيمر ـ لقد جئناكم بأنباء انتصار السلطـة السوفييتية • لقد أقر المؤتمر الجماهيري قيام سلطة السوفياتات • فلتكـن سلطة دائمة وقوية • عاشت السلطة السوفييتية •

كان الثلاثة يتكلمون بالتناوب • وأخذ الناس يقتربـون منهـم ويصافحونهم • أما المسنون فقد أخذوا يدعون للسلطة الجديدة بالتوفيـق لانهم لم يكونوا يعرفون ترديد كلمة « عاشت » بعد كل هتاف • وتابـع الرجال الثلاثة ترديد الهتاف بين الحين والآخر • وكان أستيمر يرفع يـده عاليا • وتحمس الاولاد لما سمعوا هذه الهتافات فأخذوا يصيحون بدورهم « عاشت السلطة السوفيتية ، عاشت عاشت » • كان في نظر « لو » أن كل من يردد هذا الهتاففهوبلشفي، أما الذين لا يرددونه فهم من أنصـار الكاديت • لذلك أخذ يصيح بأعلى صوته لعل أستيمر يسمع هتافه •

ـ ليتنا علقنا شريطة حمراء على قمصاننا ـ قال تيمبوت ـ عندهـا كانوا سيعرفون اننا بلاشفة •

ـ أليس والدنا بلشفيا يا تيمبوت ؟ ـ سأل « لو » •

ـ الا تعرف ذلك الى الآن ؟

ـ من هو أكبر بلشفي اذن ؟•

ـ ستيبان •

ـ هل هو أكبر من بابا ومن يلدار ؟ • كان دولت يقول أنه سيعلـق رأس بلشفي ، فلماذا يردد الآن « عاشت » ؟ ـ وتتابعت أسئلة « لو » دون نهاية •

ـ « عندما وزعوا العقول ، كنت انت مختبئا في الاسطبل » قال تيمبوت مقلدا الكبار عندما عجز عن الاجابة ـ هل يستطيع الآن ان يعلـق رأس بلشفي ؟ انك تمزح دون شك • انظر الى أمشاط الفشك عـلى صدر بابا • أما سيفه • يا لطيف ! ليتني سحبته ونظرت اليه •

كانت جيوب صدر المعطف الشركسي الذي يرتديه استيمر ، والتـي تستعمل عـادة لحفـظ مواسـير معبأة بالبارود ، محشوة الآن بأمشـاط الرصاص • وسيف كبير ذو قبضة معقوفة يتدلى من وسطه • وهذا ما جذب انتباه الولدين • وتذكر تيمبوت اليوم الذي رأى فيه فوج قبارديا المتوجـه الى الجبهة في ساحة « حطوقشوقة » في نالتشك • كانت طيور السنونو في ذلك اليوم تطير وتلعب على ارتفاع منخفض مثل اليوم •

وقف موسى وبتوقه بالقرب من « لو » وكان الحداد بـوت يقـف وراءهما •

ـ عاشت .. عاشت . ـ هتف المتجمهرون في الباحة . بينما أخذ موسى وبتوقة يغمغمان بكلام غير مفهوم . وانتبه « لو » الى ذلك وقال في نفسه « انهما يتظاهران فقط بترديد الهتاف » . ولم يطق بوت ذلك :

ـ هل فقدتما صوتيكما ؟ ان السلطة السوفيتية ليست بحاجة الى هتافاتكما على أية حال .

ـ ولماذا ؟ هل هتافنا ينقصه الملح !

ـ أليس من الافضل أن تهتف لمن أطعمته من ملحك ! ـ قال بوت منفعلا ـ أين ذهب من كنت تذبح له الذبائح وتصنع له البرانس ؟ كيف تهيء الخمرة البيتية للكاديت ، وعندما يأتي البلاشفة بدلا عنهم تهتف لهم ..

ـ وهكذا جاء دورك في الغناء اليوم .

ـ نعم ، والله دوري انا في الغناء اليوم . أما أنت ، فما عليك سوى أن توفي مستخدميك حقوقهم وتتركهم في حال سبيلهم . هل فهمت ؟ . أتظن أن يلدار سيسامحك بأجوره المستحقة بعد اليوم !.

ـ أقسم أن دين يلدار سيسد حنجرتك اليوم يا موسى ـ قال أحدهم ـ والانكى من ذلك أن كل ما أطعمته لغومار ضاع وكأنك القيت به في النهر . ها .. ها .. ها .. استعطف السلطة السوفييتية لترد اليك ما أطعمته لغومار فربما ترده اليك .

ـ هل استعطف يلدار ؟ والله لو مت من الجوع فلن أستعطفه .

ـ ولماذا لا تستعطفه ؟ لا تتسرع فأنت لا تعرف ما يخبئه الغد . اذا أصبح يلدار رئيسا للقرية فقد تضطر الى استعطافه .

ـ يلدار يصبح رئيسا للقرية ؟ لا تعتمد على ذلك يا عزيزي .

ـ سوف ترى . لماذا العجلة ؟ لن يبقى منصب العمدة بعد اليوم . سيختارونه رئيسا لسوفييت القرية . هل فهمت ؟.

ـ والله اني أقبل به اذا اختاروه رئيسا . وهل انا من يكره ذلك ! ـ قال بتوقة متدخلا في الحديث ـ ولكنكم ستندمون اذا لم يحصل تغيير في حياتكم . أتظنون ان السلطة السوفييتية ستطعمكم السمن والعسل ؟ وهل نسيتم كيف سرقوا ما كان في « صندوق الحكومة » من أموال ؟

ـ من الذي سرقها ؟

ـ البلاشفة ، والله . من تظن غيرهم ؟ وذاك الروسي ستيبان كان معهم أيضا .

ـ لا تثرثر كثيرا يا بتوقه . ـ قال بوت غاضبا .

ـ هل صرت تمنعنا من الكلام ؟ أنت ؟ ـ قال موسى بعنف وهو يؤازر بتوقة .

ـ لا تخطيء يا موسى ! هذا يومنا . حتى لو أن الاموال وصلت الى أيدي جماعة أستيمر ، فانها لم تضع سدى . لقد انفقوها من أجل قضية

الجماهير • هل تسمع ما يقوله ستيبان ؟ استمع اليه •
ـ أنا لست ممن يسمعون مثل هذا الكلام لاول مرة •
ـ ألا تريد أن تستمع اليه ؟ هل أنت خائف من العمدة ؟ ـ قال بوت بلغة روسية مكسرة • وكان لا يلجأ الى اللغة الروسية الا عندما يغضب غضبا شديدا •
ـ ما هذه اللغة ! اني قرف • ـ قال بتوقه وهو يدير رأسه جانبا •
وكان ستيبان ما زال يتكلم وهو يقف في العربة المكشوفة :
ـ أيها الكادحون • هذا يومنا • وأمامنا عمل كبير يجب انجازه • لقد اجتمعنا من أجل أن نتخذ القرارات التي ستغير طريقة حياتنا الى الافضل • تكلموا ، دعونا نفكر معا • دعونا نتشاور حتى نصل الى افضل الحلول • لقد اصبح حقيقة ما كان يتحدث عنه أستيمر دائما • ستوزع اراضي الامراء والنبلاء • هذا ما اجتمعنا من أجله اليوم • من هو اولى الناس بالارض ؟ هو من لا يملك أرضا ، الفقير القادر على العمل ولكنه لا يملك أرضا يعمل فيها • انكم تعرفون من ينطبق عليهم ذلك من أهالي القرية ، ابحثوا في شأنهم فقد صار موعد الحراثة قريبا • من لا يملك أرضا يعمل فيها فلا حاجة به الى الخجل • السلطة السوفييتية تمنحه الارض • هذه هي اوامر لينين •
ـ عاش لينين • ـ صاح أستيمر بأعلى صوته •
وتردد الهتاف عاليا جدا هذه المرة • فأجفلت الغربان وتطايرت من رؤوس الاشجار • وكان يبدو على الناس ان ترددهم قد زال ، لذلك تردد صدى هتافهم في أرجاء قرية « شعلمفوقة » •
ونظر موسى الى وجه بتوقه في حيرة • لم يكونا قد نسيا تعليق بوت عليهما قبل قليل كانا في حيرة من أمرهما : اذا هتفنا ربما علق علينا أحدهم من جديد ، واذا لم نهتف سوف يلقبوننا بـ « المعادي » • فقال بتوقة اخيرا •
ـ ان اصحاب المحلات التجارية في « بسه كوابه » يملكون ثلاثة انواع من الاعلام : الحمراء والخضراء والاعلام الملكية القديمة • اذا وصل البلاشفة رفعوا العلم الاحمر • اما اذا مر جيش المتدينين بالمدينة فانهم يرفعون الاعلام الخضراء • وحين يأتي الكاديت فالاعلام الملكية جاهزة • لماذا لا نكون مثلهم ؟•
سمع تيمبوت كلام الرجلين فقال في نفسه ، نحن أيضا يجب أن يكون عندنا قماش احمر • وكان هذا ما يريده « لو » أيضا منذ زمن طويل • ولكن كيف السبيل الى الحصول عليه ؟ ماذا لو مزقنا أحد اثواب دومسارا القديمة ؟•• من عادة ستيبان أن يحضر لهما بعض الهدايا ، فلو أهداهما اليوم قطعة قماش حمراء ، لكانت المشكلة قد حلت •
وتابع ستيبان ايليتش كلامه :
ـ ماذا تعطيكم السلطة السوفييتية أنتم في قبارديا ؟ الارض والماء • « من يعمل سيأكل اللحم ، ومن لا يعمل لا ينال سوى المرض » كما يقول

المثل • هذا واحد •
ـ استمعوا اليه ، انه يحفظ الامثال الشركسية القديمة بالرغم من أنه روسي • ـ قال بوت مندهشا •
ـ وما عدا ذلك ، ما هي أوامر لينين الاخرى ؟ لقد قرر لينين وضع نهاية لنحرب •
ـ فلتكن هذه نهاية الحروب ـ صاح يلدار •
فردد الجميع وراءه بصوت واحد ، واخذوا يغنون اغنية قديمة • وفي نهاية الاغنية تحمس موسى وبتوقة •
ـ ماذا يريد منا لينين لقاء ذلك كله ؟ لقد تعودنا ان لا تقدم لنا روسيا شيئا بدون مقابل ـ صاح موسى •
ـ الملك كان يقبل منا الرجال والخيل • ولكن ماذا يريد منا لينين الآن ؟ ـ قال بتوقه •
واعتبر دولت ان الوقت ملائم لتدخله فلم يعد يطيق صبرا :
ـ اذا لم يكن ذلك صحيحا فما أحمله على وجهي ليس شاربا • من يقدم لنا كل ذلك لا بد أن يطلب ثمنا • فماذا نفعل اذا لم تكف املاكنا ثمنا لكل ذلك •

ـ لقد دفعنا الثمن مقدما ، لا تقلقوا فليس لاحد علينا أي دين ـ قال يلدار ـ اذا كان بينكم من عليه بعض الديون فهو أجدر بأن يقلق •

ـ اذا اصبحتم اغنياء بهذا الشكل ، فالوضع ليس سيئا • ـ قال موسى دون أن يتراجع •
ـ لقد دفعنا ثمن ما قدمه لنا لينين من دمائنا وعرقنا • أما اذا كان بيننا من لم يتعب ، فهو مدين لنا • ـ قال يلدار موجها كلامه الى موسى •
ـ والله هذا صحيح •
ـ احسنت يا يلدار •
ـ اذا بدأ موسى يسدد ديونه ، يخشى ان لا تكفيه أمواله • وهو قلق لذلك •

ـ لا تخف يا مسعود • سأشاركك في تجارتك اذا أفلست •
ـ سأطعمك من الكبدة في هذه الحالة •
وهنا حاول بلاتسه الذي لم يتكلم الى الآن ان يتدخل في الحديث •
ـ احسنت يا مسعود •• اذا قال الشركسي •••
ولكن موسى قاطعه وقد بدت عليه أمارات الجد :

ـ وهل دفعت ثمن ما أملكه من عرقك ؟ أليس من الممكن أنكم بعتم أنفسكم مع قبارديا كلها لبلاشفة روسيا ؟ اذا وصل الامر الى ان نفقد وطننا وديننا ، لا بد أن يقول المسلمون شيئا حول ذلك ، ولن يسكتوا •

ـ وهل أنت الذي لن يسكت ؟ ـ سأله يلدار مباشرة ٠

ـ لست أنا ٠ أتظن أنني انا وحدي الذي لن يسكت ؟ الجماهير كلها لن تسكت ٠

ـ وهل أنت ممثل الجماهير ؟ قل لي !٠ نحن نعرف من تمثل أنت ٠٠ شردان بيرد ٠ ربما تريد أن تقتفي أثره ٠ أغلق فمك ! ـ قال أستيمر غاضبا ٠

ووقف موسى محرجا وقد احمر وجهه ، لا يدري ما يقول بالرغم من رغبته في متابعة الجدال ٠

ـ انت الآن يا موسى في وضع من قال عنه المثل : « اننا ضائعون يا لوستان ٠٠ » من الافضل لك أن تلزم حدودك ٠ أقسم أنهم سيجعلونك تلحق بمن مات في العام الماضي ٠ ـ قال بتوقة ينصحه ٠

ـ ولماذا لا نستطيع ان نقول شيئا نحن أيضا ؟ السنا الجماهير ؟ ـ قال دولت وهو يرفع رأسه ـ اذا أصبحنا احرارا ، فلا بد أن نملك حرية الكلام أيضا ٠

ـ ومن الذي يمنعك من الكلام ؟ تكلم ٠ اذا اردت تعال الى هنا وقف في العربة وتكلم ـ قال أستيمر بالرغم من أنه يعرف أن دولت لن يقول شيئا ذا نفع ٠

وسار دولت نحو العربة وهو يفكح ، ويسعل مهيئا حنجرته للكلام ٠ كان الحصانان يقفان مغمضي العينين في حالة نعاس ٠ وعندما صعد دولت الى العربة ، رفعا رأسيهما فجأة ٠ ووقف أستيمر ينتظر كلامه وهو يرفع العلم الاحمر ٠

## الحريق

اعترض عدد من الحضور قائلا :

ـ لسنا بحاجة الى ثرثرة دولت ٠ أتظنون أنه سيقول شيئا ذا فائدة ؟٠

ـ عقدنا هذا الاجتماع لنتكلم ٠ ولكل من يريد الكلام الحق في أن يقول ما يشاء ٠ دعوه يتكلم ٠ الصمت يا جماعة ٠ دعوا هذا الرجل يتكلم ٠ ـ قال أستيمر مدافعا عنه ٠

ـ أقسم بالله ان هذا صحيح ٠ ـ قال دولت متباهيا ـ استمعوا الي قليلا ايها الناس ، فقد أقول شيئا لم يفكر به احد من قبل ٠ لقد منحنا الحكم السوفييتي الارض ٠ ولكن ماذا عن الغابات ؟ حتى الدببة تستطيع ان تتجول فيها بحرية ، فلماذا لا يحق لنا نحن ذلك ؟٠ كان آل شردان قد استملكوا احدى الغابات ٠ وغابة اخرى حرمها « حطوقشوقة » وثالثة منعنا

ابن قلشبي من الدخول اليها • وهكذا سدوا في وجوهنا كـل الطرق الـى الغابات • والآن يقول لنا البلاشفة : الارض والغابات ملك لكم • اذا أردتم اصعدوا جميعا على شجرة واحدة كالغربان • او ليصعد كل واحد منكم على شجرة •

وتذكر بوت شيئا ، فسأل تيمبوت :

ـ تيمبوت ! انك لم تعد تأتي الى محلي يا صغيري • أظن أنك اصبحت تفضل شجرة الاجاص البري العتيقة أمام دار دولت ! أليس كذلك ؟ •

احمر وجه تيمبوت ولم يجد ما يقوله • بينما أصاخ «لو» السمع منتظرا أن يوجه اليه أيضا ملاحظة ما • بينما تابع دولت كلامه :

ـ وهكذا أصبحنا احرارا أيها الناس • اذا أردتم اصعدوا الاشجار، او اهبطوا الى الارض • لقد أصبحنا أحرارا • أتوجد سعادة أكبر من ذلك ؟ اخبروني •

ـ لقد اخذوا منا الارض وأعطونا الحرية • ـ صاح موسى بأعلى صوته مقاطعا دولت •

ـ ماذا اخذوا منك ؟ هل أخذوا منك ما خلفه لك أجدادك ؟ صاح احدهم•

ـ شبعنا من ثرثرة دولت • دعوا أستيمر يتكلم •

واحتج دولت على هذا الاعتراض وأخذ يقوم بحركات عنيفة ، فاجفل الحصانان وقفزا الى الامام ، وكاد دولت يقع من العربة • فأخذ أستيمر الكلام مجددا •

ـ أيها الناس • ان الحرية التي يتحدث عنها دولت لا تساوي فلسا واحدا ، ويستطيع أي واحد منكم أن يتمتع بها دون عناء • ان الجماهير لم تضح بدمائها من أجل حرية كهذه • لا بد أن دولت يظن أننا نمزح • ولكننا لم نجتمع اليوم لنمزح •

ـ « لا وقت للمزاح عندما تصل النار الى الشاربين » ـ قال بلاتسه مرددا مثلا قديما •

ـ فليحفظ دولت ألاعيبه الكلامية الى وقت آخر ـ تابع أستيمر ـ ان الشبعان لا يستطيع أن يحس بمشاعر الجائع • انظروا الى مسعود • لماذا لقب « بطن الكبدة » ؟ لانه لم يستطع ان يأكل من أنواع اللحم سوى الكبدة طوال حياته • ولكن كم عدد الذين لا يجدون حتى الكبدة ؟ • اما دولت فلا يبدو عليت أنه جاع طوال حياته أبدا •

ـ ها •• ها • وهو بهذا الكرش ؟ ـ علق احدهم •

ـ نحن نفكر اليوم بشكل جدي بأولئك المعدمين الذين يدعون « ذوي الفراء المهترئة » فمن أجلهم ، وبأيديهم قامت السلطة السوفييتية في الحقيقة •

ونفذ صبر دولت ، وتهيأ لان يرد • ولكن المجتمعين رأوا في هذه

اللحظة عمودا من الدخان الاسود يتصاعد من بيت وممتلكات آل شردان ٠
ـ بيت آل شردان يحترق ٠٠٠
ـ من الذي أشعل الحريق ؟٠٠
ـ من يستطيع أن يفعل ذلك غير جراسلان ! انه مستعد أن يحــرق القرية كلها أيضا ٠
ـ أيها اللعين !
ـ لماذا تقفون هكذا ؟ هيا بنا ! ليأخذ كل واحد ما يستطيع حمله ، فذلك أفضل من أن تأكلها النيران ٠ ـ قال دولت وهو ينطلق نحو بيت آل شردان ٠
ـ الاسطبل ، ومربض الخيول ايضا يحترقان ٠ هيا ، أسرعوا ٠ ـ صاح أحدهم مؤيدا ٠
ـ ليحضر كل واحد منكم رسنا او لجاما ٠
ـ جراسلان يا ابن الزنا ٠ لقد غلبتنا ـ قال أستيمر غاضبا ـ اقسـم انه أخذ أفضل خيول آل شردان بينما نقف هنا ، نستمع الى كلام دولـت الفارغ ٠
ـ هيا بنا ، أسرعوا ـ قال ستيبان وهو يستعد للانطلاق بالعربـة ـ أسرع يا أستيمر وقل للفرسان أيضا أن يتوجهوا بسرعة الى هناك ٠
ما كان جراسلان لينجح في اشعال الحريق لولا وجود عدد من المشاغبـين من أمثال دولت في القرية ٠ ولم يكن عدد الذين صمموا على نهب ممتلكـات آل شردان قليلا ٠ لقد وصل دولت اليوم الى ما كان قد خطط له في باحـة المسجد ٠ فها هو يقود وراءه عددا كبيرا من الرجال الى بيت آل شـردان وكأنه يقود جيشا الى المعركة وهو يوزع أوامره هنا وهناك ٠
ـ هيا يا جماعة ٠اسرعوا ٠ كان يجب ان نذهب الى بيت آل شردان منذ زمن بعيد ٠
ووقفت مجموعة من الفرسان بأمر من أستيمر في طريــق النـاس ليوقفوهم ٠ ولكن بعضهم قفز من فوق السياج ٠ وغير آخرون طريقهم ٠ وحاول أستيمر أن يقنعهم :
ـ أيها الناس ٠ توقفوا ٠ دعونا نوزع أملاك آل شردان حسـب القوانين الجديدة ٠ اذا لجأتم الى النهب بهذه الطريقة ستقع بينكم منازعات ومشاجرات ٠٠٠ سيأخذ البعض حصة الاسد ، ولن يحصل آخرون على شيء ٠ ستندمون على مخالفتكم للقوانين ٠ وأنت يا دولت ! سنعاقبك ، لا تقل انني لم أنذرك ٠ كف عن تحريض الناس ٠
وحاول بلاتسه ان يقول شيئا ، ولكنه أحجم بسبب ارتفاع الصيحـات ٠ وسمع كلام أستيمر عدد كبير من الناس ولكن أحدا منهم لم يتراجع ٠
ـ لا تستمعوا الى أستيمر ٠ ان منسياتي تعادل كل ما تعلمه أستيمـر في حياته ٠ « عاشت السلطة السوفييتية » أقسم اننا انتصرنا عـلى آل شردان ٠ أليس من الافضل ان تؤول هذه الاملاك الى الفقراء الذين يدافـع

عنهم البلاشفة ؟ انني آكل في صحن واحد مع الفقراء مذ رأت عيناي النور ٠
ـ انك تقدم لهم الصحن الفارغ بعد أن تأكل ما فيه ـ قال استيمر بلهجة عدائية ـ سوف تعود لتجمع كل ما ينهبه الناس ، ليكن ذلك في علمك ٠
ـ كأنك لا ترى غيري !٠
وتابع الناس زحفهم على دار آل شردان لينهبوا كل ما تصل اليه أيديهم ٠ كانوا يهدمون الاسيجة الحجرية ، ويحطمون الحواجز المصنوعة من الاغصان المجدولة ٠ وحاول الفرسان أن يوقفوهم وهم يلوحون بالسياط دون جدوى ٠ وبالرغم من أنهم أوقعوا بعضهم أرضا ، فقد تدافع السيل البشري متسابقين للوصول الى دار آل شردان ٠
ـ يوسف ! أحضر رسنا بسرعة ٠
ـ ولماذا الرسن ؟ سنستعمل حبلا ٠
ـ أسرع واسبقني ٠ اياك أن تترك عرف حصان ، او قرن بقرة تمسك بها قبل أن اصل ٠
ـ توقفوا ٠ لن نسمح لاي واحد منكم بالمرور ٠ قال عدد من الفرسان الذين يضعون شارات حمراء على صدورهم وهم يقفون صفا واحدا امام الناس ٠ واكنهم تظاهروا بأنهم لم يسمعوا التحذير وتابعوا طريقهم ٠
زحف « لو » من ثقب في سياج احدى الدور هاربا من الزحام ، ووقف ينظر الى المشادات والناس الذين يتراكضون دون ان يغيب استيمر عن عينيه ٠ بينما فكر تيمبوت اكثر من مرة أن يركض الى والده ، ولكنه لم يجرؤ على ذلك خوفا من أن يغضب منه ٠
عندما اجتاز الناس الزقاق الضيق ، ودخلوا الى باحة دار آل شردان الواسعة ، غاب أستيمر ويلدار وستيبان ايليتش عن أنظار « لو » ، ولم يعد قادرا على أن يفهم شيئا من كل ما يجري ٠ ووقفت النسوة امام بوابات دورهن ، وأطفالهن على اذرعهن تتفرجن ٠ بعضهن تبكي واخرى تطلق الشتائم ٠ وحل المساء ، وانتشر ضوء الحريق الى مسافات بعيدة ٠ ونبحت الكلاب بشدة ٠
ترك بلاتسه الجمع ، ووقف قرب النسوة وهو يطلق كل شتائم العالم على دولت ٠ وغادرت ديسة فراشها رغم مرضها وأخذت تنادي :
ـ ساريمة ! أين أنت أيتها اللعينة ؟ عودي الى هنا ٠ ألم اقل لك ارجعي ؟ يا الهي ما أكبر هذه النار ! انها تذكرني بيوم الفيضان الذي حصلت فيه على سرير ٠ لولا هذا المرض اللعين كنت قد ذهبت وحصلت منه على شيء ٠ ولكن ها هم يأخذون كل ما تصل اليه أيديهم ٠ وأنا يا الهي كما تراني ٠ وساريمة اللعينة اختفت منذ أن وقعت عيناها على يلدار ٠ ماذا كان سيحصل لو جلبا لنا شيئا ٠
ـ لا تحسديهم يا ديسة ، انك لست بحاجة الى ذلك ـ قال بلاتسه ـ

وجوه النحس والقحط هم الذين يسعون للحصول على مال الغير بدون حق ٠ هذا ظلم ٠ ولكل ظالم نهاية ٠ هذا الافكح اللعين ، وجه النحس هو الذي حرض الجميع ٠

ـ انظروا ، انهم يسوقون الخيل والخراف ـ قالت امرأة بصوت باك ـ لقد حرمنا من كل هذا لماذا ذهب زوجي الى السوق في مثل هذا اليوم ؟

ـ لا تتأخري ٠ هيا اذهبي وانهبي ولو دجاجة ـ قال بلاتسة غاضبا فسكتت ٠

وامتلأ الزقاق ثانية بالناس ٠ بعضهم يمسك بعرف حصان وهو يقوده الى بيته ٠ وبعضهم الآخر يحمل خروفا على كتفيه ؛ أو يسوق عجلا كبيرا من قرنه ٠ كان الجميع عائدين الىبيوتهم مسرعين ليوصلوا ما حصلوا عليه ويعودوا ثانية علهم يحصلون على شيء آخر ٠

ـ اه يا الهي ! اليوم تراكض أهالي « شعلمقوقة » ثانية الى الموائد ٠ ـ قال بلاتسه ٠

كان الناس ، وبالرغم من النيران يدخلون الى غرف البيت والاسطبلات، والمستودعات ، ويحملون كل ما تصل اليه أيديهم دون أن يخافوا من تداعي الاعمدة والجسور الخشبية التي تحمل السقف ٠

سرق جراسلان أفضل خيول آل شردان ثم اشعل الحريق حتى ينشغل به الناس ويجد الفرصة المناسبة لابتعاده مسافة كافية قبل أن يفكر أحد في مطاردته ٠ وجرت الامور كما توقع تماما ولم يفكر به أحد ٠ ربما يقف الآن على الجانب الآخر من المرتفع المغطى بالغابات الكثيفة ينظر الى القرية ويسخر من أهلها ٠

كان خدم آل شردان وعمالهم قد اختفوا ايضا بمجرد ان سمعوا بقدوم البلاشفة ٠ أما الضابط المرافق الذي كان يستعرض عضلاته ، فقد اختفى قبل بضعة أيام ٠ بينما التجأت زوجة بيرد نفسه مع زوجة جراسلان الى دار الشيخ سعيد ضارعتين الى الله أن يحميهما ٠ وقدرتا ان البلاشفة لن يمسوهما بسوء لكونهما امرأتين ٠ وقد التجأتا الى قبو لحفظ البطاطا حتى لا تريا حريق البيت ونهب الممتلكات ٠

لم تنجح كل محاولات ستيبان وأستيمر في وقف أعمال النهب ٠ أما يلدار فقد انشغل بتحرير نورعلي الذي عرف أنه في السجن ٠ ولما انتهى من ذلك رأى الناس يزحفون على بيت آل شردان ٠ وعندما أصدر أستيمر أمره الى الفرسان بالانطلاق كان يلدار يقود نورعلي من كتفيه الى البيت ٠

لم يكن يلدار ليرضى عن الاعمال التي يحرض عليها دولت ٠ ولكنه في نفس الوقت ما كان ليحزن حتى لو قلبوا دار آل شردان رأسا على عقب ٠ ولذلك خالف ستيبان وأستيمر عندما حاولا ايقاف الناس ٠

ـ اتركوهم وشأنهم ٠ ان آل شردان يستحقون ذلك ٠

وقف نورعلي ملتصقا بيلدار خائفا وقد جحظت عيناه ، دون أن يستطيع

التعرف على أحد من معارفه القدامى ٠

ـ دعهم يذهبون يا أستيمر ٠ لا تعترض طريقهم ٠

ـ ماذا تقول يا يلدار ؟ وكيف نجلب العار للثورة ! هل نحن قطاع طرق أم بلاشفة ؟ أقسم انني لن أسمح لهم بأن يخطوا خطوة واحدة ٠

وخطر ببال يلدار ان يترك نورعلي ويذهب مع المتحمسين لنهب دار آل شردان ولكن ستيبان أمره قائلا :

ـ اتركه لسائق العربة واذهب لايقاف الناس ٠

ـ أبقه في العربة حتى أعود ـ قال يلدار وهو ينطلق بعد أن سلم نورعلي لسائق العربة ٠ وجلس الشاب الروسي سائق العربة بجانب نورعلي وأخذ يمازحه ٠

وعندما وصل يلدار الى دار آل شردان ، كانت الفوضى قائمة على قدم وساق ٠ وكانت عملية النهب في أوجها ٠ « هذه هي نهايتكم يا آل شردان! » قال يلدار في نفسه وهويشفي غله من شردان بيرد الذي كان السبب في نفي والده وموته في سيبيريا ٠ ولكنه لم يتطرق الى هذا الموضوع ثانية عندما التقي بأستيمر خوفا من أن يقول له « ان النهب ليس من عادات البلاشفة » ٠

على أية حال ، يبدو أن آل شردان قد انتهوا في ذلك اليوم ٠ وأخذ رجلان يتشادان وقد أمسك كل منهما بقرن من قرني بقرة :

ـ أقسم أنني سأريك نجوم عينيك ٠

ـ أنت ! أتريد أن أحطم لك فكك ؟ ألست أنا الذي أمسك بالبقرة أولا ٠

ـ أغرب عن وجهي قبل أن احطم لك ساقك العوجاء ٠

ـ أقسم أنني سأمسح بك الارض ٠

كانت هذه المشادة العنيفة تجري بين مسعود ورجل آخر ٠ فبطن الكبدة ينوي أن يذبح البقرة ويبيع لحمها ٠ بينما ينوي الاخر ان يقتنيها ٠ وكان واضحا أن هذا النزاع سيتطور الى عراك ٠ وعلا صوت الحداد بسوت فوق صياح الرجلين ٠ ومع أنه لم يكن ينوي أن يأخذ شيئا لنفسه ، فقد كان يصدر اوامره للجميع ٠ وعندما أفلت مسعود قرن البقرة ليفك حزامه ويربطها به ، نطحت الرجل الآخر وألقت به أرضا ٠ فلحق بها مسعود ، وحاولت أن تنطحه أيضا ، ولكن خبرته الطويلة في امساك المواشي وذبحها اسعفته، فتغلب عليها وأمسك بها ٠ وعاد اليه غريمه ثانية ولكن الموضوع انتهى عند هذا الحد ٠

وقال العجوز اسحق وهو يحمل على كتفه جديا :

ـ هذا يوم اختلط فيه الحابل بالنابل ، وصار من الصعب التمييز بين الظالم والمظلوم ٠ وكان هذا صحيحا الى حد بعيد ٠ فآل شردان سلبوه بقرته الوحيدة في العام الماضي ٠ كان ينقل ملحا الى درلوقه لحساب آل

شردان ، وبعربة يجرها ثوران لآل شردان أيضا • فانقلبت العربة ووقعت في الوادي • ومع أنه ذبح الثورين وباع لحمهما بثمن كاف لشراء ثورين جديدين أعاده لآل شردان ، الا انهم لم يتركوه وشأنه ، حتى أخذوا منه بقرته الوحيدة •• وها هو الآن قد حصل على جدي مقابل بقرته وهو ينصرف راضيا •

ـ أسرع يا أسحق • أسرع بغنيمتك من هذه الدار فما حصلت عليه يكفيك ـ قال بوت مازحا ـ مسعود يقاتل للحصول على بقرة ، وأنت لا تستطيع ان تفعل مثله •

كان بوت قد جاء مع الناس ، ولما رأى البلاشفة يحاولون ايقا فعملية النهب أراد أن يساعدهم ولكنه لم يستطع ان يفعل شيئا • فصار همه الوحيد أن يحجز بين المتنازعين • ولو أنه لم يخجل مسعود والرجل الذي نطحته البقرة ، ربما كانا قد تعاركا عراكا داميا •

ورغم أن النار أتت على كل شيء فلم ينصرف الناس • كان بعضهم ما زال ينقب بعصا طويلة بين الرماد والجمر ليخرج قدرا او صحنا او ما شابه ذلك • وبعضهم الاخر يسحب صندوقا كبيرا أتت عليه النار وعلى محتوياته ، او قطعة سجاد محترق • وبينما كان أستيمر يؤنب هذا تارة ، وذاك تارة أخرى التقى بيلدار •

ـ ماذا تقترح ان نفعل بمن قام بهذا العمل ؟

ـ لقد انتقمنا من آل شردان •

ـ أهذا كل ما تستطيع أن تفهمه ؟ لو أنقذنا هذه الممتلكات لكانت القرية كلها قد استفادت ، وبدأنا بداية جيدة •

ـ لسنا بحاجة الى بداية تفوح منها رائحة آل شردان • قل ما تشاء ولكني لست ضد الذي حدث •

ـ لقد انتهى كل شيء الآن • هيا بنا • يجب أن ترافق ستيبان ايليتش الى « بسه كوابه » انه يرفض ان يبقى الليلة معنا • يقول ان لديه عملا •

ـ هيا بنا •

ـ دعوني أرافقه أنا ـ قال شاب من خلفهما • ولما التفتا رأيا «لوطة» •

لوطة هذا شاب يتيم أيضا مثل يلدار ، لا اب له ولا ام ولا أهل • وهو يساعد اي انسان ، ويؤدي أي عمل يطلب منه • ولم يسبق له أن طلب أجرا لقاء أية خدمة يؤديها ••ولكنه لن يرافق ستيبان الليلة لانه وجد عملا اخر • فقد كان أحدهم يلاحق حصانا جموحا اتعبه • وعندما أمسك به اخيرا ناداه « تعالَ يا لوطة وأوصل لي هذا الحصان الى البيت » • فلم يجد لوطة من المناسب أن يرفض هذا العملَ • فركب الحصانَ ليوصله • ولكن لم يخطر بباله ماذا سيحل به نتيجة لهذه الخدمة التي اداها بمحض اختياره •

خبا الحريق تدريجيا ، وتفرق الناس • كان بعضهم راضيا عما حصل

عليه ، والبعض الآخر اعتبر نفسه سيء الحظ بينما اعتبر جاره أسعد منه حظا ، وكان الشعور الاخير هو الغالب على أكثرية الناس . وتعب استيمر ولم يعد يقول شيئا لان الكلام لم يعد مجديا .

أما الفرسان فقد احتاروا في أمر المواشي والخيل التي أنقذوها من النار ومن أيدي الناس . وأخيرا جمعوا بقايا عيدان الاسيجة المحطمة وبعض الاعمدة ، وأقاموا على عجل زريبة ساقوا اليها ما تم انقاذه . ثم وجدوا بعض الحشيش المجفف وألقوا به في الزريبة ، وتركوا رجلين لحراستها . وبعد ذلك فقط عاد استيمر الى أهل بيته الذين كانوا بانتظاره طوال النهار .

وبينما كان أستيمر عائدا وهو يركب حصانه ، التقى ببوت الذي امتطى فرسا عجوزا بدون سرج انقذها من أحدهم . وبالرغم من أن أستيمر كان على عجلة من أمره للوصول الى البيت ، الا أنه لم يستطع ان يترك صاحبه الذي لم يكن بامكانه الاسراع بفرسه .

طوال الاعوام الماضية ، تعود أستيمر أن يعود الى بيته متأخرا في المساء . وفي كل مرة كان يجد ما يشغله عن التوجه الى بيته مباشرة .. ولكن هذا المساء كان مختلفا تماما عن كل الامسيات . فبالرغم من أن النهار بدأ بداية سارة ، الا أن خاتمته كانت حزينة مقبضة للنفس ، وهذا ما جعل أستيمر يغرق في أفكاره ، ومضى يتجاذب اطراف الحديث بين الحين والآخر مع بوت .

ـ هذه الفرس ليست سيئة ، انها قوية . ـ قال بوت وهو يحث فرسه .

ـ احرص عليها حتى نقرر مصيرها .

ـ لا تقلق من أجل ذلك . سأعتني بها جيدا وأعيدها اليكم وهي تليق ببلشفي .

وفكر أستيمر بشيء آخر . من الذي حول افراح القرية اليوم الى احزان ! انك تضع اللوم كله على دولت ، ولكنه ليس هو الذي أشعل الحريق في املاك آل شردان . واذا اعتبرت ان الحريق هو السبب في كل شيء ، يغدو دولت بريئا . أنا المسؤول عن كل شيء . لم استطع السيطرة على الموقف ، قال أستيمر وهو يتهم نفسه .

ووصل الى بيت جراسلان المنتصب وسط الاشجار . الدار خالية ، نوافذها وأبوابها مغلقة . وبعد أن جاوز البيت شم رائحة دخان الروث المجفف . « لا بد أنها تهيء خبز الذرة الصفراء الآن » فكر أستيمر « وهل هناك ما هو أطيب منه الآن » من المؤكد أن دومسارا حضرت له شيئا آخر يؤكل مع الخبز . وعندما اقترب من بيت دولت رأى شبح امرأة تقف في الظلام .

ـ أهذا أنت يا أستيمر ؟ حمدا على سلامتك ٠
ـ دومسارا ؟ لماذا تقفين هنا ؟
ـ لم استطع البقاء في البيت ٠ كنت قلقة ٠ حمدا لله على سلامتك ٠
ـ كيف احوالكم ؟ الاولاد والجدة ؟ ٠
ـ لا بأس ٠ لم نجع ٠ والشكر لله على ذلك ٠
ـ وماذا تحملين فيهذهالسلةالصغيرة ؟ ـ سأل أستيمر وقد شعر بأنها تكذب عليه ٠
ـ لقد اقترضت قليلا من الطحين من زوجة دولت ٠ عندنا ضيف أيضا ٠
ـ من ؟
ـ ستيبان ايليتش ٠
ـ كان عليه ان يعود الى « بسه كوابه » ٠
ـ لا أعر فوالله ٠ أرسل يلدار الى هناك وبقي هو ٠
ـ هيا يا بوت ٠ تفضل معنا ٠
ـ أنت الذي يجب أن تتفضل ، فانت أيضا ضيف ٠
وترجل الفارسان معا ٠

## لقاء اخر في بيت استيمر

عندما دخل أستيمر الى بيته ، لم يجد ستيبان ايليتش وحده ٠ كان هناك يرول وبلاتسه وغيرهم ٠ وكان الولدان بينهم أيضا ٠ وكان الرجال يتجادلون بعنف ، بعضهم جالس وبعضهم الآخر واقف ٠

وسلم بوت على ستيبان بلغته الروسية المكسرة ٠ فرد عليه ضاحكا ٠ وقال بلاتسه مقطبا :

ـ هل كنتما تطبخان خروفا من خراف آل شردان ؟
ـ وهل نحن بحاجة الى خراف آل شردان ؟ عندنا ما يكفينا ٠
ـ انني أعرف ما عندكم ٠ متعكم الله به ٠
ـ من الواضح أن بلاتسه غاضب اليوم ٠ ـ قال ستيبان معلقا ٠
ـ ليس بلاتسه وحده هو الغاضب ٠ لقد جلبنا العار على أنفسنا اليوم

ـ قال أستيمر وهو يخلع برنسه ٠
ـ والله أنا أيضا لم يعجبني ما حدث اليوم ٠ ـ قال بوت وهو ينفض قبعته ثم يعيدها الى رأسه ٠

وبعد أن عانق تيمبوت و « لو » أباهما ٠ جمدت نظراتهما اللامعة على البندقية التي أسندها أستيمر وراء الباب ، والسيف الذي علقه على الحائط ٠ كان يخيل اليهما أن اباهما هو قائد كل البلاشفة ، وأنه ما أن يدخل

الى ساحة المعركة حتى يفر الكاديت من وجهه هاربين في كل الاتجاهات ٠
كان كل الرجال الكبار المجتمعين في هذه الغرفة مجانين في نظر « لـو » لانهم لا يتفرجون على بندقية أستيمر وسيفه وعلى أمشاط الرصاص ٠ لماذا لا يفتحون البندقية ليجربوا كيف يوضع الرصاص فيها ؟ ولماذا لا يسحبون السيف من غمده ليتأكدوا من حده أهو قاطع أم لا ؟٠ ولو أنهم سمحوا لـه، كان سيجرب اطلاق النار من البندقية دون ادنى تردد ٠ وكـان سيسحب السيف من غمده ويتفحصه دون أن ينتظر الكبار حتى يفعلوا ذلك ٠ ولكن الكبار ما زالوا يتجادلون دون أن ينظروا الى الاسلحة ٠ أليس هذا هـو الجنون المطبق ! ٠ اذا كانت بيوت آل شردان قد أحرقت ، ونهبت ممتلكاتهم وانتهى الامر ، فماذا يفيدهم الجدال حول ذلك بعد ٠ لينـين نفسـه ، البلشفي اكثر من كل البلاشفة لا يعارض ذلك ٠ وكذلك يلدار كـان راضيـا عما حدث اليوم ٠ وستيبان يقول : يجب أن تنزع ملكية أراضي جميـع الاغنياء ٠ وهل يوجد في قرية شعلمفوقة من هو أغنى من آل شردان ؟ أقسم أنه لا يعرف عدد الخيول التيـيملكها٠ وكيف يعرف ذلك وهو يعيش في مدينة ايكاترينودار أو بطرسبرج منذ صغره !
وتابع بلاتسه نقاشه محتدا ٠

ـ وماذا عني أنا ؟ ٠ هل سيصادرون حصاني العجوزين ؟
ـ ما أعجب ما تقوله ! ومن الذي سيصادر حصانيك ؟ اسكت يا رجل ـ قال أستيمر معترضا ـ هيا يا دومسارا ، حضري لنا شيئا نأكله ٠ سأوقـد أنا النار ٠
ـ النار التي في الموقد كافية ، قطع انت اللحم ٠ ـ قال يرول مازحـا ـ ستكفيك هذه النار ٠ وكان يقصد بذلك الحريق الذي لم ينطفىء تماما فـي ممتلكات آل شردان ٠ ورغم أنه لم يقل شيئا طوال النهار ، فقد كان متفقا في الرأي مع بلاتسه ٠ وعندما اشتعلت النار في الموقد ، ارتسمت على الجدار ظلال عجيبة للرجال ٠ ولكن « لو » استطاع أن يميز رأسـ كل واحد مـن الجالسين في الغرفة وهو ينظر الى الظلال ٠
ـ قولوا لي ، لماذا أحرقوا بيت شردان بيرد الجميل ؟ ـ قال بلاتسـه دون أن يهدأ غضبه ـ ما ذنبالبيت حتى يحرق ؟٠
ووافقت دومسارا على ذلك ٠
ـ ان الله لن يسامحهم « الغريب يأخذ بثأر البريء » كما يقول المثل ٠
ـ قالت ذلك وهي تنخل الطحين بالمنخل الذي يصطدم بكفيها مع كـل حركة مصدرا صوتا رتيبا ٠٠ تومب ٠٠ تومب ٠٠ تومب ـ ان الله تعالـى سيسألكم يوم القيامة وسيحاسبكم امام الميزان ٠

ـ ومن الذي سيحاسبه الله ؟ ـ سأل أستيمر مقطبا ٠
ـ أتظن أنه سيسامحكم لانكم بلاشفة ! سيسألك أنت بالذات قبـل

غبرك ـ كانت دومسارا جادة في كلامها ـ انك تتصرف وكأنك لست مسؤولا عن أسرة واولاد ، وقد نسيت تماما بيتك وأولادك . ونحن نجوب في الازقة نبحث عمن يقرضنا كيلا من الطحين . لماذا لا تفكر بذلك ؟ .

وكانت دومسارا ستضيف شيئا آخر ولكنها غصت بدموعها فسكتت خجلا من الضيوف .

كفاك تأنيبا يا دومسارا . أنا أعتز بكوني بلشفيا ولا أظن أنني سأندم على ذلك يوما .

ـ هل تقول دومسارا ما تقوله وهي تعرف معنى كلمة « بلشفي » ؟ ـ سأل بوت منزعجا . والتقطت دومسارا انفاسها وعادت تقول :

ـ ولماذا لا أعرف يا بوت ؟ بالرغم من أنهم يقولون « شعر المرأة طويل ولكن حبل تفكيرها قصير » فاننا نعرف نحن أيضا كيف نقول « لماذا » هل من الضروري اذا صار الواحد بلشفيا ان يهمل بيته وأولاده ، أتفهمون الامر بهذا الشكل ؟ اذا كان الامر كذلك ، هيا ارحلوا جميعا . اتركوا بيوتكم وأولادكم وارحلوا . رافقتكم السلامة .

وأدرك بوت أن دومسارا على صواب . والتفت الى أستيمر حائرا لا يعرف ما يرد به عليها ، مستنجدا به ليقول شيئا .

ورقد تيمبوت ولو في فراشهما بعد أن تغطيا بلحاف من الصوف ، مغطى بقماش ملون عتيق . وكان لفراشهما رائحة كريهة اعتادا عليها مع طول الزمن . ولكنهما لم يغفلا بل كانا يتهامسان بين الحين والآخر ، وينصتان بانتباه الى ما يقوله الضيوف . ولم يكن تيمبوت قد سمع من قبل حديثا مثل حديث الرجال هذه الليلة . وكان أخوه « لو » يسأله عن كل شيء يسمعه دون توقف ، ويفوت عليه الاستماع الى الحديث ، فيحاول اسكاته بأن يدفعه في صدره دفعات قوية ، ولكن أسئلة « لو » لم تنقطع .

كان أستيمر يشرح دون كلل اهداف البلاشفة ، ولماذا يقف النبلاء والامراء في طريقهم ، ويعيد الشرح . ومع ذلك لم تتوقف اسئلة بلاتسه ولم تخف رغبته في النقاش .

ـ ان الجواب على سؤالك يستدعي التفكير لمدة شهر ـ قال أستيمر ـ انتظر قليلا حتى نشرب صحن الحساء .

كانت دومسارا تحضر حساء الحبوب ، وتقلي البصل بالسمن والفلفل الاحمر الحاد لتصبه فوق الحساء . وامتلأت الغرفة برائحة السمن والبصل، مما أثار شهية الرجال الذين لم يتناولوا طعاما طوال النهار .

ـ ماذا تظن اذن يا أخي العجوز ؟ ـ قال بلاتسه منبسط الاسارير ـ هل كنت تظن أني جئت اسألك عن ثمن الدجاج في سوق نالتشك ؟ لن اقبل منك أقل من أن توضح لي كل ما أسأل عنه . والله لن أقبل . يجب ان تشرح لي كل شيء . انتظر قليلا . تقسمون الايمان المغلظة أن البلاشفة يدافعون

عن الجماهير • أنا لا اعتراض لي على ذلك • ولكن ألا تسمعون كلام الناس ؟ يقولون ان البلاشفة يدافعون عن الجماهير حقا • أما الشيوعيون فهم أنصار الفقراء • هذا ما يقوله الناس • فمن الذي يدافع عن بقية الناس ؟ الكاديت ! والقوزاق يناصرون الكاديت • أليس هذا خليطا عجيبا ؟ ان كل هذا صعب الفهم •

ـ ما يقوله بلاتسه صحيح • ان الامر مختلط بشكل عجيب •

ـ اننا غير قادرين بعقولنا نحن على تمييز الحقيقة من بين كل هذا الخليط العجيب ـ قال يرول مؤيدا •

ـ سنضع الآن كل شيء في مكانه الصحيح • ـ قال أستيمر وهو يجلس ثانية الى جانبهم ـ قبل كل شيء « البلاشفة » و « الشيوعيون » اسمان لمسمى واحد • أليس الاديغة والقباروای كلاهما شراكسة ؟ الامر هنا هكذا تماما • البلشفي والشيوعي هما شخص واحد •

ـ اذا كان الامر كما تقول ، فأين يعيش هؤلاء القوم ؟ أليس لهم وطن؟

ـ وماذا عن لغتهم ، الىأية لغة هي أقرب ؟

ـ ليست قريبة من أية لغة •

ـ لقد اختلط كل شيء من جديد ولم أعد أفهم شيئا •

ـ ولماذا ؟ ان البلاشفة يعيشون في كل مكان •• ستيبان ايليتش ! اسمع هذا السؤال : يقول أين يعيش البلاشفة ؟ •

كان على ستيبان ايليتش الذي بقي صامتا الى الآن أن يتدخل لنجدة أستيمر •

ـ قل لهم ان البلاشفة يعيشون في كل مكان • في قبارديا ، وفي بلاد الاباظة ، وفي روسيا وداغستان ، وحيثما ذهبت لن تجد مكانا لا يعيش فيه البلاشفة • حيثما توجد الجماهير ، يوجد البلاشفة • ولكنك لن تجد لهم أثرا بين الامراء والنبلاء • فالمتخم لا يحس بآلام الجائع ، والغني لا يمكنه أن يفهم سبب فقر الفقير حتى تقوم القيامة • أليس كذلك ؟• الفقراء يجب أن يصبحوا سادة انفسهم •

وترجم أستيمر كلام ستيبان ايليتش الى الشركسية ثم سأل :

ـ هل فهمت الآن يا بلاتسه ؟•

ـ أليس هذا ما أقوله أنا أيضا ؟ ـ لم يتراجع بلاتسه ـ يجب مصادرة أموال كبار الاغنياء أولا ، وهكذا حتى يصل الدور الي • وبعد ذلك اقرأ على حصاني العجوزين السلام •

ـ تقول انهم سيصادرون حصانيك !

ـ معلوم •

ـ انك مخطيء يا بلاتسه • ليتك تعيش حتى يصادر البلاشفة شيئا من ممتلكاتك انت • لا تقلق من أجل ذلك •

ـ اذا كان الامر كما تقول فأنا موافق • ولكن بقي لي سؤال أخير • هل يلبس البلاشفة ملابس الضباط أم ملابس الجنود ؟

ـ أظن أنك تمزح • وهل للبلاشفة لباس خاص !

ـ كيف يمكن أن نميز البلشفي من غيره اذن ؟ •

ـ ستيبان ايليتش ، أتعرف عن أي شيء يسأل بلاتسه ؟ ـ قال أستيمر وهو ينظر نحوه ـ يسأل ما هو لباس البلاشفة ، ثم يسأل : اليس من المحتمل أن يصادروا حصاني •

ـ وكم حصانا يملك ؟

ـ لا يملك غيرهما •

ـ وهل هما جيدان ؟

ـ كيف يقتني عامل مجد خيلا رديئة ؟

ـ اذن لن نصادرهما ـ قال ستيبان وهو يبتسم ـ فليتمتع بهما • هل تعرف لماذا بقيت الليلة ؟ يجب ان نشرح للناس مبادئنا وأهدافنا • يجب أن نوضح لهم كل ما في قلوبنا • وبعد ذلك فقط نستطيع ان نعرف من معنا ومن ضدنا •

ووقف ستيبان وأخذ يمشي في الغرفة جيئة وذهابا •

ـ لن تثق بنا الجماهير حتى تعرف ماذا نريد أن نفعل بالضبط • أهذا صحيح أم لا ؟•

ـ ولكن من الذي يستطيع أن يعرف ما في قلوبنا دون أن نقوله ؟

ـ قبل كل شيء يجب أن نشكل سوفييتا للقرية وننتخب رئيسا لهذا السوفييت • أنا أرى أن ننتخب يلدار • سيعود غدا • أو أستيمر • تعرفون جميعا أن أستيمر رجل لين العريكة ومن طبعه أنه لا يحب أن يغضب أحدا • وفي مثل هذا الايام ، اللين غير مطلوب • هنالك عدد كبير من الذين يجب أن يوقفوا عند حدودهم • وهذاالامر يقتضي بعض الشدة أحيانا • يلدار ما يزال شابا يافعا ، وهو معرض للخطأ • وهذا العمل يحتاج الى صبر ، والا فمن الممكن أن تتعقد الامور • لا أعرف رجلا في القرية يهابه الناس ويحترمونه مثل أستيمر •

ـ هذا صحيح • ان كل الناس في القرية يحترمون كلام أستيمر •

ـ دعونا نفكر في الامر على كلحال ، ليس لدينا وقت طويل • اجمع الناس غدا يا أستيمر • سنعقد اجتماعا ونناقش كل هذه الامور •

ـ نعم ، هذا هو الافضل •

ـ لا يجوز أن تؤجل الاجابة على أسئلة بلاتسه حتى الغد • اشرح له كل شيء ، فهو سينقل الى الناس ما يسمعه • اشرح له لماذا لا يرتدي البلاشفة ـ الشيوعيون زيا خاصا • ولماذا لن نصادر ممتلكات الناس الذين يعيشون من عرق جبينهم • يجب أن يفهم كل شيء •

ـ وما معنى « يعيشون من عرق جبينهم » ؟ ـ سأل بلاتسه عن هذا

التعبير الجديد بمجرد ان طرق سمعه ـ لقد اتضح لي الفرق بين البلاشفة والقوزاق • هنالك فرق واضح بين نواياهم وطريقة تفكيرهم • ولكن كيف أستطيع التمييز بين بلشفي وقوزاقي اذا رأيتهما معا ؟ اشرح لنا هذا الامر فقط بالله عليك يا أستيمر •

ـ لا يمكن التمييز بينهما بالزي • هذا مستحيل ـ قال استيمر ـ كم هنالك من أناس رفعوا الاعلام الحمراء ، ولكنهم يكرهون البلاشفة كراهية عمياء ؟ وكم يوجد من الرجال الذين يرتدون زي الضباط ، ولكنهم مع الجماهير في أعماق قلوبهم ؟•

ـ هل سمعت ؟ سأل تيمبوت أخاه الصغير ـ ان الموضوع ليس أن تحمل العلم الاحمر ، كما أنه لا مانعأن تضع كتافيات الضباط اذا كنت بلشفيا بقلبك • ولكن « لو » كان نائما نوما عميقا •

ـ ألم تحضر اليوم الاجتماع ؟ ـ سأل أستيمر وقد تجدد نشاطه بعد أن لاحظ أن الحاضرين يستمعون اليه بانتباه شديد ، حتى بوت كان مرتاحا تماما من كلامه ، وأخذ ينصت دون أن تفوته كلمة مما يقول ، وهو يتنحنح أحيانا •

ـ وكيف لم أحضر يا رجل •

ـ هل سمعت الرجال عندما كانوا يهتفون ؟

ـ لقد سمعتهم ورأيتهم والله •

ـ هل انتبهت كيف هتف اسحق العجوز ، ومسعود « بطن الكبدة » ؟

ـ لقد كانا يهتفان بكل جوارحهما •

ـ وماذا عن موسى وبتوقة ؟

ـ صحيح ، هذان ••••

ـ قل الحقيقة • هل هتفا بحياة السلطة السوفييتية ؟

ـ لن أكذب • لقد وقف موسى وبتوقة معنا لرفع العتب ولم يهتفا •

ـ ولماذا لم يهتفا ؟

ـ ربما خافا • وكيف أعرف أنا ؟•

ـ هل كنت تقف أنت معنا لرفع العتب ؟ الى أية جهة كنت تميل أكثر؟ أم أنت أيضا لا تثق بالسلطة السوفييتية ، وما زال لديك أمل بعودة السلطة الاخرى ! قل الحقيقة •

ولم يعرف بلاتسه بماذا يجيب وأخذ يفرك لحيته وهو لا يكاد يستقر على كرسيه • بينما ضيق أستيمر الخناق على الرجل العجوز •

ـ من أيضا كان يقف على مفترق الطرق ، لا يعرف الى أية جهة ينحاز ؟

ـ انك مخطىء هنا يا استيمر • لم نكن مترددين ، ولكن العقل لا يستوعب أحيانا كل شيء دفعة واحدة ـ قال يرول وكأنه يفضي بسر خطير•

وهنا التفت بوت الى ستيبان ايليتش وقد اتقد حماسا وكأنه اصبح

قادرا على ادراك كل شيء دفعة واحدة وقال :

ـ سأقول لكم ببساطة لماذا نريد السلطة السوفييتية هه ٠

ـ قل ٠

ـ لنزيل من الوجود نصف كلمة فقط ٠

ـ انظروا اليه كيف يحشر نفسه ! ها ٠٠ ها ٠٠ ها ٠٠ قال نصف كلمة ٠ لقد غدا بوت يظن نفسه رجلا هاما ٠

ـ اصبر قليلا يا أستيمر ٠ دعني أصل أولا الى ما أريد قوله ٠ سأشرح ما أعنيه بكل وضوح ٠ الناس في هذا العالم فريقان ٠ فريق يملك ، وآخر « لا يملك » ٠ والذين لا يملكون يسعون الى أن يملكوا ٠ هذا هو سبب كل المصائب ٠ فاذا ازلنا من الوجود « لا » وصار كل الناس يملكون ، فسيعيش الجميع في وئام راضين مسرورين ٠أليس كذلك ؟ هه ؟ أليس هذا صحيحا ؟ ها ٠٠ ها ٠٠ ها ٠٠ ها ٠٠ لقد أصبت كبد الحقيقة ، أليس كذلك ؟ ها ٠٠ ها ٠٠ ها ٠٠

وضحك الجميع ، فاعتبر بوت ذلك ثناء عليه ، وأخذ يضحك وهو يلتفت ذات اليمين وذات الشمال ٠ حتى دومسارا وجدت ذلك مضحكا ٠ وبدا السرور على الجميع ٠

ـ هذا مفهوم وواضح يا عزيزي بوت ٠ أنت ثاقب الفكر ٠ ـ قال ستيبان وهو يمسح دموعه ـ أخبر دولت بهذا ، وسترى كيف يعجبه ٠ ولكن انتظروا قليلا ٠ لقد غلبنا الضحك وسررنا كثيرا ، والآن يجب أن نعود الى التفكير بجدية ٠ من الذي ستختارونه لرئاسة سوفييت القرية ؟

ـ والله أنا أقبل بالاثنين ٠ كلاهما أخ لي ٠ وهل يستطيع الانسان أن يميز بين أخويه ؟ ـ قال بلاتسه بلهجة جازمة ٠

ـ دعونا نقرر هذا الامر غدا ، فالحساء قد أصبح جاهزا ٠ هيا يا دومسارا ٠ وأنت يا ستيبان ، أجلس ، أجلسوا جميعا حول المائدة فالطعام الذي تحضره بالصدفة هو أفضل أنواع الاطعمة كما يقولون ٠

كان الاولاد نياما ، وجلست الجدة على طرف الفراش وهي تنام مطرقة ٠ أما دومسارا فكانت تضع على المائدة « جناطيس » الحساء السميك المغطى بطبقة من السمن والبصل وكأنها تؤدي عملا حكوميا ٠ ومسح الضيوف شواربهم جانبا بظهور أيديهم وجلسوا حول المائدة ذات الارجل الثلاثة ، وبدأوا يتناولون قطع الجبن واللحم المشوي ٠

ـ لماذا لا ننتخب بوت فهو رجل قوي ، وهيأته مقبولة ، كما أن له صوتا جهوريا ؟ ـ سأل ستيبان بين الجد والمزاح ٠

ـ هه ، وهل أترك محل الحدادة ؟ لا قدر الله ذلك ٠ لن أخرج من محلي إلا جثة هامدة ٠ انتخبوا يلدار ولن تندموا ٠

وغلب الطعام على الكلام ، فأخذ الرجال يأكلون صامتين ٠

# الفصل الثامن

## فائدة بيت نورعلي

لم تبق بندقية استيمر وراء الباب مدة طويلة ٠ ففي الربيع ، عندما خرج جميع أهالي قرية شعلمفوقة للفلاحة ، وقد اكتست البراري بالخضرة، بدأت الاحداث الكبرى من جديد ٠ وعندما بدأت سنابل القمح بالنضوج عم القلق كل الناس ٠ فحمل من يملك بندقية ، بندقيته ٠ ومن يملك سيفا ، سيفه او خنجره او أية اسلحة اخرى وصلت اليها أيديهم ، وكما تتوزع الفصول أشهر السنة ، توزع الناس بين البلاشفة والكاديت ٠ والتحق كل واحد بالمعسكر الذي اختاره مدججا بالسلاح ٠

لم يبق في القرية سوى عدد قليل من الذكور ٠ ووقعت أعمال جني المحاصيل على كاهل النساء ٠ فكن يلتقين ويشكين همومهن ٠ وأصبحت تشاتشا تصدر الاوامر ، وكانت تجد من النسوة عددا غير قليل مستعدات لتنفيذ هذه الاوامر ٠ « الدنيا دولاب » كما يقولون وبدأ الدولاب يدور بعنف٠

كان ستيبان ايليتش قد بقي في القرية مدة طويلة ٠ وسارت الامور على أحسن ما يرام طوال مدة اقامته ٠ وكانوا قد اختاروا يلدار واستيمر واسحق لتسيير امور سوفييت القرية ٠ وتفاهم الثلاثة تماما ٠ وتحملوا كافة المسؤوليات التي أنيطت بهم على درجة عالية من الكفاءة ٠ وزعوا أراضي القرية دون أية مشاكل ٠ كما وزعوا ما تم انقاذه من ممتلكات ومواشي آل شردان على المعوزين ٠ وبعدما استقرت امورهم غادرهم ستيبان ٠

ولم تمض مدة طويلة على مغادرته ، حتى عادت الغيوم السوداء

تعكر صفو هدوء القرية ، فعاد ستيبان ايليتش على جناح السرعة ٠ وعقدوا اجتماعا حاشدا وقرروا أن على الشباب الذين كانوا مشاركين في فوج قبارديا أن يتطوعوا للدفاع عن الثورة ، وعن مكتسبات الجماهير ٠ وأكد ستيبان أنه يجب تحطيم جماعة شاجوقة (١) وداوتوقة (٢) ، وسحقهم ٠

وفي اليوم التالي شكل أستيمر ويلدار وبوت مجموعة من الفرسان مؤلفة من حوالي ثلاثين فارسا ، وانطلقوا على جناح السرعة بعد أن تركوا أمور سوفييت القرية للعجوز اسحق ٠ وعندما لم يجد دولت من يهاب جانبه في القرية ، لم يعد يطيق البقاء في بيته ٠ فذهب الى اسحق وقال له : « لا تقلق ، سوف اساعدك » وكما لا يردد طائر « الكيكوك » سوى اسمه ، وجد دولت الظرف المناسب ليتباهى بنفسه ٠

كان قد سمع أخبار « متخان قازجري » مرارا ٠ لذلك بدأ يقسم الايمان المغلظة انه لا يتفق في الرأي سوى مع « المتخان » نفسه ٠ ماذا يستطيع « مريمقان ينال » أن يفعل بجيش الحفاة الذي يقوده ٠؟

كان دولت قد سمع بالفكرة التي طرحها بوت في بيت أستيمر ٠ فأخذ يرويها وكأنها من بنات أفكاره هو ٠ اذا حذفنا المقطع « لا » من كلمة « لا يملك » تصبح بعد ذلك متساوين ٠ كلنا مسلمون سواسية كأسنان المشط٠ المقطع « لا »هو سبب كل المشاكل ٠ وهذا ما يريد أن يحققه « المتخان » ٠

ورغم ان دولت حاول أن يتجاهل الامر ، فان جميع الناس ما زالوا يذكرون كيف أنه كان المحرض الاول على نهب ممتلكات آل شردان ٠ ولم يكن دولت مطمئن البال من هذه الناحية ٠ والذي زاد الطين بلة ، ان تشاتشا كانت لا تفتأ تذكر الناس بهذه الواقعة ٠

المعارك تقترب ٠٠ سوف يعود الكاديت ٠٠ عندما سمع دولت بهذه الاخبار ، انطلق وكأن النار اشتعلت في ذيله ، وهو يقول لنفسه « اذا لم أبيض وجهي بعمل ما فقد انتهيت » وصمم على أن يقوم بعمل يفيد شردان بيرد ٠ فأخذ يهيء نفسه لذلك ٠

كان الصيف حارا ٠٠ وأخذت النسوة تخرجن كل يوم الى الحقول ، وقد أجلسن الاطفال في مؤخرات العربات ، وحملن الرضع على أذرعهن ٠ وتعشبن طوال النهار في الحقول بينما يبكي الاطفال النائمون في ظلال العربات من لسعات الذباب والنمل ٠

وبدأ دولت في تنفيذ ما صمم عليه ، ركب الحصان العجوز الذي كان يستعمله يرول وأخذ يتجول على بيوت القرية بيتا بيتا ، بحثا عن ممتلكات ومواشي آل شردان ٠ كان دولت يقلد غومار في تصرفاته وطريقة حديثه ،

---

(١) و (٢) من قادة الثورة المضادة المحليين ٠

حتى أنه وجد السوط الذي كان يستعمله دون أن يعرف أحد من أين جاء به. ولم يقتصر بحثه في القرية فقط ، بل كان ينتقل الى القرى المجاورة حين يسمع ان أحدا اشترى شيئا من ممتلكات آل شردان ويقول لهم « لقد اخطأتم . ان هذا من ممتلكات آل شردان . واذا لم تعيدوه في أقرب وقت الى بيت صاحبه ، فان شردان بيرد عائد ، وسيجعلكم تزحفون على بطونكم » .

وكلما رأى شيئا في بيت من البيوت ، كان يسحب قطعة الخشب المعلقة في خاصرته ويرسم عليها خطا براس خنجره المدبب . وكيف لا يقلق من يرى ذلك ؟ فقد أصبح دولت في نظر كل من يراه يفعل ذلك ممثل آل شردان . وكانوا يقولون : لقد شايع البلاشفة حين كانوا أقوياء ، ولكنه الآن ظهر على حقيقته .

وكان يرول العجوز المسكين يجري وراء دولت من مكان الى آخر قلقا :

ـ هذا يكفي . لقد اتعبت فرسي العجوز . ترجل ! .

ـ لا توجع رأسي ـ يرفض دولت على طريقة غومار ـ والله لم يكن في قبارديا كلها من هو أمهر مني في ركوب الخيل . كنت أمسك بالثعلب وأنا أجري دون ان أترجل . هل تذكر ذلك يا يرول ؟ ألا تذكر أيام زماني ؟

ولم يتذكر يرول أيام زمان دولت ولا أية بطولة من بطولاته . وكان « لو » بين الاولاد الذين رأوه في هذه اللحظة وهم يلعبون في أحد البساتين فصاحوا :

ـ كيكووك ...

ـ يا أولاد الزنا ، ذوي البطون المليئة بالهواء . ـ صاح دولت وهو يسحب مسدسه العتيق ، فتراكض الاولاد وتفرقوا كسرب من السنونو المذعور .

تقدمت أشهر الصيف ، واشتدت الحرارة بشكل غير مألوف . وأخذت الدجاجات في القرية تقضي النهار نائمة على جوانبها في التراب . والتجأت الكلاب الى قواعد الاسيجة المصنوعة من الاغصان . وفي البساتين لم تكن أوراق الاشجار تتحرك . بينما كانت ثمار السفرجل والتفاح والمشمش تنضج مغطاة بالغبار . وفي المساء عندما يعود الرعاة بالقطعان ، تبدأ الابقار التي اشتاقت لعجولها بالخوار . وقبل أن تدخل كل المواشي الى الدور ، كانت أزقة القرية كلها تمتلىء بسحابات الغبار . وتعود بعض العربات القليلة محملة بعيدان الذرة الصفراء ، بينما تعود أخرى فارغة بعد أن عمل صاحبها بالاجرة عند أحد الناس .

ـ أين أستيمر الآن يا ترى ؟ ـ تقول الجدة لنفسها كلما خرجت لحلب البقرة العجوز بمجرد ان تسمع صوتها .

لم يكن بيت أستيمر وحده هو الخالي من الرجال . كان البيت الذي

عاش فيه نورعلي أيضا مهجورا ، مغلق النوافذ والابواب : لا يدخله أحد ولا يخرج منه أحد • وعندما تخف حرارة الشمس في الامسيات ، وتخرج النسوة لاستعارة قطعة من الجمر من احدى الجارات ، او لشؤون اخرى ، كن يتحدثن من وراء الاسيجة • وتخبر كل واحدة جارتها عن أسباب تعاستها ، أو تحدثها بالاخبار الجديدة التي سمعتها •

وكانت تصل أحيانا انباء هامة من قرى اخرى • فقد أخذ احدهم ذات يوم يقسم الايمان المغلظة أنه خرج من مدينة « بسه كوابه » بصعوبة بالغة بعد أن اشتعلت فيها النيران • لقد انتهى ما يسمى بسلطة السوفييتات • لا تعتمدوا على ذلك بعد اليوم • وحلت محلها سلطة جديدة ، ولكن أحدا لم يكن يعرف ماهيتها • اننا نقبل بأية سلطة مهما كان نوعها ولكن بشرط أن يتركونا وشأننا • ـ قال الضيف منهيا حديثه •

وهل كان من الممكن أن لا يعرف دولت وتشاتشا بخبر السلطة الجديدة ! فقد حملا النبأ وأخذا يروياته في كل مكان وكأن أحدا من الذين يقرأون الصحف قد أخبرهما بذلك • حتى أن دولت كان يحتفظ في عبه بجريدة قديمة • فاذا صادف جماعة من الناس أخرج الجريدة ونشرها أمامهم وسألهم :

ـ هل تعرفون ماذا يوجد في هذه الجريدة ؟

ـ لا نعرف والله يا دولت ، وكيف نعرف ونحن لم نر في حياتنا انسانا يخط حرفا •

ـ « اذن » ـ يقول دولت ـ « اذن » لا يوجد فيها سوى اخبار ضياعكم من أكل شيئا من أملاك آل شردان • فسوف « يتشردق » بالعظام اعتبارا من اليوم •

وجاءت تشاتشا لزيارة دومسارا عدة مرات • وكلما دخلت تلك المرأة العجوز الى الدار وهي تجر ذيل ثوبها وراءها ، كان « لو » يتخيلها غرابا مكسور الجناحين يزحف الى الدار • ذلك لان تشاتشا ، حتى في أشد الايام قيظا لم تكن تبدل ثوبها الاسود ، ولا المنديل الصوفي الكبير • وكانت « دانيزات » أيضا تأتي مع تشاتشا •

وحينما تجلس المرأتان الثرثارتان في مكان ما للحديث ، لم تكن أية قوة في الدنيا قادرة على ايقافهما • وكما أن المطحنة تدور حتى يقطع عنها الماء ، كذلك كانتا تتابعان الكلام حتى تتعب مستمعتهما من سماعهما وتغادرهما •

« ان البلاشفة قد جروا ذيولهم واختبأوا وراء الاسيجة » • هكذا كانت دانيزات تبدأ حديثها بكلمات ممطوطة ، متصنعة الحزن • وعلى حسب قولها ، لم تكن قد تزوجت من بوت راضية ، ولو أنه لم يكذب عليها حين أراد الزواج منها ، لمتكنلترى وجه ذلك الحداد الاصلع • « لقد طلبني أحد

النبلاء » تقسم دانيزات « ولكنهم رفضوا تزويجي منه » ومع ذلك ، لم يكن قد مضى وقت طويل منذ كانت تقول : « وأنا أيضا امرأة من الجماهير . مثل بوت تماما . ولماذا لا تليق السلطة بحدادي ذي الرأس النحاسي ؟ خذ منهم السلطة يا بوت . انك تستحقها » .

ذهبت دانيزات لزيارة ديسة وأخذتا تغتابان الناس حتى هدأت نفسها . « لقد عدنا كما كنا في السابق يا عزيزتي . الامراء والنبلاء عائدون . ولم يعد للثورة وما شابهها وجود . الن يشتكي رحيم على يلدار؟. لماذا لا يجب على ساريمة ان تصبح زوجة للبائع المتجول ؟ » .

كان حديث دانيزات يسر ديسة كثيرا ، فأخذت تستمع اليها بأذنيها الكبيرتين الرقيقتين . وخصصت دانيزات بعد ذلك حديثها لرثاء نفسها :

ـ ان الله يرانا . لم أعد قادرة على العيش مع الحداد ذي الرأس النحاسي . اني أكرهه .

ـ كيف تقولين ذلك ياعزيزتي !

ـ هذه هي الحقيقة والله . ما هي حياتي معه . كيف تستطيعين العيش مع واحد من نسل العبيد وأنت حرة من أصل نبيل ، من ذوي العظام البيضاء ؟ رعى الله ابنتك ساريمة . انها جميلة ومؤدبة . كيف تستطيعين أن توافقي على تزويجها ليلدار ؟ وهل هو من مقامها ؟ انه لا يساوي الغبار الذي يتساقط من تحت قدمي رحيم .

عندما تسمع ديسه مثل هذا الموال كان غضبها يتجدد ، وتندم لانها لم تطعن يلدار بالسفود ، وتصمم على أن تفعل حين تراه . أما ساريمة فلم تكن تطيق الاستماع الى ما تقوله تلك المرأة . وقد تعودت أن تهرب منها الى البستان كلما جاءت لزيارتهم . وتتابع دانيزات الطعن بزوجها :

ـ لقد جاء اخي البارحة فقط والله وقال : عودي معي يا أختاه ، كفاك ما عانيته في بيت هذا الحداد الاصلع . اننا نطعم كلابنا من «المرامسه» التي تأكلينها عنده . ماذا أفعل ؟ لقد جلبت العار لاسرتي بزواجي من بوت . لم أعد أطيق الحياة معه . من الذي يجهل أصلي أنا ! أخي « جندار » لا يوجد أحد يجهله على طول ضفتي نهر ترك او نواحي « ينجيج » (١) أما الخيل التي عنده ، فلم يرمثلها جراسلان نفسه . وأخي الثاني «شبتوقة» نزوج من ابنة جنرال كما تعرفين . أما أنا المسكينة ، فقد قالوا انني متقدمة في السن وزوجوني لبوت . وهل أنا متقدمة في السن حقا لاقبل الحياة مع نصف يلشفي !

ـ وماذا ستفعلين بولدك الصغير المسكين يا دانيزات ؟

ـ ولدي « دقوة » ! كيف يقولون « اذا أكل الكلب صوفا ..... » انه

(١) اسم نهر في شمال القوقاز

شبه أبيه تماما • سأتركه لابيه ذي الرأس النحاسي •

وبعد أن خرجت دانيزات من بيت ديسه رأت دومسارا في حوش دارها • فحثت الخطى ووقفت بجانب السياج :

ـ ألست في صحة جيدة بعون الله يا دومسارا ؟ ـ سألت دانيزات بصوت ناعم ـ هل استطاع زوجك عبور نهر «بالق» يا عزيزتي ؟

ـ ولماذا يعبر نهر بالق ؟

ـ لا أظن انك تعرفين شيئا ايتها المسكينة • يقولون ان « رأسي النحاسي عبره سباحه • ويقولون ان باقي البلاشفة اغرقوهم جميعا في النهر • اللهم ارحمني يا رب • ولكن من الذي يعرف الحقيقة تماما • ربما يكون زوجك يا عزيزتي قد عاد واختبأ في الغرفة الخلفية • لا تقلقي فلن أفوه بكلمة واحدة •

ـ ولماذا يفعل ذلك يا دانيزات ! فهو ليس لصا ولا قاتلا ، فما الذي يدفعه الى الاختباء ؟ حينما يعود ، سيعود الينا مرفوع الرأس • ـ قالت دومسارا معترضة •

ـ وكيف اعرف أنا ! استيمر بلشفي ، ويقولون ان كلبا قد تقيأ على البلاشفة جميعا •

ـ سوف تنجلي الغيوم مهما طال الزمن ، ولا بد أن تظهر الحقيقة • اتركيني وشأني فأنا مشغولة •

ـ قالت دومسارا وهي تبتعد • وكانت هذه الانباء قد أصابتها في الصميم بالرغم من أنها تظاهرت بعدم الاهتمام امام المرأة الثرثارة •

ـ جميع الانباء متطابقة • أخشى ان تحل بنا مصيبة يا أمي • ـ قالت دومسارا وهي تشكو همومها للجدة •• ووقع ما كانت تخشاه •

جاءت أيام كنت ترى فيها الدخان يتصاعد من جميع الارجاء حول القرية ليلا ونهارا ويغطي جبهة السماء • وذات ليلة بينما كان الهلال الوليد الذي يشبه حزا من البطيخ الاصفر ، يظهر من وراء الغيوم السوداء تارة ، ويختفي تارة أخرى ، سمعت دومسارا صوت حمحمة خيل وعجلات عربة بالقرب من الدار • ثم نادى رجل بصوت مبحوح باسمها • وعندما هرعت الى البوابة ونظرت ، جمدها الرعب ولم تعد ساقاها تحملانها •

كان الرجل الذي وقف قبالة دومسارا هو « بوت » • ووقفت على مقربة عربة شد الى مؤخرتها حصانان مسرجان • وعرفت دومسارا فورا أحد الحصانين ، فقد كان حصان أستيمر • وهبط قلبها الى قدميها • وكان بوت يمسك بمقود الحصانين المشدودين الى العربة ، ويبدو منهكا لا يقوى على الوقوف الا بصعوبة بالغة • وفي العربة رقد رجلان غطيا بالبرنس السميك وهما ما يزالان يرتديان قبعتيهما •

ـ لقد خ ب بيتنا واحترقنا يا دومسارا ـ قال بوت ـ أدخلي الضيوف

الذين أحضرتهم • استيمر جريح ، ونحن مرضى •

ركضت دومسارا الى العربة وقد استجمعت قواها ، ورفعت البرنس عن وجهي الرجلين • فرأت وجهين شاحبين شحوب الاموات • وكانت أنفاسهما قصيرة متلاحقة ، يتصببان عرقا من الحمى •

ـ من هو الآخر ؟

ـ عجبا • ألم تعرفيه ! انه ستيبان • ـ قال بوت ـ • كان أستيمر وستيبان ايليتش نحيلين بشكل فظيع ،وقد ضاعت ملامحهما وراء لحيتيهما الطويلتين وبدا أنفاهما دقيقين • ولم يكونا قادرين على فتح أعينهما ، وقد رقدا في العربة عاجزين عن الاتيان بأية حركة •

ـ يا الهي ! يا الهي الكبير ! ماذا جنينا بحقك ، وعلى أي شيء تعاقبنا ؟ ـ قالت دومسارا بصوت باك ـ سأذهب يا بوت لانادي احدهم وركضت باكية نحو بيت بلاتسه •

ـ ارحمهما يا رب ! من المستحيل معرفة هذين الرجلين • افتحوا البوابة بسرعة وأدخلوا العربة •

فتح بوت وبلاتسه البوابة • وهيأت دومسارا مرقدا من القش ،وتعاون الثلاثة على نقل الرجلين وأرقدوهما في أرض الغرفة •

ـ أين مكان الجرح ؟

ـ لقد جرح أستيمر برصاصة في ساقه • ولكنه أصيب بالحمى بعد ذلك مثل ستيبان ايليتش تماما • فتارة ترتفع حرارتهما بشكل كبير • وتارة أخرى يشعران بالبرد •

ـ لا تحرمنا من رحمتك يا رب ! ـ قال بلاتسه الذي جاء لتوه •

كان ابنا الرجل العجوز في المعركة أيضا ، ولكنه لم يجرؤ على السؤال عنهما خشية أن يكونا قد قتلا • كان الاثنان قد خرجا مع أستيمر •

وأخذت دموع دومسارا تنهمر ببطء وهي تقف مشبكة يديها فوق بطنها، ولم تبذل أية محاولة لتجفيف دموعها •

ـ تماسكي يا ابنتي ولا تيأسي ـ قال بلاتسه وكأنه يعزي نفسه ـ لا بد أن يشملنا الله برحمته •

ولم تستطع دومسارا أن تتماسك بل انفجرت تبكي بكاء مرا • وأفاقت الجدة التى كانت قد نعست قليلا وأجهشت بالبكاء هي الاخرى • كان تيمبوت و « لو » قد أفاقا أيضا ، ولكنهما لم يكونا يعرفان ماذا حدث • وعندما سمعا بكاء دومسارا والجدة أخذا يبكيان •

ـ اسكتوا جميعا • سيسمعكم أحدهم ونضيع تماما بعد ذلك ـ قال بوت ـ لا يمكن ان نتركهما هنا • اذا اكتشفوا المريضين ، فقد انتهى أمرهما •

ـ والى أين سنأخذهما ! يا لتعاسة ايامنا ـ قالت المرأتان وقد انقطع بكاؤهما •

نادى بلاتسه الذي كان يجلس مطرقا الى تيمبوت وسأله :
ـ أما زال بيت نورعلي مهجورا ؟ ماذا تعرف عنه ؟
ـ والله لا تعيش فيه سوى الفئران ٠
ـ أحسنت يا بلاتسة ـ قال بوت فرحا ـ هذه فكرة ممتازة ٠ لا داعي لاي تأجيل ، دعونا ننقلهما مباشرة ٠ ولداك ، قازجري واسلان لم يصبهما مكروه ، وهما بصحة جيدة ٠ هيا يا جماعة فلنسرع ٠ قازجري قاد مجموعة من الرجال الى الجبل ٠ انه شاب ممتاز ، حفظه الله لك ٠
واستعاد بلاتسه قواه فجأة :
ـ هيا يا أولاد ٠ أسرعوا ٠ افتحوا بيت نورعلي ، وانقلوا اليه كمية محترمة من التبن ٠ سننقل المريضين الى هناك بسرعة ٠ هيا يا دومسارا ٠ اياكما أن تنطقا بكلمة واحدة ٠ والا قطعت لسانيكما ٠
ـ يا الهي ٠ لو عرف الحاج يونس ان بلشفيين يرقدان في بيته الآن ، كان سينتحر ـ قال بوت مازحا ، ولم يكن يعرف اي شيء عن كل ما تثرثر به زوجته ٠
كان بيت نورعلي على حاله منذ اليوم الذي زاره فيه يلدار لآخر مرة، ولم يكن قد دخله مخلوق ٠ الفوضى ضاربة اطنابها ، وصحن الفخار الذي وضع فيه النقود كان ما يزال في زاوية الغرفة ٠
ما أعجب حال هذه الدنيا ٠ ها هو أستيمر الآن يرقد في بيت الحاج يونس الذي كان يكرهه كراهية عمياء ولا يطيق رؤيته يمشي على الارض٠ هذه هي الدنيا ٠ عجلة تدور ٠
ـ وكيف حال يلدار ؟ ـ سألت دومسارا بعد أن رتبوا كل شيء ٠ كانوا قد اتفقوا على أن تجلس دومسارا بجانب المرضين ٠ أما تيمبوت و « لو » فيبقيان في الخارج للحراسة ٠ وقد رأى الجميع أنه يمكن اخبار ساريمة ،وما عداها لا يجوز أن يعرف مخلوق بالسر ٠ وعندما سألت دومسارا « كيف حال يلدار ؟ » كأنما سمع يلدار سؤالها ، فقد سمع صوته في هدأة الليل وهو ينادي :
ـ يا جماعة ، دومسارا ، تيمبوت ! ليأت أحدكم الى هنا ٠
ـ « اذكر الديب وحضر القضيب » ذاك هو يلدار بنفسه ٠ يجب أن يأخذ الخيل الى مراعي القوشمة الجبلية ٠ ـ قال بوت ٠
ـ ليشملكم الله بعطفه ٠ وأين ستذهب أنت أيها العجوز المسكين ! لقد هزلت وأصبحت كالريشة ٠
ـ سيهتم يلدار بالخيل ، وأنا سأعود الى البيت ، ولا بد أن تهيء لي دانيزات طعاما ٠
ـ سيلقون القبض عليك يا مسكين ٠
ـ حتى لو ألقوا القبض علي ، فلن الاقي الا ما قدر الله ٠ فأنا حداد ، وكل الناس بحاجة الي ٠ يلدار يا ولدي ٠ حافظ على نفسك ولا تنسنا ٠ لا

دنس دومسارا وبلاتسه وساريمة ٠

ـ لا تقلقوا من هذه الناحية ٠ هل آخذ الخيل الآن ؟ ٠

ـ هذا ضروري جدا ،وبدون تأخير ٠ ـ وأخذ يلدار يجهز الخيل ٠

وعندما رأته دومسارا وهو يستعد للرحيل بهذه العجلة أوشكت على البكاء ، فاستدار وعانقها كما لو كانت أمه ٠ وكاد يبكي هو الآخر ، ولكن أحدا لم ينتبه الى ذلك ٠

كانت الخيل جائعة ومتعبة ، تنتظر الطعام والماء ٠ ولكن أحدا من الرجال لم يكن يفكر بأن يخلصها من سروجها أو يحررها من العربة ٠ وتعاون بلاتسه وتيمبوت مع يلدار على اعادة الحاجيات التي كانت في العربة ٠ وأبعدوا الحشيش الذي سقط من العربة وأخفوه ٠ أما البنادق الخمسة التي كانت مخفية داخل الحشيش في العربة ، فقد أخرجوها مع أحزمة الطلقات وأخفوها داخل كومة التبن التي يرقد عليها المريضان ٠ « ان النوم على بنادق محشوة ، أحسن دواء للمريضين » قال بوت مازحا ٠ كانا في الحقيقة معرضين للوقوع في مأزق قد يحتاجان فيه الى استعمال السلاح ٠

ـ ان ما تقوله صحيح يا بوت ٠

وتذكر بلاتسه ، يوم كان راعيا ينام لياليه في البراري راقدا على البرنس الصوفي الاسود لان الافاعي لا تقترب من البرنس ٠ وهكذا لا داعي للخوف من الكاديت وأنت تنام فوق البنادق ٠

ـ هيا معي يا بوت ٠ ـ قال يلدار ٠ ولكن بوت لم يقبل ٠

ـ لا يا صغيري ٠ بقائي هنا أفضل ، فقد يحتاجان الي ٠ ـ ولم يفكر بما يمكن أن يحدث له ٠

ـ أسرع ٠ كاد الليل ينقضي ٠

فتحوا البوابة من جديد ، وخرج يلدار جالسا في مقدمة العربة وقد شد الى مؤخرتها الحصانان المسرجان ٠ وقال للذين وقفوا ينتظرونه حتى يغلقوا البوابة خلفه ٠

ـ سأعود لزيارتكم في أوقات متقاربة يا دومسارا ٠ هل سمعتني ؟ أخبري ساريمة أيضا ٠ ثم أردف بعد قليل قبل أن ينطلق ٠

ـ ما زلت ارتدي القميص الذي طرزته لي ساريمة ٠ اخبريها بذلك أيضا ٠ الى اللقاء ٠

ـ أرجو أن نلتقي على خير ـ قالت دومسارا ثم عادت مسرعة الى حيث تركت المريضين ٠ كانا يهذيان ٠

ـ هذا هو الامر يا تيمبوت ٠ أوشكت ان تصبح رجلا انت أيضا ٠ لا تنس ما رأيته هذه الليلة ـ قال بلاتسه وهو يغلق البوابة ، بعد أن ضاع ضجيج عربة يلدار في ظلام الليل ٠

وأمر بلاتسه الولدين ان لا يسمحا بدخول اي مخلوق الى حيث يرقد

المريضان ، سواء كان كلبا او دجاجة أو قطا • « ولا مخلوق ، هل فهمت ؟ » قال تيمبوت الذي كان عليه الدور في الحراسة حتى الصباح • « وفي الصباح ستنام أنت ويستلم «لو» الحراسة أمام الباب • كان النهار قد أوشك أن يطلع فعلا ، ولكن أحدا لم يشعر بالرغبة في النوم • وفي الشرق البعيد بدأ الشفق يحمر تمهيدا لطلوع النهار •

وبينما كان تيمبوت يجلس امام الباب ، ينظر من خلال الاشجار الكثيفة المحيطة بالبيت رأى من بعيد الدخان المتصاعد فوق بعض القرى المجاورة على المرتفعات ، وخيل اليه انه يرى وميض اللهب أحيانا •

كان البستان محاطا بصف من أشجار الحور العالية ، رآها تيمبوت في هذا الوقت من الليل تشبه صفا من الرجال جاؤوا للتعزية بميت • وفي مؤخرة البستان كان يجري الجدول دون أي ضجيج •

لم يكن باب البيت مغلقا ، وغنت دومسارا من داخل البيت مرثية حزينة • كان تيمبوت قد تعود أن يسمع غناء أمه في بعض الاحيان • كانت هي نفسها تقوم بتأليفها وتلحينها من أجل أستيمر ، او من اجل ولديها • أو لتعبر عن مشاعرها الخاصة • وكم نام على صوت اغانيها وهو صغير• كانت تلك الاغاني تعبر عن الفرح والامل في أن يصبح ولداها رجلين ولا كل الرجال • اما الآن فانها تغني مرثية حزينة تمزق نياط القلب ، وبصوت لا تكاد تميز معه أهي تغني أم تبكي • وأوشك تيمبوت ان يبكي فعلا • كان صوتها ينساب بهدوء الجدول الذي ينساب في مؤخرة البستان • ومهما أنصتت لم يكن من الممكن ان تميز كلمات الاغنية • كانت دومسارا وحدها هي التي تعرف ماذا تقول ، ولمن تقوله • وكلما امتدت المرثية ، تراكمت الاحزان في القلب ، ونزلت كغصة في الحلق •

وعاد بلاتسه ثانية قبل أن يطلع النهار • كان يجب التفكير بأمر المريضين بشكل جدي • وايجاد دواء مناسب لهما • وعندما اقترح بلاتسه ان يستدعوا تشاتشا ، رفضت دومسارا رفضا باتا •

ـ قد تكونين على صواب ـ قال بلاتسه وهو يفكر بعمق ـ ليس من الحكمة ان تدخل تشاتشا الى بيتك في مثل هذه الايام •

ـ ما العمل اذن ؟ •

قاسى تيمبوت و « لو » وأستيمر ودومسارا والجدة وساريمة وبلاتسه الشيء الكثير في تلك الايام الحالكة • ولكن لحسن حظهم كان لديهم رفاق مخلصون • ولكن كان هنالك أيضا عدد غير قليل من الاشرار •

## شكورو

لم يكن الحريق آخر المشاكل التي حدثت في القرية • فقد وزعوا الارض

وزرعوها ، وكان الموسم يبشر بخير عميم • الا ان الرجال لم يستطيعوا البقاء في القرية ، فقد التحق بعضهم بالجيش الاحمر ، وانضم البعض الآخر الى كتائب الانصار والتجأوا الى الجبال بقيادة « مريمقان ينال » • أما النساء والاطفال فلم يستطيعوا جمع كل المحاصيل • وهكذا هطلت الثلوج ، وعاد الملاكون الذين صودرت أراضيهم يظهرون في شوارع القرية مرفوعي الرؤوس ، يختالون على ظهور خيلهم المطهمة • ويشتمون الفلاحين الفقراء الذين وزعت عليهم أراضيهم •

ـ لماذا لم تجنوا محصول الذرة الصفراء يا أولاد الزنا ! هيا ، اقطفوا العرانيس، الآن • أقسم أنني سأحطم لكم رؤوسكم اذا لم تفعلوا • أنا لست رجلا اذا لم أحطم رؤوسكم •

ومع مضي الايام ، كانت الامور تزداد سوءا • وكانت دومسارا تقضي أيامها قلقة خائفة من أن يكتشف أحدهم سر العائلة فيقضي عليهم جميعا • وتطيل النظر خفية نحو بيت نورعلي •

وشم موسى رائحة شيء ما • فقد رأى « لو » جالسا أمام بيت نورعلي ومعه عصا طويلة يبعد بها الدجاج عن البيت • كانت تلك مهمته ويؤديها باخلاص • وسمع صوت موسى فجأة :

ـ ماذا تفعل هنا يا وجه الوباء !

وأجفل « لو » عند سماعه هذا الصوت • لم تكن الاخبار التي سمعها عن ظلم غومار وعناد الآرالب قليلة • وكان يعرف حكايات قسوتهما جيدا • لذلك لم يكن من السهل ان يخبرك بسبب بقائه أمام بيت نورعلي • وفي نفس الوقت يجب صرف هذا الرجل دون اثارة شكوكه ، والا ضاع البابا ويستيبان بين ايديهم • وما عمله هنا ، اليس من واجبه حمايتهما • ومع ذلك ، عندما رأى موسى ، سرت في بدنه رعدة خوف •

ـ هل تبكي على ميت ! أنا سألتك لماذا تجلس هنا ؟ ـ قال موسى دون أن يبتعد عن السياج •وعندما نظر « لو » الى الجهة الاخرى من السياج، رأى تيمبوت وساريمة مرعوبين لا يدريان ما يفعلان •

كان موقفا مقلقا حقا •

ـ ألا ترى ماذا أعمل يا موسى ؟

ـ لا أرى شيئا •

ـ انني أجلس هكذا • واذا اقتربت مني دجاجة فانني أضربها بعصاي•

ـ أخذتك الكوليرا •

ـ وأنت أيضا ـ قال « لو » بصوت هامس ـ ومن حسن حظه لم يسمعه موسى •

وفتش موسى كل الزوايا ، وتجول في حوش آل بوتش ، حتى جدول الماء • ودخل الاسطبلات • وفكر في الصعود الى سطح البيت ليتأكد من خلو

الغرفة التي على السطح • ولكنه فكر « لو كان في الامر شيء ، لما جلس الولد يداعب الدجاج بعصاه » وبعد فترة سأله ثانية :

ـ ألم يعد أبوك البلشفي بعد ؟ لماذا لا تقول شيئا !

ـ لقد توجه أستيمر ويلدار ـ وكل البلاشفة الى نواحي « شجم » ـ قالت ساريمة •

ـ سنجدهم حيثما ذهبوا ـ غمغم موسى وهو يغادر الدار •

وبعد بضعة أيام • كان « لو » يجلس كعادته أمام بيت نورعلي وهو يستمع الى شتائم أمه للعجل وهي تحلب البقرة العجوز • كان العجل يهجم عليها ليرضع ويعرقل عملها • وفكر «لو» : « لماذا لا تحمل العجل وترميه من فوق السياج ؟ »كان قد سمع حكاية رواها بلاتسه مفادها ، ان امرأة شابة غضبت من العجل وهي تحلب البقرة ، فحملته من خلفيتيه وألقت به من فوق السياج • « تلك امرأة قوية حقا » فكر « لو » وهو يلعب بالعصا ، واستمع الى صوت خيوط الحليب وهي تصطدم بجدران الدلو مدة من الزمن ، ثم انقطع الصوت تدريجيا مختنقا في رغوة الحليب •

ـ يا صغيري ! ـ سمع « لو » صوتا مبحوحا واهنا • وعندما التفت رأى ستيبان ايليتش يقف متمسكا باطار الباب •

ـ «لو» ! أهذا أنت ؟ تعال الى هنا أيها الاشعث • ـ ولكن « لو » ركض منفعلا بأقصى سرعة •

ـ أمي ، أمي • لقد أفاق يستيبان • تعالي بسرعة • قال وهو يطل عليها من فوق السياج •

ـ يا صغيري ، اجلب لي قليلا من الحليب ـ قال ستيبان وهو يقف بصعوبة مستندا على اطار الباب • كان شاحب الوجه ، ولحيته المائلة الى الحمرة قد طالت بشكل فظيع • أما « لو » فقد كاد يطير من الفرح ، وأوشكت دومسارا أن توقع سطل الحليب عندما رأت ستيبان واقفا على قدميه •

وهكذا بدأ المريض يتحسن بسرعة ، وفي اليوم التالي تحرك أستيمر أيضا • وأخذ المريضان يتماثلان للشفاء • وصار هم جميع افراد الاسرة شفاءهما بأقصى سرعة • وكانت دومسارا بعد أن تنتهي من حلب البقرة كل صباح تأمر « لو » : « هيا أوصل البقرة الى الراعي بسرعة » فيسوق البقرة امامه ركضا ، ظانا انه باسراعه يعجل في شفاء المريضين • وتركض البقرة وضرعها الضامر الذي أفرغ من الحليب يرتطم بفخذيها بشكل مضحك •

وتفتحت شهية المريضين للطعام يوما بعد يوم ، ولم يعد يكفيهما حليب البقرة • وقال لهم أستيمر « لا توفروا شيئا » ورغم بكاء « لو » وساريمة ، القوا بالعجل المسكين أرضا وذبحوه • وفي مساء اليوم نفسه عاد بلاتسه ودخل الدار بعربته وأخرج من قاعها كيسين من الطحين أرسلهما

بلدار ٠وكان بلاتسه فرحا ، حسن المزاج لانه سمع اخبارا سارة عن ولديه، وأخرج بالاضافة الى الكيسين نصف خروف مجفف ، ووعاء فخاريا مليئا بدهن اللية المذاب ٠ وربطة مجدولة من البصل ، ورزمة كبيرة من الثوم ٠ وكان المريضان بأمس الحاجة الى هذه المواد الغذائية ٠

وكانت دومسارا ماهرة في اعداد الطعام بطبيعة الحال ، وهذا شيء يعرفونه عنها ٠ وقد ازدادت عنايتها باطعام المريضين في هذه الآونة بشكل خاص ٠ أما ساريمة ، فقد كانت مهمتها ايصال الطعام الى المريضين خفية ٠

ولم يستطع ستيبان البقاء دون عمل ، فطلب بعض الادوات من بوت وأصلح حذائيه العسكريين ٠ وبعد أن انتهى منهما ، بدأ في اصلاح حذائي أستيمر أيضا ٠ ورغم أنه أبل من مرضه فهو ما يزال شاحب الوجه ٠

وكان بوت منشرح الصدر ، يتردد عليهما ليسليهما وليقوي لغته الروسية ٠ وذات يوم جاء مسرعا متجهما :

ـ هل سمعتما ؟ أمورنا تزداد تعقيدا ٠ أقسم لكم بما تريدونه بأنه سيسلخ جلودنا بأظافره ٠

ـ ماذا حدث ؟

ـ ان شكورو قادم ٠

وليشرح الخبر الذي جاء به ، مد يده نحو ستيبان ايليتش ومثل عملية اطلاق النار ٠ ولكن ستيبان كان قد فهم ما تعنيه كلمة « شكورو » ٠

ـ ومن هذا الذي يأتي ؟ ـ سألت دومسارا التي كانت قد أحضرت طعاما ساخنا مؤلفا من عصيدة الذرة الصفراء واللحم المسلوق لتوها مع ساريمة ٠

ـ انه وجه البلاء ، هذا الاتمان القادم ٠ أتمان الاتمانات ٠ انه من نسل الذئاب ـ قال ستيبان وهو يطرق برأسه ٠

ـ هذا صحيح والله ـ قال بوت متباهيا لانه صار يفهم بعض الامور ـ يا جماعة ٠ هؤلاء يعلقون ذيول الذئاب في قبعاتهم او على مؤخرة خيلهم، ونحن ماذا نحمل ! قطعة قماش حمراء ، وهل هذا زي !

ـ اننا على وشك الوقوع في الفخ يا بوت ـ قال ستيبان دون مزاح ـ من المفهوم تماما انه سينصب المشانق في القرية ٠ وهل تعرف معنى المشانق ؟

ـ ومثل ستيبان حركة وضع الحبل حول العنق ٠

ـ مشانق ضد الثورة ٠

ـ ان شكورو معاد كبير للثورة ٠ من أكبر اعداء الثورة في الحقيقة ٠ ـ قال بوت ٠ كان النبأ سيئا،و وجم الجميع ٠ وفي نظر بوت ، أصبحت المشانق وأعداء الثورة شيئا واحدا ٠

وحسب الانباء كانت فرقة شكورو ستصل في صباح اليوم التالي ٠ وربما كان الطعام الذي أمامهم هو آخر طعام يتناولونه في مخبئهم ٠

« متى ستنتهي هذه الاحداث الدامية • اذا كانت القيامة ستقوم فعلا ، فيا ليتها تقوم الآن وينتهي كل شيء دفعة واحدة » فكرت دومسارا • وفي تلك الليلة لم يغمض للمرأة الشجاعة جفن • لم تنشد أغنية أو مرثيـــة حزينة • كانت تفكر ، فقط تفكر حتى طلع النهار •

عندما حل الظلام جاء أستيمر لتوديعهم جميعا • وليلاطف الولديـــن ويقدم لهما النصائح • ورغم ضعفه ، والاحداث الرهيبة القادمة ، كان يبدو منشرحا • وبعد أن خرج بقيت رائحة التبن الذي كان يرقد عليه في البيت مدة طويلة • ونام تيمبوت و « لو » على أنين الجدة المتقطع • وكانت النوافذ ما تزال مغطاة بورق الجرائد ، لا يتسرب منها أي ضوء •

وقبل طلوع الفجر عادت دومسارا وروت للجدة كيف رحل أستيمـــر وستيبان ايليتش •

ـ لا تقلقي يا عزيزتي • لن يقع الا ما قدر الله • احرصي على ولديـك ولا تحطمي قلبك •

ـ ها نحن قد أصبحنا وحدنا من جديد •

ـ سوف يعود يا عزيزتي • سيعود حتما •

ـ يبدو ان الله لم يقدر لنا أن نعيش مرتاحي البال • لم أعد أتحمـــل أكثر من ذلك يا أماه •

وجلست دومسارا والجدة جنبا الى جنب على طرف الفراش • وأفـاق «لو» من نومه ، ودفن رأسه تحت اللحاف وأخذ يبكي بصمت •

ـ هل يعاقبنا الله على ذنب اقترفناه ؟ ـ تساءلت الجدة ـ لماذا يتمسك ذلك الروسي بولدي • ألا يكفي أنه اخرجه من دينه ؟• يا الهي ! يا مـــن سنلقاه جميعا بوجوه بيضاء ، ارحمنا • يا الهي خذني اليك قبل دومسارا وولديها الجميلين كالشمس •

ولم تعد الجدة تطيق صبرا فأجهشت بالبكاء •

ورفض بوت ثانية أن يغادر القرية • هل بقي من أجل زوجته التـــي كانت تثرثر في كل مكان • ام كان قلقا على شيء آخر • على أية حال رفض الرحيل وهو يقول : « سنتحمل ما يفرضونه علينا » •

وتظاهر دولت بالمرض ولازم البيت • وكان يهرع الى الفراش ويبـدأ بالانين كلما طرق أحدهم بابه •

وبقيت بعض البنادق مدفونة في التبن في بيت نورعلي مع كمية مـــن الرصاص • فعندما رحل أستيمر وستيبان ، اعتبرا نفسيهما محظوظـين لان كل واحد منهما أستطاع أن يحمل معه بندقية واحدة • وسارا عبـــر الغابات الى مراعي « شجم » على أمل اللقاء ببعض الانصار من منطقـــة القوشمة في مغارة كبيرة يعرفانها هناك •

واذا كان بيت نورعلي قد بقي في حراسة «لو» الى الآن • فقد أهملـــه

وصارت أسراب الدجاج والديكة الرومية تدخل اليه بحرية لتنقب في ارجاء البيت • وبقيت العصا الطويلة التي كان يحملها ملقية أمام الباب • ولم يعد احد من أهل الدار يبالي بالغادي والرائح •

وفي صباح اليوم الذي رحل فيه استيمر وستيبان وصل الآخرون • كان تيمبوت في ذلك اليوم يلعب مع بقية اولاد القرية كما يفعلون في أي يوم من الايام العادية • وكان « لو » يحمل عصا مدببة الطرفين لاستعمالها في لعبته المفضلة وقد صنعها بنفسه • أما تيمبوت الذي كان يظن نفسه زعيما بلشفيا على الاولاد ، فلم يكن يرى أي داع لاخفاء ذلك • وبينما كان الاولاد مستغرقين في لعبهم ، رأوا النساء والشيوخ والاطفال الذين بقوا في القرية يتراكضون مذعورين ، بعضهم يبكي ، وبعضهم الآخر يصرخ بأعلى صوته • وأخذت الكلاب تنبح مذعورة •

ـ القوزاق ! لقد وصل القوزاق •

ـ أسرعوا الى بيت غومار • انهم يطلقون المدافع •

ولم يعرفوا لماذا كان يجب الاسراع الى بيت غومار • فهو مبني من اللبن ، وظن بعضهم أن ذلك أكثر امنا •

ولم يكن أحد ليستطيع أن يرسل تيمبوت و « لو » الى بيت غومار ، خاصة وان دومسارا غائبة • وهكذا لحق أحدهما بالآخر متسلقين الى سطح البيت • فمن هنالك تستطيع أن ترى ما يجري في البراري • ولم يندم الاخوان على فعلتهما ، فقد رأيا جيشا من الفرسان وراء القرية •

كان الفرسان يجرون من مكان الى آخر • ورأوا رشاشات منصوبة في العربات • كما رأوا صفا من المدافع يقف على أهبة الاستعداد • وفهم تيمبوت و « لو » أن من الخطورة البقاء على السطح • ولكن لم يكن هنالك شيء في العالم يعادل ان ترى القذيفة وهي تخرج من فوهة المدفع •

كان جيش «شكورو» الذي تحدثوا عنه قد وصل حقا • وما أن اطلقت المدافع طلقة واحدة،حتى طار تيمبوت و «لو»عائدين الى الارض مذعورين• وأخذت الجدة المريضة تغدو وتروح لا تدري ماذا تفعل • وشرح لها تيمبوت أن شكورو قد وصل ، وأنه يجب الذهاب الى بيت غومار بسرعة • وقفزت ساريمة وروم من فوق السياج مذعورتين •

ـ ما هذا الذي يحدث ثانية ؟ ـ قالت ديسة بلهجة باكية مشوبة بالذعر ـ ارحمنا يا رب • اننا نتوب اليك •• اننا نتوب اليك •• يا ساريمة! يا روم ! احفظي الله في قلبك واذكريه حتى لا يصيبك الرصاص •• التوبة يا رب •

ـ لا شك أن يوم القيامة هو مثل هذا اليوم • ـ قالت الجدة ـ أسرعوا يا أولادي ، أسرعوا ياصغاري • أنا أفضل أن أموت في بيتي اذا كان لا بد من الموت • أين دومسارا ؟ الى أين ذهبت ؟ أسرعا • ألم أقل لكما أسرعا !

سأرسل دومسارا أيضا عندما تعود ٠
وسمعت طلقات المدافع ثانية من مكان قريب جدا ٠
ـ يا رب ، خذني اليك بوجه ابيض ٠ ـ بدأت الجدة دعاءها ٠ ولكن تيمبوت و « لو » لم يسمعا بقية الدعاء لانهما انطلقا يركضان ٠
وصل تيمبوت و « لو » وساريمة وروم وديسة كالخراف المذعورة الى بيت غومار ، فوجدوه قد غص بالناس الذين أغلقوا النوافذ والابواب ٠ ولكن ديسة لم تقف طويلا ، بل ضربت الباب وفتحته ٠ كان الشيوخ والنساء راكعين على الارض وكأنهم يصلون ٠ أما الاطفال فقد حشروا بأنفسهم في زوايا البيت شاحبي الوجوه يرتجفون من الذعر ٠ وكانت احدى النسوة قد خبأت اولادها الثلاثة تحت صدرها وكأنها دجاجة تحمي صغارها ، وكان رابعهم الصغير يزحف حولهم وهو يبتسم ظانا أن الجميع يلاعبونه ٠ وتحاول أمه الامساك به فيفلت من جديد ٠ وأخذ جميع من في البيت يرددون الادعية والآيات القرآنية ، فاختلطت اصوات الذين يعرفون اللفظ العربي الصحيح بأصوات الذين لا يعرفونه ، ولم تعد تميز شيئا ٠
وزحف تيمبوت و « لو » مع ساريمة نحو الموقد ٠ كان عدد الناس هناك أقل ٠ ولفت « صندوق الحكومة » الذي كان غومار قد أخفاه نظر تيمبوت ٠ وظهرت السماء من فتحة الموقد ، فوقف تيمبوت و « لو » داخل الموقد ينظران الى السماء ، علهما يريان بعض القذائف الطائرة ، ولكنهما لم يريا سوى سحابة سوداء تتقاذفها الرياح ٠
وسمع صوت طلقة مدفع قريبة جدا ، فاهتز زجاج النوافذ ٠
ـ ابتعدا عن الموقد ، اذا وقعت عليكما قذيفة من ثقب المدخنة ستقتلكما فورا ـ صاح أحدهم ٠

واستمرت طلقات المدافع متتالية كالرعد ٠ وكان صياح النسوة يقشعر الابدان ٠ وظن الجميع أن القرية كلها قد هدمت ، ولم يبق أحد من الاحياء خارج البيت ٠
كان جيش شكورو في ذلك الوقت يهاجم نالتشك ٠ ولم يكن البلاشفة قد تركوا في نالتشك سوى حامية صغيرة ذات تسليح متواضع ٠ فانسحب أفراد الحامية بسرعة الى محطة القطار لمغادرة المدينة ٠ وركزت المدفعية قصفها على المحطة ٠ ولكنها لم تصب هدفها ، واستطاع قطار البلاشفة مغادرة المدينة ٠
وكما بدأت طلقات المدفعية بشكل مفاجىء ، توقفت كذلك بشكل مفاجىء ٠ واجتاز جيش شكورو القرية مخلفا وراءه أسيجة محطمة وأشجارا مقطوعة وبساتين محفورة ، متوجها الى نالتشك ٠

لم تكن الاضرار التي حلت بقرية « شعلمفوقة » في ذلك اليوم كبيرة ٠ وعندما خرج الناس الذين لم يتوقعوا رؤية بيوتهم ثانية ، من بيت غومار

المبني من اللبن ، لم يصدقوا ما رأته أعينهم ٠ يا الهي ! كيف نجت القرية من هذه القيامة ! وماذا أصابت كل هذه القذائف اذن ؟ ـ كانوا يتساءلون ـ ٠

وعندما وجدوا بعض طيور الدجاج والاوز والديكة الرومية مقتولة ، لم يعتبروا ذلك شيئا ذا بال ٠ حتى المواشي التي كان الراعي قد ساقها الى المراعي ، عادت دون أن ينقص منها شيء يذكر ٠ وعادت الروح الى الكلاب وأخذت تنبح من جديد ٠

« لقد نجونا ، ان الله تعالى قد أبعد البلاء عنا » قال الناس مسرورين٠ ولكن أحدا منهم لم يكن يعرف ماذا يخبىء شكورو لقريتهم ٠ حتى دولت نفسه لم يكن يفهم ماهية السلطة التي يزمع شكورو أن يقيمها ٠

ـ ما الذي يحدث يا ترى ؟ ـ فكر «لو » في المساء وهو يرقد في فراشه ـ ٠ كانت دومسارا قد فرحت بسلامة ولديها بعد أن عادت الى البيت ٠٠ ترحل جماعة وتصل أخرى ٠ ثم ترحل التي وصلت من جديد وتعود الاولى ٠ تتلبد السماء بالغيوم ثم تنجلي ٠ يأتي الصيف ٠ تهطل الامطار ثم تهبط الثلوج٠ يبدو أن الامور ستستمر هكذا حتى تقوم القيامة ٠ يا ليتنا نكبر بسرعة ونحصل على بندقية ٠ عندها سأعلم موسى كيف يقفز « كما تقفز بغلة حفيتسة » (۱) ٠

كان الامر الذي يفكر فيه « لو » بعقل طفل ، أمرا كبيرا ٠ ولم يستطع تيمبوت أيضا النوم ، فلن‌ينسى طوال حياته المعركة التي رآها اليوم ٠ ليت الصباح يطلع ليقص على صديقه الجديد « لوطة » ما رآه ٠٠ كيف استطاع ان يبقى على السطح تحت قصف المدافع ٠ ماذا كان سيفعل لو ان قذيفة أصابته ٠

## رســـول الشر

عندما أصبح يلدار عضوا في رئاسة سوفييت القرية ، كثرت اشغاله، وابتعد عن أعمال الشباب ، ولم يعد تيمبوت يلقاه الا نادرا ٠ وقال في نفسه « انني فقدت صديقي » وصار يشعر بالملل حتى وجد صديقا آخر في محل بوت ٠ كان « لوطة » هو الصديق الجديد الذي أعجب بتيمبوت هو الآخر وتصادقا بسرعة ٠

لوطة يتيم الابوين مثل يلدار ، لا بيت له ولا أهل ٠ يأكل عند كل من يدعوه للطعام بعد أن يقدم‌له‌خدمة ما ٠ وينام حيث يجد العطف ٠ ويلبس الملابس القديمة التي يجود بها عليه أهل الخير ٠ كان من الصعب ان تجد

(۱) مثـل شعبي ٠

أحدا في القرية لا يحب لوطة ،لادبه ودماثة خلقه وطيب معشره ٠ صحيح أن اولاد الميسورين كانوا يسخرون منه احيانا ، ولكنه كان يتحمل ذلك برحابة صدر ٠ ولم يكن يرفض أن يقدم أية خدمة يطلبها منه الناس ٠ يذهب الى الغابة ليحتطب ، او يحمل كيس الذرة الصفراء الى المطحنة ، أو ينظف اسطبل الخيل لكل من يطلب منه مثل هذه الخدمات ٠ ولم يسبق لاحد أن سمع كلمة « لا » منه ، أو سمعه يطلب اجرا لقاء عمل قام به ٠ وما يزال الكثيرون يذكرون الى الآن كيف مات أبوه وأمه في ليلة واحدة وهو صغير ، وبقي وحده يبكي في البيت ، حتى اكتشفت احدى الجارات ما حدث وأخذت الطفل الى بيتها ٠ ومنذ ذلك اليوم الى الآن لم يعد لوطة يملك مأوى خاصا به ، فهو ينتقل من بيت الى آخر ٠ كان أكبر من تيمبوت بحوالي خمسة أو ستة أعوام ، ولكنه كان ضئيل الحجمتظنه في عمر تيمبوت ٠

وذات صباح ذهب تيمبوت الى محل بوت كعادته ، فوجد العدة مبعثرة، والدولاب الذي جاؤوا به للتصليح مؤخرا ملقيا في أرض الغرفة ، والنار مطفأة ٠ فحز ذلك في نفسه ٠ يبدو ان أشياء كثيرة كانت قد حدثت في ليلة واحدة من ليالي قرية «شعلمفوقة » ٠

وأخذ الخبر ينتقل بسرعة من بيت الى آخر . غومار عاد ٠ وشردان بيرد سيصل بعد قليل ٠

وألقي القبض على عدد من الرجال الذين اشتركوا في نهب ممتلكات آلَ شردان ٠ وكان بوت ولوطة في مقدمة الذين أمسكوا بخناقهم ٠ ورغم أن الجميع يعرفون أن بوت لم يأخذ شيئا ، وان لوطة لم يشترك بكل العملية سوى بايصال حصان لبيت بشير الاعرج الذي طلب منه ذلك ٠ الا انه لم تكن توجد طريقة يمكن أن تتفاهم بها مع غومار حول ذلك ٠ فقد كان العمدة حاقدا على الحداد منذ زمن طويل ٠ وها هو قد وجد مناسبة الآن يشفي فيها غله منه ٠ ورغم أن الجميع شهدوا أن بوت حاول ايقاف عملية النهب التي حرض عليها دولت ، الا أن العمدة لم يقبل مناقشة الموضوع ٠

كانت الاحداث المحزنة في بدايتها ٠ وعندما عاد غومار ، ووجد باب بيته مخلوعا ، قال « ان أهالي قرية شعلمفوقة كانوا سينهبون بيتي أيضا » وغضب غضبا شديدا « اذا لم أجعلكم تزحفون على بطونكم العارية يا اهالي قرية شعلمفوقة فأنا لا استحق الحياة » ولم يهدأ غضبه رغم أن احدا لم يلمس « صندوق الحكومة » ولا أي غرض من أغراض بيته ٠

أما دولت فكان ما يزال مريضا ٠ ومع ذلك فلم ينس أن يرسل قطعة الخشب التي رسم عليها خطوطا الى العمدة ٠

وزحف الصقيع في ذلك العام مبكرا فتجمدت المياه ، وتوقفت المطاحن عن العمل ٠ ونزل الثلج على الذرة الصفراء فلم يستطع الناس جني أكثر محاصيلهم ٠ ولم تعد حتى المواشي تجد ماء لتشربه ٠ وحلت أيام حالكة فوق القرية ٠ كثير من البيوت لم يكن فيها ما يؤكل ، وكان عدد من الناس قد حملوا أكياسا على أكتافهم وأخذوا يتجولون وهم يستجدون قوت يومهم،

والكلاب تنبح وراءهم ٠

وانحنت الاشجار تحت وطأة الثلج والصقيع ، وانغرست اغصانها في أكوام الثلج المتراكم تحتها فغدت تشبه عناكب بيضاء كبيرة ٠ وعندما تشرق الشمس عند الظهيرة لبعض الوقت ٠ كانت الاشجار تنفض الصقيع عن أغصانها وتحاول أن تنتصب من جديد بصعوبة كبيرة ٠ ثم يمسك الصقيع من جديد بكل شيء ، حتى بذيل البقرة العجوز الذي يتدلى منه بشكل حبات من الجليد ٠

وذات يوم من مثل هذه الايام ، دخلت مجموعة من الفرسان مسرعة ومعهم غومار الى دار آل بوتش ٠

ورغم أن النهار كان قد طلع منذ زمن بعيد ، فقد بقي تيمبوت و« لو » راقدين في فراشهما ٠وبسبب البرودة داخل البيت كانا يقضيان معظم يومهما في الفراش وقد تغطيا باللحاف الثقيل القديم الذي بلي غلافه وأخذ الصوف يتدلى منه ٠ وكان تيمبوت قد وجد طريقة يشرب بها الماء دون أن يقوم من الفراش ٠ فقد وجد قصبة طويلة وضع أحد طرفيها في الدلو ليسحب الماء بفمه من الطرف الاخر ٠ وكان يسمح لاخيه «لو» باستعمال القصبة اذا أعطاه نصف حصته من رغيف خبز الذرة الصفراء ٠ وعندما وصل الفرسان كان الاخوان يتنازعان على القصبة ٠

دخل الى البيت أولا ضابط نحيل ذو عينين لامعتين لا تكادان تستقران على شيء ، يرتدي معطفا قصيرا من الفراء عليه كتافيتان٠ وحذاء طويل العنق ذا كعبين عاليين ٠ ويتمنطق بمسدس ماوزر ، ويحمل بيده سوطا ٠

ـ السلام عليكم ـ قال الضابط وهو يعرف أنهم لا يحيون النساء بهذه الطريقة ٠ وأخذ يتفحص كل ما تقع عليه عيناه داخل البيت ٠

ـ أهلا ٠ تفضلوا ـ قالت دومسارا وهي تستقبلهم محرجة قلقة ٠

ووقفت الجدة دون حراك وهي تفتح فمها ثم تغلقه غير قادرة على قول شيء وكأن لسانها قد انعقد ٠ ورمشت بعينيها الحمراوين ٠

وقفز الى داخل البيت وراء الضابط مجموعة من الرجال في مقدمتهم غومار وبشير ٠

ـ لم نأت طالبين ضيافتك ـ قال الضابط ذو الوجه الاصفر ٠ ورغم أنه كان يبحث بعينيه في أرجاء البيت باهتمام ٠فقد كان واضحا لكلّ ذي عينين أن فأرة، وليس رجلا، لا تستطيع أن تجد مكانا تختبىء فيه، في هذا البيت٠

ـ نحن لا نطلب ضيافتك ، هل فهمت ؟ أين زوجك ؟ هه ؟٠

وأجابت دومسارا بجرأة ، معتزة بمكانة زوجها ، وقد استجمعت أطراف شجاعتها :

ـ هنالك واحد فقط يستطيع ان يخبرك بمكانه ٠

من ؟
ـ الله تعالي ٠
ـ الله طبعاً يعرف ، وبعد الله أنت تعرفين ٠ أخبرينا ولا تتظاهري بالبله ٠
ـ ما أنا الا امرأة يا زالمجري ٠ الرجال لا يثقون بنا حتى يخبرونا بأسرارهم ٠
وعندما سمع « لو » اسم « زالمجري » خاف خوفا شديدا ٠
نحن متأكدون أن زوجك البلشفي الكلب يختبيء في هذه القرية ، ومعه واحد آخر مثله قولي لي ، من هو رفيقه ؟ ٠
ـ أنا لا أعرف شيئا عن ذلك ٠ اسأل من أخبرك ، فربما يعرف أكثر مما تعرف ـ قالت دومسارا بجرأة ٠
ـ كفاك ثرثرة ٠ اسحب السرير يا بشير ـ قال الارالب وهو يمد يده بحركة فجائية ويسحب اللحاف العتيق عن تيمبوت و « لو » ويلقي به على الارض فيصيب الدلو ويندلق الماء على أرض الغرفة مع قطع الجليد ، والقصبة التي كان يشرب منها تيمبوت ٠
وتعانق الوالدان شبه العاريين في الفراش مذعورين ، مستعدين للبكاء في أية لحظة ٠ وحزن تيمبوت أشد الحزن من أجل القصبة التي حطمها زالمجري بعقبه ٠ وعندما سحب بشير السرير العتيق انقصفت احدى قوائمه فوقعت السلة التي تضع فيها دومسارا ملابسها على الارض ٠
ـ أخبرينا بالتي هي أحسن يا جميلتي ٠ أين أستيمر ؟ ـ قال غومار ٠
ـ اذا كنتم تريدون أستيمر ، فابحثوا عنه كما يفعل الرجال الذين يحترمون أنفسهم ، وكفوا عن استعراض عضلاتكم أمامي ٠ ـ قالت دومسارا محتدة ٠
ـ ماذا تقولين يا ابنة القحبة الاباظية ؟ ـ قال غومار ٠
ـ أنا سألتك ، أين زوجك ؟ ـ قال الارالب وقد أعماه الغضب ـ أين نستطيع أن نجده ٠
ـ اذا كنتم رجالاً فاذهبوا الى أرض المعركة ٠ أما اذا لم تكن لديكم الشجاعة الكافية لذلك ، فابحثوا عنه هنا لعلكم تجدونه ٠ ـ قالت دومسارا وهي تضع أمامهم سلة ملابسها ـ خذوا هذه أيضا معكم ، لعل من أرسلكم يلبسها ٠ لم أكن أظن أن نبلاء قبارديا يعتبرون من الشجاعة اقتحام الغرف التي ينام فيها النساء والاطفال ٠
ـ اغلقي فمك يا ابنة القحبة ٠ أقسم انني سأقطع لسانك ـ قال غومار مهاجما ٠
ـ لن أحكم عليك الا بالاعدام ٠ حتى الاعدام قليل عليك ٠ يجب اغراقك في الماء البارد تحت الجليد ٠ ـ قال زالمجري والرذاذ يتطاير من فمه ٠
ـ اغرقني اذن ٠ اعمل كل ما تقدر عليه ٠ـ صاحت دومسارا بأعلى

صوتها وقد واتتها شجاعة لم تدر من أين جاءتها ٠
ـ ألن تغلقي فمك ؟
ـ اذا كنت تريد أن تظلم ، فلا حاجة بك الى التعقل ٠
ـ يبدو أنك لن تسكتي حتى أقطع لك لسانك ٠
ـ هذا ليس كثيرا على أمثالك ٠

ضرب الارالب دلو الماء الملقى على الارض بقدمه ، ورفع سوطه ليضرب دومسارا ، ولكنه عدل عن رأيه في آخر لحظة ٠

ـ سوقوا بقرتها فهي الوحيدة ذات النفع في هذا البيت ـ قال زالمجري باختصار واستدار ليخرج ثم أضاف وقد التفت اليها ثانية ـ هذا بأمر من المحكمة ٠ ان زوجك قد أخذ أكثر من ذلك يوم النهب ٠ وستقفون ثانية أمام شردان بيرد لتتقيأوا كل ما نهبتموه من داره ٠

خرج الارالب وصحبه وركبوا خيلهم ، بينما توجه بشير الى الاسطبل وساق أمامه بقرة آل بوتش الوحيدة ٠

ـ هذا عار ٠ أنكم تتركون أطفالي دون حليب ٠ أستحلفكم بالله وبكتابه أن تتركوا بقرتي ٠ ـ خرجت دومسارا وهي تستعطفهم في يأس ـ أية محكمة تلك التي تصدر أحكامها بهذه السرعة ٠

قبل وصول شردان بيرد بيوم واحد ، زار الارالب وغومار بيوت القرية كلها ومعهما مجموعة من الفرسان ، وصادروا ما يمكن مصادرته من بيوت الذين لهم أية علاقة بالبلاشفة ٠ وجمعوا ما صادروه في دار آل شردان ٠

وأخيرا وصل شردان بيرد ومعه مجموعة من الفرسان المدججين بالسلاح وساروا في موكب استعراضي في شارع القرية وهم يلفون رؤوسهم ببرانس صغيرة بيضاء ، فوق البرنس الاسود الكبير الذي يضعونه على أكتافهم فيغطي كفل الخيل أيضا ٠

كان الرجال الباقون في القرية قد اجتمعوا في باحة دار آل شردان منذ الصباح الباكر ٠ وجميعهم من الشيوخ المسنين ٠ واذا وجد بينهم بعض الشباب فهو أما أعرج أو أكتع او احدب ٠ ولشدة البرد كانوا يقفون منحني الظهور وقد ازرقت أنوفهم ٠ ولم يستطع أحد منهم الانصراف رغم الصقيع والبرد القارس لان العمدة أمرهم بالبقاء حتى يصل شردان بيرد ٠

اقتربت مجموعة الفرسان من الدار وفي مقدمتهم شردان نفسه وهو يرتدي معطفا قصيرا من الفراء ويركب حصانا اسود جميلا وخلفه كل من الارالب وغومار ٠ ووراء الفرسان مباشرة دخلت الدار عربة نصب عليها رشاش ٠

لم يكن شردان بيرد متقدما في السن ٠ ولكن السواد الذي تحت عينيه كان يشي بأنه ليس ممن يكرهون الشراب ٠ ورغم الهواء البارد الذي يخدش الوجوه ، فلم يبد على وجهه الشاحب أي أثر للحمرة ٠٠ كان حصانه

هائجا فأخذ يهدئه وهو ينظر الى المجتمعين • بينما كان الثلج يتساقط ببطء ولم يقل أحد من المسنين شيئا ، بل وقفوا ينظرون تارة الى راكب الحصان الاسود ، وأخرى الى عربة الرشاش ، وعندما نظر الفارس نحو بيته المحترق خيل للواقفين أن دمعة أفلتت من عينه وسقطت على الارض • ولم يهدأ حصانه ، فقفز عن ظهره وسلمه الى أحد مرافقيه الشبان • واخذ يتفحص الجدران التي نجت من النار •ومشى خلفه الارالب وضابط آخر يرتدي حذاء عسكريا طويل العنق • وترجل جميع الفرسان • بينما اتجهت العربة التي تحمل الرشاش الى مؤخرة الدار وتمركزت مصوبة فوهة الرشاش نحو المجتمعين من أهل القرية •

صعد شردان على صخرة مغطاة بالثلج ونظر الى المجتمعين دون أن يقول شيئا • وذهب الارالب اليه ووقف بجانبه مستعدا لتنفيذ أوامره • وغير بعيد عنهما وقف غومار وقفة ديك رومي جمده البرد في مكانه • سعل شردان ومسح وجهه • كان واضحا أنه يبحث عن كلمات يبدأ بها خطابه • وأخيرا بدأ حديثه بصوت أبح :

اذن • أيها الناس • ماذا اقول لكم اليوم ؟ هل كنت أنا سبب شقائكم ؟ ما هو ذنبي اذن ! هل أخذت من هذه القرية عندما غادرتها سوى التراب الذي علق بحذائي ؟ • كنت أعيش على ما خلفه لي أجدادي • هل يوجد بينكم أحد ظلمه جدي رحمة الله عليه ! ومن الذي بنى ذلك القبر الرخامي له وأحاطه بسور حديدي ، أليس أبي ؟ ـ كان شردان يشير بيديه هنا وهنالك ، ولكن هذه الحركات لم تكن تزيد كلامه وضوحا ـ ان جثة والدي أيضا ترقد في تلك المقبرة ، فماذا فعلتم بالبيت الذي بناه ؟ عدت اليوم الى دار أبي فانظروا الى ماذا جعلتموني أعود • من الذي فعل هذا يا ذوي اللحى الصهباء ؟ لماذا تقفون هكذا دون حركة أو كلمة ! أكنت استحق هذا الذي فعلتموه بي ؟ من الذي حرضكم على ذلك ؟ اليس أولئك البلاشفة الذين يثرثرون في الشوارع ! قولوا لي الآن أنتم ، ماذا تستحقون • ان الذين سينظرون في أمركم واقفون هنا • ذاك هو الارالب ، وغومار • سيقرران ما هو جدير بكم •

ونزل شردان عن الصخرة وتوجه الى حيث يقف حصانه دون أن يرفع رأسه •

ـ هيا يا زالمجري ، أنت أدرى بما يستحقه كل واحد ـ قال بيرد وهو يلتفت الى الارالب ثم ركب حصانه الذي قادوه اليه بعصبية • وباشر الارالب مهمته •

ـ ماذا سأفعل بكم ؟ ـ بدأ زالمجري كلامه ـ اذا لم أجعلكم تزحفون على بطونكم فما أحمله على وجهي ليس شاربا • الاعدام رحمة بكم • هل أشويكم على السيخ ؟ أم أدفنكم تحت الجليد لتغرقوا في الماء البارد ؟ لو أن لكل واحد منكم سبعة أرواح ، أقسم بأنني سأسحب كل روح من أرواحكم

ومعه اللحم والعظم .. غومار ! أخرج اولئك المساجين . أتظنـــون أنني لا أعرفكم جيدا ؟ أنتم شجعان عندما تنهبون أملاك النــاس . أما عندمـــا تساقون الى المحاكمة فأنتم كالقطط . اصبروا يا ناس قليلا . سنجد بوتش أستيمر قريبا ، وصديقه العزيز يلدار . وسأعرض عليكم جلديهما بعد أن اسلخهما بأظافري .

وقف المسنون متكئين على عصيهم مطرقــين حتـى أنهـى شــردان والارالب كلامهما . ولم يرفعوا رؤوسهم ، كما لم يأتوا بأية حركة . كـــان غضبهم واضحا من دفقات البخار التي تتصاعد من أفواههم سريعة متلاحقة.

فتح باب أحد الاسطبلات الذي ما زال يحمل آثار الحريق ، وأخــرجوا السجناء متجمدين من البرد غير قادرين على السيطرة على أيديهم وأرجلهم من شدة الصقيع . خرج في مقدمة السجناء بوت الذي رفع يديه الضخمتين الى فمه وأخذ ينفخ فيهما ليدفئهما . ولم يكن في القرية أحد لا يعرفه ، وكان الجميع يحبونه . ورغم أن غومار والارالب يعرفان ذلك جيدا ، الا أنهما لـم يجدا في القرية بلشفيا غيره .

ومشى خلف بوت الاخوان «موحربي» و «موسربي».كان موحربي قد وجد يوم نهبت ممتلكات آل شردان صندوقا عتيقا فأخذه الى بيته ليحفظ فيه الطحين . أما أخوه موسربي فقد كان من المعدمين . أمضى حياته وهو يعمل في بيوت الناس ، ولكنه لا يكاد يجد في بيته ما يقيم أوده . وقد حضر في ذلك اليوم ، ولكنه لم ينل سوى ركابين قديمين فأخذهما الى بيته ، عله يشتري ذات يوم حصانا ، ولكنه لم يعش حتى يرى ذلك اليوم .

واضطرب الجميع عندما ظهر الشخص الرابع . كان لوطة ، ذلك الشاب اليافع . وأخذ ينفخ في كفيه ليدفئهما مقلدا بوت .

ـ جروهم الى هنا .! ـ صاح زالمجري ، فقادوا السجناء اليه ـ « لقـد وقعت في قبضتي أيها الحداد البلشفي » قال زالمجري وهو يضرب وجـــه الحداد بكل ما أوتي من قوة . فمال بوت قليلا الى الوراء ثم استقام ثانية .

ـ حتى زوجتك تبرأت منك . أهذا ما كنت تسعى اليه ! املاك من كنت تظن أنك تنهب ؟ هل اكتفيت ؟ سأجعلك تتقيأ الآن كل ما أخذته . ان «سيف الحكومة» يقسم أنه لن يرحم واحدا منكم. البقرة الشاردة تعاد الى القطيع. أما أنتم ، فسأعيدكم الى باطن الارض . أحضروا قطع الآجر بسرعة .

أحضر الجنود قطع الآجر ، وبنوا مدرجا مؤلفا من بضعة درجات كمـــا أمر الارالب . ولم يفهم أحد معنى ذلك . نظر الارالب الى السجناء بتمعن، ووضع قطعة آجر اضافية على احدى الدرجات . وبعد أن اطمأن الى وضعها، أخرج مسدسه وأمسك بتلابيب لوطة أولا وصاح به :

ـ تعالَ معي !

وأوقف الشاب على أعلى درجة ، ثم صاح به ثانية بصوت هادر :
ـ استدر نحو الحائط يا سليل الروث ٠
أطاع لوطة ثم التفت وكأنه يقول : « ماذا جنيت يا تـرى ؟ وهل سيحتفظون بي أكثر من ذلك ؟ » ولم يكن يصدق أن شيئا سيحدث له ٠ وكان يأمل أن يتدخل احدهممنبرياللدفاع عنه ، وما يلبثون ان يطلقوا سراحه وينتهي كل هذا الامر المزعج ٠
وبعد لوطة أوقف الارالب الاخوين التوأمين موحربي وموسربي ٠ كـان طولهما واحدا فوقفا على درجة واحدة مزدوجة ٠ وأخيرا بوت ٠
ـ أيها الناس ـ قال بوت محاولا أن يتكلم ، ولكن فكه كـان متجمدا من البرد فلم يستطع متابعة كلامه ٠

ـ اخرس ! ـ قال الارالب وهو يتراجع قليلا وينظر الى رؤوس السجناء، واطمأن عندما وجدها على سوية واحدة ٠ ـ لقد قلتم ما فيه الكفاية ٠ والآن، انظروا أيها الناس كيف أنالارالب لا يضيع رصاصة على كل بلشفـي ٠ واقترب من بوت وأطلق النار من مسدسه الماوزر على مؤخرة رأس الحداد ٠ فتأرجح الحداد ذات اليمين وذات الشمال عدة مرات ثم وقع على ظهره ٠ والتصق فمه بجسم موحربي الذي كان يقف أمامه مباشرة ٠ كان في وجـه بوت حفرة بحجم قبضة اليد ٠ وطارت قبعة موحربي السوداء في الهـواء ووقع هو فوق الحداد ٠ أما موسربي ولوطة فقد بقيا واقفين دون أن يصيبهما شيء ٠ فصاح الجمع بهما :
ـ اهربا ! اهربا بسرعة ٠

قفز موسربي وهرب ٠ ولكن الارالب صوب نحوه وأطلق عليه النار فوقع محتضنا جذع شجرة ٠ ولم يفهم لوطة ما يحدث الا الآن ٠ وعندما حـاول الهرب تداعت الواح الآجر التي كان يقف عليها ووقع فوق الجليد ٠ وأخـذ ينظر الى الجمع خجلا وكأنه يعتذر عن سقوطه ٠ وعندما ركض الارالـب نحوه وهو يحمل مسدسه رفع يديه محتميا بكفيه العاريين من الرصاص ٠ فأطلق عليه الارالب رصاصتين ٠ انتفض لوطة عدة مرات ثم تمدد جثـة هامدة فوق الجليد ٠
كان موسربي ما يزال حيا ، يخمش الجليد بأظافره والبخار يتصاعد من دمه الذي يسيل منه بغزارة ٠ بينما وقف غومار يحك أنفه بأصابعه ٠ ووصل زالمجري الى الجريح وأجهز عليه برصاصتين في جبهته ٠ أما شردان بيرد فكان يجلس على صهوة جواده الاسود وهو ينظر الى كل ما يقوم بـه زالمجري ببرود ٠

انقضى ذلك النهار الشتائي القصير وبدأ الظلام يحل بسرعة ٠ وأطرق المسنون برؤوسهم كيلا يروا الدماء التي صبغت الثلج المرصوص تحـت الاقدام ٠ أما بلاتسه فقد خطا بضعة خطوات وحمل القبعـة الملقية علـى

الارض ، وغطى بها وجه بوت •

ـ أيها الناس ! ـ صاح بيرد ، ولكن أحدا من الواقفين لم يكن على استعداد ليستمع اليه • كان المسنون يهزون رؤوسهم بأسى عميق • وأخذ بعضهم يمسحون دموعهم بأكمامهم • بينما غطى آخرون وجوههم بقبعاتهم وأخذوا ينتحبون بصوت مرتفع ، ولم تعد تميز الثلج الابيض الذي يتساقط على رؤوسهم التي غطاها الشيب وتمددت أربع جثث أمامهم • أما موسربي الذي كان يرقد تحت الشجرة فقد بدا وكأنه تمدد هنالك لينصت الى حفيف الاشجار •

ـ أتسمعون ما أقوله أيها الناس ! ـ صاح شردان بيرد ثانية وقد أرخى البرنس الذي يتلثم به عن وجهه قليلا •

لم يتحرك احد من المسنين ، ووقف بلاتسه يردد وهو يشد على مقبض خنجره بكلتا يديه :

ـ لا ، لا يا شردان بيرد • «ان الغريب يأخذ بثأر البريء » كما يقول المثل •

ـ ما هذا الذي تهرف به ! ـ قال شردان بيرد منتفضا وقد بدا عليه خوف مفاجيء من شيء مجهول • ثم أصدر امرا الى مرافقيه :
ـ رشقة واحدة •

وانطلقت صلية رشاش في الهواء تردد صداها في الوادي • وتطايرت الغربان من فوق أشجار الحور العالية •

وباشارة من يد شردان تحرك مرافقوه من الفرسان ودفعوا جميع المسنين الى الوراء • ووجه رامي الرشاش المنصوب على العربة ، فوهة رشاشه نحو الجمع ويده على الزناد • واستعد الموكب للرحيل • شردان في المقدمة ، ووراءه زالمجري وغومار ثم عربة الرشاش ثم الفرسان • ولو أن شردان استطاع ان يرى وجوه الرجال ، لكان قد فهم فيما اذا كان يستطيع العودة أم لا • ولكن الظلام كان قد حل فلم ير شيئا •

وجعلت أحداث ذلك اليوم أهل القرية يؤمنون بكلام بوتش أستيمر الذي كان يردد دائما « لا تنتظروا خيرا من شردان بيرد • ان الذي يوزعه بيرد بالتساوي بين الناس هو المشانق » كانوا قد رأوا ذلك بأم اعينهم اليوم •

وعندما تفرق المسنون عائدين الى بيوتهم لم يقل أحد منهم شيئا لجاره على غير مألوف عادتهم • ربما كانوا يفكرون بما قاله استيمر يوما•• ساروا صامتين •

## تيمبــــوت ولــو

لم يعد تيمبوت يتردد على محل بوت • فقد أصبح المحل مهجورا بعـد اعدام الحداد ولوطة ، فلا صوت السندان يتردد في أرجائه ، ولا الشــرر يتطاير من موقده • وكلما مر الناس بالمحل كانوا يتذكرون الحداد فيتجدد حزنهم عليه •

وبدأت بعض مظاهر الرجولة تظهر على تيمبوت • كيف لا وهو يشعر الآن انه رجل البيت • وكان يقوم بكل ما يقدر عليه من عمل حتى يقنـــع الآخرين أنه أصبح رجلا •

وكانت دومسارا وساريمة تستشيرانه في بعض الاحيان • وترقعان لـه ملابسه كلما وجدتا خرقا مناسبة • حتى أنهما أصلحتا له احد قمصـــان أستيمر القديمة •

عندما كان يتمرن في محل بوت على الحدادة ، كان بوت مسرورا منه، يمدحه دائما • ولكن أين هو الآن من تلك الايام • فبوت المسكين لم يعد مـن الاحياء • وعلى أية حال فانه لم يستفد من عمله المهارة اليدوية فقط ، بـل أصبح اقوى من أقرانه ،وأكثر ذكاء وخبرة في الحياة • وأصبح قادرا عــلى انقاء اي واحد منهم أرضا بسهولة اذا صارعه • اما المريول الجلدي الـــذي كان يحلم به مثل مريول بوت ، فلم يفكر فيه • كثيرا ما ردد بوت « سـأورث مهنتي لهذين الشابين » وهو يعني لوطة وتيمبوت • وكان صديقه لوطـــة ماهرا وذكيا أيضا ، ولكنه لم يعد يستطيع رؤيته الا في الاحلام •

ولم يعد تيمبوت يجد ما يشغل به كل وقته • كان سيهتم بأمور البقرة ولكنهم اخذوها • ومحل الحدادة لم يعد قادرا على الذهاب اليه • كما أنـه لم يجد صديقا يحل محل لوطة •

وأصبح « لو » يحب النوم في هذه الايام كثيرا • ولكن ما العمـــل ، عليه أن ينهض عندما ينهض تيمبوت • في الصباح الباكر تنهض دومسارا وتعبث في المدفأة بملقط حديدي لتجد بعض الجمرات تحت الرماد وتجمعها • في هذا الوقت بالذات ينهض تيمبوت لان من واجبه جمع الحطب للوقود • ثم تضع دومسارا على النار قدرا فيه ماء لتهيء به طعاما •• وبعد أن ينهي تيمبوت هذا الواجب الصغير ، كان يذهب الى اسطبل الخيل • ومع انـــه نظيف منذ مدة طويلة ، وليس فيه أي حصان ، فان تيمبوت يقضي فيـــه أوقاتا طويلة وهو يعبث بأي شيء يجده فيه • ان هذا الاسطبل مهجور أيضا مثل محل بوت ولكن ما العمل ! هذا هو قدرهم •

وجد في احدى الزوايا ذات يوم طربوشا احمر كان يرتديه الحاج يونس،

فضرب به الارض عدة مرات ينفض عنه الغبار ، ثم اعاده الى مكانه .

لم يكن قد بقي لهم من منتفعات البيت سوى الاسطبل . فقد اوقدوا الخشب الذي بني به سياج حوش الدواب ، وحوش الدواب نفسه في ذلك الشتاء القارس لانهم لم يجدوا ما يوقدونه غير ذلك . وما زالوا الى الآن يلتقطون قطع الخشب والاحطاب من هنا وهنالك ليوقدوها . ذهب تيمبوت يوما الى الغابة بزحافة صغيرة ليحتطب بعض الاغصان اليابسة . ولكنه التقى ببعض الرجال الذين ضربوه ضربا مبرحا وسلبوه زحافته . ومنذ ذلك الوقت لم تعد دومسارا تسمح له بالذهاب الى الغابة .

أما « لو » فقد كانت أحواله أفضل .

وفي يوم من أقسى أيام الشتاء وبينما كانت العائلة تقول « لقد عاد أستيمر في العام الماضي في مثل هذه الايام » تلقى بلاتسه ايعازا سريا بأن عليه ان يتوجه الى سهل شجم ومعه عربة ، وأن يجد أية حجة مناسبة لذلك حتى لا يلفت الانظار .

وبدأ بلاتسه الاستعداد للسفر ، وأخذ يرقع ما يحتاج الى ترقيع من عدة الخيل . ويطعم حصانه بشكل أفضل . وكان « لو » على استعداد الذهاب معه الى أي مكان في العالم ، ولكن دومسارا لم توافق الا بصعوبة على ذهاب ابنها الاصغر في مثل هذه الرحلة الطويلة .

وفي يوم غائم ربط بلاتسه حصانه الى العربة وانطلق في طرقات مهجورة . كانت العربة تعلو وتهبط ، وينبعث من دولابها ضجيج كبير كلما صعدت على مرتفع او نزلت في منحدر . واعتاد « لو » تدريجيا على رائحة عرق الخيل التي زكمت أنفه . بينما جلس بلاتسه في مقدمة العربة صامتا . فمنذ الاحداث الرهيبة التي مرت أمامه في باحة دار آل شردان ، تغير مزاجه وأصبح جادا وصامتا وكأنه في حداد . كان يصفر أحيانا او يحث الخيل ، وما عدا ذلك لم يكن يقول شيئا . وكان الرجل العجوز ينظر باستمرار الى شيء مدفون تحت الحشيش الذي وضعه في أرض العربة ، ويفكر بولديه اللذين لجأ الى الجبال منذ مدة طويلة .

وبعد أن قطعت العربة منطقة مغطاة بالشجيرات ، ظهر فجأة تمثال مغطى بالثلج ينتصب على تلة عالية . كان هذا هو مكان اللقاء .

نهر بلاتسه الحصانين المتعبين فحادا عن الطريق ، وسارت العربة في طريق جانبي ، وكان « لو » متشوقا للحديث وللسؤال عن الحكايات التي تروى عن الجبال المحيطة بقرية « شعلمفوقة » .

ـ بلاتسه !

ـ ماذا يا صغيري ، هل تشعر بالبرد ؟

ـ كيف أبرد وأنا مغطى بالحشيش ! هل صحيح يا ترى ما يقوله الاولاد ، يقولون ان تحت كل جبل من هذه الجبال كمية كبيرة من الذهب .

ـ سأحدثك عن ذلك في طريق العودة ـ قال بلاتسة غير راغب في الحديث ٠

وعندما اقتربوا من التلة التي عليها التمثال ، طار نسر كبير مصفقا بجناحيه واتجه نحو الجبال العالية ٠ وصفر بلاتسة صفيرا خاصا ، وأخذ يضرب على العربة بمقبض سوطه ٠ وبعد ذلك سمع صوت صفير من الدغلة القريبة ٠ وشعر « لو » بالقلق ٠

ـ بلاتسه !

ـ نعم يا صغيري الاشعث ٠

ـ هل يختبىء ابي في هذه الغابة ؟

ـ وكيف ذلك ؟ ان أستيمر في مكان أبعد بكثير ٠

ـ متى سيعود أستيمر ؟

ـ لن يطول غيابه ٠ لا تقلق ٠

ـ ليته يعود ٠ ان أمي تبكي كل ليلة ٠

ـ نحن ايضا نبكي ٠ أتظن أننا لا نبكي ؟

وسمع صوت صفير من جديد من مكان قريب جدا وصفر بلاتسه ثانية ونقر على العربة بمقبض سوطه ٠ واهتزت أغصان بعض الشجيرات ، وتكسرت أغصان يابسة على الارض ثم ظهر شابان فجأة ٠

ـ السلام عليكم يا بلاتسه ٠

ـ وعليكم السلام يا أخي العجوز ٠ كيف أحوالكم ؟

ـ هل انت بلاتسة (١) حقا ؟

ـ اي والله ٠ ماذا ٠ ألا أبدو لكما كذلك ؟

ـ اننا نرى ذلك الولد الصغير الذي معك ، أشعث اكثر منك ـ قال الشاب ضاحكا ٠

ـ هه ، هذا شاب ممتاز ٠

ـ نحن نعرفك جيدا أيها الزعيم (٢) ٠ اذهب بالعربة الى هناك ٠ اقسم أننا سنملؤها لك ٠ افهمت ؟ ان ولداك يسلمان عليك ٠ لقد أرسلا اليكم ببعض الحاجيات أيضا ٠

ـ أشكرك أيها الاخ الصغير ٠ وكيف حالهما هذان الشريران ، أهما بصحة جيدة ؟

ـ انهما لا يشكوان من شيء والله ٠

ـ المهم أن يكونا سالمين ٠ وكيف حال أستيمر ؟

ـ انه بخير ويسلم عليك ٠

ـ وعليكم السلام ٠

---

(١) معناها الاشعث ٠ (٢) تطلق كلمة زعيم أيضا على الكبار في السن احتراما ٠

ـ أخبر شردان بيرد اننا لن نسامحه على دم بوت • هذا ما يقوله لـك آستيمر •

ـ آه • شردان وجه البلاء • ليته يقابل ربه في صورة خنزيـــر • اذن تعرفون انتم ايضا ما قام به من أعمال !

ـ أنعرف فقط ؟ ماذا تظن ؟•

وأخرج الشابان وهما يتحدثان مع بلاتسة ، من مخبأ مغطى بكومة مـن الحشيش المتعفن كيسين من الطحين ؛ وثلاثة اكياس من الذرة الصفـــراء وكيسا مليئا بالاضلاع المجففة ووضعوها جميعا في العربة • وبينما كـــان « لو » يمسك بلجام الحصانين ، أخذ ينظر باعجاب الى الشابين المدججـين بالسلاح •

ـ الا تحمل سلاحا أيها الزعيم ؟

ـ وكيف لا نحمل سلاحا • ألسنا رجالا ؟ • ولدينا عدد وفير من الطلقات أيضا • ـ قال بلاتسة وهو يضع يده على شيء مخبأ تحت الحشيش ـ انني أحمل البندقية التي كان ينام عليها يستيبان ايليتش عندما كان مريضا • هل تعرف يستيبان ؟•

ـ وهل يوجد أحد لا يعرفه • انه كوميسار • رافقتك السلامة •

ـ شكرا لكما •

ـ اياك ان يكتشفوا أمرك ! سوف يحرقونك •

ـ لا تقلقا من أجل ذلك • خذا هذه البندقية • تبقى لدينا بندقية اخرى تكفينا نحن الرجلين • أليس كذلك يا « لو » ؟ •

ولم يقل « لو » شيئا • بينما غطى بلاتسه الاكياس بالحشيش جيدا وانطلق بالعربة • أما الشابان فقد عادا من حيث أتيا واختفيا في الغابـــة • وأخذت العربة تنحدر مسرعة من التلة العالية ، ولم يبال « لو » وبلاتسـه بارتجاجاتها لانهما كانا يجلسان فوق الحشيش الجاف الناعم •

ـ ألم نكتشف ذهبا في الجبال ؟ ان ما نأخذه معنا أغلى من الذهب •

ـ كيف لم يسألا عن لوطة ؟ ـ قال « لو » مهموما •

ـ ماذا قلت يا صغيري ؟

ـ قالوا انهم سيأخذون بثأر بوت • ولكنهم لم يقولوا شيئا عن لوطة •

ـ سيأخذون بثأر الجميع يا صغيري • « الغريب يأخذ بثأر البريء » كما يقول المثل • ان الله لن يسامحهم ، ولن يسامحهم الانصار أيضا •

عندما ظهرت الدور الخلفية للقرية ، كان المساء قد حلّ ، ولكن الظلام لم يكن قد خيم بعد • التفت « لو » الى الوراء واستطاع ان يرى التمثـــال الكبير على التلة واستطاع ان يميز الثلج الذي ما زال يغطي احد جوانبه • غمرته فرحة طفولية • ما أن تستلم دومسارا الطحين واللحم المجفف حتـــى يشبعوا من الخبز ومرقة اللحم اللذيذة • عندما رحل في الصباح ، كانـــوا قد اقتطعوا له من حصة الجدة ، نصف رغيف من خبز الذرة الصفراء • ولكنه

احتفظ به ولم يلمسه • لو كان تيمبوت في مكانه ، لقضى عليه دون تردد، وزاد عليه حصة « لو » وحصة ساريمة أيضا • وكان راضيا أكثر من أي شيء آخر على الثقة التي وضعوها فيه ليقابل شابين من الانصار • ليس من السهل أن يطلعوك على سر كهذا ، فيجب ان تحفظ لسانك جيدا ولا تنطق بكلمة واحدة أمام احد حول الموضوع •

لن تمضي فترة طويلة حتى يعود الانصار من الجبال كما يقول بلاتسه• وعندما يعود أستيمر ، من يعرف ماذا سيجلب معه من أجل « لو » ليته يعود ولو لم يحضر شيئا • فقد اشتاق لابيه كثيرا ، كما اشتاق الى يستيبان ويلدار أيضا • كانت العربة مسرعة ، ووصل « لو » الى استنتاج بعقله الطفولي « من الافضل أن تنتهي الحرب ولا تستمر كثيرا • لقد قتلوا اوطة • من رأى رجالا يقتلون أطفالا ؟ » •

ـ جدي !

ـ ماذا أيها الاشعث • هل بردت ؟

ـ لا ، وكيف أبرد ؟ ان الحشيش دافيء • قلت أنك ستحكي لي حكاية تلك الجبال •

ـ ألم تنس ؟ • أنت على حق • سأحكي لك يا صغيري • هل تعرف أن ما يقولونه صحيح • والله ان باطن الجبل مليء بالذهب ، ولكن لا يمكن الوصول اليه •

ـ ولماذا ؟

ـ لماذا ! من الصعب أن أشرح لك لماذا • هنالك أشياء كثيرة تحول دون ذلك •

واتكأ بلاتسة على الحشيش وأخذ يروي حكاية قرية « بزوقان » وهو ينظر نحو سلسلة التلال الصغيرة الممتدة في حضن سلسلة الجبال العالية • كانت تلك القرية منقسمة على نفسها الى جماعتين متعاديتين • وذات يوم وقع شجار بينهما فقتل كل أهالي القرية في الشجار ولم يبق منهم أحد • وكان لكل جماعة من الجماعتين راع • وعندما عاد الراعيان في المساء بالمواشي ، لم يجدا في القرية سوى الجثث • فحفرا لكل عائلة قبرا ودفناها فيه ، وبنيا فوق كل قبر تلة • ثم جمعا بعد ذلك كل الذهب الموجود في القرية في حفرة واحدة وبنيا عليها تلة كبيرة ليأخذا الذهب فيما بعد • ولكن حجرا وقع من السماء على الراعيين ودفنهما في التلة نفسها • وكل من يحاول أن يحفر الآن في التلة ليخرج الذهب ، يغمى عليه بمجرد أن يصل الى جثتي الراعيين •

كان « لو » يحملق في التلال شاردا •

ـ الجشعون فقط هم الذين يحفرون في التلال ـ قال بلاتسة ـ لا يجوز أن يكون الانسان جشعا • لست بحاجة الى الشيء الذي لا تحصل عليه

يعرق جبينك . هل تعرف لماذا حل البلاء في بيت آل شردان ؟ لانهم ارادوا أن يعيشوا من جهد غيرهم . صدق من قال : « الذي يعمل يأكل اللحم ومن لا يعمل يحل به البلاء » . لا يوجد أطيب من طعام حصلت عليه بعرق جبينك .. .وصمت بلاتسة .

ـ جدي ! ـ نادى « لو » ثانية .
ـ ماذا يا صغيري . لا بد أنك شعرت بالبرد . أليس كذلك ؟
ـ والله لا أشعر بأي برد . لا بد أن أمي تخبز .
ـ طبعا ، طبعا . ومن يجيد صنع خبز الذرة الصفراء مثل دومسارا ؟

وأخذ بلاتسه بعد ذلك يؤنب أحد الحصانين ويحثه حتى دخلت العربة الى الوادي الاخير قبل الوصول الى القرية . وعندما أخذت تصعد على الكتف الآخر للوادي ، بذل الحصانان جهدا كبيرا في تسلقه بحيث يشي بثقل حمولة العربة . وبعد أن خرجت من الوادي أسرع الحصانان وقد شعرا بقرب نهاية رحلتهما المضنية . وهبت رائحة دخان الروث مع الهواء . لم يكن هنالك أدنى شك في أن دومسارا الآن ، تهيء خبز الذرة الصفراء .

ووصلت العربة الى المطحنة القديمة التي كان المدعوون من منطقة الاباظة قد ترجلوا عندها خطأ . كانت المطحنة مهجورة منذ زمن طويل فبدت كالخرابة . وكان النهير الذي يمر متجمدا ومغطى بطبقة سميكة من الجليد ، يخيل اليك معه لاول وهلة ان الماء قد انقطع عنه . ولكنه كان يجري تحت الجليد محدثا خريرا ناعما محببا . كان يبدو في هذا الفصل من السنة، كطفل ارتدى فروة والده .

وبدا بيت جراسلان مهجورا أيضا كالمطحنة القديمة . وانتصبت الاشجار التي قصفت الثلوج والصقيع رؤوسها في باحة الدار ، موحية بمزيد من الحزن . وكانت نوافذ البيت وأبوابه مغلقة المصاريع ولا أثر فيه للحياة رغم ان زوجة جراسلان ما زالت تقيم فيه . ولكن لا أحد يراها . وكانت فصيلة من الجنود التابعين لجيش « دينيكين » (١) تقيم في المستودع الطويل الذي بني غير بعيد عن الدار . وها هم يتدربون الآن في مرعى العجول القريب وقد تحلق حولهم أولاد القرية ليتفرجوا عليهم . كان الجنود الذين يركضون دون توقف بأمر من الضابط مرتبكين لان بينهم الكثير ممن لا يفهمون كلمة واحدة باللغة الروسية ، ورغم قبضة القش التي ربطت على الكتف الايسر لكل واحد منهم ، فما أن يصدر الضابط ايعازا حتى يستدير بعضهم الى اليسار ، والبعض الآخر الى اليمين فيصطدمون مثيرين ضحك الاولاد وحنق الضابط الذي يجري تارة نحو هذا وأخرى نحو ذاك ليشتمه . وبدا على الجنود أنهم زاهدون في هذا كله ، ويتظاهرون

---

(١) من قادة الثورة المضادة .

بأنهم لا يفهمون الاوامر حتى لو فهموها فعلا ، ويتابعون ركضهم فوق الثلج الذي رص تحت أقدامهم ٠

ـ أغلقوا أفواهكم وأنتم تركضون ٠ واستمعوا الي جيدا ٠ ـ يصيح بهم الضابط ٠

تعب الجنود وأخذ العرق يتصبب منهم ٠ كان بعضهم يضحك والبعض الآخر يطلق الشتائم ٠ بينما بدأ الاولاد يركضون وهم يقلدون الضابط مما زاد في غضبه ٠ ولم يكن تيمبوت يتخلف عن أولاد القرية ٠ وعندما رأى العربة مقبلة ركض نحوها ٠ فأوقفها بلاتسة قائلا :

ـ اركب أيها الجندي ٠

ـ أنا لست جنديا والله ٠ أنا حداد ٠

ـ أي حداد أنت !

ولفت نظره حمولة العربة المموهة بالحشيش فقال فرحا :

ـ أوه ٠ ما أكبر حمولتكم ٠

ـ طبعا ٠ ان الامور على ما يرام ـ قال بلاتسة بلهجة غامضة ٠

ـ أرأيت كيف يدربون الجنود يا « لو » ؟

ـ والله أنا لا أخاف منهم ٠ اننا نملك بندقية ، ورصاصا أيضا ٠

ـ لقد اخذتم ما كان مخبئا تحت التبن ٠ اتظن أنني لا أعرف ذلك !

ـ ان ما كان مدفونا تحت التبن أخذناه معنا وأعطيناه للانصار ٠

ـ كفاك ثرثرة ٠ انني أعرف كل شيء ٠ ما ادراك أنت بالانصار !

وانقطع حديث الاخوين حتى وصلوا الى الدار ٠

# الفصل التاسع

## العودة من الجبـال

كان ربيع عام ألف وتسعمائة وعشرين أروع ربيع عرفه الوطن كلـه بالرغم من كل الشائعات والاحداث الاليمة ·· وتتابعت الانباء التي تقشعر لها الابدان تتوارد · قيـل ان ضبـاط دينيكـين أعدمـوا الكوميسير « جيفينتسوف » في ساحة « مطوقشوقة » في نالتشك · وأن الكوميسـير « فيدياكين » لم يسكت عن الكلام والدفاع عن البلاشفة حتى قبيل اعدامه· فخاطوا شفتيه قبل أن يقودوه الى حبل المشنقة ، وعندما وضعوا الحبلَ في عنقه وضربوا الكرسي الخشبي الذي يقف عليه ، انقطع الحبل ووقع على الارض · فصاح المجتمعون : « كفاكم ، لا يعدم الانسان مرتين » · ومزق فيدياكين شفتيه المقطوبتين وأخذ يهتف والدم يسيل مـن فمه « يحيـا البلاشفة ·· تحيا سلطة العمال والفلاحين · النصر لنا » وصعد الى منصـة الاعدام من جديد ، ووضع رأسه في حبل المشنقة بنفسه ·

كانوا يعدمون في كل ليلة عددا من الرجال ، ويزجون بغيرهم في السجون فلا يطلع عليهم نهار آخر · وعم الحزن المدن والقرى على السواء · وكـان الفزع يملأ قلوب زوجات الغائبين كلما سمعن نبأ من هذه الانبـاء المحزنة · أما موسى وغومار فلم يكونا ينزعجان أبدا · وكانا يصرحان دون حـرج ، أن سلامتهما تتوقف على اعدام المزيد من البلاشفة · ولم تكن دانيزات التي قادت زوجها الى المشنقة لتبالي أيضا بموت البلاشفة · ولكنها كانت تشعر بالرعب احيانا عندما تتصور امكانية عودتهم الى السلطة ·

أما تشاتشا فقد عادت تتلقط الاخبار وتنطلق تدب من بيت الى آخر ، تروي ما سمعته وقد زادت عليه ضعفين · وكانت تفضل ان يخلو بيتهـا من الطعام على أن يمر يوم لا تسمع فيه خبرا جديدا ·· ولم يعد النـاس

يبالون بحديث النساء كثيرا • ولكنهم عندما رأوا دولت يجري وهو يفكح من مكان الى آخر وهو يقسم الايمان المغلظة انه لم يؤذ احدا في حياته ،فهموا أن شيئا مهما قد حدث • ولشدة قلقه من أجل هذا الذي حدث ، أباح دولت البئر التي في داره لكل الناس • وأخذ يتظاهر بأنه من أنصار « متخان قازجري » وبأنه من المسلمين المتمسكين بالعدالة والمساواة • وكان واضحا أنه بذلك يتقرب من المسنين لينال رضاهم ، وليغفروا له ما ارتكبه من أخطاء •

طالت ساعات النهار وقصرت ساعات الليل وأخذ الجو يعتدل رويدا رويدا وتخف حدة البرد والصقيع • وفي الصباح الباكر من كل يوم ، كانت أشعة الشمس الحمراء تلون قمم الجبال العالية المغطاة بالثلوج ، فيحس الناس بالدفء ينتشر في قلوبهم وعظامهم لقدوم الربيع الذي يمسح أحزان الفقراء بخيره العميم •

وذهب بلاتسة لزيارة دومسارا وروى لها آخر الانباء : عرض عليه غومار ان يبادله حصانين جيدين لجر العربات ، بحصان واحد للركوب • كما عرض عليه أحد الفرسان المرافقين لشردان ان يبيعه بيته مقابل سرج واحد • ولكن العجوز تهرب منه قائلا « وماذا أفعل أنا ببيتك ؟ لن ينفعني في شيء » وتوسل اليه « شوقمن » الفارس المرافق لشردان « خذه مني ، سنتفق فيما بعد عندما نعود » ولكن بلاتسة رفض رفضا قاطعا : « أيها الشاب يبدو أنك ستتجه الى تركيا • خذ البيت معك ، فقد تحتاج اليه هناك أكثر من حاجتي اليه » •

وما أن انتشرت هذه الانباء ، حتى ظهرت أخبار جديدة غطت عليها • فقد أخذ بعضهم يقسم الايمان المغلظة ان غومار يقضي لياليه وهو يحاول تحطيم « صندوق الحكومة » بفأس • ولكن الصندوق لم يكن من تلك الصناديق التي يمكن تحطيمها بفأس • ولم يستطع أحد أن يعرف نتيجة مساعيه • ولكن الناس رأوه ذات صباح وهو يغلق نوافذ بيته وأبوابه ، ويدق عليها الواحا خشبية من الخارج • « الله أعلم ماذا ينوي أن يفعل » قال الناس الذين رأوه وهو يدق المسامير •

وفي اليوم التالي بدأ دولت جولته وهو يروي النبأ « رحل العمدة الليلة الماضية وهو يحمل كل ما استطاع حمله من متاع » وماذا يستطيع العمدة أن يفعل أكثر من ذلك • فقد قتلوا مبعوث دينيكين ، ووضعوا الفلفل الاحمر في مؤخرة « سيريبرياكوف » وشكورو • ولن تستطيع اللحاق بهما اذا كنت تركب حصانا هزيلا •

ـ هل فهمت الآن يا أختنا ؟ لا تقلقي ، ان الدولاب يدور لصالحنا الآن • ولن يطول الامر حتى يصل أستيمر ـ قال بلاتسه بلهجة الواثق من أنه هو الوحيد الذي يعرف ما سيحدث •

ـ أعده الينا يا رب ! ليت الله يعيده الينا كما تقول • فطفلانا أصبحا مثل اليتامى وأنا كيفما اتجهت في البيت لا أواجه سوى الجدران • يقولون أن سيريبرياكوف وشآجوقة قد فرا بالقطار الى تركيا • هل هذا صحيح يا ترى ؟
ـ طبعا ، ولكن من أخبرك أنت بذلك ؟
ـ أخبرتني تشاتشا أنها سمعت ذلك بأذنيها من دولت •
ـ لقد كان دولت في المحطة ، ولا بد انه يعرف هذا الافكح اللعين •

وما أن اطل آذار حتى اصبح واضحا للعيان أن جيش دينيكين قد انهزم شر هزيمة ، ولم تعد هنالك حاجة لسؤال دولت او تشاتشا عن ذلك•
وأخذت دومسارا تنهض كل صباح مبكرة جدا • وكثيرا ما كانت تسهر الليالي دون أن يغمض لها جفن ؛ وتجري الى الباب كلما سمعت حركة متوقعة أن يكون أستيمر قد عاد • وإذا نعست قليلا وهي تجلس ، كانت تراه في أحلامها • ووصلت انباء تقول ان الانصار قد هبطوا من الجبال وأنهم يتقدمون الآن في السهول •
وجلس « لو » في زاوية يبدو عليه الانهماك بشيء يهتم بـه كثيرا • وراقبته ساريمة • كان يحضر قطعا من الخرق الحمراء ليعلقها على صدره، وصدور زملائه كما يفعل البلاشفة • ولم يتوقف « لو » عند ذلك بل أخرج الطربوش الاحمر من الاسطبل وخبأه ليرتديه عندما يصل الانصار • وعندما يرونه وهو يرتدي الطربوش الاحمر ، ويضع الخرقة الحمراء على صدره ، سيعرفون أنه بلشفي حقيقي •

وبالرغم من أن « لو » كان قلقا على هذا الطربوش ، الا ان تيمبوت لم يكن يفكر فيه اطلاقا ، لان قلقه اتجه الى شيء آخر • فقد انصرف كل انتباهه الى بقية الاسلحة التي تركوها في بيت نورعلي • يا لها من فضيحة بالنسبة له اذا عاد الانصار ولم يجدوها • وكيف يثق به أستيمر وستيبان بعد ذلك • لهذا اكثر تردده على بيت نورعلي لتفقد البنادق • وقد وصل به الهوس ان يقوم احيانا في منتصف الليل ليطمئن على أنها ما زالت في مكانها •

وهكذا وجد كل من الاخوين وساريمة ودومسارا في هذه الايام أسبابه الخاصة والشخصية لانشغال بالهم • لذلك لم يهدأ اي واحد منهم في مكانه •

وذات ليلة سمعوا أن رسولا قد جاء الى زوجة جراسلان ، التي اعتكفت في بيتها لا تغادره ، ومعها فتاة صغيرة يتيمة تقوم على خدمتها • وكان جراسلان قد اختفى تماما منذ حريق بيت آل شردان ، ولم يعرف أحد عنه اي شيء ، ما عدا دولت الذي كان يقسم الايمان المغلظة أنه قد تطوع في جيش « متخان قازجري » وأنه يقاتل معه • ولكن أحدا لم يعرف حقيقة ذلك•

وأرسلت زوجة جراسلان في طلب بلاتسه وتوسلت اليه أن يوصلها بسرعة الى محطة القطار • لماذا تريد الذهاب الى المحطة يا ترى ؟ لم يكن هنالك أدنى شك في أن هذه السيدة من شركيسيا تتبع أثر زوجها او أنها تريد اللحاق بـ « بيرد » وغومار اللذين لحق بهما زالمجري ايضا بالتأكيد •

لم يجد بلاتسه آية عضاضة في مساعدة هذه السيدة • خاصة وأن للعجوز أسبابه الخاصة للذهاب الى المدينة • فهم يقضون أمسياتهم في العتمة منذ مدة طويلة لانهم لا يملكون أية كمية من زيت الكاز • وقد سمع أنهم في المدينة يبدلون كومة من الحشيش الجاف بزجاجة زيت كاز • لذلك هيأ بلاتسه العربة واتجه الى بيت دومسارا •

عندما جاء على ذكر المدينة ، التفت بلاتسة خلسة نحو « لو » وهو يفتل شاربيه ، ففهم الصبي نية العجوز • « انه يريد أن يأخذني معه » • وغمره فرح عارم • وعبر بلاتسه عن نيته دون لف أو دوران • ولكن دومسارا لم تتحمس في ارسال الصبي معه • فالجو ما يزال باردا وهو شبه عار ولا يملك ملابس دافئة • ومع ذلك قالت أخيرا لترضي بلاتسه :

ـ فليذهب معك • ان في مساعدة انسان أيام محنته ثوابا عظيما • زوجة جراسلان امرأة غريبة • لا نعرفها ولكننا لا نكرهها • رافقتكم السلامة •

وكان هذا ما يريده بلاتسه •

أما « لو » فقد غمرته الفرحة • كان في شوق الى رؤية المدينة • وكيف لا يفرح ؟ هل الذهاب الى المدينة مثل الذهاب الى الغابة خفية دون اتباع المسالك المألوفة ! وهل الاستماع الى حكايات التلال مثل مرافقة سيدة حقيقية ، الى حيث هرب النبلاء والامراء ؟ وخاصة أنك ستأخذ السيدة الى المحطة ، فيأتي القطار وتراه • قطار حقيقي تركب فيه السيدة •

ـ هيا ، نم الآن جيدا • سآتي اليك قبل طلوع النهار لاوقظك ـ قال بلاتسه وهو ينصرف • ولكن كيف تستطيع ان تنام وكل هذا الفرح يملأ قلبك ! لم يستطع أن ينام ، وأخذ يتقلب في الفراش بدلا من ذلك • فغضب منه أخوه الذي يقاسمه الفراش وضربه بكوعه • كان من الواضح أنه يجب عليه أن ينام • ولكنه فكر « ماذا لو غيرت أمي رأيها في الصباح ورفضت ارسالي ؟ » وزال الالم الذي أحدثته ضربة اخيه في خاصرته • وفكر في أن ينقلب على جانبه الآخر مرة واحدة فقط ، ولكنه خاف من أخيه وعدل عن رأيه •

كان « لو » يعرف أن الافراح لا تكتمل دائما • من يعرف • ربما لا يتحقق حلمه في الذهاب الى المدينة غدا • « قد ترسلني الجدة الى مكان ما ، وقد يهطل المطر ، او تهب الريح » ولم يخطر بباله انه قد يصادف فرحة أكبر من فرحة الذهاب الى المدينة • أو يطرأ له ما هو أهم من مرافقة السيدة

الى محطة القطار ٠

كان الصبي يتخيل السيدة أمرأة تشبه تشاتشا ٠ نحيلة العود متشحة بالسواد ٠ ولا مجال لان لا تخاف منها قليلا ٠ ولكن لماذا تخاف ومعك رجل مثل بلاتسه ؟ وبعد ذلك ٠ حين تذهب الى المدينة لا بد أن تصادف بعض الانصار ٠ وحين تصادفهم ، الا يستحسن أن يروك وأنت تعلق قطعة من القماش الاحمر على صدرك ، وتضع الطربوش الاحمر على رأسك ؟ فقد يعجبون بك أكثر في هذه الحالة ٠ وحين نقطع النهر ، ألا يمكن ان تتوقف بنا العربة في الطريق الجبلي ؟ ٠ قد يعجز الحصانان العجوزان عن جر العربة ، من يعرف كم هو وزن السيدة ؟ ليتهم سمحوا لبلاتسه أن يختار حصانين من خيل آل شردان ٠ أو حصلوا على حصان مثل الاشقر الذي كان يمتطيه أستيمر عندما عاد في المرة الماضية ٠ ليت دولت يسمح لنا بالمرور من الطريق الذي يمر من أمام داره ، فما كنت لاضايقه بعد ذلك بالنداء خلفه « كيكوك » واستغرق في نومه أخيرا ٠

أفاق « لو » في منتصف الليل ٠ وعندما فتح عينيه بصعوبة ، وجد أحدهم جالسا عند رأسه يلاطفه ولكنه لم يستطع ان يميزه لاول وهلة ٠ لو عرف ان بلاتسه سيأتي مبكرا بهذا الشكل لما قبل بالذهاب معه الى المدينة ٠ كيف تسافر دون أن تشبع من النوم ٠ ولكن الصوت الذي يسمعه « لو » ليس صوت بلاتسة ٠

ـ «لو» أفق يا صغيري ٠ هذا أنا ٠ هه ! لقد أفاق تيمبوت ايضا وها هو يوقد النار ـ قال أستيمر ـ افتح عينيك وانظر الي أيها الاشعث ٠

استيقظ « لو » فجأة وقفز من مرقده وقد زال عنه النعاس تماما ٠ ثم عانق اباه غير عابىء بسرواله الممزق الذي هبط الى الاسفل ٠

ـ أبي !

تعانق الاب والابن مدة طويلة دون أن يتبادلا أية كلمة ٠ ربما كانت أعينهما قد ترقرقت بالدمع ٠

ـ هل عدت يا أبي نهائيا ؟ ـ تكلم « لو » أولا ٠

ـ طبعا يا صغيري ٠

وأخذت دومسارا ترفع الفراش دون ابطاء ٠ لم يكن أحد قادرا على النوم مع كل هذا الفرح الذي اقتحم البيت كالعاصفة ٠ ورأى الجدة تجلس على سجادة الصلاة التي هي عبارة عن فروة خروف وهي تتمتم أدعية بالعربية ٠ وكان بلاتسه أيضا في الغرفة ، ولكن « لو » لم ينتبه اليه بسبب الظلام ٠ أهي السيدة يا ترى ؟ قال «لو» في نفسه ٠ من كان يظن أن السيدة جميلة بهذا الشكل ؟ ولكن لماذا ترتدي معطفا مثل معاطف الجنود !

ـ هل ستقيم السلطة السوفييتية من جديد ؟ ـ سأل « لو » ٠

ـ طبعاً ٠ هذا ضروري ٠

ـ وحدك ؟

ـ ولماذا وحدي ، الا ترى من معي ؟ وهل كنت استطيع أن أحمل السلطة السوفييتية وحدي الى هنا ٠

ـ وهل حملها يلدار أيضا ؟

ـ حمل ماذا ؟

ـ السلطة ٠

ـ آه ، لقد حملها والله ٠ ـ وضحك الجميع ٠

ـ وهل حملها ستيبان ايليتش أيضا ؟

ـ أوه ٠٠ أليس ستيبان زعيمنا ، وكيف لا يحملها !

ـ وهل حملتم جميعا سلطة واحدة فقط ؟

وضحك الجميع ثانية ٠ وكاد أستيمر أيضا ينفجر ضاحكا ولكنه تظاهر بالجدية وهو يجيب على أسئلة « لو » ٠

ـ لم نجلب السلطة السوفييتية وحدها ٠ لقد جئنا معها بفتاة ايضا واسمها « ناتاشا » ٠

ـ من هي ؟

ـ لا تستعجل الامور ٠ ستعرف كل شيء فيما بعد ٠

لم يكن أستيمر قد عاد وحده ٠ كان معه الاخوان « غشوقة » و « قوداش أمرخان » و « شوجن تسوك عالم » و « نازير » العجوز ٠ كل الانصار الذين خرجوا من القرية عادوا ما عدا ولدي بلاتسة ٠ وقد طمأن استيمر العجوز على سلامة ولديه ، وأنهما تأخرا مع يلدار في محطة « مرتزاي» لحراسة الاسرى وسيعودون بين يوم وآخر ٠ أما الفتاة التي تدعى ناتاشا فكان يلدار وقازجري قد أسراها وسلماها الى ستيبان الذي كلف أستيمر بحمايتها وهو يقول : « انها وقعت في أيدينا مثل أسيرة القوقاز التي كتب عنها الشاعر الروسي الكبير ليرمنتوف » ٠

كانت فرحة « لو » بعودة ابيه لا حدود لها ، خاصة وقد عاد وهو يركب حصانا جميلا ٠ وتجهم قليلا عندما علم أن على أبيه العودة الى نالتشك في الصباح ٠ وحز في نفسه انه لم يعد نهائيا بعد ٠ وقد يطول غيابه من جديد عندما يلتحق بفرقته ٠

وحسبما روى أستيمر ، كان الجيش الاحمر قد حطم قوازق « دينيكين» واستولى على مدينة « به كوابه » وهو الآن على مشارف مدينة « قاله كيح » بانتظار جيش « متخان قازجري » الديني ٠

وأخذ تيمبوت يروي لوالده بلهجة رجال الانصار ، كيف قام بحراسة البنادق والذخيرة التي تركوها في بيت نورعلي الى اليوم ٠ ونسي « لو » حكاية مرافقة السيدة الى محطة القطار تماما ٠ وكان بلاتسه في شوق لمحادثة الفتاة الروسية التي ترتدي معاطف الجنود ، ولكنه بقي صامتا لانه لم يجد

الكلمات الروسية المناسبة ، وجلست الفتاة ، وهي أكبر من ساريمة قليلا بالسن حزينة لانها لم تكن تفهم شيئا من كل ما يقال أمامها ٠

ـ دومسارا ! ـ قال أستيمر ـ هذه الفتاة روسية ٠ انها ضيفة الله، وبعد الله فهي ضيفتك ٠ هل فهمت ؟ واسمها نا ـ تا ـ شا ٠ انها أمانة أرسلها اليك ستيبان ايليتش ٠

ـ حسنا فليكن اسمها « نطاشة » أو « نكواشة » انها فتاة جميلة ٠ مسكينة كان الله في عون أمها ٠

وعرفت الفتاة من ترداد اسمها انهم يتحدثون عنها فاطرقت صامتة وأخذ تيمبوت و « لو » ينظران اليها باستغراب ٠ « من رأى فتاة أسيرة من قبل أو سمع بفتاة أسيرة ٠ البنت يخطفونها أو يتزوجونها فتصبح امرأة » ولم يخطر ببالهما قط أن فتاة يمكن أن تحمل السلاح وتحارب مثل الجنود وتؤسر ٠

وعندما اشتعلت النار وانتشر الدفء في الغرفة ، فكت الفتاة أزرار معطفها ، وخلعت قبعتها فتساقط شعرها الذهبي على كتفيها وظهر وجهها الشاحب بوضوح في ضوء اللهب ٠

وروى لهم أستيمر قصة الفتاة ٠ كانت تدرس في معهد للطب ٠ وذهب والدها الى الحرب وهو يقود فوجا ٠ فأخذت تقضي لياليها وهي تبكي قلقا عليه٠ وأخيرا حزمت أمرها وغادرت البيت دون أن تخبر أحدا واتجهت الى عنوان والدها ٠ وبعد مدة طويلة وجدته ، ولكنها لم تهنأ به فقد قتل٠وأخذت تعمل ممرضة في الجيش ٠ وعبثا حاولت العثور على عنوان أمها التي رحلت أيضا بسبب القلاقل ٠ كانت لها عمة في روستوف ، ولكنها لم تجرؤ على الذهاب الى هناك لان الطريق لم يكن آمنا ٠ وبينما كان الفوج الذي تعمل معه في نواحي « مرتزاي » هاجمهم الانصار وحطموا الفوج وأسروها هناك ٠

نضج الطعام الذي كان يغلي في القدر على النار وهيأت دومسارا المائدة٠

ـ ناتاشا ! هذه زوجتي ٠ وهذان الوالدان تيمبوت و « لو » ولدي ٠ اعتبريهما كأخويك ٠ وذاك العم بلاتسه ٠ اعتبرينا جميعا كأهلك ٠ وأعتبري بيتي هذا كبيتك ٠ عندنا جارة لطيفة أيضا في مثل سنك اسمها ساريمة ، ستأتي لزيارتك في الصباح اطمئني واعتبري نفسك في بيتك ـ قال أستيمر بالروسية ثم أردف ـ أليس ما أقوله صحيحا يا « لو » ٠

ولكن أنى لـ « لو » أن يفهم مثل هذه الكلمات الروسية ٠ وسالت دموع ناتاشا وقد تأثرت بكلمات أستيمر ولم تنطق سوى بكلمة واحدة « سباسيبا » (١) ٠

نظر « لو » نحو النافذة ، ورأى ضوء النهار الذي بدأ يطلع ، فالتفت نحو بلاتسه وكأنه يقول « ربما تنتظرنا السيدة الآن » كان الصبي يريد

---

(١) معناها شكرا باللغة الروسية ٠

الذهاب الى نالتشك مهما كلف الامر ·

ـ أنا المسؤول يا « لو » اذا وجدت أي نبيل بعد الآن ـ قال أستيمر وكأنه قد قرأ ما يجول بذهنه ·

وتحدث بلاتسه عن الاحداث التي مرت بالقرية ، وما حل بكل من دولت وغومار وشردان بيرد · كما تحدث أستيمر عن الفوج الديني ثم اختصر حديثه :

ـ انهم قادمون وكأن الموائد بانتظارهم · سيعطيهم ينال ما يستحقونه

ـ مريمقان ينال ؟

ـ طبعا ، انه زعيمنا الآن ·

ـ انه لا يعرف القرأة والكتابة · كيف سيوقع رسائله ؟

ـ أهو الذي لا يعرف القراءة ! ـ قالت دومسارا معترضة ـ أهذا ما تعرفه ؟ والله لقد درس في روسيا ليصبح جنرالا ·

ـ انه لم يدرس ليصبح جنرالا ، ولكنه علم نفسه بنفسه ـ قال أستيمر مصححا ·

ـ يستطيع أن يفك الحروف التي كتبها · هذا ما تريد أن تقوله باختصار · والله لو كان كل من يود ان يتعلم القراءة والكتابة يستطيع أن يتعلمها ، ما كنت بحاجة سوى الى مهلة يوم واحد لاتعلمها · لا بد أنك تمزح · ـ قال بلاتسه محتجا ·

ـ ألم يتعلم يلدار القراءة والكتابة بنفسه ! من الذي علمه ؟ انه لم يتخط عتبة مدرسة في حياته ، ومع ذلك فهو يقرأ مثل البلبل · وليس خطه سيئا عندما يكتب ·

ـ انتظر قليلا · وهل أنا من يرفض ذلك ؟ ـ قال بلاتسه متراجعا ـ اذا كان يعرف القراءة من الكتب ويفهم ما يقرؤه ، هذا كل ما أطلبه أنا أيضا ولكن عندما تتصدى لقيادة الجماهير ، أليس من الواجب أن لا يتفوق عليك أحد في شيء · هل يجوز أن يفحمك أي عابر سبيل وأنت قائد ؟

ـ ومن الذي يستطيع أن يفحم ينال ؟ · أعطه القيادة فقط ، وبعد ذلك أنا المسؤول اذا استطاع أحد أن يغلبه · سنختار نحن مندوبينا ، وسينتخبه المندوبون وينتهي الامر · الذي حمل مسؤولية القيادة على كتفيه أيام الشدة هو من يجب أن ننتخبه للقيادة ، وليس أي واحد يجيد القراءة بسرعة ·

وتحمس « لو » لمعرفة المكان الذي وضعوا فيه المسؤولية التي حملها ينال على كتفيه طوال هذه المدة · لا بد أنهم وضعوها في مكان ما في الدار وسأراها في الصباح · ونام «لو» جالسا · وعندما استيقظ في الصباح كانت الشمس قد ارتفعت وتسللت أشعتها عبر أوراق الجريدة الملصقة على النافذة · ونظر حوله فلم يجد أحدا في الغرفة · وكانت الفتاة التي يسمونها ناتاشا نائمة ·

ـ آه · لقد تأخرت في النوم ـ قال « لو » لنفسه قلقا · وارتدى ملابسه

بسرعة وخرج من البيت ٠ كانت الغيوم تتراكض في السماء وكأن أشعة الشمس الدافئة تطاردها ٠ وكان الشارع موحلا يتصاعد من فوقه البخار وانتشرت رائحة الارض الرطبة ٠

ـ لو : تعال الى هنا ـ ناداه رفاقه ٠

ـ انني مشغول الآن ٠ هل فهمتم ؟ عندي عمل ٠ ـ أجاب « لو » متثاقلا ٠ كان مشغولا في الحقيقة ٠ فعليه أن يرتدي الطربوش الاحمر الذي خلفه المرحوم الحاج يونس ٠ كما أن عليه أن يعرف فيما اذا كان بلاتسه قد ذهب الى المدينة أم لا ٠ وان يعرف أين هو أبوه الآن ، هل ركب حصانه ورحل أم أنه ذهب لزيارة الجيران ٠ وأين وضعوا السلطة التي جاء بها البلاشفة هل وضعوها في مرآب العربة يا ترى ؟ وأين دومسارا وتيمبوت ؟ ولماذا لم تأت ساريمة ؟ أين ذهب الجميع ، وما الذي حدث ؟٠

## صباح سعيد

كان على أستيمر أن يعود الى نالتشك بسرعة ، فقد جاء ليسلم الفتاة الاسيرة الى دومسارا ، وقد أنهى مهمته بسرعة ، وكلف بلاتسه أن يهيء للاجتماع الذي سيعقد قريبا ٠ وكيف لا يفرح الرجل العجوز لهذه الثقة التي وضعوها فيه ٠ وما أن سمع دولت بذلك حتى خرج الى الشارع يثرثر محتجا ٠

واجتمع كل الشيوخ والنساء في القرية أمام بيت أستيمر منذ الصباح الباكر ٠ ولم يكن مفهوما كيف عرفوا جميعا بعودته بمثل هذه السرعة ٠ كانوا يظنون أن أستيمر يعرف كل شيء عن كل غائب من أفراد القرية ٠

ـ يا عزيزي ٠ يا حبة عيني ٠ قل لي ، ألم تصادف ولدي الصغير المسكين ؟ انني انتظره ليل نهار ٠ وأنا قلقة لانني لم أسمع شيئا عنه ٠ ـ قالت امرأة عجوز ٠

ـ انني خائفة من الذهاب الى السوق ٠ يقولون ان البلاشفة يصادرون كل شيء ٠ وقد جئت لاعرف الحقيقة منك أرجو أن لا تؤاخذني ٠ ـ قالت امرأة تجر ذيل ثوبها على الارض ٠

وسأله « شوجان حكيم » و « أبوق أسكر بي » عن ولديهما الغائبين ٠ كان ابن « أبوق أسكربي » قد رفض التجنيد في جيش دينيكين وهرب من القرية ٠ وتطوع أخيرا في جيش شردان بيرد ، وأعطوه رتبة ضابط مباشرة كما سمع فيما بعد ٠ وكيف يعرف أستيمر أخباره ؟ ومع ذلك أجابه بطريقة لا تحزن الرجل العجوز :

ـ لا تقلق أيها الزعيم ٠ سيعود هو أيضا باذن الله ٠ حتى لو لاقى بعض المتاعب ، سيعود حين يحل السلام ٠

ـ ألن تحاسب السلطة السوفييتية ولدي عزيز يا ترى ؟ ـ سأل عجوز آخر ٠

ـ ان السلطة السوفييتية لن تحاسب الا الذين ظلموا الناس ٠

وهل كان من الممكن أن تفوت الارملتان « بابوك » و « دانيزات » هذه الفرصة دون أن تسألا عن شيء ؟ وأعطى أستيمر تعليماته المشددة والاخيرة للعجوز بلاتسه حول تحضير الاجتماع ٠

أطلت ديسة وساريمة وروم من فوق السياج ، ولم تتجرأ أية واحدة منهن على الدخول الى الدار في هذا الزحام ٠

وارتفعت الشمس ، وأخذت قطع الجليد المتدلية من حواف أسطحة المنازل تذوب وتتساقط قطرات من الماء ٠ أو تقع على الارض وتتهشم ٠ وكذلك كانت قطع الجليد المتجمدة على أغصان الاشجار ، تذوب وتقع على الارض ٠

كان تيمبوت قد أخبر ساريمة عن عودة أستيمر وهو يركب حصانا جميلا ، ومعه فتاة روسية ما تزال نائمة الى الآن لانها متعبة ٠ وأخبرها أيضا أن يلدار سيعود مع ستيبان ايليتش قريبا ، وأنهما لم يستطيعا العودة الآن لانهما يرافقان مريمقان ينال ، قائد الجيش نفسه ٠ وكيف أن أستيمر نصب بلاتسه رئيسا مؤقتا للقرية ، وتيمبوت مساعده الآن في هذا المنصب ٠ ولم يستطع الا أن يعلق على أن دولت ليس له أي دور الآن ٠

لم تعلق ساريمة بشيء على هذه الانباء ، ولكن أفكارها كلها كانت قد اتجهت الى يلدار ٠ أين هو الآن ؟ لا بد أنه أظهر شجاعة خارقة في المعارك حتى أصبح مرافقا للقائد نفسه ٠ ووقفت ديسة تطل على دار أستيمر ٠ وفكرت بأن تذهب هي أيضا الى أستيمر وتسأله عن شيء ، ولكنها عدلت عن ذلك عندما رأته يضع السرج على حصانه ، وقالت في نفسها : لابد انه على عجلة من أمره ٠ وليس من اللائق أن أؤخره ٠

وأخذت ساريمة تتصور يلدار وهو يركب حصانا جميلا وقد علق على كمه شارة القيادة ويرتدي معطفا شركسيا رمادي اللون وعلى رأسه قلبق بلون الذهب ٠ « ليتني أراه ولو للحظة واحدة » قالت ساريمة في نفسها « وكيف تبدو الفتاة الروسية الاسيرة يا ترى ؟ المشكلة كيف تتفاهمين معها وأنت لا تعرفين اللغة الروسية ٠ ومع ذلك ليتنا نراها » ٠

وحاولت ساريمة أن تسترق النظر الى داخل بيت أستيمر من مكانها ولكنها لم تتمكن من ذلك بسبب الورق الذي يغطي النافذة ٠

وعندما هم أستيمر بركوب حصانه ، وصل بلاتسه وأمسك له الركاب وكانت دومسارا قد أخرجت بندقيته من البيت فأخذها منها وناولها لاستيمر ٠ وتتابعت الاسئلة من الناس الذين سدوا مدخل البيت ٠

ـ لم تقابل ولدنا علي اذن ؟

ـ لا ، لم أقابله ٠

ـ والله يا عزيزي لم نعرف حقيقة البلاشفة الا بعد أن رأينا جماعة شكورو ٠ الهي أخسف بهم الارض ٠ أقليل ما عملوه بنا ! ـ قالت « بابوك » وهي تتكلم بسرعة ٠

ـ لن تعرف خيري حتى تجرب غيري ـ قال بلاتسه ٠

حتى دانيزات وجدت ما تقوله :

ـ زوجي المسكين ، أنار الله قبره ، لا يغادر مخيلتي ليل نهار ٠ ليتك بقيت حيا لترى هذا اليوم ٠ كانت كل همومك ستتلاشى ٠ ولكن لا مرد لقضاء الله ٠

ـ لم تتركي له وقتا يرتاح فيه عندما كان حيا ٠ من الذي كان يناديه بالرأس النحاسي ؟ ٠

ـ وما الضرر في ذلك ٠ كنت حين أناديه كذلك أعني ذا العقل الكبير والقلب الابيض والرأس المضيء ٠ وماذا تظن غير ذلك ؟ آه يا حدادي المسكين ان رؤية وجهك اليوم حتى بالرأس النحاسي ، تساوي عندي الدنيا وما فيها ٠٠ سيلتفتون الي حين يقيمون السلطة الجديدة ٠ والله لقد خرجت من هذه الحرب أرملة فقيرة ٠ أنا من ضحايا هذه الحرب يا أستيمر ٠ أفهم ذلك يا عزيزي ٠

ـ حسنا ، حسنا يا دانيزات ـ قال أستيمر بلهجة تنم عن عدم رغبته في سماع حديثها ٠

ـ لقد فقدنا بموت المسكين ٠ كان يشبه حداد أنارتيا ٠ أعطاه الله حسن الختام ٠

ـ انظروا الي بعين الرحمة يا عزيزي ٠ ما أنا الا أرملة ٠

ـ سيلاقي كل واحد ما يستحقه ، فالسلطة السوفييتية ملك للجميع كفاك كلاما ، نحن أيضا عندنا ما نقوله ـ قال بلاتسه مقاطعا ٠

ـ وهكذا أنا اقع بينكم ككومة من القش ـ قال دولت وهو يحشر بنفسه بين الناس ٠

ـ ولماذا تقع ؟ ساعد بلاتسه ٠ ـ قال أستيمر ٠

ـ فليساعدني هو ، وهل أنا أقل شجاعة منه حتى أساعده ٠ والله لن أقبل به ٠ سأنجز كل شيء وحدي اذا لم يساعدني أحد ٠

ـ لقد وضعوا الامر في يدي أنا يا أخ ٠ أقسم أني لست بحاجة اليك ٠

ـ وهل أنا عاجز عن تسيير أمور القرية ؟ ـ قال دولت غاضبا ـ هل أنا نكرة بين الناس ؟ وهل كلامي غير مسموع ؟

ـ كيكووك ٠٠ ! ناداه تيمبوت ثم اختفى ٠ وانفجرت ساريمة ضاحكة وهربت الى البستان ٠ وضحك جميع من في الدار ٠ ولكن دولت تظاهر بأنه لم يسمع ٠

ـ الشريعة والسلطة السوفييتية مثل الاخ وأخته ـ قال دولت ـ سنواجه وجه ربنا جميعا ، ولما كان الامر كذلك ، يقول المؤمن ٠٠٠

ـ كفى يا دولت • لقد سمعنا هذا من قبل • من يختاره أهل القرية بالتصويت هو الذي سيصبح رئيسا للقرية • هل فهمت ؟ لن يأتي محافظ أو حاكم بعد اليوم لينصب عمدة للقرية • سننتخب من نريده نحن بأنفسنا، هذا ما أريد أن تنقلوه للناس بوضوح • والآن ، انصرفوا ، أنا مسافر وعلى عجلة من أمري •

كان بلاتسه فخورا بالمهمة التي أسندت اليه ، ولم يكن ليقبل التخلي عنها لاحد بأي ثمن • من الممكن أن يأتي ينال نفسه الى اجتماع القرية ومعه ابن بلاتسه • أليس ذلك سعادة بالنسبة للرجل العجوز ! وهنا عبرت ساريمة السياج فرآها أستيمر :

ـ ساريمة ، سيعود من يشغل بالك أنت أيضا قريبا • وخجلت الفتاة فتنحت جانبا ـ لماذا لم تذهبي الى البيت قبل الآن ، عندنا ضيفة • فتاة روسية ، يجب أن تتعرفي عليها •

وأرخى أستيمر العناق لجواده • فتنحى الناس على الجانبين مفسحين الطريق له • والتفت منطلق الاسارير نحو الناس المجتمعين أمام الدار ثم انطلق لا يلوي على شيء •

ومشى الجميع وراء الفارس مودعين يتحدثون ، ويتناقشون • كان دولت بفكح ، ودانيزات تردد اسم « رأسها النحاسي » وكان في مقدمة الجمع دومسارا وتيمبوت وتوقفت النسوة عند المطحنة القديمة • وعندما عاد تيمبوت ادراجه كان أستيمر قد وصل الى المنعطف واختفى •

في هذه اللحظة أفاق « لو » الذي نسي كل شيء عن الطربوش الاحمر وانطلق يبحث في أرجاء الدار عن السلطة السوفييتية التي حملها أستيمر رفاقه على أكتافهم • ولكنه لم يجدها •

لم يكن يخطر ببال « لو » أن هذه السلطة التي يبحث عنها قد وصلت الى كل القرى والمدن ، وانتشرت في السهول وفوق الانهار وأخذت تبعث دفء الامل في قلوب المسحوقين ، مثلما تدفيء أشعة الشمس أجسامهم في هذا الربيع السوفييتي الساحر •

أينما اتجهت كنت ترى الناس في الشوارع والازقة والطرق المؤدية الى قرية « سعلمفوقة » كان واضحا للعيان أن شيئا ما قد حدث ، لم يحدث له مثيل من قبل • لا يذكر أحد أن الناس خرجوا بمثل هذا العدد في أية مناسبة من المناسبات • سواء عندما قامت الحرب ، أو عندما اندلعت الثورة وأخذ الجنود يعودون من الجبهة • أو حتى عندما أعلن جماعة « داوتوقة ـ سيربرياكوف ـ شكورو ـ كيريلوف » الحرب على السلطة السوفييتية • لم ير أحد الناس في الشوارع بمثل هذا العدد من قبل ابدا •• كانت مجموعات من الفرسان تغدو وتروح دون انقطاع • وعندما ترى النسوة اللاتي ما زال أزواجهن أو أبنائهن غائبين ، الفرسان القادمين يتحلقن حولهم للسؤال عن الغائب •• وكلما رأى الاولاد الذين يجلسون على الاسيجة مجموعة جديدة من

الفرسان ، ينطلقون وهم يصيحون . أمي ٠ أمي ٠ هذا جيش جديد ٠

ومنذ ذلك اليوم ، وفي الايام اللاحقة ، كان من المألوف أن ترى الفرسان يسوقون أمامهم قطعانا من المواشي التي صادرها النبلاء والامراء ليعيدوها الى أصحابها ، أو ليوزعوها على الفقراء والارامل ، كما كانوا يوزعـــون الاملاك التي تركها أنصار الثورة المضادة عندما هربوا ٠

وتزايد عدد الفارين والخارجين على القانون في الغابات والجبال بشكل أصبح الناس معه يخافون من الذهاب الى الغابة أو الى الحقول ٠ وكان هؤلاء يهاجمون القرى أحيانا ٠ ولذلك صمم ينال وستيبـــان علـــى الاحتفـــاظ بمجموعات من الانصار وتشكيل فرقة نظامية منهم لملاحقة الخارجين عـلى القانون ٠

وكان أستيمر قد عاد على جناح السرعة الى نالتشك من أجل ذلك ٠ فقد امرهم ينال أن لا يعود أحد الى بيته دون اذن منه ٠

وظهر فارس جديد يسوق أمامه بقرة ٠وكان بلاتسه وتيمبوت ودومسارا ومعهم ساريمة ما زالوا يتمشون على الطريق عند مشارف القرية ٠ وعـرف بلاتسة الفارس : ـ ذاك القادم ، أليس هو قازجري ؟

ـ والله انه قازرجي قال تيمبوت وهو يجري نحوه ٠

وعرفهم الفارس فحث حصانه حتى وصل اليهم وقفز عن جواده وعانق أباه والآخرين ٠

ـ حسنا والله ٠ لقد عدت نهائيا اذن ؟ الشكر لك يا رب ٠ لقد قلقنـــا عليك ، انظري اليه يا دومسارا ، ألا يشبه والده ؟ ٠ ولكن قل لي ، أين ذلك الشريد الآخر ؟ ٠

ـ انه بخير أيضا ٠ لم يسمحوا له بالمجيء ٠

ـ والى أين تسوق هذه البقرة ؟ ٠

وأخذ قازجري يتمشى وهو يقود حصانه وراءه ٠ بينما ركض تيمبـوت وهو يسوق البقرة أمامه ٠ وروى لهم أن ستيبان ايليتش الذي سمع بنبـــأ مصادرة البقرة الوحيدة التي كانت تعتمد عليها دومسارا في اطعام ولديها ، انتقى لهم هذه البقرة التي صادروها من النبلاء ، وأرسلها معه بعد أن وافق مريمقان ينال نفسه على ذلك ٠ كان من الممكن أن يحضرها أستيمر نفســه ولكن ستيبان بحث عنه تاركا كل مشاغله ، ومنحه اجازة نصف يوم ليوصل البقرة الى القرية ، واغتنم قازجري هذه الفرصة لزيارة أهله ٠

وفرح «لو» الذي بقي في البيت وحده عندما رأى البقرة،ونسي حزنه على تأخره في النوم ٠ ولم يكن بيت دومسارا هو الذي دخلته الفرحة في ذلك اليوم كما لم يكن البيت الوحيد الذي استعاد حليب اطفاله ٠ كانت قرية شعلمفوقة كلها قد تنفست الصعداء من جديد بعد أيام المحنة القاسية التي مرت بهم ٠

## في مبنى المدرسة الفنية

أخذ المندوبون يتوافدون الى مبنى المدرسة الفنية الجميل المؤلف من طابقين بالعربات والخيل وسيرا على الاقدام ، فاجتمع حشد كبير من الناس، لم ير مثله حتى أهل المدينة أنفسهم في أي عهد من العهود السابقة • وضاع المندوبون بين الجموع • وكنت تستطيع ان تراهن ان أحدا من هؤلاء لم يدخل المبنى في حياته ، ولم يخطر له حتى في أحلامه أن أولاده يمكن ان يتعلموا في هذه المدرسة •

كان يخيل اليك ان كل أهل قبارديا والقرهشاي في طريقهم الى هنا • وبدا على الناس وكأنهم في عيد• ولكن أي عيد هذا الذي جمع بين الشركسي المسلم والروسي المسيحي ! • وتضايق بعضهم من كثرة الناس ، كان هؤلاء من المترددين أو المندسين في صفوف الثورة ، ولكن الاكثرية الساحقة كانوا يشعرون بأهمية هذا اليوم ، وبالمسؤولية الدقيقة الملقاة على عاتق المندوبين ، فوقفوا جماعات جماعات ، يتحدثون ويتجادلون •

كان يوما من أوائل أيام الربيع •• وصل أستيمر ومعه بلاتسه ودولت مندوبين عن أهالي قرية شعلمفوقة • وجاء معهم قازجري بن بلاتسه كفارس مرافق • وترجل الجميع وتركوا خيلهم للشاب وتوجهوا نحو المدرسة الفنية• وشعر أستيمر بالارتياح عندما رأى هذا الحشد الكبير من الناس ، وأخذ يمازح رفاقه منبسط الاسارير ، بانتظار الدخول الى قاعة الاجتماعات • بينما كان الذين جاؤوا من أماكن بعيدة ووصلوا مبكرين ، قد جلسوا في حلقات على برانسهم ليتناولوا زادهم المؤلف في معظمه من خبز الذرة الصفراء والجبن واللحم المقدد أو فطائر الجبن « الحلقة » • وكانوا يدعون كل من يمر بهم لتناول الطعام معهم ، ويقسمون الايمان المغلظة أنهم لن يسمحوا له بالمرور اذا لم يصب شيئا من طعامهم •

اقترب أستيمر وصحبه من مدخل المدرسة وهم يلقون بالتحية بصوت مرتفع على من يصادفونهم من معارفهم ، وبدا أن أكثر الناس هنا من معارفهم • •وسأل الجندي الذي يقف فوق الدرج وهو يلف على ذراعه قطعة من القماش الاحمر :

ـ هل وصل مندوبو باخسان ؟ أنصتوا يا جماعة ، هل وصل مندوبو باخستان ؟

ـ لقد وصلوا • ـ قال رجل أسمر قصير من بين الجمع •

ـ تعالوا الى هنا اذن ، اقتربوا • ومندوبو بالق ؟ هل جاء أحد من بالق؟

ـ نعم ، هنا أيضا جماعة من بالق •

ـ تعالوا الى هنا ٠
ـ والى أين يذهب جماعة « أشبي » ؟
ـ اليست أشبي تابعة لبالق ! تعالوا أنتم أيضا الى هنا ٠
وأخذ دولت يخترق الزحام ، يتبعه رفاقه ٠ فصاح مندهشا :
ـ ألا ترون جماعة المتخان ؟ لقد وصل فرسان الشريعة ٠ لا بد أن قازجري معهم ٠
ـ والله أنه معهم ـ قال أستيمر ـ ها هو المتخان نفسه ٠
ـ ها هو سمي ولدي ! انه يرتدي ملابس جميلة ٠ زوجة من التي يقولون أنها تهتم بهندامها كثيرا ؟! ٠ ها ٠ ها ٠ ها ٠ ـ ضحك بلاتسه وهو يمسح شاربيه الكبيرين ـ أظن أن معه عددا لا بأس به من الرجال ٠ ها هو بتوقة أيضا معهم ، يمشي وهو يتأرجح على ساقيه ٠
ـ صحيح ، انه بتوقة هذا الذي يمشي بجانبه ٠ ـ قال دولت وهو يتطاول على رؤوس أصابع قدميه ٠
ـ وما الغرابة في ذلك ! انهما فارسان من فرسان الشريعة ٠
وأخذ « متخان قازجري » يخترق الجمع بخط مستقيم ٠ كان يرتدي معطفا شركسيا أبيض جميلا متجندا بحزام جلدي مرصع بقطع من الذهب، وتدلى من وسطه خنجر مرصع أيضا ، ومسدس ذو مقبض فضي ، وسيف أسود طويل ٠ وفوق كل هذا كان يضع على عينيه نظارة طبية أنيقة ٠
ـ السلام عليكم يا قازجري ٠ ـ هكذا كان يسلم عليه عدد كبير من الناس ، وكان المتخان يرد عليهم وهو يلتفت يمنة ويسرة :
ـ عليكم السلام يا موسى ٠ عليكم السلام يا مريد ٠٠٠٠
هذا هو الرجل الذي اشتهر في قبارديا كلها وهو يقود «جيش الشريعة» وكان مدار كثير من الاحاديث والتعليقات بسبب المواقف المتناقضة التي وقفها خلال الاحداث الاخيرة التي اجتاحت البلاد ٠ فقد قال عنه ستيبان : « ان المتخان يخدعكم ، فهو ليس قادرا على حل مشاكلكم » وقال عنه أستيمر محذرا اهل القرية « خذوا حذركم منه ، فالزاد الذي يحمله تفوح منه رائحة العفن » ٠

كثير من الناس نظروا الى قازجري في بداية الامر على أنه مبعوث العناية الالهية في هذا الزمن القاسي ٠ ولكنهم انفضوا عنه تدريجيا بسبب الاخطاء التي ارتكبها ٠ ومع ذلك بقي معه عدد غير قليل من الناس الذين رأوا أنه يحقق مصالحهم ٠

بعد الشرك الذي نصب لجماعته في قرية « قلشبي حبلة » كان قد اتضح تماما نوع الزاد الذي يحمله لهم ، وامكاناته القيادية ٠ وقبل هذه الحادثة ، كان قد ارتكب عددا غير قليل من الاخطاء ٠ واذا كان الناس على استعداد لنسيان الاخطاء ، فكيف يستطيعون أن يفسروا تحالفه مع

« داوتوقه ـ سيبرياكوف » المعادين لاماني الجماهير • ثم ذهابه الى منطقة « جلاخستني » ليجند جيشا ويحارب السلطة السوفييتية منذ أيامها الاولى• ولولا « مريمقان ينال » لكان أمره قد انتهى عندما القى الجيش الاحمر القبض عليه وزج به في السجن • وبالرغم من أنهم غفروا له كل هذه الاخطاء القاتلة ، الا أنه لم يتعظ • وقد ظن الكثيرون أن اجتماع اليوم مكرس لمحاكمته •

وللحقيقة ، فان المتخان لم يكن يخلو من الايجابيات • فقد قاتل مع الحمر في معارك كثيرة • وعندما اجتاح جيش دينيكين منطقة القفقاس ،بذل قصارى جهده ، وسحب مجموعة من المقاتلين الى الجبال ، وكان يغير على القرى التي يحتلها جيش دينيكين • وعندما هزم هذا الجيش ، وأخذ يبحث عن النجاة بحياته عن طريق البحر الاسود ، عاد المتخان الى الساحة من جديد • ولكن أخطاءه وسوء تقديره للظروف ، عادت معه أيضا •

كان نبلاء قبارديا قد هربوا الى الغابات بعد هزيمة جيش دينيكين • وبقيت مجموعة من زعمائهم في قرية « قلشبي حبلة » ومعهم مجموعة لا بأس بها من المقاتلين ، للتشاور والاتفاق على رأي موحد • وكان يتزعمهم حاكم قبارديا السابق ، وقريبه شردان بيرد • وعندما عرف المتخان بذلك ، أرسل لهم رسولا يقول لهم : « كفانا اقتتالا ، فنحن جميعا مسلمون ! استسلموا لنا ، وسنبت بأمركم حسب القوانين وأحكام الشريعة » واستقبل النبلاء مبعوث المتخان وتشاوروا فيما بينهم ثم قالوا له : « لا يوجد مقاتلون في القرية • ونحن مستعدون للاستسلام لكم ، ولا نتصور أن المتخان يمكن أن يظلمنا » وعندما وصل هذا الجواب الى المتخان ، قال لجماعته « هيا بنا » وقاد المتطوعين الذين معه وأنصاره الى قرية « قلشبي حبلة » وعندما وصل الى تلة تشرف على القرية وقف فوقها وهو يحمل منظاره وقال لجماعته « اذهبوا واستكشفوا القرية » وهكذا بقي هو على التلة وذهب جيشه الى القرية • وما أن دخلوا جميعا الى الشارع الرئيسي حتى انهال عليهم الرصاص من البنادق والرشاشات • فقد كان جيش النبلاء مختفيا في البساتين وأكوام الحشيش ومستودعات العربات • وفي هذا اليوم تحمل جيش المتخان « ما لا يمكن حمله » ولم يعد حيا منه سوى العدد القليل • وكل من سمع بالحادث علق قائلا : « لو لم يكن المتخان يعرف شيئا ، ما بقي وحده على التلة » وكانت هذه الحادثة هي التي يقولون أنه يستحق المحاكمة عليها •

لم يكن أستيمر قد رأى هذا الرجل الشهير من قبل ، لذلك أخذ ينظر اليه بامعان • وكان يود بلاتسه أن يعلق على أناقة هذا الجيش ، ولكنه أمسك لسانه في اللحظة الاخيرة • أما دولت فلم يستطع أن يبقى ساكتا •

ـ بلاتسه ! أقسم أنك أمسكت به الآن • استعد منه حصانك ـ قال دولت على مسمع من الجميع ـ واذا لم يعده اليك فخذ منه ثمنه •

كان دولت قد تذكر ما حدث ذات يوم ، بينما كان بلاتسه واقفا يتفرج على الفرسان المارين من القرية ، كيف أن بعض فرسان الشريعة فكوا أحد الحصانين من العربة المليئة بالحشيش . وكان الآن يسخر من صاحبه .

وتهيأ بلاتسه لتنفيذ ما قاله دولت ، ولكن أستيمر التفت اليه محذرا أن هذا الوقت غير مناسب لمطالبة المتخان بمثل هذه الاشياء .

ووصلت في هذه اللحظة مجموعة من الفرسان وعلى أذرعهم قطعة من القماش الاحمر كتب عليها « فرسان دزلوقة يؤيدون السلطة السوفييتية » وبينما أخذوا ينظرون اليهم ، اختفى المتخان وجماعته .

كان هؤلاء الفرسان القادمين من الضفة الاخرى لنهر بالق ، من الذين اشتركوا في انتفاضة « دزلوقه » عام ١٩١٣ ، يعلقون على أعراف خيلهم قطعا من القماش الاحمر معلنين بذلك أنهم بلاشفة . ومرت هذه المجموعة من الفرسان مخلفة وراءها رائحة عرق الخيل . وتبعتهم عربتان تجرهما الثيران تكدست فيهما نسوة متشحات بالسواد ، تغطي رؤوسهن مناديل كبيرة . ووقفت العربتان على مقربة من المبنى ، وسأل سائق العربة :

ـ أين مكان الاقتراع للنسوة ؟

ـ عن أي شيء تسأل أيها الابله !

ـ ولماذا أنا أبله ؟ أنت والله هو الابله . الا تعرف أن النساء صار لهن حق الاقتراع ! ولكن الى أين سأذهب بهن ؟

ـ وهل هن مندوبات ؟

ـ ربما هن مندوبات . والله لا أعرف . ـ قال سائق العربة وهو يقفز عن عربته . ثم أخذ ينحيها جانبا وهو يسحب الثيران ـ هيا أيها الثور العزيز ، قد يأتي يوم يحق لك فيه أن تحضر الاجتماعات أنت أيضا .

وأخذ جندي يرتدي معاطف الجنود الروس ، ينادي من فوق المدخل :

ـ أيها الكادحون ، أيها الرفاق ، الى القاعة .

بينما كان جندي آخر يرتدي معطفا طويلا يرشد المندوبين الى القاعة، ومعه عدد من الجنود الشراكسة والقوشمة يرتدون معاطف الجنود فوق معاطفهم الشركسية .

وتزاحم رجال من الانصار والقوزاق والكادحين أمام مدخل القاعة .ووقف عدد من رجال القوشمة القادمين من الجبال يرتدون معاطف من الفرو وقد علقوا في أوساطهم سكاكين حادة في غمدها من صنعهم . ووقفت النسوة جانبا يتهامسن وقد غطين رؤوسهن ووجوههن بمناديلهن الضخمة التي لا تظهر من ورائها سوى عين واحدة ، كن يرين بها أكثر مما يرى الرجال بالعينين معا . وكان يبدو على الكادحين بشكل عام أنهم لا يعرفون السبب الذي اجتمعوا من أجله .

ـ هل وصل مندوبو ورسبي ؟

ـ نعم ، نحن هنا ٠
ـ احجزوا ثلاثة صفوف من المقاعد وراء مندوبي بالق ٠ هل وصل مندوبو القوزاق ؟ الصفوف الثلاثة الاولى على اليسار لكم ٠
ـ هذا هو العدل ٠ القوزاق دائما في المقدمة ٠ هيا أيها القوزاق ٠
ـ ومندوبو جلاخستني ؟
ـ انهم عند « الاسود » صاحب الدكانة ٠
ـ وماذا يفعلون عنده ٠
ـ يجففون ثيابهم ٠ لقد نسفت الجسور على نهر تيرك ، فاضطروا للسباحة رغم برودة الماء ٠
ـ نادوهم ، قولوا لهم اننا سنبدأ ٠ هل يجوز للثوريين ان يتصرفوا هكذا ؟

ورأى مندوبو شعلمفوقة من جديد ، بتوقة بساقيه اللتين تشبهان ساقي اللقلق قادما مع الشريعيين ٠ كانوا مدعوين لحضور المؤتمر بالرغم من كل تناقضات ماضيهم ٠

ـ السلام عليكم يا بتوقه ـ قال دولت وهو ينظر اليه وجها لوجه ٠ لكن بتوقه لم يلتفت اليه ، كان يبحث عن شيء آخر ٠
ـ القوزاق والشريعيون اجلسوا الى اليسار ـ قال جندي دو معطف طويل ـ الشريعيون وراء القوزاق ٠
ـ وكيف يجلس المسلمون بجانب الكفار ! ـ انفجر بتوقة غاضبا ـ أهذا هو القانون الجديد ؟ ليجلس معهم اذن من خلف كتاب الله وراءه ، ذاك هو الناطور بوتش أستيمر ، فليجلس معهم ٠
وغضب الجندي الذي ينظم الجلوس ، وأخذ العرق يتصبب منه ، ولكنه تمالك غضبه وهو يقول :
ـ اذن ، اصعدوا الى البلكون ٠
ـ ولماذا نجلس نحن في الغرف الخلفية دون غيرنا ؟ ليصعد الى هناك اولئك الذين أمضوا اوقاتهم في حانات تفليس بينما كنا نحن نحارب ٠ لن نجلس الا في المقاعد الامامية ٠
ـ انظروا اليه ٠ انه يشبه الذبابة التي قالت « نحن أيضا حرثنا الارض » لانها كانت تجلس على ذيل الثور ٠ ـ قال بلاتسه الذي لم يستطع الا أن يتدخل ٠
ـ أقسم يا أستيمر ، انني لو كنت مكانك ما كنت لاسكت له ٠ كيف يقول انه أولى منك بالمقاعد الامامية ! ـ قال دولت غاضبا ـ ألست واحدا من الذين أعادوا السلطة السوفييتية ؟ ٠

وظهر رجل أسمر قصير القامة يعلق في وسطه سيفا طويلا يجره على الارض ، ويتعثر به أحيانا ، ومع ذلك لم يكن يخطر بباله أن يفكه من

وسطه ·· واشتد الزحام على المدخل ، ودفع المندوبون الرجل القصير ، وبتوقة الغاضب بسبب المكان المحدد لجلوسه · وكذلك أستيمر وبلاتسه ودولت · وأخيرا جلس المندوبون في أماكنهم المحددة ، وبقي عدد غير قليل منهم واقفين لانهم لم يجدوا مكانا يجلسون فيه ·

كانت القاعة التي اجتمع فيها المؤتمر اليوم ، تشبه قاعة المدرسة التي عمل أستيمر حارسا فيها بجمالها · ولكن قاعة مدرسة روستوف كانت أوسع ، ومضيئة اكثر · ومزينة بلوحات جميلة ·

أخذ المندوبون يديرون رؤوسهم في جميع الاتجاهات وهم يتفحصون سقف القاعة وجدرانها ·· وكانت القاعة مزدحمة ازدحاما شديدا · وارتفع الضجيج الصادر عن الاحاديث ، وارتطام الاسلحة المختلفة والمهاميز التي يضعها المندوبون في أعقاب أحذيتهم · وعبق المكان برائحة الصوف الممزوج برائحة العرق ، وبرائحة الجلد المدبوغ ·

## ينال ومتخان قازجري

لم تكن الفرحة التي عمت البلاد خاصة بفرد واحد ، او بأسرة واحدة ، أو بشعب واحد · انما كانت لجميع الناس ، لجميع الكادحين · ·وكان بين المندوبين أنفسهم من لم يدرك بعد حقيقة ما حدث تماما · فها هو أحدهم يهتف « عاش ينال » وذاك بلاتسه يصيح « اننا نرفع أيدينا تأييدا لزعامة يلدار ويستيبان » وذاك ثالث يقول باستهزاء « ان جيش الشريعة لم يقاتل جيدا لانه كان ينشغل بحلقات الذكر كلما اقتربت منهم معركة » ·· لم يكن أي واحد من هؤلاء يعرف الى أين ستتجه الامور ، ولا لماذا اجتمعوا بالضبط · كانوا يعرفون شيئا واحدا فقط ، وهو أنهم قد أصبحوا احرارا، وأن ملكية الارض والماء والغابات قد انتقلت اليهم · وتركوا ما بعد ذلك من التفاصيل لقادتهم الجدد ·

وجلس أستيمر يفكر في المستقبل · انه يدرك أشياء كثيرة لا يدركها غيره من المندوبين · أما دولت وبلاتسه فقد كانا كمن جرفه السيل الى هذه القاعة · دولت بشكل خاص انطلق مع الثورة في اللحظات الاخيرة بحثا عن مجال جديد لتأكيد الذات · أما أمثال يلدار وستيبان اللذين يعرفان طريقهما جيدا ، فهم قلة بين المندوبين ·· وهم الجديرون بالقيادة حقا ·

أحس كل من في القاعة ، كل على طريقته الخاصة ، بأن هذا اليوم من الايام النادرة في حياتهم · وأن هذا الجمع من الناس على وشك اتخاذ قرارات هامة تتعلق بالمصير الشخصي لكل واحد منهم ، وبمصير البلاد في نفس الوقت · ولكنهم لم يكونوا يعرفون طبيعة هذه القرارات التي يجب أن يتخذوها ·

وصل ينال الى المسرح ، وصعد على المنصة ، وأخذ ينظر الى وجوه المندوبين • كل شيء فيه ، نظراته ، ملبسه ،طريقة وضع حزامي الرصاص المتصالبين على صدره ، وطريقته في وضع القلبق القصير على رأسه ، ومهمازاه اللامعان على عقبيه ، كان يوحي بأن هذا الرجل أهل لاستلام زمام الامور • وأنه ليس من ذلك النوع من الرجال الذين يمكن أن يتراجعوا في أي ظرف من الظروف •

وعندما ارتفعت الهتافات في القاعة ، احمر وجهه قليلا للوهلة الاولى، ثم بدت عليه أمارات السعادة • ووقف الى جانبه جميع الجالسين على المنصة • وبرز من بينهم بشكل خاص متخان قازجري بمعطفه الابيض • ونظاراته الطبية التي خلعها وأخذ يمسحها بمنديله باهتمام ، مرفوع الرأس • كان رجلا حسن الهيئة ، مع قليل من حب التظاهر في حركاته •

ولما كان ستيبان ايليتش أكبر أعضاء هيئة رئاسة المؤتمر سنا ، فقد رفع الجرس وأخذ يقرعه ايذانا بافتتاح أعمال المؤتمر • ولكن المندوبين لم يجلسوا في أماكنهم ولم يكفوا عن الضجيج •

ـ اجلسوا أيها الرفاق ! ايها الرفاق اجلسوا ! انتم الذين وراء القوزاق، اجلسوا في أماكنكم • ـ قال ستيبان ايليتش وهو يلوح بيده الضخمة •

ـ يجب أن نحاكم المتخان أولا • ـ صاح رجل من وراء استيمر •

ـ دعوا ينال يتكلم • ـ صاح آخر •

ـ كفاكم صياحا • دعونا نبدأ المؤتمر • ـ صاح ستيبان ثانية • وعندما يئس من فرض الصمت على القاعة التفت الى ينال وأردف ـ تكلم يا ينال انني أعطيك حق الكلام أولا •

أيها الكادحون ! ـ بدأ ينال خطابه جادا وسكت هنيهة ، فصمت جميع من في القاعة • وارتفع صوته ثانية ـ سنبحث موضوع ما جرى في « قلشبي حبلة » فيما بعد ، لم نجتمع اليوم من أجل ذلك •

ـ الذين يجب أن تسألهم عما حدث في « قلشبي حبلة » هم «دوخشوقة» و « ابن قلشبي » و « شردان » وشبشر ـ قال قازجري مقاطعا •

ـ نستطيع أن نجد من نسأله عن ذلك ـ رد عليه ينال على الفور •

ـ سنجد حتما من نسأله • ـ أيده ستيبان •

وتابع ينال خطابه :

ـ أيها الكادحون ! لقد أحضرتم معكم اليوم الى هذه القاعة ، الحقيقة والحرية • من عاداتنا أن نرحب بالقادم الذي يدخل البيت لاول مرة قائلين : « فلتكن السعادة رفيق خطواتك أينما حللت » • فلنرحب بالقادم العزيز الذي تطأ قدماه أرض بلادنا للمرة الاولى منذ آلاف السنين • فلنرحب بالحرية التي رسمت الفرحة على وجوه أطفالنا ونسائنا ورجالنا ، وعمرت بالسعادة قلوبهم • لقد حلت ساعة الحقيقة ، حقيقة لينين ، حقيقة كل الذين يعيشون

من عرق جبينهم • ومع الحقيقة والحرية جاءت السلطة السوفييتية • انها لم تأت ضيفا ما يلبث أن يغادرنا • انما جاءت مع تضحياتنا ، وعبر طريق فرشناها بدمائنا • لقد قاتلنا من أجلها وأنتصرنا ، وستبقى معنا الى الابد•

كان صوت ينال يرتفع ، ونبرته تشتد كلما أمعن في الكلام • وأخذ جميع من في القاعة ينصتون اليه بأحداق متسعة ، وأفواه مشدوهة •

ــ لقد كافح «داحلي» (١) من أجلها، وبشرها «قازانوفاجباغ» (٢)وقاتل الكادحون في معركة « دزلوقة » دفاعا عنها • لقد نفي الكثيرون الى سيبريا وأعدم القيصر آخرين غيرهم ، وتتابعت التضحيات عبر العصور من أجل الحرية ، من أجل أن يستطيع الكادحون التصرف في أرضهم ومائهم •والآن أيها الكادحون لقد حصلنا على كل ما كان يحلم به آباؤنا وأجدادنا • لقد حصلنا على الحرية بعد أن دفعنا الثمن غاليا من دماء شهدائنا وتضحيات شبابنا وشيوخنا ، ولكننا انتصرنا وسحقنا العدو الغادر بأقدامنا • لقد انتصرنا وأعدنا الفرحة الى الوطن كله • انتصرنا لاننا كنا على حق • لاننا ندافع عن أماني الجماهير • انتصرنا لاننا سرنا على الطريق التي رسمها لنا لينين ، لاننا اقتدينا بالشعب الروسي العظيم • ولان الحزب البلشفي كان دليلنا •• لقد انتصرنا ، ولا توجد اليوم قوة في العالم تستطيع ان تجعلنا نتراجع خطوة واحدة الى الوراء • ــ ونطق ينال الجملة الاخيرة وقد وصل الى أوج الانفعال •

أخذ المندوبون يصفقون وقوفا ، وصعد بعضهم الى الكراسي وهم يهتفون هتافات طغت عليها ضجة التصفيق • وأخرج بلاتسه الذي كان يجلس بجانب أستيمر مسدسه واطلق ثلاث طلقات نحو السقف قبل أن يتمكن أستيمر من ايقافه • فتساقطت من السقف قطع من الاسمنت والرمل والغبار وأخذ العجوز ينظر حواليه منفعلا وكأنه أدى عملا عظيما •

ــ يا له من عجوز جريء ! ــ قال أحدهم بصوت مسموع في لحظة الهدوء التي أعقبت اطلاق النار •

وشعر دولت بأن الفرصة مناسبة ليلفت الانظار اليه ، فأخذ يرجو بلاتسه أن يعيره مسدسه ليطلق ولو طلقة واحدة ولكن الاخير رفض •

ــ لاداعي لاطلاق الرصاص ، فهذا ليس عرسا ــ قال ستيبان ايليتش

ــ من يريد أن يتكلم فليرفع يده • سنصل الى اتخاذ قراراتنا اليوم بالنقاش وليس باطلاق الرصاص •

اقترب يلدار من ستيبان ايليتش وهمس في أذنه شيئا فانفرجت

---

(١) أحد الابطال الشعبيين • (٢) حكيم شعبي مشهور عاش في القرن السابع عشر •

أساريره • وأخذ يلدار يلوح لمندوبي قريته وهو يبتسم ، فانتبه له أستيمر وأحنى رأسه محييا • أما ينال فلم يبد عليه أنه ارتاح لاطلاق الرصاص في القاعة •

أما المتخان فكان ينظر الى الناس مرفوع الرأس وكأنه يقول : « لا تنسوا أنني أجلس أيضا على المنصة ، ولست أقل من ينال في شيء » •

ـ أيها الكادحون ! يا ممثلي الوطن ! أنصتوا • ـ عاد ينال الى الكلام من جديد ـ لا داعي لاطلاق الرصاص في القاعة • وفروا رصاصاتكم انني أفهم رغبة العجوز في اطلاق الرصاص • الجميع يفهمون ذلك • انه يعبر عن أوج فرحته • كل الكادحين مثله اليوم في جميع انحاء «القباردي ـ بالقر»•
ـ اشرح لنا هذا الشيء اذا سمحت ـ صاح بتوقة من مكانه ـ هل السلطة السوفييتية هي العجين ، والشريعيون هم حشوة الفطيرة أم العكس وكيف سيكون الامر في المستقبل بالضبط ؟ ليت المتخان نفسه يوضح لنا هذه النقطة •
ـ دعوا المتخان يتكلم • ـ صاح عدد من أنصار الشريعة في وقت واحد •
ـ من الذي يمنعه ؟ ليتكلم • ـ صاح آخر •
ـ والله يجب أن نحاكم المتخان على أخطائه بدلا من أن ندعه يتكلم • ـ علق أحدهم غاضبا •
ـ ولماذا نحاكم قازجري ؟ ألم يقد جيشا ، ألم يقاتل ؟ ! انه لم يمض الوقت وهو يتسكع في الحانات ، كما كان بعضهم يفعل ، ولم يكن يطلق النار وقد أعماه الهياج كما فعل ذلك العجوز قبل قليل • والله وبالله وتالله ، ان أكثركم لم يضع يده على زناد • تكلم يا قازجري •••
ـ سيتكلم المتخان أيضا • لا تستعجلوا الامور ـ قال ستيبان وهو يقف في مكانه ـ لا أدري ماذا سيقول المتخان حول العجينة وحشوة الفطيرة ، ولكنني أشك أن يدوم تحالفنا حتى الغد اذا كنتم تنظرون الى الامور بهذه العصبية • تكلم يا قازجري ، ولكن لا تنس أنت أيضا أن البلاشفة وفرسان الشريعة يضمهم حلف مشترك •
ـ لقد قاتلنا ، وهذا ليس كذبا ـ بدأ قازجري كلامه ـ لقد تمردنا بكل قوانا • فلم قاتلنا ؟ حتى نعيش مسلمين أحرارا متساوين • لم يعمل الامراء والنبلاء في الحقبة الاخيرة الا من أجل منافعهم الشخصية • أما السلطة السوفييتية فلم تعمل الا من أجل مصلحة الجماهير • فأيهما كان الاجدر باختيارنا في هذه الحالة ؟ لقد وقفنا الى جانب السلطة السوفييتية وتحالفنا مع البلاشفة •

ومن الاشياء التي كانت مثار الدهشة والاستغراب هذا اليوم ، هو جلوس « المتخان » و « المريمقان » جنبا الى جنب على منصة واحدة • بالرغم من الثأر القديم الذي بينهما • فالجميع يعرفون أن والد ينال قد قتله والد

قازجري • فهل تصالح الغريمان في هذه الحرب ؟ ! والادهى من ذلك ان النقاش يدور بعيدا تماما عن هذا الثأر القديم • ولما كان « متخان كورغوقة» والد قازجري قد قتل في الحرب الاهلية ، فقد علق بعضهم مازحا : « ان جيش دينيكين قد أخذ بثأر ينال » •

كان واضحا أن القوانين والتقاليد التي سادت قرونا طويلة ، سوف تتبدل في ظل الحياة الجديدة ، ما دام الغريمان يجلسان وراء طاولة واحدة وأمام هذا العدد الكبير من الناس •

وتابع المتخان كلامه • وبدأ ينال يترجم ما يقوله الى اللغة الروسية بعد أن أشار عليه ستيبان بذلك •

ـ لقد ابتعد الامراء والنبلاء عن الاسلام ولم يعودوا يهتمون به • ولم يكن هنالك من أمل في رجوعهم عن غيهم • ان هدفنا هو أن نعيد الكادحين الى حظيرة الدين ليعيشوا أحرارا بعيدين عن سيطرة المستغلين ، يأكلون من عرق جبينهم • ونأمل أن ننجح في ذلك •

ـ سننجح بعون الله تعالى • ـ صاح واحد من أنصاره •

ـ ولكن كيف ستوفق بين الكادحين من أديان مختلفة في الوطن الواحد ؟ـ سأله ستيبان ايليتش ـ

ـ ماذا يقول هذا الروسي ؟ ليترجم أحدكم ما يقوله ـ تصايح بعضهم •

ـ كيف ستكون العلاقة بين الشريعة والسلطة السوفييتية ؟ هذا ما نريد أن نفهمه • أيهما ستكون له الاولوية ؟ • ـ سأل بتوقة بالحاج •

ـ ستكون الامور هكذا : المحاكم الشرعية ستحكم وفقا للشريعة الاسلامية • وستنظم السلطة السوفييتية حياة المواطنين والوطن • اذا كنت مسلما ستراجع المحاكم الشرعية ، واذا كنت غير مسلم فاذهب الى المحاكم السوفييتية • ان كنت تقبل بالاسلام دينا تعال الينا • وان كنت لا تقبل فانصرف الى السوفييت •

ـ أفهم من كلامك يا قازجري أن علينا أن ننفصل • قال ينال •

وفي هذه اللحظة ، خرج دولت من بين الصفوف وأخذ يتقدم نحو المسرح وهو يقول بالحاج :

ـ أسألكم بالله ، وباسم الثورة أن تعطوني حق الكلام • أريد أن أقول كلمتين حول هذا الموضوع •

ـ قل

ـ سأتكلم بلغتين في وقت واحد حتى يفهم الجميع • بالشركسية والروسية معا •

ـ وكيف تتكلم بلغتين في وقت واحد ؟ ـ تعجب بعضهم •

ـ لعله يريد أن يقول شيئا هاما ، دعوه يتكلم •

تسلق دولت المسرح ، ووقف لحظة وهو يتمايل ، ويمسح شاربيه ، ثم

سعل • وتعلقت به أنظار الجميع •

ـ « سيكودنا » اليوم ـ بدأ دولت كلامه ـ « نارود » الشعب « دافاي » يعطونه « سفوبودا » الحرية •

وارتفع ضجيج كبير في القاعة •

ـ أنت ! لا تستطيع أن تمسك بطيختين بيد واحدة •

ـ انزل ، هذا يكفي •

ـ « شتو » ماذا « ني باينمايوت » لا تفهمونه « فاشا » أنتم •

ونفذ صبر الرئيس فقال غاضبا :

ـ يكفي هذا • اذهب الى السوق وتكلم هناك هكذا • أتظن أننا جئنا نلعب هنا ! •

ـ نقسم أن هذا صحيح •

ـ ظننا أنه سيقول شيئا ذا فائدة •

وهنا سمع صوت اطلاق رصاص من جهة القاعة • لم يكن بلاتسه هو الذي أطلق النار هذه المرة • وارتفع صوت يقول :

ـ سأقول بضع كلمات بلغتي الام اذا كان ذلك ممكنا •

ـ انه جراسلان ! ـ قال أستيمر وقد تعرف على زعيم لصوص الخيل • كان يقف عند المدخل مدججا بالسلاح •

ـ من أين جاء جراسلان الآن ـ قال بعضهم مستغربا •

ـ ماذا تريد ؟ ـ ناداه ينال ـ قل ما عندك •

ان قدومه الى هنا يحتاج الى جرأة كبيرة ، ولو أن أحدا لم يكن يبحث عنه الآن •• أخرج جراسلان مسدسه الماوزر وأطلق نحو سقف القاعة بضعة طلقات متتالية • وصاح بعد ذلك قبل أن يختفي :

ـ بمثل هذه اللغة سأخاطب قوانينكم يا قازجري • هل فهمت ؟ لا تنس ذلك •

واضطرب المتخان ولم يعرف بماذا يرد عليه • أما ينال فلم يهتز له جفن •

ـ نحن أيضا نتكلم هذه اللغة جيدا ـ قال ينال ببرود وهو ينظر نحو الباب الذي خرج منه جراسلان ـ الكثيرون جربوا ذلك ويعرفونه جيدا • أما اذا كان البعض لم يجربوا أنفسهم معنا بعد ، فسيأتي يوم نعلمهم فيه كيف نتكلم هذه اللغة •• أيها الكادحون ! ان صدورنا واسعة اليوم لان فرحتنا عظيمة ، ولا توجد قوة تستطيع أن تنغص علينا هذه الفرحة • لقد بدأنا مسيرة السعادة •

في ليلة ربيعية مقمرة ، عاد مندوبو شعلمفوقة من نالتشك • الله اعلم بماذا كان يفكر دولت الذي سار صامتا على غير عادته ، وعندما صعد

الفرسان على المرتفعات التي تطل على القرية شاهدوا الانوار التي تشع من نوافذها . وعند النهر سمعوا نباح الكلاب بوضوح . وانطلق الفرسان خببا . لم يكن قد مضى وقت طويل منذ اليوم الذي استدعى فيه حاكم فبارديا السابق استيمر وهدده . في تلك الليلة كان الصغير « لو » قد خرج الى مشارف القرية قلقا على أبيه ، ظانا أنهم سجنوه . كان أستيمر صامتا أيضا وهو يستعيد أحداث تلك الليلة ... أما أحداث اليوم فهي ما تزال طازجة في أذهان المندوبين الى مؤتمر السوفييتات الثالث . وكانت كلمات ينال ما تزال ترن في آذانهم . كانوا فخورين بأنهم ساهموا في اقامة السلطة السوفييتية في قبارديا عن طريق الاقتراع برفع الايدي ، وبانتخابهم ينال رئيسا للجنة الثورية ، كانوا يعتبرون أنهم قد وضعوا الرجل المناسب في المكان المناسب .

# الجزء الثاني

# الفصل الأول

## في دار مندوب السوفييت

ـ والله ما كان رجل واحد ليستطيع ان يحمل دجاجتي ٠ ثلاثة رجال بالكاد استطاعوا أن يجروها ٠ انظري الى آثارها ان كنت لا تصدقين ! أمسك رجلان بجناحيها بينما أخذ الثالث يضربها بعصا من الخلف حتى تمكنوا من جرها يا عزيزتي ٠

ـ ما أغرب ما تقولين ! وهل كانت دجاجتك بحجم الثور يا « وتسة » ؟

ـ وهل كانت مجرد دجاجة ؟ هل كانت دجاجة عادية ؟ احلفك بالله الذي خلقك أن تنظري الى آثارها ٠ لقد حفرت مخالبها كما تفعل سكة المحراث ٠ واحسرتاه ! ٠٠ كانت تبيض أيضا ٠ وحين أسلق احدى بيضاتها لزوجي ، كان يأكل منها حتى يشبع ، فأقدم الباقي لابني ويشبع ايضا ٠٠ متى ستنتهي من اللصوص ٠؟ كانوا يقولون أن السرقات ستنتهي عندما تقوم السلطة السوفييتية ٠ ها هي قد قامت ولكن لم يتغير شيء ٠ ليأخذه الوباء ذلك الذي سرق دجاجتي ٠ ـ تلك كانت زوجة بتوقة التي وقفت تثرثر أمام بيت أستيمر ٠ ـ من المسؤول عن هؤلاء اللصوص الآن ؟ أليست السلطة السوفييتية ، فلماذا لا تضع حدا لهم ؟ يقولون أن السلطة السوفييتية هي سلطة الجماهير ٠ ألسنا من الجماهير نحن أيضا ؟ فلماذا لا تعيد الينا ما سرق منا ؟ يجب أن يعوضونا الدجاجة الواحدة بأربع دجاجات ٠ والله لن أقبل بأقل من ذلك ٠ ألم يستيقظ بعد ؟٠

ـ عجبا يا وتسة • وهل جئت تشكين من أجل دجاجة ؟ ـ سألتها احدى النسوة فازدادت رغبتها في تنميق الكلام :

ـ من فقد خنزيرا يا عزيزتي فان صوت صياحه لا يفارق أذنيه • وأنا فقدت دجاجة ، لذلك لا يفارق صوتها أذني • من أجل هذا اتيت ، وليس لانني مشتاقة لرؤية وجه الحاكم الجديد •

اجتمع عدد كبير من الناس في باحة دار أستيمر مع أن الشمس بالكاد قد أشرقت • وبدا أن لكل واحد منهم مشكلة تقض مضجعه ولا يستطيع حلها سوى « الحاكم » وحتى الذين ليست لديهم أية مشكلة غير مستعدين للاعتراف بذلك • فهم يريدون أن يعرفوا كيف يتصرف « الحاكم » الجديد حتى يرتبوا أمورهم فيما بعد على ضوء هذه التصرفات • وهكذا كان بين الحاضرين في هذا الوقت المبكر من النهار ، اخوة اختلفوا على توزيع ارث ورثود • وآخرون غير راضين عن الحصص التي وزعت عليهم من الاراضي التي استولوا عليها •

لم يكن أستيمر قد استيقظ بعد • ووقف قازجري ابن بلاتسه البكر أمام الباب لحراسة رئيس سوفييت القرية ، لانه ما يزال في القرية عدد من الناس الذين يرغبون في القضاء على الرئيس قبل طلوع النهار • وأخذ قازجري ينظر الى المتوافدين وهو يعبث ببندقيته دون أن يقول شيئا • صار من عادة أستيمر أن يتوجه الى نالتشك في معظم الايام • ولا يعود الا بعد منتصفات الليالي • وفي الصباح الباكر يوقظه أصحاب الشكاوى •

ـ يا لدجاجتي المسكينة ! ـ صاحت وتسة ثانية وبودها أن يعرف النوافدون الجدد بشكواها ـ هل كانت تشبه دجاجة دانيزات ! انها لم تبرح مخيلتي • لو باضت أسبوعا آخر كانت سترقد على البيض •

لو سمعتها دانيزات تقول ذلك لما سكتت لها أبدا • ولكن « الفأر يلعب حيث لا توجد قطة » كما يقول المثل • لذلك تستطيع وتسة أن تقول ما تشاء في غياب دانيزات • هاتان المرأتان متشابهتان في كل شيء ، ومع ذلك لم تعترفا يوما أنهما متشابهتان الا في شيء واحد ، هو أن لكل منهما زوجا أصلع •• وعندما تعير وتسة غريمتها بأنه لم توجد في يوم من الايام شعرة واحدة على رأس زوجها بوت ، كانت تقسم الايمان المغلظة بأنه لم يخلق في تاريخ القرية كلها شاب اجمل من زوجها •

ـ لو كان زوجي مثل الرجال الآخرين لفديته بروحي • ـ قالت وتسة وهي تنظر الى جمع الرجال الذين جلسوا في صف طويل حذاء سياج دار أستيمر •

ـ عندما قلت له ان الدجاجة تصيح ، فاذهب واستطلع الامر ، لم يحرك ساكنا بل قال : « اذا لم يكن الله قد أراد سرقتها فلن يسرقوها ، أما اذا كانت مشيئته قد قضت بسرقتها فلا راد لقدره •• » انه يخشى الخروج من البيت عندما يخيم المساء • من يستطيع أن يجلس وهو ينظر الى دجاجته التي تسرق سوى زوجي الاصلع ؟•

ـ لقد كثر الخارجون على القانون • الا يمكن أن يكون أحدهم هو الذي سرق دجاجتك ؟ ـ سأل أحدهم وقبل أن تجد وتسة وقتا للاجابة ، رد عليه آخر :

ـ ماذا تقول ؟ من رأى خارجا على القانون يسرق دجاجة ! اذا سرقوا فانهم يسرقون حصانا او بقرة •• ـ ولكن وتسة لم يعجبها ذلك :

ـ أتظن أن الخارجين على القانون لا يأكلون الدجاج ؟ والله لن يترددوا ثانية واحدة في سرقتها • يجب أن يعوضني الرئيس الجديد •

ـ وأنا لن اهدأ حتى يعوض لي سريري • ـ قالت المرأة التي كانت واقفة بجانب وتسة •

ـ ما هو السرير الذي تبحثين عنه أنت أيضا ؟ •

ـ السرير الذي أخرجوه من بيت آل شردان ، لمن تظنه يعود ؟ وما الذي يمنعني من المطالبة بسريري الحديدي • الله عدوي اذا قبلت السكوت عنه•

واحتد النقاش بين الحاضرين بعد أن قال أحدهم أنه لن يبدل سريره الخشبي العتيق ، بعشرين سريرا حديديا • وقال آخرون : اننا قضينا حياتنا كلها ونحن ننام على أرض الغرفة ، ومع ذلك لم يحدث لنا شيء • أما الاكثر شبابا من بين الحضور ، فقد اعتبروا النوم في أرضية العربة خارج البيت صحيا أكثر من أي مكان آخر •

ـ النوم على السرير الحديدي ، كالنوم على غيمة • انك تقضي الليل وأنت تفكر في اللحظة التي سينهار فيها من تحتك وتقع على الارض •

وبعد أن سمعت أمينة هذه الآراء عن السرير الحديدي ، لان موقفها :

ـ انني أقبل بالسرير حتى بدون الرفاسات ، فهو يهتز بدونها على اية حال ، ويجب أن يجد لي سريرا آخر بدلا عنه اذا لم يتمكن من اعادته الـي •

ـ يبدو أن موضوعك لن ينتهي هنا • اذهبي الى المدينة ، وهناك سيخربشون لك ورقة ما وينتهي الامر •

ـ ولماذا يجب علي أن ادبدب الى المدينة ؟ ـ اعترضت أمينة ـ الله عدوي اذا خطوت خطوة واحدة • انى لي أن اعرف من يجب أن أراجعه اذا ذهبت الى المدينة • في الماضي كان يمكن الذهاب الى ابن قلشبي لاي أمر من الامور • أما الآن فلا يمكن المرور بكل الدوائر التي أحدثوها في يوم واحد• سيقول لك بعضهم اذهب الى ينال • وآخرون يفضلون الذهاب الى فازجري • أما اذا سألت دولت فسيخبرك أنه لا توجد في قبارديا كلها سلطة أعلى من سلطته •

بعد انتخاب أستيمر رئيسا لسوفييت قرية شعلمفوقة ، اختاروا دولت مسؤولا عن مكتب الضمان الاجتماعي في القرية • وهكذا حصل دولت على المسؤولية التي كان يشتهيها طوال عمره ، ولتكن ما تكون • ولما كان مكتب

الضمان الاجتماعي هو المسؤول عن الفقراء والمعدمين ؛ فقد اعتبر دولت أنه لا توجد سلطة في بلاد السوفييت كلها أهم من سلطته سوى المدعي العام. ولم يناقشه أهل القرية في ذلك ، لانهم لم يكونوا قد عرفوا مدعيا عاما في قبارديا من قبل . كانت أوامر ابن قلشبي تنفذ كحكم قاطع وينتهي الامر . والآن يقولون : « ربما ما يقوله دولت هو الصحيح . اللهم احمنا من المدعي العام » .

ـ ـ لماذا لا تذهبين الى المدعي العام يا وتسة ؟ ان دولت لا يخاف بعد الله الا من المدعي العام . ـ قال أحدهم . ولكنها اعترضت :

ـ ولماذا يجب علي أن أذهب اليه !

ـ وهل تستطيع أن تجده اذا ذهبت الى المدينة ؟ـ قال آخر مدافعا عنها ـ هنالك كتابات على كل دوائر الدولة الآن . واذا كنت لا تستطيع قراءة هذه الكتابات فلا حاجة بك الى الذهاب لانك ستضيع حتما .

وافق الجميع على أن في هذا الكلام الكثير من الحقيقة . فقد ذهب أحدهم الى المدينة ذات يوم باحثا عن المدعي العام . وعلى غفلة منه تسلل الى ما يطلقون عليه « فرع البنك المركزي » فألقوا القبض عليه ظانين أنه لص ، ولم يصدقوا قصة بحثه عن المدعي العام وما يزال في السجن بسبب ذلك .

ـ وما هو هذا الشيء الخطير لهذه الدرجة « فرع البنك المركزي » ؟ ـ سأل احدهم . ولكن احدا من الحاضرين لم يعرف ما هو . فنظروا الى وجوه بعضهم مدة طويلة ، ثم عادوا يتحدثون عن المدعي العام الذي يخشاه دولت .

ـ ان اهم مسؤول في السلطة السوفييتية كلها هو المدعي العام . ما أغباكم ! وهل يوجد موضوع لا يستطيع أن يحله المدعي العام ؟ ثم انه بالاضافة الى ذلك ، لا يمكن أن يسجن أحد أو يطلق سراحه بدون أذن منه. أتظنون أن دولت يخشاه عبثا ؟ ـ قال مسعود بطن الكبدة .

ـ لا تغلطوا يا اخوان ـ قال بتوقة زوج وتسة الذي حضر للتو ـ الشيخ سعيد هو أهم رجل بعد المتخان بالنسبة للمسلمين . اذا صادفتكم مشكلة فاذهبوا الى الشيخ سعيد . من واجب المسلم أن يقصد أخاه المسلم لحل مشاكله . أما المدعي العام فقد نصبوه من أجل المسيحيين وهذا شأنهم .

وكان أهالي قرية شعلمفوقة راضين بالفعل عن اختيار الشيخ سعيد قاضيا للمحكمة الشرعية التي أحدثت بعد مؤتمر السوفييتات ، ولم يخفوا تفاخرهم بذلك .

أما النقاش الذي يجري الآن في باحة دار أستيمر فهو مفهوم تماما وله ما يبرره . فالسلطة الجديدة التي قامت بعد انتصار الثورة لم يفهمها الا عدد قليل من الناس بالاضافة الى ان العلاقة بين ينال وقازجري ومن

ثم بين البلاشفة والجماعات الدينية ، لم تكن واضحة بسبب الصراع الخفي الذي يأخذ أشكالا متعددة بين الجانبين ٠

تابع أصحاب الشكاوى المتجمعون أمام دار استيمر نقاشهم ٠ وأخذ المطلعون على بعض الامور يشرحون للآخرين ما غمض عليهم ٠ وكان الغضب يأخذ منهم في بعض الاحيان فيوشك النقاش ان يتحول الى شجار ولكنهم ما يلبثون حتى يتصالحوا ٠٠ وظهر قلبق دولت بين الجمع ٠ منذ أن تولى المسؤولية ، كان قد غير مشيته ، وصار يحاول أن يمشي بخطوات واسعة ٠ ولكن اذا كانت ساقاك قصيرتان وفكحاوتان فما العمل ! ها هو قد وصل والخنجر الشركسي الطويل قد تدلى من وسطه ٠ لقد أصبح هم الرجل القصير أن يبدو بمظهر رجل كبير ، وند لاستيمر الذي يحلم ان يحتل منصبه في يوم من الايام ٠ اذا ملأ العنابر التي خلفها المرحوم الحاج يونس من أموال الزكاة ، فسيعطي منها من يشاء ٠ وسيحرم من لا يرضى عنه ، وهكذا سيجمع المؤيدين حوله ٠٠ وعندما التقط دولت أطراف النقاش الذي يدور بين الجمع قطع حديثهم :

ـ علام تختلفون ؟ اذا كانت لديكم مشاكل ولا تعرفون من تعرضونها عليه فاسألوني ٠

وكان هذا ما تنتظره ديسة ، فمدت رأسها النحيل على الفور وسألته :

ـ ومن الذي يجب أن أراجعه أنا سنمك الله ؟ الى من أرفع مشكلتي ؟ الا يوجد في هذه السلطة السوفييتية من يدافع عني ؟ ألست مظلومة أنا ؟ لقد أقام علي رحيم دعوى أمام المحكمة الشرعية يطلب فيها مني أن أعيد له ما أنفقه على ابنتي ، أو أن أزوجه منها ٠ أستيمر جاري « والجار هو من تقصده عند الشدة » كما يقول المثل ٠ سياجا دارينا متصلان ، واذا طارت دجاجة من عندهم تحط في دارنا ٠ لقد جئت اليه مستغيثة ولكن كيف وجدته ؟ انه ما يزال نائما بينما يدي أنا في النار ٠

ـ والله صحيح ٠ عدمت رئيسا ينام حتى الضحى ٠ ـ قال دولت مؤيدا ـ الا يخجل ؟ كيف يستطيع أن ينام وأصحاب الشكاوى يملاون داره ٠ أستيمر ! هيا استيقظ والا حرمتك من الهدايا التي جاؤوك بها ٠ هل تسمعني ؟ ٠ هات ما في سلتك يا نفيسة ٠

لم يكن اصحاب الشكاوى قد جاؤوا فارغي الايدي ٠ فبعضهم احضر معجنات مقلية بالزيت مع دجاجة ٠ وآخرون أحضروا بطة وزجاجة خمر مهربة سدت بعرنوس خال من الذرة الصفراء ٠ فتلك عادة درج عليها الناس منذ القدم ولم يستطيعوا ان يتخلوا عنها الآن ٠ ولما كان من غير اللائق أن تذهب النسوة الى المكتب الرسمي فقد جئن الى المسؤول في بيته ومعهن بعض الهدايا ٠

وحارت دومسارا في أمرها ٠ فمن عادتها ان تستقبل كل من يزور أستيمر ، ولكن عددهم كبير جدا الآن ، فكيف تستقبل كل هذا الجمع ٠ واذا لم تستقبلهم فقد تجلب العار على نفسها ٠ وهي من جهة أخرى منزعجة لان صياح الناس سيوقظ أستيمر الذي لم يأو الى فراشه الا منذ ساعات قليلة ٠ والامر هكذا كل يوم ٠

استيقظ تيمبوت و « لو » وخرجا من البيت ليتدفآ على أشعة الشمس التي لم ترتفع بعد ٠ كان الصباح باردا ، فقلص الولدان جسميهما قدر المستطاع ٠ وتسللت نفيسة الى داخل البيت من الباب الذي خرج منه الولدان وهي تحمل سلتها ٠ وأسقط في يد قازجري الذي لم يستطع أن يمنع زوجة الطحان من الدخول الى البيت ٠٠ وجمدت عينا « لو » على البندقية التي يحملها قازجري متمنيا أن يعيره اياها ليحملها قليلا ٠ وعادت دومسارا الى البيت تحمل دلو الحليب الذي حلبته من البقرة ٠

وتكلم أستيمر مخاطبا المرأة التي دخلت غرفته ظانا أنها زوجته ، ولكن الصوت الذي أجابه لم يكن صوتها ٠

ـ أنا نفيسة زوجة الطحان آدم يا طويل العمر ولست دومسارا ٠ ألم تعرفني ؟

ـ وما الذي أتى بك في مثل هذا الوقت يا نفيسة ؟ ـ سأل أستيمر بصوت ناعس ٠

ـ دامت صحتك ، وطالت رئاستك ـ قالت نفيسة وهي تردد سلسلة من الادعية ثم بدأت شكواها ـ عندي مشكلة صغيرة ٠ كان من الممكن أن لا اتي وأزعجك ، ولكنني أردت رؤيتك ، وهذا هو السبب الرئيسي الذي جئت من أجله ٠ ولست نادمة على مجيئي فقد رأيتك ٠ أرجو أن ينظر الله اليك دوما بعين العطف ٠ لست مثل وتسة التي تدب هنا وهنالك خاوية اليدين ٠ سأكون سعيدة جدا اذا تذوقت شيئا من زاد ي٠ أنا أعرف أنك لست بحاجة الى طعام ، بارك الله في رزقك ومتعك بأولادك ٠ « لو » وتيمبوت ولدان مثل الذهب ٠ والله ان غومار لم يكن ينظر الى وجه الواحد منا عندما يذهب اليه خاوي اليدين ٠ قال آدم : « ان أستيمر من جماعتنا ولن يعاتبك اذا لم تأخذي له شيئا » فليكن المسؤول قريبك ، أليس من الواجب اكرام القريب ؟ لقد أحضرت اليك قليلا من الخمر رغم معارضة آدم ٠ جعلني الله فداك ٠

ـ يعجبني موقف زوجك آدم ٠ كما تعجبني المرأة التي تذكر زوجها بالخير ٠

ـ ولماذا ؟ ٠ لا أصدق أن ذلك يعجبك ٠

ـ ليتني سمعت أنك تؤلفين له الاغاني ٠ لاعجبني ذلك أكثر ٠

وحزنت نفيسة لانها ظنت أنه يستهزىء بها ٠

ـ لتفعل ذلك دومسارا ، فمثلك من تؤلف له الاغاني ٠ كيف أؤلف أغنية من أجل زوجي آدم ! انه يقضي ايامه في المطحنة وليس هنالك ما يقال عنه٠

ـ ألم تحضري الاجتماع أنت يا نفيسة ؟

ـ وكيف لم أحضر ٠ دامت عافيتك ٠ لقد حضرت ٠

ـ ألم تسمعي كيف أصبحت المرأة مساوية للرجل ؟

ـ لقد سمعت يا عزيزي وكيف لا أسمع ؟ الجميع متساوون أمام الله ٠ والقرآن أيضا يقول أنهما متساويان ، ولكن هل نستطيع أن نجعلهما متساويين حقا ؟

ـ اسمحي لي من فضلك واخرجي قليلا ٠ سألبس ملابسي ٠

ـ ها هي زوجتك دومسارا قد عادت ٠ عجبا ٠ ان بقرتكم تحلب دلوا كاملا من الحليب ٠

وعندما طلب أستيمر ابريقا و « طشتا » ليغسل وجهه ، تصدت نفيسة للمهمة :

ـ ولماذا تطلب ذلك من زوجتك ٠ سأحضرهما أنا لك ٠ وسأصب لك الماء على يدك ٠

ودخلت وتسة وراء نفيسة وأخذت تنظر حولها وهي تفكر بعمل ينفع العمدة البلشفي ، وقد شعرت بالخجل لانها جاءت خاوية اليدين ٠

وعندما سمع أصحاب الشكاوى الآخرون صوت أستيمر ، تجمعوا عند الباب منتظرين خروجه ٠ ووقف العجوز اسحق يقص عليهم شكواه ٠ كان اليوم الذي ذهب فيه الى سوق نالتشك مع بلاتسة يوم نحس بالنسبة له ٠ استعار ثوري موسى ونقل بعض الحشيش المجفف لبيعه ، فالتقى ببعض فرسان الشريعة الذين اشتروا الحشيش منه ، ولكنهم أخذوا العربة مع الثورين أيضا ٠ وقد عرف فيما بعد أنهم ذبحوا الثورين ، وأوقدوا حطب العربة ٠ وهكذا قدموا وجبة دسمة لجيش الشريعة في ذلك اليوم ٠ وعندما عاد العجوز الى القرية ، أمسك موسى بخناقه طالبا الثورين ٠ وبما أن اسحق لم يكن يملك شيئا يعوض به موسى عن ثوريه سوى أرضه التي منحت له حديثا ، فقد فلح موسى هذه الارض ٠ وأخذ منه سرج حصانه تعويضا عن كمية من الجلد كان قد اقترضها منه ليصنع منها أحذية ٠

ـ قولوا لي بالله عليكم ، هل ثلاثة قطع من الجلد صنعت منها ثلاثة أزواج من الاحذية هي بسعر سرج الحصان ؟ لقد سلبني سرجي، كما سلبني قطعة الارض التي منحتها لي السلطة السوفييتية ٠ فماذا أفعل الآن ؟ يقول : لقد أعطيت سرجك لغومار فخذه منه ٠ ولكن أين استطيع أن أجد غومار الآن ؟ ان السلطة السوفييتية نفسها لا تستطيع أن تجده ٠

ـ أظن أن دولت يستطيع أن يحل مشكلتك ٠ ـ قال أحدهم وهو يتملق دولت ٠

ـ دولت ؟ ومن هو دولت ؟ أتظن أن أستيمر عاجز عن حل مشكلتك ؟ ثم أن دولت ليس بعيدا اذا عجز استيمر ٠

وفي هذه اللحظة خرج أستيمر من البيت ٠

ـ لماذا تلتصق بالحارس يا صغيري ؟ ـ قال وهو يرفع « لـو » عن الارض ويبعده عن طريقه ٠ وتنحى قازجري أيضا عن البـاب مفسحا الطريق لاستيمر ٠

كانت قطعة من القماش الاحمر تحيط بذراع أستيمر وقد كتب عليها « كوميسار » وكان الناس قد أطلقوا عليها « كتافيات » تشبيها لها بالكتافيات التي تميز الضباط ٠ وعندما رأوا الرجل الذي يضع الكتافيات البلشفية ، ارتفعت ضجة كبرى لان الجميع بدأوا معا في وقت واحد يحدثونه عن شكاواهم دون أن ينتظر احد منهم الآخر ٠ وارتفع صوت ديسة فوق جميع الاصوات ٠

وقال أستيمر موجها كلامه الى جمع النساء :

ـ والله انكن تستيقظن مبكرات ٠ لماذا لا تنمن قليلا ، هل تؤلمكن أسنانكن ؟٠

ـ لكل واحدة منا ضرس يؤلمها يا عزيزي ٠ ـ قالت ديسة متحدية، اسمعني جيدا ٠

وسمع أستيمر صوت نقاش دومسارا ونفيسة من داخل البيت ٠ كانت دومسارا ترفض ان تأخذ الهدية التي أحضرتها نفيسة ٠ ولكن الاخيرة أصرت على أن هذه العادة متبعة منذ القدم ، ومن المعيب أن تعيد الهدية التي أحضرتها ٠ أما وتسة التي جاءت خالية اليدين فقد أخذت تناصر دومسارا ٠ « هاتي ما أحضرته ، وأنا المسؤولة اذا لم اجد من يقبله ٠ ولكن نفيسة رفضت ذلك رفضا قاطعا ٠

ـ لقد جئت لاخبرك عن سبب وجع أسناني ٠ ـ قالت ديسة وهي تحتل الساحة ـ لماذا يجب علي انا وحدي أن اتحمل عذاب الدنيا من دون كل الناس ؟ هل الله تعالى غاضب مني أنا شخصيا ؟ ساريمة تكاد تجن وهي لا تدري ما تفعل ٠ لقد اشتكى علي رحيم أمام المحكمة الشرعية ٠ لم أدخل في حياتي محكمة أو مكتبا حكوميا ، فكيف أقف الآن أمام ساحة المحكمة ؟ ماذا فعلت لكم أنا يا أستيمر ؟ « لماذا ربط يلدار اللعين تيسه الى سياجي (١) » وما الذي يريده مني ؟ اذا كانت البنت ابنتي فأنا لا أريد أن ازوجها له حتى لو وصلت منزلته الى أن يجلس على كتفي الحاكم ٠ لا أريد مصاهرته والسلام ٠

ـ وهل رحيم أفضل ؟

(١) مثل تركي معناه : لماذا يتدخل في شؤوني ٠

ــ يوم واحد عند رحيم يعادل عاما كاملا عند يلدار ٠

ــ أنت مخطئة يا ديسة ، مخطئة ٠ ــ قال أستيمر ــ انظري الى هـذا السياج ٠ انه مصنوع من أعمدة وعيدان ٠ اخلعي الاعمدة ينهار السيـاج ٠ واذا سحبت العيدان ، لن يعود للسياج وجود ٠ ان أمر يلدار وساريمة مثـل هذا السياج تماما ٠ لن يقبل منك يلدار مثل هذا الكلام ٠

ــ الضابط ذو الفروة المهترئة هو الذي لن يقبل ؟ تمضمض بالماء ٠ وبأي حق لن يقبل ! وهل هو أخوها ! لقد استوطن الداء في بطنه ، وهل أطلب أنا موافقته ؟ « في ستين داهية » اذا لم يقبل ٠ أنا لست قلقة كثيرا مـن أجل موافقته ٠ هل سمعتم ما يقوله أيها الناس ؟ « لن يقبل يلدار » يعتبر الامر منتهيا حتى بدون موافقتي أنا ، أما اذا لم يوافق يلدار فـان الموضوع لا يمكن أن يتم ٠ أهذا هو دفاع السلطة السوفييتية عن مصالح الجماهير ! ان ابنتي ليست بقرة يا عزيزي يسلبها مني بالقوة من يشاء ٠

ــ أنت يا ديسة التي تعتبرين ابنتك بقرة تبيعينها لمن يدفع أكثر ــ قال أستيمر محتدا ــ هل سألت ساريمة عن رأيها ؟ أم أنـك لا تبالـين بموافقتها ورأيها ٠ اسكتي يا ديسة ان ما تقولينه غير لائق ٠

وقفت ديسة صامتة بعض الوقت لا تجد ما تقوله ، ثم احتدت فجأة :

ــ لقد جننت أنت أيضا يا أستيمر ٠ ماذا أفعل الآن ٠ لقد كنت أعتمـد عليه لرفع الغبن عني ٠ ولكنكم سمعتم ما قاله ٠ يا الهي ما أطول صبرك! يـ ربي كيف تتحمل ما يلحق بي من عذاب !

وعاد أستيمر يسمع صوت نقاش النسوة الثلاث من داخل المنـزل ٠٠ من أجل خاطر الله لا تتركي هذا الشيء في بيتي ، سوف يوجه الي كلامـا قاسيا بسببك ٠ قالت دومسارا متوسلة ٠ ما أعجب ما تقولينه ، الا يعـرف البلاشفة العادات الشركسية ؟ ردت نفيسة مصرة ٠

ــ هاتي زجاجة الخمر ــ قالت وتسة ــ أنا المسؤولة اذا لم يأت أستيمر وراءها بنفسه ٠

ــ استغفر الله ٠ ما هذا الذي تقولينه ؟

وتابعت ديسة كلامها وكأنها تلقي خطابا في اجتماع عام :

ــ الى أين أذهب الآن ؟ ومن الذي يهمه أن يدافع عن الارملة المسكينة؟ ومن أين أطعم الصغيرة روم ؟ آه ما أتعس حظي ! ما الذي أغضب الله مني؟ فأنا لم أقتل ولم أسرق ٠ ولماذا يحاول رحيم وجه البلاء أن يدفنني حية ٠

ــ كفاك ثرثرة ٠ قولي ما تريدينه منا مباشرة ٠

ــ وماذا أريد منكم أنتم يا جنس الابالسة ٠ لا أريد منكم شيئـا ٠ اتركوني وشأني فقط ٠

ــ لماذا توجعين رأسي اذن ؟

ــ من أين أحصل علـى ما أوفي به ديون رحيم ؟ هذا ما ينغص عـلي

حياتي . اذا كان يوجد قليل من الذرة الصفراء في عنبرنا ، فمن أموال الزكاة. لم أر هذا العام عربوسا واحدا من أرضنا . كنت أفكر أن تتحسن معيشتنا اذا صاهرنا رحيم . ولكنهم لم يسمحوا لي بذلك .

لم يعد الناس يستسيغون كلام ديسة . وارتفع احتجاج النسوة على آستيمر لانه يضيع الوقت كله معها . وكان بعض الرجال الذين يراهم الآن قد جاؤوه من قبل .

ـ أنت ، الم أقل لك أنني سأعطيك قطعة أرض أخرى ، فلماذا جئت ثانية ؟. ـ قال أستيمر وهو يؤنب أحدهم .

ـ في أي موقع ستعطوني الارض الجديدة ؟ جئت أسأل اذا كانت في الوادي أم على التلة الشمالية .

ـ لا أعرف أين ، ولكني سأعطيك من الدفعة الجديدة التي سنوزعها.

ـ أنا أقبل بذلك ، ولكن اذا عادوا وسلبوا الارض منا ثانية فماذا ينبغي علينا أن نفعل ؟

ـ ومن الذي سيسلبك اياها ؟

ـ وكيف أعرف ؟ ربما صاحبها .

سمع أستيمر عددا كبيرا من الشكاوى ، وحل الكثير من المشاكل . ولكنه لم ينس مشكلة ديسة . من الواجب عليه أن يساعدها فعلا .. المحكمة الشرعية التي بثت الذعر في قلبها تعتبر انجازا هاما تحقق على يد المتخان قازجري . وبفضله أيضا تم تعيين الشيخ سعيد قاضيا شرعيا في هذه المحكمة . ومع أن المسلمين فرحوا بهذا الانجاز ، الا أن الكثيرين أيضا كانوا يخشون أحكامها . وبفضل هذه المحكمة أخذ نجم أنصار الشريعة يصعد باستمرار . وأخذ المتخان يطلب المزيد من السلطة والنفوذ على حساب البلاشفة ، مستغلا المنشور الذي وزع بتوقيع لينين حول المسألة الدينية في كل مناسبة . أما ينال فكان يفهم جيدا مضمون المنشور الذي يهدف الى كسب المتدينين الفقراء الى جانب الثورة والتأكيد على حريتهم في ممارسة شعائرهم الدينية . ودخل ينال وقازجري في نقاش حاد حول الموضوع . كان قازجري يهدف الى تعزيز صلاحيات المحاكم الشرعية لتقوية نفوذه من خلالها . أما ينال فكان يرى ضرورة توحيد النظام القضائي .

ومهما يكن الامر ، فقد أصبح مصير ساريمة الآن مرتبطا بالمحكمة الشرعية التي عقد عليها رحيم آماله ، بالاضافة الى يقينه من العرف والتقاليد الشركسية التي تحفظ حق العريس في استرداد المهر عندما لا يتم الزواج . وكانت ديسة وفقا لهذه التقاليد ، صاحبة الرأي في تقرير مصير ابنتها . واذا أرغمها أحد على غير ذلك ، ستتظاهر أمام الناس بأن السلطة السوفييتية تسلبها حقوقها . وهكذا ، أصبح الموضوع بعد عرضه على المحكمة الشرعية محبوكا بشكل معقد .

وكان الحب المتبادل بين يلدار وساريمة قد أصبح علنيا ومعروفا من قبل الجميع • ومع ذلك لم يكن باستطاعة يلدار أن يقدم على خطف الفتاة، لان ينال وستيبان ايليتش حذراه من ذلك •

ما العمل اذن ! وكيف تستطيع الفتاة ان تتخلص من البائع المتجول ذي الشارب الرطب دائما ، وتتزوج بالشاب الذي تحبه ؟

من الواضح تماما أن المحكمة الشرعية لن تعير رغبات الفتاة أي اهتمام • وأستيمر يعرف ان المتخان لن يسمح له بأن يمس سلطة المحكمة الشرعية اذا حاول أن يتدخل ويدافع عن حرية الفتاة في اختيار العريس الذي تريده • ورغم أن ديسة أقامت كل هذه الضجة فان هدفها النهائي كان هو تزويج الفتاة من رحيم بحجة أنها لا تستطيع أن ترد المهر الذي دفعه • وكان رحيم قد اختار الوقت المناسب في تقديم شكواه ، والذي صادف خروج يلدار على رأس حملة من الانصار لمطاردة الخارجين على القانون • وذهاب ينال في مهمة تتعلق بالوطن الى موسكو • وحتى لو كان ينال موجودا ، أنى له أن يتنازل بالتدخل لدى قازجري حول موضوع كهذا • فما العمل ؟ وتذكر أستيمر شيئا :

ـ انتظري قليلا يا ديسة •

ـ ولماذا انتظر ؟ لقد ندمت على مجيئي • لو عرفت أنك ستقف مني هذا الموقف لما خطوت خطوة واحدة اليك • شكيته الى الله • ـ قالت العجوز متباطئة وهي تنظر نحو الحضور •

ـ في أي يوم جلستك في المحكمة ؟

ـ يوم السبت •

ـ سنساعدك رغم أنك لا تريدين ذلك • لن نجعلك تستجدين الناس • ـ قال أستيمر مسايرا •

ـ والله لا أصدق ذلك • ـ قالت المرأة مترددة •

كان من الصعب على ديسة ان تصدق ما يقوله أستيمر الآن ، لانها تعرف أنه لن يغير موقفه ، ولن يميل الى جانب رحيم • « ولكنه قد يشفق علي ويساعدني » • هكذا فكرت • أقبل أي شيء منه اذا سمح لي أن أزوج ابنتي للبائع المتجول • وعندما قدرت أن ذلك ممكن ، تغيرت لهجتها مع المسؤول البلشفي •

ـ جعلت فداك يا أستيمر • لا تقطع نصيبي • نحن طوال عمرنا جيران • انكم تحبون ساريمة ، وأنت الآن في موقع السلطة وتستطيع أن تسدي اليها معروفا • من يمكن أن يساعدني اذا لم تساعدني أنت ؟ أنت الوحيد الذي نعتمد عليه • لقد رأيت في الحلم أننا نجلس وسط الحرير

والديباج في عربة رحيم التي كانت تصعد بنا الى « اواشحة ماكوة » (١) وأشعة الشمس تسطع من خلال شعر ساريمة ٠

ـ اذا رأيت مثل هذا الحلم فلم القلق ؟ ـ قال أستيمر ـ لا داعي القلق اطلاقا ٠ خذي هده أيضا فقد تنفعك ـ وقدم لها السلة التي تركتها نفيسة وفيها بطة ومأكولات أخرى ٠ ثم استدار الى الحارس وقال له :

ـ وأنت ايضا خذ هذه يا سمي المتخان ٠ ـ وقدم له زجاجة الخمر ٠ وشعر « لو » للحظة أنه امسك بسعادة الدنيا عندما وضع قازجري البندقية بين يديه حين تناول الزجاجة ٠

وبدأ شعور من الارتياح على جميع الواقفين ٠ ودهش أستيمر للافكار التي راودته في هذه اللحظة ٠ من الممكن أن يحصل يلدار وساريمة على ما يريدانه ، وأن تخرج ديسة ورحيم من المولد بلا حمص كما يقولون ٠ ولم يشك لحظة واحدة في أن الدعوى التي أقامها رحيم تمثيلية متقنة متفق عليها ، ومن الضروري جدا أن يعرفا حدودهما ٠ « حسنا » قال أستيمر لنفسه ، وقرر أن يرسل قازجري ليخبر يلدار بما يجري ويستدعيه على سبيل الاحتياط ٠

وأخذ أصحاب الشكاوى ينصرفون وقد بدا الرضا في وجوه أكثرهم وهم يتحدثون عن مشاكلهم ٠

## الدنيا دولاب يدور

كانت المدة التي تحمل فيها بلاتسة مسؤولية القرية قصيرة ٠ فبعد المؤتمر الكبير الذي عقد في نالتشك وانتخبوا فيه ينال رئيسا للجنة الثورية ولسوفييت قباردیا ٠ بعد ذلك بأسبوعين اجتمع أهالي قرية شعلمفوقة وانتخبوا أستيمر الذي كانوا يعتبرونه « الرجل الذكي » رئيسا لسوفييت القرية ، رغم أن فيها من يلقبه بـ « الشيطان الاحمر » ٠

ولم يأسف بلاتسه كثيرا :

ـ اذا قال الشركسي « ها » فان الامر على ما يرام ـ قال بلاتسه ـ انني اعيد اليك زمام القرية الآن فاتجه بها الى حيث تشاء ، ولكن اياك أن تدهورنا ٠ وبعد ذلك يجب عليك أن تجد حصاني ٠

ـ لقد عم البؤس ٠ وبدأ بعض الناس يستجدي فعلا ٠ معظمهم لا يملك بذارا ولا ما يحرث به أرضه ٠

ـ وبماذا تريدني أن أحرث أنا أيضا اذا لم تجد لي حصاني ؟

---

(١) قمة البروز ٠

ولكن أين تجد حصانيه اذا لم يعد لهما وجود ؟! كان بلاتسة قد حسم تردده في الذهاب الى نالتشك بسبب الاحداث الاخيرة ، وذلك في نفس اليوم الذي قرر فيه العجوز اسحق الذهاب الى المدينة . ولولا أن اسحق شجعه وطلب منه الذهاب معه ربما بقي مترددا .. وعندما علمت زوجة جراسلان بذهابه ، أرسلت له تقول : « اذا كنت مسلما أوصلني معك الى المحطة » وفي نفس اللحظة وصل اليه تيمبوت و « لو » قائلين : هل نسيت وعدك بأن تأخذنا الى المدينة ؟

سنذهب وليحصل ما يحصل . قال بلاتسه لنفسه وأخبر السيدة بقراره.

وفرح تيمبوت و « لو » كثيرا بهذا القرار ، لانهما كانا محرومين من أية تسلية طيلة الاحداث الاخيرة . وكانت ناتاشا بعد أن استعادت عافيتها ، قد اصطحبها عجوز روسي قدم من نالتشك لهذه الغاية بعربة يجرها حصان واحد . واختبأ « لو » عندما علم أن ذلك العجوز طبيب ؛ بسبب كذبة كذبها عليه تيمبوت . فعندما سأل أخاه : « ما معنى كلمة طبيب ؟ » قال له ان عمله هو نفس عمل المطهرين من منطقة القوموق ، والذين يجوبون القرى وهم يعزفون على الناي في مواسم محددة .. ولما سمع « لو » ذلك قال في نفسه : « سيخرب بيتي اذا امسكوا بي » واختبأ في السقيفة ، ولم يظهر له أثرحتى غادر الطبيب القرية . وهكذا رحلت ناتاشا دون أن يودعها .

وفكر « لو » في مخبئه . أليس الطبيب مخيفا بالنسبة لساريمة أيضا يا ترى ؟ . وكانت ساريمة قد جاءت تودع ناتاشا . ورغم أن الفتاتين لم تكونا تستطيعان التفاهم بالكلمات لجهل احداهما بلغة الاخرى ، فقد انسجمتا تماما . وكلما التقتا ، كانت كل واحدة منهما تقول بضع كلمات بلغتها ثم تنفجران ضاحكتين حتى لو لم يكن في كلامهما أي شيء يضحك.. ها قد جاء الطبيب الآن ليصطحب ناتاشا .. مسكينة ناتاشا . كيف يمكنها أن تعيش مع ذلك الطبيب الذي يحترف تلك المهنة .

وبعد أن غادرت ناتاشا مع الطبيب ، بقي « لو » في مخبئه مدة طويلة لا يرد على أي نداء . من يدري ما الذي ينبغي أن تخاف منه حقا ، فقد يكون في الامر فخ ما .

وكانت عرى الصداقة قد توطدت بين تيمبوت وأسلان ابن بلاتسة الاصغر . وغديا لا يفترقان ، يقضيان معظم أيامهما في محل الحدادة . وكان هذا مبعث زهو بلاتسه وفرحه ، لان ابنه سيغدو حدادا . وانزعج دولت وتشاتشا من ذلك بشكل خاص . لان أولاد دولت كانوا كسالى لا يحبون القيام بأي عمل . ومع ذلك لا يحب أن يرى أحدا يتقدم عليهم . أما تشاتشا فكان يزعجها صوت طرق الحديد الذي يؤلم أذنيها .. وكثيرا ما كان دولت وبلاتسة ينهمكان في تلك الايام ، في نقاش حاد حول أفضل السبل للقضاء على الفقر .

كان يوما من أيام اوائل الربيع .

تركت ناتاشا قطعة من القماش الاحمر من أجل « لو » فعلقها على صدره وارتدى الطربوش الاحمر الذي استولى عليه من مخلفات الحاج بونس . وخرج مختالا يظن نفسه بلشفيا كاملا لا ينقصه شيء ، يستعرض زيه أمام اولاد القرية . وما كان أحد ليستطيع التوفيق بين الطربوش وشارة البلاشفة سوى « لو » الذي بدا كقرن من الفلفل الذي بدأ رأسه يحمر . انه الآن في أحسن حالاته بعد أن نجا من المصير الذي كان ينتظره على يدي الطبيب . وغمرته فرحة عارمة لذهابه الى نالتشك ، لم ينغصها عليه سوى امكانية لقائه بالطبيب ثانية ، ولكنه طمأن نفسه بأن بلاتسه وتيمبوت سيحميانه منه حتما . وجاء بلاتسة ليخبر دومسارا انه ذاهب الى سوق المدينة وأن ولديها سيرافقانه .

ـ وهل ستصحبون السيدة معكم أيضا ؟.

ـ هذا ضروري . فالسوفييت أنصار للفقراء . وزوجة جراسلان بقيت دون معين ولا فرق بينها وبين الفقراء الآن . أين يمكن أن أجد أستيمر ؟

ـ يقولون أنه في قيادة الجيش الاحمر . والله لا أعرف . ولكن كيف ستأخذون السيدة وهي تجلس على كومة من الحشيش ؟ ان ذلك غير لائق .

ـ ما العمل اذا لم أكن أملك عربة ركاب ؟ يجب أن تتحمل .

ـ لو كان حصاناك أفضل من ذلك على الاقل .

ـ ومن يملك أفضل منهما في هذه الايام ؟

هل يوجد ما هو أمتع من الذهاب الى المدينة فوق عربة الحشيش مع السيدة؟ وبذهاب الولدين لم يبق عند دومسارا من يعينها في تكسير الحطب، وأخذ البقرة الى النهر لتشرب ، ومع ذلك لم تعترض على ذهابهما لان تيمبوت كان ينوي شراء بعض أدوات الحدادة من السوق .

أمسك تيمبوت أعنة الخيل . وجلس « لو » فوق الحشيش . بينما سار بلاتسه بجانب العربة حتى وصل الموكب الى بيت جراسلان ذي النوافذ الزجاجية الملونة . ان مرافقة السيدة ليس بالامر السهل على أية حال .

تمنى « لو » أن يراه أحد رفاقه على الاقل ، جالسا فوق العربة ، وأخذ يبحث عنهم بعينيه ، لكن أحدا منهم لم يظهر .. ولمعت أشعة شمس الصباح الاولى فوق النوافذ الزجاجية الملونة . وعندما نظر « لو » نحو البيت الغارق في دغلة من الاشجار ، خيل اليه أن أضواء ملونة تشع من داخل البيت ، وتعجب من ذلك .

أوقف تيمبوت العربة أمام البوابة ، وما أن قرع بلاتسة عليها ، حتى هرعت فتاة صغيرة وفتحت باب المشاة المؤدي الى الشارع . وعرف « لو » الفتاة الصغيرة اليتيمة التي كان الاولاد يضايقونها معلقين : « يا تينة ، يا ذات الانف المعقوف » . انها تعيش مع السيدة الآن ، تشتري لها الكاز ، او تستدعي لها تشاتشا لتعالجها .وأحيانا تستدعي مسعود بطن الكبدة

يذبح لها خروفا أو ذبيحة ما • ولم يسبق للفتاة الصغيرة أن كلمت « لو » رغم أنه التقى بها كثيرا • ولم يحزنه ذلك لانه لم يكن يميل بطبعه الى ملاعبة الفتيات •

أخذت الفتاة الصغيرة تنظر الى « لو » بعينيها السوداوين اللامعتين ، وقد تلبد شعرها الاسود الطويل بشكل يتضح معه أن المشط لم يعرف طريقه الى رأسها منذ مدة طويلة • ورغم مظهرها الخارجي المزري ، فقد بدت الصغيرة قريبة الى القلب • ونظرت الى كل واحد من الثلاثة وكأنها ستنفجر على الفور وتشكي له كل همومها • لم يفكر « لو » بكل هذا • وانما كانت تطارده الآن فكرة واحدة بالحاح وهي : « كيف تستطيع هذه الفتاة الصغيرة أن تعيش مع السيدة دون أن تخاف منها ؟ » •• انها في حوالي السابعة من عمرها • أي أكبر منه قليلا ، ولكنها نحيلة بشكل مريع • وعندما استقر نظرها أخيرا على بلاتسة قالت :

ــ ان السيدة تنتظركم منذ الليل •

ــ انها جاهزة اذن ؟ •

ــ انها جاهزة والله •

وأمر بلاتسة مرافقيه :

ــ اذهبا وأحضرا الامتعة •

وتقدمهما العجوز وحمل أكبر قطعة من الامتعة • وحمل كل من الولدين ما استطاع حمله • وخرجت السيدة دون ابطاء • وبعد أن وضعوا الامتعة في العربة ، حاولت السيدة أن تتسلق كومة القش وهي تجد صعوبة كبيرة في ذلك • وفكر بلاتسه أن يساعدها ، ولكن لم يعرف كيف يساعدها ، ليس من اللائق أن تدفعها من مؤخرتها • وكيف تمد يدك الى ساقيها أو فخذيها • وبدا أن السيدة نسيت أنها سيدة وانحصر همها في هذه اللحظة بتسلق العربة وابتعد بلاتسه قليلا حتى لا تحرج من حضوره ، ولكنها لم تنجح في الوصول الى حيث ينبغي أن تجلس ولم يجرؤ « لو » على الامساك بيدها خوفا من أن تجره الى الاسفل • وأخيرا انزلوا صندوقها الكبير ، فوقفت عليه وصعدت الى العربة وهي تلهث ، وجلست على البرنس الذي مدوه لها فوق الحشيش وأخذت تنظف ملابسها من قطع القش التي علقت بها • وفي هذه اللحظة انفجرت تينة وأخذت تبكي بكاء مرا ، وهي تمسح دموعها بقبضة يدها مزيلة مع الدموع الاوساخ التي علقت بوجهها •

ــ لا تبكي يا صغيرتي • ــ قال بلاتسه مسريا عنها ، وهو يمسح بيده على شعرها الملبد •

ــ ساعود أنا يا صغيرة • ساعود باذن الله تعالى • لا تتركي الباب مفتوحا •• ــ قالت السيدة وهي تصدر أوامرها الاخيرة • ثم لمست كتف « لو » وأردفت :

ـ انطلق · هيا بنا ·

ومشى بلاتسة وتيمبوت بجانب العربة · وعندما انطلق الموكب ازداد نحيب الفتاة الصغيرة :

ـ آه · كيف استطيع البقاء وحدي في البيت ! ·

ـ لا تبكي يا صغيرة · لن تبقي وحدك في الليالي · ـ قالت السيدة وهي تلتفت اليها ·

وبقي بكاء الصغيرة يرن في أذن « لو » مدة طويلة · وأخذ يفكر ، كيف يمكنها أن تبقى وحدها في ذلك البيت الكبير المهجور ، وشعر بعطف شديد نحوها · وبعد أن غادرت العربة القرية ، صعد اليها تيمبوت وبلاتسة أيضا وبقي الجميع صامتين ·

ـ هل صوتت النساء في المؤتمر الذي عقد في نالتشك ؟ ـ سألت السيدة أخيرا ·

ـ طبعا ·

ـ وهل كان صوت المرأة يعادل صوت الرجل ، أم حسبوا لكل اثنتين صوتا واحدا ؟

ـ لقد اعتبروا صوت المرأة مساويا لصوت الرجل ·

ـ هذا قانون جيد أرجو أن يكتب له النجاح ·

ـ لقد انتخبنا رئيسا بالتصويت · ان السلطة السوفييتية ستحكم في المستقبل عن طريق التصويت ولن يبقى مكان للظلم ·

ـ سمعت أنكم انتخبتم بوتش أستيمر لرئاسة القرية · لا أظنه والله يصلح لهذه المهمة · رغم أنه يعتبر نفسه من أسرة اشتهرت برجاحة العقل والاخلاق الحميدة ، فانه لا يصلح لهذه المهمة · من هو حاكم قبارديا الآن ؟

ـ مريمقان ينال · ألا يصلح هو أيضا ؟

ـ انه جاهل ·

ـ كيف يكون جاهلا ؟ انه يعرف القراءة والكتابة ، ويستطيع أن يقرأ أي شيء ·

ـ مريمقان ينال ؟ ربما علمه البلاشفة قليلا ، ولكنه لم يدخل مدرسة في حياته ، ولا يستطيع أن يميز الفرق بين الالف والعصا · انه يخدعكم · أما المتعلمون فهم مطاردون الآن · هذه حال الدنيا · الدنيا دولاب يدور · وسترى كيف تدور الدائرة على البلاشفة يوما ·

لم يرتح « لو » لما قالته السيدة · وفكر بأن يقول شيئا ، ولكنه آثر الصمت وأخذ يلتفت وينظر اليها خلسة · كان أنفها طويلا ، ووجهها مبقعا ببقع حمراء · ان وجهها يشبه وجه الذئب الذي أكل من بطن جيفة حصان قال « لو » لنفسه ، وكادت تغلبه ضحكة لهذا التشبيه الذي خطر له ·

ـ والله صحيح ـ قال بلاتسة ـ ان الدولاب يدور · ربيع فصيف فخريف ثم يأتي الشتاء · هل يوجد ما هو أفضل من أن يتجنب الانسان المشاكل

ويعجل ليأكل ؟ • يقولون أن السلطة السوفييتية أفضل بالنسبة للكادحين • أظن أن الدولاب قد استدار ، وأخذ يدور لصالحنا الآن •

ـ قد يكون ذلك صحيحا • أليس بوتش أستيمر الذي اخترتموه لرئاسة قرية شعلمفوقة هو الذي أوعز بنهب ممتلكات آل شردان ؟ أتظن أنه سيقودكم الى الخير ؟ ماذا ستفعلون بعد أن تنتهوا من نهب الممتلكات التي في القرية ؟ • أما أن تجلسوا عاطلين عن العمل ، أو يأكل بعضكم رأس الآخر • لقد ضاعت التقاليد الشركسية •

ـ لا • لم تضع • ولن نجعلها تضيع باذن الله • اما ممتلكات آل شردان فمن أين جاءت ؟ أليست من عرق الكادحين ؟ لقد كانت تستحق المصادرة فعلا •

فقالت السيدة وقد ندمت على فتحها هذا الموضوع •

ـ والله لا أدري • ألست أنت بلاتسة ؟

ـ نعم •

ـ وهذان الصغيران ؟

ـ هيا حث الحصانين • لن نصل اليوم على هذه المشية • ـ قال بلاتسة وهو يحث سائق العربة الصغير متجاهلا سؤال السيدة بينما صمت « لو » •

غضب تيمبوت وأخذ يخاطب نفسه : نحن عائلة بلاشفة •وبلاتسة أيضا نصير البلاشفة ، فلماذا ننقل هذه السيدة المتعجرفة ؟ يجب ايقاف العربة والالقاء بها أرضا •

ـ جدي !

ـ نعم يا صغيري • هل شعرت بالبرد ؟ • وتذكر « لو » يوم رافق بلاتسة الى الغابة في الشتاء • لقد قص عليه يومها قصصا جميلة • ليته يقص عليه الآن أيضا بعض القصص • ولكن تفكير بلاتسة كان بعيدا عن القصص والحكايات •

ـ جدي ! ما هذا •

ـ هذه سكة حديدية • ـ قال تيمبوت •

ـ وذاك هو القطار •

كانت قاطرة من بعيد تجر عددا من العربات والدخان يتصاعد من مدخنتها كحزمة من الغيوم السوداء • وبدت العربات في نظر « لو » الذي يرى القطار لأول مرة ، كطيات أكورديون ضخم • كما بدا له ضجيج القطار مشابها للضجة التي أحدثها جيش شكورو عندما مر بقريتهم •

ـ ها قد رأيت القطار أيضا الآن • ـ قال بلاتسة ممازحا •

ـ دعنا نذهب الى المحطة مباشرة قبل أن يرحل القطار • ـ قالت السيدة •

وأخذ بلاتسة الاعنة من « لو » وحث الحصانين وهو يصدر صوتا خاصا

تجاوب معه الحصانان فانطلقا خببا • وأبطأ القطار من سيره عندما دخل المحطة • وأخذت القاطرة تقترب من أنبوب مرتفع للمياه • كان « لو » قد سمع عن القطار من قبل ، ولكن الفارق بين الصورة التي كونها عنه في خياله وبين الحقيقة ، كان كبيرا جدا • فقد تخيل القطار على شكل عربة كبيرة تجرها مدفأتان بدل الحصانين • والعربة ليست بدون نوافذ فقط ، بل لم يخطر له أن يكون لها سقف • والآن ها هو يرى القطار يشبه بيتا • أليس هذا غريبا بما فيه الكفاية ! •

ـ وبدت السيدة نافذة الصبر ، خوفا من أن يغادر القطار قبل وصولها وزادت العربة من سرعتها ، ووقفت أخيرا بحمولتها أمام المحطة •• من المؤكد أن أحدا لم ير الى الآن « سيدة » تأتي الى المحطة فوق كومة من الحشيش • ولكن من يعرف أن هذه المرأة التي تجلس فوق العربة هي سيدة من عائلة نبيلة حقا •

وخرج المسافرون من القطار وهم يحملون أمتعتهم على ظهورهم • وكنت ترى بيد النسوة سلالا وقففا فيها دجاج او بط ، أو مليئة بالبيض • من الواضح أن معظمهن قادم الى سوق المدينة • وفكر « لو » انه ليس من اللائق نقل الدجاج بواسطة القطار الذي يجب أن يستعمل لغايات أسمى من ذلك • وكان بين الركاب عدد من الجنود والضباط المتأنقين •• وجلس المغادرون على طول السياج الحديدي فوق حقائبهم وأكياسهم وكأنهم سيبقون هنالك الى الابد •

ـ أظن أن هؤلاء الجنود من كتيبة الشريعة • ـ قالت السيدة وهي تنظر الى عدد من الجنود الذين توجهوا اليها •

ـ هل أنت زوجة جراسلان ؟ لقد سررت بلقائك والله • لمن هذاالحشيش الذي في العربة ؟ • ـ سأل أحد الجنود •

ـ الحشيش لي • ـ قال بلاتسة •

ـ اتركوه وشأنه • لم أجد في القرية كلها من يوصلني الى المحطة سواه ـ قالت السيدة مدافعة عن العجوز وقد انتبهت الى نوايا الجنود •• ولم يهتم « لو » بهذا الموضوع لانه انهمك في مراقبة القاطرة التي أخذت تناور على الجانب الآخر من السياج الحديدي ، يتصاعد منها الدخان والبخار بكثافة • بينما وقفت العربات التي فرغت من الركاب للتو مشرعة الابواب وكأنها تناديه للركوب • ولكنه لم يتجرأ على ذلك •

ـ هيا يا أولاد • دعونا ننزل أمتعة السيدة • ـ قال بلاتسة وهو يهم بانزال القطع الكثيرة • وأنزل تيمبوت و « لو » أيضا ما خف حمله •

ـ رافقتك السلامة • ـ قال بلاتسة أخيرا ـ لم ير الناس منك ما يشين وفقك الله •

ـ أشكرك • لقد قدمت لي خدمة ممتازة • فليساعدني الله على ردها

البـــك ٠

ـ مع السلامة

ـ خذ يا صغيري ، احتفظ بها للذكرى ٠٠ قالت السيدة وهي تضع شيئا في يد تيمبوت ٠ وعندما نظر الى هذا الشيء وجده موسى صغيرة حادة ٠

ـ وأنت أيضا اشتر شيئا بهذا ٠ ـ قالت وهي تقدم قطعة نقد ورقيـة لـ « لو » ورغم أن القطعة كبيرة ، الا انها لم تعد تساوي شيئا لانها كانـت نقودا ملكية بطل تداولها ٠

ـ هيا بنا ـ قال بلاتسة ـ أوه ٠ انظروا الى هذا كاد دولابنا يتلف ٠

ـ دولاب عالمكم الجديد ؟ سألت السيدة بخبث ٠

ـ حتى لو كان دولاب عالمنا الجديد ، سنصلحه ٠ تيمبوت وأســـلان أصبحا حدادين ٠

وفي هذه اللحظة وصل عدد من معارف السيدة فاستقبلتهم باشة ٠ لا بد أنهم من معارف جراسلان ٠ فقد حملوا أمتعتها الى القطار وهم يظهرون لها قدرا كبيرا من الاحترام ٠ وبدت الآن في مظهر سيدة حقيقية بالرغم من ثوبها المدعوك والذي يحمل آثار القش ٠

ودهش تيمبوت لما رأى القاطرة تشرب الماء من قسطل كبير مرتفع بما يشبه كم القميص ٠ أما بلاتسة فقد قاد العربة ، مخلفا وراءه المشاة الذين أخذوا ينظرون اليه وكأنه مدين لهم بشيء ، وخاصة أولئك الذين يحملـون أمتعتهم الثقيلة على أكتافهم ٠

ـ هل سمعت ما قاله القطار عندما وصل الى المحطة ؟ ـ سأل تيمبوت أخـــاه ٠

ـ كان يقول : « بسيف » ٠ « بسيف » ٠

ـ ما معنى ذلك ؟

ـ وما أدراني ؟

ـ لم يكن يقول « بسيف » « بسيف » ٠

ـ ماذا كان يقول اذن ؟

ـ كان يقول : « كوفة » « تسيفة » ٠

ـ صحيح ! دهش « لو » وقد تذكر أن ابنتي الشيخ سعيد البدينتـان كالقاطرة تدعيان كذلك ٠

ـ ولكن كيف عرفت القاطرة اسميهما ؟

ـ وهل يوجد شيء لا تعرفه القاطرة ! وماذا تظن أنها كانت تقول قبل أن تصل الى المحطة ؟ ألم تنتبه الى ذلك أيضا ؟ كانت تقـــول « كيفة » ـ « طيقة » ٠

ـ والله صحيح ٠ هكذا يدعى ولدا دولت ٠ ـ ولم يكن « لو » قد سمـــع في حياته بشيء أغرب من ذلك ٠

ـ وماذا يقول القطار عندما يريد أن يقف ؟ ـ سأل تيمبوت ثانية ٠ولكن

أنى لاخيه المأخوذ أن يعرف ذلك ٠
ـ ماذا يقول ؟
ـ يبدو أنك لم تعد تنتبه الى شيء ٠ ـ قال تيمبوت متظاهرا بأنـــه يؤنبه ٠
ـ صاح قائلا « ووو ٠٠٠ » أليس كذلك ٠
ـ وماذا يعني ذلك ؟
ـ لا أعرف والله ٠ وهل يعني شيئا ٠
ـ أهذا كل ما تفهمه ؟
ـ بالله عليك قل لي يا تيمبوت ٠
ـ عندما يقول « ووو ٠٠٠ » فانه يعني « حنيفو وو ٠٠٠ » ٠
ـ ينادي باسم زوجة الشيخ سعيد ؟
ـ طبعـا ٠

الآن فقط عرف « لو » ما هو القطار ٠٠ وبينما استغرق في التفكير بمـا رآه وسمعه اليوم وصلوا الى سوق المدينة دون أن ينتبه وتوقفت العربـة ٠ وتجهم وجه بلاتسة عندما رأى أن السوق قد أوشك على نهايته ٠ ولم يبق سوى عدد قليل من الجبليين القره شاي بحميرهم صغيرة الحجم ذات الانوف البيضاء الذين لم يبد عليهم أنهم من الذين يشترون الحشيش عادة ٠ وفكر بلاتسة : «كيف أعيد الحشيش الى القرية بعد أن قطعت كل هذه المسافة »؟

وقاد العجوز العربة الى وسط ساحة السوق حيث أقيمت منصة خشبية للخطابة ، يعتليها مريمقان ينال عندما يريد أن يخطب في الناس ، وأخـذ يتفحص المنصة قائلا في نفسه « ليتهم أعطوني الخشب الذي صرفـــوه في بناء هذا الشيء » ٠

بقي تيمبوت و « لو » جالسين فوق الحشيش يقلدان صوت القطـــار ٠ بينما أخذ بلاتسة يتجول في السوق فالتقى بالطحان وزوجته ٠

ـ السلام عليكم ٠
ـ وعليكم السلام يا بلاتسة ٠ لماذا تأخرت هكذا ؟
وخجل بلاتسة من الاعتراف بمرافقته للسيدة ٠
ـ لقد جئت لابيت الليلة هنا ٠
ـ لا بأس عليك اذا كان الامر كذلك ٠
ـ هل أنتما عائدان الى القرية ؟
ـ طبعا ، لقد انتهت أعمالنا في السوق ٠ كنا أحضرنا قليلا من الطحين ولم ننته من بيعه سوى الآن ٠ هل سمعت ما حدث لاسحق ؟
ـ ماذا حدث له ؟
ـ لقد سلبوه ثوريه ٠
ـ لا ! وكيف حدث ذلك ؟

ـ هذا ما سمعته والله • يقولون أن فرسان الشريعة هم الذين فعلوا ذلك• نا لم أقابله •

ـ مسكين • الثوران ليسا له • ماذا سيفعل ؟

وشعر بلاتسة بالقلق • ماذا يجب عليه أن يفعل هو • أليس من الافضل ن يعود بالعربة والحشيش • ولكنه لا يملك نقطة كاز ولا حبة ملح في البيت ذا بات الليلة هنا ، بامكانه أن يجد في صباح الغد من يشتري الحشيش • يستطيع بعد ذلك أن يؤمن حاجات البيت • ولكن ماذا يفعل بالولدين ؟

ـ أنت من الزعماء ، ولا داعي لقلقك على حصانيك •ـ قال آدم الطحان مازحه ، بعد أن رأى سمة القلق على وجهه •

ـ اسحق أيضا كان يعتبر نفسه من الزعماء • ـ قالت زوجة الطحـــان علقـــة •

ـ هل أنتما عائدان الآن ؟

ـ بالتأكيد •

ـ اذن أرجوكما أن تصحبا هذين الولدين •

ـ ليأتيا نحن عائدان بطبيعة الحال ، ولن يكلفانا أي جهد اضافي •

ـ ياصغيري ! تعاليا واركبا معنا • ـ صاحت المرأة وهي تشير الـــى لولدين • وركب الاخوان في عربة الطحان • ـ أين كنتما يا صغيري ؟ ـ سألت لمرأة « لو » الذي بدا مقطبا •

ـ في المحطة • لقد صحبنا السيدة •

ـ وأية سيدة ؟

ـ زوجة جراسلان •

ـ هيا ، لا تتأخروا • ـ قال بلاتسة وهو ينصرف • وانطلق الطحـــان بالعربـــة •

من كان يظن أن النهار سينتهي بهذا الشكل ؟ جلس « لو » حزينا الى حد البكاء على أكياس الطحين الفارغة • بينما وقفت عربة بلاتسة في وسط السوق الخاوي من الناس ، ككومة من القش تركت سهوا في البرية •واقترب عدد من المارة من العربة ولكنه لم يتفق معهم على السعر • وأخذ يشرح لهم أن مجيء الربيع مبكرا هذا العام ، يعني بالضرورة أنه سيكون ربيعا باردا •

ـ ما زلنا في شهر آذار • يقولون : « حضر للسابع من ابريل ، سبقـــه أكوام من الحشيش • عليكم أن تكونوا حريصين على مواشيكم ، والا نفقت من البراد اذا بقيت دون طعام » ـ هكذا كان بلاتسة ينصح كل من يقـــترب منه ، ولكن أحدا لم يبد رغبته في شراء الحشيش بسعر مناسب •

كان بلاتسة قد مل من الانتظار في السوق ، ولم يبق عليه سوى أن يذهب يسقي الحصانين ، ويبحث عن مأوى يقضي فيه ليلته • عندما اقتربت منه مجموعة من الرجال المدججين بالسلاح • وما ان رآهم حتى عرف انهم لا ينوون

خيرا • فاقشعر بدنه وهو يفكر انهم هم نفس الرجال الذين خربوا بيت اسحق •
ـ لمن هذا الحشيش ؟
ـ لي ـ قال بلاتسة وهو يلاقي الرجال •
ـ وكيف تريدنا أن نصدق ذلك بالله عليك ؟ ومن أين أتيت به ؟ ـ قال شاب أفطس ـ هيا معنا • سنتأكد اذا كان ما تقوله صحيحا •
ـ أقسم بالله أنني لن أخطو خطوة واحدة معكم أنتم ـ قال بلاتسة معترضا بشدة • ثم شعر بالوجل من عنف لهجته •
وبينما وقف يجادل الشاب الافطس • فك آخرون حصانيه وانطلقوا • فلحق بهم ملتاعا :
ـ هيه •• ! عودوا بالحصانين • الى أين تذهبون بهما ؟
ولكن أنى للراجل أن يلحق بالفارس ! ولما عاد الى مكان العربة لم يجدها أيضا ، فقد سحبها بحمولتها الشاب الافطس ، يعاونه أحد أصدقائه وبقي بلاتسة وحيدا في الساحة • ولما لم يجد ما يفعله ، انطلق عائدا الى القرية ماشيا لا يلوي على شيء • •ولهذا كان يقول في المؤتمر « سأطالب المتخان بأن يرد لي حصاني اللذين سرقهما جنوده » • وبقيت هذه الحادثة الاليمة مدة طويلة في ذاكرة بلاتسة •

## محكمة سعيد

« عندما تكثر الاخطاء تكثر الآلام » كما يقول المثل • وهكذا لم تجد ديسة بدا من معاناة الآلام •
على أجمل شارع في نالتشك ، كان يدعى شارع « فورونسوف » تقع بضعة دور مؤلفة من طابقين • في احدى هذه الدور ، تنعقد المحكمة الشرعية عادة • ويجتمع كل يوم أمام المبنى الابيض الجميل عدد كبير من الناس قادمين من مختلف ارجاء قباردیا بالعربات والخيل والحمير وسيرا على الاقدام بحثا عن حل لمشاكلهم • وتقف مجموعة من النسوة وأطفالهن على أذرعهن مستندات الى الجدار • لقد تخلى عنهن أزواجهن ، ولم يجدن المأوى المناسب عند الاهل •• وبين الجميع أيضا فلاحون معدمون يريدون أن يشتكوا على فلاحين أغنياء لسبب من الاسباب • واخوة تنازعوا على قسمة الميراث بعد وفاة الاب •

كل هؤلاء كانوا يشغلون وقت المحكمة من الصباح حتى المساء •• وكان أول القادمين الى المحكمة في الصباح الباكر هو الحاج عكاشة • فهو يستيقظ عند الفجر ، لان نومه أصبح خفيفا في الاعوام الاخيرة • ويبقى في بيته فترة

طويلة لا يجد ما يفعله · ولما لم يكن في تالتشك مسجد يذهب اليه ، اعتاد أن يأتي الى المحكمة بعد صلاة الفجر حاملا عصاه الضخمة · ويصعد الى الطابق الثاني ، وصدى أنين الدرجات الخشبية تحت قدميه يتجاوب في المبنى الخالي · ويدخل الى القاعة الواسعة المفروش أرضها بالسجاد ويجلس وحيدا · لا يزعجه سوى صوت ناقوس الكنيسة القريبة من المحكمة · ولما لم يكن يستطيع أن يفعل شيئا تجاه ذلك ، يبقى جالسا يستمع لدقات الناقوس وحيدا ·

ثاني القادمين من أعضاء المحكمة عادة هو « آشة » الذي لم يخط في حياته حرفا على ورقة · وهو انسان طيب السريرة · اعتاد أن يهز رأسه اثناء سيره وكأنه يستمع الى افادة أحد الناس ، بالرغم من أنه لم يكن يستمع الى أحد اثناء جلسات المحكمة ، ولا يشارك بأي رأي سوى أن يقول بين حين وآخر وهو ينظر بخط مستقيم أمامه ، ودون أية مناسبة « اذا نسيت الله فانه لن يوفقك » وعندما يسمع المتخاصمون ذلك يظن كل واحد منهم أنه يعنيه فيرعوون ·

ـ السلام عليكم يا حاج · ـ يقول آشة وهو يدخل عليه ·

ـ وعليكم السلام أيها المبارك · أظن أنه من الافضل أن تغلق النافذة فان صوت الناقوس يزعجني كثيرا ·

ـ سيغمى علي اذا قلت كمية الهواء · أرأيت عدد المجتمعين أمام الباب ؟

ـ وهل رأيتهم فقط ؟ ان قلبي يؤلمني كلما رأيتهم ·

ـ ما العمل ؟ « اذا نسيت الله ··· » أليس هذا هو سعيد ·

ـ انه هو بعينه ·

من عادة الشيخ سعيد وهو رئيس المحكمة أن لا يدخل القاعة الا في الوقت المحدد تماما · واذا سبق له وجاء مبكرا بضع دقائق ، أخرج ساعته الفضية المعلقة الى صدره بسلسلة ضخمة ، وأخذ ينظر اليها ، ويستمع الى دقاتها حتى يحين الموعد المحدد · فيدخل الى قاعة المحكمة وهو يخاطب بعض المتخاصمين الذين يدخلون وراءه ·

يجلس الشيخ سعيد على مقعد مريح بين العجوزين عضوي المحكمة وعلى المنضدة المنخفضة التي انتصبت أمامهم وضع مصحف كبير مغلف بغلاف جميل ويبقى ثلاثتهم صامتين فترة من الزمن دون أن يقولوا شيئا · الحاج يعبث بسبحته · ويخيل اليك أن الشيخ يتمتم شيئا ما · وخلال هذه الفترة لا يتكلم أحد احتراما لصمت هيئة المحكمة ·

كان حكم المحكمة قاطعا غير قابل للطعن أو للاستئناف أو ما شابه ذلك · وكان المتخاصمون تبعا لذلك يعتبرون كلام الشيخ سعيد غير قابل للنقاش

وكأنه منزل من عند الله ٠ وقد اعتاد قبل أن يصدر الحكم ، أن يتصفح القرآن ويتمتم ببعض العبارات باللغة العربية ٠ ثم يتمتم ثانية وهو ينظر الى الاعلى ، ويتظاهر بأنه يشاور أعضاء المحكمة وبعد ذلك فقط ينطق بالحكم ٠

يبدو الشيخ سعيد راضيا بعمله ، بل ومستمتعا به ٠ ومن المؤكد أن المتخان قد وفق في اختياره لهذا المنصب ٠ ولم ينس الشيخ أنه انما بفضله صار قاضيا ٠

اجتمع الخصوم والمدافعون عنهم وشهودهم أمام الباب ٠ وحان الوقت المحدد لافتتاح الجلسات ٠لم يكن في المحكمة أحد يسجل أي شيء ٠ وما من داع لان يفعل أحد شيئا من هذا القبيل ٠ فالخصم الذي يقسم اليمين على المصحف يربح الدعوى ٠ واذا كان بعضهم يهاب الاقدام على ذلك ، فان الكثيرين كانوا على استعداد لان يقسموا جميع الايمان الممكنة دون أن يرف لهم جفن ، بالرغم من أن هذا ينافي الغاية التي من أجلها أسس قازجري المحاكم الشرعية ٠ كان هدفه هو أن يغرس الرهبة من القرآن في نفوس الناس ٠ وأن يجعلهم يثقون بصدق هيئة المحكمة المسنين ونزاهتهم ويلتزموا بأحكامها تبعا لذلك ٠

وكان الشيخ سعيد يعمل وفقا لتوجيهات المتخان دون أن يخالفه في شيء وحتى يلتزم الناس بأحكامه وجد أنه من المناسب أن تحكم المحكمة وفقا لنصوص القرآن ٠ لذلك كان المتخان يراقب أعمال القاضي ٠ أما العجوزان فقد جيء بهما لاكمال نصاب المحكمة وحتى يسبغ عليها المزيد من الوقار ٠

وقف أمام المحكمة رجل قصير القامة ، عليه سيماء من هم على استعداد لان يقسموا الايمان الكاذبة ٠ ينظر حواليه بجرأة دون أن يرف له جفن ٠

ـ يقولون أنك تدعي بأنك طلقت زوجتك بأمر من الله ٠ فلماذا تركتها وهي لا تملك رغيفا واحدا من خبز الذرة الصفراء ؟ لماذا لم تعطها حقها حسب أوامر الشريعة ؟ ولماذا لم تخصص للاولاد حقهم من النفقة ؟ ـ سأله الشيخ سعيد ٠

ـ أقسم أنني وزعت كل شيء ٠ ما الذي لم أوزعه ؟ وهل عندي أنا شيء أوزعه ؟ لقد وزعت ما عندي ٠ ومن أين لي ما أوزعه غير ذلك ٠ أقسم أن هذا كل ما تستحقه ٠ ـ وأخذ الرجل المخادع ينظر حواليه بخبث ٠

ـ أصحيح ما يقوله يا أختي ؟ ـ سأل المرأة التي تقف عند الباب متشحة بمنديل كبير ٠

ـ انه يكذب والله ٠ لم يعطني شيئا ٠ ـ قالت المرأة وقد سالت دموعها ٠

ـ ما الذي وزعته ٠ قل لي ما الذي وزعته ؟

ـ [illegible] وزعته .

ـ نعم ٠

ـ دجاج ما دجاج • ذرة صفراء ما ذرة صفراء • لحاف ما لحاف • أقسم انني وزعت كل شيء •لقد تركت الدجاج لنفسي واعطيتها «المادجاج»وتركت الذرة الصفراء وأعطيتها « المإذرة صفراء » وعندما وصلنا الى أغراض البيت ، أعطيتها « المالحاف » وتركت اللحف لنفسي • وماذا تريدون مني أن أفعل غير ذلك ؟ اذا كانت تريد شيئا من وجع رأسي فلتدع ربها من أجل ذلك •

ـ آه • نعم • لقد صدقت الآن أنك وزعت كل شيء • ـ قال سعيد متظاهرا بأنه اقتنع بما قاله الرجل •

ـ هذا هو والله • أتظنون أنني أخدعكم ؟

ـ هذا مفهوم •

ـ لم أترك شيئا دون توزيع • تعالوا اكشفوا على بيتي • ـ قال المدعى عليه وهو يخطو بضع خطوات الى الوراء ظانا أن المحكمة قد برأته وانتهى الامر •

ـ حسبما تقول • ان حصتك تعادل حصة زوجتك تماما • أليس كذلك ؟

ـ أقسم أن هذا صحيح •

ـ حسنا ، اذا كان الامر كذلك ، فخذ حصة زوجتك ، وأعطها حصتك • هذا كل ما نريده منك • هل فهمت ؟

ـ وكيف ذلك ؟ هل أعطيها كل ما أملك ؟ أهذا عدل • انتظر قليلا يا رجل •

ـ هيا يا روحي • انصرفوا الآن • ـ قال الشيخ سعيد وهو يقف رافعا المصحف بين يديه اشارة لانتهاء الجلسة •

ـ هكذا الامر دائما ـ قال آشة ـ اذا نسيت الله ، فانه لن يوفقك • هيا انصرفوا ، لقد انتهت الجلسة •

ـ آشة ، افتح النافذة رجاء • لقد أصبح الجو حارا لا يطاق • ـ قال الشيخ سعيد يرجوه •

لم يكن القاضي قد صادف طوال عهده بالقضاء رجلا يكذب بمثل هذه السهولة وهذه الوقاحة كما يفعل هذا الرجل القصير القامة اليوم ، وما أن فتح آشة النافذة حتى امتلأت القاعة برنين الناقوس وزقزقة العصافير •

وقفت ديسة بين الجمع منطوية على نفسها يسيل منها العرق ، وقد أخذ منها القلق كل مأخذ • وبدا عليها أنها أصبحت أكثر نحافة خلال الايام القليلة الماضية•كانت تخشى أن تخسر الدعوى بالرغم من أن أستيمر وعدها بالمساعدة • ومن الواضح ان رحيم لم يضع وقته سدى • ولا بد أنه قابل الكثيرين طالبا مساعدتهم • وليس بعيدا أن يكون قد دفع بعض الرشاوى بالرغم من صعوبة التعامل مع الشيخ سعيد بهذه الطريقة ، فهو يحفظ القرآن ولا يأتي الى المحكمة الا بعد أن يؤدي ركعتين •

ولم تكن مخاوف ديسة في غير محلها • فهي لما دخلت قاعة المحكمة رأت رحيم بوجهه الاحمر السمين جالسا بجانب مسعود بطن الكبدة الذي اتخذه شاهدا • ان مسعود لن يتردد في أن يبيعك ويشتريك بالكذب دون أن يرف له جفن • وليس هذا كل شيء • فهي عندما وصلت الى المدينة اقترب منهم خنزير صغير من خنازير الروس وتمسح بعربتهم • ومع أن ديسة هتفت على الفور : « تفو عليك ، الله يقطعك » الا أنها تطيرت من هذه الحادثة • ثم انه من الممكن أن يأتي بلدار الى القرية في غيابها ويخطف ساريمة التي سترحب بذلك حتما • وما الذي يمنعه وهو الآن ضابط ذو صولة وجولة • ولا يستطيع أحد أن يقف في طريقه •

وقلبت ديسة الامر على عدة وجوه مرة أخرى ؛ وقالت لنفسها : لو أنني زوجت ساريمة لبلدار الذي تحبه لكان الخلاف قد انتهى واسترحنا من كل هذا العناء • وتذكرت كيف زوجها أبوها من المرحوم زراموك الذي لم تكن تحبه • فذات يوم استدعى والدها خادمهم زراموك ؛ وقال لامها : تعالي يا مريم قابلي صهرنا الذي سيتزوج ابنتنا • افرحي اذا شئت أو ابكي • لقد انتهى الامر • ذلك أنه كان قد نمي اليه أن أحدهم قد لعب بعقل الفتاة وصار يخشى الفضيحة • وهكذا انتهى الامر بمثل هذه البساطة • ولكنني اذا زوجت ساريمة لبلدار ، فكيف أفي ديون رحيم ؟ •

ـ ليكن ما يكون • ـ قالت ديسة لنفسها دون أن يسمعها أحد •

أين أستيمر أيضا ؟ • انني لا أراه • هؤلاء الرجال ! أنهم يعدونك ثم يخلفون بوعدهم • كيف استطيع أن أواجه كل هؤلاء الناس وحدي بعقل امرأة يخشى أن أخسر اليوم كل شيء •

أخذ الشيخ سعيد يقرب المصحف من جبليين متخاصمين بالتناوب ، أحدهما نحيل القامة جميل المظهر ، يرتدي ملابس أنيقة ويشد وسطه بحزام جلدي علق في وسطه خنجر شركسي مفضض • أما الآخر فكان يرتدي ملابس الفلاحين وقد علق في وسطه سكينا ذا غمد صنعه بنفسه بدل الخنجر وتدلت بعض الحشائش الناعمة من حذائيه • ولم يكن يستطيع أن يجيب على أسئلة المحكمة سوى بـ « نعم » أو « لا » • وفي اللحظة التي أخذ الجبليان ينصرفان فيها وصل أستيمر • كان الجبلي الفقير يقول الآن بطلاقة :

ليأكل كلبي أم هذه المحكمة •

ـ سوف يشبع كلبك بالتأكيد اذا أكلها • ـ قال غريمه ساخرا •

ـ ما عليك الا الانتظار • سأحصل بيدي هاتين ما لم استطع تحصيله منك عن طريق هذه المحكمة •

ـ لا تقصر أبدا اذا استطعت •

كان من الواضح أن أحد الجبليين قد استخدم الآخر • ولم يكن كلاهما راضيين عن حكم المحكمة •

قال عكاشة من وراء الطاولة :

ـ كنة آل « يناروقة » ورحيم مسلم بن علي بك ٠ اقتربا من هنا ٠

ـ هيا بنا ٠ ـ قال أستيمر وهو يقف بجانب ديسة ٠

وعندما رآه رحيم الذي بدا السرور على وجهه تجهم فجأة ٠ ووقف الى جانبه مسعود بطن الكبدة ومؤطة سائق العربة ٠ وبدا الاخير راغبا في النوم واقفا كحصان معقب ٠

خطت ديسة خطوة واحدة الى الامام وتوقفت ٠

ـ اقتربوا أكثر ٠ ـ قال سعيد بصوت مرتفع ٠

وقفت ديسة على الجانب الايسر من هيئة المحكمة ، بينما وقف رحيم وشاهداه من الجهة اليمنى ٠ وعندما نظرت ديسة نحوه ، ورأت موسى وبتوقة واقفين وراءه ٠ أصيبت بالهلع ليقينها بأنهما سيساعدانه ايضا وشعر أستيمر أيضا بالقلق ٠

أمسك الشيخ سعيد رأسه بين يديه وأخذ ينظر الى المتخاصمين من خلال أصابعه ٠ وكانت تلك عادة مفضلة لديه يؤثر بها على المتخاصمين ٠ وسأل أولا الشاهد موسى أبوق الذي يعرفه جيدا ، والذي يكن له تقديرا خاصا لتمسكه بأهداب دينه وتظاهره بمناصرة الفقراء ٠ كما يعرف جيدا زوجته الجميلة ماريات ٠ ولما كان موسى قد حضر ما سيقوله سلفا فقد بدأ كلامه ٠

ـ حق الانسان في تزويج ابنته ، لا يبدأ من عند ديسة ولا ينتهي عندها أيضا ٠ وأنا لا أرى داعيا لان تصل هذه القضية الى محكمتكم ، وتجلب انفسها ولكم هذه المتاعب ٠٠ الفتاة في البيت كالضيف ، يجب أن تتزوج وتغادره في يوم من الايام ٠ واذا بقيت عند أهلها طويلا فانها تصدأ ٠ ان التاجر يفرح حين يشترون منه بضاعته ٠ اسألوا مسعود ٠ ذاك هو ٠ اللحم الجيد يباع في السوق بسرعة ٠ أما اللحم الفاسد فلا يشتريه أحد حتى لو احتفظت به أياما ٠ اليس كذلك يا مسعود ؟ ٠ انه كذلك والله ٠ ديسة تفهم هذا أيضا ٠ من الذي خطب ابنتها ؟ ٠ انه رجل مسلم لا غبار عليه ٠ أما من الناحية المادية ، زاده الله ، فهو مليء وقادر على دفع مهر جيد ٠ صحيح أن ساريمة فتاة جميلة ، وأن هنالك آخرين يتمنون خطبتها ، ولكن أم الفتاة لها الحق الكامل في اختيار العريس الذي تريده لابنتها ، وهي تعرف كيف تختاره ٠ ان رحيم ليس من قومنا ٠ ولكنه سيصبح صهرا جيدا وهو قادر على الانفاق على البنت وأمها أيضا ٠٠ والذي حصل في هذه القضية ، هو أن ديسة خدعت رحيم واستدانت منه بضائع بمبلغ كبير من المال واعدة اياه بتزويجه ابنتها ٠ أنا أعرف جيدا أنها كانت تأخذ من عنده الاقمشة والطحين والسكر وغير ذلك ، وأنها كانت تعيش من ذلك في فترة من الفترات ٠ سنفترض أن ديسة قد غيرت رأيها ٠ فلماذا لم تعد اليه دينه ؟٠ ان رحيم لم يلحق اي ضرر بالفتاة على اية حال ٠

كان موسى من الذين يحبون تنميق الكلام والاطناب فيه ليسحروا دستمعيهم • ولم يبد عليه الآن أنه يود الاختصار في الحديث • وأخذ آشه يهز برأسه • وعندما توقف موسى عن الكلام ليلتقط أنفاسه • اغتنم الفرصة ليقول :

ـ ان الله لن يهدي من ينسى ذكره سواء السبيل •

وأجفلت ديسه ظانة أنه يعنيها بكلامه • وتأكد رحيم من أنه ليس هو المقصود بالكلام ، وانما ديسة •

واستدار الشيخ سعيد صوب ديسة •

ـ ماذا تقولين أنت في هذا الكلام يا من حلت عليك لعنة الله ؟•

أصابت هذه الكلمات ديسة في الصميم ، وشعرت بأنه سيغمى عليها• وأخذ الشيخ سعيد يركز عليها نظراته من خلال أصابعه المعقودة أمام وجهه دون شفقة • بينما أخذ آشه يهز رأسه دون توقف •

ماذا كان بوسع ديسه أن تفعل في مثل هذا الموقف ! نظرت حواليها طويلا ثم استقرت عيناها أخيرا على أستيمر وكأنها تستنجد به • ولكن أستيمر بقي صامتا • وجمعت ديسة أطراف منديلها وأخذت تفركه باحثة عن الكلمات التي تحتاج اليها لتدافع عن نفسها •

ـ الله هو شاهدي ولا أريد شاهدا غيره ـ بدأت ديسة خائفة مترددة ـ لم أدخل في حياتي محكمة ؛ ولم أعرف لماذا يجب على الناس أن يذهبوا الى المحاكم • والآن ، ماذا جنيت ! لم أسرق ولم أنهب • لقد لازمت بيتي الفقير طوال عمري • ولم يكن لي هم سوى تربية أطفالي برغم انه لا يوجد في داري رجل • انني أعيش من الصدقات التي يمن بها علي اولو الخير • يقولون أن المحكمة الشرعية نصيرة للفقراء • ها قد جئت وأنا مستعدة لكل ما تحكمون به علي •• ما الذي جنيته يا الله ••!! ـ وانفجرت باكية •

وجمدت عينا عكاشة على ديسة •

وتابع الشيخ سعيد النظر الى المرأة الباكية من خلال أصابعه دون أن يقول شيئا •

وتوقفت ديسة عن البكاء أخيرا وأخذت تجفف دموعها • وأخذ سعيد يوجه أسئلة يستجلي بها الموضوع بمزيد من الوضوح • ما هي الاغراض التي أخذتها من رحيم ، ومن الذي رأى ذلك ، وهل من المؤكد أنها لم تدفع ثمنها ، والى أين ذهبت في عربته ، ورغم أنه استمر في طرح هذه الاسئلة، الا أنه كان يعرف في قرارة نفسه المذنب من البريء •

ولم يشعر موسى بأي قلق • فالجميع يعرف طيبة قلبه • وقد قال كل ما ينبغي قوله حول الموضوع •

ـ أنا مستعدة لكل ما تحكمون به • ـ قالت ديسة وهي تتراجع وقد بدا عليها أنها تحب أن تنتهي من هذه المحاكمة بأسرع ما يمكن •

تابع آشة هز رأسه ، بينما مد سعيد يده الى المصحف وقد عقـــد النية على انهاء القضية . وفتح المصحف وأخذ يقلب صفحاته باحثا عـــن صفحة بعينها ، وكأنه سيجد الحكم الذي يناسب القضية في تلك الصفحة. والتفت رحيم نحو موسى وهو يبتسم راضيا وكأنه يقول : « لقد انتهـــى الامر الآن » وصمت الحاضرون في قاعة المحكمة . وهم سعيد أن ينطـــق بالحكم . عندها رفع أستيجر يده قائلا :

ـ انتظر قليلا . أريد أن أقول كلمتين في هذه القضية اذا كان ذلـــك ممكنـــا .

ـ وماذا تريد أن تقول بعد كل الذي سمعناه ؟ قل ما عندك على أيـــة حـــال .

ـ هذا صحيح . لم يبق الكثير مما ينبغي قوله .. أنا لا أرى في هـــذا الموضوع ما يستحق تحويله الى المحكمة .

ولم يستطع عكاشة الذي لم يبال أول الامر بما سيقوله أستيمـــر ، أن يمنع نفسه من النظر نحوه . ولكن نظرته تحولت نحو الباب وقد بدا عليـه الانفعال فجأة . ورأى الشيخ سعيد الرجل الداخل الى القاعة فشعر بالقلق.

ـ انتظر الآن . ـ قال عكاشة مقاطعا أستيمر . ووقف أعضاء المحكمـة الثلاثة . وقامت ضجة بين الحضور ، فالذي دخل القاعة هو المتخان قازجري نفســـه .

وفرح رحيم ، ولم تعد شفتاه الغليظتان تنطبقان ، متخيلا أن المتخان انما جاء لمساعدته هو . ذلك أن أحدا لا يتصور أن الرجل يمكن أن يساعد يلدار . أما الدافع الحقيقي الذي دفع المتخان للمجيء ، فلم يكن يعرفه الا المتخان نفسه .. كان نجم يلدار في صعود هذه الايام . وقد استشـــاره ينال قبل فترة حول تسليمه منصب « ناشخوة » أخي قازجري المريض الذي طلب اعفاءه من منصبه نظرا لخطورة مرضه . وعرف المتخان أن هنالك فـــي المحكمة قضية تهم يلدار مباشرة ، وهكذا جاء بنفسه ليحل هذه القضيـــة بقصد التقرب من يلدار واحتوائه .

كان الشيخ سعيد واقفا وهو ما يزال يحمل المصحف . اما قازجـــري فقد صافح هيئة المحكمة وجلس على مقعد جانبي . وبعد أن عادوا الـــى أماكنهم أومأ برأسه :

ـ استأنفوا عملكم .

لم يكن منصب ناشخوة عاديا،فهو المسؤول عن «التشيكا»(١) بالاضافة الى قيادة كافة أمور الداخلية ، وقد أرسلوه للمعالجة من مرض السل الذي

(١) مفوضية الامـن .

أصيب به على نفقة الخزينة وبقي في المستشفى مدة طويلة ، ولكنه عاد فانتكس ٠٠ وبالرغم من أنه يعمل تحت قيادة ينال المباشرة ، الا انه كان يتواطأ مع أخيه في كثير من الاحيان ، وفي أمور خطيرة من الصعب السكوت عنها ٠ ٠ فذات يوم أوقف سبعة وثلاثون رجلا من اعداء الثورة بأمر من ينال ٠ وعندما علم قازجري بذلك توجه الى أخيه وقال له : « حتى لو كانوا خارجين على القانون ، فهم مسلمون مع ذلك ٠ انهم مخدوعون ومن الممكن اعادتهم الى جادة الصواب ٠ دعنا نجعلهم يقسمون اليمين على المصحف بأن لا يعودوا الى فعلتهم ونطلق سراحهم » ٠ ورغم أن ناشخوة اعترض على ذلك في بادىء الامر الا أنه لم يستطع أن يخالف مشورة أخيه ٠٠ وما أن أطلقوا سراح الرجال ، حتى حملوا السلاح وعادوا الى الغابات من جديد ٠ ولمثل هذه الاسباب ، كان ينال راغبا في قبول استقالة ناشخوة في أقرب وقت بعد أن يجد البديل المناسب ٠

عندما رأى استيمر الزعيم الديني ، ابتسم ابتسامة مرة خفيفة وهو يشعر بشيء من القلق ٠ فقد يربح رحيم دعواه اليوم بأسهل مما كان يتصور ٠٠ ولكنه من ناحية أخرى لم ييأس ولم يفكر في التراجع ٠ ان قازجري هو أفضل من يحفظ القرآن في طول البلاد وعرضها ، لذلك شعر برغبة قوية في أن يتحداه على مسمع من الناس ٠ فهو أيضا حفظ القرآن كله في المدرسة الدينية التي تعلم فيها ٠ وهو خبير بالتأويلات التي يلجأ اليها رجال الدين المحليين لاستنباط الاحكام التي يريدونها أحيانا حسب المناسبات ٠

ولم يكن هنالك ما يقلق آشة عضو المحكمة ٠ فالجلسة أوشكت على نهايتها ٠ أما الشيخ سعيد ، فقد أراد ان يوجه بعض الاسئلة للشاهد الاخير قبل أن ينطق بالحكم ٠ ولكن قازجري تدخل :

ـ دع ذلك الذي قاطعتموه يتم كلامه ٠ انه أستيمر اذا لم أكن مخطئا، وهو قادم من قرية شعلمفوقة ، ويحفظ القرآن حسبما سمعت من أخباره ، وكان ابن قلشبي ينوي ارساله واعظا الى الجبهة ٠ اذا كان هذا هو أستيمر بعينه فأنا أرحب بسماع ما يريد قوله حول هذا الموضوع ٠

ـ والله أنا أيضا لا أكره الاستماع اليه ٠ تكلم يا أستيمر ٠ ـ قال الشيخ سعيد ٠

وفهم أستيمر لماذا اهتم به قازجري « انه يريد أن يسمعني ليعرف من أنا بالضبط ، وكيف أفكر » قال في نفسه ٠ وبما أنه كان قد حضر ما سيقوله ، فقد بدأ كلامه مرفوع الهامة :

ـ أشكرك يا قازجري ٠ لقد قلت كلاما جميلا بحقي ٠ ان حفظ القرآن وفهمه ليس من الامور السهلة ، ولا أستطيع أن اقول سوى أنني قرأته وأفهم منه شيئا ٠ واذا طلبت الكلام في محكمتكم الموقرة ، فليس لي سوى

هدف واحد ، هو أن لا يلحق غبن بهذه الارملة المسكينة ؛ وبذلك المسلم الطيب القلب . ان الشريعة لا يمكن أن تظلم انسانا . والرجل ليس منزها عن الخطأ ولو كان قاضيا .. أنا لا أرى أي خلاف في هذه القضية . ان الشيخ سعيد انسان ورع وقلبه عامر بالشفقة والرحمة والجميع يعرفون عنه ذلك جيدا . ولكن ما الذي حول هذا الموضوع الى قضية ؟.. وما الذي فعلسه رحيم ؟ لقد ساعد أرملة فقيرة . أليس كذلك ؟

ـ الله شاهدي على ذلك . ـ قال رحيم وقد تحمس فجأة .
ـ وهل في هذا اي خطأ ؟
ـ هذا عمل فيه ثواب كبير . أين الخطأ في ذلك ؟
ـ لو كان كل المسلمين مثل رحيم ، لقل عدد فقرائنا ، ولرضي اللـه علينا . ـ أردف أستيمر ، ولم يفهم معظم الحاضرين الى أين يريـد أن يصل .
ـ جزاك الله خيرا . ان ما تقوله هو الحق بعينه .
ـ كلام عادل وسليم .
ـ عندما ساعد رحيم الارملة ، هل كان يبغي أية منفعة من وراء ذلك ؟
ولم يدر رحيم ماذا يقول ، فقد اختلطت الامور في عينيه . وتابـع أستيمر :
ـ لم يكن رحيم يطلب سوى العرفان . ما كان يطمع بأكثر من كلمـة شكر . أليس كذلك يا رحيم ؟
ـ الله شاهدي على أنني لم أكن أنوي سوءا ، ولم يخطر ببالي تجـاه الام وابنتها شيء لا يرض الله عنه . ـ قال رحيم وهو يمسح عرقـه الغزير بكمـه .

واستدار أستيمر صوب ديسة سائلا :
ـ قولي الحقيقة يا ديسة . عندما أعطاك رحيم كيسا من الطحين ، او احضر معه الى البيت بعض السكر ، أو قدم للاطفال شيئا من الحلـوى ، هل طلب منك أن توفيه ثمن هذه الاشياء فيما بعد ؟
ـ كان رحيم يرى بعينيه ، كما يعرف كل الناس أنه لا يوجد لي مصدر أفيه منه دينه في يو ممن الايام .
ـ هذا شيء جميل . لقد وهبك رحيم اذن ما جادت به نفسه ، وأنـت قبلت هبته لانك كنت بحاجة اليها . من الصعب أن نجد مسلما مثل رحيـم في هذه الايام .

ـ ايه يا أستيمر ، قليلو الشفقة ومعدومو الضمير كثر . عددهم كبير جدا ـ قال الشيخ سعيد مؤيدا .
ـ وهل هم كثيرون فقط ؟ ـ تابع استيمر مسترسلا ـ كم رجل تريـد أن أحضر لك الآن من الذين لا يعرفون ما هو الحرام ! وهـل عدد الذيـن

سيجلبون لك المتاعب من أجل شيء تافه لا قيمة له قليل !٠٠ ان أكثر الناس في هذه الايام لا يفكرون بمشاعر الآخرين ٠ ورحيم يستحق الشكر والثناء٠ ان القرآن قد تحدث عن المسلمين من أمثاله ٠ ـ اقترب أستيمر من المنضدة الصغيرة ، وتناول المصحف الكبير وفتحه ـ استمعوا الى ما جاء في القرآن حول هذا الموضوع ٠ لا شك أن بعضكم يعرفه ومن نسي فانني اذكره ٠ هنا في الصفحة ـ ٢٠٧ ـ في سورة مكية ـ وقرأ أستيمر بعض الآيات ، ثم أخذ يفسر بالشركسية معناها ٠ « اذا عمل المسلم عملا صالحا فان الله يثيبه يوم القيامة ولا ينساه » وماذا نستطيع أن نضيف الى ذلك ؟ وهل يمكننا أن نضيف نحن شيئا الى كلام الله ؟ ـ وأعاد أستيمر المصحف الى مكانه ٠

صمت جميع من في القاعة مندهشين ٠ ولم يفهم الشيخ سعيد ولا رحيم الى ماذا يريد أن يصل أستيمر ٠ وقال آشه وهو يهز برأسه وكأنه يتمم كلام أستيمر :

ـ من ينس الله ، فان الله لا يوفقه ٠

وتصاعد همس بين الجمهور « أرأيت كيف يعرف القرآن ؟ » « أصحيح أن ما قرأه موجود في القرآن فعلا ؟ » « أتظن أنه اخترعه اذن ! » « والله لم يعرف ابن قلشبي من يرسل الى الجبهة » « أتراه فسر بشكل صحيح ؟ » ٠

ـ انظر يا سعيد وتأكد فيما اذا كنت قد فسرت بشكل صحيح ٠

ورغم انه استدار الى الشيخ سعيد حين طرح سؤاله ، فانه كان يقصد قازجري الذي أراد استدراجه للنقاش ٠

ـ لقد فسر استيمر بشكل صحيح ٠ ـ قال الشيخ سعيد وهو يتصفح المصحف وكأنه يرى هذه الآيات للمرة الاولى ـ ومع ذلك فقد جاء في سورة البقرة أن للوالدين الحق في تزويج ابنائهما ،ثم ان ديسة ترغب في ان تزوج ابنتها لرحيم الذي أحسن اليها ٠ أليس كذلك يا ديسة ؟

ـ ماذا كنت سأفعل لو لم يساعدني رحيم ؟ ـ قالت ديسة وهي تستجمع أطراف شجاعتها ٠

ـ أنت يا أستيمر تفهم القرآن ٠ ولكن يبدو أنك نسيت ما فعله ابراهيم عليه السلام ٠ لقد هم أن يضحي بابنه عندما لم يجد أضحية يقدمها ٠ وقد قبل الله تضحيته ، وفدى ولده بكبش عظيم ٠ وهكذا ترى أن الوالدين حران في أن يفعلا بأولادهما ما يشاءان ٠

ـ هذا صحيح ، ولكن قبل أن يبلغا سن الرشد ٠ وبعد ذلك اقرأ ما نص عليه القرآن ٠ ـ قال أستيمر مقاطعا الشيخ سعيد ٠

« هل يريد منا أن نذبح أولادنا ؟ ما الذي يقوله الشيخ ؟ » قال صوت من بين الحضور ٠

ـ ليذبح أولاده هو ٠ ـ رد عليه صوت آخر ٠ ولما رأى قازجري أن الفوضى يمكن أن تعم بسرعة ، قام من مكانه ، ورفع يده مشيرا بالصمت٠

ـ من الصعب فهم جميع ما جاء في القرآن • ـ قال قازجري وهو ينظر الى أعضاء المحكمة • وصمت الحاضرون •

ـ لا يجوز الجدال في القرآن • ـ أردف قازجري ـ لقد انشئت هذه المحكمة الشرعية حتى لا يلحق أي غبن بأي مسلم • ولاعادة الضالين الى جادة الصواب ، وليذكر الله اولئك الذين نسوا ذكره •• وبعد ذلك ، الا يوجد ظلم في هذه القضية ؟ نعم ، يوجد • ومن المظلوم ؟ • ليس من الصعب معرفته •

أخذت ديسة تنصت مأخوذة في خشوع الى كلمات قازجري التي تخترق قلبها • « هذا هو الامر اذن • ان نجمه في صعود لان الله قد أحبه • ما اسعد من يستمع دائما الى مواعظه • ان وجهه يشبه وجه ملاك » قالت ديسة لنفسها وهي تحملق فيه • وتابع قازجري كلامه :

ـ لا تحاولوا ان تبحثوا هنا عن كل ما جاء في القرآن • على سبيل المثال ، جاء في كتاب الله : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » • ولكن متى يستعمل المسلم قوته ؟• عندما يهينون الدين • عندما لا تستطيع أن تعيد بالحسنى اولئك الذين حادوا عن جادة الصواب • عندما يمارس أحدهم الظلم • وأنا أرى الآن في موضوع ديسة بعض الظلم • انها تحاول أن تجبر ابنتها على الزواج من رجل لا تريده • أليس هذا ظلما ؟• ولماذا يقع هذا الظلم ؟ أليس من أجل المهر ! • لو كان يلدار قادرا على دفع المهر ، أكانت تتردد في تزويجها منه ؟ ولكن القوانين الجديدة ألغت دفع المهور ، ولا يستطيع يلدار أن يتجاوزها • وليس في هذا أي عيب ، وليست فيه مخالفة لتعاليم الدين الحنيف ، فالدين يسر ، والرسول الكريم يقول : « التمسوا ولو خاتما من حديد » • ما هو السيء بالنسبة الى ديسة اذا تزوجت ساريمة من يلدار وكونا أسرة ؟ أهو عاجز عن الوفاء بدين رحيم عليها ؟•• بما أنني قاضي القضاة ، فانني ابرىء ساحة ديسة وأرد دعوى رحيم •

وفوجىء أستيمر بانقلاب الموقف رأسا على عقب في غمضة عين • وأبدى جميع الحاضرين استحسانهم لما نطق به قازجري • بينما أسقط في يد الشيخ سعيد وأنهى الجلسة كيفما اتفق • وتدلى فك رحيم السفلي من وقع الصدمة • بينما اختفى موسى وصحبه متسللين في صمت •

ـ اذا نسيت ذكر الله فان الله لن يوفقك • ـ قال آشه مرددا بصوت آلي • ولكن كلماته لم تزعج احدا هذه المرة •

وخرج أستيمر من القاعة ، وما أن نزل الى الشارع العام حتى رأى مجموعة من الفرسان قادمين بسرعة • كانت تلك مجموعة يلدار • وما أن وصلوا قبالة المحكمة الشرعية ، حتى ترجلوا عن خيلهم التي أنهكها التعب ، وسال الزبد من أشداقها • وعندما سلم يلدار حصانه الى الفارس المرافق ،

واقترب من أستيمر ، فهم على الفور أن الامر قد انتهى على ما يرام ٠

ـ لقد فزت ، ولم يكن هنالك داع لمجيئك ٠ ـ بادره أستيمر ٠
واقترب منهما قازجري :
ـ تحية يا يلدار ٠ يبدو أنك جئت من مكان بعيد ٠ ـ قال المتخان وهو يسلم عليه مبتسما ـ لا تؤخر موعد العرس ٠ سآتي أنا أيضا لحضوره اذا دعوتني ٠
شكرا لك ٠٠

# الفصل الثاني

## علــى قبــر الام

لو تركتك متزوجا ولديك بيت فيه موقد دافىء ما كنت لاغتم كثيرا . اقد بذلت جهدي ، ولكن قواي نضبت دون تحقيق ذلك . كيف تستطيــع الاستمرار في الحياة وحيدا يا ولدي ، انك ما تزال يافعا « أوصيك ان تأتي الى قبري وتنقر عليه عندما تهيء لنفسك بيتا وزوجة محبة حتى ترتــاح روحي » .. هكذا كانت ام يلدار قد أوصت ولدها قبل موتها . وبقيت هــذه الوصية في ذاكرته ولم ينسها كما لم ينس وصية والده التي نقلها اليــه ستيبان ايليتش .

في وقت متأخر من احدى ليالي اواخر الصيف توقف فارس شاب كامـل العدة والسلاح أمام المقبرة . وقفز من فوق سورها المنخفض وتمـلل بــين القبور بعد أن ترك حصانه مربوطا الى جذع شجرة بلوط . وأخذ يبحث بين الشواهد الضخمة عن قبر معين . كان واضحا انه لم يأت الى المقبرة منذ زمن طويل ، فقد بدا عليه أنه يجد صعوبة في الاهتداء الى ضالته . كان هــذا الفارس هو يلدار بعينه .

وبعد أن بحث طويلا وجد ضالته ، قبر الام . واندفع طائر من تحــت شجيرة فأجفل ، كان الليل مظلما ولم يستطع الهلال الوليد أن يبدد شيئـا من عتمته ، وما لبث أن اختفى وسط غيمة سوداء كثيفة . ولمعت بعضــ النجوم بين وقت وآخر من خلال فتحات صغيرة بين الغيوم . كانت المقبــرة صامتة لا يسمع فيها صوت سوى همس الريح بين أوراق الشجر بصــوت لا يكاد يسمع .

جلس يلدار على الارض · كان القبر قديما ، ومع ذلك خيل اليه أنه اذا حفر التراب عن أمه فسوف تجلس لتحادثه كما كانت تفعل في الايام الخوالي ·

لقد مضى وقت طويل منذ فارقت أم يلدار الحياة · ولم يعد حتى يلدار نفسه يتذكر بالضبط تفاصيل موتها · كانت أمه هي الانسان الوحيد الذي بقي له في هذا العالم بعد نفي أبيه الى سيبيريا لاشتراكه في حوادث تمرد « دزلوقة » وبعد موتها أصبح يتيما حقا لا مأوى له · أنه يذكر مع ذلك ما كانت أمه تقاسيه بعد نفي أبيه من الهموم والمرض والفاقة · وكم قاسى هو بعد موتها من اليتم ، وكم مرة وقف وراء الابواب آملا في أن يحصل على كسرة من خبز الذرة · ولما اشتد عوده قليلا ، عمل خادما في بيت موسى · ورغم انه كان يعمل في الليل والنهار دون أن يوفر جهدا ، فلم يكن يملك من الملابس ما يستطيع أن يظهر بها بين اقرانه · وقبل أن يتعرف على ساريمة ويتوله بها بقي متعزلا ، منطويا على نفسه ، يتجنب الظهور بين الناس · ثم ها هو رحيم اللعين يظهر أمامه ، فينغص عليه حياته · وما زال يلدار يذكر بكثير من الحنان ، حفلة الميلاد التي أقيمت في بيت موسى ، والمرة الاولى التي رقص فيها مع ساريمة ، وعندما وقف هو وجراسلان وجها لوجه في ذلك اليوم ، حجزت بينهما ساريمة بجرأة غير متوقعة · لم يخش يومها جراسلان ، كما لم يخش حتى غومار نفسه يوم الاجتماع · هل تحس أمه يا ترى أن ذلك الولد اليتيم الذي خلفته قد أصبح الآن رجلا لا يهاب أحدا ·

ان أفضل الرجال في قباردیا غدوا يعرفونه ، ويشاورونه ، حتى أن ينال نفسه ، وقازجري أيضا ، كثيرا ما يحتاجان اليه · وفوق كل هذه المكانة التي وصل اليها بعرق جبينه وقوة ساعديه ، سيتزوج ساريمة التي أحبها من أعماق قلبه ، ان له بيتا الآن ، وهو على وشك تأسيس عائلة ، وهذا ما كانت تحلم به أمه المسكينة · وقد جاء لينفذ وصيتها ويعلمها وهي في قبرها بأن آمالها قد تحققت ·

واتكأ يلدار بجبينه فوق رأس القبر · وشم رائحة الارض ، وخيل اليه أن العشب تحت جبينه دافيء ، يتنفس ·

ـ أمي ـ قال يلدار همسا وهو يتذكر ليلة سهره بجانبها وهي على فراش الموت · ـ أمي ، ها قد جئت اليك ، لم أنس وصيتك · ها أنذا يا أمي ـ ونقر يلدار فوق رأس القبر ببطء شديد وكأنه يريد أن يوقظها من نومها ـ هل تسمعينني ، غدا عرسي · ما كان أسعدني لو حضرت عرسي ·

انتشرت اخبار عرس يلدار في كل مكان · ولم يعد لاهالي قرية شعلمقوقة من حديث سوى هذا العرس · وكيف ساعد المتخان يلدار ، وكيف

ربح أستيمر الدعوى ، وكيف اعطوا بيت جراسلان ليلدار ، ومدى فــرح ساريمة ، وبكاء ديسة ٠٠ كل هذه المواضيع كانت تغري بأحاديث شتى ٠ ولما كان يلدار قد وجد بيتا بالاجرة في المدينة ، فقد فكر بأن لا يقيم عرسه في القرية ٠ ومال جميع رفاقه الى هذا الرأي بسبب الاحداث المتلاحقة ، ولكنه تذكر وصية أمه المسكينة وقولها ذات يوم « لا أريد شيئا من هذه الدنيا ، سوى أن أرى بيتك وفيه عروس جميلة » ٠ وهكذا لم يستطع يلدار سوى أن يقيم العرس في القرية قريبا من قبر الام ٠

غدا ستجتمع القرية كلها في العرس ، وسيأتي المتخان ليهنىء يلدار كما وعده ومجيئه سيسبغ طابعا خاصا على العرس ، لم تعرف فاطمة المسكينة أمه ، أن يلدار سيحظى بمثل هذه السعادة والمكانة ٠ ولكن ذلك بفضل من ؟ انه بفضل استيمر ٠ فلولاه لبقي متشردا ٠ وستيبان ايليتش أيضا ، هل ما عمله من أجله قليل ؟ انه هو الذي أتاه بأخبار أبيه مراد الذي مات في سيبريا ٠ كانت أمه تخاف من مجرد رؤية الروس ، ولو رأت ستيبان الآن لاعتبرته مبعوث العناية الالهية ٠

اسمع ، هل دخل الى المقبرة رجل آخر ، أم أن يلدار تخيل ذلك ؟ حبس يلدار أنفاسه وأخذ ينصت ٠ ثم مد يده الى المسدس بحركة لاشعورية ، وانقطع الصوت ٠ وبعد أن جلس يلدار مدة طويلة ينصت ، تمدد على ظهره فوق العشب اليابس وأخذ ينظر الى السماء ، ويشم رائحة العشب الطيبة ٠ وشعر براحة عميقة في رقدته ، وعندما أخذت النسمات التي تأتيه من فوق القبر تداعب شعر جبينه ، أحس أن أمه هي التي تلاطفه ٠ وبينما هو كذلك ، هل نام فعلا ، ا م خيل اليه ذلك ٠ المهم ان الليل تقدم كثيرا ٠

زادت برودة الليل ، ونزل الندى ، وأخذ الحصان المربوط بجانب سور المقبرة ينخر من أنفه ، وفكر يلدار بمغادرة المقبرة ٠ غدا عرسه ، وعليه أن ينجز أعمالا كثيرة فقام وأخذ ينفض ملابسه وقد غمره شعور عميق بالارتياح لكونه بجانب قبر أمه ٠

كانت دوميسارا تعمل وكأن ابنها نفسه هو الذي ستقيم عرسه ٠ فهي قد جمعت نساء الحي وأخذت تهيء الطعام ، وكان استيمر أيضا يجد ما يعمله في هذه المناسبة ٠ ولما لم تكن التقاليد تسمح بأن يعود العريس الى بيته فان يلدار كان ينوي أن يلجأ الى بيت بلاتسه ، لان بيت أستيمر قريب جدا من بيت العروس ٠ ولا يليق وجوده فيه ٠

وبينما هو جالس يزيل بعض الاعشاب عن قبر أمه ، سمع صوتا من جديد ٠ ظن لاول وهلة أن مصدر الصوت هو كلب أو حيوان ما ، فنظر حواليه جيدا ، ولكنه لم ير شيئا ٠ خطر بباله أن ينادي « من هذا ؟ » ولكنه أحجم عن ذلك خوفا من أن يتهموه بالجبن اذا سمعه أحد ينادي في المقبرة ٠

وعندما انطلق يلدار مغادرا ويده على سلاحه ، خرج من وراء الغرفة

المشادة في المقبرة رجل وقف أمامه سادا عليه الطريق . ومد يلدار يده مباشرة الى مسدسه .

ـ دعك من ذلك ، فأنا أيضا أحمل مسدسا . ـ قال الرجل الذي وقف في طريقه . ـ هل أنت بخير ؟ ماذا ، هل خفت ؟

ووقف يلدار مترددا ، خيل اليه انه يعرف هذا الرجل ولكنه لم يعرف من يكون . وفكر ، قد يكون أحدهم يحاول أن يختبرني ، ولكن من هذا الذي سيراقبه في منتصف الليل ؟. وقف الرجلان وجها لوجه متأهبين ، وكل واحد منهما ينتظر أن يبادر الآخر بأية حركة عدائية ، ضاغطا على أعصابه ، ممتحنا رباطة جأشه .

كان جراسلان هو الذي وقف في وجه يلدار .

ماذا يريد مني الآن يا ترى ؟ فكر يلدار .

ـ قد تظن انني التقيت بك صدفة . ـ قال جراسلان ـ انني أراقبك منذ مدة طويلة . كنت أعرف انك ستعود الى شعلمفوقة في موعد عرسك . لذلك وجدتك بسهولة . استمع الى ما سأقوله لك دون ضجيج ...

ـ اذا جئت تبحث عن شر ، فسوف تجده .

ـ لا تتسرع ، هنالك ما يكفيك منه . اسمعت ؟. اذا كنت تتصور ان تقيم عرسك في بيت جراسلان ، اطمئن ، فهذا لن يحدث . انك تعرف جراسلان جيدا . أنتم لا شاغل لكم سوى أن تلتقطوا الاوامر من فم ينال، أما جراسلان فلا يجرؤ احد على مخالفته . انه لن يقبل أن تأخذ عروسك الى بيت زعيم الخارجين على القانون . اسمعت ؟ اذا عملت بنصيحتي فأنا لم أرك وأنت لم ترني .

ـ جراسلان ، البيت لم يعد بيتك .

ـ هل هو بيت خلفه لك أبوك اذن ؟.

ـ لا تكن عصبيا . أنت وحدك الآن ، أما أنا فلست وحدي .

ـ أهذا ما تقوله ؟

ـ هذا يكفي اليوم .

ـ لا تتكلم عن أبي .

سمع يلدار ما قاله جراسلان . في السنوات الماضية ، لم يكن يسرق حصان في كل المنطقة الواقعة بين نهري ترك واكوبان دون علمه . لكنه لم يسرق حصانا بنفسه من دار احد سوى حصان متخان كورغوقة الاسود ، وذلك في ظروف استثنائية . كان في ذلك الوقت زعيما للصوص الخيل ، ولكل اللصوص ، وهو الآن خارج على القانون . ولكنه لم يره أحد في أي مكان يسلب شيئا بنفسه ، او يقطع الطريق على أحد . ومع ذلك فان جميع الخارجين على القانون في المنطقة يأتمرون بأمرته ، ولا يقومون بأية عملية في أي مكان دون مشورته . وكان يعيش متخفيا . يأتي الى السوق تارة

في هيئة حاج ، وأخرى في زي فلاح يقود عربة بحصان واحد ٠ ويأتي الى المدينة أحيانا ماشيا يتجول فيها ويغادرها دون أن يشعر به أحد ٠

ـ أين تعيش الآن ؟ ـ سأله يلدار ٠

ـ ماذا ؟ انك تمزح ولا ريب ٠ لا يعرف أحد أين يعيش جراسلان سوى الله نفسه ٠ أنا أعيش في كل مكان ، لا يوجد مكان بين السماء والارض لا أكون فيه ٠ ـ قال جراسلان ٠

ـ اظن انك تتجول في الاماكن الدسمة كحصان سمين يا جراسلان ٠

ـ لا تفكر أن سرجك متين فوق ظهر حصانك أنت أيضا ، اننا نراقبك٠ وعندما تذهب للنوم ، اغلق باب بيتك جيدا ٠

ـ أنا لا ارى ما يستوجب اغلاق باب بيتي جيدا ٠ أما أنت فلا تخلع حذائيك عندما تنام ، فاذا هربت حافيا ، لا تستطيع ان تركض مسافة طويلة ٠

ـ هل تستطيع أن تهرب الآن وأنت تلبس حذائيك يا ترى ؟ ـ قال جراسلان ـ لو كنت أريد ان اجعل من هذا المكان ميدانا للصراع ، لما وقفت أكلمك طوال هذه المدة ٠٠ لم العجلة ، سنلتقي ثانية ٠ اذا كنت أتركك اليوم ، فلا أفعل ذلك لانني أخاف منك ٠ من يدري ، فقد تتذكر هذا في يوم من الايام ٠

## العرس

عاد يلدار الى بيت بلاتسه حوالي منتصف الليل مهموما ٠ وذهب الى فراشه مباشرة دون عشاء ، محاولا اخفاء مشاعره ٠ ولكنه لم يستطع النوم طوال الليل ، كان يفكر بما قاله جراسلان تارة ، وتارة اخرى يخيل اليه انه ينظر الى وجه ساريمة ٠ وأغفى قليلا عند الفجر ، ولكن ضجيج الناس أيقظه بعد فترة قصيرة ٠

لم يكن يلدار وحده الذي لم ينم في تلك الليلة ٠ساريمة أيضا لم يغمض لها جفن طوال الليل ٠ فقد خبأت ديسة ملابسها الوحيدة التي يمكن أن تلبسها في هذه المناسبة ، بحجة أنها ستعيد هذه الملابس لصاحبها ٠ وصاحبها هو رحيم بالطبع ٠ وأخذت تستعطف أمها باكية ، ولكن ديسة لم تستمع اليها ٠ لو كان رحيم هو الذي ستتزوجه لشعرت بأنها تملك سعادة الدنيا كلها ٠ أما الآن فانها لم تبال بهذا العرس ، ولم تبذل أي جهد لتهيء ابنتها له ٠

وعندما طلع النهار وصلت صديقات ساريمة ، لابسات احلى حللهن لحضور العرس ٠ ومن يراها بينهن لا يمكن أن يصدق أنها هي العروس ٠

فملابسها رثة ، وترتدي نعلا قديما من صنع يدوي •
ـ انك لم ترتدي ملابسك بعد يا ساريمة ! ـ قالت الفتيات مستغربات•
فانفجرت ساريمة باكية دون أن تقول شيئا • وعرفت الفتيات سبب بكائها ، فنادين أختها الصغيرة روم وقلن لها :

ـ اذهبي بسرعة الى دومسارا ، قولي لها ان ديسة أخفت ملابس ساريمة • أفهمت ؟ هل ستنسين ذلك ؟
ـ لقد فهمت والله ، وأنا لا أنسى شيئا • ـ قالت روم وهي تحمل نصف فطيرة •
ـ لقد غضبت أمي وأخفت ثوب ساريمة الجميل • وسيأتي مبعوثو العريس لاخذها بعد قليل • هذا ما ساقوله •
ـ اذهبي اذن ، اركضي ركضا •
فكرت الفتيات أن يلبسن ساريمة ثياب احداهن اذا لم تستطعدومسارا ان تفعل شيئا • ورغم أن روم نسيت ما كان يجب عليها أن تقوله عندما وصلت الى بيت دومسارا ، فان دومسارا فهمت أن هنالك شيئا ليس على ما يرام يتعلق بملابس العروس • فانطلقت بسرعة وجمعت كل ما تحتاج اليه العروس من ملابس بما فيه الازرار الفضية وغطاء الرأس الذهبي وجاءتالى بيت ديسة ومعها روم •
ولم تنتبه ديسة لمجيء دومسارا •
ـ هذا مخجل حقا • هيا البسوا العروس ـ قالت دومسارا وهي تصدر تعليماتها للفتيات ـ أيجوز هذا ، كيف لا تستحي ديسة ، هل تكره ابنتها لهذه الدرجة • أيوجد أم تفعل مثل هذا يوم عرس ابنتها ؟ • لا تبكي يا عزيزتي •

تركت دومسارا العروس بين أيدي الفتيات يزيننها ، وذهبت تجري الى غرفة ديسة تؤنبها • وتنبهها أن لا تجلب العار على نفسها ، وأن تقدم ما يليق من واجبات الضيافة للذين سيأتون لاخذ العروس ، وأكدت لها بأنها سترسل لها من الشراب والزاد الذي يهيء في بيت يلدار حالا ، ثم عادت الى بيتها •
وبعد أن اكتملت زينة ساريمة ، وسمعت الانباء التي كانت تنقلها روم الصغيرة اليهن عن الاطعمة التي تجهز في البيت زال عنها التوتر ، وعادت الفرحة الى وجهها •

ووصل الذين سيأخذون العروس • عربة ركاب كبيرة تم استئجارها من المدينة ، وعدد من الفرسان المرافقين ، دلفوا مسرعين الى دار ديسة ، واستدارت العربة وهي تميل على أحد جانبيها وتوقفت أمام البيت تماما وترجل الفرسان ، ونزل بلاتسة من العربة وهو يمسح شاربيه اللذين يشبهان لسانين من اللهب • وانضم الفرسان اليه ، وتوجهوا الى داخل

البيت ٠

كانت المائدة عامرة ، فجلس المتقدمون في السن حولها وبدأوا الطعام والشراب والاحاديث ٠ بينما افتتح الشباب والشابات في باحة الدار حلقة الرقص ٠ وعجت الدار بالناس ٠ ولما رأت ديسة أن العرس كبير على غير ما توقعت ، ندمت على اخفاء ملابس ابنتها ولكن الاوان كان قد فات ، وأتى الضيوف على الزاد الذي أرسلته دومسارا ، وعلى ما كانت ديسة قد حضرته ولكن لحسن حظها كان بلاتسة هو كبير الجالسين على المائدة ، فاستعجل الضيوف على الرحيل :

ـ عندما يأكل الضيف ينظر نحو الباب ـ قال بلاتسة ـ ما زال أمامنا عمل يجب أن ننجزه ٠

ـ هه ـ أتخاف أن لا نصل لطول المسافة ؟ لم العجلة ؟ ـ قال بعضهم معترضا ، لكن بلاتسة لم يقبل هذا الاعتراض ٠ وهكذا صار لا بد من توقف الرقص في باحة الدار بالرغم من أن الشباب لم يكتفوا بعد ٠٠ كان بلاتسة هو الذي سيخرج العروس بنفسه ٠

قامت ضجة في غرفة ساريمة عندما سمعوا أن الضيوف على وشك الانصراف ٠ كانت ساريمة فرحة ، وهي على وشك البكاء في نفس الوقت ٠ والتفت حولها صديقاتها يضعن اللمسات الاخيرة على زينتها ٠

ورغم أن الملابس التي أحضرتها دومسارا لم تكن على قياس ساريمة تماما ، فان من يراها تلبس هذه الملابس ، يخيل اليه أنه لم ير عروسا أجمل منها اطلاقا ٠ كانت في أجمل زينتها ، وقد أسدل على وجهها ورأسها منديل حريري شفاف ٠ فغدت بجسمها النحيل ، ووجهها الشاحب قليلا ، وعينيها الجميلتين اللتين تلمعان كجمرتين في يوم غائم ، عروسا يتمنى الكثيرون أن يجدوا مثلها ٠

ورغم أن صديقتها « كوشنة » صرفت وقتا طويلا لتزيين العروس ، فانها كانت تجد دائما ما تصلحه ٠ فتارة تخرج مشط الزينة من شعرها وتضع بدلا عنه مشط احدى زميلاتها ٠ وتارة أخرى لا تعجبها الجوارب التي تلبسها ، فتخلع جواربها هي وتلبسها اياها ٠ ثم تمعن النظر اليها من جديد فتحضر ابرة وخيطا وتضيق الثوب قليلا ٠

دخل بلاتسة الى الغرفة ، وما أن وقع نظره على العروس حتى توقف وكأن جمالها قد صعقه ٠ لم تكن المرة الاولى التي يراها فيها ، ولكنه لم يتوقع أن تصبح عروسا جميلة كل هذا الجمال ٠

وركب الفرسان خيلهم وأحاطوا بالعربة الجلدية السوداء وأخذوا ينشدون الغناء الخاص لهذه المناسبة « وري دادة » من المؤكد أنه لا توجد فتاة سمعت هذا الغناء يغنى لها ولم تبك ٠٠ وهكذا بدأت دموع ساريمة

تتساقط قطرات كبيرة ، وأحاطت بها صديقاتها ، كن في أعماقهن يغبطنها ولكنهن تظاهرن بالاسف عليها ، والبكاء على مصيرها ·
وبدأ بلاتسة يخرج حتى يسكت الفتيات ·

ـ من هي التي سأختارها من بين كل هاته الجميلات ؟ ليتني لا أخطيء الاختيار فآخذ واحدة غير المطلوبة · هيا يا حبيباتي ، دعنني أنظر اليكن جيدا من منكن هي أجمل الجميلات ؟ ·
وكفت الفتيات عن البكاء وارتفعت ضحكاتهن ·

ـ سأحمل الآن أجمل واحدة فيكن · ـ قال بلاتسة وهو ينظر نحو ساريمة ·
ـ عتبة الغرفة عالية · ـ ردت عليه الفتيات ·

وفهم بلاتسة ماذا يعنين ، وتابع مزاحه معهن · وكانت ساريمة قد كفت عن البكاء ، ونظرت بعطف الى العجوز الذي سيحملها الى العربة دون ان تمسح دموعها التي سالت من عينيها · وتابعت الفتاة التي قالت « العتبة عالية » مزاحها مع بلاتسة ·
ـ العتبة عالية ولكن لي جناحين ·
ولم يكن بلاتسة يكره هذا المزاح :
ـ استطيع أن أطير الى الجانب الآخر من الغيمة ·
ـ سيكون حملك ثقيلا ، وسيسقط منك ·
ـ وكيف يسقط مني اذا ركبت الحصان ؟
ـ سينقطع جلد الركاب ·
وفهم بلاتسة أنه لا يستطيع الافلات من أيدي الفتيات ·
ـ هه ، يا لشقاوتكن ! ـ قال بلاتسة ـ يبدو أنكن لن تتركنني بسهولة ليتني أجد الآن شابا لكل واحدة منكن يخطفها حتى أخلص منكن جميعا ·

هيا خذي · ـ قال بلاتسة وهو يقدم لهن علبا من الحلوى مع بعض النقود كان قد حضرها لهذه الغاية حتى يسمحن له بأخذ العروس · وأخذت الفتيات الحلوى ضاحكات ·

ـ مع السلامة الآن أيها الجد · ـ صاحت الفتيات ـ ولكن فتاة جاءت ووقفت بينه وبين ساريمة ، فتظاهر العجوز بالخشونة وأزاح الفتاة جانبا وتقدم من ساريمة وأمسك بيدها قائلا :
ـ هيا يا ابنتي الآن ! ·
ـ مع السلامة ، فرشت دربك بالسعادة · ـ وعادت الفتيات الى البكاء ثانية ، ومع ذلك ارتفعت الادعية ·
ـ نرجو أن يبقى الخير في البيت من بعدك ·
ـ ليكن دخولك لبيتك الجديد بركة وسعادة ·

ـ نرجو لك التوفيق ٠

وعندما هم بلاتسة بأن يحمل الفتاة ويخرج من الغرفة ، اندفعت ديسة الى ابنتها فوجدتها في أحلى زينة ٠ فأخذت تلوم نفسها على اخفاء ملابسها وفكرت أن الغرباء أرأف بابنتها منها ، فندمت على ذلك ، واحتضنتها وأخذت تبكي بكاء مرا ، واستندت ساريمة على أمها وأخذت تبكي أيضا ٠

ـ يكفي هذا ، لا حاجة للندب الآن ٠ ـ قال بلاتسة وهو يهم بالتفريق بينهما ٠

ـ لماذا لم يقل أحدكم لي أن ما أفعله بابنتي عار ٠ أتظنون أني كنت أكرهها ؟ ! ٠ انا التي ولدتك ، وربيتك ، وها أنت الآن تتركينني في البيت الخاوي ٠ انني استحق ذلك يا عزيزتي ، انني استحقه ٠ كنت أظن أنني أستطيع منعك ، من أجل شيء آخر ٠ كانت ديسة الآن تفضي بكل قرارة نفسها ـ خذي يا عزيزتي الوحيدة ، يا ضياء دنياي ، خذي معك هذه الاشياء فهي لك ٠

وفتحت صندوقا أسود كبيرا في غمضة عين ، وأخذت تلقي على الارض بمحتوياته ٠ قطعة قماش ، ثوب جميل ، وغير ذلك القت بها كلها في أرض الغرفة ٠

ـ خذيها معك كلها يا ابنتي ٠ أنا لا أريد شيئا ٠

ـ انظروا الى هذا ٠ ـ قالت ساريمة ، وهي تخطف منديلا حريريا من بين كل ما كومته على الارض ٠ كان هو المنديل الذي أهداها اياه يلدار في يوم من الايام ٠

ولم تأخذ ساريمة شيئا سوى المنديل ٠ وشعر بلاتسة أن الدموع قد غلبته ، فخلع قبعته وأعاد لبسها من جديد ، ومسح دموعه من خلال هذه الحركة دون أن ينتبه اليه أحد ٠

كانت أغنية الـ « وري دادة » قد طالت في باحة الدار أكثر من اللازم ، ففتل بلاتسة شاربيه ، وبحركة مفاجئة حمل العروس بين ذراعيه كما يحمل الطفل ، وانطلق بها ٠

ـ ان ابنتك لم تعد بحاجة الى هذه الاشياء يا ديسة ٠ فيلدار سيؤمن لها كل ما تحتاج اليه ـ قال بلاتسة خارجا ـ أرجو أن تحل السعادة في بيتكم دائما ٠

ركضت ديسة وراء ابنتها وكأنها ستغيب عنها الى الابد ،ولكن العجوز كان أسرع منها فلم تدركه ٠

وارتفع صوت الغناء مجلجلا ٠ جلست ساريمة وقد غطي رأسها بالمنديل الحريري بين فتاتين من صديقاتها اللواتي غصت العربة بهن ، فانطلقت ووراءها مجموعة الفرسان مباشرة ٠ وخرج جميع من في الدار يودعون الموكب ٠

وفرغت دار ديسة من الناس ٠

واختفى صوت الغناء والضجيج وصوت حوافر الجياد تدريجيا وعم الصمت البيت ٠٠ وبقيت ديسة مدة طويلة أمام البوابة الخارجية ،والصغيرة روم تمسك بطرف ثوبها ٠ كانت دموعها تسيل بغزارة ٠

جرى الفرسان وراء العربة متباهين والريح تعبث بأطراف برانسهم ٠ وخطف أحدهم قلبق رفيقه وانطلق هاربا ، فلحق به صاحبه وهو يحث حصانه الاشقر الضئيل الحجم ٠ وانطلق فرسان آخرون يسابقون الفارسين ليظهروا مهارتهم وسرعة خيلهم ٠ ولما كان البيت الذي سيأخذون اليه العروس قريبا وحتى لا ينهوا مهمتهم بسرعة ، انطلق الموكب خارج القرية نحو المطحنة القديمة ليطيلوا الطريق ٠ ووجدوا مكانا مناسبا للجلوس ، وأخرجوا الزاد الذي تقضي العادات بأن يستقبلهم به أهل العريس خارج البيت قبل وصول الموكب ٠ وحضروا المائدة بسرعة على الارض ، وأخرج بعض الفرسان من جعبتهم زجاجات الخمر ، بالاضافة الى الدن الذي كان في العربة ٠

ـ هيا يا جماعة ، مدوا أيديكم الى الزاد ـ قال بلاتسة وهو يقطع اللحم الى قطع صغيرة ٠ وكوم آخرون الفطائر المقلية بالزيت على حصيرة صغيرة أتوا بها لهذه الغاية ٠ وامتلات البرية شيئا فشيئا ببقايا الطعام التي أخذت الغربان تحوم حولها ٠ فأخذ الفرسان يطلقون عليها من بنادقهم حتى تفرقت ٠ وتمنت ساريمة أن ينتهي كل هذا بسرعة وينطلقوا عائدين الى القرية ٠

ـ قازجري ، قالر ، هيا يا شباب ، أسرعوا وخبروا بعودتنا ٠

وانطلق الفارسان مسرعين كطائرين من السنونو ٠ بينما عاد بلاتسة الى العربة التي لم تنزل منها ساريمة ، وجلس فيها وظهره الى سائقها وانطلق الموكب ٠كان بلاتسة يقف بين حين وآخر على قدميه ويقول شيئا مصدرا بعض التعليمات ، وعندما وصل الفرسان الى القرية بدأوا يغنون من جديد ٠ ولكن يصعب الغناء والخيل تجري بهم ، فتوقفوا عن الغناء بعد قليل ٠ وأخذ الفرسان يمارسون ألعاب الفروسية ٠ تارة يلتقطون منديلا من الارض وهم على ظهور خيلهم التي تجري دون توقف ٠ وأخرى يضعون بيضة على الارض ويكسرونها بضربة واحدة دون أن يتوقفوا أيضا ٠

وخرج جميع من في الدار لاستقبال الموكب ٠ وقفت الفتيات والنسوة أمام الدار ، بينما جلس الاولاد على طول الاسيجة ٠ وأخذ الفرسان يستعرضون خيلهم أمام الفتيات ٠

ووصل الموكب ٠ وتجمع عدد كبير من الناس بشكل يخيل اليك معه أن جميع أهل القرية قد أتوا لحضور العرس ٠

## زفـــة العروســــــ

كانت دومسارا هي المشرفة الرئيسية على تنظيم حفلة العرس ، ولم يكن أحد يخالف رأيها نظرا لمعرفتها الدقيقة بالتقاليد التي يجب مراعاتها وهكذا جمعت نساء الحي للمساعدة في اعداد الطعام • وأرسلت حوالـــي عشرين شابا بأمرة أسلان ليجمعوا الدجاج من أهل القريـــة ، فانطلقـــوا يجوبون بيوتها بيتا بيتا ، وعادوا في نهاية جولتهم ومعهم حوالي خمسين دجاجة مذبوحة وضعوها في المطبخ أمام النسوة • فهيأت دومســارا مائــدة خاصة للشباب عامرة بالدجاج والشراب المحلي المصنوع من الذرة «الباخسمة»

وجمعت جميع الموائد الموجودة في القرية ووضعت صفا في باحة الـــدار حيث جلس الضيوف القادمون من خارج القرية حولها • وكان أهل القرية مـا زالوا يحتفظون بالموائد المستديرة ذات الارجل الثلاثة القصيرة ، منذ اليوم الذي أطلق عليهم فيه « المتسابقون الى الموائد » • واذا كانـــت بعضـــ البيوت اقتنت طاولات فانها كانت تستخدم للزينة ولغايات أخرى غيـــر تناول الطعام عليها •

ونصبت موائد خاصة للمسنين داخل البيت • فجلسوا حولها ، يغنون بعض الاغاني القديمة ، أو يروون الحكايات والقصص والذكريات • وكـان بينهم من لا يزال يذكر بوتش أيتش ، والد أستيمر الذي اعتبر مـــن ذوي الاخلاق الحميدة لانه رفض المسارعة الى الموائد يوم الوليمة التي أقيمـــت الضيوف من الاباظة • وتذكروا اليوم حتى العرس الذي أقيم لدومسارا يــوم تزوجها أستيمر وجاء بها من منطقة الابزاخ •ولكن أكثر القصص والذكريات التي نالت اهتمام الجميع ، هو حظ يلدار وما ناله من مكانة ، شأنه شـــأن أستيمر الذي لم يتوقع أحد من قبل أن يصبح رئيسا للقرية •

وعندما جاؤوا على ذكر ينال ثار جدال حوله بين المسنين • فاعتبـــره بعضهم رجلا قوي الشكيمة حازما ، بينما اعتبره آخرون قاسيا أكثـر ممـــا ينبغي •• وأنه لا يطيق رؤية الاغنياء ، ولا يبالي كثيرا بالمسجد •

وأخذ اسحق يروي ويعيد كيف سلبوه الثورين اللذين كان قد استعارهما مـــن موسى •

ـ أرجو أن تخسف بهم الارض الى الدرك السابع ، هؤلاء الملاعين • ـ قال اسحق •

ـ من هم هؤلاء ؟

ـ ومن يكونون غير الشريعيين اللذين سلبوني الثورين العائدين لموسى ؟ تسمع ذكر الله من أفواههم • أما قلوبهم ففيها شيء آخر غير الله •

ـ لا ! كيف تقول ذلك ؟ ان جنود الشريعة يعرفون القرآن •

ـ انهم لا يعرفون سوى كيف يوجعون رأسي •• هل جاء في القرآن أنــه يجوز لهم أن يأكلوا ثيران الناس ؟

ـ ايه يا اسحق ، يا اسحق • هذا الكلام سيجلب عليك غضب الله •

ولم يستطيعوا اسكات اسحق في النهاية الا بصعوبة ·
وتطرقوا الى الحديث عن رحيم الذي جلب على نفسه احتقار الجميع · ونعجبوا كيف لم يظهر في القرية · وتذكروا كيف حاول خطف ساريمة ذات
ـ ما الفرق بين الملك ، ومن يطلقون عليه « الرئيس » ؟
ولم يكن بين الموجودين من هو أجدر بـ « يرول » للاجابة على هذا السؤال :
ـ اذا أخذت ملك روسيا ـ قال يرول ـ كان يحب الحروب كثيرا ، أما اذا أخذت « شاه » الفرس ، فهو يحب النساء كثيرا · وعنده عدد كبير من الحريم · ان حريمه بعدد أهالي قرية كاملة ·
ـ حسبما تقول ، ان الملك هو من يملك عددا كبيرا من الجنود ! أما الشاه فعنده عدد كبير من النساء · ـ قال موسى ضاحكا :

وانطلق مسعود من هذه الفكرة ليسأل :
اذا كان رحيم يتبع ملكا آخر ، فلماذا يعيش في وطننا ؟ ـ سأل احدهم ·

ليلة ، واتفق رأيهم على أنه من رجال ملك الفرس مع أنه يعيش في قبارديا ·

ولكن يبدو ان أحدا لم يكن يعرف الجواب على هذا السؤال · وعندما قال
ـ لقد أخبرني بذلك واحد من الذين يشترون مني اللحم · ـ قال مسعود قائلين ، وما أدراك أنت بهذا الموضوع ؟ !
جادا ·
مسعود أن شاه الفرس لن يبقى في السلطة مدة طويلة ، سخر منه آخرون
ـ ليذهب الى الجحيم ، لماذا توجعون رؤوسكم بهذا الموضوع · ـ قال بتوقة غير راض عن مجرى الحديث ·
وعندما تطرقوا لذكر الذين يبصرون بواسطة عظمة الكتف قال الحاج زكريا العجوز الذي جلس في صدر المائدة وكأنه وحده يملك اليقين المطلق حول الموضوع :

ـ هؤلاء يعرفون كل شيء · في العام الذي زارنا فيه الضيوف من الاباظة تنبأ المسنون بقيام حرب كبرى ، وهلاك عدد كبير من الناس ·

الم تقم الحرب ؟ وهل عدد الذين هلكوا فيها قليل ؟· والآن يقولون أننا مقبلون على مجاعة ، فخذوا حذركم ·

ـ ان الناس لم يعودوا يملكون دوابا يحرثون بها ، لا ثيران ، ولا خيل · فكيف لا تقوم المجاعة ؟· ـ قال موسى مقاطعا الحاج ·
ـ ليحرثوا على الناس اذن · ـ قال مسعود معلقا ·
ـ كنت سأحرث عليك أنت لو استطعت ـ قال يرول منتهرا ·
ـ ما العمل اذن ؟ الا يكفي ما بوروه من الارض في العام الماضي !
ـ لقد سلبوا الناس الذين يملكون أرضا أراضيهم وتركوها بورا ·

لماذا فعلوا ذلك ؟ ـ قال مسعود وهو يرفع صوته وجسمه ـ هل تعطيك

الارض شيئا دون ان تزرعها ؟ تشترك ثلاثة أسر ايام الحراثة ، ومع ذلك لا تستطيع ان تهيء محراثا واحدا مع الدواب اللازمة ....

وعندما وصلوا الى ذكر الطعام ، تناول كل واحد منهم قطعة كبيرة من اللحم . وأخذوا يغمسون « الباستة » بـ « الشبس » ويأكلون بشهية كبيرة .

ـ لقد وصل موكب العرس . ـ قال يرول وهو ينظر من النافذة .

وسمع صوت الاكورديون في هذه اللحظة .

ووصل الفارسان اللذان أرسلهما بلاتسه لنقل خبر عودة الموكب .

وخرجت النسوة من البيت . وقدمت احداهن لكل من الفارسين وعاء مليئا بشراب « الباخسمة » وقطعة كبيرة من اللحم تكريما لهما لنقلهما الخبر السار . وشرب الشابان راضيين . ثم ركبا حصانيهما ودخلا بهما الى داخل البيت ولم يخرجا حتى علقت الفتيات في عرف كل حصان منديلا حريريا .

وسمع صوت الاكورديون من مكان قريب جدا . ودلفت العربة الى داخل الدار عبر البوابة المشرعة وخلفها الفرسان . ووقف الشيوخ والشباب صفا في نصف دائرة كبيرة حول العربة التي توقفت وانتصبت الفتاتان وبينهما العروس داخل العربة ، بينما قفز بلاتسه من مكانه وأمسك بيد العروس وأخذ يردد :

ـ جعلها الله عروسا للخير ، وجعل اولى خطواتها في هذه الدار يمنا وبركة ..

ـ اللهم آمين . ـ قال المتقدمون في السن .

ثم حمل بلاتسه العروس وأدخلها الى البيت ، حيث أوقفوها على منصة في زاوية الغرفة . وبعد قليل سمعت ضحكات الفتيات المرافقات .. وقد جرت العادة أن لا يسمح لاي رجل من أقارب العريس واصدقائه بدخول غرفة العروس دون دفع ضريبة رؤية العروس . وكان أول الداخلين هو « قالار » صديق يلدار الحميم الذي حمل معه ربطة كبيرة من الكعك المحلى بالسكر للفتيات . وأطلقت عليه العروس حسب العادة اسما جديدا « دشة شو » أعجب به كثيرا .

كان آل بوتش جميعا ابتداء من أستيمر وانتهاء بـ « لو » قد حضروا عرس يلدار وأخذ كل واحد منهم يعمل وكأن العرس عرسهم . ها هو أستيمر يصدر الاوامر باستمرار ، يستقبل القادمين ويشيع المنصرفين حتى البوابة . أما دومسارا فهي تهيء الطعام دون توقف . وانصرف تيمبوت الى تكسير الحطب الذي جمعه رفاقه .

وكان « لو » يساعد في كل شيء عندما يجدونه ، ولكنهم نادرا ما وجدوه عند الحاجة اليه .

كانوا في اليوم التالي سيزفون العروس ، ولو سمعوا رأي دومسارا كانت ستزفها زفتين ، زفة صغرى ، وزفة كبرى ، لكن يلدار لم يوافق على أية زفة لانه اراد اختصار المراسم وأخيرا اتفقا على زفة واحدة لان دومسارا لم تقتنع بأقل من ذلك ٠

ـ لقد أعطوك اجازة لمدة ثلاثة أيام من أجل عرسك ، ان لديك وقتا كافيا ٠ ـ قالت دومسارا محتجة ٠

ـ كما تريدين ٠ اعملي ما تشائين يا دومسارا ٠ ـ قال يلدار مستسلما ٠

وكانوا قد تهيأوا ليوم زفة العروس ، فاشتروا السكاكر والكرميلا وغيرها من الاشياء التي سينثرونها فوقها ووضعوها في سلة تحت السرير ٠ وانتبه « لو » الى ذلك وحاول عدة مرات أن يزحف اليها خفية ولكنه لم يوفق ٠ وقادوه خارج الغرفة في كل مرة وهم يمسكون بتلابيبه ٠

وتسلل « لو » بعد ذلك الى الغرفة التي يجلس فيها المتقدمون في السن واختبأ في احدى الزوايا ليستمع الى القصص التي يروونها ٠

وكان « جانخوت » ذو الصوت المخملي يغني :

عندما يسوقون قطيع الخيل

من لا يستطيع أن يقدم المساعدة ، محروم من القسمة ٠

وعندما ينشدون الاغاني ٠

جبان من لا يستطيع الترداد ٠

هيه ٠ جاء دورك يا من تستطيع الغناء ٠

عندما ينطلق الفرسان ٠

الفارس الكسول يبقى وحيدا في المؤخرة ٠

سيفك الذي كان سلاحك الوحيد في ذلك اليوم

كان يقطر دما ٠٠٠٠

وأخذ المسنون يرددون اللازمة : « وا ـ ري ـ را ، وا ـ ري ـ را ، وانو ـ ري ـ را ـ ري ـ را ـ ري » ٠

وجلس « لو » يستمع مأخوذا الى هذه الاغاني والقصص الجميلة ٠

وكلما دخل قادم جديد الى الغرفة ، كان الجميع يقفون احتراما ، ويتجادلون مدة طويلة حول الاماكن التي يجب أن يجلس فيها كل واحد ٠

وبدا واضحا أن دومسارا تهتم بالمائدة بشكل جيد ، فالاطباق الجديدة تحتل أماكنها على الطاولة دون انقطاع ٠

ـ هل برد الشبس ؟٠

ـ ، لم يبرد بعد ٠

ـ هيا عبىء لهم صحونهم ٠

وفي غرفة العروس ، انهمكت الفتيات في تزيينها ، بعد أن جلبوا لها ابريقا وطشتا لتغسل يديها ووجهها ٠ فها هي ذي في أحلى زينتها بعد أن وضعوا على وجهها وشفتيها بعض المساحيق ، ودهنوا شعرها الاسود

بعبض الدهون فغدا لامعا ، وفاحت من ملابسها رائحة العطور الزكية . كانت « كوشنة » هي المشرفة على زينة العروس . فلم تقتنع بمثل ذلك، بل أصدرت أمرا صارما بأن لا يسمح لاحد بدخول الغرفة ، وهكذا عادت تخلع ملابس العروس من جديد . فكوت ثوبها ، وأصلحت ما يجب اصلاحه، ثم احكمت المشد الذي يجب أن ينزعه (١) يلدار عنها الليلة بالخنجر الشركسي حين يدخل عليها في آخر الليل .

ولم ينته العمل من كل هذا الا بعد الظهر ، حيث اصبح كل شيء جاهزا لزفة العروس . وأصدرت دومسارا الامر بلهجة خطيرة « لتبدأ الزفة» . وتوافد الناس الى باحة الدار وانطلقت عازفة الاكورديون تعزف .

تجمع أولاد الحي كلهم أيضا ، وزحف « لو » من مخبئه بانتظار سلة السكاكر .

وعندما تطلق البنادق ، كانت الفتيات الصغيرات تهربن ، اما الاولاد فكانوا يتراكضون لالتقاط الفوارغ .

وأخرجوا ساريمة وفوق رأسها منديل حريري يغطي وجهها في حلقة من الفتيات وقد أمسكت اثنتان بذراعيها ، متجهات ببطء الى وسط الدار، بين دوي طلقات البنادق ، وعزف الاكورديون ، وغناء « الوري دادة » الخاص بزفة العروس . ولما كان غطاء الوجه سميكا ، فان ساريمة لم تكن ترى طريقها ولا تعرف الى أين يقودونها . ولكنها كانت تعرف انها ستلتقي الليلة بيلدار في آخر الامر ، وستنتهي بذلك كل المتاعب التي قاسياها ، وسيروي كل منهما للاخر ما لاقاه من عناء وهموم . وتمنت أن ينتهي كل هذا بسرعة ، ويحل المساء .

لقد صار من الماضي ، ذلك الوقت الذي أرادوا فيه أن يزوجوها لرحيم . وها هو يلدار قد عاد من الحرب سليما معافى . آه ما أسعدها . أليس كل هذا حلما يا ترى ؟ ألن ينتهي كل شيء عندما أفيق من الحلم ؟ . لكن كل هؤلاء الناس ليسوا حلما . فالموسيقى تعزف من أجلها ، وكذلك هذه الاغنية الجميلة أيضا من أجلها ، من أجل عرسها ، من أجل فرحتها .

ولم يعد يلدار قادرا على الاستقرار في مكانه . وتواردت بعض الافكار المقلقة الى ذهنه . فرغم أنه انتظر هذا اليوم بفارغ الصبر منذ سنوات طويلة ، لكن هنالك ما ينغص عليه سعادته ، لانه لم يستطع أن ينسى ما قاله جراسلان له ليلة البارحة . قد يكون الآن في القرية ، ماذا ينوي أن يفعل بي يا ترى ؟ واستغرب رفاقه من الشباب الذين بقوا معه حالته ، وأخذوا يتساءلون ، لماذا هو حزين يا ترى في يوم عرسه ؟ أمن الممكن أن يكون نادما على زواجه ؟ .

وبينما كانت العروس تزف ، اخرجت دومسارا صحنا صغيرا فيه مزيج من سمن وعسل ، ونادت مشيرة الى الشباب .

---

(١) عادة شركسية قديمة .

ـ هيه ، الى من سأعطي هذا المحلى ؟٠

ـ شاتي ٠ ـ قال « قالار » ، وهو يمد يده بسرعة ويمسك بالصحن ٠ ثم مد اصابعه الى الصحن ، ودهن أفواه بعض رفاقه ، وانطلق هاربا لا يلوي على شيء ٠ ولحقه عدد كبير من الاولاد ، لكن « قالار » كان يلعق السمن والعسل وهو يجري ٠

ـ فليكن لسان عروسنا حلوا مثل العسل ٠ ـ قال أخيرا ورمى الصحن على حجر فانكسر وتناثر شظايا ، وأخذ الاولاد يجمعون قطع الزجاج المتناثر ويلعقونها ٠ ان العسل حلو المذاق ، لكن ما لحقهم منه كان قليلا جدا ٠٠

أوصلوا ساريمة الى وسط باحة الدار ٠ثم عادوا في طريقهم الى الغرفة التي أخرجوها منها ٠ وارتفع صوت الغناء ، فكانت ساريمة تزداد اقترابا من لحظة سعادتها الكبرى ، وازدادت طلقات البنادق هذه ، فامتلأت باحة الدار بدخان البارود ٠٠

كان هنالك سلم مسند على شجرة التوت الكبيرة التي جلس يرول على قمتها ومعه سلة السكاكر ، وأخذ الاولاد ينظرون اليه مستعدين للانطلاق حين يرفع يده وكلما اتخذ « لو » لنفسه مكانا مناسبا ، كان بعض الاولاد الكبار يأتون ويقفون أمامه ، وأخيرا بقي هو وعدد من الاولاد الاصغر سنا وراء المجموعة ٠

وصعد الاخوان بسرعة الى الشجرة ، فأعطى يرول قبضة مما في السلة لكل منهما ، وقد استحقا ذلك فعلا ، نظرا لخدماتهما خلال اليومين الماضيين٠ كانت محتويات السلة قد أصبحت مغرية ، فبالاضافة الى السكاكر هنالك جوز ، وقطع من النقود مؤلفة من كوبيك او كوبيكين أو ثلاثة ـ انها تستحق العناء دون شك ٠

وعندما وصل موكب ساريمة الى الشجرة ، بدأ يرول ينثر عليها من محتويات السلة ، وانطلق الاولاد يتزاحمون ويزحفون على اربعة ليجمعوا ما ينثره ٠ وكان من تصيب قطع النقود رأسه أو جبينه ، يمد يده ليمسك بها دون جدوى ناسيا الالم الذي سببته له ٠

ـ هات هذه القطعة ، لقد مددت أنا يدي اليها أولا ٠ ـ صاح أحد الاولاد ٠

ـ لا تتوقف ، مد يدك الى غيرها ٠ ـ نهره احد الرجال ٠

ـ يرول ، انثر من هنا ٠

ـ لا تنثر فوق الوحل ٠

ـ لا ضير في ذلك ، انثر من هنا ٠

ازدادت طلقات البنادق حدة حين وصلت العروس الى الباب ٠

وأخذ رماة البنادق يصوبون الى المدخنة الآن فتتناثر قطع الآجر الاحمر ٠

وخلال دقيقة واحدة ، محيت المدخنة ولم يبق لها وجود ٠

وعندما أوشكت العروس أن تدخل ، أخذوا يطلقون من فوق رأسها مصوبين الى سقف المدخل ليطردوا الشياطين من عرفتها ٠ وأحست ساريمة أنها تكاد تصاب بالصمم ٠

وبدأت انفاس المغنين تنقطع بسبب دخان البارود ، وتصاعد سعال بعضهم ٠ وهربت كلاب الحي تعوي مذعورة ٠ واختفت الدجاجات والديكة الرومية في أقرب مخبأ وجدته ٠

وفي هذه اللحظة ارتفع صياح :

ـ لقد وصل المتخان قازجري ٠

ـ من قلت ؟

ـ قازجري ٠ المتخان ٠

ودلفت عربة جميلة يجرها حصانان مطهمان الى باحة الدار ٠ وشعر يلدار الذي رأى العربة من بعيد بالرضا ، لانه وفى بوعده ٠

وانطلق استيمر يستقبل الضيف ٠ وخرج المتخان من العربة ، حسن الهندام ، ونظارته تلمع فوق عينيه ، متمنطقا بأسلحة تناسبه ٠

ـ تفضل يا قازجري ٠

ـ لقد وصلنا ٠ كيف حالك ؟ لتكن عروسكم ، عروس خير وبركة ٠

ـ شكرا لك ٠

ـ كنت أنوي أن آتي البارحة ٠ هل ستزفون العريس أيضا ٠

ـ هذا ضروري ٠ يجب أن نتبع مشورة الكبار ، ولو أن يلدار لا يقبل بذلك ٠

وبينما هما يتحدثان ، اقترب منهما عدد آخر من الرجال ٠ وافرغ يرول سلته ونزل عن الشجرة ٠

ووقف قازجري ينتظر دخول العروس الى غرفتها ، حتى يدخل بدوره الى حيث يجلس الضيوف ٠

وخفت طلقات البنادق ٠ وعندما همت العروس بدخول الغرفة ، سمعت عدة طلقات في وقت واحد ٠ فارتعشت ساريمة وكادت تقع ولكن كوشنة مدت يديها واسندتها « آه يا الهي » صاحت ساريمة ملتاعة بأعلى صوتها ٠ وعندما رأت دومسارا الدم يسيل على ظهر ثوبها صاحت مذعورة :

ـ لقد خرب بيتنا ، ان رصاصة أصابت العروس ٠

ـ اصيبت ساريمة بالرصاص ٠٠٠

ـ لقد قتلت العروس ٠٠٠

تصايح عدد كبير من الناس ٠

واستل رفاق يلدار خناجرهم وتراكضوا يبحثون عمن أطلق النار ٠

وسحب آخرون اعصانا غليظة من خشب السياج ليقتلوا من أطلق النـــار ٠ وذهب أستيمر وفازجري الى النسوة اللاتي حملن ساريمة نادبات ٠

ولم يدر أحد كيف وصل الخبر الى يلدار الذي اقتحم الدار عاري الرأس ومعه مسدس ماوزر ٠

وأخذ كل من في الدار يتراكضون وهم لا يعرفون عمن يبحثون ٠ بينمـا وقفت الفتيات واجمات مأخوذات ٠

وأرقدت العروس الجريحة في السرير ٠

ـ افتحي عينيك يا ابنتي ـ كانت دومسارا تقول ملتاعة وهي تجلس بجانبها ٠

ـ لا ضير عليك ، سوف تشفين ٠ هيا يا كوشنه ، دعونا نخلع عنهـــا ثوبها ٠

واقتحم يلدار الغرفة ، وسط بكاء النسوة ٠

ـ ساريمة ! هذا أنا ، انظري الي ٠ ـ قال يلدار ، وهو يمسك بغطاء الرأس المصبوغ بالدم ٠ كانت ساريمة شاحبة الوجه ، وعندما سمعت صوت يلدار نظرت اليه وكأنها تقول ـ أرأيت ما فعلوه بي ؟٠

ـ سوف أجده ولو دخل الى باطن الارض ٠ وسأذبحه من خلف رقبته ٠ ـ قال يلدار وكأنه يقسم لساريمة ٠

ـ يا جماعة ، يجب تضميد الجرح٠ لا وقت لغير ذلك ٠ ـ قالت دومسارا٠

واستدار يلدار ووقف في فتحة الباب ينظر الى الجمع المحتشد في الـدار ومعه المسدس الماوزر ٠ كان الشباب الذين يحملون العصي الغليظة والذين لم يجدوا من بحثوا عنه ، يتجادلون الآن بعنف ٠

ـ أرسلوا في طلب تشاتشا ٠

ـ لا يمكن أن يبرأ هذا الجرح عن طريق تشاتشا ٠

ـ خذوها الى الطبيب ٠

ـ نادوا أستيمر ، يجب أن نأخذ ساريمة الى الطبيب ٠ ـ صاحـــت دومسارا هيا بسرعة ٠

ودخل أستيمر ومعه المتخان ٠

ـ الطبيب هو الذي يستطيع أن يعالجها ٠ ـ قال فازجري ـ عربتـــي جاهزة ٠ ارقدوها في العربة وسننقلها ٠ ما أكبر هذه المصيبة ، يا الهي ٠ عليك بالصبر يا يلدار ، لن يصيبكم الا ما كتب الله لكم ٠ يجب أن نجـــد الجاني ٠ سأطلب من ناشخوة أن يجده ولو كان تحت الارض ٠ هيا ، ضعوا بعض الوسائد في العربة ، سنوصل الجريحة الى الطبيب بسرعة ٠

وعندما هموا بنقل ساريمة الى العربة ، وصلت ديسة راكضة ٠

ـ يا ابنتي الصغيرة المسكينة ! ـ رصاصة من أصابتك انت ؟ ماذا فعلت حتى يطلقوا عليك ؟ ـ قالت ديسة وهي تقتحم الغرفة ـ أرسلوا في طلب تشاتشا ٠

ـ لا ٠ من الافضل نقلها الى الطبيب ٠ ـ قال قازجري ـ هيا يا أستيمر ، اسرعوا رجاء ، انها تفقد دمها ٠ يلدار ، احضر العربة الى هنا ٠

وحمل أستيمر العروس بحذر شديد ، وأرقدها فوق الوسائد التي وضعوها داخل العربة ، وهي تئن وتتوجع ٠

أغمي على ديسة ، ووقعت على أرض الغرفة ٠ وكان « لو » يراقب ما يجري من احدى الزوايا دون أن يفهم ماذا حدث بالضبط ٠

وانطلقت عربة المتخان بساريمة ، وركض خلفها مجموعة الفرسان التي رافقت يلدار ٠

وهكذا انتهى عرس ساريمة القصير ٠

## بعد أن جرحت العروس

رغم أن الذين حضروا عرس ساريمة ، نقلوا الخبر اليقين ، فانُ كل من سمعه أخذ يزيد عليه شيئا جديدا ، حتى وصل الى منطقة الاستين وبلاد الداغستان ٠

ـ هل وجدوا الفاعل ؟ ـ هكذا كان يسأل كل من يسمع الخبر ٠

وعندما يقولون أنهم لم يجدوه ، كنت تجد بين الناس من يعرف لماذا لم يجدوه ٠٠ لم يجدوه لان الله تعالى لم يرد ذلك ٠ كان من الواجب ان تتزوج البائع المتجول ٠ وهل يمكن أن يوفقك الله حين تقرر الزواج من بلشفي ! ان يلدار من جنس الابالسة ، لقد خربت بيتها بيديها حين قررت الارتباط به ٠

وفي رواية اخرى ، كان البائع المتجول هو الذي أطلق النار على العروس٠ وقد رووا أنه قد جاء الى العرس ومعه سلة من السكاكر لنثرها على العروس ، ولكنه لم يظهر في الدار ، وانما اختبأ فوق شجرة ، وانتظر زفة العروس طوال النهار ٠٠ وأضاف بعضهم أنه حمل معه الى الشجرة بندقية رشاشة ٠ وقالوا ان بعض الشبان شكوا بأمره وسحبوه من فوق الشجرة ، ولكن الله وحده هو الذي يعلم كيف نجح في اطلاق النار على ساريمة ، ثم اختفى ولم يظهر له أي أثر ٠

واذا قيل ، ماذا حدث للعروس بعد ذلك ٠ كان الجواب جاهزا ، وماذا تريد أن يحدث ، لقد ماتت المسكينة ٠ هذا ما كان مكتوبا على جبينها ٠ على أية حال ، ماذا تريد ان يحصل لمن لا يسمع كلام أمه اكان قرانها معقودا

على رحيم وأرادت أن تتزوج مع ذلك من رجل آخر ٠ وهكذا لن تستطيع المحكمة أن تدين رحيم بشيء ، سيقول كانت زوجتي ، ولما حاولت أن تخونني مع رجل آخر قتلتها ٠

وكان أشد ما يؤلمهم في القصة ، هو أن يلدار دفن روجته في مقبرة الروس مع عزف الموسيقى ٠ كيف استطاع ان يدفن امرأة مسلمة في مقبرة للروس ! ماذا كنتم تنتظرون من قائد مجموعة من ذوي النعال القروية غير ذلك ؟ لقد دفنها تحت دوي الرصاص ، هذه هي الحقيقة اذا كنتم تريدون الحقيقة ٠

« لن تدعها ديسة في مقبرة الروس » ٠ هكذا تقول الفتيات ٠

سوف تذهب وتعيدها ليلا ٠٠ ألن تخاف ؟ ٠ لن تخاف والله ٠ والا هل تقبل أن تتركها لتذهب الى جهنم مع أولئك الكفار ؟ أليس هذا حراما ! المسكينة !! ٠

ونقل عن شاهد عيان ، أن وردة نبتت في المكان الذي سالت فيه دماء ساريمة ٠ أقسم أن الله راض عن تلك الانثى ٠٠ ولما كان عرس ساريمة قد تحول مأساة ، فقد خطر ببال الكثيرين أن يؤلفوا اغنية لها ٠

ولكن يجب أن ترجو أحد مؤلفي الاغاني من أجل ذلك ٠ واذا لم يكن معك ما تعطيه ، فلا فائدة من رجائه ٠ ان كل أملاك ديسة لا تعادل ثمن أغنية ؛ وحتى اذا أردت أن تبيعها هي فلن يشتريها أحد منك ٠ اذا كان يلدار يحبها حقا ، فليدفع ثمن أغنية من أجلها ٠ ولكن أنى لبلشفي ان يفعل ذلك ! ٠

واختلطت الروايات التي نقلت عما جرى لساريمة بشكل غدا من المستحيل معه التمييز بين الصواب والخطأ ٠

ولم تستطع تشاتشا أن تمسك نفسها عن الادلاء برأيها ٠ فقد كانت غاضبة لعدم استدعائها لمعالجة الجريحة ٠ فهي أمهر حكيمة في القرية ، ومنذ أن وجدت هذه القرية لم يذهب أحد الى طبيب متجاوزا اياها فلماذا نقلوا ساريمة الى نالتشك ؟ ان المرضى يأتونها من القرى المجاورة فهل سارىمة أفضل من الآخرين ؟ لقد ألقوا بها في العربة ، ونقلوها الى الفتاة الروسية الصغيرة التى كانت في دار أستيمر ٠

فلينقلوها الى حيث يشاؤون ولكن أحدا لن يستطيع أن يشفي ساريمة ٠ ماذا يفهمون في الجروح ؟ الله عدوي اذا لم يتركوها تموت وأعينهم تحدق فيها ٠ واذا لم يتركوها تموت ، فسوف يقطعون يدها أو ساقها الجريحة ، ثم يلقون بها مشوهة في أحضان أمها ٠ أن الطبيب لا يعالج ٠ اذا التوت رجلك فانه يقطعها فورا وينتهي الامر ٠

« اذا مات شركسي ، فهل يقلق النغوي ! » (١) هكذا هو الامر ٠ هل يهتم الروسي اذا مات مسلم ؟ ٠٠ هكذا كانت تشاتشا تبرر متظاهرة

---

(١) مثل شركسي

بالقلق على مصير ساريمة ٠ وعندما تسمع ديسة مثل هذا الحديث ، تبدأ بالبكاء بكاء مرا :

ـ لقد خرب بيتي وانتهى الامر ٠ سيعيدون ابنتي وقد قطعت يدها أو ساقها ٠ ماذا جنيت يا الهي ! لماذا تعذبني هذا العذاب ! كنت سأعتبر أنني حصلت على سعادة الدنيا لو أن ساريمة تزوجت من رحيم ٠ كان سيطعمها السمن والعسل ، ويلبسها الحرير ٠ خسفت بك الارض يا يلدار ، لقد خربت بيتي ٠

ـ أي ٠ أي ٠٠ أي ٠٠ ـ تتظاهر تشاتشا بالبكاء ٠

وعندما تسمعها ديسة متوجعة تفكر : لماذا لا أذهب الى بالتشك الآن ركضا على قدمي لاستعيد منهم ابنتي ! ٠ ولكن أستيمر لم يعد منذ أن غادر الى بالتشك مع العروس لتعرف منه أين أخذوها ، وهي لا تعرف من المدينة غير ساحة السوق ، واذا ذهبت الى بلاتسة لترجوه أن يوصلها فلن يقبل لانه منذ أن سرق حصاناه أقسم أن لا يدخل المدينة ٠ آه ، ما العمل ٠٠ ! فكرت أيضا أن تقابل متخان قازجري وتستعطفه ولكنها لم تعرف أين تجده ٠

ووصلت الاخبار المتناقضة حول جراح ساريمة الى قازجري ، فلم يشعر بالاستياء لقلة ادراك الناس وجهلهم وتحملهم لكل ما يصيبهم على أنه من القضاء والقدر ٠٠ انهم اذا أخذوا يربطون بين الاسباب والنتائج فستتزعزع زعامته ، وسيفقد هذه الزعامة في النهاية ٠

وعندما قابل أخاه ناشخوة في نفس اليوم الذي وقع فيه الحادث أخبره بكل مارآه ٠وقد تأثر أكثر من أي شيء آخر ،لان الحادث وقع مجرد وصوله الى الدار ، ولم يكن المتخان يعرف الفاعل ، ولكنه كان يشك أنه أحد أعداء السلطة السوفييتية ٠ وعندما قال له ناشخوة : لا تقلق فلا بد أن أجد الفاعل اعترض قازجري : « لا تزعج نفسك من أجل ذلك كثيرا ، من الذي يحسب الخير للبلاشفة في هذه الايام على أية حال ! » ٠

وفهم ناشخوة ما يرمي اليه أخوه ٠

صحيح أن قازجري وناشخوة أخوان ، ولكنهما كانا مختلفين تماما ، ومع ذلك فان ناشخوة يحترم أخاه ، وينظر اليه والى نظام المحاكم الشرعية التي أقامها نظرة اعجاب وتقدير ، ويدافع عنه عند الحاجة ٠ وكان المنصب الذي يشغله ناشخوة هاما جدا ، فالكل يخشونه ويهابونه لانه أحد أعمدة السلطة والدولة الجديدة فهو المسؤول عن السجون والشرطة والامن ، وكثيرا ما يلجأ اليه مريمقان ينال نفسه ، فقد حاربا معا مدة طويلة ، وكانا رفيقين في نواحي جورجيا وهما يعدان للثورة : وينال هو الذي أدخله الى الحزب بنفسه أيضا ، ومع أن ناشخوة لم يدرك أبعاد ما يهدف اليه قازجري ، فقد كان ينفذ له كل رغباته ٠

بعد قيام السلطة السوفييتية عمل المريمقان على تسليم شؤون الداخلية

وقيادة التشيكا«(١)»لناشخوة لانه كان الوحيد في قباردیا في تلك الايام الذي انهى دراسته الجامعية في الحقوق ٠٠ عندما قامت الحرب ، كان قد تخرج للتو من جامعة أوديسة ، فانخرط في صفوف البلاشفة وقاتل معهم ٠ وما لبث أن أصيب بالسل ، فأرسلوه الى جيورجيا ليقيم فيها وكلفوه بمهمة تزويد الانصار بالسلاح وبقي هنالك حتى انتهت الحرب ٠ وبعد أن عاد واستلم منصبا كبيرا ، صار من الواجب عليه بحكم منصبه أن يخرج في جولات طويلة لتصفية الخارجين على القانون ، فأخذ يجوب الغابات في الليل والنهار دون حساب لصحته المعتلة ،حتى تحرك مرضه من جديد ولم يعد قادرا على القيام بأعباء مهمته كما ينبغي ٠ وتقدم بعدة طلبات للاستقالة ، ولكن ينال لم يتخذ أي قرار بشأنه ٠

يقيم ناشخوة الآن في بيت آل دوخشوقة الذي صادرته السلطة السوفييتية ٠ ويقضي معظم أيامه راقدا على سريره يبصق في وعاء يضعه تحت السرير ٠ وقد غدا بصاقة في الايام الاخيرة مخلوطا بالدم فكان يتحاشى الذهاب الى مكتبه ما استطاع الى ذلك سبيلا ٠ وكان الاثاث الموجود في بيت آل دوخشوقة ما يزال على حاله ، حتى اللوحات بقيت في مكانها على الجدران دون أن يلمسها أحد ٠

وعندما عزم يلدار على الزواج ، أعطوه غرفتين من نفس البيت لهما بوابة مستقلة ٠ وكان هذا هو البيت الذي عزم أن يحضر اليه العروس بعد أن ينتهي العرس ، لكن ذلك لم يتم ٠

ولم يقبل قازجري فكرة استقالة أخيه بسهولة ، ولكنه لم يجد سبيلا الى ابقائه في منصبه ، فالمرض قد هده تماما ، ولم تعد هنالك بارقة أمل في عودته الى حالته الطبيعية ، وخروجه مرة أخرى لمطاردة الفارين في هذا الجو الممطر سيقضي على ما تبقى له من قوة ٠ وقد فكر الاخوان معا بذلك مدة طويلة ٠

قبل عرس يلدار بقليل تباحث ينال وقازجري عن البديل ، كان يلدار بشجاعته وصدقه ، واصراره على تنفيذ كل ما يطلب منه نادر المثيل ،ولكنه بالكاد يستطيع القراءة ، وقد علم نفسه بنفسه ٠ بينما ناشخوة حقوقي ويعرف القوانين والانظمة جيدا ٠ وتذكر ينال القميص الذي طرزته ساريمة بالابجدية عندما كان يلدار يتعلم القراءة والكتابة وضحك كثيرا ، وعزم على أن يطلب هذا القميص ليوضع في المتحف الذي قرر افتتاحه ٠ وفكر الرجلان طويلا بموضوع خلافة ناشخوة ، فلم يجدا أفضل من يلدار لهذا المنصب ٠

وأخبر قازجري أخاه بكل ما جرى بينه وبين ينال ٠٠ لقد استبقنا الاحداث وتكلمنا عن أشياء في غير أوانها ٠

ولا بد أن نعود الى ساريمة التي تركناها راقدة في العربة في طريقها

---

(١) جهاز الامن

الى نالتشك ٠

بينما كان متخان قازجري واقفا على درج العربة المنطلقة الى نالتشك وهي تقل ساريمة ، لم تكن أفكاره تدور حول جراحها وانما حول أخيه المريض ٠

ووقف أستيمر على ركبتيه في أرضية العربة ممسكا بساريمة ، أما بلدار فكان يحث الخيل للانطلاق بأقصى سرعتها ٠ بينما انطلق عدد من الفرسان يجرون أمام العربة يخلون الطريق لها ٠

وكان المارة الذين يصادفونها يتوقفون وينظرون اليها دون أن يستطيعوا معرفة هؤلاء الذين يجرون بمثل هذه السرعة ٠ اذا كانوا قد خطفوا فتاة ، فلماذا يأخذونها الى نالتشك ٠ فقد منعت السلطة السوفييتية الزواج عن طريق الخطف ، وستصادفهم الشرطة في المدينة وتوقفهم ٠ أما اذا كانوا قد أنقوا القبض على أحد الهاربين من وجه العدالة ،فلماذا لا يحمل الواقفان على جانبي العربة سلاحا ؟ ٠ أهم ينقلون الاموال الى البنك اذن ؟ ٠ لا فالاموال توضع في أكياس عادة ٠ بينما العربة مليئة بالوسائد ، كل شيء ممكن في هذه الايام ٠ ولا يستبعد أن يكون من ينطلق بهذه السرعة هو المدعي العام نفسه ، فالمدعي العام هو أهم رجل في قبارديا كما يقولون ٠

واقتحمت العربة نالتشك دون أن تخفف سرعتها ٠ وأخذ الناس ينظرون اليها دون أن يعرفوا ماذا حدث ٠ وكان معارف قازجري الذين رأوه مندهشين لوضعه هذا ٠

وأوصلوا ساريمة الى المستشفى في اللحظة التي هم فيها الطبيب الوحيد بالخروج في جولة الى القرى المجاورة ٠ وكانت ناتاشا هي التي تتولى ادارة المستشفى في غيابه ، وتقابل الجميع أمام الباب ٠

لم يخطر ببال ناتاشا اطلاقا أن تنقل اليها ساريمة وهي جريحة ٠

فالفتاتان أصبحتا صديقتين عندما أقامت ناتاشا في بيت دومسارا ، بالرغم من أن ساريمة لم تكن تعرف اللغة الروسية ٠

عندما رأتهما تشاتشا لاول مرة معا غضبت وأخذت تبربر : أنظروا اليها كيف تكلم البنت الكافرة وتضحك معها دون خوف أو خجل ، لكن ساريمة أحبت رفيقتها وكانت تتمنى أن تعرف لغتها لتكلمها ٠

وعندما علم الطبيب أن ناتاشا تفهم في أمور الطب بحكم دراستها الاولية ، طلب أن تعمل معه ٠ وكما قالوا له : ما عليك الا أن تذهب وتحضرها ان كنت تريدها ، ذهب الى القرية وأحضرها فعلا ٠

كان المستشفى الذي لا يضم سوى اثني عشر سريرا يقع بجوار المدرسة الثانوية الوحيدة في المدينة ، وكانت هذه المدرسة قد أصبحت الآن مدرسة شعبية بادارة ستيبان ايليتش ٠

وعندما سمع ستيبان ايليتش بما حدث ، وصل هو الآخر الى المستشفى بسرعة ، وقد برزت لحيته الصغيرة ووضع ربطة عنق على غير عادته ، فغدا

يشبه المعلمين تماما • وأخذ ينظر الى الجريحة وقد تأثر تأثرا عميقا •
ووقف يلدار وصحبه أمام باب الغرفة التي لم يسمح الطبيب لاحد بالدخول اليها غير ناتاشا بعد أن أخرج الجميع وأوصد باب الغرفة •
كانت نواقص المستشفى كثيرة ، فهم لا يملكون حتى طاولة عمليات ، سوى الطاولة العتيقة المبقعة بالحبر والتي تنازل لهم عنهاستيبان ايليتش، فارقدوا ساريمة عليها ، وكانوا بحاجة الى أدوية ، والى أدوات طبية • والطبيب الوحيد الذي يعمل دون أن يجد وقتا للراحة ، لم يجد من يمكن أن يساعده سوى ناتاشا •

واذا صادف أن خرج الطبيب لمعالجة جريح في مشاجرة من المشاجرات التي غالبا ما تحصل في القرى المجاورة ، لم يكن في المستشفى سوى ناتاشا التي أصبحت تفهم كثيرا في أمور الجراحة والطب خاصة بعد ممارستها التمريض في الحرب ، وكان الطبيب مسرورا بتقدمها المستمر •
واجتمع كل العاملين في المستشفى وهم يرتدون ملابس بيضاء حول الطبيب بانتظار اشارة منه ليلبوا طلباته •
كانت ساريمة مصابة بجرحين ، أحدهما جرح عميق ، فقد دخلت رصاصة تحت لوح الكتف تماما وبقيت • وأصابت الرصاصة الاخرى قمة الكتف وجرحته دون أن تصيب العظم •
وكان الطبيب يحاول الآن اخراج الرصاصة بالرغم مما تعانيه المريضة من آلام •
ووقف يلدار وصحبه صامتين يراقبون ما يجري داخل الغرفة المغلقة •• ولم يكن يلدار قد رأى مستشفى من قبل • وعندما يتهامس الطبيب مع الاخوات اللاتي كن يساعدنه ، يغمره قلق شديد ظانا أنه قد حدث شيء يكتمونه عنه ، وينصت بأذنين مشرعتين وهو يتمشى أمام الغرفة والعرق يتصبب منه •

وكان من المستحيل معرفة شيء من الطبيب حول حالة المريضة ورغم الحاح ستيبان ايليتش في سؤاله عن مدى خطورة الجرح ، وما اذا كانت ستشفى أم لا • لم يزد على أن تمتم قائلا : « م م •• لا يمكن معرفة شيء الآن » •
ولم ينصرف قازجري أيضا •
وخيم الظلام • وأخذت الراهبات تتراكضن في أرجاء الغرفة التي ترقد فيها المريضة • فهذه واحدة تجلب الماء ، وأخرى تشعل الضوء •

— اذا كنتم بحاجة الى مصباح ، اذهبوا الى مدرستنا وأحضروا واحدا من هناك • — قال ستيبان يخاطب احداهن •
— حسنا سأسأل الطبيب • — قالت الفتاة ودخلت الغرفة • وخرجت بعد لحظة •

ـ الطبيب يقول ، اذا كان عندكم مصباح كبير هاتوه لنا ·

وأراد ستيبان ايليتش أن يذهب ليحضر المصباح بنفسه ، ولكن قازجري لم يقبل :

ـ انتظر قليلا · ان ناشخوة عنده مصباح جيد جدا ، وسأوصله اليكم حالا ·

ـ قال وهو ينطلق ·

يا الهي · يا له من رجل ذهبي · هل أستطيع ان أرد اليه الجميل الذي صنعه لي اليوم ؟ فكر يلدار ، ثم سأله :

ـ هل آتي معك ؟ ·

ـ لا ، سأذهب بالعربة ، وسأعود حالا ·

حسنا ان ما فعلته لي اليوم ، لا يفعله حتى الاخ لاخيه ، أرجو أن أستطيع رد هذا المعروف لك في يوم من الايام ·

ـ هذه هي عاداتنا منذ القدم يا أخي ، يجب على المرء مساعدة أخيه سأرسل المصباح حتما ولو لم أستطع أن أعود ، لا تقلق ـ قال قازجري وهو يلتفت اليه من العربة التي استعدت للانطلاق به ·

ـ من الافضل أن تخبر ناشخوة بكل شيء ·

ـ هذا ما أنوي أن أفعله بالضبط ·

ـ لو التقيت به كنت سأخبره باسم من أشك فيه ·

ـ من ؟

ـ سأخبره أنا فيما بعد ·

كان يلدار راضيا تماما عن تصرفات قازجري اليوم · وفكر ستيبان ايليتش : ما الذي يستحقه من جلب هذه المصيبة ليلدار اليوم ؟ لا شك أن الجاني كان ينوي قتل العروس ·

ـ ما زلنا نحتاج الى الكثير حتى نعيد المياه الى مجاريها · ـ قال ستيبان وكأنه يخاطب نفسه على مسمع من الجميع ·

ـ سأجده حتما ـ قال يلدار وقد فهم ما يقصده ستيبان ايليتش ·

ـ وأين ستجده ؟

ـ أنا أعرف أين هو ·

ـ وكيف تعرف أين هو ؟ يبدو أنك تعرف الفاعل ·

ـ نعم أنا أعرفه ·

ـ من ؟

ـ انتظر قليلا · لن يهنأ لي عيش اذا لم أذبحه من خلف رقبته ·

ـ أتريد أن تأخذ بثأرك ؟ ·

ـ « الغريب يأخذ بثأر البريء » فلماذا لا آخذ أنا بثأر ساريمة ؟ ـ قال يلدار وقد اشتعل غضبا ٠

وخرجت ناتاشا من الغرفة في هذه اللحظة متعبة واقتربت منهم ٠ كانت خصلة كبيرة من شعرها قد أفلتت من تحت منديلها الابيض ٠ قالت الفتاة وهي تفتح كفها وتريهم الرصاصة :

ستيبان ايليتش ، يلدار ! انظروا الى هذا ٠

وعندما رأى يلدار الرصاصة البيضاء التي أخرجت من جرح ساريمة قال:

ـ هاتيها ٠ ـ وأخذ الرصاصة ٠

ـ مسكينة ساريمة ، كم آلمتها هذه الرصاصة ٠

ـ هل هي رصاصة متفجرة ؟ ـ سأل ستيبان ايليتش ٠

ـ لا ٠

وغمغم يلدار بشيء يخاطب نفسه ٠ وفهم ستيبان ايليتش وناتاشا ما يريد قوله ولو أنهما لم يسمعاه جيدا ٠ كان يلدار يقسم بأنه لن يتركه حيا ذاك الذي أراد قتل ساريمة بهذه الرصاصة ٠

كم يحبها ، قالت ناتاشا لنفسها ، ما كان أعظم سعادتهما لو كانت معافاة الآن ، هل سأصادف أنا أيضا من يحبني بهذا الشكل يا ترى ؟

ـ اذا شفيت الآن ، فسأجعلك تمشين دون أن يصيب مكروه شعرة واحدة من شعرك ، أو أظفر من أظافرك ٠ ـ قال يلدار وهو ما يزال ينظر الى الرصاصة ٠ وكانت أنات ساريمة التي تسمع من الغرفة تخرق أحشاءه ٠

ـ لا تقلق يا يلدار ، ستشفى حتما ٠ لقد أوصلتموها الى الطبيب بسرعة وهذا حسن جدا ، ستشفى ٠ ـ قال ستيبان ايليتش ٠

ـ لو تأخرتم نصف ساعة ما كنتم وجدتم أحدا هنا ، كان الدكتور سيخرج في جولة ، وكنت أنوي أيضا أن أخرج بعده بحثا عن أودية ٠ ـ قالت ناتاشا ٠

وأسند يلدار جبينه الى الجدار ليخفي دموعه عن الجميع ٠

ـ هل أنتم بحاجة الى مصباح ؟ ـ قال أحدهم وهو يتقدم منهم ـ لقد طلب الي قازجري وناشخوة أن أحضر لكم هذا ٠

وقدم لهم الشاب مصباحا جميلا بأباجورة وأضاف :

ـ ناشخوة يتبرع لكم به ٠

وعندما رأى يلدار الشاب ذي القلبق الاشعث ، تذكر جراسلان الذي كان قد قابله ليلا ، ولكنه سمع أنين ساريمة عاليا ، فنسي كل شيء ،وهجم على باب الغرفة ففتحه دون أن يستطيع ستيبان أيليتش ايقافه ٠ ووقف في وجه الطبيب الروسي غاضبا وقد تلطخت يداه قطعة القطن التي يحملها بالدم ٠

ـ ستيبان ايليتش ، عودوا الى بيوتكم • وخذ هذا معك أيضا • انكم تضرون ولا تنفعون في شيء الآن • اذهبوا ، رجاء عودوا غدا • ستشفى المريضة ، لا داعي للقلق • عندما أقول أنها ستشفى ، معنى ذلك أنها ستشفى • هيا اذهبوا •

ـ أرسل قازجري مصباحا لك • ـ قال يلدار وقد انتبه الى غضب الطبيب •

ـ شكرا ، لم نعد بحاجة اليه الآن ، ولكن اتركوه هنا ، فقد نستفيد منه في المستقبل •

وعندما نظر يلدار الى الداخل ، رأى وجه ساريمة الشاحب شحوبا شديدا وسط شعرها الاسود الكثيف • كانت عيناها مغلقتين وملابسها ملوثة بالدم • وأمعن النظر ليتأكد مما اذا كانت تتنفس أم لا • وكانت المرأتان الواقفتان بجانبها تغسلان الادوات ، وتجمعان قطع القطن الملوثة بالدم • وأغلق الطبيب الباب •

ووقف يلدار صامتا •

ـ عودوا غدا ، واذا حدث شيء سأخبركم • ـ كان هذا آخر ما قاله الطبيب قبل أن ينصرف الى عمله •

ـ ليتني أراها مرة أخرى • ما أشد شحوبها ! قال يلدار شارد الذهن •

ـ لقد فقدت كثيرا من الدم • لا تقلق ، ستشفى • ـ قال ستيبان ايليتش يطمئنه وهو يفكر بالطريقة التي سيقنعه فيها بالذهاب الى البيت ولم يغب عن نظر الرجل المجرب العلاقة الحديدة التي بدأت تنشأ بين يلدار وقازجري ، ولكن لم يكن هذا أوان الكلام عن ذلك •

ـ هيا نذهب يا يلدار ، من الافضل أن لا نغضب الطبيب • ـ أضاف وهو يمسك بذراعه •

وانطلق يلدار معه دون مقاومة • لم يكن قد بقي من الفرسان المرافقين له سوى فارسين تركهما أستيمر وأخذ الباقين الى الثكنة • وسار الرجال الاربعة في الشارع المظلم متجهين الى الثكنة التي تقع على مرتفع غير بعيد وبعد أن اجتازوا الكنيسة الصغيرة ، ساروا مسافة لا بأس بها وهم يخوضون في الوحل وبرك المياه القذرة صامتين •

ـ هيا يا يلدار • رافقتكم السلامة • ـ قال ستيبان ايليتش وهو يودعهم ـ سنلتقي غدا •

وتابع يلدار السير مع رفيقيه • وعندما وصلوا الى مبنى سوفييت قارديا رأى ضوءا في نافذة من نوافذ الطابق الثاني • كان مريمقان ينال يقيم في غرفتين من غرف ذلك الطابق •

وفي الوقت الذي مر فيه يلدار من جانب المبنى ، كان ينال وقازجري معا في الغرفة المضاءة يبحثان في أمره • وقد اقتنع قازجري أخيرا بأنه أفضل من يمكن أن يشغل منصب ناشخوة • أما ينال فكان ما يزال مترددا •

وبرز القمر بصعوبة من وراء الغيوم ، فانتشر ضوؤه الفضي الشاحب •

# الفصل الثالث

## « لــو » وتيمبوت

كان عرس ساريمة في أواخر الصيف ، أما جراسلان فقد ألقي عليه القبض في أواسط الخريف بعد أن تناثرت سنابل القمح المسفوحة في ذلك الموسم السيء الذي لم يجن فيه الناس كفايتهم من الغلال . وكانت البراري قد أسودت تماما لانها لم تمطر طوال فصل الصيف كما جرت العادة .

« ان الله غاضب علينا » قال الناس مطأطئي الرؤوس . ولشدة قلقهم على كيفية تدبير أمور معيشتهم خلال فصل الشتاء القاسي الذي أصبح على الابواب ، لم يهتموا كثيرا بخبر القاء القبض على جراسلان .

أوصلوا زعيم الخارجين على القانون الى نالتشك ، وأرقدوه في المستشفى . ولم تكن الاخوات الراهبات وحدهن يتناوبن العناية به والسهر عليه . انما كانت عليه حراسة دائمة في الليل والنهار ، بسبب الزوار الغامضين القادمين من منطقة الشيشان ومن الغابات ، والذين أخذوا يحومون حول المستشفى دون أن يعرف أحد ماذا يريدون بالضبط .

وكان ينال وقازجري بانتظار تحسن حالة جراسلان لاستجوابه . وارتفعت مكانة يلدار كما كان متوقعا بعد أن استلم منصب ناشخوة ، ولكنهم حددوا له فترة زمنية لتجربته خلالها ، والحكم على ما اذا كان قادرا حقا على القيام بأعباء هذا المنصب . ولم ينزعج يلدار لهذا الشرط . وكان من جملة مهامه ، الاشراف على حراسة الجريح الراقد في المستشفى . أما هو فلم يقبل أن يرقد في السرير بسبب جراحه ، بل اكتفى بالمجيء كل يوم ليغير ضماده ، ثم يزور ساريمة ، ويلقي بعدها نظرة على غرفة جراسلان . ولما رأى العدد الكبير من الناس الذين أخذوا يترددون على المستشفى ، زاد

من عدد الحراس على جراسلان ٠
وكان أهالي قرية شعلجفوقة قد خيم عليهم الحزن والاسى بسبب القحط وانشغل كل واحد منهم بأموره الخاصة ٠ ووجد أستيمر أيضا ما يشغله ٠ أما تيمبوت و « لو » فقد كانا يجدان ما يعملانه بدورهما ٠
ولم يعلق أحد بشيء على توصيل بلاتسة للسيدة الى محطة القطار، رغم خشيته من ذلك ٠ وكلفوا الرجل العجوز لبعض الوقت برئاسة سوفييت القرية ٠ وعمل جهده خلال هذه الفترة القصيرة أن لا يغضب أحدا ، وأن لا يدب الخلاف بين أهالي القرية رغم صعوبة ذلك ٠ وأخيرا قال العجوز . ان هذا المنصب لا يلائمني وقدم استقالته ٠ وشك الكثيرون بأن السبب في فشل رئاسة بلاتسة ، ليس الا دولت ٠ فهذا الرجل الافكح من هواة الصيد في الماء العكر ٠
وكان هم دولت في تلك الايام هو أن يحول الفقراء الى اغنياء ٠ لذلك جمع كل ما بقي من أثاث في بيت آل شردان ، وفي بيوت النبلاء والاغنياء الهاربين في مستودع الضمان الاجتماعي ٠ وأخذ يقدم لكل من يرضى عنه بعضا من هذا الاثاث ٠ وأرسل شيئا منه الى دومسارا ، ربما خوفا ، او لشيء آخر ٠
وهكذا دخلت ذات يوم عربة مليئة بالاثاث يقودها بلاتسة ٠ وأثار ذلك دهشة كل من رآه : كومدينة وطاولة طعام كبيرة مصنوعتان من خشب الجوز ٠ وسرير حديدي كبير يكاد لا يتسع له مدخل البيت ، في أعلى قوائمه الاربعة كرات بيضاء من النيكل ٠ وكانت دومسارا قد ملكت هذا السرير في يوم من الايام ، وباعته في أيام الشدة بغياب استيمر ٠ والآن ، لا يعلم الا الله من أين حصل عليه دولت وأعاده اليها ٠ وخيل لكل من رأى هذا الاثاث بأن أستيمر قد أصبح من النبلاء ٠
ولم يعجب أحد بالسرير الحديدي مثل اعجاب « لو » به ٠ وبما أنهم لم يجدوا مكانا يضعونه فيه داخل البيت ، فقد وضعوه أمام المدخل ٠ فأصبح « لو » يقفز على نوابضه مستمتعا غاية الاستمتاع ، متخيلا نفسه انه يجلس على صهوة حصان يجري به متعلقا بعرفه ٠ وكان يحضر معه رفاقه من الاولاد ليلعبوا معه عليه ، حتى يصيح عليهم أحد من داخل البيت يتراكضون هاربين ٠ وكان أكبر المعارضين على لعبته هذه هو أخوه الاكبر ٠
وأخذت علائم الرجولة المبكرة تبدو الآن على تيمبوت رغم أن شاربه لم ينبت بعد ، وقد أعتاد أن يلون مكان شاربه بالهباب الاسود خلال عمله في محل الحدادة ، وذلك لكي يبدو أقرب الى شكل حداد حقيقي ٠ وكان « لو » يدبر أموره جيدا ، فقد خلع احدى الكرات البيضاء من زوايا السرير ، وأخذ يلعب بها متباهيا أمام انداده ٠ وعندما تراه تينة وهو يلعب بتلك الكرة ، كان يخيل اليه أنه يؤدي عملا بطوليا ٠ وقد اعتادت الفتاة الصغيرة أن تنظر اليه نظرة خاصة معتبرة أنه لا يوجد له مثيل بين رفاقه ٠ ولم يكن

أي واحد منهم يملك في الحقيقة كرة بيضاء كتلك التي يملكها ٠

عندما لم يتسع البيت للاثاث الجديد ، وضعوا الكومدينة فوق الطاولة، حتى يبقى مكان يتحركون فيه ٠

ـ أنظري أيتها الاخت ٠ أليس هذا جميلا ؟ ـ قال بلاتسة وهو ينظر الى الاثاث ٠

ومع ذلك لم يكن هنالك أي تناسب بين الاثاث الجديد والبيت نفسه وقالت دومسارا مظهرة عدم رضاها :

ـ لقد سلبوني بقرة ، فأعادت الي السلطة السوفييتية بقرة أخرى ٠ أما هذا الاثاث فنحن لا نستحقه والله ٠ ان أستيمر لن يقبل ٠ ليتنا نجد مكانا ننحيه فيه جانبا ٠ فقد غدا بيتنا يشبه محلا تجاريا ٠

ـ وماذا في ذلك ؟ فليشبه محلا تجاريا ٠ والا فكيف نحول الفقراء الى أغنياء ؟ هذه هي أوامر دولت ٠ ـ قال بلاتسة معترضا ٠

ـ حسنا ، ان « لو » معجب بالسرير ، وقد حوله الى ملعب ٠ ولكن أحدا لا يقبل أن ينام عليه ٠

ـ ولماذا ؟

ـ لتنم عليه أمي ٠ ـ قال « لو » معترضا بشدة ـ ان سيدة كانت تنام عليه ، وأمي يؤلمها ظهرها ، وهي بحاجة الى مكان طري تنام عليه ٠

لم يكن « لو » معجبا بالسيدة التي أوصلوها الى المحطة ٠ فقد اعتبر تلك المرأة البدينة الحزينة ، امرأة شريرة ٠ وكان يشعر بالسخط لمجرد بقاء تينة في بيتها ٠

وبعد أن دار جدال طويل وأخذ ورد حول النوم على السرير « الطري » مظهرين امتعاضهم منه ، رضي الاخوان أخيرا بالنوم عليه ٠ وبعد بضعة أيام ، لم يعودا يستيقظان في الصباح الباكر الا بعد مناداتهما عدة مرات ٠

وما أن يطلع النهار حتى ينصرف الاخوان الى اشغالهما ٠ فيحمل «لو» كرته الحديدية ويتجه صوب بيت جراسلان وبوده أن يرى تينة التي ما تزال تقيم فيه ليتباهى أمامها قليلا وليقص عليها بعض الحكايات التي سمعها من أمه ٠ أما تيمبوت ، فبعد أن يتناول افطاره المؤلف من « الباستة » واللحم المقدد المشوي كالرجال ، فكان يذهب الى محل الحدادة بعد أن يمر عليه رفيقه في العمل أسلان ٠٠ وكانت الروح قد عادت الى محل المرحوم بوت ٠ فالكير ينفخ النار دون توقف ، وتسمع طرقات السندان دون انقطاع بفضل الحدادين الشابين ٠ وكان بلاتسة يشجعهما دائما قائلا : ان في المهنة سعادة الانسان ٠

وتردد تيمبوت بين الحدادة وصنع حجارة المطاحن الصغيرة التي اعتاد أن ينحتها بنفسه ٠ ولم تعلم دومسارا وأستيمر بشيء عن نشاطاته ٠ ففي

رأيهما أن ذهابه الى محل الحدادة يشغل وقت فراغه ويجنبه الكثير من طيش الشباب • ولم يسألا عن تفاصيل عمله بعد ذلك • وأخذت النسوة في القرية تشترين منه المطاحن اليدوية الصغيرة • ولكن بلاتسة اعترض :

ـ هذا العمل الذي تقوم به لا يجدي • فقد كثرت المطاحن الآلية في الآونة الاخيرة • والمطحنة الحجرية لن توصلك الى شيء بعد الآن • عليك أن تهتم بالحديد ، فالعالم كله يتحول الان الى الحديد • وهل يوجد ما هو أفضل منه ؟ ان الطاحونة الحجرية تنتمي الى الماضي ، فلا تضيع جهدك سدى • احمل المطرقة واجعل السندان يغني • اصنع حدوات للخيل ، ومناجل ومجارف • هذه هي الاشياء التي يحتاج اليها الناس الآن •

ولم يجادل تيمبوت العجوز ، ولكنه في نفس الوقت لم يتوقف عن نحت الحجارة •• ولما سمع أستيمر بهذه الاشياء تعجب كثيرا • وكان الناس ، وخاصة أولئك الذين لا يملكون سوى كمية قليلة من الذرة الصفراء ليطحنوها ، يبتعدون ما أمكن عن الذهاب الى المطحنة الالية ، تهربا من دفع الاجرة ، او خوفا من أن تضيع الكمية القليلة التي يملكونها بين حجارة المطحنة الكبيرة • لذلك اقبلت النسوة على شراء المطاحن الحجرية الصغيرة التي كان ينحتها تيمبوت •

وأعاد بلاتسة رئاسة سوفييت القرية الى أستيمر واستراح • أما أستيمر فلم يهدأ له بال بسبب شبح المجاعة الذي أخذ يزحف على القرية• لذلك كان كثيرا ما يذهب الى المدينة لمقابلة المسؤولين ، ويحضر معه بعض الحبوب والاقمشة ليوزعها على من يستحقونها • ومهما بلغت حالة أهل القرية من السوء ، ما كان بامكانهم الاستغناء عن عدة الخيل والادوات الزراعية وغيرها من الاوائل الحديدية ، لذلك آثر ابن أستيمر مهنة الحدادة •

وبعد أن قدم أستيمر النصح للشاب ، تفرغ نهائيا لمحل الحدادة • وصار الشابان يعملان معا منذ طلوع النهار حتى حلول الظلام بالرغم من أنهما لا ينتجان شيئا يذكر •

وشعر أهل القرية بالرضا لعودة الحياة الى محل المرحوم بوت • وارتاح الكثيرون الى صوت ضربات السندان ورائحة الدخان المنبعث من المحل •

ـ يخيل الي أن « رأسي النحاسي » قد عاد الى الحياة ، عندما اسمع صوت سندان ـ هكذا قالت دانيزات أرملة بوت •

وعندما يعود الشابان مساء ، كانا يأكلان ما يجدانه ويذهبان الى النوم على الفور • وكثيرا ما ينامان دون عشاء • ومع ذلك لم يبد الحزن أو اليأس على وجه تيمبوت يوما • على العكس من ذلك ، فقد كان يتحدث عن عمله باعتزاز كبير •

ـ أرني يدك يا تيمبوت • ـ قال له بلاتسة ذات يوم • فمد تيمبوت يده •

ـ انظري الى يديه يا دومسارا • هل من الممكن الا يصبح حدادا من يملك مثل هاتين اليدين • ؟ أرأيت يا أستيمر ؟ هنالك فارق كبير بين يدي « لو » ويدي تيمبوت • غير أن « لو » يملك جبينا عريضا • سيصير رجل علم باذن الله • أما تيمبوت فلا يلائمه شيء مثل العمل اليدوي • وهل يوجد ما هو أفضل من مهنة يتقنها الانسان ! • المال يتبخر بين يديك مثل الندى• اما المهنة فانها أمان من الفقر •

وتمنى « لو » أن يصبح مثل أخيه •

وأحضر بلاتسة ذات يوم سندانا قديما ، وسيفا أكله الصدأ ولا يكاد يخرج من غمده ، لا يدري أحد من أين اتى بهما ، ولكنه ادعى انهما من مخلفات النارتيين • وقال للشابين :

ـ سأعمد محلكما لتصبحا حدادين ذكيين مثل « لبش » (١) نفسه •
ـ وحدد موعدا لذلك •

وفي الموعد الذي حدده العجوز ، توافد عدد من الرجال لحضور حفل التدشين • وجاءت دانيزات أرملة بوت لتستعيد ذكرى المرحوم زوجها • وفرح « لو » عندما رأى تينة قادمة مع تشاتشا • ولكنه ندم على عدم احضاره كرته الحديدية البيضاء خوفا عليها من الضياع في زحام هذا اليوم• ولحسن حظه ارتدى طربوشه الاحمر ، وليس ذلك سيئا على أية حال ليظهر به أمامها •

وزين المحل قليلا بهذه المناسبة • فالكرات الحديدية الثلاث التي تركها « لو » على زوايا السرير تلمع في اعلى الباب • وعلقت حدوة حديدية ايضا على الباب ثم أخذ بلاتسة وتيمبوت ينقشان عليه شعار كل اسرة من أسر القرية بواسطة قطع حديدية محماة ، كدليل على أن الحدادين قد أصبحا ملتزمين بأعمال كل أسرة نقش شعارها على باب المحل • وأنهى بلاتسة هذا العمل وهو يبتسم من تحت شاربيه • ثم أخرج من النار عدة حدوات وقد أحمرت تماما ، ووضعها في الماء ليسقيها ، فتصاعد بخار كثيف وفار الماء • ووقف تيمبوت وأسلان بجانب الماء فغسلا يديهما منه ، ومسحا ملابسهما به ، ثم رشا منه على أدواتهما ، وأخيرا غسلا وجهيهما •

ـ لا تنشفا وجهيكما ، واتركا الماء ينشف وحده ، وأنا المسؤول بعد ذلك اذا لم تصبحا حدادين ماهرين مثل « لبش » •

---

(١) اله الحديد في الاساطير الشركسية •

ولم يعلق أستيمر بشيء ؛ ولو أنه لم يرض تماما عما فعله بلاتسة . وبعد أن نشف الماء عن وجهي الشابين ، أمسك كل واحد منهما بمطرقة وجعلا سندان بوت يغني .. وبعد أن انتهى ذلك تفرق الناس الذين كانوا مجتمعين أمام الباب .

ودهشت تينة من كل ما رأت . وعندما استغرقت تشاتشا في نقاش مع دانيزات ، ركضت الفتاة الصغيرة الى داخل محل الحدادة ، وتفرجت على الكير ، وعلى الكرات الحديدية بامعان ؛ ثم مدت اصبعها الى الماء الموجود في وعاء سقي الحديد .

ولحق « لو » بالفتاة الصغيرة ، فاقترب بدوره من وعاء الماء وغسل وجهه كما فعل الحدادان حين أيقن أن أحدا لن يؤنبه . من يدري فقد يصبح حدادا هو الآخر .

ورسخت أحداث هذا اليوم في ذاكرة تينة .

## أخبار تينة و « لو »

تفرق الناس ، ولم يبق أمام محل الحدادة سوى دولت الذي جاء متأخرا ، ودانيزات . وهذان لم يكونا يعرفان كيف ينهيان النقاش بينهما حين يبدآنه . ووقفت الصغيرة تينة تراقب الاولاد دون أن تجرؤ على الاقتراب منهم . وقد اعتادت هذه الصغيرة في الآونة الاخيرة أن تزور البيوت ، وتقف وراء الابواب حين تجد ربة البيت تطهو ؛ علها تطعمها شيئا .

لم يكن « لو » قد رأى الفتاة الصغيرة عن قرب منذ اليوم الذي ذهب فيه مع بلاتسة الى بيت جراسلان لايصال السيدة الى المحطة . وها هي الآن تضحك لاية حركة يقوم بها ، وقد أرضاه ذلك .

قل من يعرف تفاصيل حياتها من أهالي قرية شعلمفوقة . وهي لا تكاد تذكر شيئا عن أبيها وأمها الا بصعوبة . تعرف أن أباها كان يدعى « قاراج » لانهم أخبروها بذلك .

قاراج هذا عمل راعيا للخيل عند سيدة من نواحي « بسلني » فأعجبت السيدة به واتخذته عشيقا . ولما عرفت والدة تينة بالامر ، لم تجد طريقة تحل بها مشكلتها غير الالقاء بنفسها في نهر « بالق » أثناء فيضانه . ولم يعثروا على جثتها في نهاية الامر الا بصعوبة بالغة .

والتقت السيدة بجراسلان بعد ذلك . ولا يعرف أحد كيف استطاعت اغواءه . المهم أنه تزوجها وجاء بها الى قرية شعلمفوقة . ولو عرف بالعلاقة التي كانت بينها وبين قاراج لما غامر باحضارها . وكل ما عرفه عنها انها أرملة ضابط قتل في الحرب ، وأنها تملك ثروة طائلة . وربما هذا هو ما أغراه بالزواج منها .

وبما أن السيدة لم تخلف أولادا من زوجها الثاني ، فقد تبنت الصغيرة تينة التي غدت يتيمة • أما والدها قاراج ، فقد أدمن على الشراب ولم يعد يستطيع أن يعمل • وأخيرا قبل بالذهاب الى الجبهة بدلا من جراسلان مقابل مبلغ لا بأس به من المال • وقتل في احدى المعارك •

وبقيت الصغيرة عند السيدة تخدمها • وغالبا ما ترسلها الى المطحنة، والى تشاتشا • وترسلها أحيانا لمقابلة رسل جراسلان عند شجرة الصفصاف العتيقة خارج القرية بجانب الجسر • تلك هي المهام التي كانت تؤديها تينة •

وعندما عادت زوجة جراسلان الى دار أهلها ، تركت تينة في البيت لتحرسه ، وتطعم القطط والدجاج • فهي تقتني عددا كبيرا من القطط مثل تشاتشا • وكل من يريد أن يتخلص من قططه الصغيرة ، كان يلقي بها في بستان جراسلان • ورغم حاجة السيدة الى تشاتشا ، فلم تكن تحبها لانها ثرثارة ، ولديها أسرار تحرص على اخفائها • لذلك كانت ترسل اليها تينة كلما احتاجت الى أدويتها •

ولما رحلت السيدة ، استطاعت تشاتشا أن ترضي فضولها ، وتكتشف كل ما أرادت اكتشافه من أسرار البيت •فقد عرفت مقدار مخزون الذرة الصفراء والبيضاء ، وكم قطة عندها • وحقيقة ما سمعته من أن قبو البيت يحوي كمية كبيرة من الاضلاع المجففة ، والدهن المقلي • أما الذي أثار دهشتها أكثر من أي اكتشاف آخر ، فهو عندما عرفت أن جراسلان عاد ذات ليلة ونقل كل ما في البيت الواسع من سجاد ثمين •

وكانت زيارات تشاتشا تؤنس الصغيرة تينة في وحدتها وعزلتها في هذا البيت • لذلك تعلقت بها وصارت تحاول ابقاءها أطول مدة ممكنة ، وهي تروي لها ما تعرفه وما لا تعرفه من أسرار البيت •• فذكرت لها كيف أن جراسلان يحضر لها الحلوى كلما عاد الى البيت • وكيف كانت السيدة تفرح بعودته وتلين معاملتها لها •

ـ انا أعرف انه لا يوجد عندك حلوى ـ تقول تينة ـ ولكن عندك تلك الاعشاب علميني يا تشاتشا كيف تداوين بها أتعلمينني ؟ •

ـ حسنا يا صغيرتي • سأعلمك • أترين هذه العلبة الصغيرة ؟ انني احتفظ بها من أجل جراسلان • أعطها له عندما يعود • فما فيها من أوراق جافة تشفي الجروح • ـ وتبقى تشاتشا عند الصغيرة مدة طويلة وهما تتبادلان مثل هذه الاحاديث •

وأخيرا حل الربيع • وانشغلت تشاتشا بجمع الاعشاب • وصارت تينة تزورها كثيرا • وتنام عندها أحيانا ، ثم اقامت عندها نهائيا ولم تعد تذهب الى بيت جراسلان الا بين حين وآخر للاطمئنان على البيت • أما قطط السيدة فقد صار الجيران يسمعون صوتها وهي تتشاجر ليلا مع قطط

تشاتشا بعد أن أحضرتها الى بيتها أيضا ٠
أخيرا لم يعد يحدث شيء في بيت جراسلان الا وتعلم به تشاتشا ٠ ولم تكن تينة تعرف أهمية الاخبار التي أخذت ترويها تشاتشا حول ذلك ٠ وعندما عاد جراسلان ذات ليلة سرا ، علم كل أهالي القرية بذلك على الفور، وبينما كانت تينة تتفقد الدار ذات مساء جاء ثلاثة فرسان ، فذعرت الصغيرة ٠ ولكنها عادت فاطمأنت عندما عرفت أستيمر ويلدار ٠ أما ثالثهم فلم يكن سوى ناشخوة ٠ وترجل الفرسان ، وأخذ أستيمر يلاطف الصغيرة ، وقدم لها شيئا من الحلوى ٠ وفهمت من حديث الرجال أن جراسلان ليس ذلك الانسان الطيب الذي تتصوره ٠

ـ هل تعرفين معنى « زعيم الفارين من وجه العدالة » ؟ ـ سألها ناشخوة ٠٠ لقد سمعت بهذا التعبير من قبل ، ولكن لم يخطر ببالها أن يكون هذا الزعيم هو جراسلان نفسه ٠ وتناقش الرجل حول مخزون الذرة في البيت ٠ واقترح احدهم أن يصادر لمصلحة الضمان الاجتماعي ٠ ولكن الآخران لم يقبلا ٠ أما حول الفتاة الصغيرة ، فقد جرى حديث عن ارسالها الى دار للايتام ٠ وعندما سمعت تينة ذلك أخذت تبكي رافضة الذهاب الى أي مكان ٠
ـ لماذا تبكين من أجل ذلك ؟ ـ سأل يلدار ـ اذهبي الى تشاتشا وابقي عندها اذن ٠ أما بيت جراسلان فسأقيم أنا فيه مستقبلا ٠

ونظرت تينة الى الشاب مندهشة وهي على وشك البكاء ثانية ، لان كلامه لم يعجبها ٠ وأخذ استيمر الذي تعرفه الصغيرة أكثر من رفيقيه يدافع عنها :

ـ هذا يكفي ٠ لا تدع الفتاة تبكي ثانية ٠
ـ ما الامر ؟ ـ سألها الثالث ـ ألا تعرفين يلدار ؟ انه شاب محبوب ٠ وساريمة ، ألا تعرفينها أيضا ؟
ـ أعرفها ٠
ـ فلم البكاء اذن ؟ سيتزوجان ٠ وقد اعطيناهما هذا البيت ، لان صاحبه هارب ٠

وحز هذا الكلام كثيرا في نفس الصغيرة ، وأوشكت أن تنفجر باكية من جديد ٠ ولكن أستيمر أخذ يلاطفها :

ـ لا تقلقي يا صغيرتي ٠ اذا احتجت الى شيء ، ما عليك الا أن تهرعي الى دارنا ٠ ألا تعرفين دومسارا ؟ ٠ كيف أصدق انك لا تعرفين ولدنا الصغير « لو » ٠ سأرسله اليك ليلاعبك اذا أردت ٠
ـ لا اريده أن يأتي ٠ لا أريد أن ياتي أحد ٠ حين تعود السيدة ستعنفني من أجل ذلك ٠

ـ كيف تستقبلين تشاتشا اذن ؟
ـ انها تأتي من أجل القطط ٠
ـ أتعرفين ماذا يملك « لو » ؟ لو رأيت طربوشه الاحمر فستميلين اليه حتما ٠٠ انه يتجول الآن وهو يركب دولابا ٠

وتعجبت تينة من الدولاب الذي يركبه « لو » ٠ ولكن ما الفائدة ، فان السيدة نبهتها بأن لا تسمح لاحد بدخول الدار ، وهي تخاف منها ٠
كان أهالي القرية يعلمون أن في دار جراسلان أشياء كثيرة ، هم بأمس الحاجة اليها ٠ ولكن من الذي يجرؤ على دخول هذه الدار ؟ حتى دولت نفسه الذي أخذ على عاتقه تحويل الفقراء الى الاغنياء ، لم يكن يجرؤ على مجرد الاقتراب من الدار ٠ ولما كانت تينة تعرف كل ذلك جيدا ، لم تصدق أن يلدار ينوي أن يأتي ويسكن في الدار فعلا ٠

وهكذا تعاقبت الفصول والاحداث على قرية شعلمفوقة ٠ من كان يصدق أن يلدار ، الشاب الفقير الذي أمضى حياته يعمل خادما في بيوت الناس ، يمكن أن يسكن يوما في بيت جراسلان الزجاجي ٠ وأن جراسلان الذي كان يهابه الجميع سيغدو فارا من وجه العدالة ، لا يستطيع العودة الى بيته !٠٠ ومع أن تينة رفضت باديء الامر استقبال « لو » الا انهما أصبحا فيما بعد صديقين حميمين ٠ وما زالت هنالك احداث اخرى كثيرة بانتظار أهل القرية ٠ ولكن ليت الرصاص لم يطلق في بيت جراسلان ليحول العرس الى مأتم ٠٠
جاءت تينة الى محل الحدادة ووقفت بين الناس وهي تحتضن قطة صغيرة ، وقد اتخذت سيماء الكبار ٠ أما « لو » فيبدو أن اغتساله بالماء الذي سقي فيه الحديد لم يكن عبثا ٠ فهو يعرف تينة جيدا ، وكان يراقبها من طرف خفي منذ مجيئها الى المحل ٠ ورغب في أن يمسك قطتها ولكنه لم يجرؤ على ذلك ٠٠ وكان والده عندما قال له : هيا ، سآخذك الى عند تينة ، رفض ذلك ٠ ولكنه ذهب في الواقع الى دار جراسلان أكثر من مرة ، ونظر الى داخل الدار من خلال ثقوب السياج ٠ ورأى تينة وهي تتسلق الاشجار العالية برشاقة لاعبي السيرك ، وتقطف الثمار لتأكلها وهي تدندن ببعض الاغاني دون أن تفطن الى أن أحدا يراقبها ٠

لم تجع تينة منذ أن رحلت السيدة وتركتها وحيدة في البيت ٠ على عكس ذلك ، فقد كانت مهملة أيام وجود السيدة ، ينسون حتى مجرد وجودها ، بل اطعامها ٠ والآن صارت تهتم بنفسها أكثر ، وتأكل على هواها ٠ ففي الربيع والصيف هنالك الكثير من الاعشاب والجذور التي هي في متناول اليد دون عناء يذكر ، بالاضافة الى الثمار ٠ وفي الخريف هنالك ما يؤكل أيضا ٠ ولم يسبق لها ان نامت دون عشاء طوال فترة غياب السيدة ٠ وكانت تتردد على دار تشاتشا وتراقبها وهي تركب أدويتها المصنوعة

من الاعشاب ٠٠ ولما كانت قد تعودت على تسلق الاشجار ، فقد قوي ساعداها وساقاها ٠ ولم يعد أحد من الاولاد يستطيع اللحاق بها ٠ فهي تهرب أمامهم والريح تحمل شعرها الاسود ٠ أو تتسلق شجرة عالية وتقفز منها الى اخرى فتفلت منهم بسهولة ٠٠٠ وها هو « لو » ينظر اليها الآن وإلى قطتها بمزيد من الفضول ٠ وأخذت تراقبه لتتأكد مما سمعته ، أنه أصبح مساعدا لاخيه الحداد الماهر ٠ ثم اقتربت منه وسألته :

ـ هل أنت حداد أيضا ؟ ـ وأخذت تنظر مندهشة الى طربوشه الاحمر عن قرب ٠

ـ لا ٠ ـ قال الصغير مستحيا ٠

ـ أتظن انني لم أرك عندما غسلت وجهك بالماء الذي سقي فيه الحديد! تقول تشاتشا أن من يقلد النارتيين الوثنيين سوف يذهب الى جهنم ٠ وقالت لي أن أباك كافر ، وأنك أنت ايضا كافر ٠ ـ وهكذا روت تينة كل ما تعرفه ٠ ورغم أن « لو » لم يفهم كل ما قالته ، فقد شعر أن من واجبه أن يرد عليها بشيء ،لان الفتاة الصغيرة التي طالما تطلع الى لقائها انبته وقد أحنقه ذلك ٠

ـ اتظنين أنني لا أعرف من الذي قال ذلك ؟ والله أعرفه ٠

ـ من ؟

ـ انها ليست تشاتشا على أية حال ٠ بل هي سيدتك ٠ أين هي هذه السيدة الآن ؟ لقد هربت الى ما وراء البحر لانها تخاف من البلاشفة ، ولم تبق لك سوى تشاتشا فعيشي معها ٠

ـ أتعرف كيف تداوي تشاتشا ؟ انها تشفي حتى القطط المريضة ٠

ـ عجبا ٠ أتظنين أن تشاتشا تأتي اليك لتداوي القطط ٠٠!٠٠ انها تأتي لتدس أنفها ٠ انها تدس أنفها الحاد في كل مكان ٠

ـ وهل أنف تشاتشا حاد ؟ سأخبرها أنك قلت ذلك ٠

ـ أتظنين أنني انا وحدي من يقول ذلك ؟ ان ابي وأمي وبلاتسة أيضا يقولون ذلك ٠

ـ من هو بلاتسة ؟

ـ انه والد قازجري٠ ووالد ذلك الحداد اسلان أيضا ٠ لقد كان هو المشرف على عرس ساريمة ٠٠ لو رأيت ذلك العرس لرأيت الشيء الكثير ٠

ـ لقد رأيت كل شيء ٠

ـ وكيف ؟

ـ كنت فوق شجرة عالية ٠ فوق أعلى شجرة ٠ هل تستطيع أن تتسلق الاشجار العالية ؟

ـ وهل توجد شجرة لا أستطيع ان اتسلقها أنا ٠٠! فوق أية شجرة كنت ؟

ـ فوق أعلى شجرة ٠
ـ أهي تلك التي قرب بيت دولت ؟ أتعرفين اذن لماذا ينادونه « كيكوووك » ٠

وفكرت الفتاة الصغيرة قليلا :

ـ انني أعرف دولت ايضا والله ٠ أليس هو ذلك الافكح الذي يمشي مشية البط ؟٠ وأعرف بلاتسة ايضا ٠ انه هو الذي اوصل السيدة الى المحطة يوم ذهبت لبيت أهلها ، أليس كذلك ؟ وأعرف أباك استيمر ايضا٠ وأعرف أنك تملك كرة حديدية كتلك المعلقة على باب المحل ٠ لقد أخبرني أستيمر بذلك وكنت أعرف انك تملك طربوشا أحمر ٠ وأنك تتجول راكبا دولاب الدنيا ٠ هل تسمح لي بأن أركب معك ؟

ولم يعرف « لو » بماذا يجيب ٠ فقد شعر بالزهو لانها لم تنس ذهابه الى بيت جراسلان مع تيمبوت وبلاتسه يوم أوصلوا السيدة الى محطة القطار ٠ وأحب في هذه اللحظة أن يقول شيئا يرضي الفتاة الصغيرة ٠

ـ أنت تعرفين جراسلان جيدا ، أليس كذلك ؟

حدقت تينة في عيني الصبي دون أن تقول شيئا ٠ ثم رفعت حاجبيها الاسودين المعقوفين وركضت نحو تشاتشا التي نادتها ٠٠ وهكذا تبادلت تينة في ذلك اليوم حديثا طويلا مع « لو » وأيقنت انه هو بعينه الذي يملك الطربوش الاحمر ، والكرة الحديدية البيضاء ٠٠ وعلمت بالاضافة الى ذلك أنه يذهب الى البراري فارسا كل يوم ٠٠ « اذا لم تصدقي ذلك ، اخرجي صباحا نحو الساقية ، وسترين حصاني الابلق » هكذا أكد لها ٠
والتفتت اليه تينة وهي تنصرف مع تشاتشا محتضنة قطتها الصغيرة ٠ وبقي « لو » واقفا في مكانه مدة طويلة متأثرا من هذه العجوز القاسية التي أخذت تينة معها مبكرة ٠
وتوالت فصول السنة ٠ ووجد «لو» ما يشغله في الصيف كما في الشتاء ، وفي كل مرحلة من مراحل طفولته ٠٠ لم يعد صغيرا بالتأكيد ، فهو قادر الآن على انجاز أية مهمة يكلفونه بها ٠ وكيف يكون صغيرا وقد أصبح قادرا على التجوال في البراري طوال النهار ممتطيا صهوة « الابلق » ٠

## الفارس الصغير وسرجه

كانت الاعشاب ما تزال خضراء في المراعي الواقعة شمال القرية ، والتي ما تزال تصلها بقايا مياه النهر ٠ لذلك اعتادوا أن يسوقوا اليها القطعان

في مثل هذا الموسم من السنة ٠ كما يسوقونها الى الغابات القريبة بالرغم من قطاع الطرق الذين يمكن أن يخرجوا من مخابئهم في أية لحظة ٠

واذا صعدت الى المرتفع المطل على القرية ، يمكنك أن ترى كل ما يحدث فيها ٠ ها هي المواشي والخيل تخرج قطعانا متلاحقة منذ الصباح الباكر باحثة عن المراعي الجيدة ٠ اما قطعان الخيل فلم تعد تستقر في المراعي القريبة التي بدأت تجف وأحرقتها الشمس وأصبحت تسبب متاعب لا نهاية لها لرعاة الخيل ٠

ويتبع الرعاة قطعانهم وهم يضعون على رؤوسهم قبعات كبيرة من اللباد ، وأزرار قمصانهم مفكوكة ٠ ومعظمهم يحمل بنادق قصيرة لحماية قطعانهم من قطاع الطرق ٠ ومع أنهم لم يستعملوا هذه الاسلحة الى الآن ، فانها كانت تبعث الاطمئنان في نفوسهم ٠

أما الصبيان ، فكانوا يرعون العجول والماعز في مراع خاصة بهم ٠٠ وعندما تصعد الشمس رويدا رويدا لتطل على أعالي الجبال ، كنت ترى قمة جبل « أواشحة ماكوة » المستند الى قبة السماء الزرقاء بهامته البيضاء ، وقد ذابت الثلوج عنها من الجهة التي تسطع عليها الشمس ٠ أما جنوبا فانك ترى جبل قازبك وهو يسطع في ضوء الشمس ٠ وعندما تشتد الحرارة شيئا فشيئا ، تنعدم الرؤية ، وتخلو شوارع القرية ، ولا تعود تسمع فيها حتى نباح الكلاب ٠

ويشتد القيظ ، فيحس به الجميع ما عدا الاولاد في المراعي ، فانهم ينصرفون الى ألعابهم او الى العزف على آلات الناي التي صنعوها بأنفسهم من القصب ٠ أما « لو » فكان يغبط هؤلاء الأولاد ، فعليه أن يرعى الابلق ممتطيا صهوته طوال النهار ، واذا ترجل عنه ليرتاح قليلا او ليشاركهم لعبهم ، ما كان يستطيع امتطاءه ثانية ٠ فما العمل ؟٠٠ انه حصان يستحق هذا العناء على أية حال ٠

جاء دولت وموسى على انفراد عدة مرات الى أستيمر ٠ ورجاه كل واحد منهما أن يبيعه حصانه ٠ وعرض عليه موسى أن يبادله الحصان بكمية محترمة من الذرة الصفراء دون أن يخفي لهفته على الحصان ٠ فالابلق حصان أصيل وجميل حقا ، تزوغ عليه عين كل من يراه ٠ صغير الرأس ، عريض الصدر ، نحيل القوائم ٠ حصان يليق بفارس شركسي حقيقي ٠ وكان « لو » فخورا بهذا الحصان ومتعلقا به ٠ لذلك كان يشركه حتى في زاده ٠٠ أما أستيمر فقد اعتاد ان يدبر له أينما ذهب ، كمية من الحشيش ٠ ولما أيقن أخيرا انه لا يستطيع اطعام الحصان كما ينبغي ، فقد عزم على مبادلته بكمية من الذرة الصفراء ٠

وكان قبل ذلك قد قايض الطاولة الكبيرة بكمية من الحشيش أطعمها للحصان ، وانتهت كمية الذرة الصفراء التي قدمها له موسى مع الحشيش مقابل الطاولة ٠ ولم يبق عندهم من الاثاث الذي يمكن بيعه سوى الكومدينة

التي حملها بلاتسه بالعربة بناء على طلب أستيمر الى الطحان آدم وفايضها بكمية من الطحين • كما باعوا السرير الحديدي الذي اعتاد «لو» أن يرقد عليه ، فاضطر الى مشاركة الجدة في السرير الخشبي العتيق الذي زعزع أركانه « الارالب زالمجري » • وصار يستيقظ ليلا على صوت دعواتها وصلواتها وآيات القرآن التي تتلوها • أما تيمبوت ، فقد صار ينام في محل الحدادة • ورغم أنه كان يحضر الى البيت كل ما يحصل عليه من مهنته ، الا أن هذه المبالغ الضئيلة لم تف بشيء يذكر من حاجات البيت •

واستيقظ « لو » ذات صباح مبكرا ، فرأى دومسارا تعيد تفصيل معطف تيمبوت له • ولما كان هذا المعطف أصلا لاستيمر ، وارتداه تيمبوت بعد تصغيرة مدة طويلة ، فقد غدا مثقوبا في عدة أماكن • فوضعت دومسارا رقعا عليه ، وأعادت توزيع أزراره ، وهكذا غدا صالحا لاستعمال « لو » عدة سنوات أخرى ، مما بعث الارتياح في نفسه ، لان ثيابه كانت قد بليت تماما • وهو يستطيع أن يتباهى به أمام تينة • هذه الفتاة الصغيرة ، رغم شعرها الاشعث ، فان نظراتها تخترق القلب • وأجمل ما في عينيها ، رموشها التي تستطيع أن تعد شعيراتها واحدة واحدة •

ولما أحست دومسارا أنه افاق من نومه ، قالت مصطنعة لهجة العتاب :

ـ لقد خرج كل الرعاة من القرية وأنت ما تزال نائما • هيا • قم •

ـ وهل أنا راع عادي •أنا راعي الحصان • ـ قال « لو » وهو يفرك عينيه •

ـ أيوجد في العالم كله راعي حصان ينام الى مثل هذا الوقت !• ـ قالت دومسارا وهي تطوي المعطف •

واستيقظ أستيمر أيضا على صوت الحديث • كما كانت الجدة قد أفاقت منذ مدة طويلة وجلست في زاوية من البيت تعبث ببعض الاشياء • أما دومسارا فقد وضعت دقيق الذرة الصفراء المحمص في القدر الذي غلى ماؤه وصنعت « المرامسة » ثم جهزت مائدة الافطار •

ـ هل تستطيع أن ترعى الحصان حقا يا صغيري ؟ أتستطيع ان تبقى على ظهره طوال النهار ؟ ـ سأله أبوه •

وكان هذا ما يتمناه « لو » منذ مدة طويلة • فكيف يقول « لا » • من الممكن أن تراه تينة أيضا ، فما أسعده بذلك •

ولم ينس « لو » ذلك اليوم فيما بعد أبدا • ركب الحصان مع رطوبة الصباح بعد أن وضعوا على ظهره قطعة لباد كبيرة بدل السرج ، وأعطوه كيسا يحوي رغيفا من خبز الذرة الصفراء وقطعة جبن ، كما أعطوه المطارة التي استعملها أستيمر عندما ذهب للقتال • وقد فرح بشكل خاص بهذه المطارة التي كان يخيل اليه كلما مد يده اليها ليشرب الماء ، انه أصبح

رجلا مثل أبيه • وبما أنه ارتدى المعطف الذي أعادت أمه تفصيله ، فقد شعر بأنه فارس لا ينقصه الحذاء الذي لم يعتبر نفسه بحاجة اليه طالما انه لن ينزل عن ظهر الحصان طوال النهار •

ـ هل تستطيع أن تبقى على ظهره يا صغيري ؟ ـ سأله أستيمر ثانية قبل أن يترك عنان الحصان •

ـ أستطيع والله •

وأخذ الابلق يحرك أذنيه متسائلا عن راكبه ، بينما أبرز « لو » صدره مقلدا الكبار •

ـ هيا انطلق الآن اذن • ـ قال أستيمر وهو يترك الحصان ويربت على مؤخرته بقضيب طري •

ولحقت به دومسارا حتى البوابة وأخذت تراقبه وقد غمرتها الفرحة •وحث « لو » حصانه فأخذ يمشي خببا • وعندما وصل الى محل الحدادة نادى : « تيمبوت • ـ اسلان » لكن الشابين لم يسمعاه • وبدلا من ذلك رآه بعض رفاقه من الاولاد فنظروا اليه باعجاب • وكانت بعض النسوة ذاهبات لجلب الماء مطرقات برؤوسهن تأدبا • ولم ينتبه « لو » سوى اليوم الى اطراق النسوة بهذا الشكل عندما يخرجن لجلب الماء •

ورغم انه رفع مؤخرته عن الحصان وتطاول بجسمه باحثا عن تينة ، الا أنه لم يرها • وانما رأى ماريات زوجة موسى • فتذكر قول ساريمة ذات يوم : « لم أر أجمل من هذه المرأة في حياتي سوى ناتاشا » • وعندما وصل الابلق الى الساقية حث الخطى • كانت ماريات تقف على الجانب الآخر الان • واقترب منها مسعود بطن الكبدة ••

كان من عادة مسعود في هذه الايام ، أن يذهب مبكرا الى الساقية ويصل في نفس الوقت الذي تصل فيه ماريات • ويسألها دوما نفس السؤال : « الى أين أنت ذاهبة يا شاطرة ؟ » ومع أنه لم يكن يسمع سوى جواب واحد غاضب : « ما دمت أحمل الدلاء فأنا ذاهبة لاجلب الماء » الا أنه لم يكف عن طرح سؤاله يوما بعد يوم ،لانه لم يستطع أن ينساها وخاصة بعد تلك الليلة التي قضاها معها بفضل تشاتشا •

وخافت ماريان ان يحس موسى بشيء ، فصارت تذهب الى بئر دولت لتستقي منه • الا أنها التقت بمسعود هنالك أيضا • وها هي تلتقي به من جديد عند الساقية • وكانت تحرص أن تخاطبه بحدود اللياقة والادب • انه ليس رجلا كريها على أية حال •

ـ هل جئت تستقين يا ماريات ؟ ـ سألها مسعود ملاطفا •

ـ الماء في الصباح الباكر أبرد وأنظف أيضا • ـ قالت وقد لانت عريكتها •

ـ هذا صحيح . ماذا يفعل موسى اليوم ؟
ـ انه في الدار . يفصل وجوه الاحذية .
ـ من جلد الجاموس الذي ذبحه ؟
ـ نعـــم .
ـ ألا ينوي الذهاب بلحمه الى السوق ؟
ـ والله لا أعرف . قد يذهب .

وفهمت ماريات هدف مسعود ، ولكنها تظاهرت بأنها لم تفهم . انه يريد أن يتسلل الى غرفتها ثانية عندما يخرج موسى لشأن من شؤونه .
وعبأت ماريات الدلوين ببطء شديد بعد أن غسلتهما . ثم ثبتتهما في طرفي انعصا الغليظة المقوسة ، ووضعت العصا على كتفها اليمنى وانطلقت الهوينا ويدها على خاصرتها .

وقف الابلق وسط ماء الساقية وأخذ يشرب ، و « لو » يراقب انتفاخ بطنه تدريجيا كلما امتلأ بالماء . ولما انتهى من ذلك بدأ يعبث في الساقية بقائمته الامامية ، وينفخ الماء بمنخريه الواسعين .
ثم ينس « لو » تعليمات أبيه عندما أنطلق بالحصان : « دعه يذهب الى حيث يشاء ، ويفعل ما يريد ولا تعارضه » . لذلك بقي ينتظر خروج الحصان من الماء بنفسه . وربما كان سيبقى مدة أطول لولا مسعود وماريات .

مرت ماريات من أمام مسعود الذي جمد في مكانه وهي تمسك خاصرتها بيدها غير مبالية به . ثم التفتت قليلا ونظرت اليه بطرف عينها . فضرب مسعود الذي لم يستطع السيطرة على نفسه الماء بالعصا التي في يده وهو يطلق صرخة اعجاب واستنكار . فأجفل حصان « لو » لهذه الحركة المفاجئة وقفز ، ووقع الصبي في الماء . ولحسن حظ « لو » أمسك مسعود بالحصان مباشرة وصاح به :

ـ هيا اسرع الى هنا . فارس مثقوب السروال هو ما كان ينقصني . ـ قال مسعود رغم أن سرواله هو نفسه مثقوب عند الفخذ .

وفهم « لو » في هذه اللحظة أن المهمة التي أوكلوها اليه ليست سهلة على الاطلاق .
وانصرف مسعود لان مهمته كانت قد انتهت . وانطلق « لو » يرعى بالحصان في البراري . نسي رغبته الملحة في أن تراه تينة ، وانحصر همه كله في شيء واحد : « كيف سأركبه اذا وقعت عنه ثانية ؟ ومن الذي سيمسك لي الحصان اذا أفلت مني ؟ » . وتخدر فخذه وصار يؤلمه . وكان الابلق كلما كش الذباب عن نفسه بذيله الطويل ، يصيب ساقيه كالسوط فتتجمع الدموع في عينيه .

وحوالي الظهر تغير الجو ، فتبلدت السماء بالغيوم وحجبت أشعة الشمس . وهبت ريح باردة لم تستطع ملابسه البالية ان تقيه منها . وخاف من أن ينزل البرد . وكان يخاف من الرعد بشكل خاص . وحاول تحريك ساقيه فلم يستطع لانهما تخدرتا تماما . وحث الحصان على العودة الى البيت ولكنه لم يتمكن من ثنيه عن وجهته ، فأخذ يضربه بالمطارة عبثا . وسقطت المطارة على الارض ولما رأى الحصان الماء الذي يسيل من المطارة، شمها وانطلق لا يلوي على شيء . ولم يعد الصبي يطيق وضعيته في الجلوس على ظهر الحصان ، فسحب ساقيه الى الاعلى ببطء وجلس متربعا ، ولكنه خشي السقوط فعاد الى جلسته القديمة . واشتد البرد ، وتكاثفت الغيوم السوداء . فقال « لو » في نفسه : « لا شك أن البرد سينزل » وحار في أمر اعادة الحصان الى البيت . وأخيرا فكر في حيلة . أخرج رغيف الخبز من كيسه وقطع منه قطعة رماها على الارض بالقرب من أنف الحصان . شم الحصان قطعة الخبز وأكلها . وقطع « لو » قطعة ثانية ، وهكذا صار الحصان يتبع قطع الخبز حتى انتهى الرغيف . ولما اشتدت الريح ، انطلق الحصان في طريق العودة الى البيت لوحده .

واطمأن قلب « لو » أخيرا ، وتماسك على ظهر الحصان الذي سار بخطوات واسعة . ولما وصل الى أزقة القرية تحامل على نفسه وأمسك بجسمه الممدود على ظهر الحصان ، حتى لا يقع ويضحك عليه رفاقه .وكانت دومسارا واقفة عند البوابة بانتظار ولدها الصغير ، فأوشك أن يبكي عندما رآها . ولما وصل الى البيت اخيرا ، أدركت أمه على الفور مقدار الالم الذي عاناه .

ــ يا ويلي . ان الطفل يرقد على ظهر الحصان كالسرج . ــ وحملته على الفور وأنزلته الى الارض .

ــ لن يغفر الله لنا . أيجوز أن نفعل شيئا مثل هذا بطفل !

واتجه الحصان الى الاسطبل لوحده ، ليأكل من الحشيش الذي أحضروه له . وعاد أستيمر مساء ومعه بلاتسة وتيمبوت . وبدأت دومسارا العتاب على الفور دفاعا عن « لو » وأنه لا يجوز تركه يخرج الى البراري وحده وهو يرقد فوق الحصان كالسرج . ولكن أحدا لم يستمع اليها .وأستمر نقاش الرجال حول الحصان ، وصعوبة أن تجد له حشيشا بعد الآن وفي مثل هذا الموسم السيء . واذا تركته يخرج وحده الى المراعي فسيخطفونه في غمضة عين . ولكن ما فائدة وجود « لو » معه ؟ فلن يبالي به لصوص الخيل على أية حال . ومعذلك فوجوده معه أفضل من أن يخرج وحده . ولكن دومسارا رفضت رفضا باتا أن يخرج به « لو » ثانية .

ــ أليس من الممكن أن نرعى كل خيلنا معا وبالدور ؟ ــ سأل قازجري .

ـ وكيف يستطيع طفل أن يرعى بمثل هذا العدد من الخيل ؟
ـ البداية هي الصعبة • سيعتاد على ذلك • فلا تقلقي •
ـ ويرقد على ظهر الحصان مثل السرج ! •
ـ ولماذا يرقد عنيه ! أهو أقل رجولة من الآخرين ؟ ـ قال أستيمر ـ والله ليس أقل منهم ، ولن أقبل أن يعتبر نفسه أقل منهم •
ـ فليذهب الحصان الى الجحيم • والله لن أترك ولدي يموت على ظهره • بعه • افعل به ما تشاء •

وأنصت « لو » صامتا الى هذا الحوار •

ـ الرجل بلا حصان ، كالنسر بلا أجنحة يا حبيبتي • ـ قالت الجدة ـ من الافضل أن يعتاد الصبي على ركوب الحصان مبكرا ، ولا ضير عليه •

وبالرغم من أن دومسارا كانت تدافع عنه ، فقد رأى « لو » الصواب الى جانب ابيه • انه مستعد لتحمل كل عذابات الدنيا ، مقابل أن لا يبيعوا الحصان الذي هو مصدر متعته وسعادته •• وشعر بالندم على تخاذله اليوم •

ـ هل تظنين أنني خائف يا جدتي ؟ ـ قال « لو » بصوت سمعته الجدة بصعوبة ـ والله لست خائفا • ولن أخاف حتى من جراسلان نفسه اذا دعت الحاجة •
ـ هذا هو الافضل يا نور عيني •

ونام « لو » أخيرا • ورأى فيما يرى النائم بطن الكبدة وماريات عند الساقية • وضربه مسعود الذي صار يشبه زالمجري بالعصا • والذي ظنه مسعود تبين أنه دولت • وحث « لو » حصانه وانطلق به كطائر السنونو • أنى لمسعود أو لدولت ان يلحقا بالابلق •!•••

## الفزاعة والابلق

يقولون : « اذا لم تجد ما تأكله ، عليك بالارض » ولكن ماذا يمكن أن تقدم لك الارض المحرومة من المطر ! فالجفاف أحرق كل المزروعات ، ولم تعد ترى سوى الحقول السوداء المتشققة •

ـ ظننت أن من الافضل لتيمبوت أن ينحت حجارة الرحى ، لكن من يحتاج الى المطاحن اليوم ؟ ومن الذي عنده شيء يطحنه ؟ ـ قالت دومسارا منفعلة ـ ليرحمنا الله •

وأخذ المسنون يطيلون مكوثهم في المساجد بعد الصلاة يتناقشون • وأخذ بعض الذين ابتعدوا عن الدين يعودون الآن للصلاة مع الجماعة أملا

في رحمة الله · وعاد موسى يرفع صوته :

ـ سبق أن أخبرنا استيمر ان السلطة السوفييتية ستجد حلا لكـــل شيء · فلماذا لا تأتينا بالمطر ؟ هه ؟ انك لا تحصل الا على ما يهبك الله · لو اجتمع كل بلاشفة العالم فلن يستطيعوا أن يفعلوا شيئا تجاه الجفاف ·

ورد عليه مسعود الذي اعتاد على معارضته في كل ما يقوله :

ـ ماذا تقول ؟ ألم تسمع أنهم ينوون جلب الماء من نهر باخستـــان اسقاية المزروعات ؟ فما حاجتنا بالمطر بعد ذلك ! ·
ـ كفاك ثرثرة · هل يستطيعون أن يرفعوا الماء من الوادي ؟ والله لــن تجعلني أصدق ذلك يا بطن الكبدة · ـ ولكن مسعود لم يتراجع .
ـ أقسم انني سمعت استيمر يقول ذلك · ليس باخستان فقط ، وانما سيسقون حقول البراري من نهر تيرك أيضا · فما الحاجة الى المطـــر بعد ذلك ؟

ـ وماء الشرب ؟ من أين ستستقي ماريات عندها ؟ ـ قال دولت ملمحـــا الى شيء ما ـ وأنت يا موسى ، ما الذي يمنعك من الحرص على ماريـــات قليلا ؟·

احمر وجه موسى · أما مسعود فقد نظر الى دولـــت نظرة تهديـــد فتراجع · ليس هذا وقت المزاح على أية حال · فالجفاف جعل الناس يعيشون في هم دائم ، ولم يعودوا يستسيغون النكتة ·· بنوا آمالا كبيرة على نجاة موسم الحبوب · ولكن تبين أن السنابل فارغة · أما أعواد الذرة الصفـراء فقد ذوت ويبست قبل أن تتشكل فيها أية عرانيس · كما ذوت بشائـــر البساتين وسقطت على الارض ·
واذا صادف أن تلبدت السماء بالغيوم ، تعود فتصحو ثانية دون أن تمطر · وبعد الظهر من كل يوم ، يسكن كل شيء حتى الهواء · ولا تعـود ترى سوى التراب في كل مكان ·

أخذت الثلوج تذوب فوق الجبال العالية · وهبطت السيول · وكاد سيـل شعلمفوقة يخلع الجسر · فانتشر الناس في كل مكان ، يجرون السواقي الى بيوتهم وبساتينهم ·وبالرغم من أن السواقي كانت تغرق المزروعات وتجر معها قسما كبيرا من النصبات الجديدة التي غرسوها مسببة أضرارا فادحة، فان النزاع اشتد على الماء · وطالت جلسات الشيخ سعيد بجانب جـــدار المسجد يدعو الله مستسقيا المطر · ولكن المطر لم يهطل ·
وذات يوم انطلق عدد كبير من الاولاد يخوضون في تراب الازقة ، وفـي مقدمتهم « لو » وتينة · وكان « لو » يسير متباهيا · كيف لا يتباهى وهـو الذي استطاع ان يقنع تينة باللعب مع أولاد الحي ! ولولاه لبقيـــت في دار جراسلان لا تبارحه · وكان عدد كبير من الاولاد يرونها اليوم للمرة الاولـى

بالرغم من أنها تعيش قريبة منهم ٠

بعد لقاء « لو » بالفتاة الصغيرة أمام محل الحدادة لم يرها ثانية مع أنه بحث عنها طويلا كلما خرج راكبا حصانه ٠ وخشي أن لا يلتقي بها بعد ذلك أبدا ٠ ولكنهما التقيا لانه لم يكن مفر من ذلك ٠ وبادرته تينة :

ـ لقد رأيتك تركب حصانا ٠
ـ متى ؟
ـ رأيتك من فوق الشجرة ولم ترني أنت ٠

وأحس « لو » بالفخر من أجل ذلك ٠

ـ كنت تركب الابلق ١٠ ـ وسر « لو » بقول الفتاة الصغيرة ، ولكنه غير الموضوع بسرعة ، لان بعضهم أطلق عليه لقب « سرج الحصان » وخشي أن يكون ذلك قد وصل الى مسامعها ٠

وكثرت لقاءات « لو » بعد ذلك بالفتاة الصغيرة ٠ ولكنه لم يخبر أحدا بذلك أبدا ، فقد اعتبر الاحتفاظ بسر خاص به نوعا من الرجولة ٠ وكانا لا يلتقيان الا على رؤوس الاشجار وحسب موعد مسبق ٠ فيطعم احدهما الآخر من الثمار التي يجدانها ٠ وفكر « لو » أن يجعل مكان اللقاء التالي تحت الجسر الذي التقت عنده تينة بجراسلان ، حين أرسل معها شيئا للسيدة قبيل رحيلها ٠ ولم تخبر أي مخلوق بهذا اللقاء سواه ٠٠ وها هما الآن يجران معا « الحنشي كواشة » وهي فزاعة كبيرة صنعاها من يد مجرفة مكسورة، وألبساها بعض الخرق ، ووضعا على رأسها قبعة كبيرة من اللباد ٠

وتجمع أولاد الحي وراء ابن البلشفي أستيمر ، وربيبة جراسلان ، ليسيروا وراء الفزاعة التي يجرانها للاستسقاء كما جرت العادة منذ القدم٠ ولم يعترض طريقهم احد من المسؤولين حتى لا يسيئوا الى تقليد من تقاليد الناس القديمة ٠ خاصة وأن السلطة السوفييتية لم تستطع بعد جر مياه وادي باخسان لسقاية المزروعات ٠

وعندما رأى الناس طفلا بلشفيا يقود موكب الاطفال للاستسقاء ، قالت تشاتشا مغمغمة . كيف تمطر وابن البلشفي هو الذي يدعو الله ٠ ليقبض الله روحي اذا أمطرت ٠

كان « لو » قد فكر بأن يزين الفزاعة ويلبسها طربوشه ، لكن الاولاد اعترضوا على ذلك ٠ ثم حاول أن يثبت كرته الحديدية البيضاء بها ولكنه لم ينجح ٠ وارتفع صوت الاطفال منشدا نشيدا دينيا قديما :

نقود معنا الفزاعة ، يا ربنا ٠
أمطر علينا مطرا غزيرا ٠
اذا وجد خاطىء في هذه القرية يا ربنا ٠
فارحمنا نحن يا ربنا ، ارحمنا ٠

وأخذ الاولاد يتنقلون من بيت الى بيت وهم ينشدون مرددين هذا

النشيد • ولم يكونوا يفكرون في المطر بقدر ما يفكــرون في الهبات التــي يقدمونها اليهم في كل دار • فبعض البيوت كانت تستطيع الاستغناء عن رغيف من خبز الذرة الصفراء او بيضة وأحيانا بيضتين او ما شابه ذلك • ولم يكونوا يحصلون على شيء في بعض البيوت ، ولكن ذلك لم يمنعهم من دخول جميع البيوت دون تمييز بين غني أو فقير • وكان صوت الفتيــات الصغيرات أجمل من صوت الاولاد • وأخذ « لو » ينظر الى تينة من طــرف حفي ، واعتبر أن صوتها هو اجمل صوت سمعه حتى الآن ، ولا يضاهيــه حتى صوت ناتاشا ولا صوت الصغيرة روم • وكانت تينة قد سرحت شعرها اليوم ولبست أحسن ثوب تملكه فبدا شكلها مقبولا أكثر من ذي قبل •

وعندما يدخل الاولاد منشدين أحد البيوت ، كانت تينة تسبقهم قليـلا وتفتح الكيس الذي تحمله دون أن تتوقف عن النشيد • فتضع فيه ربــة البيت التي خرجت لاستقبالهم الهبة التي تجود بها نفسها ، ثــم يصب أهل البيت دلوا من الماء على الفزاعة ، فيكمل الاولاد نشيدهم •

ـ هكذا نريد المطر يا ربنا •

أمطر علينا مطرا يا ربنا أمطر علينا •

ولا يبالي الاطفال بتبلل ثيابهم التي سرعان ما تجف قبل أن يصلوا الى البيت التالي لشدة الحرارة • وكان الاولاد يزيدون كلما انتقلوا مــن بيت الى آخر • وتنظر النسوة نحو السماء لعل الله قد استجاب لدعــاء الاطفال •• وتظهر بعض الغيوم العالية ، ولكنها تمر دون ان تمطر •

ويوما بعد يوم أخذ الناس يغوصون في لجة اليأس • ولم تعد حتــى الكلاب تنبح في القرية •

هو « القحط » ••• « القحط ! » هكذا يردد الناس • ورغم ترداد هــذه الكلمة مئات المرات كل يوم في القرية ، كان لها في كل مرة نغمة مختلفــة تقشعر لها الابدان •• وبدأت دوسارا تفكر : هل سيبقى أحد حتى الشتاء يستطيع دفننا اذا متنا ؟•

كانت العادة قد جرت ان تملأ حفلات الزفاف القرية كل خريف ، وأن يتوافد الضيوف من كل مكان • أما في هذا العام ، فلم يفكر أحد في الــزواج حتى مجرد تفكير • ولم تعد روائح الفطائر واللحم المشوي والخمرة المهربة تفوح من البيوت •• ورغم ان السيل كان يندفع في وادي القريــة محدثــا جلبة كبيرة ، فلم يستفد منه أهل القرية فائدة تذكر •• يقولون أن البلاشفة سيجرون مياه نهري باخسان وتيرك الى السهول • ولكن من الذي سيعيشــ ليرى ذلك اليوم يا ترى ! •

كان أحدهم اذا ذهب ليعمل خارج القرية واستطاع ان يشتري بعضــ القمح ، او حصل على بعض الذرة الصفراء من حقول البراري البعيــدة ، يخفيه جيدا لموسم الشتاء •• ورغم سوء الموسم أصر دولت علــى جمــع

أموال الزكاة لصالح صندوق الضمان الاجتماعي • ولكن استيمر لم يوافق على ذلك • ولم يجرؤ ان يحمل على عاتقه مسؤولية مطالبة الناس • فمن الممكن أن يهجم عليك أولئك الذين يخشون الموت جوعا ويضربوك •

ـ لقد تصادف مشروع مدرستك الابتدائية مع أسوأ المواسم التي رأيناها • ـ تقول دومسارا شاكية ـ لماذا لا تبدأ بالتعليم ، فذلك سيلهي الاولاد الجياع على أية حال •

ـ سأبدأ فور اعفائي من رئاسة سوفييت القرية • هل أعطيت « لو » زوادة اليوم ؟

ـ أعطيته رغيفا وقطعة جبن • والا فكيف يستطيع المسكين أن يرعى بالحصان طوال النهار ؟ ولكنني لا أعرف ماذا سأعطيه غدا •

ولم يعرف أستيمر ايضا كيف يستطيع أن يدبر طعام الاولاد •

ـ يا الهي ، يا الهي الكبير • ارحم أمة الاسلام • يبدو انك كرهتنا معشر البشر يا الهي •لماذا لا تقبض روحي الى عرشك وتأخذني اليك •• لم أكن أريد أن أرى هذه الايام التي لا يجد الرجال فيها خيلا للركوب ، ولا يجد الاطفال رغيفا من الخبز •• ـ قالت الجدة قانطة •

وفي اليوم التالي أحضر أستيمر ستة أكياس من عرانيس الذرة الصفراء غير المفروطة ، في عربة يجرها حصان واحد • وأخذت الجدة ودومسارا تنظران الى أستيمر تارة والى الاكياس تارة أخرى وقد عقدت الدهشة لسانيهما ، غير مصدقتين أن كل هذه الكمية من الذرة قد صارت بحوزتهم •• ولم يبد على أستيمر ما يدل على أنه سعيد بذلك كثيرا • وأخذ ينقل أكياس الذرة بمساعدة أحمد العامل الجديد عند موسى الى داخل البيت دون أن يقول شيئا • وكان « لو » قد عاد للتو فارسا ، فترجل وأخذ يجمع حبات الذرة التي تساقطت على الارض •

ـ اذا زدتم عليها الكمية التي تنقصها ، ستكفيكم طوال فصل الشتاء • ـ قال أحمد مازحا • ـ أقسم أنك قمت بصفقة رابحة • لو كان واحدا آخر غيرك لم يكن ليدفع له أكثر من ثلاثة أكياس •

ـ ما الذي بعته لموسى يا أبي ؟ ـ سأل « لو » •

ولم يجب أستيمر ، بينما تابع أحمد ثرثرته :

ـ ما أسعد من يملك ما يكفي لطعامه حتى الربيع القادم • أنا كما ترون لا أملك ما تطعم به عصفورا • فكيف سأدبر أمر اولادي ؟

ـ لست وحدك في ذلك يا أحمد ـ قالت دومسارا ـ لن ينسانا الله من رحمته •

ـ ليس من السهل والله أن تبيع حصانا كهذا • ولكن ما العمل ! وكيف تطعم حصانا وأنت لا تجد ما تأكله ! ايه ، الفقر يدفع الانسان الى فعل كل

شيء ٠ اذا لم يكن عندك حصان ، فسيان أكنت في خدمة لينين أم في خدمة الملك ٠ لن يكون لك أي تأثير ٠ ما فائدتي أنا مثلا ! لا حصان عندي ، ولا حتى ثور ٠ وأنت أيضا يا أستيمر ٠ عندما تنتهي هذه الكمية من الذرة ، ستغدو مثلي تماما ٠ ماذا يريد أن يفعل موسى بكل هذه الكمية من الخيل التي يملكها ؟ ٠

ـ هل ستأخذ الحصان الآن ؟ ـ سأل أستيمر مقاطعا العامل الثرثار ٠

ـ لا ، أخبرني موسى انه سيأتي ليأخذه بنفسه ٠ لقد رأيت حصانك انه حصان نادر المثيل حقا ، يليق بفارس شركسي ٠ أظن أن اسمه « الابلق » ؟ ٠

ـ هذا الحصان هو كل ما نملكه ٠

وأصيب « لو » برعب لم يصب بمثله في حياته ٠ وكاد ينفجر باكيا بصوت عال لولا أنه لم يصدق أن ما سمعه قد حدث فعلا ٠ وامتلات عينا الصبي بالدموع وانطلق يجري الى الاسطبل ٠ وصهل الابلق عندما رآه ظانا أنه أحضر له شيئا يأكله ، ورفع رأسه عن المذود ٠ فعانقه « لو » ٠

ـ انه القحط أيها الابلق ٠ سيأخذونك الآن ٠ أتظن انك ما تزال لنا ؟ لقد باعوك لموسى ٠ لا تذهب يا أبلق هيا بنا نرحل ٠ اذا كنت حصانا فأنا رجل لا تدع موسى يمسك بك ٠

وأخذ الحصان يربت على يدي « لو » بشفتيه الطريتين ويشمهما وكأنه أدرك سبب بكائه ٠ وتساقطت دموع الولد غزيرة ٠

وتذكر « لو » اليوم الذي جاء فيه موسى عندما كان ستيبان ايليتش وأستيمر مختبئين وليس عندهما حصان ٠ آه ما أقسى الايام ٠٠ ! ماذا يريد موسى أن يفعل بالحصان ؟ ليس بلشفيا ولا من الفرسان ٠ أفضل ألف مرة أن يأتي جراسلان ويسرقه ٠ وفكر « لو » في تلك اللحظة بشيء عجيب ٠ سأذهب الى تينة وأرجو ان تخبر جراسلان ليأتي ويسرق الحصان من موسى بعد أن يأخذه ٠ لقد سبق لها والتقت به عند الجسر ٠ وقد تلتقي به ثانية ٠ آه لو التقى هو به ٠ كان سيشرح له كل شيء بشكل مفصل ٠

وغرق « لو » في أفكاره ، ولم يسمع عندما نادته دومسارا وتيمبوت ٠ وعندما عاد الى نفسه أخيرا ،سمع أصوات أحاديث في الخارج ،فهبط قلبه الى قدميه ، وخاصة عندما رأى موسى في الدار يحمل لجاما ٠ وقال في نفسه : لماذا لا أركبه وانطلق به الآن !

وبدا وجه موسى مليئا بالرضا ٠

ـ لقد بعتني اياه غاليا يا أستيمر ٠ ومع ذلك فلست نادما ٠ ـ واتجه نحو الاسطبل ٠

ـ هل يوجد أحد هنا ؟ من هذا ؟ أهذا أنت يا « لو » ؟ انظروا اليه كيف

يحب الحصان ! هذا جيد • يجب على الرجل أن يحب الحصان •
ــ وهل يوجد أحد لا يحب حصانا مثله ؟ ــ قالت دومسارا من ورائه •

وحدق « لو » في أمه بعينين جاحظتين وكأنه يستنجد بها للابقاء على الحصان ولكن دومسارا كانت في واد آخر •

ــ بارك الله لك به يا موسى • تعال الى هنا يا صغيري ولا تبك •
ــ بارك الله لكم بالذرة أيضا ، وأرجو أن تأكلوه بالهناء والعافية • خذ اللجام يا تيمبوت وأخرج الحصان من الاسطبل •

ومسحت دومسارا دموع « لو » وأنفه بطرف ثوبها وهي تقول :

ــ لا يمكن مقارنة الحصان بالذرة • وليست كل الخيل سواء • لولا الحاجة ما بعناه والله حتى لو بقي عندنا لآخر العمر • كم يساوي أن يوجد في دارك حصان مثل هذا ؟
ــ ان الانسان يفعل أي شيء للتغلب على القحط • أين أستيمر ؟•
ــ والله لا اعرف • ربما ذهب لانجاز بعض الاعمال • ان الرئاسة لا تعطيه مجالا للتنفس •
ــ سمعت أنه ينوي أن يترك رئاسة سوفييت القرية • هل هذا صحيح؟
ــ انني أسمع ذلك منك لاول مرة •
ــ هذا ما يقوله الناس • والله وحده هو الذي يعرف الحقيقة •

ورغم أن دومسارا أدعت انها تسمع ذلك للمرة الاولى ، فقد تناقشت مع أستيمر حول الموضوع منذ مدة طويلة •

ــ انهم يستشيرونك في كل شيء يا موسى • من الذي سيختارونه للرئاسة يا ترى ؟ انني لا أحسد ذلك الذي سيتحمل المسؤولية في مثل هذه الظروف الصعبة • ــ قالت دومسارا •

كان هنالك الكثير من الصحة في الخبر الذي سمعه موسى • ولكن أوان الحديث عن ذلك لم يحن بعد • وضع تيمبوت اللجام على رأس الحصان ليخرجه من الاسطبل ، ولكن الابلق لم يتحرك من مكانه •
ــ الامر كذلك دائما • عندما يفرض الله عليك أمرا ، يجب أن تتحمله• حلال المشاكل سيحل الموضوع • ان أستيمر لم يسيء الي •
ــ خذ الحصان اذا كنت تريده • ــ قال تيمبوت بصوت يكاد الدمع يخنقه ــ بارك الله لك فيه • ولكن لا تعتمد علي حين تريد أن تحدوه ، اعلم ذلك جيدا •
ــ عجبا ! ولكن لماذا ؟
ــ سترى لماذا • ــ قال تيمبوت وهو لا يكاد يقوى على كبح انفعاله •
وأخذ منه موسى طرف اللجام • ولما لم يتحرك الحصان من مكانه ،

سحب السوط من خاصرته وساط مؤخرته بقوة عدة مرات • فتحرك الحصان بعد ذلك وهو يصهل •

والتصق « لو » بأمه مغمض العينين لانه لم يستطع أن يتحمل المنظر، بينما اختبأ تيمبوت وراء الاسطبل مداريا دموعه •

وكان أستيمر يجلس تحت شجرة في مؤخرة البستان ، يستمع الى خرير الساقية التي تجري أمامه • لقد جلس في نفس المكان بعد أن تشاجر مع الحاج يونس يوم مولد « لو » • ولكن فرحته بالمولود الجديد يومها غطت على حزنه •

وتأثرت الجدة أيضا بسبب الحصان ولم تعد تستطيع الوقوف فاستندت على الباب باحدى يديها ، وأخذت تمسح دموعها باليد الاخرى •

ورأى « لو » الذي أرسلته أمه للبحث عن أبيه استيمر جالسا بجانب الساقية • كان يجلس القرفصاء مستندا بظهره على جذع شجرة • ويبدو أنه لم يسمع ما قاله ابنه • فكرر ثانية :

ــ كان موسى عندنا •

وبقي أستيمر غارقا في افكاره ، بينما ردد « لو » وهو يكاد ينفجر باكيا من جديد :

ــ لقد أخذوا الحصان •

واستمرت الساقية في جريانها • وخشخشت بعض أوراق الاشجار •

ــ تعال الي يا صغيري ولا تبك • سنشتري حصانا فيما بعد • سنشتري حصانا جميلا جدا •

ونظر « لو » الى أبيه معاتبا ، فرأى عينيه مليئتين بالدمع • « ان أبي أيضا يبكي » قال في نفسه ، وارتمى في حضنه ، وبقي الاثنان صامتين بعض الوقت : ثم قال « لو » شاكيا :

ــ لقد ضرب موسى الحصان بالسوط •

ــ وماذا في ذلك ، انه حصانه الان •• لا تقلق من أجل ذلك على أية حال ، سأطلب منه أن لا يضربه ثانية •

ــ لماذا يا ابي تبيع كل ما عندنا ولا تشتري شيئا ؟

ــ لا أدري يا « لو » •

ــ ان الجدة هي التي تقول ذلك•أصحيح أنك ستشتري حصانا آخر يا أبي ؟

ــ هذا ضروري جدا •

ــ لماذا لا تشتري حصانا عندما تذهب الى نالتشك ؟• وتلك التي احضرتموها على اكتافكم ، الا تساوي حصانا ؟

ـ ما الذي تتحدث عنــه ؟
ـ أنسيت السلطة التي أحضرتموها على أكتافكم !
ـ آه ، لا تستعجل الامور يا « لو » . سنجد ما نشتري به حصانــا . أليس كذلك ؟
ـ حسنــا .
ـ أتدري ما يقوله ستيبان ايليتش عنك وعن أخيك ؟ يقول ان أخاك يملك جسما قويا وأنه سيصبح حدادا ماهرا . أما أنت فلك جبين عـــال وستصبح عالما . لذلك يجب عليك أن تتعلم . هل فهمت معنـــى ذلك يـــا صغيري ؟
ـ وهل سأتعلم مع تينة ؟
ـ يبدو أنك صرت تعرفها جيدا .

وندم « لو » على تسرعه . كان قد فكر أن يخبر أباه بخطته حــــول جعل جراسلان يسرق الحصان من موسى ، ولكنه آثر أن يتريث ليبحـــث الموضوع مع تينة أولا .. سيلتقي بها غدا ، ومن الضروري أن يخبرها بكل ما حدث . وأخيرا قال وهو يرجو أباه .

ـ أبي ، اطلب من موسى أن لا يضرب الابلق ثانية .
ـ حسنا ، سأطلب منه ذلك .
ـ اذا خرجنا نتجول بالفزاعة ثانية وهطل المطر ، هل سيعيد موســى الحصان الينا ؟
ـ ان الكفيف يشدد قبضته على كل ما يمسك به ، وكذلك موسى . ـ قال أستيمر وهو ينظر بعينين محدقتين نحو الافق البعيد .

ولم ينتبه « لو » الى حلول الظلام . وبرزت الاشجار فجأة امام عينيه من عتمة الليل ، فبدت له كمجموعة من الفرسان يضعون البرانس عـــلى أكتافهم . وعندما أمعن النظر فيها خيل اليه أن الفرســان يضعون عـــلى رؤوسهم خوذات مدببة كخوذ النارتيين القدماء . ليت هؤلاء الفرســـان يذهبون الى موسى الآن ويستعيدون منه الحصان . لكنهم لم يتحركوا .
تابعت الساقية جريانها وهي تبعث خريرا خافتا لا يكاد يلحظ . وسمع « لو » أباه يغني بصوت خافت . وظن للوهلة الاولى ان الفرسان هم الذين يغنون ، واطمأن قلبه لانه يجلس بجانب والده . لقد سمع غناء امه ، وغناء الجدة من قبل ، لكنه لم يسمع أباه يغني أبدا . ثم انتبه الى أن الاغنيـــة هي احدى أغاني دومسارا . ان بلاتسة ايضا يحفظ هذه الاغنية ، وقـــد سمعه وهو يغنيها :
عندما يجلبون اناث الخيل من أرض الاعداء .
جبان ، من لا يستطيع تقديم العون ...
وتوقف ذهن الصبي عند هذا المقطع . وقفز ذهنه الى موســى . انـــه

هو الذي أخذ حصاننا • لكل رجل فرحته • ولا بد أن يأتي اليوم الذي يجرب فيه شجاعته هو أيضا •

وتابع أستيمر غناءه بصوت شجي حزين • واستمع اليه « لـو » مأخوذا • ان صوته أجمل من صوت بلاتسة الذي غنى هذه الاغنية نفسها يوم ذهب معه الى التلال البعيدة •

وأوشك « لو » أن ينام وهو يستمع الى غناء أبيه ، والى خرير المياه وحفيف أوراق الشجر ، وينظر الى النجوم في عتمة المساء • وفجأة سمع نداء دومسارا من جهة البيت •

ـ « لو » ! لماذا لا تعودان ؟

وقد نادت باسمه لانها لم ترد ان يسمعها أحد وهي تنادي باسم زوجها • فهذا غير لائق حسب التقاليد الشركسية التي كانت حريصة على مراعاتها •

## صعـود دولـت

باع أستيمر حصانه قبيل حلول فصل الخريف ليؤمن مؤونة الشتاء ، ولانه كان قد صمم على أن يصبح معلما • أما موسى ، فقد كان يشتري كل حصان يصادفه رغم العدد الكبير من الخيل التي يملكها ، ولا أحد يعرف ماذا ينوي أن يفعل بها •

أما أسحق العجوز فلم يكن يبيع ولا يشتري شيئا ،لانه لايملك مايبيعه، كما لا يملك ما يشتري به شيئا • ورغم ان حصته من أرض آل شردان التي وزعوها كانت لا بأس بها ، وقد تمسك بها عندما حاول موسى ان ينتزعها منه ، فزرعها واعتنى بها ، ولكن آماله تبددت بسبب الجفاف ، وبقي فقيرا معدما كما كان من قبل • ولم يكسب سوى عداء موسى الذي اشتكى عليه بسبب الثورين اللذين سرقا منه في نالتشك ، مدعيا بأنه باعهما • وكان من الصعب عليه اثبات براءته ، ولم يجد من يشهد معه سوى بلاتسة، ولكن موسى رفض شهادته مدعيا أنه من أنصار البلاشفة •

دولت لم يكن يعرف ماذا يريد بالضبط في هذه الايام • فشغل نفسه بفكرة استولت عليه وهي « تحويل الفقراء الى أغنياء » عن طريق صندوق الضمان الاجتماعي الذي يرأسه في القرية • وأخذ يجمع كل ما تصل اليه يده من ممتلكات الهاربين ويكدسها في بيت نورعلي الذي اتخذه مقرا له • وحين تجمعت لديه كمية من الذرة الصفراء ، خبأها جيدا ولم يعط منها شيئا لاحد •• وحزم أمره أخيرا حول موضوع الزكاة ، فأمر المنادي بأن ينطلق ويمر على كل بيوت القرية ليجمع كيلين من الذرة الصفراء او القمح او الذرة البيضاء عن كل فرد من أفراد الاسرة •

لم يكن في القرية كلها في ذلك الوقت من لا يصعب عليه دفع هذه الكمية وكان يرول يصادف في البيوت التي يدخلها الكلاب الضامرة التي لم تعد قادرة على النباح بسبب الجوع ، والابقار الهزيلة التي لا تجد كفايتها من العلف •

وكان المنادي العجوز يخرج من أكثر البيوت التي يدخلها دون أن يحصل على شـــيء .

ـ نحن لا نجد ما نأكله فكيف نعطيك ستة أكيال ! أظن أنك خرفت ايها المنادي ـ هكذا يصبح به بعضهم ـ اذا أعطيتك ستة أكيال فمعنـى ذلـك أننا ستموت قبل الاوان المحدد بستة أيام . أهذا ما تسعى اليه ؟ ! .

ويستاء يرول كثيرا حين يشتمونه بصفته الرسمية :

ـ ان السلطة السوفييتية لن تقبل أن تشتموني . والله سوف أذهب الى المدعي العام ، وأنا المسؤول بعد ذلك اذا لم يجروكم كالتيوس .

وعندما وصل يرول الى بيت الطبيبة تشاتشا ، ظن أنـــه يستطيع أن يخدعها ويحصل على كيلين عن كل رأس من رؤوس القطط التي تربيهـا . ولما حسب مجموع ما يريده عن القطط الاحدى عشر التي عندهـا ، كـادت تشاتشا تمزق أوصاله : وانبرت تقول :

ـ لماذا تعد القطط الصغيرة ؟ كان في دارها في ذلك الوقت خمسة عشـر قطة في الحقيقة ، ولو أن عددا منها يعود الى السيدة في الاصل ـ ألا تخجل ! خذ عن الام وهذا يكفيك ولا ترني وجهك بعد الآن .

وفي بيت موسى توقع يرول أن يحصل على شيء له قيمته ، ولكن موسى ايضا انتهره :

ـ خذ من الذين عندهم أطفال . ـ وقدم له عن نفسه وعن زوجته الحصة المقررة من اسوأ انواع الحبوب ـ أخذوا الارض وها هم يأتون طالبين الـذرة ألا تستحون ؟ ! .

وعاد المنادي في المساء وأخذ يكيل ما جمعه لدولت الذي انتظره طـوال النهار . وفي ذلك اليوم بالذات ذهب أستيمر الى ينال ليطلب اعفاءه مـن رئاسة سوفييت القرية .

ـ من الافضل والاجدى أن أصبح معلما . ـ قال أستيمر مؤكدا .

ـ والى من ستسلم منصبك ؟ الى تبوقة أم دولت أم موسى ؟ . لا . يجب أن تستمر حتى نجد البديل المناسب . علم الاولاد لا بأس عليك اذا تعبـت قليلا في هذه الايام ، فنحن أيضا لا نجد وقتا للراحة .

لكن ستيبان ايليتش وقف الى جانبه ودافع عنه فرجح كفته . ولم يبق الا ايجاد البديل المناسب . فاستعرضوا اسماء عدد كبير من الرجال في القرية واستقر الرأي أخيرا على دولت . ووعدهما أستيمر بأن يساعده ويراقـب أعماله . لو عرف دولت . لما وقف مضيعا وقته في كيالة الذرة .

ـ دولت ! •• أتسمعني ؟ •• دولت ! •• ـ ناداه أستيمر •

ـ ماذا تريد الآن ؟ ألا ترى أنني مشغول ! • أنا لا يوجد عندي وقت أضيعه مثل رؤوساء السوفياتات • أتظن أن مسؤولية الضمان الاجتماعي بسيطة مثل مسؤولياتك ؟ ان أهم عمل في الدولة بعد عمل المدعي العام هو الضمان الاجتماعي •

ـ أفهم من كلامك أنك ترغب في أن تكون رئيسا للقرية ! •

ـ لو أردت ذلك لصرت • كلمة واحدة من ينال تكفي لذلك •

ـ لماذا لا تصير اذن ؟ •

ـ وهل أنا عاطل عن العمل مثلك ؟ • اذا كنت لا تجد ما تفعله عليك أن تحصي عدد البراغيت التي في شعر كلبنا •

ورغم كل المحاولات لم ينجح أستيمر في اقناع دولت أن ينال يريد أن يراه حقا • وبعد بضعة أيام حين أرسل له ينال الشرطي قازجري يطلبه لمقابلته ، صدق الحكاية ، وذهب الى تالتشك وهو يفكح كعادته • وعاد في هيئة أخرى مختلفة تماما ، منفوشا كديك رومي ، وكأن السلطة السوفييتية لا تستطيع البقاء والاستمرار بدونه كما زعم للناس •

ـ لقد ألهم الله تعالى ينال والمتخان قازجري ، تفهما أخيرا أن أمثالي يندر وجودهم • ـ هكذا أخبر دولت الناس عن منصبه الجديد •

ولم يضيع دولت وقته • أما أستيمر فقد بدأ الاستعدادات لافتتاح مدرسة في القرية • وانتشر الخبر بسرعة بين الناس : « دولت صار عمدة »• لقد ذهبت مساعي بلاتسة لاستلام هذا المنصب هباء كما كانوا يؤكدون • ولم يكن الابتكار والخيال هو ما ينقص دولت • وأول ما فعله هو أن استبدل العلم الاحمر الصغير الذي اعتاد أن يرفعه فوق داره للدلالة على السماح باستقاء الماء من بئره ، بعلم أحمر كبير • وجمع نجاري القرية واصدر لهم التعليمات • وعين بتوقة كاتبا عنده لانه موضع ثقته • وفي اليوم التالي سمع أستيمر أن منصة خشبية تبنى في ساحة مقر سوفييت القرية • وعندما ذهب ليستطلع الامر ، رأى النجارين يبنون مكان المبنى القديم الذي اعتاد غومار أن يستعمله كسجن ، منصة عالية بعد أن أزالوا بقايا المبنى المتهدم

ـ ماهذا الذي تصنعونه ؟ ـ سأل أستيمر •

ـ اننا نبني منصة من أجل دولت •

ـ أقسم أنني لا أفهم شيئا • ماذا يريد أن يفعل بالمنصة ؟

ـ سيجد ما يفعله بها • لقد صار رئيسا للقرية ، ألا تعرف ؟ اذا أراد أن يسجن أحدا فسيحشره تحتها •أما هو فسيصعد عليها ليخطب في الناس•

ـ أين هو الآن ؟

ـ هناك •

ومن وراء نافذة مبنى العمدة القديم ، ظهر رأس دولت وعليه سيماء الغارق في تفكير عميق ٠

ـ ماذا تريد أن تفعل بهذه المنصة ، هل ستحملها على ظهرك ؟
ـ ولماذا أحملها على ظهري ٠ سأقف فوقها لاتكلم ، فهي منصة خطابة
ـ وهل هذا هو المهم الآن ! ٠
ـ انك لم تعد تفهم شيئا يا رجل ٠ أقول لك منصة خطابة ٠ ألا تعرف معنى منصة الخطابة ؟ ٠ سأشرح من فوقها ما يخفى على الناس ٠ وهل ما يجب شرحه للناس قليل في هذه الايام ؟ ألم تر تلك المنصة التي في ساحة سوق نالتشك ؟ ان ينال يتكلم من فوقها ،وأنا سأتكلم من فوق هذه المنصة٠ والله انها ما نحتاج اليه في هذه الايام ٠
ـ ما أريد أن أعرفه هو ماذا تنوي أن تقول للناس ؟
ـ سأشرح للجماهير القوانين والتعليمات الجديدة التي تصدرها السلطة وهل تعتبر ذلك عملا سهلا ؟ ٠

فكر أستيمر ، وقلب الامر على وجوهه فلم يجد فيما يفعله دولت وما قاله شيئا غير لائق فلزم الصمت ٠ ولما انتبه دولت الى لين أستيمر استرد شجاعته :

ـ عندما أخطب في الناس ، ستقف أنت أيضا الى جانبي فوق المنصة هل فهمت ؟ وسأستعرض أهل القرية وهم يمرون من أمام المنصة جماعات جماعات ، موزعين حسب الاحياء ٠ أترى الآن بماذا أفكر ! لقد عرف ينال وقازجري أخيرا من يختارانه لرئاسة القرية ٠ لماذا لم تبن أنت منصة لخطابة ؟ هل ظننت أن ذلك يغضب الله !هذا ما يدعم السلطة السوفييتية٠

كان من العبث مناقشة دولت في أمر كهذا ٠ فليذهب الى الجحيم ٠ قال أستيمر لنفسه وهو ينصرف ٠ ولكن دولت لم يظهر عليه أنه ينوي التوقف عن اصدار التعليمات والتبجح ٠

ـ سنقيم استعراضا يوم الجمعة القادمة ٠ ـ قال دولت لعدد من المسنين الذين وصلوا في هذه اللحظة ـ لا تنسوا ما أقوله لكم ٠ عندما تمرون من أمام المنصة ، سألقي عليكم أنا التحية ، وأنتم سترفعون أيديكم نحوي وترددون : « ورا » ٠ أحرصوا على أن تنطقوها بوضوح ، « ورا » أمام مندوب الزراعة الذي سيكون ضيفنا ٠ وقد يأتي المدعي العام نفسه ٠ سأنادي أنا بأعلى صوتي « سلام » وأنتم ترفعون أيديكم وترددون « ورا » هذه هي العادة ٠ لا تنسوا ذلك ٠ كم سأتعذب أنا حتى تصبحوا قادرين على التصرف بشكل لائق في المناسبات ٠
ـ الجميع أصبحوا لا هم لهم فجأة سوى اصدار التعليمات الينا ٠ حتى الاولاد لا يتركوننا وشأننا ، لم يعد أستيمر الآن يفكر بشيء آخر سوى

تعليم الاولاد ٠

ووجد دولت مناسبة أخرى للتعبير عن رأيه :

ـ وماذا يستطيع أستيمر أن يعلمهم ؟ لقد تعود على جمع الناس في بيته والثرثرة معهم ، ولن يزيد شيئا على ذلك في مدرسته ٠ فليثرثر ما طاب له ذلك ٠ أقسم أن كل ما يقوله من منسياتي ٠ ألست أنا أول من اكتشف أن يستيبان بلشفي ؟ ومن هو أول من تنبأ بقيام الثورة ؟ دولت ٠٠ ومن الذي لا يضع رأسه على وسادة في هذه الايام ليرتاح ، بحثا عن بذار الخريف من أجل الناس ؟ دولت ٠٠ ومن الذي يبني أحسن منصة للخطابة ؟ أنا ٠٠ ومن الذي رفع فوق داره علما أحمر لا مثيل له ؟ هو دولت أيضا ٠٠ ومن الذي يعمل لانقاذ الناس من المجاعة ؟ دولت ٠٠ سوف أراقب كيف تحرثون الارض للزراعة الخريفية ٠ قلتم نريد أرضا فأعطيناكم الارض بعد أن صادرناها من الاغنياء ٠ اذا لم تحرثوها جيدا فمعنى ذلك أن الداء قد استوطن في بطونكم ٠٠ ألا ترون كيف يعمل موسى ؟ لقد عزل قطعة الارض التي بقيت له ، ورفع عنها حمولة أربعين عربة من الحجارة ، وكاد يقضي على خيله وثيرانه ٠ أما أنتم فلا هم لكم سوى الشكوى والبكاء ٠ متى ستصبحون قادرين على الفهم ؟ ان الطيور تلتقط حبوب البذار التي تنثرونها في الارض ٠ أهكذا يكون البذار !

ـ أهذا كلام بالله عليك يادولت ! موسى عنده عشرة ثيران ، وخيله أكثر ٠ ويستطيع أن يستخدم من يشاء متى شاء ٠ وفوق كل هذا اشترى حصان الركوب الوحيد الذي يملكه أستيمر ٠ أما نحن فلا نملك ثيرانا ٠ وخيلنا لا يتنازل لصوص الخيل لسرقتها ٠ ومع ذلك فاننا نبذلُ كلَّ جهدنا ٠

ـ عجيب والله أمركم ٠ تبذلون كل جهدكم ! لو لم أكن مسؤولا من قبلُ عن الضمان الاجتماعي ربما صدقتكم ٠ أتظنون أنني أجهل طريقة عملكم ؟ أم تظنون أن السلطة السوفييتية نصبتني رئيسا هكذا ؟ ٠ أم تفكرون أنهم كلفوني بتوزيع الارض لانهم لم يجدوا شخصا آخر ٠٠ لو كنت روسيا ، ولله الحمد والشكر لانه لم يخلقني روسيا ، لاصبحت مدعيا عاما ٠ ان الدب لا يخاف من الخنزير البري كما يخاف ينال نفسه من المدعي العام ٠ والله لا يخاف ٠ أنا كما ترون ، شربت « الباخسمة » مع المدعي العام ٠ واعتبره قد صار من أصدقائي ٠ واذا ذهبتم اليه يوما لتقديم شكوى ضدي ، ستعرفون اذا صار صديقي أم لا ٠ أقسم أنه سيحشوكم بالفلفل في السجن لمدة ثلاثة أيام بلياليها ٠

ولما كان العجوز اسحق قد حصل على ثورين أخيرا عن طريق مصلحة الزراعة ، قال والفرحة بادية على وجهه :

ـ لا تنس يا دولت ، أن مصلحة الزراعة قد اصبحت الآن أهم من المدعي العام ٠

ووقف موسى يستمع الى النقاش دون أن يساهم فيه • لقد أعجبه كل ما قاله دولت ، وهو موافق عليه طالما أن الرئيس الجديد سيقف الى جانبه •

وقد أعجب موسى اكثر من أي شيء آخر بالقرار الجديد الذي اتخذه دولت منذ أيامه الاولى في رئاسة القرية ، والذي يقضي بزيادة حصة كل من يستغل أرضه جيدا ، وتقديم المزيد من الارض له • سيكون هو أول المستفيدين من هذا القرار بالتأكيد • لذلك لم يهتم بكل ما قاله اسحق حول مصلحة الزراعة •

لم يكن موسى يتصدى للتعبير عن آرائه أمام الناس • ولم الكلام ؟ طالما دولت يقول كل ما يريد هو قوله ! ما بقي هذا الرجل رئيسا للقرية لن يسوء طالعه • فهو لا يقوم بعمل دون مشورته • لذلك كان بالمقابل يمتدحه في كل مناسبة :

ـ انه يفهم في كل شيء • في الزراعة ، وفي تسيير أمور القرية • كما يفهم في أمور المحاكم والقوانين ••• اذا كانت أملاك آل شردان قد ذابت ، وانتهى آل قلشبي نهائيا • فعلى من تعتمد قبارديا في تأمين الغلال ؟ وماذا سيأكل الناس ؟ هل يمكن الاعتماد على ما ينتجه ذوو الفراء المهترئة هؤلاء ! •• اذا أردتم أن لا تسوء أمور القرية أكثر ، ولا تعم الفاقة ، علينا مساعدة دولت في أداء مهامه يا جماعة • انه رجل ليس كالرجال • وستعيش القرية في خير ما بقي رئيسا لنا • ألا ترون منصة الخطابة التي يبنيها ؟ لن يأتينا والله الا الخير من وراء هذه المنصة • ـ هذا ما كان موسى يردده في كل مناسبة •

واحتد النقاش بين أهالي قرية شعلمفوقة • فبعضهم يقول ان سلطة المدعي العام هي أعلى سلطة • بينما يقول آخرون ان مصلحة الزراعة هي التي بيدها كل شيء •• وأظهر آخرون تشوقهم لحضور الاستعراض يوم الجمعة •

وانتشر نبأ بناء منصة الخطابة في كل مكان • وفرح هو بذلك كثيرا • ولم تكن تلك فرحته الوحيدة في هذه الايام • فقد وجد مفتاح « صندوق الحكومة » في مكان ما من بيت نورعلي القديم الذي استخدمه مقرا للضمان الاجتماعي • وانتشر الخبر الجديد كالنار في الهشيم • ولم تعد شفتا دولت تنطبقان من شدة الفرح • والتقط موسى وجماعته النبأ الاخير وصاروا يقسمون الايمان المغلظة أن الخير سيعم القرية في ظل رئاسة دولت • « انظروا كيف وجد المفتاح بمجرد أن استلم الرئاسة ؟ أليست هذه بادرة تدل على الخير والبركة ؟ • ليحفظ الله لنا هذا الرجل » •

وهكذا بدأ دولت رئاسته للقرية ، وأخذ يتجول في شوارعها وهو يفكفك كعادته مطلقا الشتائم بصوت مرتفع ، مقسما الايمان أن له الحق بالتدخل في كل ما يحصل في القرية ، ويجب أن يكون له رأي مسموع فيه •• أماأستيمر فقد عمل بكل ما يملك من جهد وطاقة لافتتاح المدرسة في الموعد المحدد • ولم

يعد الناس يزورونه منذ الصباح الباكر كما تعودوا أن يفعلوا • كما أن الشرطي قازجري لم يعد يرابط أمام بابه لحراسته • وبعد أن باع حصانه الوحيد الذي حزن عليه « لو » أشد الحزن لم يعد له من شاغل سوى المدرسة ومع ذلك فمن المشكوك فيه أن يستطيع انجاز كل ما يجب انجازه في الموعد المقرر لافتتاح المدارس ، لان عليه أن يؤمن كل شيء • البناء والمقاعد والاقلام والدفاتر والكتب • ان خلق مدرسة من العدم وبجهد معلم واحد ليس سهلا على الاطلاق • ولكن أستيمر لم ييأس •

بدأ بالمبنى اولا • دار نورعلي ستكون المدرسة • ولكن يجب اصلاح كل شيء فيها • الجدران ، الطينة ، الارضية • كما يجب تغيير النوافذ والابواب التي تآكلت بفعل الزمن والتسوس • ولما كانت الدار قريبة من بيته فقد أخذ يعمل فيها ليل نهار • يساعد النجارين ويحثهم على الانجاز • ويشرف بنفسه على كل الاصلاحات •• أما نور علي صاحب الدار فانه الآن يداوم في سوق نالتشك • يبيع البصل والثوم والشوندر بضعف التسعيرة المقررة • واذا سأله أحد : « بكم ؟ » وانصرف دون أن يشتري منه ، يلحق بالرجل ويمسكه من كمه مهددا : « لماذا تسأل اذا لم تكن تريد أن تشتري ؟» فيخاف منه من لا يعرفه ويشتري منه •

وأخذ موسى يراقب عمل أستيمر متشككا في نجاحه •• يجب توسيع النوافذ الجديدة • فالمدرسة ينبغي أن تكون مضيئة وواسعة ، وأفضل من مبنى الكتاتيب • وترك أستيمر النجارين يعملون في البيت ، وذهب الى نالتشك ليؤمن المقاعد والكتبوالاقلام والدفاتر وغيرها من متطلبات المدرسة• اذا لم يساعده ستيبان على تأمينها ، من أين يحصل عليها • فهذه الاشياء لم تعرفها المنطقة من قبل •• وبالرغم من أن استيمر استغرق في هذه المهمة استغراقا كاملا ، ولم يوفر أي جهد ،ولم يترك جهة يمكن أن تساعده الا ولجأ اليها ، ومع ذلك فان العمل في منصة دولت كان يسير بشكل اسرع من مدرستـه •

## شجاعــة « لــو »

يجدر بنا أن نعود الى الوراء قليلا لاننا تجاوزنا بعض الاحداث الهامة التي لا غنى عن ذكرها •

بعد أن أطلقوا على « لو » لقب « سرج راعي الحصان » ، قام ببعض الاعمال التي تدل على الجرأة والشجاعة • وليس من اللائق أن نخفي ذلك • كانت دومسارا هي التي أطلقت عليه هذا اللقب اثر عودته الى البيت في اليوم الاول من رعيه للحصان منهكا ، ملقيا على ظهره كالسرج ، لا يحس به الحصان أكثر من احساسه بسرجه • وبعد ذلك اليوم اعتاد على حصانه شيئا

فشيئا . وبما أنه كان يقضي كل أيامه على ظهره لا يغادره ، خطر بباله أن يسلي نفسه . فبدأ يعزف عليه بينما ينطلق الحصان ليرعى في البراري على هواه .

وبعد فترة أخرى من الزمن ، جرب الوقوف على ظهر الحصان ، والعزف واقفا ، فأطربه ذلك وأخذ يرقص مع اللحن الذي يعزفه .. ولما كان قد تعلم صناعة الناي من بلاتسة ، صار يصنع أشكالا وقياسات متعددة من أغصان الصفصاف ، ويقف على ظهر الحصان ويعزف الالحان المختلفة ويرقص . وعندما سمعه الرعاة ، صاروا يجتمعون حوله ليتفرجوا على رقصاته ويستمعوا الى عزفة ، ووجدوا في ذلك تسلية كبيرة .

ورآه قازجري الشرطي ذات يوم فشجعه ، وأعطاه نايا جيد الصنع . فأجاد العزف عليه ، والرقص بساقيه الرفيعين فوق ظهر الحصان . أما الابلق فلم يكن يلقى بالا لما يفعله راكبه ، وانما يستمر في رعيه وكأن شيئا لا يحدث فوق ظهره .

واعتاد عليه الرعاة وأخذوا يتجمعون حوله كل يوم ويرجونه : « بالله عليك يا « لو » ارقص . هيا ارقص لنا قليلا » .

وذات يوم دخل الحصان بين قطيع من الابقار . ولما أخذ يعزف ويرقص كفت الابقار عن الرعي وأخذت تحدق فيه . أما العجول الكبيرة فقد تراكضت مذعورة . ولم يغضب الراعي من أجل ذلك .. ولما رآه يرول يوما وهو يرعى ببعض الابقار ، كاد يغشى عليه من الضحك . وأخذ يردد لكل من يراه : « انه مثل لاعب السيرك . مثل لاعب السيرك تماما وأمهر » . أرأيتم كيف تنصت اليه الابقار ؟ انها تحب الموسيقى أكثر من أي شيء اخر . هيا اعزف لنا قليلا يا « لو » يا سليل آل بوتش . انك متميز مثلهم تماما .

ـ ان الابلق يحب الموسيقى أيضا . ـ يقول « لو » وهو يحب أن يذكر مستمعيه بأنه يركب حصانا .

ـ هيا يا صغيري . يا ابن بوتش . اعزف على الناي ، انك ماهر أنت أيضا مثل أخيك تيمبوت . وعندما تعود مساء الى القرية ، دع الجميع يرون كيف أصبحت لاعب سيرك . أقسم أن بامكانك ان تتغلب على كل لاعبي السيرك . هيا ارقص لنا الآن رقصة وأنت تعزف .

وأطربه هذا المديح .

ـ عندما رأيتك تتسلق الحبل في بيت موسى ، عرفت انك ستصبح ماهرا ..

وهكذا بدأ « لو » العزف والرقص وسط جو من الاستحسان والتشجيع .

ـ اعزف ، اعزف يا « لو » أقسم أنك أمهر من كل لاعبي السيرك الذين رأيتهم في مدينة « بسة كوابة » .

ـ نسألك بالله يا « لو » أن تدخل القرية وأنت تعزف وترقص هكذا ـ قال الرعاة متوسلين .

ـ انظروا الى الابقار كيف تنصت اليه ! سبحان الله ، انها بكمــاء ولكنها تفهم • انها تفهم ـ قال يرول وهو ينظر الى الابقار المصغية لعزفه •

وفكر « لو » وهو ينظر الى الابقار المشدودة الى عزفه • لماذا لا أقودها ورائي الى الدار لتحلبها دومسارا ؟ ولكن الفكرة بدت له مستحيلة • مــن الافضل أن يدخل القرية وهو يعزف ويرقص على أية حال ، فقد تراه تينة وتنسي جوعه • وكان الرعــاة مثلــه أيضا ينسون جوعهــم وهــم يستمعون الى معزوفاته •

وفي مساء يوم من أيام الجمع ، كان الناس ما يزالون في الشوارع عندما عاد « لو » من المراعي وهو يعزف ويرقص على ظهر حصانه • فأخذ الجميع ينظرون اليه مندهشين • وأحب أن يبهرهم فوقف على رأسه فوق ظهــر الحصان وقطع مسافة لا بأس بها •

ومع مرور الايام أخذ الناس ينظرون اليه نظرتهم الى لاعب سيــرك • وحاول أولاد القرية تقليده ، ولكنهم لم ينجحوا سوى في الوقوع عن ظهــور خيلهم وايذاء أنفسهم • فازداد احترامهم له وتقديرهم لمواهبه • وصــاروا يعطونه الصدارة في ألعابهم وجلساتهم • وبدأ رعاة الماعز الصغار يقدمونــه عندما يشربون الحليب من ضرع الماعز مباشرة في المراعي • وصادقه حســن ابن بتوقة الذي كان يبعده من قبل وصار يسمح له أن يشرب الحليب مــن ضرع عنزته المفضلة •

ما أجمل شرب الحليب من ضرع الماعز مباشرة • لم يستطع « لو » أن ينجح في ذلك منذ اليوم الاول • ان الرقص فوق ظهر الحصان أسهل من شرب الحليب من ضرع الماعز • ومع ذلك فقد تجرأ عليه •

بعد أن يرتوي حسن من الحليب ، كان يمسك بقرني العنزة ، فيرقــد « لو » تحتها ووجهه الى الاعلى مقلدا صديقه •

ـ انتظر قليلا ـ يقول حسن ـ اذا كنت لن ترقص فوق ظهر الحصــان بعد أن تشرب الحليب فلن أسمح • ربما كنت تنوي أن تذهب بعد أن تشبع •

ـ والله سأرقص ـ يقول « لو » وهو يحلب الضرع مقابل فمه ، ولكــن خيوط الحليب تصب في عينه تارة ، وتارة أخرى في أنفه •

ـ ارفع رأسك يا أهبل ـ ينصحه الاولاد الذين يمسكون بالحصان •

ـ احلف أنك سترقص •

ـ ألم أقل أنني سأرقص • والله سأرقص الى المساء اذا أردتم •

وشيئا فشيئا اعتاد «لو» أن يرقد تحت العنزة ، ويعض لقمة من رغيفه ثم يشرب قليلا من الحليب ، هكذا حتى يشبع • وهل يوجد ما هو أمتع مــن ذلك !•• واعتادت العنزة على الاولاد ،فكانت تقف هادئة حتى يشبعوا منها • وفكر « لو » فيما بعد أن شرب الحليب بدون خبز أفضل ، ثم ان الرغيــف يمكن توفيره للحصان واذا أعدته الى البيت فهنالك من يأكله أيضا •

وصار « لو » بعد ذلك يرقد تحت العنزة ويشــرب الحليب مغمضــ العينين حتى يرتوي دون أن يمس الرغيف ·· وخطرت تينة بباله · ليتهــا ترضع معي الآن من الضرع المقابل · كان قد أعطاها كرته الحديدية البيضاء لتلعب بها ، ولم يندم على ذلك ·· وهو الآن يعود الى القرية كـل مســاء راقصا على ظهر الحصان ·· ولم يعد يستطيع أن يكف عــن ذلــك ، لان الناس اعتادوا على رقصاته ، وصاروا ينتظرون موعد عودته ليتفرجوا عليه ويقولون بمجرد ان يلمحوه : « بالله عليك ارقص لنا قليــلا يا « لــو » !· » فيبدأ بالرقص · وعندما يأوي الى فراشه ليلا ، كانت أفكاره تقفز الى تينة « هل رأتني اليوم يا ترى ؟ » وخيل اليه ذات يوم انها كانت تراقبه مــن فوق شجرة ·

وتقضي دوسارا معظم أيامها جالسـة تحـت أشجار البستان ترقع ملابس الاولاد ، أو تعيد تفصيلها لهم · ومن عادتها أن تغني في مثل هــذه الحالة بصوت خافت · ولكنها ، وبعد أن جرحت ساريمة في يوم عرسهــا ، كانت قد كفت عن الغناء · وما زال « لو » يذكر جيدا ما حل بساريمة ، ولكنه لم يتحدث عن ذلك لاحد قط · وعندما يسأل أحيانا : « ما معنــى كلمــة دكتور ؟ » تجيبه الجدة قائلة : ان الدكتور مثل المطهرين الذين يأتون مــن منطقة القوموق يقطعون كل شيء · واذا صادفهم ولد صغير فانهم يطهرونه ·· ولهذا كان « لو » يختبيء بمجرد أن يسمع كلمة « دكتور » ·· ومع ذلــك انتشرت أخبار رقصاته فوق ظهر الحصان وأصبح مشهورا في كل ارجــاء القريــة ·

وهكذا صار مفهوما لماذا حزن « لو » وبكى بكاء مرا عندما باع أبــوه الحصان وأخذه موسى من دراهم · ولم يكن وحده في ذلك ، انما حزن عليه كل أهل البيت بدءا من الجدة ·· وفي اليوم التالي لبيع الحصان ، عاد تيمبـوت من محل الحدادة ظهرا ومعه أسلان · ولما جلسوا للغداء ، بدت الاسرة كلهــا وكأنها في حداد على الابلق الذي لم يعد في الدار ·· صار بامكان « لــو » أن يحصل الآن على « زوادة » يأخذها معه بعد أن حصلوا على كمية من الــذرة الصفراء · ولكن الى أين يذهب ؟ واغرورقت عينا الطفل بالدمع ثانية ، ولم يستطع تناول غدائه ·

وزاد الطين بلة عندما سمعوا أن دولت سيأتي الى الاستعراض راكبـا الابلق · سيعيره اياه موسى بالتأكيد ، فهما صديقان حميمان هذه الايام ·

ولم يطق « لو » فكرة أن يرى دولت يركب حصانه ، فحزم أمره علــى الذهاب الى تينة للتتصل بجراسلان وتطلب منه أن يأتي في أسرع وقــت ويسرق الحصان ·

قبل غروب الشمس بقليل ، ذهب « لو » الى الجسر الذي على نهــر شعلمفوقة ووقف ينتظر هنا كمجيء تينة · فحسبما روت الفتاة ، كانت قد التقت بجراسلان تحت هذا الجسر · وقلق « لو » على تأخرها ·· ولكنه أيقن

أنها ستأتي ما دامت قد وعدته بالمجيء فلا ضير في الانتظار ٠
حل المساء وخيم الصمت ، وبدأت أعالي الجبال تغرق في العتمة شيئا فشيئا ٠ واختفت الغابة القريبة ، واحمر الشفق وكأن حريقا هائلا قد شب في كبد السماء وعم سكون لا يقطعه سوى خوار بعض الابقار بين حين وآخر٠
وقف « لو » داخل دغلة بالقرب من الساقية ، ينظر الى الماء الذي يجري دون ضجيج ، مستمتعا برطوبة الحشيش الاخضر وسط الجفاف المنتشر في كل مكان ٠
لم تأت تينة ، فجلس « لو » تحت شجرة صفصاف ينتظر ٠ وخطـــر بباله أن يصنع نايا من أعواد الصفصاف لكنه لا يحمل موسى ٠ وهكذا بقي جالسا ينتظر ،ثم داهمه النعاس فترة لا يدري طالت أم قصرت ، وأفاق على صوت رجلين ، أحدهما آدم الطحان ٠
قال الطحان معترضا :

ـ والله لا أدري ٠٠ اذا كنت مترددا في الذهاب ، فذلك لمصلحة جراسلان وليس لشيء آخر غير ذلك ٠ ستقول تينة لتشاتشا ان آدم قد جاء ٠وستذيع العجوز ذلك دون تردد ٠
ـ نبه على تينة أن لا تخبرها ، هكذا لن تعرف العجوز بذهابك ـ قـــال الصوت الآخر مجادلا ٠
ـ من المستحيل أن لا تعرف بذهابي ٠ وستسأل تينة : ما الذي كان يريد آدم ؟ فتقول جاء ليطلب الصندوق الصغير ٠٠ وما هو هذا الصندوق الصغير؟ ٠٠ أرأيت يا حمزة كيف ستجري الامور ! من المستحيل أن لا تعرف تشاتشا ماذا كنت أريد ٠ وهكذا سأضر جراسلان أكثر مما أنفعه ٠

ـ يا الهي ما أجبنك ! أظن أن السيل كاد يهدم مطحنتك لهذا السبب٠
ـ ليتها تهدمت ، لكان ذلك أفضل من أن ينكسر حجر الرحى ٠ ثم من الذي يحتاج الى المطحنة في هذه الايام ؟ والله لقد مضى اسبوع على آخـر زبون طحنت له ٠ جاءني بعض الرسل من جراسلان قبلك ، ولكن ليس مـن اجل الطحين ، وانما لامور أخرى ٠ وفقه الله ٠ اذا لم يعد جراسلان الامور الى نصابها فمن الذي سيحل كل هذه المشاكل التي عقدوها يوما بعد يوم ؟ اذا بقيت الامور بيد دولت فقد انتهينا ٠ سوف نموت من الجوع والله ٠٠ اذا لم ينجح جراسلان في قباردیا أرجو أن يكتب له النجاح عند الاسيتيين ٠
ـ كفى قال حمزة مقاطعا ـ اسمعني جيدا ٠ سيأتي جراسلان الليلة الى قرية « بسأة » وسيتوجه من الغد الى الاسيتين ٠ لذلـك مـن الضروري أن أحصل على الصندوق الصغير الآن ٠ فاذهب بدون ثرثرة ، وأحضر الصندوق بمعرفة تشاتشا او بدون معرفتها أفهمت !٠
ـ وهل تعرف الفتاة الصغيرة مكان الصندوق ؟ ٠
ـ لا بد أنها تعرف ٠ أنه بجانب حقيبة قديمة تحت السرير ٠ أخبرهـا

بذلك وستعرف مكانه ٠ لن أذهب بدون الاعشاب الطبية التي في الصندوق ٠ هيا ، لا تؤخرني أكثر من ذلك ، ان جريحا بانتظاري ٠ دع الفتاة الصغيرة تحضره الى هنا ٠ أفهمت ؟

ـ دون أن أعود أنا ؟
ـ قد يشكون في الامر اذا عدت ٠
ـ وما العمل اذا لم أجد الصغيرة ولا تشاتشا ! ٠
ـ لا بد أن تجدها أيها اللعين ٠ ثم افرض أنك لم تجدها ، هل من الصعب ايجاد الصندوق ؟ عليك أن توصل الصندوق الي مهما كلف الامر ٠
ـ واذا حدث شيء ولم نستطع أن نلتقي الليلة ثانية ؟ ٠
ـ آه ما أغباك ! أقسم أنني سأجعلك تحرث الارض بأنفك ٠ اذا لم نلتق ، خذ أنت الصندوق بنفسك الى قرية « بسأة » الليلة ٠ واقصد رأسا بيت آل الامام ٠ هل تعرفهم ؟

ـ كنت أعرفهم ٠
ـ ها قد اتفقنا أخيرا ٠ ولكن اياك أن تتهرب وتختفي ، والا أنت تعرف ماذا سيحل بك ٠ هل زوجتك في البيت ؟ وهل أخبرتها انك جئت الى هنا ؟
ـ وهل أنا مجنون لاخبرها ؟ والله لم أخبرها ٠
ـ من يدري ٠ أنت لا تكره الكلام كثيرا ٠ هيا اسرع الآن ٠ ونبه الصغيرة الى أن تدور حول المكان اذا صادفت أحدا ٠ اذا عرف أحد بما قلته لك سأستل روحك بيدي ٠ ولا تنس مكان اللقاء البديل ٠ قرية « بسأة » بيت آل الامام ٠

كان « لو » ولدا ذكيا ، ففهم أهمية الحديث الذي سمعه بالصدفة ٠ وعرف انه اكتشف سرا خطيرا ، وتجمد في مكانه من الخوف ٠ ما هو الصندوق الصغير الذي تحدثا عنه يا ترى ؟ وتذكر أخيرا كيف أوصت السيدة به تينة يوم رحيلها ٠

وعندما انصرف الطحان ، اختفى حمزة أيضا في مكان ما ٠ ولكن الطحان عاد مترددا :

ـ حمزة ! أتسمعني ؟
ـ لماذا تصيح أيها الغبي ، أخذك الوباء !
ـ ان الصغيرة قادمة الى هنا ٠
ـ تينة ؟
ـ طبعا ، انها هي ٠ انظر !٠
ـ والله انها هي بعينها ٠ الى أين تذهب في مثل هذا الوقت ؟

ولم يكن أحد يعلم الى أين تذهب في هذه اللحظة سوى « لو » فخاف الولد وارتبك ، وأوشك أن يصيح قائلا : « انها قادمة الي » ولكن لسانه انعقد من شدة الخوف ٠

ـ الم تعرفيني يا تينة ؟ ـ سأل حمزة ٠

وقالت تينة شيئا ، ولكن يبدو انها ردت خائفة مرتبكة فلم يفهم «لو» ما قالته ٠

ـ أخبريني دون أن تخافي ٠ هل اساء اليك أحد ؟٠
وسمع « لو » كلام تينة الذي يشبه الهمس ولكنه لم يفهم شيئا ٠
ـ الى أين كنت ذاهبة ؟ أخبريني ولا تخافي شيئا ٠

وانصرف الرجلان مع الصغيرة وهم يتكلمون بهدوء ، واختفى صوتهم تدريجيا ، ثم ضاعت هياكلهم في عتمة الليل ٠

واستجمع « لو » شجاعته ٠ ما الذي ينبغي أن يفعله الآن ، والى من يذهب ليخبره بسره ٠٠ ولكن قد يأخذون الفتاة معهم الى قرية « بسأة » بيت آل الامام ٠ وماذا عن الصندوق الصغير ٠٠؟ وخطر بباله في هذه اللحظة خاطر وقف له شعر رأسه ٠ ماذا اذا أخبرتهم الفتاة انها كانت قادمة للقاء « لو » ؟ من هو « لو » هذا ؟ ٠ وأين هو ؟ اهو تحت الجسر ام في الدغلة القريبة ؟ هيا أرينا أين هو !

كان هذا واردا جدا ٠ وخرج « لو » من مخبئه بحذر شديد ، وصعد المرتفع ، لكنه لم ير أحدا ٠ معنى ذلك أن تينة لم تخبرهم بشيء عنه ٠ وركض ليتبع الجماعة عن قرب ، وليعرف الى أين يأخذون تينة ، فرأى الثلاثة متجهين صوب بيت جراسلان ٠ وعندما حاذى « لو » الدغلة الكثيفة من الاشجار في مجرى الوادي داخل القرية ، انتبه الى أن بين الاشجار عددا من الفرسان ، لا يقل عن فارسين ٠ لا بد أنهم رفاق حمزة وشعر « لو » بالخوف من جديد ٠

لقد اختاروا وقتا مناسبا للمجيء الى القرية ٠ فبعد الغروب ينشغل كل أهل القرية في أمور مواشيهم ٠٠ ولم يعد « لو » يفكر في هذه اللحظة سوى بانقاذ تينة من هؤلاء الرجال ٠ وأول ما توارد الى ذهنه ، هو الذهاب الى قازجري واخباره بكل شيء وهو سيجد طريقة ما لانقاذها ٠ فانطلق اليه راكضا ٠

ولحسن حظ « لو » التقى به أمام دارهم ، فالتفت خلفه ، ولما لم ير أحدا يلحق به ، بدأ يقص عليه ما رأى وما سمع وقد زال عنه الخوف ٠

لم يفهم قازجري الموضوع لاول وهلة لان الولد لم يستطع ان يرتب افكاره ٠ ان جراسلان في قرية « بسأة » وسيأخذون تينة الى هناك ٠ ويجب اخبار أستيمر ودولت بذلك في أسرع وقت ٠ ويستحسن اعلام ينال نفسه بالموضوع ٠ وكلما أعاد « لو » رواية ما سمعه ، كان يضيف شيئا جديدا ٠ ولم يكن في الوقت متسع ، وأخذ الولد يرجوه العمل بسرعة لانقاذ تينة ٠

وعندما وصل الخبر الى أستيمر ، عرف مباشرة ما ينبغي عمله ٠

ـ أحسنت لانك لم تذهب الى دولت ٠ هل فهمت ؟

ـ نعم فهمت ٠

ـ هيا اذن الى نالتشك ، اذهب بأقصر طريق وادخل على ينال مباشرة وأخبره ٠

ـ وأنت ؟

ـ سأذهب أنا نحو بيت جراسلان لاراقبهم ٠ لماذا يحصل ذلك بعد أن بعت الحصان ؟

ـ يا الهي ! متى سنرتاح من كل هذا ؟ لا يمضي يوم الا وتأتي معه مشاكل جديدة ـ قالت دومسارا بصوت شاك ـ لقد فرحت عندما قررت أن تصبح معلما ظنا مني أنك ستترك هذه الاشياء ٠ لماذا لا تهدأ في بيتك وتربي أولادك ٠ انهم يستطيعون ان يمسكوا بجراسلان بدونك ٠

وأخذ أستيمر يمسح بندقيته دون أن يناقش زوجته ٠

ـ هيا يا صغيري ، نم أنت ٠ ـ قال أستيمر لولده الاصغر ٠

ـ هل ستحرر تينة منهم ؟ ـ سأله « لو » ٠

ـ دون شك ، سيصل يلدار بعد قليل ومعه قازجري ، وسنذهب جميعا معا ٠ وأنا المسؤول بعد ذلك اذا لم احررها ٠

وهدأ « لو » ولكنه لم يستطع النوم ٠ وقال لنفسه « ليتهم يأخذونني أنا أيضا معهم » انه يستطيع ركوب الخيل ٠ ولكن ما العمل وليس عنده حصان الآن ٠٠ واخذت دومسارا تؤنبه مغمغمة وهي تنجز بعض اعمالها المنزلية ٠ ورقد « لو » يستمع الى غناء الجدة الحزين الخافت ٠ كانت عيناه مغمضتين ، ولكن النوم لم يعرف طريقه اليهما من يدري بماذا يفكر الولد الآن ؟ فقد عاش اليوم أحداثا هامة ٠

# الفصل الرابع

## ايام عصيبة

تناقل الناس انباء العرس الذي تحول الى مأتم ، لكن الايام كانت عصيبة ؛ فالخارجون على القانون يقتحمون البيوت ليلا ويسرقون الخيل والماشية ومؤونة الشتاء • ولا يمر يوم دون أن يحدث شيء جديد يغطي على ما سبقه •

وجاء عدد كبير من أهالي قرية شعلمفوقة الى محل الحدادة طالبين من تيمبوت وأسلان صنع أقفال كبيرة كالقفل الذي يملكه موسى • ولكن أنى لحدادين مبتدئين أن يستطيعا صنع أقفال كهذه • أما الذين ما زالت بحوزتهم بعض الخيل الجيدة ، فكانوا يخبئونها في أقبية تحت الارض •

وما أن يحل الليل حتى ينتشر الحراس من أهالي القرية المتطوعين مناوبة • ولكن هؤلاء الحراس لم يكونوا يحملون سوى الخناجر والفؤوس• أما اللصوص فهم مزودون بالاسلحة النارية ومن العبث مجابهتهم • وبعد أن قتل عدد من الحراس في حوادث متفرقة ، صاروا يختبئون منهم عندما يأتون •

وعندما يذهب أستيمر الى المدينة لحضور الاجتماعات الحزبية ، كان يتأخر الى ما بعد منتصفات الليالي ، ولا تستطيع دومسارا النوم من شدة قلقها عليه •• لم يكن في شعلمفوقة في تلك الايام سوى ثلاثة حزبيين ، لذلك كانوا يضطرون للذهاب الى نالتشك لحضور اجتماعات الفرقة الحزبية للمدرسة الشعبية التي ينتمون اليها • وكان ستيبان ايليتش هو سكرتير فرقتهم • فيذهب الثلاثة معا • أستيمر ودولت وبلاتسة • وقد أحب دولت حضور هذه الاجتماعات لانه وجد فيها ميدانا واسعا للنقاش المحبب الى نفسه • أما بلاتسة ، فكان أستيمر يصطحبه معه أحيانا لادخاله الى الحزب •

ورغم أنهم وجدوا أحد أعز اصدقاء ينال وهو أخو الحاج عمر قرهشاي قتيلا بين نالتشك وقرية شعلمفوقة ، فان استيمر لم يخف ، ولم ينقطع يوما عن حضور الاجتماعات الحزبية ٠

كان أعداء الثورة الفارون يبحثون عن الشيوعيين ويترصدونهم ، ويقتلونهم حين يتمكنون منهم فرادى ويمثلون بهم ٠ ويشيعون أن دم البلشفي يشفي من مرض السل اذا اغتسل به المريض ٠٠ وأشيع بأن هنالك من رأى جماعة من أعداء الثورة يتوضؤون بدم انساني ، هو دم بعض البلاشفة بالتأكيد ٠

وكثر عدد الفارين في الغابات وفي كل مكان ٠ فكل نبلاء قبارديا وامراؤها والضباط وأتباعهم فارون الآن ٠ وفي المساجد كان الائمة يفتون بأن تقديم الطعام والمأوى لهؤلاء فيه ثواب كبير ، ويحثون المصلين على ذلك ٠

وهكذا لم تكن الحرب الاهلية الطاحنة قد وضعت أوزارها في الوطن بعد ٠ فطلقات الرصاص توقظ الناس كل ليلة ٠ وكل من يخرج للعمل في البراري ، كان يحرص على العودة الى بيته قبل حلول الظلام ٠ وعندما يعود أستيمر الى بيته بعد منتصفات الليالي ، لم يكن يحمل من سلاح سوى عصا ، أو قطعة خشب التقطها من سوق نالتشك ٠ وذات ليلة صادف بعض اللصوص وهم ينشرون الدقر الخشبي لاحدى البوابات في القرية ، فاقترب منهم واختبأ في خندق وصاح بهم : « هيه ٠٠! الحراس يحيطون بكم مسلحين بالبنادق ! » فخاف اللصوص وهربوا ٠

وعندما ذهب في الصباح الى دار آل « لافش » رأى أن اللصوص كانوا على وشك فتح البوابة لسرقة الحصانين اللذين كانا مربوطين بمؤخرة العربة في باحة الدار ، يأكلان من كومة الحشيش التي في العربة ٠ وكافأه لافش الجد بخروف صغير مذبوح ٠

وكرهت دومسارا انتظار استيمر كل ليلة تقريبا قلقة خائفة ، ولكنها لم تستطع أن تفعل شيئا حيال ذلك ٠

ـ يقولون في المسجد أنكم ستجمعون الاولاد وتدرسونهم بكتب روسية٠ هل هذا صحيح ؟ ـ سألت دومسارا ٠

وترددت دومسارا نتيجة لهذه الاقاويل في ارسال « لو » الى المدرسة ٠ وفضلت أن ترسله الى الكتاتيب حيث يعلمون الصغار القرآن ويوجهونهم الى محبة الله ٠ ووافقت الجدة على ذلك ٠ فهو في هذه الحالة يستطيع أن يقرأ القرآن على روحها عندما تموت على الاقل ٠

وسواء ذهب الاولاد الى المدرسة أم الى الكتاتيب ، فان دومسارا كانت تفضل أن يصبح أستيمر معلما ٠ وبعد أن تناقشا طويلا حول ذلك رقدا في الفراش ، ولكنهما لم يناما ٠ فأستيمر بكامل ملابسه ، وهو على استعداد للانطلاق بمجرد وصول يلدار ٠ وبندقيته نظيفة وجيوبه مليئة

بالطلقات التي عدها قبل أن يرقد ليرتاح قليلا • ومسدسه كذلك نظيف يلمع•

ـ اذا كانت الارض مدورة كهذه الكرة التي أحضرتها من عند ستيبان ايليتش ، فكيف لا تسيل مياه البحار في الفضاء ! والله لا أصدق ذلك • ـ قالت دومسارا جادة •

ولم يجب أستيمر بشيء •

ـ تقول ان الارض مدورة • ولكن نورعلي أخبرني أن الارض لا نهاية لها • اينما ذهبت ، فهنالك أرض •• والله ان أحدا لن يصدقك • ـ كررت دومسارا وكأنها تكلم نفسها •

ـ انك ما زلت بحاجة الى الكثير لتفهمي ذلك • ـ لكن دومسارا لم تقنع بهذا الجواب •

ـ أتعرف ما يقولون ؟

ـ وماذا يقولون أيضا !

ـ يقولون انك ستطعم الاولاد لحم خنزير • أهذا صحيح حقا ؟

ـ مجرد ثرثرة •

وأيقن أستيمر أن عملا كبيرا ما يزال بانتظاره • فالتعليم في مثل هذه الظروف ، ليس أسهل من رئاسة سوفييت القرية بشكل من الاشكال • وحتى يرسل الناس أولادهم الى المدرسة يجب أن يلمسوا الفائدة المباشرة التي يجنونها من وراء ذلك • ورغم أنه أعلن بدء الاكتتاب في المدرسة ، لم يسجل أي طفل الى الآن • حتى دومسارا وأمه ، ليستا راغبتين بتسجيل « لو » • وفي اللحظة التي قرر أن يفاتحها فيها في الموضوع ، سمع وقع حوافر جياد • واجفلت دومسارا وقامت ترتجف وكان حمى قد أصابتها فجأة •

ـ كان الله في عوننا •••

وسمعت الجدة الضجة ، فجلست في فراشها تردد الادعية •

ـ من هؤلاء الذين جاؤوا في منتصف الليل • اذا لم يكونوا من الكاديت فكل شيء يهون •

ـ قد يكون قازجري • ـ قال أستيمر مهدئا •

ـ ولماذا يأتي في مثل هذا الوقت ! ألا يوجد في القرية شباب أصغر منك سنا ؟ لماذا لا يتركوننا وشأننا •!

فقفز أستيمر من الفراش وأخذ يربط حزام المسدس حول خاصرته • واقترب وقع حوافر الجياد من الباب •

ـ أستيمر ! اخرج •

ـ انه ليس قازجري والله •

وخرج أستيمر ، بينما ركضت دومسارا الى النافذة ٠٠ فتحت البوابة ودخل عدد كبير من الفرسان ومعهم عربة ٠ وترجل أحد الفرسان ٠ ونبح الكلب الاشعث الكبير بضراوة ، بينما أخذت الخيل تنخر من أنوفها ٠

ـ هل شبعت نوما يا أستيمر ؟ هيا بنا اذن ٠ ـ قال الفارس الذي ترجل أمام الباب ٠

وهدأ الكلب عندما رأى رب البيت يستقبل الفرسان ٠

ـ انه يلدار ٠٠ ـ قالت دومسارا دون أن تغادر النافذة وهي تحاول تهدئة الجدة ٠ ولكنها هي نفسها كانت غارقة في هاوية اليأس ٠
ـ ان الصوت يشبه صوته كثيرا ـ ردت الجدة وهي غير مصدقة تماما ـ لكن ماذا يريد في مثل هذا الوقت

ولم تكن دومسارا تعرف ماذا يريد ، مثلما لا يعرف أستيمر لماذا لا تسيل مياه البحار من فوق الكرة الارضية الى الفضاء ٠

ـ كيف حالك يا أستيمر ٠
ـ بخير ، أشكرك ٠
وقدم له يلدار الحصان الرديف الذي معه ٠
ـ هذا هو حصانك ، انه ليس كالابلق جمالا ، ولكنه قوي ٠ اسمه « الجيلي » ٠

ـ حسنا ٠
ـ الله أعلم بمن الذي سماه بهذا الاسم ٠ من المؤكد أن « لو » نائم ٠
ـ انه يحلم الآن ٠
ـ يا له من ولد ممتاز ٠ ليتني رأيته ٠ لو كان صاحيا لطلب منا أن نصطحبه ٠
ـ لو رآنا لالح علينا أن نصحبه ٠ ـ قال قازجري وهو يقدم له لجام الحصان ٠

عندما وصل قازجري الى بيت ينال ، وجد المتخان وناشخوة عنده ٠ وكان الاخير قد وصلته انباء عن عزم جراسلان على التوجه الى منطقة الاسيتين ٠ فتأكد النبأ الآن من مصدر آخر ٠ ونظرا لضيق الوقت ، أصدروا الاوامر فورا الى الكتيبة الخاصة بقيادة يلدار ، فانطلقت نحو شعلمفوقة لاصطحاب أستيمر بالرغم من أن طريقهم لا يمر من هناك ٠

ـ هيا بنا ٠ ـ أصدر يلدار الامر بالانطلاق من جديد ٠

وأرخى أستيمر العنان لجواده فانطلق على الفور ٠ كان الفارس والحصان حذرين كلاهما من الاخر لانهما لم يتعارفا بعد ٠

وانطلق خلفهما الفرسان الذين يبلغ عددهم حوالي الخمسين ، بالاضافة الى عربتين من حملة الرشاشات • وكان في كل عربة بالاضافة الى الرشاش عجوز ذو لحية بيضاء ، احدهما يشبه الشيخ سعيد •

ـ أهو الشيخ سعيد ذاك الذي في العربة •

ـ انه هو بعينه والله • ـ ولكن أستيمر لم يستطع أن يفهم لماذا يجلس القاضي في عربة الرشاش •

وسار الفرسان في عتمة الليل صفوفا متلاحقة مؤلفة من ثلاثة فرسان• وأخذ الناس ينظرون اليهم من وراء النوافذ مذعورين بعد أن أفاقوا على الضجيج •

كان الفرسان يمشون بخطوات واسعة • وانتصب يلدار على ظهر حصانه في المقدمة ، أنيقا متناسقا وكأنه قد صب في قالب واحد مع الحصان• ولم يكن أستيمر الذي يسير بجانبه أقل منه هيبة ، فقد أمضى معظم حياته ناطورا فوق ظهور الخيل •

وعندما غادر الفرسان القرية ، زادوا من سرعتهم • من الواضح أن يلدار على عجلة من أمره • وعندما أطل القمر ، التفت أستيمر نحو الفرسان • فتبين له أن الكتيبة مؤلفة من أشجع الفرسان الذين ساندوا ينال منذ البداية ، ومن الحزبيين الاوائل ، بالاضافة الى عدد من عمال السكة الحديدية الاشداء • انها الكتيبة الشيوعية اذن التي لا يرسلونها الا لاخطر المهام وأدقها •

وكان يلدار يحب أن يصطحب معه أستيمر كلما خرج في مهمة من هذا النوع • لانه يثق به كما لا يثق بأي شخص آخر • عندما يذهب الشيوعيون الى معركة ، فليس هنالك أي عذر يمكن أن يؤخر أستيمر عن الذهاب معهم • وهو يعرف هذا جيدا •

سار الموكب وراء الفارسين • كان أستيمر ما يزال بانتظار جواب السؤال الذي طرحه على يلدار منذ قليل • أما الاخير فكان غارقا في أفكاره • ان المهمة التي عليه أن ينجزها الليلة ليست سهلة • وهنالك احتمال بأن لا يعود واحد من كل هؤلاء الفرسان الذين يقودهم حيا • انه مسلح بشكل جيد • خنجر شركسي ، ومسدس من نوع « كولت » وبندقية معلقة بجانب سرج الحصان • وتلك عادته دائما في حمل أسلحة شخصية جيدة كلما خرج في مهمة من هذا النوع •

تابع الفرسان طريقهم بخطوات واسعة • وتخرت الخيل من أنوفها • وغاب القمر وراء الغيوم السوداء ثانية فعم الظلام من جديد • وزكمت رائحة عرق الخيل أنوف الرجال • ومن الواضح أن الجميع معتادون على هذه الرائحة ما عدا العمال •

ـ لماذا يأتي سعيد معنا ، أليؤم بنا ؟ ـ كرر أستيمر سؤاله •

ـ كان قازجري ينوي المجيء معنا ، فغير رأيه في آخر لحظة وارسل الشيخ سعيد بدلا عنه ٠
ـ ومن هو الشيخ الآخر ؟
ـ أخو علي الامام ٠
ـ ومن هو علي الامام هذا ؟
ـ هو صاحب البيت الذي يستضيف جراسلان الليلة ٠ سنرسل الشيخين الى جراسلان أولا ليطلبا منه الاستسلام دون مقاومة ٠ فاذا نجح ذلك ، سنحصل على جراسلان حيا ٠ هل فهمت ؟٠
ـ أتظن أن جراسلان يمكن أن يستسلم بهذه السهولة ؟ والله انه ليس ذلك النوع من الرجال ٠٠ ليته يفعل ، لكنني لا أصدق ذلك ٠ وهل ينال على علم بهذه الخطة ؟
ـ طبعا ٠ لقد وجدت عنده قازجري وناشخوة عندما استدعاني ٠ وقد أعجب بالفكرة وأثنى على قازجري الذي اقترحها ٠
ـ ليته يستسلم ٠

وصمت يلدار ٠ لقد أمروه بأن يحضر جراسلان حيا مهما كلف الامر٠ ولم يعجبه ذلك كثيرا ٠ صحيح أن القبض على زعيم الخارجين على القانون مثل قطع رأس الافعى ٠ ولكن احضاره حيا لا يمكن دون التضحية بعدد من رجاله ٠ فلم هذه التضحية ! أنذره ، واذا لم يسلم نفسه ، اقتله وانتهى الامر ٠ ولما كان على يقين من أن الرصاصة التي أصابت ساريمة هي رصاصة واحد من هؤلاء الفارين ، فان قلبه مملوء حقدا عليهم ٠

ـ أترى هذا الحاج الذي معنا ٠ ان له ولدين فارين مع جراسلان ٠٠ يقول قازجري اننا سنستفيد من جراسلان عندما نقبض عليه حيا ٠ فعن طريقه سندفع الآخرين الى الاستسلام ٠ ذلك اللئيم ؟٠
ـ من الذي تشتمه الآن ؟
ـ جراسلان ٠ أتظن أن جرح ساريمة ليس من فعله ؟ انه هو أو أحد رجاله ٠ لقد كان في شعلمفوقة في ذلك الوقت ٠ ثم رحلت السيدة ٠ أتظن أن رحيلها كان بالصدفة ! سأجدع لك أنفي اذا لم يكن قد التقى بها ٠ وما رأيك بالذين زاروها قبل رحيلها ، متظاهرين بأنهم ينقلون الى دارها كميات من الذرة الصفراء ؟٠٠
ـ قد تكون على حق ٠
ـ ألا تعرف البنت الصغيرة التي تقيم في دارهم ؟
ـ وكيف لا أعرف تينة ٠
ـ انها تعرف كل شيء ، ولكنها مذعورة ، لقد هددوها بأن لا تفشي سرا ٠ ان اليوم هو اليوم المناسب لاثأر من أجل ساريمة ، ولكن ينال أمرني بأن القي عليه القبض حيا ٠٠ فما العمل ؟٠٠

ـ أنا معك تماما بأنه من صنع جراسلان • ولكن الاوامر هي الاوامر • اذا قبضنا على زعيم اللصوص ، لا أظن أنهم سيكتفون بالتربيت عـــلى رأسه •

ـ انك تمزح • سيقدم له قازجري وسادة ليجلس عليها •

ـ وهل يتركون تقرير مصيره لقازجري !•

ـ سترى • ـ قال يلدار ذلك وساط حصانه بلطف فزاد من سرعته •

ـ لماذا حقد عليك جراسلان كل هذا الحقد ؟ ـ سأله أستيمر وهو يلحق بـــه •

ورأى يلدار أن من الافضل أن لا يتكلم عن لقائه به في المقبرة فصمت•

كانت مهمة يلدار الليلة امتحانا صعبا له • فقبل أن ينطلق على رأس فرسانه ، اقترب منه قازجري وقال له : « خذ حذرك • لقد أمر ينـــال بأن تستلم منصب ناشخوة نهائيا اذا نجحت الليلة في احضار زعيم اللصوص حيا • أما اذا لم تنجح فالله وحده هو الذي يعلم ما سيحدث » •

وبعد مثل هذا الحديث ، لا يجوز أن تقتل جراسلان لمجرد ان تأخـــذ بثأرك • ولولا ذلك ، لما قبل يلدار بتنفيذ مثل هذه المهمة ومعه شيخ وحاج •

وبالرغم من أن الفكرة كانت من ابتكار قازجري ، فقد وافق عليها ينال بسرعة ، بل وسر بها • اذا استطاعوا ان يحضروا الزعيم حيا ، وأن يقنعوه بالعودة الى جادة الصواب ، فالقضاء على المتمردين يصبح سهلا ، وينتهي أمرهم بسهولة • واذا لم يقبل التعاون ، يستطيع ناشخوة أن يصدر عليه الحكم القانوني وينتهي أمره •

وتابع الفرسان مسيرتهم الليلية وهم يحثون خيلهم متجهين الـــى قرية « بسأة » •

## المســيرة الليليـــة

لما كانت الانهار قد فاضت بفعل ذوبان الثلـــوج ، وهطول بعض الامطار الموسمية في أعالي الجبال ، انشغل أستيمر بالكيفية التي يمكن أن يعبروا بها نهر باخسان • من الممكن تدبير عبور الفرسان بطريقة ما • ولكن ماذا عن العربات ! أما الذين يعيشون بالقرب من الانهار الكبيرة فلم يشعروا باي قلق حول ذلك • ها هو العامل فيودور ديبوك يخلع ملابسه تماما بعد أن بتلت وهو يبحث عن معبر داخل الماء • وعندما يخرج من النهر ، يلـــف نفسه بالبرنس •

وسمع صوت نباح كلاب من القرية القريبة • ثم سمع صوت اطـــلاق رصاص طغى على ضجيج النهر ونباح الكلاب •

ـ كفوا عن اطلاق النار ! ـ قال يلدار غاضبا ٠

لكن أحدا من أفراد الكتيبة لم يكن قد أطلق النار ٠ وصعد يلدار وصحبه مع مجرى النهر وهبطوا دون أن يجدون معبرا ٠وحين رأوا أثر بعض العربات، اتبعوا الاثر ، ولكنهم ما لبثوا ان فقدوه ٠ وأخيرا طلب منهم أستيمر أن يتبعوه ٠ وعاد الفارس الذي أرسلوه لاستطلاع سبب اطلاق النار : كـــان حراس القرية المجاورة قد رأوا كتيبة يلدار ، فأطلقوا النار صوبها ظنـــا منهم أنهم قطاع طرق ، ثم خافوا واختفوا ٠

ورغم أن أستيمر لم يكن متأكدا تماما من الطريق ، فقد خيل اليه أنه يتبع أثرا ما ٠ وعندما وصلوا الى مكان يضيق فيه مجرى النهر ، اشتـــد ضجيج الماء ، ولم يعد أحد يسمع شيئا ٠ وظهر القمر فرأوا امواج الميـــاه التي تتلاطم بعنف ٠

ـ قد يهطل المطر ، فالغيوم متلبدة في الشمال ٠٠ ـ قال يلدار ٠

ـ لقد تأكد لي أنها لن تمطر عندما وصلنا الى منطقة « يلغان » ٠

ـ وكيف ؟

ـ من صوت الماء ٠ اذا سمعت صوت النهر عند يلغان بنبرات واضحـة قصيرة فلن تمطر ٠ أما اذا كان صامتا ، ولا يحدث جلبة تذكر فانها ستمطر حتما ٠

اقترب يلدار وصحبه من ضفة النهر ، فأخذت الخيل تنخر من أنوفها وتلعب بآذانها ٠

ـ توقفوا ٠ ـ أصدر يلدار امرا ٠

سبق أستيمر ويلدار بقية الفرسان ثانية ٠ كانت الظلمة تلف الطريق والنهر ٠ ترجل أستيمر عن حصانه وأعطى عنان جواده ليلدار ٠ واقترب من الماء وحاول أن ينظر الى الضفة الاخرى من النهر ، فلم ير نهايـــة الماء ٠ وعندما قرفص على الارض رأى في الافق أطراف اشجار الغابة على الضفـة المقابلة ٠

وترجل يلدار ايضا ، فقد كان على عجلة من أمره لانهـــم تأخـــروا في العبور ٠ وفكر بأن يصدر اوامره للبدء بالعبور على الفور على أن يتابـــع العابرون طريقهم ويعود الباقون من حيث أتوا ٠ ولكنه لم يجرؤ على تنفيذ هده الفكرة ، فوقف حانقا في الظلام ٠ وقال أخيرا :

ـ هل معك صوان ؟

ـ نعم ٠ خذ ٠

أشعل يلدار الفتيل بصعوبة وهو يقدح الصوان ٠ ثم دقق النظر فـرأى آثار عجلات واضحة ٠ وأخيرا تأكد أن الاثر يعبر النهر فقال فرحا :

ـ هذا هو مكان العبور ٠
ـ أهو ملائم يا ترى ؟
ـ سواء أكان ملائما أم غير ملائم ، فلن نقضي الليل بطوله ونحن نبحث عن مكان آخر ٠

وأشعل أستيمر الفتيل ثانية وتأكد من آثار العجلات على الرمال ٠ وتأكد الجميع من أن هذا هو المعبر الذي يجلبون عن طريقه الحطب من الغابة التي على الضفة الاخرى للنهر ٠ وهو نفسه المعبر الذي كان يبحث عنه أستيمر ويلدار ٠ ويستحيل أن يعبر حطاب لا يعرف مجرى النهر جيدا من مكان غير مناسب ٠

ووصل الفرسان الى المعبر والشرر يتطاير من حوافر جيادهم عندما تدوس على حجارة الوادي ٠ وقال أستيمر للفرسان :

ـ اجمعوا أطراف برانسكم أولا ، ثم أرخوا أعنة الخيل ، وارفعوا أرجلكم عن الركائب ، وسيروا واحدا في اثر الآخر ، ولا تتجمعوا والا ستتعثرون بالذي يقع منكم ويوقعكم جميعا ٠ اجعل رأس حصانك يلامس كفل الحصان الذي أمامك ٠ اذا وقع الحصان في الماء اقفز عنه واتركه ، فسيجد طريقه للعبور لا تنظروا الى الماء ٠ ولينتبه كل واحد منكم للآخر ٠ هل فهمتم ؟
ـ نعم فهمنا ٠
ـ هيا بنا اذن ٠ ـ قال يلدار وهو يتقدمهم ٠ ورغم أن يلدار لم يكن يسبقه سوى بحوالي ست خطوات ، فقد اختفى عن ناظري أستيمر وضاع في عتمة الماء والليل ٠ وتذكر يلدار الايام التي كان يعمل فيها مع الشيخ سعيد ، ويخرج له من ماء السيل ما يجرفه الفيضان في طريقه ٠ كم مضى من الوقت منذ تلك الايام ! لم تكن ساريمة وقتها سوى فتاة صغيرة نحيلة مرعوبة ٠ ولم يشك يلدار في أنها مستيقظة الآن ، قلقة عليه أشد القلق ٠ وقد وعدته ناتاشا بأن تبقى بجانبها ولا تتركها لحظة واحدة ٠ « لا تقلق ، ان ساريمة قد نجت من قطاع الطرق » ٠ هكذا قالت له وهي تطيب خاطره قبل رحيله ٠ وكان حصانه يسير وهو يتبع التيار بشكل مائل قليلا ، وقد بدا عليه القلق والاهتمام ٠ يسبح تارة ، ويخطو فوق الحجارة تارة أخرى ٠ ويتماسك حين يوشك على السقوط ٠ ولم يستطع يلدار أن يكظم نار حقده على جراسلان « آه لو وقعت بين يدي يا ابن الكلبة ! » ٠

التفت يلدار فلم ير وراءه أحدا لاول وهلة ، وانما سمع صيحات مختلطة هل تركوني أعبر وحدي وعادوا ؟ لمعت خاطرة في ذهنه ٠ ولكن أستيمر لن يفعل ذلك حتى لو تخلى عنه الجميع ٠ وها هو يقترب منه الآن ٠
كان أستيمر ضليعا في طبائع الخيل وعاداتها ٠فترك العنان لجواده وأخذ يساعده على السير وحين يوشك التيار أن يجرفه ، كان هو يميل نحو الجهة

المعاكسة فيتماسك الحصان ثانية تحت ساقيه المشدودتين على اضلاعه ، كأن الفارس والحصان قد أصبحا قطعة واحدة . لا يوجد من يستطيع اكتشاف شجاعة الرجل وجرأته مثل الحصان . واذا ذعر الفارس أو طاش صوابه ، فالحصان يصاب بالذعر أيضا .. وحين يقوم الحصان من عثرة ، أو يسبح جيدا ، كان أستيمر يثني عليه ، ويربت على رقبته ، فيفهم الحصان ذلك ويشتد عزمه

وتبع بقية الفرسان أستيمر وهم يشجعون بعضهم بعضا . وخرج الذين كانوا في المقدمة من الماء ، ووقفوا ينتظرون رفاقهم فوق ظهور خيلهم التي ترتجف والماء يسيل منها .

ورغم قلق يلدار ، فان جميع الفرسان قد خرجوا سالمين ، ولم يجرف التيار أي واحد منهم . أما العربتان فقد علقتا في منتصف النهر ولم تعودا قادرتين على الحركة . فحل الفرسان الذين ترجلوا رباط خيلهم وعقدوا الاربطة ببعضها بتوجيه من أستيمر ، وربطوها بالعربة . وأخذ الرجال يشدونها بالاضافة الى جهد الخيل التي تجرها ، وهكذا سحبوا العربتين بصعوبة شديدة .

وانطلق يلدار ومعه عدد من الفرسان دون انتظار سحب العربتين خوفا من أن يطلع النهار عليهم قبل وصولهم الى القرية . بعد صعود تلة يبدأ مباشرة المنخفض الذي تعيش فيه القرية صيفا مع البرغش الذي يتكاثر في المستنقعات القريبة ، ولا تجد شتاء حطبا تستدفيء به الا بصعوبة بالغة . ولما كانت هذه القرية من القرى النائية ، فقد اتخذها المتمردون مقرا لهم ، واضطر أهلها على التعايش معهم .

على جانبي الطريق ارتفعت حقول الذرة . ولكن القرية اشتهرت في الحقيقة بزراعة البطيخ حيث يقبلون على شرائه في نالتشك لحلاوته الفائقة .

عندما اقترب يلدار وصحبه من القرية . بدأت تباشير الفجر تلوح في الافق وأحست الخيل بالغريزة أن القرية قريبة فحثت خطاها . وسمع نباح كلاب وصياح بعض الديكة . وصارت الاشجار العالية التي في وسط القرية تظهر بوضوح .

أوقف يلدار الفرسان .. هنالك نهير يجري في وسط القرية ، أحد جانبيه مرتفع عال ، والجانب الآخر مستنقع نبتت فيه غابة كثيفة من القصب . أما البيت الذي يوجد فيه جراسلان ، فيقع على المرتفع . واذا نظروا من نافذة ذلك البيت ، يمكنهم أن يروا الى مسافات بعيدة . فما العمل ؟ اذا انتظرنا العربتين فسنتأخر كثيرا . هنالك غيمة أخذت تبيض في الافق الشرقي مؤذنة بطلوع النهار . وأخذ يلدار ينصت واقفا وهو يقلب الرأي على وجوهه المختلفة . ثم نادى قازجري ، و « حشتوقان » و « بالقزكوشوك » .

ـ اربطوا حوافر خيلكم باللباد وتقدموا . لا بد أن هنالك حراسا في مدخل

القرية . يجب ان تمسكوا بهم ، واياكم أن تطلقوا النـــار . اذا احتجتـــم لمساعدة ، ما عليكم الا أن تصفروا هل معكم لباد ؟ .

ــ سنجد اللباد اللازم .

ــ هيا اسرعوا . خذوا معكم من تريدون ولكن لا تكثروا العـــدد هيـــا انطلقوا ..

واختار قازجري حوالي ستة فرسان بينهم بالقز وهاشم الذي اعتاد أن يصحبهما في المهمات الخطرة . وهما رجلان لا يعرفان معنى للخوف ، ولا يمكن أن يتراجعا أو يتخاذلا أمام أية صعوبة .. بعد حل مشكلة الحراس علـــى مدخل القرية ، كان يجب عليهم أن يحاصروا بيت علي الامام دون ان تنتبه الى ذلك حتى الكلاب . واذا لم يتمكن كوشوك وهاشم من ذلك ، فلا يوجـــد أحد غيرهما يمكنه أن ينفذ هذه المهمة . ولكن يجب القاء القبض علـــى الحراس أولا .

ــ ليتنا لا نغوص في المستنقع . ــ قال أحدهم .

فاعترض عليه هاشم محتدا :

ــ « بلا علاك » ..

ــ هيا بنا .

ــ كوشوك ، انتظر قليلا . ــ ناداه يلدار .

ــ نعم ؟

ــ هل سبق لك أن سرقت حصانا ؟ .

ــ والله لم اسرق حتى دجاجة .

ــ اذن اسرق الان . اذا استطعت ان تسرق حصان جراسلان ، فكأنــك قطعت ساقيه . هل فهمت ماذا أعني ؟

ــ هذا اذا استطعت . لا يمكن أن يعتبر جبانا من يستطيـــع سرقـــة حصانه . ومع ذلك سأبذل جهدي

ــ انك تحلم والله يا يلدار . ــ قال أحدهم من العتمة ــ هل يمكـــن أن يسمح لك جراسلان بسرقة حصانه ؟ انك تمزح ولا ريب . يجب أن تقتلـــه أولا ، وبعد ذلك فقط يمكنك أن تاخذ حصانه .

ولم يشعر يلدار بالرضا عن هذا الكلام :

ــ سترى . أتظن جراسلان عنده سبع أعين ! قد تصادفه في ساعة غفلته وعلق بالقز وهو ينطلق :

ــ سنرى . نحن أيضا نعتبر أنفسنا رجالا .

وانطلق الفرسان دون أن يحدثوا أي ضجيج . ولو أن أحدا منهم لـــم يصدق انه من الممكن سرقة حصان جراسلان .

ــ هل يوجد في العالم كله من يستطيع سرقة حصان جراسلان !

ـ هذا نوع من أحلام اليقظه ٠
ـ أقسم أنه سيجعلك تنتفخ قبل أن تصل الى حصانه ٠

هكذا كان الفرسان يتناقشون ٠ وسمعهم يلدار ولكنه لم يبال بذلك كثيرا ٠
وسمع صوت العربة في هذه اللحظة ٠ لقد وصل أستيمر ٠ ورأى الحاج والقاضي يجلسان في عربتيهما يرتجفان وقد ابتلا بالماء تماما ٠ ولم يكن قد بقي أي وقت لتضييعه بعد ذلك ٠ فقد بدأ الشفق يحمر وكان نارا قد اشتعلت في الافق ٠ وتمنى الحاج والقاضي أن يجففا ملابسهما قبل أن يبدآ مهمتهما ، ولكن أنى لهما ذلك ٠
وانطلق يلدار وأستيمر ثانية وخلفهما الكتيبة والعربتان ٠ وسمعا صوت حديث بعد قليل ٠ « من هو يا ترى ؟ » وتوقف الفارسان ٠ كان قازجري وصحبه قد أمسكوا ببعضهم ، وهم يجرونهم الآن بالحبال ٠

ـ من أنتما ؟ ـ سأل يلدار الرجلين المربوطين بالحبال ٠
ـ ما ذنبنا نحن ؟ لم فعلتم هذا بنا ؟ اقسم اننا لم نفعل شيئا نستحق عليه هذا ٠ لا بد أنكم تمزحون ٠ هه ؟

وضحك قازجري ورفاقه ٠

ـ ان آثار الخمرة ما تزال في رأسيهما ٠
ـ لقد طاب لهما الشراب ٠ كانا ذاهبين لاحضار المزيد من الخمرة المهربة عندما القينا القبض عليهما ٠ ـ قال قازجري معلقا ٠
ـ من الذي يشرب الخمر عند الفجر ؟
ـ ومن الذي يربط الناس بالحبال عند الفجر ؟ هل نشرب من أموالكم ؟ ٠
ـ انظر يا يلدار ٠ كانا يحملان هذه الاسلحة ٠ ـ اضاف قازجري وهو يعرض على القائد بنادق ومسدسات وخناجر ٠

لحسن حظ قازجري ورفاقه ، كان أكثر حراس جراسلان قد سكروا وناموا ٠ وكان هو بانتظار مجموعة من المتمردين في تلك الليلة ٠ وعندما رأى الحراس قازجري ورفاقه استقبلوهم ظانين أنهم هم جماعة جراسلان ، ودلوهم على البيت الذي ينتظرهم فيه ٠

ـ هات هذه الاسلحة ، فقد نحتاج اليها فيما بعد ٠ هل جراسلان في القرية ؟
ـ انه ينتظرنا ٠
ـ هيا بنا اذن ، سنضيف عنده اذا استضافنا ٠

وقدر يلدار ان كوشوك وهاشم قد وصلا الآن الى بيت علي الامام ٠

وبرزت القرية في ضوء الفجر ٠ وتصاعد الدخان من مداخن بعض البيوت ٠ وظهر المسجد في المنخفض وبجانبه المئذنة ٠ وكانت المقبرة تفصل بين المسجد والبيت المقصود ٠ بعيدا بعض الشيء عن النهر ٠

وكان البيت الطويل المبني من اللبن فوق المرتفع ، مغطى بالقرميد ٠ ويحيط به درابزون ٠ وللبيت اربع نوافذ من جهة المستنقع ٠ أما الدرابزون فيواجه بوابة الدار الكبيرة ٠

وأيقن يلدار أنه لا يمكن اقتحام الدار من جهة البوابة ، انما يجب الاقتراب منها من ناحية المستنقع مختفيا داخل القصب الكثيف ٠ واذا فكر جراسلان بالهرب ، فسيتجه حتما ناحية القصب أيضا ٠ لذلك أرسل يلدار الى هذه الجهة هاشم وكوشوك وهما من أمهر الرجال ٠

وصمم يلدار اخيرا على الامساك بجراسلان حيا ، ولكنه لم يتصور الى الآن كيف يمكن أن يتم ذلك ٠ فالامساك به ليس سهلا بالتأكيد ٠ وكان ينال وقازجري يقدران جيدا صعوبة ما يطلبانه منه ٠٠

جراسلان رجل شجاع ، ولا يختلف اثنان على ذلك ٠ وقد غطت شجاعته، وتمسكه بأخلاق الفروسية على كثير من جرائمه ٠ وهو بالرغم من كونه زعيما لكل الخارجين على القانون لم يشاهده أحد قط يحمل بندقية ويشترك في المناوشات ، او يهجم على الاهالي ليسلبهم ٠ ومع ذلك فان أي خارج على القانون لم يكن يخطو خطوة واحدة دون علمه ٠ وكان أحيانا يصدر أوامره بحرق بعض القرى ، وبابادة بعض الاسر عن بكرة أبيها وسلب ممتلكاتها ٠ ولكنه لم يشترك بنفسه في مثل هذه الاعمال قط ٠

كانوا يقولون عنه : « انك لا تراه ، ولكنه يستطيع هو أن يراك » ٠ انه كالجن ٠ ولولا هذه الخصال لمااستطاع أن يصبح زعيما لكل قطاع الطرق ٠٠ واذا صادف أن وردت معلومات أنه في مكان ما ، كان من العبث البحث عنه في ذلك المكان ٠ فهو لا يقضي يومين متتاليين في مكان واحد ٠

ذات يوم وردت معلومات بأنه سيقضي ليلته في مكان معين ٠ فانطلق عدد كبير من الفرسان وحاصروا المكان حصارا محكما خوفا من أن يفلت هذه المرة أيضا كعادته ٠ وفجأة رأى المحاصرون شيئا يطير من الغرفة الخلفية للدار ويهرب ، متخذا طريقه فوق رؤوس الاشجار ٠ « انه يفلت » صاح المحاصرون ولحقوا به ببنادقهم لكنه لم يكن هو ٠٠ كان جراسلان قد احتاط للامر ، فحنى شجرة حور وربطها بحبل بعد أن علق برنسه برأسها ٠ ولما أحس بضيق الحصار حوله ، قطع الحبل بخنجره ، فانطلق البرنس فوق رؤوس الاشجار منفلتا من نافذة الغرفة الخلفية ٠ ولما ركض المحاصرون وراء البرنس ، انطلق هو عبر الطريق الرئيسي بكل هدوء ٠

وبسبب هذه القصص التي تروى عنه ، كان قد تحول الى ما يشبه الاسطورة ، لذلك كان يلدار وأستيمر وبقية الفرسان في شك كبير من قدرتهم على الامساك به حيا ٠

## معركـــــة في مقبـــرة

دخل يلدار القرية ، وبدلا من أن يقود كتيبته الى بيـــت آل الامـــام مباشرة ، اتجه نحو زقاق ضيق حتى دخلوا دارا واسعة مشجرة · ثـــم وزع فرسانه في أماكن اختارها لهم ، وبدأ يصدر أوامره :

ـ اقترب من هنا يا أستيمر وابق بجانب الرشاشين ، وأرسل الحــاج والقاضي الى حيث ينبغي أن يذهبا ·

بعد أن قضى يلدار عامين في أتون معارك الحرب الاهلية ، أصبح ماهرا في اصدار الاوامر العسكرية ، وكأنه أمضى حياته كلها ضابطا ·

وأفاق أهل القرية على ضجيج الفرسان · وهاجت الكلاب وأخذت تنبح بشراسة دون أن تجرؤ على الخروج من البيوت · وحاول ذكر وز يقود قطيعا من الاوز أن يهجم على الفرسان ولكنه لم يجد بدا من التراجع والانسحــاب بأقصر طريق · وصوب أستيمر الذي تولى قيادة الرشاشين فوهتيهمـــا نحو بيت آل الامام · ثم ساعد العجوزين على الهبوط من العربة ، وكانـــا متثاقلين وأسنانهما تصطك من البرد والخوف معا · وعندما شرح للحـــاج مهمته مرة أخرى أخذ يهز رأسه دون أن يجيب بكلمة ، وبدا في هيئـــة مـــن سيغمى عليه · وأحضر قازجري الاسيرين وقد قيدت أيديهما من الخلـــف وأوقفهما في المقدمة ، وسار الرجلان المسنان خلفهما ، واتجه الموكب الغريب نحو بيت آل الامام ·

وقف يلدار وأستيمر يراقبان الموكب الذي يســـير في مرمـــى نـــيران الرشاشين تحسبا من أن يحاول أحدهم الهرب · كان رسل يلدار يمشـــون خائفين مذعورين وهم يلتفتون الى الخلف بين آونة وأخرى ·

تسلق الحاج مع الموكب المرتفع الصغير الذي تقع عليه الدار بصعوبة· وطلع النهار فبدت نوافذ البيت المحاصر بوضوح · ولكن أحدا لم يظهر وراء هده النوافذ ، فشعر يلدار بالقلق خوفا من أن يكون جراسلان قد أفلت منهم· وأخذ ينظر حواليه مستعيدا في ذهنه عناصر الحصار · وقال في نفسه : لماذا لا يتحرك هاشم وكوشوك ؟ وهل يتمكنان من سرقة حصانه يا ترى ؟ ليتهما يصلان الى المكان المحدد لهما دون أن يكشفا عن نفسيهما ·

كانت واجهة البيت متجهة نحو الداخل ، أما من جهة الزقاق فللبيـــت نافذتان كبيرتان وبرندة · واتجهت انظار الجميع الآن نحو هاتين النافذتين، منتظرين أن يطل جراسلان او بعض مرافقيه من احداهما ·· وراء الـــدار مباشرة تمتد المقبرة التي انتصبت فيها بعض الاشجار ، وعدد من الغـرف بنيت فوق المقابر · وعلى حافة المستنقع الذي تنتهي عنده المقبرة ، هنالك مسجد وبجانبه مئذنة عادية · وكان القصب في المستنقع كثيفا بشكل يمكن معه أن يختبىء فيه عدد من الفرسان دون أن يترجلوا · اذا هرب المتمـــرد

من ناحيته ، فمن الممكن أن يفور دمه طلبا للثأر ولا يرحمه . لذلك من مصلحته أن يهرب من الجهة التي يكمن فيها هاشم وكوشوك . هذا ما كان يلدار يفكر فيه الآن . ولكنه لم يسمع أية حركة ، فوقف في مكانه مرتابا في هذا الهدوء المسيطر ، مستعجلا ساعة الحسم .

اقترب الحاج وصحبه من واجهة البيت . وكمن هاشم وكوشوك في المكان الذي حدده لهما يلدار تماما قرب المستنقع ، وأرسلا له من يعلمه بذلك ، فاطمأن يلدار الى احكام الحصار حول البيت الآن ، ولكنه لم يستطع أن يطمئن للنتائج . فمن الممكن أن يضيع كل تعبه وتعب فرسانه الليلة في غفلة لحظة واحدة من الزمن . وعندها ماذا سيقول لهم عندما يعود الى تالتشك ؟

وأخيرا أطلق يلدار طلقة من مسدسه ، معلنا بدء العملية . وهرع عدد من الشبان الى أسقف بعض البيوت والمستودعات المجاورة ، وتمترسوا فوقها مصوبين بنادقهم صوب بيت آل الامام . وكمن عدد اخر من الفرسان وهم على ظهور خيلهم للانقضاض باشارة من يلدار . أما يلدار نفسه فقد اختفى وراء شجرة يستطيع أن يراقب ميدان المعركة من تحتها .

ـ لقد وصلوا الآن . ايستقبلونهم يا ترى ؟ ـ قال قازجري الذي رأى الحاج يقترب من بوابة الدار ـ من الافضل له أن يستسلم ، والا فسنجعل امه تبكي عليه اليوم ، يبدو أنه ولد في يوم عاصف هذا اللعين .

ـ ما تأتي به العاصفة ، تأخذه الريح . ـ علق أحدهم .

ـ لا تنسوا أننا يجب أن نقبض عليه حيا . أطلقوا على ساقيه اذا اضطررتم لذلك . ـ قال يلدار موجها كلامه للجميع دون أن يلتفت الى رفاقه .

واقترب منه أستيمر وهو يلوذ بالسياج محنيا رأسه . وتبعه الشيخ سعيد الذي سأل يلدار وركبتاه تصطكان :

ـ من الذي سيحاكم جراسلان ، المحكمة الشرعية أم محكمة البلاشفة ؟

ـ ستحاكمه المحكمة التي يرفضها . المحكمة التي اتخذها عدوا . لماذا لم تنفذ مهمتك أنت يا شيخ ؟

ـ البركة في الحاج . لقد تابع طريقه وهو ينشد الذكر . لا تقلق سنسمع أخباره بعد قليل .

ـ اختبيء اذن ، والا اصابتك رصاصة طائشة .

ـ ان الحاج يخاطب أحدهم . ـ قال قازجري وهو يلتفت اليهم . وفي هذه اللحظة سمع صوت طلقة بندقية صادرة من البيت . فألقى الشيخ سعيد بنفسه وراء السياج وهو يلهث من الرعب .

ـ يا الهي ! لقد قتلوه . ـ سمع صوت قازجري ثانية .

ووقع أحد المتمردين اللذين كانا يسيران أمام الحاج على ظهره . ثم

انطلقت رصاصة أخرى فوقع رفيقه الثاني أيضا وهو يصرخ • ولما رأى الحاج ذلك جثا على ركبتيه رافعا يديه الى السماء ، وهو يضرع الى الله ويتلو ايات من القرآن • فاسترد يلدار أنفاسه واطمأن الى أن جراسلان ما يزال في الدار • وقال وكأنه يطمئن نفسه وهو ينظر نحو البيت :

ـ ما يزال هناك • لن يفلت مني •••

ولكن جراسلان في هذه اللحظة ، كان يرقد على برنسه صامتا بجانب كومة كبيرة من الحشيش في نهاية البستان الملاصق لحوش الدار المحاصرة •• كان قد استيقظ على صوت حركات خيل مريبة فتسلل الى هناك على الفور : أما الذين أطلقوا النار على المتمردين ، فهم رفاقه ، وقد فعلوا ذلك للتغطية على هرب زعيمهم • ولانهم ظنوا أنهما واشيان أحضرا الجنود •
وبعد أن قتل مرافقاه ، أخذ الحاج يعود أدراجه زاحفا على أربع •

ـ أقسم أن جراسلان في البيت • ـ قال يلدار وهو يربت على كتف أستيمر •
ـ لا تستعجل الامور • سوف نرى •

وانطلقت صلية رشاش باشارة من أستيمر ، فمزقت السكون المريب المخيم على القرية • ووصل الحاج بصعوبة وجلس بجانب الشيخ سعيد ممسكا رأسه بين يديه • ثم أخذا يرددان معا الادعية وايات من القرآن ، ويضرعان الى الله أن ينجيهما سالمين من هذه المصيبة • ولم تعد تسمع في القرية من حركة أو صوت سوى طلقات البنادق مصحوبة بصليات من الرشاشين بين حين وآخر •
وتساقطت الطينة من جدران بيت آل الامام الخارجية وتصاعد الغبار ولم يعد بامكان أحد الآن أن يحدد مصدر الطلقات • ولكن لم يكن هنالك أدنى شك في أن المتمردين الذين حوصروا في الدار يقاومون بضراوة • وأصيب أحد الفرسان الشباب عندما انطلق يجري في الزقاق دون حذر ، وكانت تلك الاصابة الاولى بين أفراد كتيبة يلدار • كان المتمردون يطلقون النار من النافذة التي بدت بريئة وقد أسدل عليها الستار • ولكن قطع الاجر التي بدت بعد أن أزيح الستار كانت تشكل متراسا احتموا خلفه • وبدا أن بعض الطلقات تأتي من ناحية البستان الكثيف الاشجار ولكنهم لم يستطيعوا تحديد مصدرها بدقة • وهرعت بعض النسوة والاطفال نحو المسجد للاحتماء فيه • وانطلقت صلية جديدة من الرشاش فانهارت المدخنة من فوق بيت آل الامام ، كان أستيمر هو الذي أمر بذلك ، لانه تذكر كيف هرب من المدخنة ورقد على سطح البيت حينما حاصره الكاديت ذات يوم ، وبقي مختبئا هناك حتى يئسوا منه وانصرفوا •

ـ لم يكن هنالك داع لارسال رسول • لقد اخطأنا التقدير • ـ قال يلدار •

ـ لا فائدة من هذا الحديث الآن · ـ غمغم أستيمر ·

وأمسك يلدار برأسه فجأة وقد شحب وجهه · وسمع في هذه اللحظة صوت أحد الرجال يصيح :

ـ ها هو زعيم المتمردين يهرب · أقسم أنه جراسلان · وهو يطلق النار نحونا ·

ـ اين هو هذا اللعين ؟
ـ انه هناك · لقد اختفى في المقبرة ·

ورأى يلدار هيكل رجل يمر منحنيا بين قبرين · انه جراسلان ما في ذلك ريب · وبالرغم من أن هاشم وكوشوك يكمنان في تلك الجهة مغطيين المقبرة، فان يلدار لم يستطع أن يهدأ وينتظر النتائج · وانما قفز على ظهر حصانه وانطلق ، فلحق به أستيمر أيضا · وقفز حصان يلدار من فوق النهير بسهولة ويمم صوب المقبرة ، ولم يقصر عنه حصان أستيمر أيضا ·

ـ أنا المسؤول اذا أفلت من بين يدي كوشوك · ـ قال الحاج ·
ـ أتراه ، انه يطلق النار عليهم · ـ قال الشيخ وهو يرمش بعينيه ·

واستطاع حابيج أن يحدد مكان جراسلان الذي أخذ يطلق عليهم النار من مسدسه محتميا بجدار مقبرة · وزادت طلقات البنادق من جميع الجهات · كان الشباب الذين خبأهم كوشوك في احدى الزوايا قادرين على قتل جراسلان ولكنهم أخذوا يطلقون من فوق رأسه ، أو يسددون على مسدسه ليرموه من يده · وكان رفاق جراسلان المحاصرون في البيت ما زالوا يقاومون بضراوة ويطلقون النار للتغطية على هرب زعيمهم ·
وفكر يلدار : « لماذا هرب راجلا · هل استطاع كوشوك أن يسرق حصانه يا ترى ؟ » ولكن الامر لم يكن كذلك · على أية حال ، فان كوشوك هو أول من رآه عندما انطلق من بين الاشجار الكثيفة راكبا حصانه الذي كان مخبأ في مكان لم يستطع الاهتداء اليه · فأطلق النار على الحصان أولا ورماه أرضا فقفز جراسلان من فوقه وركض نحو دغلة صغيرة آملا أن يجد طريقة ما للافلات من الحصار الذي تأكد من أنه محكم هذه المرة · ومن تلك الدغلة تسلل نحو المقبرة · ولكن علي ايضا رآه · وهو شاب شجاع وقوي ، حاد النظرات ، يستطيع أن يضع جراسلان تحت ابطه ويأخذه بسهولة اذ تمكن منه ·

وانطلق يلدار وأستيمر وقازجري يركضون في مساحة مكشوفة تقع تحت مرمى بنادق المحاصرين في البيت ، والتفوا في غمضة عين حول المنخفض والتقوا بعد قليل بكوشوك ورجاله · لقد انقطع طريق الفرار أمام جراسلان ·
وانطلقت صليات عنيفة من الرشاشين في وقت واحد · وهجم الرجال

نحو المقبرة فرسانا ومشاة من جميع الجهات • واستنفد الحاج والقاضي كل ما يعرفانه من الادعية • ورغم أن الادعية التي يعرفها الحاج قليلة ، فانه ما فتيء يعيدها كلما انتهى منها •• وقد اعتبرا أن اطلاق النار في المقبرة والقتال فيها اثم كبير ما بعده اثم • ولكنهما قررا ان أوان الحديث عن ذلك ليس الآن ، وانما فيما بعد ، وفي المسجد • فذلك أجدى وأنفع •

وأسقط في يد جراسلان • فمنذ أن انطلق فارا من وجه العدالة لم يصادف يوما أصعب من هذا اليوم • وأخذ ينظر حواليه باحثا عن حصان يهرب به • ولكن أين يجد حصانا الآن ! ثم ان أي حصان لا يصلح للافلات من مثل هذا الطوق المحكم • انما يجب أن يكون حصانا قويا وسريعا جدا • وانطلق بزحف بين القبور ، متواريا داخل الحشيش الكثيف • ورأى غرفة مبنية بالحجارة والآجر فوق أحد القبور • انها مخبأ جيد اذا تمكنت من الوصول اليها •

كان جراسلان يحمل باحدى يديه مسدسا ، وهنالك مسدس ماوزر آخر معلق على خاصرته • وسمع أثناء زحفه صيحات محاصريه • ليته استطاع أن يميز من قتل حصانه لينتقم منه •!

وتعالت الصيحات حول جراسلان من جميع الجهات • هيا ازحف الى غرفة القبر ولا تدعهم يمسكون بك حيا • لقد انتهى كل شيء بالنسبة لك يا جراسلان ! مت بشرف اذا كان لا بد من الموت •• ورأى عددا من الرجال قادمين جنبا الى جنب وبأيديهم بنادقهم •

ـ ها هو !

ـ لقد وجدناه أخيرا • ـ صاح يلدار •

وبحركة مفاجئة وقف جراسلان منتصبا وهو يحمل مسدسيه ، وأطلق النار على الرجال منهما كليهما معا • فارتموا على الارض • وقفز يلدار محتميا بجدار قبر • وجرح أحدهم جرحا بليغا وأخذ الدم ينفجر من جرحه بغزارة ، فحمله رفيق له على ظهره وأخذ يزحف مبتعدا به •

حاصر الرجال غرفة القبر التي التجأ اليها جراسلان • بينما كمن الرجل المحاصر وقد صمم على أن يقتل أكبر عدد ممكن من مطارديه قبل أن يتمكنوا منه بعد أن فقد كل أمل في النجاة •

وصمتت الطلقات ناحية بيت آل الامام ، ففهم جراسلان أنه تم القضاء على مقاومة رفاقه الذين حوصروا هناك •• أنا الآن وحيد في غرفة القبر هذه • انها اشارة من الله على ما يبدو أن أيامي قد انتهت ، قال جراسلان لنفسه يائسا • وفي هذه اللحظة سمع صوت أحدهم :

ـ جراسلان •• ! ماذا تستطيع أن تفعل وحدك • أنت محاصر تماما ، استسلم •

وعرف الصوت على الفور « ها نحن نلتقي ثانية يا يلدار ، وسيعرف كل واحد منا مدى شجاعته قريبا » قال جراسلان مغمغا وهو ينظر من خلال ثقب في الجدار • لكن عدة أصابع من الديناميت انفجرت بالقرب منه في وقت واحد فحجب الدخان والغبار كل شيء • وسمع صوت نقاش حاد • كان يلدار يقول بحزم « سأذهب » بينما أستيمر يعارضه •

ما دمنا لا نريد قتله ، سأذهب اليه ، وسأقنعه بالاستسلام • هكذا صمم يلدار بالرغم من جرحه الذي لم يعره أي اهتمام • ولكن أستيمر وقف في وجهه ، فلم يزده ذلك الا تصميما على الذهاب اليه دون سلاح لاقناعه أو التغلب عليه بعد لقائه وجها لوجه •

ـ كفوا عن اطلاق النار والقاء الديناميت ـ أصدر يلدار امره بلهجة حازمة • فعم السكون والصمت •

ـ لا تذهب اليه وأنت أعزل • ـ قال أستيمر وهو في غاية القلق •

ـ ان الشجاعة والشرف متلازمان دائما ، ونحن نعرف أنه رجل شجاع • ـ قال يلدار وقد شحب وجهه بسبب كميات الدم التي فقدها من الجرح الذي أصيب به في فخذه ، وتأخر في تضميده •

ـ جراسلان ••! لا داعي لسفك الدماء • انك وحدك ولا أمل لك : استسلم وسنراعي ظروفك • ما الفائدة التي تجنيها من موتك داخل القبر ؟•• ـ كرر يلدار نداءه •

ـ اجلس على الارض • ـ قال أستيمر وهو يشده من قميصه •

ـ خذ السيف معك على الاقل • ـ قال قازجري عندما رآه يلقي أسلحته على الارض •

ـ لن آخذ اي سلاح •• أتسمعني يا جراسلان !

ـ سآتي أنا أيضا معك اذن ! ـ قال أستيمر وقد اتخذ قراره بشكل مفاجيء ثم أخذ يلقي بأسلحته على الارض • وانطلق الرجلان معا يمشيان ببطء صوب القبر الذي يختبيء فيه جراسلان •

ـ جراسلان ••! اذا كنت تملك الشجاعة الكافية فاخرج دون سلاح وتحدث معنا • أنا وأستيمر وحدنا ، ولا نحمل سلاحا • هل تسمعني ؟• اذا لم يعجبك ما سنعرضه عليك ، فافعل ما يحلو لك بعد ذلك • تعال •• نحن لسنا مضطرين للتفاوض معك ، ومع ذلك فقد جئنا •

لم تصدر اية حركة من جراسلان ، ووقف الرجلان مترددين وقد أمسك أستيمر بذراع يلدار •

ـ جراسلان ••! ـ نادى أستيمر ـ أقسم أن قبارديا كلها تشهد بشجاعتك • هيا ، أطلق علينا النار واقتلنا اذا كان هذا ما تريده ، فلسنا افضل من كل الذين قتلوا في هذه الحرب التي لا ترحم • لكن سفك الدماء

الآن صار نوعا من العبث . نحن من قرية واحدة ، ونعرف بعضنا البعض جيدا ، عليك أن تثق بنا وتستسلم . مريمقان ينال ومتخان قازجري يطلبان منك أن تسلم نفسك للعدالة . انهما أكبر رجلين في الوطن الآن ، ولا يمكن أن يجورا عليك . وها هو يلدار .لقد جرح برصاصك ودمه ينزف ، ومع ذلك جئنا اليك لاننا لا نريد أن نراك ميتا .. جراسلان ! أتسمع ما نقول ؟ لماذا لا ترد بشيء ؟

وبقي القبر صامتا . وبدأت قوى يلدار تخور فعلا ، ولكنه تحامل على نفسه وبقي واقفا . ونادى أستيمر ثانية :

ـ جراسلان ..! اخرج . انك لا تدري اذا كانوا ينوون تنصيبك رئيسا منه ، اذا كنت تجد في هذا القول شجاعة أكثر . لكننا نحن جئنا باختيارنا، ونستطيع أن نعود متى أردنا . ما زال أمامنا مجال للتفاهم . ان ينال وقازجري لن يلحقا بك الاذى ، ولا يطلبان منك سوى تسليم نفسك ...

ـ جراسلا ..! اخرج . انك لا تدري اذا كانوا ينوون تنصيبك رئيسا لقرية شعلمقوقة . استسلم .. لماذا لا ترد ؟.. اخرج أو أطلق النار .

وفي هذه اللحظة سمع صوت اطلاق رصاصة . فاقشعر بدن يلدار وأستيمر ونظر كل منهما الى الآخر ليتأكد من أن صاحبه بخير .. وخيم صمت مطبق .

وكان أستيمر هو أول من تحرك ليستطلع ما جرى . ووصل عدد من الرجال مشهرين بنادقهم ، فرأوا جراسلان راقدا على ظهره والدم يسيل منه غزيرا .

من يدري كيف فكر جراسلان في اللحظات الاخيرة . ولكن جوابه على ندائهم كان مغايرا تماما لكل سلوكه طوال حياته . من المؤكد أنه فضل الموت على الاستسلام لهم حيا .

أخرجوا زعيم المتمردين من القبر وهو يتنفس . ولكن جرحا كبيرا كان قد فغر فاه عند القلب تماما ، جرحا مخيفا أكثر من الجرح الذي أصيبت به ساريمة .

كان معطف جراسلان الجميل ، وحافظات البارود ذات الاغطية الذهبية التي تزين صدر المعطف ملوثة بالدم الممزوج بالتراب والقش . وقد شحب وجهه المتناسق بشاربيه اللذين لم يكتملا أبدا منذ خلع له ابن قلشبي قسمة منه . وخيل لكل من رآه أنه سيفتح عينيه على التو ليبادله الحديث .. واجتمع جميع الرجال الذين حاصروه ليتفرجوا عليه .

ـ هل مات حصانه ؟ ـ سأل أحدهم .

ـ لا ، جرحت قائمته الخلفية فقط . ـ قال كوشوك ، ومن المؤكد أن هذا هو ما حصل ما دام انه هو الذي أطلق النار عليه .

ـ اصمتوا ..! أظن أنه يقول شيئا . ـ وصمت الجميع .

ـ لقد انتهى الامر يا أخي ٠٠ هكذا ٠٠٠ ـ قال جراسلان بصعوبة ثم صمت ثانية ٠

تلاحقت أنفاس الجريح ، وشعر يلدار بقلق حقيقي عليه ، متمنيا أن يوصله الى نالتشك حيا ٠ ثم أصدر أوامره بأن يستعد الجميع للرحيل بأقصى سرعة ممكنة ٠ وجاؤوا بالعربات من أهل القرية وقد وضع في قعرها حشيش ، مدت عليه البرانس ، وأرقد فيها الجرحى ٠ ولما كان الحاج قد قرر البقاء عند أقاربه في القرية ، فقد فرشوا أحسن العربتين بالحشيش وأرقوا فيها جراسلان بعناية ٠٠ وجلس يلدار نفسه والشيخ سعيد في هذه العربة فانطلقت ، ولحقت كتيبة الفرسان بالعربة ٠

ورغم أن جرح يلدار لم يكن بليغا ، فقد كان يشعر بألم ممض كلما خطت عجلات العربة فوق الحصى والحجارة ٠٠ وانطلق الحصان الذي يجر العربة مسرعا ٠ وكان يلدار ينظر الى جراسلان بين آونة وأخرى وهو يرجو من كل قلبه أن يصل حيا الى المدينة ٠ أما الشيخ سعيد فقد جلس يردد أدعية غير مفهومة دون انقطاع ٠

وما أن غادرت كتيبة يلدار القرية ، حتى انتشرت فيها شائعة بسرعة انتشار النار في الهشيم : لقد قتلوا جراسلان ، وأخذوا جثته لعرضها في سوق نالتشك ٠

وكان عدد الذين يعرفون حقيقة ما جرى قليلا جدا ٠

## عـودة ساريمـة
## وافتتاح المدرسـة

شفيت جراح ساريمة اخيرا وسمح الطبيب بخروجها من المستشفى ، ورغم فرحها بعودتها الى البيت ، فقد كانت حزينة على فراقها لناتاشا التي لازمتها طوال مكوثها في سرير المرض ، فازدادت تعلقا بها ٠ وقد اعتادت الفتاتان في الآونة الاخيرة أن تقضيا الاماسي الطويلة في غرفة ناتاشا ، تتحدثان بالكلمات القليلة التي تعلمتها ساريمة ، وبالاشارات في معظم الاحيان ٠

اذا نظرت من نافذة هذه الغرفة ، تطل على ساحة حطوقشوقة التي تمتد أمامك من خلال أغصان الاشجار العالية التي تشتبك حول المبنى وكأنها توشك أن تحتضنه ٠٠ وقد تكدست الهدايا التي أحضروها لساريمة في زاوية من هذه الغرفة أيضا ٠ وكانت ناتاشا قد استلمت هذه الهدايا المؤلفة من الاقمشة المتنوعة وأغطية الرأس ، والصابون المعطر ، وزجاجات العطر المختلفة وحفظت أسماء الذين أحضروها ، مع نوع الهدية التي جاء بها كل

واحد ٠ وكانت ساريمة ، كلما نظرت الى الهدايـــا واستعـــادت أسمـــاء أصحابها ، تغرق في بحر من الذكريات ، ويلفها حنين غامض ٠٠ من كـــان يظن أن العروس التي جاؤوا بها الى المستشفى وقد فقدت قسما كبيرا مـن دمها ، ستتعافى ثانية بهذا الشكل ! حتى العروس نفسها ، كانت قد فقدت كل أمل في الحياة حين جاؤوا بها ، ولم تعد تريد شيئا من الحياة ســوى رؤية وجه يلدار للمرة الاخيرة قبل أن تموت ٠

وعندما عاد اليها الوعي بعد العملية مباشرة ، كانت قد سمعت صوت ديسة وهي تصرخ : « دعوني أدخل » ٠٠ ولم تكن ديسة وحدها في ذلـــك اليوم ، فقد جاءت كل عجائز الحي معها ٠ دانيزات وتشاتشا ووتســـة وغيرهن ٠ وارتفع صوت ندبهن وبكائهن بمجرد وصولهن الى المستشفى ٠

ـ آه ٠٠ يا ويلتاه ٠٠ لقد قطعوا يد ابنتـــي الصغيرة المسكينـــة ، ولا يسمحون لنا برؤيتها ٠ ماذا افعل بعد الان !٠٠ لماذا جاؤوا بها الى الطبيب الروسي ؟ لقد خرب بيتنا وانتهى الامر ٠

هذا ما كانت تردده ديسة ٠ وارتفع نحيب العجائز المرافقات ، فخرج الطبيب مذعورا لا يدري ماذا حدث ٠

لم يكونوا قد قطعوا يد ساريمة ولا رجلها ٠ ولما تأكدت ديسة من ذلـك عادت الى القرية وقد اطمأن قلبها ٠

اعتاد يلدار أن يتردد عليها كل يوم طوال فترة مكوثها في المستشفى ٠ كان يدخل عليها ويجلس صامتا وهو يبتسم دون أن يقول شيئا ذا بال ٠ فتنظر هي أيضا اليه صامتة ٠ وهكذا يبقيان الساعات الطوال يتناجيـــان بالنظرات ٠ وما زالت دموع الحنان تغلبها كلما عادت بها الذكرى الـى تلك الساعات التي قضياها بهذا الشكل في الايام الاولى من دخولها المستشفى٠

استلم يلدار منصب ناشخوة بعد القاء القبض على جراسلان فعـــلا شأنه وهكذا صار من ضمن مهامه ، تشديد الحراسة على المستشفى حتـى لا يخطفوه ٠ وكان جراسلان يرقد في غرفة خاصة ، تتناوب عدة راهبات على رعايته ٠ بالاضافة الى حرس دائم داخل الغرفة ٠ وهكذا لم يكن باستطاعته الهرب ٠ ولكن عددا كبيرا من الغرباء اخذوا يحومون حول المستشفى ٠ غـير الذين يعودونه وخاصة من منطقة الشيشان ، وداغستان ، وجلاخستني ٠

وعندما يأتي يلدار الى المستشفى ، كان يغير ضماد جرحه ، ثم يقضي بعض الوقت عند ساريمة ، ويتوجه بعد ذلك الى غرفة جراسلان ليفتش على الحراس الذين زاد عددهم ووضع بعضهم في باحة المستشفى أيضا ٠

وتاقت ساريمة الى الحياة العادية ، بعد أن ملت البقاء في المستشفى٠ واشتاقت الى قريتها ، والى لقاء ديسة وروم ودومسارا ، وحتى يلدار لـم تكن قد استمتعت بقربه بعد ٠ ولو سمحوا لناتاشا بالذهاب معها كانـــت ستعتبر نفسها أسعد انسانة على وجه الارض ٠٠ الطبيب أيضا ، يا له من

عجوز طيب ، ولولاه لقضي عليها ٠
وغلبتها عواطفها تجاه ناتاشا فعانقتها وهي تؤكد لها :

ـ سأتخذك أختا ٠ أنت اختي الكبيرة منذ الآن ، وسأناديك باسم شركسي ، اسمك آروجان منذ الان ٠

وفهمت ناتاشا دون حاجة الى الكلمات ، ما عجزت أن تعبر عنه ساريمة باللغة الروسية ٠

وكانت ناتاشا أيضا كثيرة الشرود ٠ فها هي الكآبة تغلبها فجأة فتسيل دموعها بصمت ٠ أنى لساريمة أن تعرف سبب بكائها ، ومع ذلك كانت تبكي هي أيضا معها عندما تراها كذلك ٠ لقد قاست ناتاشا من ويلات الحرب ٠٠ وما زالت كلمات أبيها الاخيرة تتردد في أذنيها : « ان الانسان يأتي الى هذه الحياة بسهولة ٠ ولكنه لا يغادرها الا وسط المشقة والاحزان » ٠ وقد غادرها بالفعل وسط أتون المعارك والرعب ، ولم يبق لها أحد تلجأ اليه ٠ ان ساريمة فتاة طيبة ، وقد انست بوجودها في المستشفى طوال هذه الفترة ، ولكنها ستغادرها وستغرق في الوحدة من جديد٠

مالت الشمس للغروب وجلست ناتاشا تراقب الساحة من النافذة ٠٠ في البعيد لفت الجبال نفسها بغطاء سميك من الغيوم والضباب استعدادا لقضاء الليل ٠

ـ هذا أوان مجيئه ـ قالت ناتاشا وهي تنظر الى أختها بحنان ٠
ـ نعم ، صحيح ٠ ـ قالت ساريمة بالروسية ٠
ـ هل تحبين أن تغادري حقا ؟ ـ سألتها ناتاشا وهي لا تستطيع اخفاء كآبتها ٠

ولم تجد ساريمة الكلمات الروسية المناسبة التي تستطيع أن تعبر بها عن عواطفها ٠ وأخيرا لم تجد مناصا من القول :

ـ نعم ، ساريمة الى البيت ٠ ـ ولم يبد عليها أنها فرحة بعودتها ٠

وقفزت الفتاتان عندما سمعتا أصوات بعض الرجال ٠ فرأتا الطبيب الروسي العجوز ويلدار وبلاتسة يدخلون ٠ كان بلاتسة في أحسن حالاته ، يرتدي المعطف الانيق الذي أرتداه يوم عرس ساريمة ، وبدا شارباه الاحمران كلسانين من اللهب ٠ وها أستيمر أيضا يمشي وراءه وهو يضع على رأسه قلبقا جميلا من الفراء الحقيقي ٠ وبعد أن دخل الرجال وهم يمزحون والرضا باد على وجوههم ، اندفعت من ورائهم دومسارا وهي في أحلى زينتها ٠ وعانقت ساريمة عناقا طويلا ٠

ـ كفاك عناقا ، سيغمى عليها ان لم تتركها ٠٠
ـ أرجو ان تعودي بالخير والبركة يا ابنتي الصغيرة ٠ ـ قالت دومسارا

وهي تبكي فرحا ٠

« قريتنا شعلمفوقة ! هل يوجد مكان في العالم يعيش فيه أطيب من هؤلاء الناس الذين يعيشون في قريتنا ؟ » ـ قالت دومسارا وهي تحدث نفسها بحنان ٠

وقف الرجال والنساء يتبادلون الاحاديث تارة ، ويثنون على الطبيب وعلى ناتاشا تارة أخرى ٠

وشعرت ساريمة ان قلبها يكاد يقفز من بين جوانحها ٠ فقد شمت رائحة القادمين ، مزيج محبب من رائحة المعاطف الصوفية المنسوجة باليد ، ورائحة الجلد ، ورائحة دخان الجلة وعرق الخيل ٠ لم يكن في العالم كله عطر يعادل هذه الرائحة التي شمتها ساريمة ٠ انها رائحة البيت ٠

ـ ناتاشا يا عزيزتي ، تعالي معنا ٠ ـ قالت ساريمة وهي تعانقها ٠

ـ الى أين ؟

لم تكن ساريمة نفسها قد عرفت الى أين سيأخذونها ٠٠ ونظر بلاتسة الى الفتاتين وهو يبتسم ويمسح شاربيه ٠

ـ اننا مسرورون بسلامتك يا ساريمة ٠ ولا نعرف كيف نشكر الذين ساعدوك في محنتك ، وانقذوك ٠ نرجو أن يكون ذلك خاتمة متاعبهم ٠ هل تذكرين كيف حملتك الى العربة يوم العرس ؟ كنت سأحملك اليوم أيضا ٠

ـ اذا كنت ستحملها ، فان القوة ليست هي التي تنقصك لتفعل ذلك٠ ـ قال الطبيب معلقا ٠

ـ اليوم ؟٠ ان لها رفيقا أقوى مني ٠ وهي لم تزدد الا جمالا بعد أن شفيت جراحها ، والله لقد فعلت الشيء الكثير من أجلها أيها الطبيب ، ونرجو من كل قلوبنا أن نستطيع رد الجميل لك في يوم من الايام ٠ جعلنا الله من الذين لا ينسون الجميل ٠

ـ آمين ٠

ـ لقد أعارنا المتخان عربته ٠ وسنتوجه الآن الى شعلمفوقة ٠

ـ رافقتكم السلامة ٠ احرصوا عليها جيدا بعد اليوم ٠ ـ قال الطبيب وهو ينظر الى أستيمر ٠

ـ لن يتكرر ذلك ٠ ـ قال استيمر وهو يربت على كتف الطبيب ٠

ـ لا تنسي ناتاشا ٠ ـ قال الطبيب وهو يودع ساريمة مربتا على رأسها ٠٠ وتعانقت الفتاتان ثانية وقد سالت دموعهما ٠ وأخيرا حمل يلدار أمتعة ساريمة ، وتوجهوا جميعا الى العربة ٠

ورأت ساريمة في العربة ربطة كبيرة من الورق ، وعدة زجاجات من الحبر ، ومجموعة من الدفاتر وأقلام الرصاص ، وعددا من علب الكرتون ٠

هذه ليست بالتأكيد هدايا لها ، ولكن ما هي يا ترى ؟٠

وبعد أن ودع الطبيب العجوز وناتاشا الضيوف ، بقيا مدة طويلة يراقبان العربة حتى اختفت عن الانظار ٠

في ذلك اليوم بالذات ، وقع في قرية شعلمفوقة حدث هام آخر ٠ فقد ركب يرول حصانه منذ الصباح وانطلق ينادي في القرية ، وعليه سيماء من لا يصدق ما يقوله ٠ لقد عمل يرول مناديا في القرية طيلة أربعين عاما ٠ وخلال هذه المدة كلها لم يناد يوما كما يفعل اليوم دون أن يدعو الى اجتماع ٠ انه ينادي الآن بصوت محايد وهو ينقل خبرا الى أهالي القرية ٠

ـ ماذا يقول المنادي ؟
ـ والله لم أفهم ٠ انه يردد شيئا عن مدرسة ما مدرسة ٠
ـ اسكت ودعنا نسمع جيدا ٠

ويسمع صوت يرول من بعيد :

ـ أيها الناس ٠ اسمعوني جيدا ، في بيت نورعلي ستفتح مدرسة ٠ من يريد أن يعلم أولاده فليرسلهم الى هناك ٠

ولما كان الخبر طويلا ولا يستطيع يرول اتمامه في نفس واحد ، كان يتوقف قليلا ليلتقط أنفاسه ويتابع :

ـ يقبلون في المدرسة الاولاد والبنات ٠ وسيعطون لكل من يسجل نفسه كيلا من الذرة الصفراء ٠ المعلم هو بوتش أستيمر ٠

لم يكن واضحا من هم الذين سيقبلونهم في المدرسة ٠ أهم الاطفال الذين لا يستطيعون القيام بأي عمل من أعمال البيت بعد ، ام هم الاولاد الكبار ؟! هكذا أخذ الناس يتساءلون ٠ ثم انهم لم يشعروا بالثقة من قدرة المعلم نفسه على تعليم أولادهم ٠ كيف يستطيع أن يصبح معلما وهو لا يعرف لماذا لا تسيل المياه من فوق الارض طالما هي مدورة كالكرة كما يدعي؟٠

ولم يترك أستيمر هذه النقطة دون أن يفكر بها ٠٠٠ في صباح ذلك اليوم أرسل يلدار من يعلمه أن ساريمة ستخرج من المستشفى ٠ ولما كان متأهبا للذهاب الى نالتشك لحضور اجتماع حزبي ، قرر أن يصطحب معه بلاتسة ودومسارا ليرافقوا ساريمة في طريق عودتها الى البيت ٠ وقرر أيضا أن يحل اليوم مشكلة المياه فوق سطح الكرة الارضية ، لانه لا يمكن أن يجد من يعرف الحقيقة حول هذا الموضوع أفضل من ستيبان ايليتش الذي يشرف على تأهيل المعلمين بالاضافة لمهامه الاخرى ٠

وعندما بدأ الاجتماع الحزبي ، سأل ستيبان الحاضرين : « من عنده ملاحظة يريد أن يبديها ، او عنده سؤال ؟ » ٠ ولما لم يقل أحد شيئا طرح أستيمر سؤاله ، فاستهجنه البعض ، واعتبروا انه من غير اللائق بحث

مثل هذه المواضيع في الاجتماعات الحزبية • ولكن ستيبان أيده قائلا ان أي واحد يستطيع أن يسأل عن كل ما يشغل باله • ولما كان بلاتسه حاضـــرا الاجتماع بصفته من أصدقاء الحزب النشيطين ، فقد سره أن يسمع جوابـا السؤال الذي شغله مدة طويلة •

وفي هذه الاثناء جلست دومسارا على مقعد خشبي في ساحة حطوقشوقة تتفرج على كل شيء لتسلي نفسها • وأشفق أستيمر على المرأة التـــي تركها وحيدة عندما طال الحديث والنقاش ، وخطر بباله أن يطلب مـــن بلاتسة العودة الى الساحة والبقاء معها ، ولكنه كان من المستحيل أن يتـرك بلاتسة متابعة النقاش حول هذا الموضوع الهام الذي فكر أن يدلي بدلوه هو أيضا فيه لو سمحوا له بالكلام •

ولم يكن العجوز وحده هو المتحمس الوحيد للنقاش اليوم • فها هـو ستيبان يحضر مجسم الكرة الارضية ويضعه على طاولة الاجتماع • فتحلق الجميع حوله مندهشين وأخذوا يلمسونه ويدورونه غير مصدقين أن هــــذه الكرة هي صورة مصغرة للارض فعلا • كان الاجتماع مكرسا اليوم للبحث في كيفية مساعدة الاطفال الفقراء • ومع ذلك يجب وضع حد للسؤال الـذي طرحه أستيمر • ووقف ستيبان يجيب على اسئلــــة الحاضرين وكأنـــه كوبرنيك يجيب على أسئلة الرهبان •

ووجد أستيمر الجواب على سؤاله : من أجل أن يعرف الانسان لمـــاذا لا تسيل المياه من فوق الكرة الارضية ، يجب عليه أن يدرس ويتعلم • وأن يسرع في افتتاح المدرسة لتعليم الاطفال • هذه هي القناعة التي وصل اليها من خلال أجوبة ستيبان • أما بلاتسة فقد أوشك أن يقول أشياء كثيرة ، ولكن ستيبان ايليتش قال انه قد آن الاوان لبحث موضوع الاطفال وأنهـــى النقاش حول هذا الموضوع •

وبعد انتهاء الاجتماع ، بقي أستيمر مع ستيبان واستوضحه عن أشياء كثيرة حول المدرسة وأخذ منه كمية من اللوازم المدرسية • وعندما عاد هـو وبلاتسة أخيرا الى الساحة التقيا بيلدار ومعه عربة المتخان •

ولما كان بلاتسه ميالا الى الجدال بطبعه ، فقد بدأ نقاشا حادا مــــع أستيمر حول مشكلة المياه على سطح الكرة الارضية من جديد حتى وصلوا الى المستشفى : سأسلم معك بموضوع المياه • ولكن كيف تفسر لي عــــدم ضياع الاشياء التي تلقي بها الى الاعلى في الفضاء ؟ ولماذا تعود الــــى الارض ثانية اذا كان ما تقوله حول كروية الارض صحيحا •! وبعد أن ركبت معهم ساريمة وغادروا المستشفى ، عاد بلاتسة الى الموضوع ثانية :

ـ انتظر قليلا • قد تقنعني بما تقوله بشكل من الاشكال • ولكن كيف ستشرح هذا الموضوع للاطفال •

لقد فكر أستيمر بذلك من قبل ، ولكنه لم يكن قد وصل الى حل معين••

ـ سأجد طريقة ما • سأحدثهم باللغة الشركسية ، وسأقرب الموضوع الى أذهانهم قدر المستطاع •

ـ باللغة الشركسية ؟ ـ قال بلاتسة معارضا ، وفتح موضوعا جديدا للنقاش •

وانطلقت العربة تجري بسرعة • ونسي ركابها جراح ساريمة ومرضها السابق ، واستغرقوا في نقاش حاد ، وكأن من واجبهم اكتشاف قوانين الطبيعة كلها الان • ولم يعد بلاتسة قادرا على الجلوس في مكانه ، فوقف على درجة العربة ليواجه مناقشه :

ـ لو كان تلاميذك يعرفون اللغة الروسية ، ويعرفون القراءة والكتابة لسهل الامر عليهم • أنا لا أصدق أنك ستتفاهم معهم حول هذا الموضوع بالذات •

ـ قلت لك سأقرب الموضوع الى أذهانهم باللغة الشركسية •

ـ باللغة الشركسية تستطيع أن تشتم جيدا ، وأن تغني • لكن لم يعلم بها أحد مثل هذه المواضيع من قبل •• كيف تستطيع أن تفعل ولا توجد كتب تعلم بها • قد تقول لي أنك ستؤلف كتبا بها ، ولكن متى سيتم ذلك، وأية أبجدية ستختار ••؟

ـ لن يكون ذلك اليوم بعيدا •

ـ انتظر قليلا ، أنا أقبل معك أن تعلم باللغة الشركسية ، ولكن كتب العلوم كلها مكتوبة باللغة الروسية •

ـ سأعلمهم اللغة الروسية أيضا •

ـ ها •• أنا موافق معك الآن • لو كان نورعلي يعرف اللغة الروسية عندما ذهب الى امريكا ، لما عاد مفلسا أكثر مما كان عليه قبل أن يذهب •

ـ احسنت ، هذا رأيي أنا أيضا ، لو كان نورعلي يعرف شيئا من أمور الدنيا ، هل كان سيذهب الى أمريكا ليجمع الذهب في أكياس ؟• أنا المسؤول اذا ارتكب أحد الاطفال الذين سأعلمهم مثل هذه الحماقة •

ـ أتظن أنه يمكن كتابة اللغة الشركسية حقا ؟

ـ وكيف لا يمكن يا رجل •!

وغرق استيمر في أفكاره• لقد استطاع أن يعلم يلدار من قبل بامكانيات محدودة جدا • وها هو يملك الان عددا لا بأس به من اللوازم المدرسية ، ووسائل الايضاح • وعنده هذا المجسم للكرة الارضية • ورغم أنه غرق في نقاش حاد مع بلاتسة حول كروية الارض ، فان اهتمامه الرئيسي طوال الطريق ، كان ينصب على شيء اخر : لقد وعد دولت بأن يعطي كيلا من الذرة لكل طفل يأتي الى المدرسة • ومع ذلك فان عدد الذين أبدوا رغبتهم في تسجيل اولادهم قليل جدا • حتى دومسارا تفضل أن ترسل « لو » التي

الكتاتيب ليتعلم القرآن ٠

ـ عجيب والله ٠ كيف تريدني أن أصدق ما تقوله ؟ اليس ستيبان ايليتش هو الذي قال بنفسه أن الابجدية السلافية لا تكفي للغة الشركسية ؟٠٠ ومع ذلك فالروس أمة كبيرة ، فكيف لا تكفي أبجديتهم اكتابة لغتنا نحن القليلي العدد !٠٠

وكانت دومسارا تتفق في الرأي مع بلاتسة في نقاط كثيرة ٠ ولكنها بقيت مصرة على أن ما يجب تعليمه للاطفال هو القرآن واللغة العربية ٠٠ « ان اللغة العربية هي اللغة التي أنزل الله تعالى بها القرآن ٠ وعلى جميع المسلمين أن يتعلموها ٠ ان الشيشان والداغستان والقوموق يعلمونها لاولادهم ٠ ويقول نورعلي أن معظم الاتراك يعرفونها أيضا ويكتبون بها »٠٠ وكانت دومسارا على استعداد للدفاع عن رأيها ، ولكنها أثرت الصمت والاهتمام بساريمة ٠ أما بلاتسة فقد تابع النقاش حتى بدون معونة دومسارا :

ـ أنا أسلم معك بكل شيء ٠ ولكن عندما تأخذ الى مدرستك قسما من أولاد القرية ، ويذهب القسم الآخر الى الكتاتيب ، فمن الذي سيساعد في الاعمال الزراعية ؟ ومن الذي سيؤمن الطعام للناس ؟ لن يبقى اولاد يرعون الحيوانات او يعشبون الارض ٠ والله سآتي أنا وزوجتي وولدي أيضا الى مدرستك اذا امنت لنا طعامنا ٠ أتظن أنني لا أستطيع أن أمضي نهاري وأنا اخربش الحروف على الورق !٠

ـ ومع ذلك يجب أن يتعلموا ٠ سيتعلمون ، ولكن يجب أن يساعدوا أهلهم أيضا ٠

ـ ها ٠٠ هذا يعجبني ٠ وما رأي ينال بهذا الموضوع ؟

ـ ينال أيضا يقول ذلك ٠

ـ وما رأي فازجري ، سمي ولدي ؟

ـ ان رأيه عجيب حقا ٠

ـ وما هو ؟

ـ يقول اننا لم نعد بحاجة الى كتاتيب ٠

ـ وكيف ذلك ؟

ـ حسب رأيه ، يجب تعليم القرآن في المدارس الحكومية ، واغلاق الكتاتيب نهائيا ٠

ـ هذا ليس سيئا ٠

ونظر أستيمر نحو دومسارا وهو يعرف أن الرأي الاخير اعجبها أيضا ٠ ولكن أسئلة بلاتسة كانت لا تنتهي :

ـ لقد أصبح يلدار من الزعماء الان ، فكيف ينظر الى هذا الموضوع ٠

ـ يلدار متفق في الرأي مع فازجري حول هذه النقطة •

وبقي بلاتسة وأستيمر يتناقشان حول مواضيع شتى ، حتى وصلوا الى مجرى نهر شعلمفوقة ، فسكتا بالرغم من أن كثيرا من المواضيع لم تحسم بعد •

ها هم المسنون من المصلين يجلسون في باحة الجامع مطرقين وهم بانتظار صلاة المغرب • اليوم هو يوم جمعة ، ولا بد أنهم استمعوا الى خطبة دينية رنانة حول أحداث الساعة ،والمدرسة في مقدمتها •وكان أحد المتشددين يعلق : « ان بوتش أستيمر يظن أنه يستطيع أن يقلب الحياة رأسا على عقب • ان آل بوتش شاذون • صغارهم وكبارهم في ذلك سواء • يريدون أن يحيوا بالمقلوب » • وحار المسنون في أمر دولت • فلم يستطيعوا القول أنه من مناهضي المدرسة ، لانه هو الذي قرر منح كل تلميذ كيلا من الذرة • اذا كان معنا حقا ، فلماذا لايتخلى عن الضمان الاجتماعي ! • وقد أخبرهم في المسجد اليوم أن فازجري سيأتي الى القرية يوم الجمعة القادم • ولكن من يعرف حقيقة ذلك ! لو زار المتخان القرية ، فان ذلك يشرفهم ، وسيطيب خواطر الناس •

وعندما رأوا عربة المتخان ، أخذوا يتفرجون على أستيمر وصحبه مندهشين من استعمالهم عربة المتخان المشهورة في كل المنطقة • وجلست ساريمة ودومسارا هادئتين ، مرتبكتين قليلا من استعمالهما العربة الفاخرة • وأمعنوا النظر في ساريمة التي لم تزدد الا جمالا • وقد بدت معافاة تماما وأدهشهم ذلك •• كان بشير هو الذي يقود عربة المتخان الآن • وقد جلس متباهيا في مقعد السائق ، راغبا في أن يرى كل الناس أن مقامه قد ارتفع بعمله الجديد كسائق لعربة المتخان •

أما ساريمة فقد ازدادت ضربات قلبها عنفا لوصولهم الى القرية التي تعرف كل بيت وشجرة وحجر فيها • قبل شهرين فقط نقلوها من هنا ودمها ينزف • وها هي الآن تعود معافاة تماما ، ولم تكن تصدق نفسها • ووصلوا الى شجرة الاجاص البري الوارفة • وعلقت نظراتها بقمة الشجرة التي طالما تسلقتها وهي صغيرة • كان ثمرها قليلا هذا العام • وها هي الثمار القليلة قد اصفرت قبل الاوان وسقطت على الارض • ها هو بيت دومسارا أيضا • ان ديسة وروم قريبتان جدا منه • « لو » ينتظرهم فوق سطح الدار •••

ـ ليت « قازانوقاجياغ » ما زال حيا • هذا الرجل وحده كان يستطيع أن يشرح لهم كل ما استعصى عليهم • يقولون ان حروف الابجدية لا تكفينا • زيدوها اذن • خذوا كيسا كاملا من الحروف • واذا لم تكف فخذوا كيسين ، وانتقوا من الحروف قدر ما تريدون •• ومع ذلك لا أستطيع أن أصدق أنه يمكنك أن تشرح لهم هذه الاشياء باللغة الشركسية • مجسم

الكرة الارضية عبارة عن كرة منالورق ، فكيف تتسع لجبال القوقاز وبلاد قبارديا ناهيك عن بلاد العالم الاخرى ؟.

وأخذ بلاتسه يقسم الايمان المغلظة أنه سيذهب هو وزوجته وولداه الى المدرسة بمجرد افتتاحها ، ولن يهدأ له بال حتى يعرف الحقيقة من الخيال في كل هذه المواضيع .

وركضت ديسة الى الشارع بثوبها الطويل عندما سمعت ضجة العربة. ورآهم أيضا يرول الذي أنهى مهمته في المناداة للاعلان حول افتتاح المدرسة، فاتجه صوبهم هو الآخر . وتوقفت العربة ...

# الفصل الخامس

## كورغوقـــة الاب

عندما بدأت الامطار تهطل بغزارة ، فسر الناس ذلك بأن الله تعالى قد استجاب دعاء الاطفال .. وانهمر المطر ، وغطت الغيوم القريـة من كل نواحيها ، وفاض النهر . فعمت الفرحة الناس رغم ان المطر لم يعد مفيـدا لمزروعاتهم التي جفت ، ولهجت ألسنتهم بالشكر لله تعالى .وزاد عدد الذين يؤمون المساجد . وأخذ المتخان قازجري ينتقل من قرية الى أخرى وهو يوزع مواعظه على الناس ، ويطيب خواطر الذين كادوا يقنطون من رحمة اللـه بسبب الجفاف . وكان يرافق قازجري عدد من الفرسان حتى لا يلاقـي في جولاته ما لا تحمد عقباه .. وهكذا قطع بلاد قبارديا طولا وعرضـا أكثـر من مرة .

وكلما لقي قازجري مزيدا من الاقبال في القرى التي يزورها ، كان يزداد رضى عن نفسه فيلبي جميع الدعوات التي توجه اليه دون تمييز . وشغل يلدار منصب ناشخوة الذي اشتد عليه المرض فأرسلوه الى القرم ثانيـة المعالجة .. وأخذ يلدار يزور القرى والمناطق التي يجد في كل منها مـا يعمله . ولما كان ينال لا يجد وقتا يساعد فيه مسؤول الداخلية الجديد ، فقد تبرع قازجري بمساعدته ، وارتاح يلدار لهذه المساعدة ، مما دفع قازجري الى مزيد من التقرب اليه ، وتقديم المشورة له في كل شيء .

وصار الناس يرون قازجري ويلدار معا في كل مكان من قبارديا .. فـي مناطق ما وراء نهر تيرك ، وباخسان ، وشجم ودزلوقة وغيرها . ولم يعرفا

في جولاتهما معنى للتعب ، وكثيرا ما قضيا الليالي في العربات ، وسارا تحت الامطار متلفعين بالبرانس • وكانا يستقبلان في كل مكان يزورانه أحسن استقبال ، ويردد لهما الاطفال حتى في القرى النائية نشيد قازجري •

ولما رأى قازجري عمق ما يكنه الناس له من احترام ، وما يظهرونه من تقدير ، فكر في نفسه ذات مرة : « ألا يمكن يا ترى أن نعلن الجهاد وننصر الشريعة على السلطة السوفييتية ؟ » ولكنه لم يجرؤ على أن يفاتح بذلك أحدا أو يحاول وضع الفكرة موضع التنفيذ •• وتذكر قازجري بعض أقوال أبيه التي اعتاد أن يكررها له في كل مناسبة : « من يعمل الخير للناس يا ولدي ، لا يلاقي الا الخير » • ولكن المشكلة ما يعتبره هو خيرا لا يمكن أن يوافق عليه بنال أويرضى عنه • لقد كان كورغوقة الاب ، والد قازجري رجلا فاضلا مشهودا له بالذكاء ، وما زال الكثيرون يذكرونه بالخير الى الان •

«البيت بدون الناس كالكهف ، والمائدة بدون طعام مجرد قطعة من الخشب » • هذا قول آخر من أقوال ابيه أيضا •• اذا اعلنت الجهاد ولم ينصرني الناس فسأبقى وحيدا • الله أعلم بشكل البيت الذي يقضي فيه ناشخوة الآن أيامه التي قد تكون الاخيرة من عمره • لم يظهر الشيب في شعره الاسود ، ولكن عينيه الزرقاوين غدتا معكرتين في الآونة الاخيرة • أما هو فانه أشقر ، ولا يشبه أخاه في شيء • « انه مثل أمه في المظهر ، ولكن له غلبا مثل قلبي » هذا ما كان يقوله أبود عنه • وقد نشأ منذ صغره محببا لذكائه ولباقته ، وحسن تصرفه في كل المواقف • واستمرت معه هذه الصفات في شبابه أيضا ورجولته • ونال احترام الكثير من الناس بطول باعه وسعة صدره •

تعلق كورغوقة الاب بولديه منذ نعومة أظفارهما • وقد اعتاد ان يتباهى بهما أمام الناس قائلا : « سيعرفان كيف يعيشان ، ولن يبددا ما سأتركه لهما من ممتلكات » •• وكان فخورا أيضا بحصانه الاشهب الذي يعتبره نادر المثيل في طول البلاد وعرضها • ثم يضيف : « عندما يكبر الولدان ويكون كل منهما أسرته ، سأمضي بقية أيامي باطمئنان ، جالسا الى جوار جدار المسجد كما يفعل المسنون •• » ولو رزق بابنة ، لزوجها لابن احدى العائلات الكريمة وربط معها أواصر القربى ولكنه لم يرزق ببنت ، وهذه ارادة الله • وقد يكون ذلك أفضل ، فالبنت في الدار مثل الضيف ، ما تلبث أن تنتقل الى بيت رجل غريب لتغسل له قدميه •

وعندما يعود الاب من عمله في البراري مساء ، ويرى من بعيد بيته المبني على مرتفع صغير ، كان يشعر بالاطمئنان والراحة حتى قبل أن يصل اليه • فهو نادر المثيل في كل انحاء قرية « شابس » •

لم يكن المتخان كورغوقة راضيا عن نفسه وولديه وبيته فقط ، انما كان راضيا عن جاره أيضا • فان الله لا يهب كل انسان جارا مثل مريمقان

قاسبوت • انهما يعيشان منذ سنوات طويلة متجاورين ، ومع ذلك لم يتبادلا خلال هذه السنوات كلها كلمة نابية • هذا الجار أيضا كان يعيش من عـرق جبينه مثله • وعندما يأتي موسم العمل في البراري ، اعتادت الاسرة كلها آن تخرج معا وتقيم في الحقول حتى ينتهي الموسم • وتجمع الاسرة غلالها بفضل تعاونها في وقت مبكر قبل حلول الخريف • وبعد أن يرتاح قاسبوت عدة أيام ، كان يغادر القرية ثانية ليعمل بالاجرة هنا وهناك ، فيعود وقـد ملأ عربته بالالواح الخشبية والمسامير والاقمشة وغيرها من حاجات البيت •

ومع أن العائلتين عاشتا متفقتين تماما ، تمد احداهمـا يد العـون للاخرى وقت الحاجة ، وكانتا تريدان أن تستمر كذلك العمر كله • فان ذلك لم يدم بسبب خطأ فادح جر المصائب والويلات على كلتا الاسرتين •

جاء عيد الاضحى ، وكعادته كل عام ذبح قاسبوت كبشا سمينا علفه لهذه الغاية • وبعد أن علق الذبيحة على شجرة ، سلخها وأخرج أحشاءها ، ووضع الاحشاء في دلو ، ثم ذهب الى النهر لينظفها • وكانت ربة البيـت تطهو في المطبخ • عاد قاسبوت بعد أن نظف الاحشاء ، وتبادل بعض أطراف الحديث مع زوجته ، وأشعل سيجارة ثم خرج ليتم عمله ولكنه لم يجـد الذبيحة •

ـ هل انزلت الذبيحة أنت ؟ ـ سأل زوجته •
ـ وما دخلي بها ؟ ـ أجابت الزوجة •

بحث قاسبوت عن ذبيحته في كل مكان دون جدوى • وذهب الى جـاره وسأله عبر السياج : « ربما خبأتم الذبيحة لتمزحوا معي » ولكن كورغوقـة لم يكن معتادا على ذلك النوع من المزاح • وعاد قاسبوت نحو الشجرة ثانية فرأى آثار دم على الارض • لحق بالاثر الذي قاده الى ما وراء السياج حيـث وجد كلبهم الكبير المسمى بـ « الدب العجوز » يحاول دفن الذبيحة بعد أن أكل منها ما استطاع أكله •

ـ أيها الكلب اللعين ! ـ قال قاسبوت وهو يعود مسرعا الى البيـت • وأخرج بندقيته • ولما عرف الكلب أن صاحبه لا ينوي به خيرا ، انطلـق يجري بصعوبة نحو بيت كورغوقة • وركض قاسبوت خلفه • ولما اختبـأ الكلب في الفراغ الذي يقع بين الارض وقاعدة البيت الخشبية ، سحب أحد أعمدة السياج وبدأ يدفع به الكلب ليخرجه • وعلى صوت الضجيج وعواء الكلب خرج كورغوقة من البيت •
ـ ماذا تفعل يا رجل ؟ ـ سأله جاره •
ـ سوف أكسر اضلاع هذا الكلب • سأحطم عنقه •
ـ كف عن ذلك • حرام عليك يا صاحبي ـ قال كورغوقة منفعلا •
ـ لقد أكل الذبيحة • أخذه الوباء • سيكون ذلك آخر طعام له •

وجاء ولدا قاسبوت يراقبان اباهما من ثقوب السياج • وبدأ الاصغر يبكي اشفاقا على الكلب ، أما ينال وهو الاكبر فقد خشي الاعتراض على أبيه •

وركض ناشخوة ، ابن كورغوقة البكر خارجا من البيت أيضا ، وهو تلميذ في الكتاتيب في ذلك الوقت •

ـ كف عن ذلك لاخرب الله بيتك ، لقد جاء الكلب الى دارنا مستجيرا•• أقسم بهذا اليوم المقدس انني لن أرضى بأن تقتلــه في داري • ـ قــال كورغوقة وقد طغى عليه الغضب •

وخرج الكلب مذعورا من مخبئه وركض نحوه ، كما لو أنه فهم موقفه• وألقى قاسبوت بالعصا ، وأطلق النار على الكلب فارتمى جريحا على عتبة البيت • وأسرع كورغوقة الى الداخل وعاد يحمل بندقيته •

ـ سألتك بالله أن تكف عن ذلك ، والا •••

ولما كان قاسبوت ما زال خارجا عن طوره من الغضب ، فقد هيأ بندقيته ثانية وصوبها الى الكلب • وصوب كورغوقة بندقيته نحو جاره مهددا • وفي غمضة عين انطلقت رصاصتان في وقت واحد • أصابت احداهما الكلب ، وأوقعت الاخرى قاسبوت على الارض •

وعلى صوت اطلاق النار اجتمع اهل الحي بسرعة • مات الكلب عنــد عتبة البيت • أما قاسبوت فقد أسند رأسه الى جذع شجرة توت كبــيرة في وسط الدار والبندقية ما زالت بين يديه ، دون حراك • وخيل لكل من رآه أنه سيقفز على قدميه بين لحظة وأخرى لينتقــم ممن يتــم أولاده ورمل زوجته • لكن حياته كانت قد انتهت • أما كورغوقة الذي شعر بفداحــة ما ارتكبه ، فقد جلس القرفصاء وأخذ يبكي ممسكا برأسه بين يديه • ولم يسأل أحد من القادمين عن شيء • ما حدث كان واضحا ومفهوما ولا يحتاج الى شرح • أما زوجتا الجارين فقد أخذتا تعولان عويلا يقطع نياط القلوب • ومن أولاد قاسبوت لم يفهم ما حدث سوى ينال ، اما الاخرون فقد أخــذوا ينظرون الى أبيهم منتظرين قيامه وعودته الى البيت • وفكر ينال وهــو يكظم غيظه « علي أن آخذ بثأر أبي عندما أكبر • وقد أقتل العجوز قبــل ذلك • واذا مات ، فلا بد منقتل أحد ولديه » ••• كان الاولاد يلعبون معــا ، وقد فرق بينهم الدم منذ تلكاللحظة •• من لا يأخذ بثأر أبيه ، يغدو مهزلة أمام الناس ، وتؤلف حوله أغاني الهجاء والسخرية •

وفي نفس ذلك اليوم ، اتخذ المسنون في القرية قرارا بأن يدفع كورغوقة لاطفال قاسبوت : حصانين وثلاث بقرات وعشرين نعجة وأربعين مدا مــن الذرة الصفراء ، وذراعين من القماش لكل طفل من أطفاله ، وفروة صغــيرة لكل منهم في أول الشتاء • واذا نفذ كورغوقة ذلك ، فمعناه أنه صالح عــن

دم القتيل ولم يعد لاحد الحق في الاخذ بالثار ·· لم يعترض كورغوقة على شيء مما فرضوه عليه لندمه على ما فعل ، ندم كان على استعداد معه لان يتنازل عن كل ما يملك ·

ـ سأتحمل كل ما تفرضونه علي · ـ هذا كل ما استطاع قوله ·

أما الذي حز في نفسه أكثر من كل شيء اخر ، فهو اضطراره للرحيل من بيته الذي ألفه طوال عمره ، وارتبطت به ذكريات شبابه وأفراحه ، وذلك تنفيذا لآخر بند من قرار المسنين · ولما استصعب هدم البيت لنقل مواده الى مكان آخر وبناء بيت جديد· فقد فكر أن يبيعه ويستفيد من ثمنه، لبناء بيت آخر في قطعة الارض التي منحوها له في أطراف القرية ·· ولكنه لم يجد من يشترى البيت سوى ستيبان ايليتش الذي اعترضت عليه وارة قائلة : « لا أريد مثل هذا الجار الكافر » · ولكن كورغوقة باعه البيت لانه لم يجد شاريا آخر ·

واستقر كورغوقة في بيته الجديد ، ولكنه كثيرا ما اختلق الاعذار لزيارة مسكنه القديم ، وكان يسلم نفسه لتأنيب الضمير وهو يستعيد ذكريات الايام السالفة · كيف لا يعذبه ضميره وهو الرجل المسالم الذي لم يسبق له أن ذبح نعجة في حياته كلها · وما زال الى الآن ، يستدعي أحدهم حين يريد أن يذبح ذبيحة ، ليذبحها له مقابل أحشائها واطرافها · صحيح أنه يملك بندقية ، ولكنه لم يسبق له أن قتل بها ولو عصفورا ·

ومع مرور الايام اقتنع كورغوقة أن الشيطان بنفسه هو الذي دفعه الى الضغط على الزناد في ذلك اليوم المشؤوم · والا من يقتل صديقا مثل قاسبوت الذي لم يأت ضيف ، او تحدث مناسبة عند أحدهما الا وكان الاخر أول المدعوين اليها · وكلما تذكر هذه الاشياء ، كانت الدموع تغلبه فيبكي بكاء الاطفال ·

لم يرفع بندقيته طوال حياته في حالة غضب سوى مرة واحدة · وانظر الى ما فعل في تلك المرة · لقد قتل اعز الاصدقاء وأصدق الجيران · أتوجد مصيبة أكبر من ذلك بالنسبة الى الاسرتين · ·انه تائه الان ، لا يدري ماذا يفعل · سيكبر اولاد قاسبوت · ومن يدري بماذا سيفكرون بعد ذلك· ان طلقة بندقية جلبت كل تلك المصائب ، ولكن من يضمن انها ستكون الاخيرة بين الاسرتين ·

وغرق كورغوقة في بحر من الهواجس والافكار ·· انه يعرف التقاليد الشركسية جيدا · فمن واجبه أن يرعى الايتام الذين خلفهم قاسبوت ·· ولكن السؤال الذي ظل يلح عليه ولايجد جوابا شافيا له هو : ماذا بعد أن يكبروا ؟ ماذا اذا صمموا على الاخذ بثأر ابيهم ؟ الى أين يذهب عندها هو وولداه ؟!·· ان عليه الان ان يؤمن للاسرة المنكوبة كل ما تحتاج اليه من ملابس دافئة وطعام وحطب ، فقد يلين ذلك قلوبهم مع مرور الايام · ولكن

في القرية عددا من الاوغاد ، وكورغوقة ـ والحمد لله على ذلك ـ لا يخلو من الاعداء ، وهؤلاء سيعملون على تذكية نار الحقد في قلوبهم ، وسيذكرونهم ان تسوا ·· أكبر الولدين هو ينال ؛ ويبدو ولدا ذكيا عاقلا ، ولكنه سيفكر بأشياء كثيرة عندما يحصل على أول خنجر او بندقية جيدة · ينال وناشخوة ولدا في عام واحد وقد أحبا بعضهما وتصادقا منذ نعومة أظفارهما ، ولكن ماذا يخبىء لهما الغد ؟

ان ينال بجفنيه المنتفخين قليلا لن يكون سهلا في المستقبل على الاطلاق · وكل من ينظر اليه يستطيع أن يكتشف بسهولة ، أنه تحت هذا المظهر العاقل المهذب يخفي حياة داخلية موراة ، وأن هنالك أشياء فوق مستوى عمره تشغل باله · وهو ليس من النوع المتقلب الذي يمكن أن يتراجع بسهولة · أيمكن أن يعيش ينال هذا مع ناشخوة وقازجري في وئام في المستقبل ؟ اذا وصلت الامور بينهم الى نقطة التحدي ، فلن يكون هو أول المتراجعين على أية حال حسبما يبدو عليه منذ الان · وعندما فاتح زوجته بهواجسه يوما ، وافقته الرأي والحسرة تحز في نفسها ·

اذا أصبح ابنك رجل دين يؤم الجماعة ويقودها · أو موظفا حكوميا يعرف اللغة الروسية ويسهل أعمال الناس ، فلن يكون النيل منه سهلا عندها ·· هذه هي الفكرة التي تبلورت في ذهن كورغوقة بعد تقليب الوضع على جميع وجوهه · ومن حسن حظ ناشخوة أن تفكير والده اتجه هذا المنحى · فهو بذلك قد تخلص من حياة يقضيها وراء الثيران ، شأنه شأن جميع الرجال في قريته ·

وحزم كورغوقة أمره أخيرا · سيرسل قازجري وهو الاصغر الى الكتاتيب ومنها الى المدارس الشرعية ليكمل تحصيله الديني · الولد ذكي وسيحفظ القرآن بسرعة · ومن يدري ؟· قد يصبح رجل دين ذا شأن · فيحول الناس بينه وبين ينال بعد ذلك · أما ناشخوة فيجب أن يذهب الى مدرسة محطة القوزاق القريبة من القرية · ولم تعترض أمينة زوجته من كل هذا المخطط سوى على شيء واحد : الولد ما زال غض الاهاب ، فكيف تسحبه من الكتاتيب وترسله الى مدرسة روسية ؟ ولكن كورغوقة كان يعرف ما هو الافضل : اذا صار أحدهما شيخا ، يجب أن يكون الاخر موظفا حكوميا · ليس من المستحسن أن يصبحا كليهما رجل دين · واتفق رأي الاسرة اخيرا على ما قرره الاب ·

وما أن حل الخريف حتى بدأ ناشخوة يذهب الى مدرسة المحطة · في الايام الممطرة كان يذهب على حصان ، أما في أيام الصحو ، فقد اعتاد أن يذهب ماشيا · وذهب كورغوقة مع ابنه اكثر من مرة ، وقابل رئيس المحطة ، كما قابل معلمي المدرسة ومعه بعض الهدايا وأوصاهم بابنه · أما قازجري فقد أرسله الى الكتاتيب ·

وهكذا عرف كورغوقة الحريص ، والمطلع على مجريات الامور في

زمانه كيف يخطط مستقبل ولديه ، اما ينال الذي كان كبير أخوته ، فقد أصبح مسؤولا عن الاسرة ، ولم تخطر مشاريع الدراسة له على بال حتى في الاحلام . ومن الذي سينفق على تعليمه حتى لو فكر بذلك ! انه محظوظ لانه يجد لقمة العيش .. وطريقه مختلف تماما عن طريق ولدي كورغوقة .

## ناشخوة

أخذ ولدا كورغوقة يدرسان جيدا كما أراد الاب . فهذا ناشخوة يجتاز النهر كل يوم متأبطا كتبه ، وانسجم مع التلاميذ ولم يعودوا يسخرون منه كما كانوا يفعلون في الايام الاولى . ولم يعقه شيء عن الذهاب الى المدرسة سوى فيضان النهر . وكان يبذل كل طاقته على أمل أن يصبح موظفا بعد أن ينهي دراسته كما خطط له أبوه . انه لا يشبه أباه في شيء ، فهو شاحب ونحيل ، وعيناه غارقتان في محجريهما . وعندما يضايقه شيء يتصبب العرق من أنفه . وهو بالاضافة الى ذلك متوسط الذكاء . أما أخوه الاصغر فهو أكثر حيوية ، قوي البنية وذكي ، وها هو يحفظ القرآن حائزا على رضى والديه التام .

ان قازجري يحفظ كل ما يسمعه ولا ينساه . وفوق ذلك يجتهد في التحصيل دون كلل او ملل ، لانه سمع أن تحصيل العلم يشبه حفر بئر بابرة . وبالرغم من أنه ما يزال يافعا ، فانه يؤدي الصلوات الخمس كالكبار . ويتلو القرآن بصوت رخيم يجعل دموع النسوة اللاتي تأتين للاستماع اليه تسيل . ان قازجري لا يخاف بعد الله تعالى سوى من صوت الرعد الصيفي الذي ما أن يبدأ حتى يهرع الى سجادة الصلاة ، ويأخذ في الابتهال الى الله أن يشمله بعطفه ورعايته .

تابع الولدان المشاركة في الاعمال الزراعية الى جانب دراستهما ، لكن الابوين أعفياهما من ذلك مؤكدين أنهما لا يريدان شيئا سوى متابعة تحصيلهما العلمي والنجاح فيه . وهكذا ازدادت أعباء الابوين اللذين عملا دون كلل ، ولم ينسيا في أي ظرف من الظروف مساعدة أيتام قاسبوت .

جاء شهر رمضان ، وأخذ تلاميذ الكتاتيب يذهبون الى المسجد كل مساء ليرتلوا القرآن ، وهم يتنافسون على من ستكون سورة « قل هو الله أحد » من نصيبه . وتغلب حظ قازجري على بقية الاولاد كالعادة ، وأخبر والده بأنه فاز بالسورة . ففرح بذلك فرحا شديدا . وفي صبيحة العيد ، أولم وليمة « شكر لله » كبيرة كما جرت العادة ، دعا اليها جميع رجال الدين وأتباعهم ، كما دعا طلاب العلم « مجردي الموائد من الطعام » كما كانوا يلقبونهم تحببا .

ومرت الايام . وجاء النبأ السعيد ، فأمضت أمينة نهارها وهي تمسح

دموعها تأثرا وفرحا · سيرسلون قازجري بصفته من أبرز التلاميذ الى المدرسة الشرعية في مدينة باخسان · ومن الممكن أن لا يتوقف هناك طويلا اذا تابع اجتهاده · وانما قد يرسلونه الى القرم ليتابع تحصيله في المعهد الديني الثانوي بمدينة « باختشاسراي » وهل يوجد شركسي أرسله عقله الى تلك المدينة ؟ قد يكون «قازانوقاجباغ » او « نوغمة شورى » (١) ذهبا اليها ، أما غيرهما فلا ·

ـ سيحصل ابنك علما غزيرا يا كورغوقة · نرجو من الله تعالى أن يمد في عمره · ـ قال معلم الكتاتيب وهو يدس بلقمة كبيرة من الطعام تحت شاربيه ·

ـ وفقك الله · سنرى اذا بقينا أحياء ·

ـ يا لها من سعادة · ان الله يكافئك لانك لا تضمر الا الخير · ـ ردد المعلم الشيخ وهو يعب جرعة كبيرة من « الباخسمة » ·

صدقت التوقعات · وأرسلوا قازجري بعد عام واحد الى القرم · كان الولد في الخامسة عشر من عمره فقط ، عندما انفتح امامه ذلك الطريق الطويل · ولم يكن للصبي النحيل الجميل الملامح ، من مطمع في الحياة في تلك الايام سوى أن يصبح رجلا شهيرا بحكمته مثل « قازانوقاجباغ » أو عالما مثل « نوغمة شورى » او على الاقل مثل معلمه « تساغوة نوري » (٢) الذي علمه في مدرسة باخسان وتعلق به تعلقا شديدا · كان نوري ذا ثقافة غزيرة واطلاع على العالم الواسع ، وله أفكار بهرت الصبي · ثم انه كان يكتب باللغة الشركسية معتمدا على الابجدية العربية كما كان يفعل الشراكسة الذين يعيشون في تركيا · وقد شاركه قازجري الرأي في فضيله الابجدية العربية على الابجدية الروسية ؛ بالرغم من أن هنالك آخرين ينادون بالاعتماد على الحروف السلافية ·· وعاد قازجري الى البيت ليجهز نفسه قبل رحيله الى القرم ·

ولم يكن قازجري هو وحده الذي حالفه الحظ · فقد انهى ناشخوة أيضا دراسته في مدرسة المحطة ، وأرسلوه الى مدينة « تيرك قالة » ليعمل موظفا في محكمتها ، حيث استأجر له أبوه غرفة ليقيم فيها ، واتفق مع أحد طلاب الجامعة ليساعده في التحضير لامتحان القبول في الجامعة · وكان ناشخوة أيضا ينوي الذهاب بعيدا في دراسته ·· وهكذا وفق الاخوان في تحصيل العلم

---

(١) مؤرخ شركسي من القرن التاسع عشر ·

(٢) هاجر نوري الى سوريا في نهاية القرن التاسع عشر ، وفيها اتقن اللغة العربية ، ثم عاد الى القفقاس قبيل ثورة اكتوبر ، وساهم في ارساء قواعد الثقافة الشركسية الحديثة . وما يزال بيته موجودا في قرية « بئر العجم » التابعة لمحافظة الجولان ·

كما لم يوفق أحد ، ليس في القرية فقط ، وانما في قبارديا كلها ٠

واعتبر كورغوقة أن كل ذلك ليس الا توفيقا من الله تعالى ٠ « من يعمل مثقال ذرة خيرا يره » هذا ما كان يردده كثيرا ويداوم على أداء الصلوات الخمس ٠ ولما سمع ناشخوة بذهاب أخيه الى القرم ، عاد الى القرية ليودعه ٠

وعندما حانت ساعة الرحيل أخذت أمينة تبكي وكأنها لن ترى ولدها بعد اليوم ٠ وسالت دموع كورغوقة أيضا ، ولكنه أخفاها ٠ ثم فتح الصندوق الأسود العتيق الذي لا يفتحه الا نادرا ٠ وأخرج منه حزاما فضيا ٠ ـ لقد ورثت هذا الحزام عن أبي ٠ ـ قال كورغوقة وهو يقدم الحزام لولده ـ انها هدية من الشيخ شامل نفسه ٠ قدمها لوالدنا عندما ذهب الى داغستان مع وفد من قبارديا لمقابلته ٠ ولم يخلعه منذ ذلك اليوم أينما ذهب حتى مماته ٠

وأوشك قازجري أن يبكي ٠

ـ اقسم لك يا والدي أن لا أقترف ما يخجلك أو يجر العار على أسرتنا ٠ ـ قال وهو يأخذ الحزام من أبيه ٠ ولم ينس ناشخوة وأمينة هذا الموقف بعد ذلك أبدا ٠

واجتمع عدد كبير من أهالي القرية لوداع قازجري ٠ وكان بعضهم يقول ان جو القرم لا يعرف الشتاء أبدا ٠ بينما أصر آخرون على أن برد الشتاء هنالك يجعل حتى جذوع الاشجار تتفسخ ٠ ولم يكن طالب العلم ليتراجع عن عزمه لمثل هذه الانباء ٠ فحمل معه فروة ليلبسها أيام البرد ، بالاضافة الى كفوف وجوارب من الجلد الطري ٠ وقد فرح أكثر من أي شيء آخر بالملابس الداخلية التي اشتراها له أبوه ، والتي لم يعرفها من قبل ٠

ـ ستعيش في القرية يا ولدي ـ قال له أبوه وهو يقدم له أيضا قلبق الفراء الثمين الذي لا يرتديه الا في المناسبات ـ اذا بقي الرأس سليما فلن ينقصه غطاء ٠ احم رأسك جيدا يا ولدي واياك والتهور ٠ سيشملك الله برعايته ويوفقك ٠ احترم الكبار ، واسمع كلام معلميك ولا تسيء اليهم٠ نحن لا نطلب منك أن تحضر لنا أموالا وأملاكا ٠ لا نريد منك سوى أن توسع مداركك ، فاجتهد في تحصيل العلم ٠ اكتب لنا بكل ما تحتاجه ، سندبر أمورنا بطريقة ما حتى نؤمن لك كل حاجاتك ، فلسنا فقراء والحمد لله ٠ اننا نجد ما نريده وما عليك أنت سوى أن تكون صادقا مع الناس ، ومع أصدقائك بشكل خاص ٠ البيت الخالي من الناس كالكهف ، والمائدة دون طعام مجرد لوح من الخشب ٠ اذا تمتعت بالعقل فلن يعوزك المال ٠

استمع قازجري الى نصائح والده جيدا ، ولم تفته نصيحة واحدة ، ولم ينسها بعد ذلك أبدا أينما ذهب ٠ وردد في نفسه « يا له من أب ! » ٠٠٠

صعب عليه في اللحظات الاخيرة أن يفارق والديه وقريتــه ومرابــع طفولته ، وغلبته الدموع أكثر من مرة ولكنه كان يتماسك وهو يتذكر مـا رددوه على مسامعه مرارا : « تعلم ! ستصبح زعيما للمسلمين يا قازجـري اذا تعلمت جيدا » •

ـ لن أنسى الله أينما حللت يا أبي • ولن أدعهم يقولون عني يوما أنني كسول • سأقرأ كل كتاب يقع بين يدي ، ولن يتمكن مني ابليس يومـا ليصرفني عن العلم • أعدك بذلك يا أبي •

ووجد في القرية من لم يعجبه صنيع كورغوقة • « انك ترسل ولديـك الى حيث لن يعودا أبدا • فماذا تنتظر بعد ذلك ؟ ومن الذي سيؤويك فـي شيخوختك ؟ كلنا سنشيخ يوما ، فعلى من ستعتمد أنت في شيخوختك ! » ولكن كورغوقة كان من عادته أن يتجاهل كل كلام لا يعجبه •

ـ رأسه يابس ، انه هكذا طوال عمره •

ـ وهل هو يابس الرأس فقط • انه من عائلة مشهورة بالترفع • يظن أنه يهيء ولديه لاستلام زمام قبارديا • فماذا سيفعل اذا لـم يقدرا عـلى ذلك ؟•

وعندما أوصلوا الصبي الى المحطة ذهب معه عدد كبير مـن الاقارب والاصدقاء • ولفت الاب والابن اللذين تعانقا للوداع انظار النـاس • وحمـل المودعون أمتعة قازجري التي كانت كثيرة • وبعد أن انتهــى وداع الاب والابن ، وقف الاخوان يتحدثان همسا • ولم ينقطع بكاء الام طوال الوقت• فذهاب الابن الى القرم ليس سهلا عليها بأي شكل • لطالما سمعت أن التتار أيام « تيمروقة » كانوا يأتون من القرم كل عام ويأخذون عددا من الشباب والفتيات من كل قرية كضريبة فرضوها على البلاد • وها هي الآن ترسـل ابنها الى القرم من تلقاء نفسها دون أن يجبرها أحد على ذلك • قد يعود، ولكنه قد لا يعود أيضا • وكيف سيمضي شتاء القرم ••؟ ان الشتاء قارس هناك كما يقولون •••

وركب قازجري القطار أخيرا •••

ومهما حاولنا أن نختصر الكلام ، فاننا لا نستطيــع اختصار الايـام والاشهر التي تلاحقت يوما بعد يوم ، وشهرا بعد شهر •• وبقي كورغوقـة الاب وحده في البيت مع الام • وكان عليه أن يقوم بنفســه بكل الاعمـال الزراعية في حقول البراري البعيدة ، وفي البستان ، وأن يعنى بالمواشـي والخيل • وكانت تمر عليه أيام لا يجد فيها وقتـا لتأديــة الصلاة مـع الجماعة في المسجد •

واعتاد ناشخوة أن يزور القرية بين حين وآخر • فينتشر خبر عودتـه وهو الموظف في القرية كلها • ويأتي أصدقاؤه لزيارته ، ويصطحبونه الـى

الحفلات والسهرات • ولكنه كان ميالا الى العزلة ، ربما بسبب سوء صحته • فهو شاحب دائما ، كثير السعال ، وربما يخشى أن يشمئز الناس منه لذلك • ولهذا كان يجلس صامتا معظم الوقت اذا وجد نفسه بين مجموعة من الناس • لكنه مع ذلك نال اعجاب الفتيات لنظافته ، ولحسن هندامه بالمقارنة مع شباب القرية الآخرين الذين يمضون أشهر الصيف في المراعي الجبلية العالية • وأشاعت أكثر من واحدة من فتيات القرية أنه على وشك أن يتقدم لخطبتها •

ـ وهل أقبل أنا زوجا به ؟ لا قدر الله ! •
ـ اسكتي أرجوك • والله انك ستفرحين به •
ـ لا والله • انني جادة • ماذا يشبه بهيكله النحيل ؟ الرجل يجب أن تنبعث منه رائحة البارود والتبغ • أما هو فلا تنبعث منه سوى رائحة الادوية •
ـ أرأيته ؟• لم يبق منه سوى الجلد والعظم • ان الكتب الروسية قضت على صحة الشاب المسكين وسلبته عافيته •
ـ الرحمة يا رب • أتظن أن الكتب هي السبب ؟
ـ وماذا تظن اذن ؟ ألا تعرف معنى أن يقرأ المسلم الكتب الروسية ! يقولون « ان الغريب يأخذ بثأر البريء » • صحيح أن ينال لم يأخذ بثأره بعد ولكن الله يرى كل شيء •
ـ صحيح والله • ايه •• لكل ظالم نهاية ••

ذات يوم حدث في القرية ما أدهش الجميع • قام تمرد كبير في دزلوقة• وحدثت مواجهة بالسلاح بين السلطة والفلاحين • كان قازجري ما يزال في القرم • وبعد تلك الاحداث التي نفي فيها « باشه مراد » والد يلدار الى سيبيريا ، لم تبق في قبارديا كلها قرية الا ونفي أو سجن عدد من رجالها •• ولكن الذي أدهش الجميع أكثر من أي شيء آخر نتج عن تلك الاحداث ، هو هرب ينال الذي لم يكن قد جاوز السادسة عشر من عمره وقتها واختفائه وهو الذي لا يعتبر في السعير ولا في النفير كما يقولون •

وبقيت الام ورارة وحدها في البيت • « يا الهي ! هل رأى احد تلك المرأة نائمة او راقدة ترتاح ؟ » هكذا كانوا يتساءلون عندما يذكرون تلك الارملة المسكينة •

وبالرغم من أن الاطفال لم يكونوا قادرين على مساعدتها بشكل جدي بعد رحيل ينال ، فقد كانوا يؤدون لها الخدمات الخفيفة التي تحتاج اليها• بينما تقوم هي بكل أعمال البيت • وتذهب الى البراري لتحصد الحشيش بمنجل طويل اليد كالرجال ، ويجمع الاولاد أكوام الحشيش من ورائها ليطعموا مواشيهم • وتذهب الى الغابة أيضا وتحتطب • وتنصح أطفالها كل ليلة وهي تطعمهم أمام الموقد :

ـ « من لا يملك ثورا فهو يحرث على عجل » كما يقول المثل · لا تدعوا أعداءنا يشمتون بنا · لا أريد أن يقولوا : انظروا الى دارهم فقد أصبحت خرابا بعد موت الاب · ليعمل كل واحد منكم ما يستطيع عمله ولا تخربوا شيئا · سيعود ينال أيضا فلا تقلقوا عليه · لن أدعكم تجوعون ما دمت أنا حية · ولن أقبل أن تشتهوا شيئا دون أن تحصلوا عليه · ـ هكذا كانت تخاطب صغارها ·

وفي أيام الاعياد · عيد رمضان وعيد الاضحى · كانت ورارة تلبس ثوب زفافها ، وتجلس وحدها تبكي ساعة او ساعتين ثم تخلع الثوب وتعود الى أعمالها وقد احمرت عيناها وتورمتا ·

وبعد مرور بعض الوقت على رحيل ينال ، جاءتها اخبار منه يقول فيها : لا تقلقي يا أمي · أنا بخير ، وأعمل في ورشة لتصليح القطارات ·· ففرحت بذلك وكأن زوجها قد عاد الى الحياة ثانية · ولكنها شعرت بالقلق من طبيعة عمله · العربة اذا تعطلت يمكن اصلاحها عند الحداد · ولكن القطار ! كيف يستطيع ينال اصلاحه ؟ وماذا سيكون مصيره اذا انفجر بهم وهم يقومون باصلاحه ؟ ثم تهدىء نفسها قائلة : بما أنه أصبح قادرا على اعالة نفسه ، فمعنى ذلك أنه أصبح رجلا ، وسيعرف كيف يدبر أموره ·

ـ عاد ينال ·· عاد ينال ·· ـ أخذ الصغار يتصايحون ·

واندهش كل من سمع الخبر · وجاء بعضهم ليتأكد من صحته · ذلك لان الروايات عن أسباب اختفائه كانت كثيرة ومتنوعة · ومع ذلك تبين أنه عاد فعلا ومعه هدايا وملابس لاخوته الصغار · بالاضافة الى منديل صوفي كبير ، ومكعب من السكر لامه ·

ورغم فرح ورارة بعودة ابنها ، لم تخف قلقها عليه · فقد يأتون ويأخذونه ليسجنوه او ينفوه · وهو ليس الا صبيا كبيرا بعد على أية حال · وودت أن تبقي خبر عودته سرا ، ولكن أنى لها ذلك ·· أما ينال فقد عاد وهو على قناعة تامة بأنه لم يقترف ما يستحق السجن عليه · ما ذنبه هو اذا كانوا قد ألقوا القبض على ستيبان ايليتش ! لقد تعلم أشياء كثيرة في المعمل الذي اشتغل فيه · حتى أنه هنالك فقط عرف السبب الحقيقي لسجن ستيبان ·

وفرحت ورارة كثيرا عندما علمت أن ينال يقبض أجرته اسبوعيا · فهي قد شغلت ولديها الآخرين « أوليس » و « حجسيت » عند أحدهم عاما كاملا ومع ذلك لم يدفع لهما كوبكا واحدا ·

وكانت الارملة قلقة على ابنها البكر لاسباب أخرى ايضا · فقد علمت أن ناشخوة قد عاد الى القرية في نفس الوقت · ومع أنه مجرد موظف ، فانها تظن أنه يشغل منصبا خطيرا · وأن بامكانه أن يوعز في أية لحظة بالقبض عليه فيقبضون عليه · أليس من الممكن أن يلجأ ناشخوة الى هذا الاسلوب

خوفا من ينال ؟ وعلى فرض انه لم يفعل ذلك ، فقد يحاول ينال الاخـــذ بثأر ابيه عندما يلتقيان ، وبذلك يخرب البيتان من جديـــد كما يتوقـــع الكثيرون ٠

وصادف في تلك الاثناء أن أقامت احدى فتيات القرية حفلة « بشنـــه غافه » ، فأرسلت تدعو ينال للحضور ٠ وما كان ليذهب لو عرف أن ناشخوة أيضا سيحضرها ٠

كانت الفتاة تدعى « ميليسة » ولم تكن تملك اكورديونا لتعزف عليه، لذلك قررت اقامة هذه الحفلة حسب التقاليد التي يحترمها الجميع ٠ فصنعت كمية كبيرة من « الماخسمة » وهي عبارة عن خمر الذرة المحلى بالعسـل ٠ وفي اليوم المحدد غادر والداها البيت حتى لا يزعجا الشبـان والشابـــات ٠ وانهمكت الفتاة مع صديقاتها في اعداد الطعام ٠ وفي المساء اجتمع الشبان حول المائدة العامرة بالمشروب اللذيذ المذاق وأطايب الطعـــام ، وأخـــذوا يشربون من وعاء واحد كبير يدور عليهم واحدا بعد الآخر ، وهم يتبارون في الشراب والقاء الانخاب ٠ بينما وقفت الفتيات بانتظار حفلة الرقصــ ٠ ووصل ينال الى مكان الاحتفال ٠

ـ السلام على الجماعة ٠

ـ وعليك السلام ٠ تفضل ٠

وبالرغم من ضوء القنديل الشاحب ، عرف الجميع ينال ٠

ـ اجلس ٠

ـ هيا أعطوه ليشرب نخب الجماعة ٠

ـ تعال الى هنا ٠

ـ لا سأجلس هنا ٠

ـ اقسم بالله انك لن تجلس هناك ، تعال الى صدر المائدة ٠

وهكذا أجلسوه في صدر المائدة ٠ ولم يكن ينال يخلو من المنافسين ، فسمع بعضهم يعلق « أقسم انه متخم بلحـــم الخنزير من عند القوزاق » ولكنه تظاهر بأنه لم يسمع شيئا ٠

وبعد أن أتوا على محتويات المائدة ، قام الشباب متثاقلين ، وأخـــذوا يقتربون من صاحبة الحفلة واحدا بعد الاخر ، ويضعون في وعاء خشبي كبـير وضع جانبا قطعا من النقود الورقية والمعدنية ٠ واضطـــر بعضهم الـــى استعارة محافظ نقود أصدقائهم ٠ أما الآخرون فقد أخرجوا بضع قطع مـــن النقود الورقية من محافظهم حتى يظهروا للاخرين انهم يملكون مالا ٠ أمـــا اكثرهم فقد تبرعوا بقطعة النقد الورقية الوحيدة التي يملكونها ٠ وهكـذا أهدى كل واحد من الشباب الى ميليسة المبلغ الذي قدر عليه مبتسما لهـــا راضيا كل الرضا ٠ وكانت الحصيلة كافية لشراء أكورديون جديد يؤهلهـــا لان تحتل مكانها بين العازفات في القرية ٠

أما ينال فقد تبرع بثلاثة روبلات ورقية جديدة ، ولما أخرجها من عبه وهي تطقطق ، علق أحد الشباب مازحا :

ـ ينال ! أليست هذه الروبلات من مخلفات أيام كنت تطبع النقود أنت وستيبان ايليتش ؟ • ـ فضحك الجميع وسكت ينال •

ـ هيا بنا • أين عازفة الاكورديون ؟

وهكذا انعقدت حلقة الرقص على الفور ، وأخذ الجميع يصفقون بقوة • وكان ينال منشرحا لانه لم يحضر حفلة رقص في القرية منذ زمن طويل • وقد عزم أن يرقص رقصة « الوج » مع ميليسة صاحبة الحفلة • وبعد أن أنهى الجميع رقصتهم الاولى واحدا بعد الآخر ، بدأت العازفة تعزف معزوفة « الوج » التي يفضلها جميع الشباب والشابات لانها تتيح لهم التماسك بالايدي وتبادل الاحاديث • وفي اللحظة التي هم فيها ينال أن يذهب الى ميليسة ويتأبط ذراعها ، صاح شاب يلبس معطفا رماديا ، ويزين صدره بمواسير البارود ذات الاغطية الفضية ، شأن ميسوري القوم :

ـ دعي الاكورديون يهدأ ، فقد توقف القمر •

فهم الجميع معنى هذه العبارة • يقولون أن الانسان عندما يلتقي بأفعى فان الشمس تتوقف في مكانها بانتظار ما سيفعلانه ، وكذلك عندما يلتقي عدوان لاحدهما ثأر عند الآخر ، يتوقف القمر ويتساءل : هل سيضيع دم البريء هدرا يا ترى ؟

واقشعر جسم ينال كله لدى سماعه هذه الجملة • ولما أمعن النظر في الواقفين رأى ناشخوة وقد ازداد شحوبا على شحوبه بسبب لقائه غير المتوقع بينال •

كان ينال قد فكر مرارا من قبل : ماذا سأفعل حين ألتقي به ؟ ان صورة ابيه القتيل المتكيء على جذع الشجرة ما زالت مرتسمة في مخيلته • ولكنه لم ينس أيضا كلمات ستيبان ايليتش . ان عادة الاخذ بالثأر تشبه مرضا ساريا يعاني منه المجتمع • ويجب أن نعمل حتى نستأصل هذا المرض من جذوره •• ولكنه اذا لم يفعل شيئا الآن فسوف يعتبرونه جبانا ، وقد ترسل اليه بعض الفتيات قطعة قماش من أثوابهن امعانا في تحقيره • وقال الشاب ذو المعطف الرمادي محرضا :

ما زال القمر واقفا في مكانه ، هل ستتركونه ينتظر طويلا ؟•

لكن ينال تمالك نفسه قائلا :

ـ تابعي العزف على الاكورديون يا جميلتي • ـ ثم عاد يصفق متابعا الايقاع كدليل على أن شيئا لن يحدث الآن • ولما تناغم العزف والايقاع من جديد تقدم من احدى الفتيات وتأبط ذراعها وأخذ يرقص رقصة « الوج »

وكأن شيئا لم يحدث • ولما حاذى ناشخوة ، التفت اليه بطرف عينيه • لو اشتبك الشابان في تلك الليلة؛كان نجم ناشخوة هو الذي سيهوي بالتأكيد•• ولكن لم يهو أي نجم في تلك الليلة •

## قــــازجري

ولمع نجم قازجري بعد أربعة أعوام من دراسته في القرم لم يزر خلالها القرية • آخر رسالة وصلت منه أثارت دهشة اهل القرية ، كما أثارت مـن التعليقات والاقاويل أضعاف ما أثاره موقف ينال عندما رفض أن يأخــــذ بثأر أبيه من ناشخوة • وأخذ كورغوقة الاب الرسالة الى نالتشك ليقرأهـــا له أحد معارفه ، وليتأكد من محتواها بالضبط •• هذا ما كان يقوله قازجري في رسالته أوشكت دراستي هنا على الانتهـاء ، لكنني لــن أستطيــع العودة الى القرية قبل مرور بعض الوقت لانهم يرسلونني للدراسة فــي الاكاديمية الاسلامية باستامبول ومعي خمسة طلاب من المتفوقين •

اصبحت أمينة على قناعة تامة الآن أنها لن تلتقي بابنهـــا الا يوم القيامة • كيف سيقطع البحر اللعين ؟ لا أصدق أن السفينة لن تغرق بهم • وهكذا أخذت تبكيه سلفا قبل ركوبه البحر •• حدث ذلــك بعد أحـــداث « دزلوقة » بعام واحد • وبعد مرور عام على ذلك اليوم ، جاءت رسالـــة من استامبول ، وتتابعت الرسائل بعد ذلك وهي تحمل نفس الخاتم • ومع أن الاب كان يفرح بهذه الرسائل ، الا أن محتواها لم يعجبه • لان قازجـري صار يطلب مبالغ من المال مرة بعد اخرى ، ويلح في الطلب • وفكر كورغوقة « هل يطلب ولدي هذه الاموال ليتاجر ويعود ثريا بعد الحرب يا ترى ؟ » يقول انه يريد أن يشتري بعض الآلات • « ربما ينوي أن يفتتح مصنعا » هكذا خمن في نهاية الامر • ان ولدي ذكي ، ويعرف ما تحتاج اليه بلاد قبارديـا • وهو لا يمكن أن يطلب النقود الا لشيء كهذا • وهكذا أخذ كورغوقة وزوجته يجلسان ويفكران معا بنوع الآلات التي ينوي ولدهما شراءه •

ـ أهو مصنع جوخ يا ترى ؟

ـ وماذا نفعل بمصنع الجوخ ، ان مصنع الجلود أفضل •

وهكذا باع كورغوقة ما استطاع بيعه من رؤوس الغنم والماشية • ولما وجد أن المبلغ الذي جمعه لا يكفي ، استدان من تاجر القرية مبلغا آخر • ولم يقتنع التاجر بالفكرة في البداية ، ولكن كورغوقة أضاف ، ان الشراكســة الذين يعيشون في تركيا يساعدون ولده أيضا • عندها اقتنع التاجر • وأرسل كورغوقة الاموال التي جمعها الى ولده •

وانتشر الخبر في القرية بسرعة • « ان قازجري الــذي أرسلوه الـــى

استامبول لدراسة الشريعة قد أصبح مهندسا » وفرح الجميع بذلك • « ان مصنعه سيحسن احوالنا » هكذا قال أكثرهم • لكن بعضهم اعترض :«عندما يعمي دخانه أعينكم ، ستعرفون خير المصنع من شره » • وفكر كورغوقة بأن من الافضل استدعاء ناشخوة الى القرية • وكان ناشخوة في تلك الايام يدرس في جامعة أوديسة على شاطئ البحر • وعندما قلب الاب الرأي فكر : أليس من الافضل أن يتابع دراسته ليصبح قاضيا ؟ وعندما شاور امينة قالت :

ـ ليعد • هل سيبقى يدرس الى يوم القيامة ؟ من الافضل أن يتعاون الاخوان في ادارة المصنع •

ونصحه الجيران :

ـ لم العجلة ؟ قد يستخدمك قازجري أنت لادارة المصنع •

ـ ويحكم ! كيف تجرؤون على قول مثل هذا الكلام ؟ ايستخدمني ولدي أنا ؟ سيعشش المرض في خاصرته قبل أن أخضع لاوامره • انه ما يزال ولدي ، وهو الذي يجب عليه أن يطيع أوامري حتى لو حصل علوم الدنيا كلها •

وعندما يجتمع المسنون عند جدار المسجد ، كان الحديث يتجه الى قازجري ومصنعه الجديد •

ـ لماذا تشتري الصوف من أماكن أخرى ؟ ما العيب في صوفنا نحن ؟ ـ هكذا يسأل بعضهم،لان شائعة كبيرة انتشرت بأن المتخان يشتري الاصواف والجلود •

ـ لا تستعجلوا الامور • ستعرفون كل شيء في الوقت المناسب • ـ هكذا كان الاب يرد عليهم بلهجة غامضة •

واستاءت أمينة أكثر من أي شيء آخر بسبب تعليق جديد : ان قازجري يحفظ القرآن ، وعليه أن يصبح من رجال الدين ، فكيف يقبل على نفسه أن يستبدل المصحف بمصنع ١٠٠ وهنا فكرت الام ودبرت ، واستقر رأيها أخيرا على أن من الافضل أن يعمل مصنع ولدها في نسج عباءات الحجاج • فذلك يرضي الله تعالى • انهم كثر • والحاج بدون عباءة مميزة كأنه لم يحج • صحيح أن الحرب قد قطعت طريق الحج ، ولكنها ستنتهي حتما ولن تستمر الى الابد • وبعد ذلك يستطيع الناس أن يعودوا لاداء الفريضة •

وذات يوم وصلت أنباء الى القرية تقول بأن ثورة قد قامت فيبتروغراد• فاهتم الناس كثيرا بالنبأ وقامت ضجة كبيرة • ولكن نبأ عودة قازجري طغى على النبأ الاول • كان من الصعب في تلك الايام العودة من تركيا وخاصة

أن الحرب لم تنته بعد ٠ لا بد أن الشراكسة الذين يعيشون في دمشق هم الذين ساعدوا قازجري على العودة ، والا لما استطاع أن يعود ومعه كل هذه الآلات ٠ هكذا فسر بعضهم عودته في هذا الوقت بالذات ٠ لم يستطع كورغوقة أن يؤمن العدد الذي طلبه قازجري من العربات ، فاقتضى الامر طلب المساعدة من عمدة القرية والجيران ٠

وأخذ أهل القرية يتناقشون حول المكان المفضل لبناء المصنع ٠ ان المدينة أنسب ما في ذلك ريب ٠ ولكن كيف يعيش كورغوقة في مدينة لا يوجد بها جامع !٠

ـ ها هم قادمون ٠ ـ وظهرت العربات في الافق ، فانطلق أهل القرية لاستقبالها ٠ ورأوا كورغوقة بشاربيه الكبيرين في العربة الاولى جالسا بجانب ولده قازجري ٠ لقد أصبح قازجري الآن شابا حسن الهيئة والهندام يشبه أمه أمينه في نواحي كثيرة ٠ وأخذ يبتسم وهو يحيي مستقبليه أمام بوابة دارهم ٠ وكان يضع الحزام الفضي الذي أهداه اياه ابوه عندما ذهب الى القرم فوق معطف شركسي رمادي اللون ، ويزين صدره بمواسير بارود ذات أغطية فضية ٠

ولم يفهم الناس سبب مسحة الحزن على وجه كورغوقة ٠ بل انهم وجدوه مخطئا من أجل ذلك ٠ وهل يحزن أب في مثل هذا اليوم ٠ وقدر بعضهم أن الاب وابنه قد اختلفا على مكان بناء المصنع ٠

ولم تطل اقامة قازجري في القرية ، بل حمل الالات التي أحضرها من جديد في بضع عربات ، واتجه الى مدينة باخسان قبل أن يعرف أحد حقيقة نواياه ومشاريعه ٠

وندم كورغوقة على النبأ الذي كان قد نشره ، ولكن بعد فوات الاوان ٠ فما ظنه مصنعا لصنع الجوخ ، تبين أنه شيء آخر مختلف تماما ، خجل أن يخبر عنه الناس ٠ من خطر بباله أن قازجري سيحضر مطبعة ؟ وماذا يريد بالمطبعة ؟ لكن قازجري كان يعرف ماذا يفعل ٠

خلال أيام دراسته في مدينة باخسان ، توثقت علاقته بمعلمه « تساغوه نوري » ولم ينس الشاب معلمه خلال كل هذه السنوات منذ تلك الايام ٠ على العكس من ذلك ، فقد استمرت صلاتهما وتوثقت من خلال الرسائل التي كانا يتبادلانها دون انقطاع ٠ وقد تعرف قازجري على عدد كبير من شركسة تركيا بفضل معلمه الذي قضى هناك ردحا من الزمن في طريق عودته الى الوطن من سوريا ٠

كان بوتش أستيمر وتساغوة نوري متشابهين في كثير من النواحي ٠ فكلاهما أحب العلم والمعرفة ، وقد فكرا كل على حدة بافتتاح مدرسة تعلم باللغة الشركسية في وقت مبكر ٠ وها هو قازجري الآن يحقق ما عجز الرجلان عن تحقيقه ٠ انه يمتلك مطبعة جاهزة للعمل ٠٠ ولن تمضي مدة طويلة حتى

يذيع صيته في كل أرجاء قباردیا ، بعد أن تصل مطبوعاته الى كل مكـان كما يخطط منذ زمن بعيد · اذا جمع الاشعار القديمة ، والاساطير التـي تناقلها الاباء عن الاجداد منذ عصور سحيقة ، والاغاني الشركسية الذائعة ؛ فسيجد أمامه أكداسا من الكتب التي يحب طباعتها · انه لم يحضر المطبعة الا بتشجيع من معلمه الذي اتخذ من باخسان مقرا دائما لنشاطاته الثقافية . وباخسان بالاضافة الى ذلك ملتقى الشراكسة منذ القدم · ففيها كانوا يلتقون للتشاور في أمورهم · وهي بذلك عاصمة غير معلنـة منذ أقـدم الازمان · وما زالت تحتفظ بمكانتها هذه في أعين الناس · فهل يوجد مكان أفضل منها لافتتاح مطبعة فيها ! وفوق كل هذا وذاك ، يعيش في باخسان عدد من الرجال المهتمين بالعلوم والثقافة مثل « فنزي مجيد » و « يلبـرد حسن (١) » و « دوم » التاجر وغيرهم ممن يمكن أن يمدوا له يد العـون والمساعدة في مشاريعه ·

والتقى قازجري بهؤلاء الرجال وقرروا اصدار جريدة باديء ذي بـدء ؛ وطباعة عدد من الكتب · وبعد طبع الكتب يمكن افتتاح المدرسة أيضـا · ليس سهلا أن تقدم على عمل لم يسبق له وجود من قبل · لقد سبق لاستيم أن فكر بكل ذلك · ولكن بلاتسة كان قد اعترض عليه وقتها واتهمه بأنـه يعلل نفسه بالاوهام · فانظر الى ما يستطيع قازجري أن ينجزه بمطبعة الان !·

ولم يخل قازجري مع ذلك من معارضين :

ـ انه اثم كبير أن تكتب اللغة الشركسية بالحروف العربية التي كتب بها القرآن ! لقد خلق الله الحروف العربية خصيصا من اجل القرآن ، فكيـف تكتب بها لغة أخرى ؟ اننا نتوب اليك يارب فاغفر لنا ·

ـ اسكت يا رجل · هل يستطيعون كتابة اللغة الشركسية بالحـروف العربية ! ·

وقال آخرون ان كورغوقة هو الذي سيجني الفائدة الكبرى من المطبعة ·

ـ من الذي سيطبع اسمه على الجريدة ؟ انه كورغوقة · أتظنـون أن الجريدة لن تصل الى روسيا ؟ والله وبالله ستصل · وسيشعر بعضهـم بالقلق هناك لان بلاد قباردیا قد بدأت تفهم الامور · وأن فيها رجالا قادرين على اصدار جريدة · من يدري · قد يطرح مثل هذا السؤال : ومن الذي فتح لهم الطريق لذلك ؟· عندها سيظهر اسم كورغوقة ، وأنا المسؤول بعـد ذلك اذا لم يصبح من الاثرياء ·

ـ بالله عليك اسكت · الى أين تظن أن اللغة الشركسية ستوصلـك · والله لن يهتم بها أحد بعد مدينة « قالة كيح » ·

---

(١) من اوائل مؤلفي الكتب المدرسية باللغة الشركسية ·

وأخيرا وصلت الجريدة الى القرية بالرغم من كل الاقاويل والاشاعات • كان قازجري هو الذي يوزعها بنفسه متجولا على ظهر حصانه من قرية الى أخرى ، في المساجد وفي مكاتب المخاتير ، ويوصلها حتى الى الناس في بيوتهم • وريثما يوزع قازجري عددا ، كان نوري ورفاقه يصدرون العدد التالي من الجريدة • واعتاد قازجري أن يجمع مواد كتاباته من مشاهداته وما يسمعه خلال جولاته • ثم يعود فيقرأ للقرويين ما سبق أن كتبه عنهم فيثير دهشتهم ويقبلون على شراء الجريدة واقتنائها ولو لم يستطيعوا قراءتها لمجرد أنها كتبت باللغة الشركسية • وكانت معظم مواد الجريدة مكونة من أخبار سياسية وأشعار قديمة يجمعها المحررون من الرواة • ومع ذلك أعجب الناس بها وراجت رواجا كبيرا •

كان قازجري شاعرا ، ونوري ضليعا في الاساطير القديمة • أما يلبرد حسن فقد كان لغويا يهتم بتأليف كتب القراءة والقواعد للمدارس الابتدائية • ولم يمض طويل وقت حتى ذاع صيت الجريدة في كل مكان • وكان قازجري يتردد على الاغنياء خلال جولاته في القرى ، ويطلب منهم التبرعات ، فيساعده بعضهم • أما أكثرهم فلم يرد أن تكون له يد في أي شيء يتعلق بالكتب أو بالعلم •

في تلك الايام خاب أمل كورغوقة في ابنه الاصغر ، وتوقف عن مساعدته او امداده بأي مبلغ من المال ، لانه اصبح موزع جرائد بدلا من أن يصبح زعيما لقبارديا كما كان يأمل ، مما جعل أهل القرية يسخرون منه •

لم تعطل الحرب الاهلية التي أخذت تقترب من القفقاس أعمال قازجري • على العكس من ذلك ، ذهب الى مدينة قازان وأحضر مجموعة جديدة من أحرف الطباعة • فأصبحت المطبعة جاهزة لاصدار الكتب المدرسية • وبعد أن استعمل قازجري خبرته التي اكتسبها في رحلته الاخيرة، استطاعوا ان يطبعوا الكتب اللازمة لافتتاح مدرسة ابتدائية •• ورغم أن المشرفين على المدرسة لم يتوقعوا اقبالا كبيرا بسبب الاقساط التي فرضوها على التلاميذ لتغطية نفقات المطبعة والمدرسة ، فقد تبين لهم أنهم مخطئون حين توافد عدد كبير منهم • ويبدو أن الاهالي رغبوا في تعليم أولادهم بكتب مطبوعة بالحروف العربية • وزادت رغبتهم حين علموا أن المدرسة ستعلم القرآن بالاضافة الى اللغة الشركسية والجغرافيا والحساب وغيرها من المواد •

واشتهر المتخان بسرعة •

وتتابعت الطلبات من مختلف القرى لافتتاح مدرسة اسلامية على نمط مدرسة المتخان فيها • وواجهت قازجري ورفاقه أزمة جديدة هي أزمة معلمين،بعد أن حلت مشكلة الكتب • وهذا ما استدعى افتتاح دورات سريعة لتأهيل المعلمين • وفهم كورغوقة أخيرا أن ابنه أصبح رجلا يشار اليه بالبنان ، وأن شهرته فاقت شهرة أبن قلشبي نفسه • « يبدو أن ابني كان على صواب » هكذا قال في نفسه ، ومد له يد العون من جديد •

من المؤكد أن عمل الخير لا يضيع سدى ٠

## السيف والشعر

توسعت اعمال المتخان بشكل لم يعد أحد يستطيع ايقافها ٠ واستغرق في طباعة الكتب ليؤمن حاجات المدارس الاسلامية التي ينوي افتتاحها في كل قرية ٠ وصار له العديد من الانصار الذين يباركون خطواته ويدعون له بالتوفيق ٠

يقول المثل « لو عرفت المكان الذي ستتعثر فيه ، لوضعت أمامك وسادة تقع عليها » ٠ وهكذا ، وبالرغم من أن المتخان اعتقد أن الله يمد له يد العون ، فقد أدرك أخيرا أن العمل الذي يحاول انجازه ، وبامكانياته المحدودة هو فوق طاقته ، ولكنه لم يجد طريقا للتراجع ٠ وكما تسقط الريح ثمار التفاح قبل نضجها ، فان الحرب الاهلية بدأت تعرقل أعمال المتخان ٠ وما لبثت السلطة السوفييتية أن قامت ٠ فتجددت آماله ، لانه لم يتصور أنها يمكن أن تقف في طريق تنفيذ مشاريعه التي أقبل الناس عليها أيما اقبال٠

ولكنه بالمقابل لم يجد من يسانده ماديا ٠ فقد انقسم الناس بشكل حاد الى فريق انضم الى السوفييتات ، وانضم فريق آخر الى الكاديت ٠ ولم ير أولئك أو هؤلاء ان الوقت مناسب لطباعة الكتب وافتتاح المدارس ٠ واذا كان لا بد من التبرع بالاموال ، فقد فضل الفريقان التبرع بها لشراء الاسلحة بدلا من تبديدها لشراء ورق الطباعة ٠

حتى تساغوة نوري لم يعد يوافق على نشر شيء في الجريدة خارج أدبيات الثورة والتحريض عليها ٠ أما « فنزي مجيد » وهو أيضا من أسرة تحرير الجريدة ، فقد عاد من مدينة « بسه كوابه » مختلفا تماما ٠ يخيل اليك عندما تستمع اليه أنه هو الذي قام بالثورة ، وأنها من بنات أفكاره وحده :

ـ يكفي ما لاقيناه من عنت الامراء والنبلاء ٠ يجب أن نقضي عليهم ونقتلعهم من جذورهم فلا تقوم لهم قائمة بعد ذلك الى الابد ٠ لطالما حلمت بهذه الثورة من قبل ٠ انها ملك لاوسع الجماهير ، وليست قصرا على شخص أو فئة من الناس ٠

لم يكن ما يقوله مجيد ، رغم حماسته من بنات أفكاره ٠ انما كان يردد ما سمعه في مدينة « بسه كوابه » ومن فم مريمقان ينال بالذات ٠ ولم يكن مجيد هو وحده الذي جذبته أفكار الثورة ٠ ومع ذلك لم يستطع قازجري أن يدرك ماهية هذه الثورة ، كما لم يستطع أن يتخذ منها موقفا واضحا ٠ وفي تلك الاثناء وصلته رسالة من أخيه يقول فيها أنه أصبح ضابطا بعد

ثورة شباط وانغمس في السياسة ، وذهب الى ايران • وفي جيورجيا التقى بالثوريين وانضم اليهم •• ولما قرأ قازجري رسالة أخيه ، ازداد حيرة من أمره •

الثورة تعني أن يعيش كل انسان حرا على أرضه ، وأن يأكل من عرق جبينه • اذن ، فليعد الروس والايرانيون الى بلادهم وليتركونا وشأننا • هكذا فهم بعض الناس الثورة • لكن قازجري لم يوافق على ذلك أيضا • وفكر : ان جوهر الدين الاسلامي هو المساواة بين كل المسلمين في الحقوق والواجبات واقامة العدل بين الناس • والثورة تقاتل من أجل ذلك ايضا • أليست هذه نقطة لقاء بين الدين والثورة ؟• وعاد يتصفح بعض كتب ابن سينا وجلال الدين الرومي باحثا لديهما ، ولدى بعض المتصوفين عن جذور الثورة • كان معجبا أشد الاعجاب بأشعار جلال الدين الرومي : (١)

كنت سأخبر اخواني بما في قلبي
دون أن استعمل أي لغز في كلامي •
ولكنني انتظر متعبا
الزمن الذي يمكن فيه أن أتكلم •
عندما يمور البحر يتعكر
ويغطي الزبد الامواج •
وعندما يخفي البحر ما تملكه من حقيقة
تغدو كابرة في كومة قش
اذا صفيت كلماتي كما يصفى الحليب
يمكنك أن تعرف ما أريد قوله •
اذا التقيت غنيا
سلته مليئة حلوى وجوزا فارجع •
لا تلتقط جوزة فارغة •
ولا تقل كلاما لا مضمون له •

هذه القصيدة يحفظها قازجري منذ مدة طويلة • وطالما رددها عندما كان يدرس في استانبول • وكلما تصفح ديوان الرومي كان يزداد اعجابا به • عندما يصبح الناس كلهم احرارا ومتساوين • ولا يعود انسان يفكر باستغلال اخيه الانسان • فليعبدوا الله بعد ذلك بالطريقة التي تحلو لهم • المسلم على الطريقة الاسلامية ، والمسيحي على الطريقة المسيحية • عندها سيعيش الجميع في وئام ومحبة • هذا ما توحي به قصائد الرومي • ومن أجل هذا بالذات قامت الثورة فيما يبدو •• واستقر رأى قازجري أخيرا على أنه لا يوجد تعارض بين الدين والثورة •

(١) كافة النصوص المنقولة عن جلال الدين الرومي هنا منقولة من اللغة الشركسية •

وانطلق الفرسان يوزعون جريدة قازجري في جميع انحـــاء البـــلاد • ويقصدون المساجد خاصة وهم يحملونها الى المصلين :
ـ جريدة ، جريدة ! اتعرفـــون مـــاذا يوجـد في الجريدة ! بـــوم ، بوم ! اذا كنتم تريدون أن تعرفوا ما جاء في نداء لينين للمسلمين فاقرؤوا جريدة قازجري •

كان هذا آخر عدد من جريدة المتخان • واقبل الناس في كل مكان عـلى شرائه فبيعت جميع النسخ بسرعة • وفهم أكثرهم أن البلاشفة يقفون الى جانب المسلمين • كان قازجري قد ترجم النداء الى اللغة الشركسية بدقـة : « الى الكادحين من مسلمي روسيا والشرق • اننا نتوجه اليكم بندائنا قبـل بداية الاحداث العظيمة القادمة نحوكم •نعدكم اعتبارا من اليوم أن شعائركم وتقاليدكم ومؤسساتكم الثقافية ستبقى على حالها ولن يمسها أحـــد • لا تنسوا أن الثورة ستحمي حرياتكم كما تحمي حريات كافة الشعوب الاخرى في البلاد •••• » •
ووجد المتخان أجوبة لتساؤلاته ، وحلا لصراعاته النفسيـــة في هـــذا النداء • واستطاع أن يوفق عبره بين افكاره الخاصة وتعاليم الدين الاسلامي• لقد نفس نداء لينين كل ما كان مكبوتا في صدر قازجري • ولم يعد يخشـى البلاشفة كما في السابق • واكتشف ان من واجبه الوقوف الى جانبهم • ولماذا لا يفعل ذلك طالما أن المسلمين سيبقون احرارا في ممارسة شعائرهم الدينية والحفاظ على عاداتهم وتقاليدهم • الحرب ضد الطغيان هي حرب مقدســة ومشتركة بين المسلمين والبلاشفة كما اتضح له الآن •

وجاءه فارس يخبره أن اخاه ناشخوة قد عاد الى نالتشك ، وانه يطلب مقابلته • فتوجه قازجري الى نالتشك • لقد افترق الاخوان منذ سنـــوات طويلة صبيين يافعين ، وهما الآن قد أصبحا رجلين ملء السمـــع والبصر • فناشخوة مسؤول الداخلية والامن في السلطة السوفييتية الجديدة • وهـــو يحظى باحترام الناس وتقديرهم بالرغم من أنه ما يزال شابـــا أعزب • وقازجري أشهر من نار على علم في طول البلاد وعرضها • واستغرب الذين حضروا اللقاء أنه لم يكن حارا كما ينبغي • أخذ قازجري ينظر الى اخيــه وهو يتفحصه : « أهو حقيقة بلشفي يا ترى ؟ » أما ناشخوة فقد خشـي أن يكون أخاه قد وقف في صف أعدائه ، أعداء الثورة •
واتفق الاخوان على أن يعودا معا الى القريـــة دون ابطاء • كـــان كورغوقة وأمينة قد طعنا في السن • ومع ذلك فهما يعيشان دون أن يحتاجا الى أحد • ولما وصل ولداه ، استدعى كورغوقة جاره ليذبح له أسمن كبش عنده • ودعا المسنين في القرية ، وجلس يستمع الى نقاش ولديه وهـــو يحس أنه يمتلك سعادة الدنيا كلها • وأخذ المسنون يستمعون اليهما دون أن يستطيعوا تمييز الاذكى ، والأوسع معرفة بينهما • يقول ناشخوة :

ـ السوفييت لا يريدون الحرب ٠ اننا نرفع شعار السلام لاننا نريد السلام حقا ٠ ثم ان جذورنا ما تزال حديثة في الارض ٠ والريح أنى كان مصدرها تؤذي الغراس الجديدة ٠

ـ هذا صحيح ٠من الافضل للشجرة أن تمد جذورها في الارض ٠وافقه الاب ٠

واستمع قازجري الى ما قاله الجميع ٠ ثم تحدث عن نداء لينين الى مسلمي روسيا والشرق ٠ ولكنه أمعن الفكر من جديد ٠ وساورته شكوك لم يفصح عنها لاحد ٠ وبدلا من العودة الى نالتشك ، التحق بشردان بيرد الذي عرف أنه التجأ الى « مزدوك » (١) ٠

في تلك الايام ، ذاع في كل أنحاء قبارديا أن ممتلكات آل شردان قد نهبت ، وان بيته قد احترق ٠ وكان بيرد منهمكا في اعداد جيش يقضي به على « جيش ذوي المداسات » ٠

لم يعرف أحد حقيقة الحوار الذي دار بين شردان وقازجري بالتفصيل ٠ ولكننا نستنتج من روايات قازجري فيما بعد أن الحديث دار بينهما كالتالي:

ـ لا تخطىء يا بيرد ٠ ان ما تقوم به هو أقرب الى الجنون ٠ فنحن الشراكسة الذين بقينا في الوطن عددنا قليل ٠ واذا قامت حرب أهلية بيننا سنبيد بعضنا بعضا ٠ فلنحكم الشريعة وكتاب الله في الخلاف الذي نشب بيننا ، فنحن جميعا مسلمون ٠

ولكن شردان رفض ذلك

ـ أنت المخطىء يا قازجري ٠ ألم تسمع بالمثل القائل : « عندما يصل الحريق الى الشارب لا يبقى وقت للمزاح » من الذي يدعك تحرق شاربه ٠ نحن لا نرفض حكم الشريعة ٠ ولكن هل يقبل به جيش ذوي المداسات ؟ هل يمكن أن يقفوا عند حدهم بمجرد أن ترفع القرآن في وجوههم ! من الذين أحرقوا بيوتنا ونهبوا ممتلكاتنا ٠ أليسوا هم ؟ لن تستطيع ايقافهم عند حدهم الا بحد السيف ٠ أنا لست بحاجة الى صديق مثلك اليوم ٠ انما الى أمثال الارالب ٠

ـ أليس مطلبك هو العدالة يا بيرد ؟

ـ نعم والله ٠ لا أريد سوى العدالة ٠ ولكن ليس كما تفهمها أنت ٠

ـ قد يكون لكل منا مفهوم مختلف للعدالة ٠ ولكن ما رأيك في أن اسمعك قصيدة من شعر جلال الدين الرومي ؟٠ انها حول العنب ، وكل ما أريده منك هو أن تفكر بمغزاها ٠

ـ هات ، سأسمع ٠ أنا لا أكره الشعر ولو أنني لا أجد وقتا لقراءته ٠

عندما لا يفهمون كلامك

---

(١) منطقة جبلية وعرة فيها غابات كثيفة ٠

فانهم ينهون الامر بمصيبة
من تعتمد عليه من أجل الافضل
يخلق لك المتاعب ٠
فارسي وعربي وتركي
ومعهم رجل يوناني
أحدهم اعطاهم درهما
فخرب بيوت الرجال الاربعة
اذا اشترينا « أنكورا » بالدرهم
سنشبع جميعا
قال الفارسي ولكن الآخرين
اعترضوا غاضبين
أليس الافضل أن نشتري « عنبا »
هذا ما قاله العربي ٠
اسكتا أنتما ! « الحوزوم »
هو ما فضل التركي شراءه ٠
أقسم أن الـ « ستانيل » هو الافضل
قال اليوناني معاندا ٠
فغضب الرجال الاربعة في وقت واحد
وحملوا بعضهم بعضا ما لا يحمل ٠
لم يعرف الاربعة حين تقاتلوا ٠
أن ما يعنونه جميعا هو العنب
من لا يفهم بما تعنيه
يمكنه أن يؤذيك أشد الاذى ٠

ورغم أن بيرد اعجب بالقصيدة التي قرأها قازجري ، الا أنه أصر على أن لغة السيف هي اللغة التي يفهمها الجميع ٠

ـ أحرى بك أن تقرأ الاشعار أمام الفتاة التي تحبها ٠ ـ قال بيرد مستهزئا بصديقه ـ ليت زالمجري سمعك وأنت تقرأ الشعر ٠ أنتما على طرفي نقيض تماما ٠ فهو يرى أن الواجب هو سلخ جلود البلاشفة لتصنع منها طبول تدق للحرب ضد جيش ذوي المداسات الذين لا يجيدون الرقص سوى على أنغام السياط ٠ هل فهمت الآن يا أخي ؟٠ انهم يتحدوننا وأنا المسؤول اذا لم نرهم نجوم الظهر ، ذوو الاظافر القذرة هؤلاء ، اتظن أنهم ما زالوا يؤمنون بالله ! هل تتوقع أن يرضوا بحل الخلاف بيننا وبينهم وفقا لنصوص الشريعة ؟٠

ـ جئت اليك وأنا أظن أننا سنصل الى حل ما ٠ ومع ذلك سنفترق صديقين يا بيرد ٠ لا قدر الله أن نلتقي عدوين حين نلتقي ثانية ٠ ـ قال

المتخان وهو يغادره . ولم يلتق الرجلان بعد ذلك أبدا .
وعاد قازجري الى باخسان . وأصدر كتيبا ملخصه « عندما يختلف صيادان على طريدة تفلت منهما كليهما . واذا تناحر اخوان خرب بيتهما معا . لا تختلفوا أيها المسلمون . ولا ترفعوا السلاح في وجوه بعضكم بعضا . الصلح سيد الاحكام » .
وذات يوم كان قازجري يلقي درسا دينيا في أحد مساجد ما وراء نهر تيرك . وكان مندوبو الجيش الاحمر يشترون الخيل في تلك المنطقة . ولما رأوا الناس مجتمعين في المسجد ، ذهبوا ليقابلوهم ، فسمعوا كلام الخطيب . عندها قالوا لانفسهم : « قد يكون هذا الرجل هو أحد الذين نجهز جيشا لقتالهم » وهكذا ألقوا القبض عليه وأودعوه السجن في مدينة « تيرك قالة » .
ولم يعرف ينال بذلك الا بعد عدة اشهر . فأصدر أوامره بأن يحضروه اليه على الفور . ولحسن الحظ قازجري عاد ناشخوة من جورجيا بعد أن غاب اشتراء كمية من الاسلحة لمصلحة الثورة .
التقى ينال وقازجري في بيت رجل شيشاني من البلاشفة . وكان هذا هو اللقاء الاول بينهما منذ اثني عشر عاما حيث افترقا قبل أن يبلغا سن الرشد . ولولا ينال ، ربما كان قازجري قد صفي في غمرة تلاحق الاحداث في تلك الايام . ومع ذلك شك قازجري في أن ينال هو الذي أمر بالقبض عليه . ولا أحد يذكر كيف كان اللقاء بينهما ، ولا الحديث الذي دار بينهما، خاصة وأن أحدهما لم يتطرق الى ذلك اللقاء فيما بعد . ولكن موقف الرجلين كان واضحا ومحددا .

ـ لن اوافق على الحرب الاهلية ما دمت حيا ـ أكد المتخان ـ ليس هنالك ما يبرر أن يقتتل شركسيان . كاد شعبنا يفنى بسبب الحروب التي خضناها منذ مئات السنين ، والهجرات الجماعية . أنت الآن يا ينال رجل هام ومشهور ، ويطيعك عدد كبير من الناس . لا تقد الجماهير في طريق خاطىء . انك تعرف حكاية أهالي قرية بزوقان الذين هلكوا عن آخرهم بسبب خلاف بسيط . لا أريد أن يكون مصير قبارديا مثل مصير أهالي قرية بزوقان . دعوا السلاح ، ولنحكم المصحف والشريعة بين الناس . فالمصحف حكم أفضل من السيف .

ـ ايه يا قازجري ! . انك مخطىء يا قازجري . ـ قال ينال ـ ليس هنالك وجه للشبه بين ما حدث لاهالي قرية بزوقان ، وما يحدث اليوم في قبارديا . اذا ربطت قوائم الحصان وتركته في الغابة ، فان الوحوش تنهشه وتقضي عليه . حسبما تقول يجب علينا أن نكبل الجماهير ونقدمها لقمة سائغة لجماعة شردان بيرد . من يقبل ذلك ؟ ما أن نعيد سيوفنا الى أغمادها حتى يعود الامراء والنبلاء ليتحكموا في رقابنا من جديد . كيف لا ندرك ذلك !. العين بالعين والسن بالسن أليس كذلك ؟ كيف نعيد سيوفنا

الى أغمادها وهم يتربصون بنا !• ما تقوله غير ممكن يا قازجري • لن نقبل ان يقف أحد في طريقنا بعد اليوم • اياك أنت أيضـا أن تفعل ذلـك يـا قازجري •

ـ ولكنهم يقولون اننا لا نريد شيئا سوى أن يتركونا في بيوتنا بسلام • واذا كف جيش ذوي المداسات عن طردنا من بيوتنا فلن تعود هنالك مشكلة تستدعي الاقتتال فيما بيننا •

وأخبره عن زيارته لشردان بيرد • وعن الحديث الذي دار بينهما •

ـ لا تخدع نفسك بالاوهام • ـ قال المريمقان ـ لم يعد ممكنا التوفيق بين زمرة الامراء والنبلاء وجماهير الشعب • لا توجد قوة في الارض تستطيع أن تفعل ذلك • هل تتصور أن يكفوا عن استغلال الناس ؟ لا يمكن • هل يمكن أن يغيروا من طبيعتهم ويقبلوا بأن يعملوا بأيديهم ليعيشوا من عرق جبينهم ؟ هذا غير وارد اطلاقا • وهل يقبل الكادحون بعد اليوم أن يتخلوا عن عرق جبينهم لارضاء النبلاء ؟ هذا لم يعـد واردا ايضا بأي شكل مـن الاشكال •

كان قازجري يعرف وجهة نظر ينال جيدا • ومع ذلك استمع اليه وهو يفكر بكل ما يقوله • لم يشك المتخان لحظة أن انقساما حادا قد وقـع • وقلب الامر على وجوهه المختلفة عله يجد طريقة يوفق بها بين المسلمين • أما ينال فقد كان واضحا تماما بالنسبة له أن الصراع الدائر الآن ليس من الخلافات التي يمكن تسويتها • وكان على ثقة تامة من الخطوات التـي يجب اتخاذها • وروى لقازجري في النهاية ، كيف ألقى النبلاء القبض على أمه واخوته الصغار وقتلوهم • وأنه من المستحيل أن يعيد سيفه الى غمده بعد كل هذا • ولم يكن المتخان يعرف وقتها أن والديه هو أيضا رهينتـان عند النبلاء •• أردف ينال والحسرة تملأ قلبه :

ـ ألم يكونوا يعرفون بوجود القرآن عندما قتلوا أمي واخوتي الصغار ؟ ألم يكونوا مسلمين وقتها ؟ فكيف تريدني أن أحكم القرآن بيني وبين أمثال هؤلاء !

ـ أأنت تعرف ما هو القرآن حقا يا ترى ؟ ـ قال قازجري منفعلا ـ ليس القرآن فقط هو ما نسيت وجوده ، انما اللغة الشركسية ايضا كدت تنساها وأنت تعيش مع الروس • فما الذي تعرفه من أحوال شعبنا !• بل ماذا تعرف عن الامراء والنبلاء الذين تناصبهم العداء !•

ـ اذا كنت أنا لا أعرف شيئا عنهم ، فأنت لا تفهم ماذا يجري اطلاقا• انك تطلب مني أن استقبلهم حاملا مصحفا ليقتلوني بالفؤوس • لقد قتلوا أخي الصغير بفأس • هل تعرف ذلك ؟• لا تنتظر منـي أن استقبلهـم بمصحف • ما سأحمله في وجوههم هو السيف • كن على ثقة من ذلك • ولن

أصطحب معي طالب علم جاهل مثلك حين اواجههم ٠ وانما سأواجههم مع البلاشفة من الشركس والروس ٠ هل فهمت الآن ؟ انهم لم يتوانوا عن التحالف مع ضباط القيصر وكل أعداء الثورة في الداخل والخارج وأنت تطلب أن نصالحهم !٠٠

ـ سآتي معك يا ينال ٠ ولكنني لن أحمل سيفا ؛ انما مصحفا ٠ يقولون آن الكلام الجميل يخرج الافعى من حجرها ٠ وقد أنجح في اعادتهم الى جادة الصواب ٠

ـ سوف نرى ٠ حاول ؛ ولكن لا تقابلني عندما تندم على محاولتك ٠ اقرأ لهم شعرا ٠ انا أعرف انك تحب الشعر ٠ فاستمع الى قصيدة الرومي٠ سمعت أنه من شعرائك المفضلين :

عندما ركب عالم سفينة
سأل الربان :
هل درست قواعد اللغة
« لم أدرسها أبدا »

ـ عدمت رجلا مثلك ـ قال العالم ٠
تألم الربان من كلامه
ولكنه كتم ألمه ٠
هاج البحر
وتقاذفت الامواج السفينة
فسأل الربان رفيقه العالم :

ـ أتعرف السباحة ؟
فأجاب مذعورا « لا »
أنا لا أعرف السباحة ٠
سخر الربان منه :
ـ عدمت أنا أيضا رجلا مثلك ٠

قرأ ينال القصيدة بطلاقة عن ظهر قلب ، ثم أخذ يبتسم من تحت شاربيه وهو ينظر الى المتخان ، وكأنه يقول ، هل فهم ما أعنيه يا ترى ؟

ـ انك تحفظ الشعر أيضا ٠ .. قال المتخان متظاهرا بطول البال ٠

ـ لم أنس القصيدة الى الآن ٠ لقد حفظتها بعد أن تعلمت القراءة والكتابة لاباريك بالشعر ٠ ولكن أنى لي أن الحق بك ٠ كنت اظن وقتها أنه لا يوجد أحد في العالم يستطيع اللحاق بك ٠ ـ قال ينال وهو ينظر الى المتخان منشرح النفس ومنهيا حديثه ٠

ـ قد نضطر لان نتبارى على أية حال ٠

ـ من يعلم يا قازجري ٠ قد نتبارى ٠ أنا لا أشك في حسن نواياك ٠

واعتقد أن طريقنا يجب أن يكون واحدا • أظن أنك تكره الروس • ولكن صدقني أنه لولا الكادحين الروس لكان قد قضي علينا منذ زمن طويل • ومع ذلك تقول عن الروس انهم جنس الابالسة • أيجوز هذا •• !

ودون أن يضيف شيئا آخر ، أطلق ينال سراح المتخان ، ومنحه حرية التنقل والذهاب الى حيث يشاء •• كان الوقت عصيبا ، والصدامات في كل مكان • وجيش شكورو ينصب المشانق في كل قرية يمر منها • وكانت أولى الصدامات قد حصلت بين الانصار وجيش شردان بيرد عند نهر باخسان • لذلك أمر ينال مجموعة من الفرسان أن يرافقوا المتخان لحمايته الى حيث يشاء • وكان بين هؤلاء الفرسان عدد من طلاب العلم الذين اعتبروا انفسهم سعداء بمرافقة المتخان •

وقبل أن يصل قازجري الى قريته وصله نعي أبيه الذي قتله جماعة شردان بيرد بعد أن اتهموا قازجري وناشخوة بالانضمام الى البلاشفة •وعلم أنهم أحرقوا بيته • وأن أمه العجوز هامت على وجهها • وأن جيش شردان ينهب كل قرية يدخلها •

لم يكمل المتخان رحلته بعد أن سمع كل هذه الاشياء • أيذهب الى القرية ليقع في أيدي قتلة أبيه ، وهل يوفرونه ؟ أم يعود الى ينال ؟ • وغرق قازجري في تفكير عميق • وأخيرا حزم أمره على اعلان الجهاد •• من يقبل بحكم الشريعة فهو معي سواء أكان من النبلاء أو من الكادحين • من يقبل بالجهاد في سبيل الله فلينضو تحت رايتي •

عندما أعلن المتخان ذلك ، انضم اليه خمسة فرسان من دارسي الشريعة السابقين الذين أرسلهم ينال معه ، بينما عاد الآخرون • وطلب قازجري من فرسانه أن يقسموا اليمين على الدفاع عن الشريعة حتى لو كلفهم ذلك حياتهم ففعلوا • وكان ذلك بداية الجيش الذي بدأ بتشكيله • وعندما سمع أئمة المساجد بالامر أعلنوا عن رغبتهم بالانضمام اليه •

وهكذا بدأ قازجري يقبل في جيشه كل من يأتيه طالبا الانضمام اليه • ثم أخذ يفكر في الفريق الذي يجب أن يناصره • أينضم الى الحمر أم الى البيض • من المستحيل أن يبقى محايدا ، والا تلقى الضربات من الجهتين• لذلك كان عليه أن يختار حليفا •

أخذ المتخان ينتقل بجيشه من قرية الى أخرى مترددا ، منتظرا الهجوم عليه وهو لا يدري من أين ستأتيه الضربة الاولى • وبقي كذلك أياما طويلة•

وبعد عامين من تلك الايام ، تذكر قازجري رحلاته الطويلة تلك ، في احدى جولاته مع يلدار • وتوقف في مكان ما من منطقة جلاخستني وقال لرفيقه :

ـ في هذا المكان خطر لي لاول مرة أن أشكل جيشا خاصا بي •

ـ لم يكن ذلك اليوم سيئا بالنسبة لك على أية حال • فقد ذاعت

شهرتك في البلاد ، وما زال الناس ينشدون نشيدك ٠
وتذكر يلدار أيضا أحداث تلك الايام وما عاناه فيها ٠ ومضى الرجلان الى قرية شعلمفوقة وهما يتبادلان ذكريات الايام العصيبة ٠ كان يلدار على عجلة من أمره لان ساريمة بانتظاره ٠ وكان هنالك آخرون غيرها أيضا بانتظاره ٠

## اجتماع ديني كبير

كان القمر بدرا ولكن الغيوم حجبته فعم ظلام دامس ٠ انها تمطر في الآونة الاخيرة كل يوم ٠ ومن الصعب التجوال على ظهور الخيل ٠ ومع ذلك تابع المتخان جولاته في القرى والمناطق النائية دون توقف ، ملبيا كل دعوة تصله ٠ ملقيا الدروس الدينية في المساجد ، واعظا الناس ، شارحا لهم أحكام الشريعة الاسلامية ٠ ولما كان الناس قد مالوا للتدين بعد انحباس المطر قرابة عام ، فقد خيل اليه أن أنصاره قادرون على قلب سلطة السوفييتات ٠ وباعتبار ان هذا هو ما يتمناه ٠ فانه لم يشعر بالتعب أو الملل من جولاته الطويلة المتواصلة ٠ فما دام الفلاحون يتجاوبون مع صناديق الضمان الاجتماعي التي هي عمليا تحت سلطة ائمة المساجد ، والناس لا يتوجهون سوى الى المحاكم الشرعية لفض منازعاتهم ، والكتاتيب الملحقة بالمساجد تعج بالاولاد ٠ أليس هذا انتصارا للشريعين ؟ فما الداعي والحالة هذه لاعلان الجهاد ضد السلطة السوفييتية ما دمت قادرا على قيادة الناس بالحسنى والوعظ والارشاد !٠ كان قازجري يتحدث في اليوم الواحد أكثر مما يتحدث عشرة بلاشفة مجتمعين ٠ فهو لا يترك مناسبة او اجتماعا او حتى لقاء مع الناس في عرس دون ان يلقي خطابا ٠

واذا كان قد فشل من قبل في طباعة الكتب المدرسية وافتتاح المدارس الاسلامية على نطاق واسع ، فها هو يرى أن أفكاره تتحقق في الواقع شيئا فشيئا ٠ وهذا ما زاد من ثقته بنفسه ، وشجعه على اختيار عدد من الرجال المفوهين من أنصاره وارسالهم الى القرى ليخطبوا في المساجد والاجتماعات ٠

ومع أن قازجري حسب حسابا لكل شيء بدقة ٠ فقد فاته أن معظم أنصاره الجدد هم من أعداء الثورة ٠ وقد نبهه الى ذلك ينال وستيبان ايليتش ، ولكنه لم يبال بملاحظاتهم ٠ وصرت تجد بين انصاره شيئا فشيئا خارجين على القانون ٠ او تجارا مرتبطين باللصوص يعملون على تصريف البضائع المسروقة ٠ ومنذ وقت قصير قام مسؤول الزراعة متواطئا مع أنصار الشريعة بالتلاعب في جداول توزيع الاراضي مدعين أنهم يوزعون الارض حسب نصوص الشريعة الاسلامية ٠ فمنحوا الارض لاشياعهم تاركين

الفلاحين المعدمين دون أرض . ولما علم يلدار بالامر وحقق فيه دهش من اشتراك موسى ودولت في هذه العملية .

الوقت شهر رمضان وها هو قازجري ويلدار ذاهبان الى قرية شعلمفوقة في احدى جولاتهما المشتركة . سيحضر قازجري الاجتماع الديني الكبير في أكبر جوامع القرية ، حيث يلقي الشيخ سعيد درسا دينيا يعظ فيه الناس. ولا يمكن أن يفوّت هذه الفرصة . ومن الافضل أن يكون يلدار قريبا ، فمن يدري كيف ستتطور الامور .

لم يكن الشيخ سعيد قد نسي ما لاقاه من عناء ، وما شعر به من خوف عندما رافق الكتيبة التي ألقت القبض على جراسلان . وهو سيصلي اليوم أيضا ركعتين شكرا لله تعالى على نجاته حيا بعد أن يؤم الناس في صلاة التراويح ان نعم الله تعالى في هذه الايام كثيرة وتستحق الشكر . فقد ألقي القبض على زعيم المتمردين . وها هو المطر يهطل مدرارا منذ اوائل الخريف . والشيخ سعيد نجا من الموت الذي رآه اقرب اليه من حبل الوريد . وينبغي أن يكون الدرس الديني في مثل هذه الظروف مؤثرا جدا .

لم يكن أحد يعلم ماذا يحدث في قرية شعلمفوقة في تلك الايام بشكل واضح .

ومنذ أن عادت ساريجة من المستشفى دون أن يقطعوا يدها او ساقها انهمكت في مساعدة دومسارا على تجديد طينة بيت نورعلي . ورغم فقدان الالواح الخشبية والمسامير فقد استطاع أستيمر أن يدبر أموره من هنا وهنالك للمضي قدما في تجهيز البيت الذي سيغدو مدرسة . وساهم تيمبوت و « لو » في ذلك أيضا بقدر ما استطاعا . كما كانت تينة أيضا تأتي مع « لو » لتقديم يد العون .

وكانت تينة قد اختفت مدة طويلة منذ أعطت العلبة لرجالْ جراسلان خوفا من أن يأتي آخرون يطلبون أشياء أخرى ، ولم تعد تقابل حتى تشاتشا الا لماما . وبينما كان « لو » يقف ذات يوم بجانب الساقية ، خرجت تينة من بين الشجيرات واقتربت منه . وجلسا في ظل شجرة يتجاذبان أطراف الحديث ، فرحين بلقائهما بعد طول انقطاع . كان عندهما ما يقولانه بالتأكيد .

– تشاتشا لا توافق على ذهابي الى المدرسة . ومع ذلك سأذهب والله رغم معارضتها . لقد وعدني أستيمر بأن يعلمني . ورأيت الصور الجميلة التي أحضرها . هل رأيتها أنت أيضا ؟

وهل من الممكن أن لا يراها « لو » . وهكذا بقيا يتحدثان مدة طويلة . وأكد « لو » أنه سيصحبها الى المدرسة هو أيضا . لكن المشكلة أن ملابسها بالية تماما . أليس من الممكن أن تعطيها دومسارا شيئا تلبسه يا ترى ؟. هكذا فكر « لو » . وبعد أن روى كل منهما للآخر ما يعرفه من أخبار جلسا

صامتين • ربما كانا يفكران بجرس أستيمر الرنان • وكيف سيدخلان الى المدرسة غدا على صوته • وعندما يتعبان من الدراسة سيرن مرة اخرى فيخرجان ليلعبا • أيوجد ما هو أجمل من ذلك ؟•

أستيمر نفسه لم يعد يطيق صبرا على الايام التي ما زالت تفصل بينه وبين افتتاح المدرسة • لذلك اعتاد أن يحمل الجرس ويقرعه مستمعا الى رنينه بحنان • وما أن يسمع « لو » صوته حتى يعود الى البيت راكضا ومعه رفاقه ليستمعوا الى صوته عن قرب • وكانت معظم الاحاديث التي تدور في البيت في هذه الايام ، هي عن المدرسة وعن الجرس • وكان هنالك مع ذلك ما يقلق « لو » فأمه راضية بكل شيء يتعلق بالمدرسة ، ما عدا ذهابه هو اليها • يكفي أن يذهب تيمبوت الى المدرسة • أما « لو » فيجب أن نلحقه بالكتاتيب • المشجع في الموضوع هو موقف أبيه الذي يرى أن يذهب الاثنان الى المدرسة • وعلى ما يعتقد « لو » فان رأي أبيه هو الذي يجب أن ينتصر في النهاية • ومع ذلك لميستطع أن يطمئن لان موقف دومسارا كان صلبا هذه المرة : « تريد أن تعلم ولديك مثل الروس وتجعلهما مسيحيين • هذا ما تسعى اليه » • هكذا كانت دومسارا تدافع عن رأيها كلما جرى حديث حول الموضوع •

وعندما انتهت اعمال الترميم في بيت نورعلي ، ركب يرول حصانه وخرج ينادي في القرية : المدرسة جاهزة • أرسلوا اولادكم • سيعطون كيلا من الذرة لكل ولد يذهب الى المدرسة • ومع ذلك فان عدد الذين وافقوا على ارسال اولادهم كان قليلا •

وكانت دسة أيضا تجد ما تقوله في تلك الايام • ولانها تخاف من صهرها فقد صبت جام غضبها على أستيمر • وكان الناس يخشون لسانها السليط • وعندما ترى أستيمر يحمل كتبا ودفاتر وغيرها من الاشياء المدرسية تنفجر غاضبة :

ـ لماذا لا يتركني وشأني ؟ كانت عندي ابنة فزوجها غصبا عني كأنه هو الذي حمل بها ورباها • وها هو الآن يريد مني ارسال ابنتي الصغرى الى مدرسته • الله عدوي اذا أرسلتها ، او خطت خطوة واحدة نحو مدرسته• هل فقدت روم مدرسة ؟ ارسل ولديك انت ! كيف أقبل أن تأكل روم لحم خنزير ؟ تفوه • يا رب خذني اليك في اليوم الذي أقبل فيه أن تصبح ابنتي كافرة • وتبقى ديسة تردد مثل هذه الاقوال حتى ينصرف أستيمر لشأنه ويبتعد عن البيت •

ـ يا زوجة الجني الاسود ! الى أين سترسلين ولديك ، الى المدرسة ام الى الكتاتيب ؟

ولم تكن ديسة تحب الحديث حول هذا الموضوع ومع ذلك لا تستطيع أن تمنع نفسها من الرد على ديسة •

ـ لماذا تصيحين هكذا في الشارع ! سيكون مصير ولدي مثل مصير اولاد القرية • تعالي الى البيت اذا كنت تريدين الحديث •

ـ ليأت الوباء الى بيتكم قبل أن تطأه قدماي • ـ تغمغم ديسة ثم تختفي • ولم تكن ديسة وحدها هي التي تقف هذا الموقف العدائي من المدرسة •

ـ انه من جنس الابالسة • ابليس حقيقي ظهر في هذا الوقت بالذات كدليل على دنو الساعة • انه هو • أستيمر ، الا يجد أطفالنا ما يأكلونه • اذا لم يحضر لهم لحم الخنزير من روسيا •••• انك تراه يا رب • ـ هذا ما كان يقوله عدد كبير من الناس •

وكان أستيمر يتحمل كل هذه الاساءات بصدر رحب • ولكن يصدف أن ينفذ صبره حين تشتمه امرأة عابرة بسبب المدرسة • فينفجر غاضبا :

ـ اذهبوا الى الجحيم يا ذوي العقب المتشققة • لقد حلت بكم لعنة الله وستبقون أولادكم متشققي العقب كما كان آباؤكم • هذا ما تسعون اليه •

وذات يوم تجمع عدد كبير من النسوة أمام بوابة دار أستيمر ، وكان جليا أنهن لا يضمرن خيرا ، خاصة وأن بعضهن تحمل عصيا • ولحسن حظ أستيمر ظهر يلدار في اللحظة المناسبة بوجهه المتجهم • فانصرفن وتفرقن بهدوء •

ولم يشعر دولت بأي انزعاج بسبب احتجاجات النسوة على المدرسة • لانه هو نفسه كان في حيرة من أمره • أيرسل اولاده الى المدرسة أم الى الكتاتيب • وفي رأيهم أنه يمكن ارسالهم الى المدرسة والى الكتاتيب معا • وها هو يأتي الى استيمر ليشاوره :

ـ لماذا لا نأخذ كيلين من الذرة عن كل طفل يذهب الى الكتاتيب ونعطي كيلا لمن يذهب الى المدرسة ؟ سنوفر في هذه الحالة كمية لا بأس بها من الذرة •

ـ لن يعطوك يا دولت • والله لن يعطوك •

ـ أقسم اننا سنجبرهم على ذلك • والا فليرسلوا اولادهم الى المدرسة والى الكتاتيب معا • وفي هذه الحالة لن نأخذ منهم ، كما لن نعطيهم شيئا • هذا ما سأفعله انا بولدي • سأرسلهما اليهما كليهما ، ليخدما الشريعة والسلطة السوفييتية معا •

لم يبال أستيمر بثرثرة دولت • أما دوسارا التي كانت تستمع اليهما فقد قالت ساخرة :

ـ هل سترسل ابنك الى الكتاتيب أم لا • ألم تسمع ما يقوله دولت !

أما « لو » الذي سمع هذا الحديث فلم ينم بارتياح طوال الليل • وبقي يتقلب في فراشه بعد أن طلع النهار مدة طويلة وهو يفكر • كيف يمكنه أن يذهب الى مدرسة بتوقة دون أن يخاف منه ؟

ـ ولماذا لا تريد أن تذهب الى الكتاتيب يا حبيبي ؟ اذا حفظت القرآن ستصبح شيخا كبيرا مثل الشيخ سعيد نفسه • وسيناديك الناس باحترام « يا شيخ لو » •

ـ لا أريد أن اصبح شيخا والله • ـ قال « لو » مغتاظا ـ انني أريد أن أذهب الى مدرسة أبي وأتعلم من الكتب التي فيها صور جميلة •

ـ اسمعوا ما يقول • وبماذا تنفعك الصور ؟ الا تعرف أنها محرمة وأن الله سيطلب من مصدريها يوم القيامة أن ينفخوا فيها الروح فلا يستطيعون فيعذبهم على ذلك في نار جهنم !•

ـ سنذهب انا وتينة الى المدرسة • ـ قال « لو » مصمما • أما دومسارا فلم يبد عليها أنها تفكر في التراجع • وحتى ترضي الولد ، دبرت له مصحفا جديدا ، وهيأت له كيسا صغيرا من الكتان يحمله معه معلقا على كتفه • وعندما عاد أستيمر مساء اشتكى له « لو » فقال متجنبا الصدام مع دومسارا :

ـ لا تبك يا « لو » من أجل ذلك • اذهب الى بتوقة وقل للاولاد هناك أن يأتوا الى المدرسة بعد أن ينتهوا من دروس القرآن • سأفتح لكم صفا خاصا •

وهدأ « لو » بعد أن سمع كلام أستيمر • ولم تعترض دومسارا على هذا الحل بالرغم من أنه لم يعجبها •

ـ تعال انت الى المدرسة ولا يهمك شيء وأنا المسؤول عما يحدث بعد ذلك • ـ همس أستيمر في أذن ولده الاصغر يطيب خاطره •

وربتت الجدة على رأسه قائلة :

ـ نم يا صغيري الآن ، وفي الصباح ستذهب الى الكتاتيب باذن الله •

وفكر « لو » بكلام أمه التي تؤكد بأن من يذهب الى المدرسة فمصيره جهنم • وسأل جدته عن ذلك ولكنه لم يحصل على جواب يشفي غليله فنام وهو يقلب هذه الخواطر •

وفي الصباح الباكر أفاق « لو » ففوجىء بأن أهل الدار قد استيقظوا قبله بزمن طويل • وأن دومسارا خبزت لهم خبز الذرة الصفراء ، ويبدو أن الجميع قد تناولوا فطورهم ما عداه • وأخذت أمه تهيء له زوادته التي سيأخذها معه الى الكتاتيب •

كان الجو صحوا فالسماء لم تمطر منذ الامس • ووقف الديك يصيح

خارج الغرفة • وتذكر « لو » ما سمعه من أن اجتماعا كبيرا سيعقد اليوم في الجامع ، وأن المتخان قازجري سيحضره بنفسه • ورغم عدم رغبته في الذهاب الى الكتاتيب ، فانه لم يجد مناصا من الذهاب • واستقبله بتوقة أحسن استقبال وكأنه كان بانتظاره منذ زمن طويل •

الكتاتيب عبارة عن غرفة صغيرة معتمة ملاصقة لمبنى الجامع • وقد سبق أن جاء الى هذه الغرفة عدة مرات ، ولكن ليطل عليها من النافذة • والآن يجب عليه أن يدخل من الباب متخذا سيماء طلاب العلم • وفكر « لو » وهو يتفحص الغرفة المعتمة التي ليست لها سوى نافذة واحدة مكسورة « هل درس محمد رسول الله في مدرسة كهذه أيضا يا ترى ؟ » •

كان الاولاد يجلسون على حصيرة مفروشة في أرض الغرفة • وارتفع صوتهم بتلاوة القرآن كخلية نحل وهم يمررون أصابعهم الصغيرة القذرة على أسطر المصاحف التي اهترأت صفحاتها لطول الاستعمال • أما مصحف « لو » الذي وضعته دومسارا في كيسه فكان ما يزال جديدا •

لم ينتبه أحد الى وجود « لو » في البداية •ولم ير بتوقة في الغرفة • ولما انتبه الى تراكم عدد من الاحذية البالية وراء الباب ، تذكر أن عليه أن يخلع حذاءه هو أيضا • وكان الذباب يتطاير فوق أواني الطعام التي وضعت على أفريز النافذة دون أن تنظف • وبعضها ما زال يحوي بقايا الاطعمة • فالاولاد القادمون من القرى البعيدة يتناولون طعامهم هنا • انه يعرف أكثر الاولاد • ها هو حسن بن بتوقة • وذاك حزرت ، والى جانبه عكاشة ذو النظرات الثاقبة وهو أشرس الاولاد في القتال • وذاك الذي علق اصبعه بحرف من الحروف فلم يعد يستطيع تحريكه لانه لا يفهم ما يقرأ هو أليسع • من الواضح أن الله تعالى لم ينزل القرآن لامثاله ، فهو لا ينى يردد كلمة واحدة لا يستطيع أن يتجاوزها •

وجلس عدد آخر من الاولاد القادمين من أماكن بعيدة في صف واحد • وهؤلاء يسمونهم « طلاب العلم الفاشلون مجردو الموائد من الطعام » لان العادة جرت أن يتجولوا في القرية مساء وهم يرددون الاناشيد الدينية ، فيقدم الناس لهم طعامهم •

وعندما رأى « لو » هذا العدد الكبير من الاولاد المهلهلي الملابس ، وأواني الطعام القذرة ، والغرفة المعتمة ذات الارضية المحفرة ، زاد ندمه على مجيئه الى هنا تاركا المدرسة التي أصلح أستيمر بناءها ، وهي اجمل من هذه بعشرين مرة • لا شيء يعادل أن تسمع رنين الجرس وتنظر الى الصور الجميلة التي لا بد أنه علقها الآن على الجدران • مسكين أنت يا « لو » ••! كم أنت سيء الحظ • لماذا جئت الى هنا ؟ وأوشك أن يغلبه البكاء وهو يرثي لحاله • ليت بتوقة يدخل ويقول له : عد من حيث اتيت ••

وفي هذه اللحظة خرج بتوقة من الغرفة المجاورة التي يؤدي اليها باب داخلي• فرفع الاولاد عقيراتهم بالتلاوة ليؤكدوا له مهارتهم •

ـ ها • جئت الى هنا أنت أيضا يا ابن بوتش استيمر ؟ حسنا فعلت • لولا دومسارا ما كنت لتأتي بالتأكيد • ان الله سيرضى عنك عندما تحفظ القرآن • هيا ، اجلس هنا •

التلاميذ المقربون الى الشيخ كانوا يجلسون على لبادة سميكة بالقرب منه ، اما الآخرون فيجلسون على حصيرة بالية بسراويلهم المثقوبة مؤخرتها •

ـ هذا هو مكانك ، ولكن لا تجلس الآن • خذ الجرة الكبيرة ، واذهب أنت وأليسع لتجلبا الماء • ـ قال بتوقة • وعندما حمل الولدان الجرة سأله :

ـ هل بقرتكم السوداء مريضة ؟•
ـ لا والله ، انها ليست مريضة •
ـ أنت ، لماذا لم تأت البارحة وأول البارحة ؟ ـ سأل المعلم ولدا غزير الشعر • وبعد أن تململ الولد في مكانه بعض الوقت أجاب :
ـ أول البارحة غسلوا بنطالي فلم أستطع المجيء •
ـ والبارحة ؟
ـ البارحة رأيت بنطالك معلقا على حبل الغسيل فلم آت •
ـ وماذا اذا غسلوا بنطالي ؟
ـ قلت في نفسي سيبقى المعلم في البيت لانهم غسلوا بنطاله •
ـ أتظن أنني مثلك لا أملك بنطالا غيره ! ألا تعرف انهم يقدمون ملابس كل رجل يموت الى الشيخ ؟ لا تتأخروا عن المجيء ثانية لسبب كهذا •
ـ وأنت ، لماذا تأخرت يا مولود ؟

وصمت مولود ولم يحر جوابا •

ـ لا تتأخر ثانية ، سأجعلك تبحث عن قدميك فلا تجدهما في المرة القادمة • أفهمت ؟ وانتما ، الم تذهبا لجلب الماء بعد ؟ • آه ما أكسلهما ! هيا اركضا • هل قلت ان بقرتكم السوداء ليست مريضة يا « لو » ؟ ذلك شيء حسن • اذهبا الآن ، شيء جيد أن بقرتكم ليست مريضة •

ولم يفهم « لو » سبب سؤاله عن بقرتهم •• كان بتوقة يراقب بقرة أستيمر السوداء منذ بعض الوقت • وليس وحده الذي يفعل ذلك • فالشيخ سعيد أيضا تزوغ عيناه عليها كلما عاد بها الراعي مع ابقار القرية مساء •

عزم أهل القرية على أن يقيموا احتفالا دينيا كبيرا يقدمون فيه قربانا لله تعالى لكي يبعد عنهم المرض والاحزان • ويجب أن يكون القربان بقرة سوداء يسلخ جلدها ويسحب حول القرية ثلاث مرات حتى يستجيب الله دعاءهم • وكان بوتش أستيمر هو الوحيد الذي يملك بقرة سوداء في القرية كلها • اجتمع الشيخ سعيد وبتوقة وعدد من وجهاء القرية للبحث في الطريقة

التي يمكن أن يحصلوا بها على بقرة أستيمر السوداء ٠ كانوا على استعداد لان يدفعوا له ضعف ثمنها ، ومع ذلك لم يطمئنوا الى موافقته ٠ واقترح بعضهم أن يذبحوا عددا من الدجاجات السوداء ٠ ولكن كتاب بتوقة نص صراحة على أن القربان يجب أن يكون بقرة سوداء ٠ والدجاجة مهما حلك سوادها تبقى دجاجة ٠

ولهذا لقي « لو » ترحيبا حارا من بتوقة ٠ ولكنه لم يخطر بباله أن الصبي لن يعود الى الكتاتيب ثانية ولو قامت القيامة من أجل ذلك ٠ وعاد الولدان يرزحان تحت ثقل الجرة التي حملاها معلقة بعصا أمسكا بطرفيها ٠ وشعر « لو » بالمهانة على هذا العمل الذي يقوم به الان بعد كل أعماله البطولية . رقصه على ظهر الحصان ٠ ايصاله السيدة الى المحطة ، وتردده على محل الحدادة وهو يرتدي طربوشه الاحمر ٠٠ وتصور تينة تسخر منه قائلة : « هل انتهى بك المطاف لتعمل خادما في الكتاتيب الآن ؟ » ٠ فشعر بالسخط من العالم كله ٠

وحاول أليسع أن يقص عليه كيف يجر بتوقة « الاصلع » الاولاد الى الفلق عندما يغضب ، ولكن « لو » لم يستمع اليه ٠

ولما اقتربا من الكتاتيب ، سمع صوت يرول وهو ينادي ٠ فأصاخ «لو» السمع ٠

ـ يا ٠٠٠ أهل القرية ٠ اسمعوا جيدا ٠ من يريد أن يعلم اولاده فهو حر في ارساله الى المدرسة والكتاتيب معا ٠ المدرسة تقبل البنات ايضا ٠ فسجلوا أسماء بناتكم ٠ وهي تقبل الكبار والمسنين كذلك ٠٠٠

كان اليوم الثاني هو موعد الدرس الديني الكبير ٠ وقد جاء المتخان ويلدار معا الى شعلمفوقة في ذلك اليوم ٠ وتوجه يلدار الى حيث تقيم عروسه ٠ أما المتخان فقد توجه الى المسجد مباشرة حيث ينتظره ليس أهل انقرية كلهم فقط ، بل آخرون جاؤوا من القرى المجاورة أيضا ٠ وهكذا غص المسجد بالناس الذين جاؤوا خصيصا للاستماع الى المتخان ٠ وتجمعت النسوة والفتيات يتهامسن ويتناحرن في صحن لرؤية المتخان والاستماع اليه٠

وقف قازجري في محراب المسجد يؤم الناس في الصلاة ٠ ووقف خلفه الشيخ سعيد وبتوقة يرددان ما يقوله الامام بصوت مرتفع أثناء الركوع والسجود ٠

وبعد انتهاء الصلاة بدأ قازجري درسه الديني ٠ فتحدث أولا عن المصائب التي يمتحن الله تعالى بها عباده ٠ ثم أردف :

ـ لم يأخذنا الله بأوزارنا لاننا مسلمون ٠ وعندما أخذنا نبتعد عن ديننا أنذرنا بالقحط وانحباس المطر ٠ فليشملنا الله بعطفه ورحمته اذا أوشك بعضنا أن يقع في هوة اليأس والقنوط من رحمته من جراء ذلك ٠ لقد قبل جل شأنه جهادنا بالسيف في سبيله ٠ وجعل البلاشفة يفكرون بحماية دينه عن طريق الثورة ٠ كل من يعمل من أجل الثورة دون أن ينسى الله فهو يعمل

من أجل المسلمين جميعا • وكل من يعبد الله تعالى يجب عليه أن يخدم الثورة أيضا • فلينصر الله شريعته التي تعلقت بها قلوب المسلمين في قاصي الارض ودانيها •

ضاقت انفاس المصلين من المسلمين بسبب الازدحام الشديد في المسجد ولكنهم لم يبالوا بذلك • فالموت في المسجد اثناء الصلاة ، او اثناء الاستماع الى درس ديني رحمة من الله تعالى تؤدي الى الجنة مباشرة حسب اعتقادهم • ولكن المشكلة ان الواعظ اخذ يطيل في الحديث أكثر مما ينبغي • وسيبرد الطعام الذي ينتظرهم على المائدة العامرة بأطايب المأكل والمشرب تحت الاشجار بالقرب من النهر • فأهل القرية لم يقيموا مثل هذه المأدبة الجماعية منذ زمن طويل • لذلك لم يبخلوا بشيء يملكونه في هذا اليوم اكراما لقازجري اعتقادا منهم أن اكرامه يرضي الله أيضا • وهذا ما انصرف اليه اهتمامهم خصوصا بعد أن ملأ آنافهم عبق اللحم المسلوق المتبل بالثوم المسجد •

وانتقل اهتمام دولت ايضا وهو في مكانه بين المستمعين الى المائدة : ليتهم يهتمون بتحضيرها بشكل لائق • وخشي أن يتراكض الناس اليها بعد الخروج من المسجد فيجلبوا العار على انفسهم ثانية • ثم أخذ يحصي بينه وبين نفسه كل من تبرع من أجل هذه المائدة ، ومقدار ما تبرع به ، من دجاج • وعدد الخرفان التي تبرع بها الموسرون •• ثم خطر بباله أن المتخان قد يعتذر عن تناول الطعام • فقد كان المفروض أن يذبحوا بقرة سوداء بهذه المناسبة ولكنهم لم يفعلوا • أيجوز هذا ؟ أليس هذا مخزيا ! لو لم توجد بقرة سوداء في القرية لالتمس لهم العذر • ان عندهم بقرة سوداء • ودومسارا تحلبها كل مساء ، لكن أستيمر رفض أي نقاش معهم حول هذا الموضوع •يظن أنه لا يوجد في القرية كلها من هو أعقل منه • لقد عرضوا عليه ضعف ثمنها • وعرض عليه الشيخ سعيد بقرتين بدلا عنها ، فلماذا لم يقبل ؟• انه من جنس الابالسة حقا • وندم دولت بسبب اعتماده على الشيخ سعيد في هذا الموضوع • لماذا لم أرسل من يبحث عن بقرة سوداء في القرى المجاورة ؟ كيف سأنظر الآن الى وجه الضيف الذي كانت له اليد الطولى في وجودي على رئاسة سوفييت القرية !• ان أستيمر لم يكلف نفسه حتى عناء المجيء الى المسجد فهو مشغول بمدرسته •

وأخيرا شم قازجري رائحة الطعام ، وأدرك أنه لا يجوز تأخير الناس أكثر من ذلك •

ـ لا يمكن أن يوفق الله أحدا ينسى ذكره ـ قال قازجري وهو يختتم درسه الديني ـ لا تغرنكم سعادة الكفار في هذه الحياة الفانية فان جهنم بانتظارهم وبئس المصير • ان سعادة الآخرة هي السعادة الحقيقية فاعملوا لها • اللهم احمنا من أبالسة الدنيا •

ـ آمين

ـ اللهم امنح القوة للمجاهدين ٠
ـ آمـين
ـ اللهم لا تنقص من أموال الذين يدفعون الصدقات ٠
ـ آمـين

وأخذ المصلون يخرجون من المسجد متدافعين والعرق يتصبب من جباههم ٠ وقد أمسكوا أحذيتهم بأيديهم ٠ بينما تزاحم آخرون بحثا عن أحذيتهم التي اختلطت ٠ وسمع صوت الجرس من مدرسة أستيمر في هذه اللحظة فاغتاظ دولت لذلك ٠ وتوجه الناس نحو المائدة ٠

ـ يخيل الي أنني أسمع صوت جرس ٠ ـ قال قازجري ٠
ـ هذا جرس أستيمر ٠ لقد فتح مدرسته ٠
ـ أين ؟
ـ في بيت نورعلي ٠

وظن دولت أن قازجري سيغادر القرية فورا غاضبا ٠ ولكنه ابتسم وهو ينظر نحو مصدر الصوت ٠

ـ أين يلدار ؟ ـ سأل قازجري ثانية ٠
ـ رأيناه مع استيمر ٠ أنناديه ؟
ـ لا ، فيما بعد ٠ ان المدرسة من صلب أعمال الثورة ٠

ولم يفهم الشيخ سعيد وصحبه ماذا يعني قازجري بكلامه ٠

## هيا الى المدرسة

جرت أمور « لو » حسبما اشتهى وحصل على كل ما أراده ٠ أما أستيمر فلم يكن قد نسي ما رآه في مدرسة روستوف التجارية من نظام ، وكيف كان التلاميذ يصطفون قبل الدخول الى صفوفهم ٠ لذلك صف تلاميذه مثنى وفي مقدمتهم « لو » وتينة ٠ ووقف وراءهما تيمبوت وأسلان ، بينما وقف في المؤخرة بلاتسة وزوجته ٠ أما الذين تجمعوا ليتفرجوا عليهم من الاولاد والبنات فقد تسلقوا السياج وأخذوا ينظرون الى ما يجري داخل المدرسة دون أن يجرأوا على الدخول لان أهاليهم منعوهم من ذلك ٠ وغدا بلاتسة يشارك أستيمر الرأي في كل شيء ، وصار يحضر معه الاجتماعات الحزبية في نالتشك بشكل دائم معتبرا نفسه بلشفيا ٠ وها هو يتخلف عن الدرس الديني في المسجد ليحضر الى المدرسة في يومها الاول مصطحبا زوجته أيضا٠

ـ عندما يقول الشركسي « ها » فمعنى ذلك أنه ينجز عملا جيدا ٠ ـ

قال بلاتسة ـ تلاميذك قليلو العدد ، ويبدو انك لن تخسر كمية كبيرة من الذرة • على أية حال وفر ما عندك للمستقبل فنحن لا نريد شيئا •

عندما وقف أستيمر أمام الباب وبدأ يقرع الجرس ، دخل التلاميذ الستة الى بيت نورعلي السابق بحركات احتفالية • وتابع أستيمر قرع الجرس وهو يرفعه عاليا • ووصلت ساريمة متأخرة فصار عدد التلاميذ سبعة • وكان على قازجري أن يذهب الى المسجد ، فقد يحتاج اليه دولت الذي هو في مقام العمدة الآن • وبعد ساريمة بقليل وصلت الصغيرة روم أيضا ، كما جاء يلدار • وها هو عدد آخر من الاولاد قادمون ايضا • هل تكفي مقاعد أستيمر للجميع يا ترى ؟ وانضمت الى الاولاد فتاتان صغيرتان من المتفرجين وهكذا صار عدد التلاميذ أربعة عشر تلميذا بين كبير وصغير • وحدقت أعين التلاميذ بالمعلم ، يبدو أن موضوع المدرسة بدأ يأخذ طابعا جديا •

لولا الدرس الديني والوليمة ، لجاء أهل القرية ولو من باب الفضول لمعرفة ما سيجري في المدرسة • أما دومسارا فقد وقفت تنظر من فوق السياج • وأوشكت أن تبكي وهي تستمع الى رنين جرس أستيمر الذي تحقق حلمه اليوم • وقالت وهي تهمس لنفسها : « وفقك الله يا أستيمر » •

وجاء اسحق ويرول بعد انصرافهما من الوليمة ، علهما يتعلمان بعض الاحرف التي يستطيعان التوقيع بها على الاقل ، فذلك لن يضرهما على أية حال • وأخذ أستيمر يعرض مجسم الكرة الارضية على تلاميذه ، بينما وقف اسحق الى جانبه وهو يتحسس المجسم بأصابعه الفخمة المتشققة مندهشا :

ـ أظن أنك تمزح يا استيمر ! أتريد أن أصدق ان هذه الكرة هي الارض فعلا ؟ اخفها جيدا اذن • سيسرقونها وينتهي الامر فهي لا تزيد عن حجم البطيخة ويستطيع ولد صغير أن يحملها •• دعك من ذلك واقرأ لنا بعض الآيات من القرآن • ـ قال اسحق وهو يحاول أن يمتحن صلابة المعلم • وفي هذه اللحظة دخل قازجري الى الصف :

ـ السلام عليكم •

ـ وعليكم السلام •

ـ هل تسمح لنا أن نحضر درسك ؟

ـ طبعا ، تفضل بالجلوس •

ـ هيا تابع يا أستيمر • فالدرس الاول لا يكون سهلا عادة • وفقك الله وسدد خطاك • انك تنقل القرية الى عصر جديد بواسطة هذه المدرسة ، ومن الصعب بالنسبة للكثيرين أن يفهموك في البداية • هيا تكلم الآن كما سمعتك تتكلم ذات يوم في المحكمة • أتذكر كيف حاصرت وقتها الشيخ سعيد ؟ •

ـ أذكر والله • كم كنت قلقا في ذلك اليوم ! وقد انقذ حضورك الموقف • ألا يمكن أن تلقي علينا أنت الآن كلمة صغيرة ؟ أرجوك ، تعال الى مكاني

وقل لنا ولو بضع كلمات ٠

ـ والله لا أدري ماذا اقول لكم ٠ جئت لاحضر درسك الاول ، ولاعرف كيف تجري الامور هنا ٠ يبدو لي أن ذلك العجوز على حق ، ويستحسن أن تبدأ درسك بآيات من الذكر الحكيم ٠ فالمسلمون مترددون في ارسال أولادهم الى مدرسة مبنية على النمط الروسي الحديث ٠ وبضع آيات من القرآن تتردد في أرجائها ستحسم ترددهم كما أعتقد ، وسيأتيك المزيد من الاولاد ٠ وبعد أن يعرفوا طريقهم اليك ، علمهم ما تشاء من الحساب والجغرافيا والابجدية الروسية وغيرها ٠ أليس كذلك ؟ ـ قال قازجري وهو ينظر نحو اسحق ويرول ٠

ـ الله ، الله ٠ ان ما تقوله هو الحق بعينه ـ قال يرول وهو ينظر الى اسحق ٠

ووافقه بلاتسه ولكنه بقي صامتا ٠

ـ ان اللغة العربية أسهل على أولادنا لان من سبقونا كانوا مقبلين على تعلمها ٠ فاذا خصصت الحصة الاولى لتعليم القرآن ، وأتبعتها ببقية العلوم الاخرى ، سوف يقبل على مدرستك عدد كبير من الاطفال يزيد عن حاجتك ٠ أتعرف من الذي طرح علي هذه الفكرة ؟ انه دولت ٠ يقول انك تحفظ القرآن جيدا ، فاذا علمته في مدرستك سينتهي الاشكال ٠ تلك هي المدرسة التي يحتاج اليها المسلمون ٠ أخشى أن لا يوافق ينال على هذه الفكرة ، ومع ذلك يجب أن يكون الناس أحرارا ليتعلموا ما يريدون ٠

واستدار قازجري الى تينة و « لو » فجأة وسألهما :

ـ ما رأيكما بذلك أنتما يا صغيري ؟ ألا تحبان أن تتعلما كلام الله تعالى ؟

ونظرت الصغيرة الى قازجري ، وقد بدا عليها أنها نسيت في هذه اللحظة حتى اسمها من الخجل والارتباك ٠ وبهرتها ملابس قازجري الجميلة وأسلحته اللامعة ونظارته البيضاء ٠ أما « لو » فكان واضحا أنه ينفر من كل ما له علاقة ببتوقة ولكنه لم يجرؤ على الافصاح عن رأيه ٠

وفكر أستيمر ، ان قازجري على صواب ٠ ما الداعي لارهاق الاولاد في ترددهم على الكتاتيب والمدرسة في وقت واحد ٠ يكفي أن تخصص الحصة الاولى لدرس القرآن ٠ وعلمهم ما تشاء بعد ذلك ٠ ولكنه لم يحسم الامر واعتبر أن هذا الموضوع من المواضيع التي يجب استشارة من هو أعلى منه بشأنها ٠

ومهما يكن ، فقد كان اليوم مشهودا في حياة القرية التي عرفت المدرسة لاول مرة ٠ كما ألقي فيها درس ديني كبير لم يلق مثله في القرية من قبل ٠

وفكر « لو » : متى يخرج هذا الرجل ذو « العوينات » لنعود الى كرتنا الارضية ؟ وربما فكرت تينة مثله أيضا • ولكن قازجري لم يبد عليه أنه على عجلة من أمره •

ـ لقد اشعلنا المصباح ولن ينطفىء نوره ما دمنا نمده بالزيت • ـ قال أستيمر بلهجة غامضة • ـ سنفكر باقتراحك يا قازجري • وقد نأخذ برأيك حول حصة القرآن •

ارتاح استيمر لزيارة قازجري ولمبادرته في تقديم النصح والمشورة • أما دولت وصحبه فقد ظنوا لاول وهلة أن قازجري لم يأت الى المدرسة الا لتأنيب أستيمر وثنيه عن عزمه والا لما تركوا المائدة لمرافقته •

وحين وقف المتخان يلاطف تينة ، أخذ دولت وموسى يتهامسان بصوت خافت • لقد ضاق المسجد بالمصلين اليوم • ولا بد أن يكرر المتخان زياراته لقريتنا • لذلك يجب أن يكون عندنا مسجد جديد يتسع لكل من يحب الاستماع اليه • هذا ما كان يهمس به موسى ، واتفق معه دولت في الرأي• يجب أن نجمع التبرعات لبناء مسجد كبير مع مئذنة عالية ومنبر للخطابة• وأكد دولت على منبر الخطابة •• من يدري ، فقد ينكشف امرهما في المستقبل • وعندها سيواجهان الناس بقولهما : « لقد بنينا لكم مسجدا » وكان يلدار وينال على علم بكل ما يتخبط فيه الرجلان من أعمال الغش والتزوير • ولكنهما لم يتعجلا الكشف عنها قبل أن يصل كل شيء الى حده•

واتفق موسى ودولت أخيرا على مفاتحة المتخان بأمر المسجد الجديد• بينما كان الاخرون ينظرون مندهشين الى قازجري الذي أخذ يمازح تينة ويتجاذب معها أطراف الحديث • وربما لفت انتباهه ثوبها الفضفاض المطرز بحروف روسية •

ـ ما هي هذه الحروف ؟

ـ انها حروف روسية يا قازجري • ألا ترى ؟ ـ قالت الصغيرة وقد هدأ روعها •

ـ لم أر في حياتي ثوبا مطرزا بالابجدية سوى الآن •

وكانت ساريمة ويلدار يستمعان صامتين الى هذا الحوار • فهما يعرفان الثوب جيدا • انه قميص يلدار الذي لبسه طويلا وأمعن النظر الى حروفه ورسم شبيها لها على الارض وعلى الجدران • ولما كانت ملابس تينة ممزقة وبالية ، فقد ألبستها دومسارا هذا القميص لتأتي به الى المدرسة ريثما تدبر لها ثوبا آخر •

ولما أطال قازجري الحديث عن ثوبها • ارتبكت تينة ثانية وفكرت بأن تهرب من كل المدرسة • ولكنها خشيت أن تتعثر بأذيال ثوبها الطويل وتقع أرضا فتثير بذلك سخرية الحاضرين وضحكاتهم • واستغل أستيمر هذه

المناسبة فبنى درسه الاول على ثوب تينة (قميص يلدار سابقا) والدوافع التي دعت الى تطريزه بهذا الشكل • وأعاد الى الاذهان كيف أنهم في غمرة الاحداث الجسيمة وأتون الحرب الاهلية ، وجدوا وقتا للاهتمام بمثل هــذه التفاصيل الصغيرة • وأعجب قازجري بالدرس •

ولما عرفت تينة أهمية ثوبها ، خشيت أن ينتزعوه منها • أما يلــدار وساريجة فقد غلبهما حياء لم يعرفا سببا له •

دهش قازجري للذكريات المتعلقة بهذا الثوب ، وللعلاقة الخفية التــي تربط الحاضرين به • من الواضح أن الناس متعطشون للعلم والمعرفـــة ، وللخروج من غياهب الظلمات والجهل •ولذلك ابتكروا مثل هذه الوسائـل ليشقوا طريقهم بأنفسهم • هذا ما فكر به المتخان •

ـ أرجو أن يوفقكم الله ، وأن ينير طريقكم • يوفقكم اذا لـم تنسـوا ذكره • ـ قال المتخان وهو ينهي كلامه ـ ثوبك جميل يا صغيرتي وسيصبــح أجمل اذا طرزته بحروف عربية •

ولم تفت أستيمر هذه الملاحظة الاخيرة ، ولكنه لم يفعل شيئا •

وبعد أن خرج المتخان من الصف ، اقترب منه دولت وموسى وعرضا عليه اقتراحهما حول بناء المسجد الجديد • فشكرهما على هذه المبادرة ودعا لهما بالتوفيق في مسعاهما ، ووعدهما بالحضور الى القريــة لوضــع حجر الاساس •

أمضى الجميع ذلك اليوم راضين • وعندما رقد « لو » في فراشه جفاه النوم في غمرة الفرح بذهابه الى المدرسة دون اعتراض كبير من أمه • أمـــا تينة فقد طوت ثوبها بعناية ووضعته تحت وسادتها •

واعتبر أستيمر نفسه في نهاية ذلك اليوم أنه أسعد الناس • وأخــذ يسأل دومسارا عن كل شيء والابتسامة لا تفارق وجهه :

ـ ما الذي فكرت فيه عندما قرعت الجرس في المدرسة لاول مرة ؟ أتظنين أنهم لم يسمعوا صوته ؟ والله لقد سمعه الجميع • انتظري قليلا • ستسمع بلاد قبارديا كلها صوت جرسي • هل تعرفين ما اقترحه قازجري ؟ أن نعلم القرآن في المدرسة •

ـ أليس ذلك جميلا ! علمهم القرآن أيضا • فذلك أفضل من ذهاب الاولاد الى بتوقة • وهل هو يعرف القرآن أفضل منك ! ثم ان أحدا لن يعترض بعد ذلك على ارسال اولاده الى المدرسة • وسيستمع الجميع عندها الى جرسـك راضين •

وهكذا حقق أستيمر أمنيته ، وارتفع رنين جرس مدرسته في القرية لاول مــرة •

# الفصل السادس

## مأتمـــان

نجت قرية شعلمفوقة من المجاعة ٠ أكل النـاســـس الجذور المسلوقـة ، وأعادوا طحن النخالة ، وذاقوا الامرين ٠ أما دولت وموسى فلم يعرف الجوع طريقه الى بيتهما ٠٠ وأخيرا هطلت الامطار وارتوت الارض ٠ فنبتت الغلال واستمر المطر يهطل طوال الربيع والصيف أيضا مبشرا بالخير العميم ٠

وأمضت عائلة استيمر الشتاء دون صعوبات تذكر ٠ فقد خصصوا له راتبا لقاء قيامه بالتعليم ، وبطاقة يشتري بموجبها كل شهر كمية مـــن الطحين ٠ كانت تكفيه ويعطي منها شيئا لجيرانه بين حين وآخر ٠ وافتتحت في القرى الكبيرة الاخرى مدارس مثل مدرسة شعلمفوقة ٠ وكانوا قد بتـوا في موضوع تعليم القرآن في المدارس الحكومية منذ مدة طويلة ٠ وأقيمـــت دورة لمدة شهرين لتدريب المعلمين على الابجدية السلافية الجديـدة التـــي وضعت لتعليم اللغة الشركسية في المدارس ٠ وعلا صوت المتخان بالاحتجاج ٠

ـ ان الفراخ لا تفهم سوى لغة الدجاجة ٠ ـ هكذا كان يقول أستيمـــر عندما يثور نقاش حول اللغة التي ينبغي التعليم بها في المدارس الابتدائية ٠ ولم يقبل اي اعتراض على كون اللغة الام هي التي يجب التعليم بها ٠ ولما كانت مدرسته هي المدرسة الاولى ، فقد اعتاد على زيارات المعلمين وأولياء الامور من القرى المجاورة يسألونه النصـــح والمشورة ويحضرون دروســه ويقابلون أولياء تلاميذه للاطلاع على العملية التعليمية من كافة جوانبها ٠

لم يكتف أستيمر بعمله كمعلم ٠ بل كان يفلح قطعة الارض التـــي منحوها له أيضا ويزرعها ٠ وكثيرا ما يأتيه يرول ليخبره انهم يطلبونـــه

في نالتشك ٠ فيذهب الى مفوضية التعليم ليمضي نهاره في اجتماعات طويلة لبحث قضايا التربية والتعليم ٠ أما تيمبوت فيعمل في قلع أعواد الـذرة الصفراء التي نضجت ٠ وعندما يحين أوان التعشيب في البستان ، تذهب دومسارا أيضا ومعها « لو » ليساعداه ٠ وكان هذا الاخير ما يزال يرتدي طربوشه الاحمر بين الحين والآخر ٠

ومع مضي الايام اعتادت تينة على زيارة آل أستيمر واستأنست بهم كما فعلت ساريمة ذلك من قبل ٠ وحين تأتي تشاتشا أحيانا لاصطحابها، كانت تختبىء حتى لا تعود معها ٠ وفي هذه السنة ذهبت معهم الى الحقول وساعدتهم في تعشيب الارض وفي الاعمال الزراعية الاخرى برفقة « لو » ٠ وصارت تتفوق في مثل هذه الاعمال حتى على ساريمة نفسها ٠ وفي موسم الحصاد ذهب الجميع الى حقل القمح يحملون المناجل وفي مقدمتهم دومسارا وتعاونوا على الحصاد والرجال مستعينين بحصاني بلاتسة وعربته ٠ وكوموا الحصيد فوق البيدر ٠

وبعد أن تعود دومسارا من الحقول مساء ، كانت تقوم بجميع أعمال المنزل مهما بلغ تعبها ٠ وتجلس تينة مع « لو » بجانب المصباح يتصفحان الصور في الكتب المدرسية متشوقين لافتتاح المدرسة ثانية بعد أن ملا من طول العطلة الصيفية ٠ ولم يكن بلاتسة ايضا يفكر بترك المدرسة ٠ وقد طلب من أستيمر أن يدبر له دفترا وقلم رصاص ليمرن أصابعه المتصلبة على الكتابة قبل افتتاح المدرسة ثانية ٠

وكنت ما تزال تصادف بعض آثار المجاعة هنا وهنالك ٠ فقد هاجر عدد كبير من الناس من حوض الفولغا بعد الجفاف الشديد الذي عرفوه ٠ وتوزعوا في نواحي باخسان وشجم وتيرك وسائر أنحاء قبارديا حسب أوامر ينال ٠ فاستوعبت كل قرية عددا منهم ٠ واستقبل بلاتسة في بيته عددا من هؤلاء ليأويهم في داره ٠ وأخذ يقدم لهم كل ما يستطيع تقديمه من عون ٠ وفي الاماسي صار يذهب الى بيت أستيمر يوميا للسهر والمسامرة لانه لم يعد يجد ركنا هادئا في منزله ٠ فيقضي السهرة وهو ينافس الصغيرين « لو » وتينة في الكتابة ورسم الصور ٠ وكثيرا ما انضم استيمر نفسه اليهم ٠

وفجأة انقطع بلاتسة عن زيارتهم بعض الوقت ، فاشتاق الاولاد اليه٠ وتساءل أستيمر أيضا عن سبب انقطاعه ٠ وأخيرا ذهب المعلم لزيارة تلميذه فوجده في حالة يرثى لها ٠ راقدا في الفراش وقد غطي بفروة بالية ، وهو يهذي من الحمى ٠

وبسبب الازدحام في المنزل ، ما كنت تستطيع ان تميز صاحب الدار من الضيف الا بصعوبة ٠ بعضهم نائم واخرون جالسون ٠ وتلك امرأة منتفخة الوجه ترقد في احدى الزوايا والى جانبها طفلها الذي لم يبق منه

غير هيكل عظمي مغلف بالجلد ، يحاول أن يفتح فمه وكأنه على وشك أن يقول شيئا ، ولكنه لا يقوى حتى على البكاء لضعفه الشديد ..

ـ بلاتسة ، يا بلاتسة ! ـ قال أستيمر وهو يجلس بجانب المريض .

واستطاع المريض أن يميز صوت استيمر بصعوبة .

ـ آه . أهذا أنت يا أستيمر ! أحسنت صنعا بمجيئك فقد كنت بحاجة ماسة اليك .

ـ كيف حالك أيها المسكين ؟ والله لم أعلم انك مريض . هل أرسلت في طلب طبيب أم أنك اعتمدت على تشاتشا ؟.

ـ اسكت يا رجل . فأنا لم أعد بحاجة الى طبيب ولا الى تشاتشا . لقد جاءت النهاية بسرعة . أحسنت صنعا بمجيئك في الوقت المناسب .

وسكت بلاتسة كأن أحدا قد قاطعه . وقبل أن يفيق من غفوته اوعز أستيمر الى قازجري باحضار الطبيب بأقصى سرعة ممكنة . وأن يستنجد بينال اذا اقتضى الامر . وأن يخبر ستيبان ايليتش ايضا ولا يعود من نالتشك دون أن يحضر الطبيب معه مهما كلف الامر . فركب الشاب حصانه وانطلق الى المدينة مسرعا .

ـ أما زلت هنا يا أستيمر ؟ ـ قال بلاتسة عندما أفاق ثانية .
ـ انني هنا يا بلاتسة . أتريد شيئا ؟ .
ـ افتح دفتري واكتب . اكتب باللغة الروسية ، هل فهمت ؟.
ـ أنا لا أعرف اللغة الروسية جيدا . أليس من الافضل أن يكتب الطبيب عندما يصل ؟

وسكت بلاتسة من جديد وبقي صامتا بعض الوقت .

ـ لا مانع عندي أن يكتب الطبيب . ولكن أين هو ؟ هل جاء ؟.
ـ سيصلُ بعد قليلٍ .
ـ ها . انني أسمع وقع حوافر جواد .

أيقن أستيمر ان حالة المريض سيئة جدا . وقد علم أن فتاة صغيرة من ضيوفه قد أصيبت بمرض معد فنقلها الى المستشفى ومن المؤكد أنه انتقط المرض منها . ورغم أن حالة المريض تدعو الى اليأس حقا فانْ استيمر لم يصدق أن بلاتسة يمكن أن يختفي عن الوجود بمثلْ هذه السرعة وهذه البساطة .

وقبلَ منتصف الليلَ وصلَ الطبيب من نالتشكَ . وعندما سمع بلاتسة صوته فرح بقدومه وانتعش قليلا . ولكن الطبيب أدرك على الفور أنه لنْ يستطيع ان يفعلَ شيئا للمريض . فحرارته مرتفعة وكأن اتونا يشتعلُ في داخله . كما أن نبضه أصبح ضعيفا جدا . وكلّ ما لديه من مخفضات

ومسكنات لا تزيد على أن تمسك بحياته ساعة أو ساعتين • فبذل مع ذلك قصارى جهده • وفتح بلاتسة عينيه ثانية :

ـ ما هو الوقت الان ، ليل أم نهار ؟ ـ قال وقد غلبته الرغبة في المزاح •
ـ ماذا يقول ؟ ـ سأل الطبيب •
ـ انه يسأل عن الوقت • يبدو انه اصيب بالعمى • ـ قال استيمر •
ـ لقد طلع النهار • انني أرى نورا والله يا دكتور • هات دفتري وأكتب ما أمليه عليك •
ـ من الافضل أن ترتاح • ـ قال الطبيب ولكن العجوز لم يقبل مؤكدا أنه أخذ نصيبه كافيا من الحياة •
ـ ماذا تريد أن أكتب ؟
ـ سأملي عليك أنا • وعليك أن ترتب ما أمليه ترتيبا لائقا باللغة الروسية ليفهمها الجميع • أريد أن يقرأ وصيتي حتى الرعاة في قبارديا ، وكل الروس أيضا •

جلس الطبيب الروسي على الارض ، وجلس استيمر الى جانبه ليترجم له ما يمليه المريض • وأخذ بلاتسة يتكلم وعيناه مغلقتان •

ـ اكتب يا صاحبي • انني أوجه كلامي الى ينال أولا ، فاكتب اسمه في البداية : « أنت رجل عظيم الان ومشهور • تقود جيشا عظيما •• لطالما اشتقت لان أنخرط في جيشك كما يشتاق الحصاد لاستنشاق الهواء النقي المنعش في لحظة من لحظات راحته • ومع أنني لست واحدا من جنودك ، فانني اعتبر نفسي واحدا منهم • والا لما كتبت اليك في اللحظات الاخيرة الباقية لي من الحياة » •
هل كتبت ؟

ـ نعم كتبت • ـ أجاب الطبيب •

ـ حسنا ، تابع الكتابة اذن • « أنا عامل عجوز • واحد من السواد الاعظم الذين يعيشون بعرق جباههم • وقد أمضيت حياتي أنظر الى العالم من بين قرني ثور • ولم أنجز عملا يستحق الذكر • ومع ذلك أحب أن تعرف بما أكنه في قلبي ، فلا يوجد لدي ما أخفيه عنك ، ذلك لانك انت ايضا واحد منا • وكونك قائدا لنا لا يعيبك ، فحتى أسراب البجع لها قائد يقودها في رحيلها من المناطق الباردة الى المناطق الدافئة • في خروجها من الظلام الدامس الى النور السماوي • لقد رأت عيناي انا أيضا خيوط النور الاولى• رأيت النور السماوي • ليس فوق الجبال ولا في ليلة القدر او ليلة الجمعة ، انما رأيته في قريتنا ، قرية شعلمفوقة بعد طول ترقب بانتظار الفجر • يقولون أنه لا يمكن رؤية النور السماوي الا لبضع لحظات • أما النور الذي رأيته فما يزال يضيء قريتنا الى الان • لكننا ما زلنا بحاجة الى الكثير

حتى يغمرنا فرح الحياة . آه ما أقصر حياة الانسان ! انني أشعر كأنني مجرد زائر جاء الى هذا العالم من الباب وخرج من النافذة . أنا لا أطلب منك يا ينال أن تمنحني حصانا او ثورا ، ولا أريد محراثا ، فقد أمضيت عمري كله ويداي تعملان في الارض . لم آكل مالا حراما ، وانما عشت من عرق جبيني . وها أنا أغادر الحياة وقلبي مليء فرحا لانني عشت بشائر الفجر الذي انتظرته طويلا .. لي ولدان اتركهما وديعة لديك ، وأرجو من الله أن يوفقهما في هذه الحياة .

ما اتركه لهما من متاع الدنيا قليل ، يستطيعان ان يقتسماه دون أن يتنازعا عليه ، كما أنهما يستطيعان أن يرعيا أمهما العجوز . وليست لدي أية شكوى حول ذلك . وأرجو أن يرضى الله عنهما كما أنا راض عليهما .. أنا لي طلب واحد عندك يا ينال وليس لي طلب سواه » .

سكت المريض وكأنه نسي ما كان بصدد قوله . بينما جلس الطبيب وأستيمر واجمين . وبعد أن ارتاح قليلا عاد يقول :

ـ كاد قلبي يتوقف عن الخفقان ، وقد يتوقف في أية لحظة . لذلك سأختصر في الكلام . « ينال ! أرجوك أن توعز بدفني على أنغام الموسيقى كما دفن البلاشفة الذين استشهدوا في المعارك . لا يوجد موسيقيون في شعلمفوقة ، لذا أرجو أن ترسل لي الموسيقيين من نالتشك بأبواقهم النحاسية اللامعة . ما زلت أذكر الى الان يوم أوعزت بدفن جميع شهداء البلاشفة من قارديا كلها في نالتشك . وما زالت موسيقاهم ترن في أذني . أرسلهم يا ينال . » .

اذا تساءل أحدهم : « من هذا الذي يدفن على انغام الموسيقى ؟ » سيقولون له « هذا بلاتسة » « ولكن هل بلاتسة بلشفي ؟ فكيف يدفنونه على انغام الموسيقى ؟ » « قد يكون بلشفيا ، والا لما دفنوه على أنغام الموسيقى » . لقد أخبرني أستيمر أن البلاشفة ليس لديهم زي خاص بهم كما أنهم لا يضعون كتافيات على أكتافهم .

ـ وهل يجب أن أكتب هذا أيضا ؟ ـ سأل الطبيب الروسي .

ـ لا ، لا ضرورة لذلك . ولكن يا أستيمر ! لقد فعلت الكثير من أجلي فأرجو أن تذهب الى نالتشك لاحضار الموسيقيين . وأرجو أن تتأكد من احضارهم أبواقهم النحاسية . ان الموسيقيين يرضون جميع الناس ، وليس من الصعب ارضاء الميت . انتظر يا دكتور . اقرأ لي ما كتبته رجاء . ما الذي كتبه يا أستيمر ؟ .

وترجم أستيمر ما قرأه الطبيب ثانية للمريض الذي بقي واعيا يستمع اليه .

ـ أرجوك أن تضيف هذا أيضا ٠ « أرجو أن تطلق البنادق لحظة انـزال جثتي الى مثواها الاخير ٠ اذا أطلقت البنادق ولم أستيقظ فادفنوني ٠ ففي المأتم الذي أقيم في نالتشك أطلق عدد كبير من البنادق لحظة الدفن ٠ لقـد احببت طلقات البنادق طوال عمري ٠ لا يوجد ما هو أحب لدي من لعلعـة الرصاص وصوت الموسيقى ٠ ثم انني قد أسمع صوت الطلقات وأفيق ٠ من يدري ! ٠٠ » وأسلم بلاتسة الروح ٠

وبالرغم من أنه استلم رئاسة سوفييت القرية الا انه لم يكن قد قـام بعمل يذكر ٠ ولكن الناس عرفوه عجوزا مرحا محبا للنكتة ، حاضر البديهة، محببا الى القلب ٠ لذلك حزن عليه الجميع ٠ ولم يكن المرحوم قد ذهب طوال عمره الى أبعد من سوق المدينة والمطحنة والمسجد ومقر العمدة والحقـول ، ولكنه كان يعرف أكثر مما يعرفه من تجول في أقاصي الارض ٠ ويفهم الكثير من أمور الدنيا ٠ وعندما حان أجله بدأ أطول رحلة في حياته كلها ٠

امتطى أستيمر جواده وذهب الى نالتشك لينقل وصيـة الميت الـى مريمقان ينال ٠٠ وأسرع الخطى ليصل الى المدينة قبل خروج ينال لاعمالـه المعتادة التي يعرفها جيدا ٠ ولحسن حظه وجده في مكتبه وليس معه سوى قازجري ٠

وعلم من حديثهما أن ناشخوة قد توفي في القرم ٠ وكانـوا سيعيـدون جثته في نعش مغلف بالرصاص ٠ ويصر قازجري على دفنه حسب الطريقـة الاسلامية تنفيذا لوصية المرحوم ٠ وفي اللحظة التي وصل فيها أستيمر ، كان ينال حانقا بسبب هذه الوصية ٠ فهو بمجرد أن سمـع بالخبـر أوعـز للموسيقيين بأن يستعدوا لاستقبال النعش ، وأرسل الناعين الى كل المناطق كما أوعز بتنكيس الاعلام فوق المباني الرسمية وأن تعلق قطعة من القماش الاسود على الاعلام الحمراء ، وأن تأتي سرية من الجيش الاحمر لاطـلاق البنادق لحظة الدفن ٠ ان ناشخوة بلشفي وقد شارك في الثورة وشغل منصبا هاما في حكومة الثورة ومن الواجب دفنه كما يليق ببلشفي ٠ ولكن قازجـري بقي مصرا على رأيه :

ـ يجب تنفيذ وصية المرحوم بحذافيرها ٠

وعندما استلم ينال وصية المرحوم بلاتسة ازداد حنقا ٠ وأخذ يصيـح وهو يهز بيده الوصية المؤلفة من صفحتين مزقتا من دفتر مدرسي :

ـ ها هو البلشفي اذا كنت تريد بلشفيا حقيقيا ٠ خذ الفرقة الموسيقية يا أستيمر خذها وقل لهم أنني أنا الذي أمرت بذلك ٠ خذها ونفذ رغبـة العجوز المسكين الاخيرة بحذافيرها ٠

ولم يصدق الموسيقيون أن عليهم أن يذهبوا الى شعلمفوقة رغـم أن أستيمر أخبرهم أنها أوامر ينالٌ بالذات ٠ وبالاضافة الى ذلك كانوا خائفين

بعض الشيء لان بعض المتمردين ما زالوا طليقين هنا وهنالك • وهكذا لم يستطع أن يقنعهم أخيرا الا بصعوبة شديدة •
وعندما وصل أستيمر الى القرية وجد النساء يندبن في بيت بلاتسة ولما بدأ الموسيقيون عزفهم ازداد نواح النسوة • ووقف المسنون بجانب سياج الدار يستمعون الى عزفهم واجمين •

ولم يكن قد سبق لاهالي قرية شعلمفوقة أن دفنوا ميتا على أنغام الموسيقى • ونظر الناس الى وصية بلاتسة نظرتهم الى مدرسة أستيمر وكان أستيمر قد فكر باللحن الذي يجب أن تعزفه الفرقة قبل عودته الى القرية • ضمن عادة الشراكسة أن يذهبوا الى المقبرة بخطى سريعة عندما ينقلون النعش • بينما يذهب الروس متباطئين • لذلك يجب أن يعزفوا لحنا مناسبا • ولما طلب منهم ذلك ، نظر اليه رئيس الجوقة مندهشا • فاللحن الجنائزي واحد في جميع أنحاء العالم • وفي هذه الاثناء سمع أحد العازفين الشبان يردد لحنا سريعا خافتا من نايه فسأله أستيمر عن هذا اللحن •

ـ هذا اللحن لا يصلح للجنازة على اية حال • ـ قال رئيس الجوقة العجوز ـ هذا مارش من لحن أوبرا « عايدة » •
ـ العجوز المسكين الذي سندفنه اليوم ، كان يطلب لحنا يشبهه • أرجوكم أن تعزفوه حين ننقل نعشه • ـ قال أستيمر •

وبعد أن تم الاتفاق ، وصلت العربات التي ستنقل الموسيقيين • وأرسل اليهم يلدار عددا من الفرسان فانطلق الموكب •
واجتمع أهل القرية مستغربين طريقة دفن بلاتسة • ان أحدا لم ير من قبل جنازة تعزف فيها الموسيقى • لذلك تردد المسنون في المشاركة وان لم يفصحوا عن ترددهم •

ـ يا الهي ! من خطر بباله أن بلاتسة بلشفي وقال بعضهم •
ـ لم يحصل على بطاقة بلشفي ، ولكنه كان بلشفيا بقلبه • ـ قال آخرون •

وتم كل شيء حسب وصية بلاتسة • فقد انطلق الموكب وفي مقدمته النعش ، وخلفه الموسيقيون • وسار المشيعون خلف الموسيقيين • وتبين أن أستيمر كان على حق ، فلو لم يعزف الموسيقيون مارش أوبرا «عايدة» لبقوا في واد والمشيعون في واد آخر •
وارتفعت الالحان السريعة من الابواق النحاسية اللامعة • وحمل الاولاد العلم الذي أخرجوه من مقر سوفييت القرية • وكان أستيمر يشعر بالضعف والانحطاط من جراء حزنه الشديد • بينما سار « لو » وتينة مع المشيعين وقد غلبهما الحزن رغم أنهما لم يفهما تماما معنى موت بلاتسة •
ومشى الشيخ بتوفة في مقدمة المشيعين وهو يبحث عن دور لنفسه في

هذه الجنازة فلا يجده • وتوقف الموكب في المقبرة • وعندما وضعوا النعش بجانب الحفرة ، أطلق جنود يلدار ثلاثة طلقات متتابعة • ولكن الميت لم يستيقظ فدفنوا الجثة •

## أفول نجم دولت

الدنيا دولاب يدور دون توقف • هذا ما كان المرحوم بلاتسة يجب أن يردده دائما • وهكذا أخذ الدولاب يدور حتى ساءت أمور دولت • وشاع الخبر ليس في شعلمفوفة وحدها وانما في كل بلاد قباردیا •

بعد مضي عام كامل على اليوم الذي ألقى فيه المتخان موعظته الشهيرة يوم افتتاح المدرسة ، انهارت أمور دولت تماما • حدث ذلك قبل حلول شهر رمضان ببضعة أيام • وكأن أهل القرية على موعد مع حدث هام في شهر رمضان من كل عام •

كان أهل القرية يترقبون حدوث تغييرات جدرية • من يدري فقد يأتي اليوم الذي طالما انتظره المتخان قازجري وتتحقق نبوءة أبيه كورغوقة فيصبح زعيما دون منازع لقباردیا كلها • وبدلا من ذلك انهارت أمور دولت المقرب من المتخان فجأة دون أن يتوقع أحد ذلك •

من كان يصدق أن ما حدث يمكن أن يحدث ، وأن دولت يمكن أن يتعثر ؟ صحيح أنه حتى الحصان يمكن أن يكبو رغم وجود أربعة قوائم له • ولكن أن يتعثر دولت وله مساعدون وأعوان مثل بتوقة وموسى ويسانده رجال مثل المتخان فهذا ما كان يصعب تصديقه•

وفهم الناس الآن لماذا كان دولت يصر على أنه لا توجد سلطة فوق سلطة المدعي العام • كما عرفوا سبب خشيته منه •• بدا دولت أول الامر متضايقا لا يهدأ ولا يقر له قرار • ولم يفت أهل القرية ملاحظة ذلك ولكنهم لم يعرفوا حقيقة ما حدث • ولشدة قلق دولت وعدم استقراره في مكان واحد علق بعضهم بأنه لو جلس على حبة بطاطا في هذه الايام ، لركضت به حبة البطاطا •

ويبدو أن الاولاد في القرية أيضا شموا رائحة شيء ما أيضا ، فعادوا الى شجرة الاجاص البري عند باب داره وتسلقوها وأخذوا يصيحون « كيكووك » •

وعرف دولت أن مصيبة ما ستحلّ به عندما وعده المتخان بزيارة القرية وأخلف الموعد • صحيح أنهم قالوا أن المتخان انشغل بأمور هامة جدا في ذلك اليوم ، ولكنه كان يستطيع المجيء بالتأكيد لو أراد ذلك • لو جاء المتخان كان ينوي أن يسر اليه ببعض الاشياء ، ولكنه لم يأت • فما العمل ؟•

اليوم موعد الاحتفال للبدء في بناء المسجد الكبير • أليس من الافضل اعلام الناس الذين دعوا للاجتماع بالغاء الاحتفال ؟ ولكن ما العمل مع اولئك الذين سيأتون من القرى الاخرى ؟ لقد دعا دولت اناسا حتى من منطقة « الشيشان » ومنطقة « البسله ني » • ولام نفسه على دعوة كل هذا العدد من الناس •

كان المتخان قازجري في ذلك اليوم ما زال يستقبل المعزين الذين يتوافدون عليه لتعزيته بوفاة أخيه • وبالرغم من ذلك لم يكن قد نسي موعده في قرية شعلمفوقة • لذلك استدعى الشيخ سعيد وأوصاه بالذهاب بدلا عنه •

وأخذ الناس يتوافدون على مكان الاحتفال في قرية شعلمفوقة ، ووقف الشيخ سعيد يفكر بما سيقوله • وبما أن صلاة الجمعة كانت ستقام في الخلاء ، في نفس الموقع الذي سيبنى عليه الجامع ، فقد أحضر الناس من بيوتهم كل ما يملكون من سجاجيد وبسط وحصر ولباد ومدوها على الارض ليصلوا عليها ، وجلس الحجاج والمسنون القادمون من خارج القرية في الصف الاول وهم يلومون أنفسهم على أنهم لم يفكروا ببناء مسجد كبير كما فكر أهالي قرية شعلمفوقة •

ووقف الشيخ سعيد متباهيا بعض الشيء أمام هذا الجمع الكبير من الناس ، والذين ما زالوا يتوافدون زرافات ووحدانا • لم يكن أستيمر بين الحضور • ولو حضر لخفف الشيخ من خيلائه • انه يعتمد على موسى وبتوقة لمساعدته • أين هما الآن يا ترى ؟ ولماذا لم يحضرا ؟ ليذهبا الى الجحيم لو حضر دولت على الاقل • ولكن لماذا يتغيب هو الآخر عن مثل هذا الاحتفال ؟ ولم يعرف الشيخ الا فيما بعد أن الشرطي قازجري بن بلاتسة قد اصطحب الثلاثة ومعهم آخرون الى نالتشك للمثول أمام المدعي العام الذي استدعاهم هذا الصباح • ولم يكن أحد يعلم ما اذا كانوا سيستطيعون العودة في موعد صلاة الجمعة أم لا • سيعودون حتما ، فالمدعي العام صديق دولت • هكذا علق بعضهم • فيما قال المطلعون على بواطن الامور : ان اجتياز سلسلة جبال القفقاس بعربة تجرها الثيران أسهل من الافلات من بين يدي المدعي العام •

لم يعد من الممكن انتظار عودتهم بعد أن حان موعد الصلاة • أخرج الشيخ سعيد ساعته الفضية الكبيرة من جيبه وأطال النظر اليها ثم نظر الى السماء ليتأكد من دقة ساعته •

كان النهار صاحيا •واجتمع عدد كبير من الناس•ولم يتميز جمهور اليوم بشيء عن جمهور الاجتماعات التي اعتاد غومار أن يعقدها • فبعضهم يلبس معاطف بالية وقبعة لباد ممزقة وأحذية جلدية جافة من صنع محلي • وآخرون لا يرتدون سوى القمصان • بينما القليل منهم يلبس معاطف شركسية أنيقة • ولكنهم كانوا جميعا يتمنطقون بخناجر شركسية • أما المسنون فيحملون عصيا تنتهي بقطعة حديد مدببة •

وتجمعت النسوة والاطفال غير بعيد عن مكان الاحتفال ٠ أما الذين جاؤوا بالعربات فقد تركوها بالقرب من مجرى النهر ٠ ولما كان الشيخ سعيد قد قرر أن يضمن موعظته اليوم قصة ابراهيم الخليل ، فقد أنهى الصلاة بسرعة ثم استدار الى الناس :

ـ أيها المسلمون ! من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ٠ كان ابراهيم عليه السلام يذبح في كل عيد أضحى مئات الاضاحي ويوزعها على الفقراء ٠ فاستغرب بقية الانبياء ذلك وسألوه : « يا ابراهيم ، لماذا تذبح كلّ هذا العدد من الاضاحي ؟ » « وهل ما أقدمه من أضاح لله تعالى شيء يذكر تجاه ما أنا مدين له به من واجب الشكر على نعمه ! والله لو كان لي ولد لقدمته قربانا له تبارك شأنه » ٠ ـ أجابهم ابراهيم ٠ وسمع الله تعالى كلام ابراهيم ورزقه بولد ٠ واعترافا منه بما أنعم الله به عليه ، باشر ببناء مسجد غير موفر مالا أو جهدا ٠ وبعد أن أقام الجدران وبدأ يرفع السقف ، صار يسقط كلما رفعه ٠ لم يتعب ابراهيم من عمله ٠ ولكن السقف لم يهدأ في مكانه ٠ وأخيرا رأى ابراهيم فيما يرى النائم من يقول له :

« لن تنجح في مسعاك حتى تفي بنذرك الذي نذرته لله » ٠ كان اسماعيل بن ابراهيم في ذلك الوقت صبيا جميلا في السابعة من عمره ٠ فأخرجه أبوه ومعه سكين حادة وحبل دون أن يخبر أمه بما نواه ٠

أليس الولد غاليا ٠٠ ؟ ومع ذلك لم يكن بامكانه أن يفعل شيئا آخر فسار مطأطيء الرأس ٠ وأخذ الصبي يلعب مع الفراشات ، ويلقي بالحصى هنا وهناك وكأن أباه لم يخرج به سوى للعب ٠ وفي هذه اللحظة ظهر ابليس واقترب من الصبي وسأله : « أتعرف الى أين يأخذك أبوك ؟ » ٠ « الى أين ؟ » « انه يأخذك الى المذبح ليضحي بك فاهرب » «ليس من المعقول أن يفعل أبي ذلك » ـ قال الصبي غير مصدق ٠ وعندما لم ينجح ابليس معه ، ذهب الى زوجة ابراهيم وشكا اليها الامر ، ولكن حظه معها لم يكن أفضل من حظه مع الصبي « انه ابنه وهو حر فيه » أجابته الام ٠ وعاد ابليس الى الصبي في صورة أخرى « ألا ترى السكين التي يحملها أبوك والحبلَ ؟ انه سيذبحك فاهرب » « لماذا لا تتركني وشأني ! » قال الصبي وضربه بحجر كان يحمله فقلع احدى عينيه ٠

لم أقل الصدق في حياتي سوى هذه المرة فقلعوا احدى عيني ٠ وان قلت الحق ثانية سيقلعون عيني الاخرى ٠ قال ابليس لنفسه وانطلق لا يلوي على شيء ٠ وهكذا وصل ابراهيم الى المذبح فقال لولده : « يجب أن أخبرك بالحق يا ولدي ٠ لقد نذرتك قربانا لله تعالى وعلي أن أذبحك » « حسنا يا أبي لا يوجد ما هو أحب الي من ذلك ٠ ولكن أرجوك أن تربط يدي ورجلي جيدا ، فقد أؤذيك بسبب حلاوة الروح وأرجوك أن لا تنظر الى وجهي وأنت تذبحني » وفعلَ ابراهيم كما قال الصبي ٠ أرقده على وجهه وضغط بالسكين على عنقه

ثلاث مرات ليذبحه • ولكن السكين لم يجرح • فغضب ابراهيم وألقى به على الارض ، فقطع السكين الحجر الذي وقع عليه وانغرز في الارض • وتكلم السكين قائلا : « أنت تقول اذبح ولكن الله تعالى يأبى ذلك » وفي هذه اللحظة رأى ابراهيم ملاكا يحمل كبشا من خراف الجنة « خذ هذا الكبش واذبحه بدلا من ولدك » قال له الملاك • لقد علم الله بصدق عزمك على ذبح ولدك •

بكت النسوة المتجمعات قرب مكان الاحتفال • وسالت دموع بعض الرجال من المصلين • ورفع الشيخ سعيد صوته متابعا :

ـ أتظنون أن ابليس غير موجود في هذه الايام أيضا ؟ هنالك أبالسة يحضوننا على ترك الصلاة وعدم الذهاب الى المساجد • لا تنسوا ذلك ، ولا تدعوا ابليس ينتصر عليكم • تبرعوا للمسجد الذي سيبدأ ببنائه اليوم بما تقدرون عليه ، وسيعوضكم الله يوم القيامة • لا تنسوا الله واذكروه دائما ، والا سيأخذونكم الى مثواكم الاخير على أنغام الابواق النحاسية كالبلاشفة •

وفي اللحظة التي قرر الشيخ فيها أن ينتقل الى فقرة جديدة من موعظته سمع همسا بين الحضور « وصل ينال ويلدار لقد أعادوا دولت ورفاقه بالعربة ونسي سعيد ما كان بصدد قوله عندما سمع ذلك وأخذ ينظر حواليه بطرف عينه •

وصل يلدار على ظهر حصانه وترجل بعيدا ، ثم اقترب من الجمع وقال بصوت مسموع : « يا جماعة • اذا كنتم قد أنهيتم صلاتكم فتعالوا الى منصة الخطابة التي بناها دولت لان الريفقان ينال يريد أن يخاطبكم • وبما أنكم ستبنون مسجدا في هذا المكان فقد لا يليق أن يقال فيه كل ما نريد قوله » •

وكانت منصة الخطابة التي بناها دولت قريبة من المكان • وقد انتهى بناؤها ولكن دولت لم يجد وقتا ليقيم الاستعراض الذي كان ينوي اقامته ، أما ينال فقد وقف عند المنصة ينتظر قدوم الناس ، وخلفه عدد كبير من الفرسان •

وبالرغم من دفء النهار وقف ينال منتصبا وقد تدلى من كتفيه برنس صوفي من تلك التي يستعملها رعاة الخيل ، وعلى رأسه قلبق من الفرو • وبدأ الناس يتجمعون حول المنصة • ووقف أستيمر بجانب ينال يتحدثان • أما دولت وصحبه فلم يظهر لهم أثر • وجاءت النسوة أيضا ، وسر ينال بحضورهن •

ـ هيا يا يلدار ، أخبر الناس بسبب زيارتنا ـ قال ينال ـ قربوا الآخرين أيضا من المنصة •

وصعد يلدار وأستيمر بعد ذلك مباشرة الى منصة الخطابة • وفتح بعض الفرسان بوابة مستودع العربات القديم الملحق بمقر العمدة ، وأخرجوا

دولت وموسى وبتوقة ومسعود مذعورين وقد شحبت وجوههم • وتذكر عدد كبير من الناس في هذه اللحظة اليوم الذي قتل فيه الحداد بسوت ولوطة وصحبهما •

ـ ليقفوا هناك حيث يراهم الجميع • ـ قال ينال مصدرا أوامره ـ هيا ـ تكلم يلدار فمنصة الخطابة هذه بنيت لمثل هذه المناسبات •

وشنف الحضور آذانهم ، بينما وقف دولت وصحبه مطأطئي الرؤوس ، وأيقن الناس أن كل ما كان يدور من همس حول أعمال دولت قد انكشف الآن تماما •• كان دولت ، بالتواطؤ مع بعض موظفي مفوضية الزراعة يسجل أسماء وهمية في جداول توزيع الاراضي • وبينها أسماء أناس ماتوا منذ زمن بعيد • وكان يعاونه في ذلك عدد من أنصار الشريعة البارزين • وقد حصلوا بهذه الطريقة على مساحات واسعة من الاراضي وباعوها لانصارهم • وبهذه الطريقة باعوا حصة نور علي المسكين أيضا • وبما أن الناس لم يكونوا يعرفون القراءة والكتابة فقد اعتمدت العصابة على أن أحدا لن ينتبه الى ما يوجد في جداولهم • حتى دولت الذي يجهل القراءة والكتابة هو الآخر أيضا كان على استعداد لان يتنصل من كل شيء محيلا الامر على كاتبه الذي نظم الجداول •

وربما بقي الموضوع مكتوما لولا بطن الكبدة الذي ضموه اليهم لكثرة معارفه ، وليستفيدوا منه في تصريف الاراضي ، فكشف كل شيء دون أن يدري • هذا الرجل الذي أمضى حياته في فقر مدقع يسخر منه الناس • قرر أن يرقى السلم الاجتماعي بسرعة • فباع قطعة الارض التي خصوه بها لاحد الناس ففلحها وزرعها • ولشدة طمع مسعود ، باع الارض المزروعة ثانية لرجل آخر • ولم يكتف بذلك ، بل باع الحقل الذي أخذت تتماوج فيه أعواد الذرة الصفراء للمرة الثالثة • وفي موسم جني المحصول التقى الثلاثة وعرفوا جلية الامر فأخذوا يبحثون عن مسعود معا • وعندما عرف الاخير أنهم يبحثون عنه اختفى من القرية • ونتيجة للشكوى التي قدموها ضده القوا القبض عليه ، فانكشف كل شيء تدريجيا •

وقامت ضجة بين الناس الذين لم يصدقوا في باديء الامر أن ما يقوله يلدار قد حدث بالفعل •

ـ حتى القاتل يسمحون له بالدفاع عن نفسه • دعوا دولت يتكلم •

ـ هذا صحيح • ـ قال ينال ـ دعوه يتكلم ـ فقد يكون المسكين متهما زورا •

وتردد دولت ، ولكنه كان متلهفا على الكلام من فوق منصة الخطابة التي شادها ، ورغم يأسه من وضعه ، خيل اليه أنه بمجرد أن يطل على الناس من فوق المنصة سيغفرون كل شيء •

وبدلا من أن يعترف بالحقائق الدافعة التي تدينه ، أخذ يعـدد للناس ما قدمه للسلطة السوفييتية من خدمات • بدأ بالبئر التي حفرها من أجـل نساء القرية ، فالنهر يجف أحيانا ، ويتعكر أحيانا أخرى • وقال انه هـو الذي أوضح للناس معنى الثورة التي لم يكونوا يعرفون شيئا عنها • ومـن الذي بذل كل ما بوسعه ليحول فقراء القرية الى أغنياء ! انه هو وليس غيره وهو أيضا الذي علم الناس كيف يهتفون « ورا » عندما يأتي الى القرية زائر كبير • وفوق كل هذا وذاك ، من الذي وجد مفتاح « صندوق الحكومة » ثانية، أليس هو دولت ! •

وصاح يرول الذي لم يعد يطيق الاستماع الى كل هذه الترهات :

ـ وماذا يفيدنا « صندوق الحكومة » ! والله انك لم تقدم أية خدمة سوى لنفسك •

وكان يرول متباهيا بمهنة المنادي التي يقوم بها ويعتبر أن السلطـة السوفييتية تخاطب الناس بلسانه •

وتابع دولت كلامه دون أن يلتفت الى مقاطعة يرول ، مستمتعا بالحديث من فوق منصة الخطابة •

ـ تحدث عن الجرم الذي اقترفته •

ـ لمن أعطيت أراضي آل شردان ؟

ـ أخبرنا بسبب توقيفك • !

ارتفعت أصوات معارضة من هنا وهنالك ، ولكن دولت تابع كلامه دون أن يهتم بأي اعتراض • فتحدث عن منصة الخطابة التي أوعز هو ببنائهـا دون غيره • ثم انتقل الى قراره بمنح كيل من الذرة الصفراء لكل طفل يذهب الى المدرسة • وأخذ يعدد بعد ذلك الخدمات التي قدمها لضحايا المجاعـة القادمين من حوض الفولغا • فلم يعد ينال يطيق صبرا :

ـ كفاك ثرثرة ـ قال ينال محتدا ـ انني أستمع اليك اليوم للمرة الثانية ولكننـي لم أجـد لحديثـك أي معنى فـي كلتـا المرتـين ، الا تعـرف ما هـو الخجل ؟ أم تظن أن الناس قد اجتمعوا للاستمـاع الـى لغـوك الفارغ ! ـ وصعد ينال الى المنصة مباشرة وبعد أن أزاح دولت جانبا بـدأ حديثه :

ـ أيها الكادحون ! ـ وانتظر قليلا حتى تهدأ الضجة التي أثارها دولت ، بينما وقف أستيمر حزينا صامتا وقد تذكر أنه هو الذي اقترح تسمية دولـت رئيسا لسوفييت القرية • فانظر الى ما آلت اليه الامور • وتابع ينال حديثه بصوت جهوري وبكلمات قوية تخرج متتابعة من فمه كطلقات المدافع •

ـ يا أهل القرية • أيها الناس • ان السلطة السوفييتية هي سلطـة

البروليتاريا • وهي تسعى لتؤمن لكم المأوى والملبس والحياة الكريمة •

ـ أدامها الله لنا ووفقك لما فيه خير الجميع • ـ قال بعض المسنين •

ـ أنا لا أعتبر نفسي غريبا عن قرية شعلمفوقة • فهنا يعيش عدد من أقاربي • ولا أظن ان أحدكم يجهل خالتي المسكينة أوزيزة التي تسبب المرحوم الحاج يونس في وفاتها بسبب جهله •

ـ رحمها الله • ـ قال أحدهم

ـ كانت خير النساء • ـ علق آخر •

ـ منذ ذلك الحين سمعنا عن بوتش أستيمر • وعرفنا أنه من الرجال الذين يعملون لخير الناس والوطن •

ـ والله هذا صحيح • قال بوتش مشهورون بالذكاء والاستقامة •

ـ لم يقف أحد في وجه المرحوم الحاج يونس سواه • وبعد موته ورث أخوه نور علي بيته وأملاكه ؛ ولكنه لم يستطع أن يدبر أموره • واذا لم أكن مخطئا فهو مخبول متشرد في شوارع نالتشك الآن •

ـ هذا صحيح • انه واحد من الذين حلت عليهم لعنة الله •

ـ يجب على الانسان أن يعمل حتى يعيش • ولا يعتمد سوى على عرق جبينه • لقد فكر نور علي أن يحصل على الثروة دون عمل ؛ فلم يجن سوى المصائب • بعكس بوتش أستيمر الذي لم يفكر يوما أن يحصل على ملك غيره • وليس هو الوحيد من أهل القرية الذي يعيش كذلك • ها هو يرول الذي لم يكف طوال حياته عن العمل • والمرحوم بلاتسة أيضا كان كذلك • واسحق وغيرهم الكثيرون • لقد تم افتتاح مدرسة في قريتكم بفضل بوتش أستيمر وأرجو أن تبقى أبوابها مفتوحة الى الابد تضيء الطريق للاجيال القادمة •

ـ وفقك الله •

ـ نرجو لك دوام السعادة •

ـ كان المرحوم بلاتسة عجوزا نادر المثيل • وكلكم عرفتم وصيته الاخيرة • فذلك الرجل الذي لم يكن بلشفيا ولا قاتل في صفوف الثورة ؛ اعتبر نفسه في لحظاته الاخيرة عضوا في الحزب وأوصى بأن يدفن كما يدفن البلاشفة • انه أول من تحدث بمنتهى البساطة معبرا عن الامال التي تعقدها البروليتاريا على ثورة اكتوبر بانتظار فجرها وما ستحمله الثورة الى دنياهم من تغيير • انكم ترون اليوم بأم أعينكم النور الذي حلمت به البروليتاريا منذ نشأتها • يقولون أن من يرى النور السماوي يستجاب دعاؤه • فاطلبوا الآن ما تريدونه لان الثورة لا تشع الا من أجلكم • من أجل أن تحقق أحلامكم في حياة حرة كريمة • اطلبوا ما تريدون وستحقق الثورة مطالبكم •

ـ أدام الله رئاستك •

ـ حقق الله أمانيك • ـ صاح عدد من الناس من هنا وهناك •

ـ لقد قاومنا الامراء والنبلاء الذين كانوا يسلبوننا عمل أيدينا وعرق

جبيننا • فهل نسكت الان على من يأتي ليسرق منا ما دفعنا ثمنا له من دمائنا وأرواح شهدائنا •• ! هل نسكت على من يعمل ليطفيء النور الذي رأته أعيننا •• ! سنبقي نور الفجر الذي تحدث عنه المرحوم بلاتسة في وصيته الاخيرة مشتعلا دوما • وسنبقي جرس مدرسة أستيمر يرن دونما انقطاع • لم يدخل المرحوم بلاتسة المدرسة سوى في أيامه الاخيرة • وهو لم يتعلم سوى كيف يخط بعض الحروف • ومع ذلك تبين لنا أنه يفهم من الحياة أكثر مما يفهم أولئك الذين تعلموا في أعلى معاهد استامبول • ليقل المتخان قارجري ما يريد ؛ فهو ليس أفضل من أخيه على أية حال • ولكن يجب أن يفهم أن البروليتاريا لا تحلب في انائه • ويجب أن لا تكون لديه أوهام حول ذلك •

هذا الجمع لم يجتمع اليوم للاستماع الي • انا اجتمع للاحتفال ببدء العمل في بناء مسجد كبير • ستحمي الثورة مساجدكم ومعتقداتكم بكل ما أوتيت من قوة اذا كان هذا ما تريدونه • ولكن لا تعتمدوا على هؤلاء الذين أحلناهم اليوم الى المحكمة • فهؤلاء الذين حاولوا سرقتكم ونهب مكتسباتكم لن يدلوكم الا على طريق الخراب • صلوا وصوموا بقدر ما تشاؤون فلن نسمح لاحد بالتعرض لكم بسبب ذلك • ولكن عليكم أن تدققوا فيمن تمنحونه ثقتكم •• حتى اصائل الخيل يتعلق بأذيالها عدد من الهوام• ما نفعله اليوم هو تنظيف الثورة من الهوام التي تعلقت بها • لقد قبلنا أنصار الشريعة بين صفوفنا • وأقمنا المحاكم الشرعية احتراما لمشاعركم ولكن لن نسمح لهم بأن يخربوا الثورة من الداخل • ما زال بين صفوفنا الى الآن عدد من الانتهازيين • ولكننا سنصل اليهم جميعا ولو اختبأوا في باطن الارض • وسنصفي جميع اعداء الثورة بالتلاحم المتين بين البلاشفة والكادحين •

كان الرجال يستمعون الى ينال واجمين • أما النسوة فكن شاردات أيضا ومنهن من أخذت تهز طفلها بحركات آلية دون أن يكون في حاجة الى ذلك • ضرب ينال الطاولة بقبضته وتابع :

ـ أيها الكادحون ! اعتبارا من اليوم سأضع حدا لانتهاكات زعماء أنصار الشريعة • ان بعضهم يتستر على اعداء الثورة عن غباء أو عن سوء نية • وهذا ما لن نقبل به ؛ وأريدكم أن تعرفوا ذلك جيدا • انهم يضمون الى صفوفهم رجالا من أمثال دولت وبتوقة وموسى وسعيد • ها هم يقفون أمامكم • ورأيتم بأم أعينكم كيف يعملون لهدم ما نبنيه • هكذا تأمرهم الشريعة التي يتمسكون بها ••• !

اننا نحس بالامتنان رغم كل شيء لدولت • فلولاه لما كان بامكاننا أن نكتشف ما اكتشفناه اليوم •• ان دولت ليس وحده • انه نموذج يمكن أن

نجد مثيلا له في كل قرية تقريبا ٠ وأستيمر الذي هو حاضر معنا يعرف ذلـك جيـــدا ٠

كنت أود أن يحضر المتخان لقاءنا اليوم ٠٠ اذا لم يضع قازجري حدا لما يقوم به الشريعيون ، فسنجد حتما من يفعل ذلك ٠

أيها الكادحون ٠ ان الثورة ثورتكم ٠ وكل شيء واضح لا لبس فيه ٠ لن نسمح لاحد تحت أي شعار أن يعرقل مسيرة الثورة أو يحاول اطفاء الشعلـة المتقدة لاجلكم ٠٠ أرجو أن تتحقق أمانيكم جميعا ٠ وأرجو لكم التوفيق ٠

ولما أنهى ينال كلامه ، انفجرت الاكف بالتصفيق واستمروا كذلك حتى نزل من منصة الخطابة وتوجه الى جمع النسوة ليتحدث اليهن ٠ ولكن النسوة تراجعن مفسحات الطريق له ٠

ـ ما رأي النسوة بما يجري في هذه الايام ؟ ـ سأل ينال ٠

وبعد صمت قصير تكلمت واحدة تضع على رأسها منديلا أسود كبيرا :

ـ وماذا نقول يا نور عيني ؟ هل اجتمعتم اليوم لبحث أمور النساء ؟ لا يمكن تسيير أمور الدولة برأي النساء على أية حال ٠ وفقك الله ٠

ـ « من يتكلم كثيرا فكلامه مر ٠ أما الذي لا يقول سوى حلو الكلام فـلا يتحدث كثيرا » هذا ما يقولونه عن المرأة يا عزيزي ٠ ـ قالت ديسة وهي تمد برأسها من بين زحام النسوة ٠ وتقدمت دانيزات التي أحبت أن يراها ينال :

ـ يا حدادي المسكين الذي غادر الحياة قبل الاوان ٠ ليتك سمعت ما قاله ينال اليوم ٠

وعرف ينال على الفور أنها تعني بوت فقال يطيب خاطرها :

ـ اننا نجمع رفات رفاقنا الذين استشهدوا في الحرب لندفنهم جميعا في نالتشك ٠ صحيح أننا لا نستطيع أن نعيدهم الى الحياة ، ولكننا لن ننسى أولئك الذين تركوهم أمانة في رقابنا ٠هيا ، أريد أن أسمع رأي بقية النسوة٠

اعتاد دولت أن يوصي الناس دائما قائلا : لا تخلطوا بين المواقف التـي يجب أن توجهوا فيها الاسئلة ، وتلك التي يجب أن تعبروا فيها عن آرائكم٠ ويبدو أن هذا ما حصل للنساء في هذه اللحظة ٠ فلم تعرف احداهن ماذا ينبغي أن تفعل ، أتسأل أم تعبر عن رأيها ٠ عدا دانيزات التي عادت الى ثرثرتها:

ـ والله سنعبر عن رأينا ٠ ولماذا لا نفعل ؟ وما الذي يمنعنا من ذلـــك ؟ ـ قالت دانيزات وهي تحتل الساحة ـ ان الرجال يظنون أنفسهم أذكيــــاء لانهم يستطيعون أن يضعوا المقود على قرني الثور ٠ فلماذا لا نعبـــر نحـــن أيضا عن رأينا ! ٠

ـ ليتني أرى أحدهم يضع المقود على قرنيك انت قبل أن أمـــوت ٠ ـ قالت دومسارا ساخرة فضحك الجميع ٠

ـ أليست ساريمة هنا؟ ـ سأل ينال أين يلدار٠ وتظاهر يلدار أنه يبحث

عنها ، ولكن ينال لم تخدعه هذه الحركة ، فاقترب منه وقال :
ـ مر علينا مساء اليوم ٠

وقبيل المغيب بدأ الناس يتفرقون ٠ وأخذ القادمون من القرى الاخرى يسرجون خيلهم ، ويهيئون عرباتهم وهم على عجلة من أمرهم للوصول الى قراهم واخبار أهلهم بما رأوه وما سمعوه اليوم ٠

وهز اسحق رأسه قائلا :

ـ أقسم أنني دخت ولم أعد أعرف ماذا أفعل ٠ البلاشفة يخاطبون احدى أذني ، والشريعيون يتكلمون في الاذن الاخرى ، فالى من أستمع ؟ ٠

ـ ماذا سيفعلون بالمتخان يا ترى ؟ ـ قال أحد الحجاج قلقا ٠
ـ سيهاجر الى تركيا ٠

وما الذي سيفعله في تركيا ؟ أتظن أن هنالك موائد ممدودة بانتظاره ! ـ قال آخر ٠

ـ والله ان ينال لن يتخلى عن قازجري مهما بلغت درجة الخلاف بينهما ٠ انه بمثابة العظم في جسم السلطة السوفييتية ٠ فما قيمة الجسم بدون عظم ! ـ قال الحاج الاول معبرا عن احترامه لقازجري ٠

ووقف آخرون يتناقشون :

ـ لو حكموني بهم كنت قضيت عليهم والله في ليلة واحدة ، والحقتهم بالذين ماتوا في العام الماضي ٠
ـ ومعهم دولت ؟
ـ دولت في مقدمتهم ٠
ـ سيمتصون دماءنا اذا أتيحت لهم الفرصة ٠ أما موسى ، فالكلاب عندها حياء أكثر منه ٠
ـ من لا يخجل لا يتورع عن فعل أي شيء ٠
ـ ولكنهم يجمعون الثروات ٠
ـ أنا المسؤول اذا جمع دولت ثروة بعد اليوم ٠
ـ ذلك اللعين كان في غاية النشاط في الآونة الاخيرة ٠

وتفرق الناس وهم يتجادلون ويتبادلون الشتائم أحيانا ٠ وتذكر أستيمر ذلك اليوم الذي عاد فيه الى القرية مع ستيبان ايليتش يركبان عربة ٠ يومها أيضا خرج الناس الى الشوارع يتناقشون ويتجادلون بعنف وكانوا على استعداد في أية لحظة أن يشتبكوا بالعصي والخناجر ٠ لقد سمع الناس اليوم الشيء الكثير ٠ وانكشفت لهم أمور كانت خافية عليهم ٠ وسيتناقلون ما سمعوه من ينال زمنا طويلا ٠ لقد أيقنوا أن دولت وصحبه

كانوا يخدعونهم طوال الوقت • خاصة أن دولت لم يدافع عن نفسه بكلمة واحدة ، ولم يجرؤ على انكار التهم الموجهة اليه •• لم يعد من السهل خداع الناس في هذه الايام • قال أستيمر لنفسه • واقترب منه ينال قائلا :

ـ هيا يا أستيمر أرنا مدرستك •

ـ هيا ••

واتجه ينال وأستيمر جنبا الى جنب صوب المدرسة •

## جراسلان يقيم احتفالا

تتابعت الاحداث • اللاحق منها أعجب من السابق • ورغم أن الناس لم يصدقوا خبر عودة جراسلان فقد كان ذلك صحيحا • وليس هو وحده الذي عاد انما عادت أيضا السيدة التي رحلت فوق عربة القش • والتأم شمل الاسرة في البيت ذي النوافذ الزجاجية الملونة •

وبدافع من الفضول أخذت أعين أهل القرية تراقب الزوار الذين يأتونه فرسانا وبعربات الركاب التي تجرها الخيل • وهكذا عرفوا كم مرة زاره يلدار أو قازجري • وذات يوم جاء ستيبان ايليتش بنفسه لزيارته • أما السيدة فلم يروها خارج بيتها الا لماما • ولم تكن تزور أحدا من جيرانها • واذا صدف أن احتاجت شيئا منهم كانت ترسل أحدا دون أن تذهب هي بنفسها •

وهكذا عرف كل الناس بقصة جراح جراسلان والقاء القبض عليه ، ثم عودته الى البيت ، وارساله في طلب زوجته • ثم سمعوا بعد ذلك أن السيدة تقيم احتفالا بهذه المناسبة •

وكانت المناسبة تستدعي الاحتفال فعلا • فقد رفض ينال بادىء الامر اطلاق سراح جراسلان • ولولا تدخل قازجري لما وافق على ذلك • وهكذا أصبح زعيم الخارجين على القانون ، والذي أشاع مجرد ذكر اسمه الذعر في قلوب الناس طويلا ، حرا طليقا •

ورغم عدم ارتياح ينال لهذا الامر ، استجاب لالحاح قازجري حين أوضح له أن المتمردين سيصدقون ما جاء في رسالة جراسلان اليهم ، وقد يعودون الى بيوتهم حين يسمعون أن زعيمهم قد أطلق سراحه • وكان قازجري يعتقد أن جميع الهاربين سيضعون سلاحهم حين يتأكدون من أن السلطة السوفييتية قد عفت عن زعيمهم • وسيوضع بذلك نهاية للتمرد في كل بلاد قباردين • ولنجاح هذا التدبير ، راهن قازجري على أن جراسلان لن يهرب ويعود الى الجبال ثانية •

وصار الناس يسمعون بعد فترة من اطلاق سراح جراسلان أن فلانا من الناس في قرية كذا قد عاد الى بيته ٠ وفي قرية أخرى عاد ثلاثة منهم الى بيوتهم بهدوء وأخذوا يزاولون أعمالهم كالمعتاد ٠ وجمع قازجري هذه الانباء كدليل على صحة موقفه ٠ وكان حريصا على جراسلان لانه قد يحتاج اليه في يوم من الايام ٠ أما الاخير فكان على استعداد لتنفيذ كل ما يطلبه المتخان اعترافا منه بالجميل ٠

أقام جراسلان بعد خروجه من المستشفى في البيت الذي شغله ناشخوة من قبل تحت الحراسة بانتظار أن يبتوا في مصيره ٠ ثم أعادوا اليه بيته الذي تركه يلدار منذ فترة طويلة ٠ واستقر فيه مع زوجته ٠

ويبدو أن جراسلان قد اقتنع بعبث مقاومة السلطة السوفييتية ٠ وان ذلك يشبه رجم الجبل بالبيض ٠ وقرر أن يستقر في بيته نهائيا ويحث رفاقه السابقين على العودة الى بيوتهم ٠ وصار يصرح في كل مناسبة ان من الافضل للجميع الخضوع للقانون ٠

وردا من المتمردين على استسلام زعيمهم ، أوقفوا القطار عند مدينة « قاله كيح » ونهبوه ٠ وحسب تقدير جراسلان فان الذين قاموا بهذا العمل هم مجموعة « قاغرمس » الذين استغلوا بطء القطار أثناء صعوده احدى المرتفعات فقتلوا سائقه وأوقفوه ثم سلبوا الركاب كل ما كانوا يحملونه بمن فيهم بعض الدبلوماسيين الايرانيين ٠

وهكذا حصل المتمردون على كميات كبيرة من البضائع والنقود والحلي من قطار باكو ـ موسكو ٠ وربما صار « القاغرمس » يظن نفسه أنه لا يقل شجاعة عن جراسلان ٠ وكان سلب الدبلوماسيين الايرانيين سيخلق أزمة كبيرة للسلطات العليا ٠ وهنا قدم جراسلان خدمة كبرى للسلطة ٠ فقد أرسل للقاغرمس من يخبره بضرورة اعادة كل ما سلبه من الدبلوماسيين ولحسن الحظ أطاع المتمرد أوامر زعيمه فانتهت الازمة دون ضجة كبيرة ٠ ولم تكن الخدمة الوحيدة التي قدمها جراسلان ٠ فقد أرسل كتابا موجها الى جميع المتمردين في الغابات والجبال يقول لهم فيه : ضعوا السلاح وعودوا الى بيوتكم لتعيشوا حياة هادئة كريمة ٠ ولن تتعرض السلطة السوفييتية بالاذى لمن يضع سلاحه منكم ٠

وبعد هذا الكتاب سمحوا لجراسلان بالعودة الى بيته كما رأينا ٠ أما تينة فقد رفضت العودة الى بيت السيدة بشكل قاطع ، وأيدها « لو » في موقفها ٠ فقد كانت الصغيرة تخاف من السيدة أكثر من خوفها من زعيم المتمردين ٠ ورغم أن « لو » لم يعرف شيئا عن مساهمته الفعالة في القاء القبض على جراسلان الا أنه لم يكن يطيق رؤيته ٠ لذلك آزر تينة في موقفها ٠

في اليوم التالي لعودته ذهب جراسلان الى نالتشك لمراجعة المستشفى مصحوبا بحارسين ٠ وفي نفس اليوم ذهب « لو » الى المدينة مع والده ٠ وقد

أصبح في الآونة الاخيرة يكثر التردد على السوق · فتارة يأخذ معه كمية من البيض ، وأخرى ربطة بصل أخضر كبيرة ليبيعها · وهو اليوم يحمل دجاجتين طلبت منه دومسارا أن يبيعهما · وقد باعهما فعلا فور وصوله · ورأى والده يقبض خمس قطع نقد معدنية ، أربع منها كبيرة والخامسة صغيرة · ولكنه لم يكن يعرف كم يساوي مجموع هذه القطع · ولما كانت أمه قد أوصته أن يشتري خبزا بعد أن يبيع الدجاجتين ، فقد ذهبا الى الفرن · وكم كانت فرحته كبيرة بالحصول على خبز المدينة الابيض وأخذ أستيمر ينظر الى البائع وهو يقطع الرغيف الابيض الكبير المنفوش الى نصفين ثم قسم النصف الى قطعتين ، ولو كان « لو » يملك ما يكفي من النقود لاشتري النصف بكامله على الاقل · ولكنه اكتفى بنصيبه ، وسار مع والده عبر السوق باحثين عن عربة يعودان بها الى شعلمفوقة ·

كان السوق مكتظا في ذلك اليوم بالعربات والفرسان والمشاة ، وحمل عدد كبير من الناس بنادقهم · وكنت ترى أناسا من أقوام مختلفة ، شراكسة وروس وقره شاي وقوشحة وغيرهم · ولدى الجميع في مثل هذا اليوم ما يبيعه ليشتري بالمقابل ما يحتاج اليه · وظهر بين هذا الجمع رجل لفت الانظار فأخذ الناس يتهامسون · بينما انحنى له آخرون باحترام ·

ـ السلام عليكم يا جراسلان ·
ـ وعليكم السلام · كيف تسير أمور البيع والشراء ؟
ـ على أحسن ما يرام · كيف حالك يا رجل ·
ـ نحمد الله ·

وتوقف أستيمر عندما رأى جراسلان قادما نحوه · واقترب منه الاخير متظاهرا بالعبوس ·

ـ كيف تسير أمورك يا جراسلان ، وكيف حال صحتك · لقد سررت برؤيتك والله ·
ـ أدامك الله · انني أسمع أخبارك وليست سيئة وهذا من نعم الله · أنا كما تراني لقد وضعت نفسي تحت رحمة القوانين ولم أندم على ذلك الى الآن · أظنك تذكر جيدا آخر مرة التقينا فيها · لو كنت مكاني في ذلك اليوم ، اتصرفت أنت أيضا كما تصرفت تماما · ها ·· ها ·· ها ·· أليس كذلك ·
ـ أنا لا أحمل أي حقد عليك · انني الآن معلم للاطفال ·
ـ أعرف ذلك · انك لا تعلم الاطفال وحدهم · ولا تندهش اذا رأيتني يوما تلميذا في مدرستك ·
ـ يا أهلا بك ·

وأخذ أستيمر يمعن النظر الى هيئة زعيم المتمردين السابق · ونظر جراسلان الى الصبي :

ـ أهو ابنك ؟ ٠

وخاف « لو » من هذا الاهتمام المفاجيء ، وكادت قطعة الخبز تسقط منه ثم شغله شكل شارب جراسلان الغريب فنصفه طويل وغزير كقرن كبش ، بينما النصف الآخر خفيف جدا وكأنه سنابل قمح حطت عليها الطير وأفرغتها بمناقيرها ٠ أمسك أستيمر بكتفي « لو » وقربه من جراسلان :

ـ انه ابني ، وهو في المدرسة الآن ٠

ـ أوه ٠ يا له من ولد نشيط ٠ خذ يا صغيري هذه الحلوى المصنوعة على شكل حصان وابدأ بأكلها من الرأس ٠ ـ قال جراسلان وهو يضع في يده كمشة من الحلوى ٠

ـ لا أريد ٠ ـ قال « لو » متهيبا ٠

وفي هذه اللحظة قال أحد الحارسين اللذين يرافقانه : « هيا بنا ، لقد تأخرت هنا بما فيه الكفاية » فقال جراسلان مودعا ٠

ـ خذها يا صغيري ٠ سنلتقي ثانية ٠

كان لقاء « لو » بجراسلان حدثا هاما وجديرا بأن يتحدث عنه وقتا طويلا وقد أخبر تينة بتفاصيل هذا اللقاء ٠ ولما عرف أصدقاؤه الصغار بذلك ، نظروا اليه نظرتهم الى رجل ناضج ٠ ولم يخف شيئا من تفاصيل اللقاء سوى خوفه من جراسلان أول الامر ٠

بعد هذا اللقاء ، انتشر خبر الحفلة التي سيقيمها جراسلان في القرية ، وكان أستيمر ودومسارا مدعوين ٠ وقد ألح عليهما جراسلان بالذهاب ٠ وحسبما يقولون فان عددا من الضيوف الهامين كانوا سيأتون من نالتشك ومعهم يلدار أيضا ٠ وعندما أخبر « لو » تينة بالحدث الجديد رفضت الدخول الى الدار التي تقيم فيها السيدة فالغى مشروعه بالتسلل الى الدار للانصات الى حديث الضيوف من وراء النافذة ٠ وأخرج أستيمر ودومسارا أحسن ملابسهما من الصندوق الخشبي وهيأها استعدادا ليوم الاحتفال ٠

ها قد بدأ الاحتفال ٠ لقد ودعنا المرحوم بلاتسة الوداع الاخير ٠ ويبدو أن علينا الآن أن نودع الصغير « لو » وداعا مؤقتا ٠ الحياة ما زالت مديدة أمامه وما زال أمامه الكثير ليتعلمه في المدرسة ومن الحياة ٠ سينظر من خلال نوافذ كثيرة ، وستعلمه الحياة أضعاف ما يمكن أن يتعلمه من استراق السمع الى الضيوف الموجودين في الحفلة وداعا يا « لو » ! لقد جئت الى الدنيا يوم فيضان النهر ٠ وأرجو لك حياة مديدة ومليئة ٠ سنعرف بعضنا البعض حتما حين نلتقي ثانية ٠ تعلم ولا تنس أن تصب الزيت دوما في القنديل الذي أشعله أبوك ٠

من الصعب أن تجد رجلا يعرف كل خفايا التقاليد الشركسية ويحافظ عليها مثل جراسلان ٠ وصاحب الدعوة في الولائم لا يجلس عادة الى المائدة

حسب هذه التقاليد ، انما يقف في خدمتهم امعانا في احترامهم • ولكنه تظاهر بأنه يطبق التقاليد الجيورجية في هذا المجال وجلس مع ضيوفه في مكان الصدارة من المائدة • وجلس حولها متخان قازجري وبوتش أستيمر وباشا يلدار والطحان آدم • وكان يلدار قد اقترح تقليص قائمة المدعوين حتى لا يحضر أحد من غير المرغوب فيهم ويحدث ما لا تحمد عقباه • ربما يلدار مطلع على بعض الامور ، ولديه أسبابه الخاصة التي دفعته لهذا الاقتراح • لذلك لم يناقش جراسلان هذا الموضوع طويلا •كان الشيخ سعيد من المدعوين لكنه لم يستطع المجيء بسبب المرض الذي ألم به بعد يوم الاحتفال ببدء العمل في بناء المسجد وأقعده الفراش • من يدري ، ربما روى قصة ابراهيم للمرة الاخيرة في ذلك اليوم • أما السجادة الجميلة التي صلى عليها يومها ، فقد أعيدت الى بيت جراسلان بعد انتهاء الصلاة وها هي معلقة في مكانها بشكل يلفت الانظار •

دخلت السيدة على الضيوف في بداية الحفلة وألقت عليهم التحية وخرجت دون أن تقول كلمة أخرى ، وذهبت الى المطبخ حيث تعمل دومسارا في اعداد الطعام ، وجلست معها صامتة معظم الوقت ، بعكس جراسلان الذي أخذ يتذكر أيامه السالفة ، ويروي أخبارا تأخذ بلباب القلوب • وبين حين وآخر كانت ضحكات المدعوين ترتفع مجلجلة وهم يمسكون بطونهم بأيديهم ثم يصمتون ثانية ولا تعود تسمع سوى صوت جراسلان • وأحيانا كانوا يشتركون جميعا في الغناء •

بدأ جراسلان منشرحا كما في أيامه الغابرة • ولكنه كان رث الهيئة • فمعطفه الرمادي الذي كان يرتديه يوم القاء القبض عليه مرقع بعدة رقع، وأغطية مواسير البارود التي تزين صدره متآكلة وبعضها مكسور • وقد بدأ الشيب يغزو رأسه ولكن حلاقته الناعمة أخفت ذلك فبدأ أصغر سنا •

وأخذ المضيف يملأ الاقداح بالباخسمة والعرق الروسي حسب طلب الضيوف ويقترح الانخاب ، ويلقي النكات مسريا عن ضيوفه • واذا سأله أحدهم . « قل لنا يا جراسلان كيف أقنعت القاغرمس باعادة حوائج الدبلوماسيين الايرانيين ؟ كان يضحك ويأخذ الامر على مأخذ الهزل دون أن يجيب على السؤال •

ـ لا تبحث عن ذلك يا يلدار • ـ يقول جراسلان ـ أنت تطبق صدرك على عدد كبير من الاسرار ، فلم لا تترك لي سرا واحدا •• ! هيا مد يدك الى الطعام • كانوا لا يقدمون مثل هذا الطعام الطيب في الماضي سوى للجنرالات لم يبق الآن جنرالات • أرجوكم أن تتناولوا المزيد منه • القاغرمس حاد الطباع ، وهو لا يسمع كلام أحد غيري • قد يأتي يوم نتحدث فيه عن ذلك •

ورغم قلة عدد الضيوف فقد لفهم جو من المرح وأخذوا يتبادلون النكات والتعليقات حول بيت جراسلان الذي استولى عليه يلدار ، وكيف استعاده صاحبه بعد ذلك • وهل كان من الممكن أن يدوم هذا وينطبق علينا المثل

القائل : « عندما يدخل الكلب الغريب الى الدار يطرد منها كلب البيت » والله لن أقبل أن يطردني أحد من بيتي ٠ ومع ذلك فلا توجد بيني وبين يلدار أية عداوة ٠ أليس كذلك يا يلدار ؟ ـ قال جراسلان بلهجة لا تعرف معها فيما اذا كان جادا أم هازلا ٠

ومع أن جراسلان بذل أقصى ما يستطيع مضيف أن يبذله من جهد لاكرام ضيوفه والترفيه عنهم ، وبدأ بشوشا طوال الوقت ، فقد كانت مسحة من القلق تعبر وجهه بين حين وآخر ٠ وبدا مشغول البال بشيء غامض لم يفصح عنه ٠ وتتويجا لاصناف الطعام أحضرت دومسارا نصف رأس الذبيحة ووضعته في صحن على المائدة ٠ ولما تأكد جراسلان أن النصف الذي أحضرته هو النصف الايمن حسبما تقضي التقاليد ٠ بدأ بعد ذلك بتقرير مصيره ٠ فهو يعرف جيدا ماذا ينبغي أن يفعل به ٠

أخرج سكينه الحادة المعلقة في وسطه خلف الخنجر ، وقطع الاذن بحركة ماهرة ثم قال قبل أن يقدمه لاحد :

ـ تقدم الاذن عادة لاصغر أحد الشبان سنا والذين يخدمون المائدة ٠ أما بين الجالسين حول المائدة اليوم فلا أحد يليق أن تقدم اليه حصة الشبان ٠ ومع ذلك فانني أقدم الاذن الى يلدار ٠ وأرجو بالمناسبة أن تكون حاد السمع دائما ، تسمع ما يقوله أعداؤك ، وتحفظ ما تسمعه من الكبار ٠ أنت أصغر الحاضرين سنا اليوم ، ومع ذلك منزلتك كبيرة ، وتشغل منصبا هاما ٠ وفقك الله ٠ ـ قال وهو يقدم الاذن ليلدار ٠ ومد يلدار يديه معا وتناول الاذن منه ٠

ان المتخان يعرف جيدا الدافع للحفلة التي أقامها جراسلان اليوم ٠٠ ويعرف أيضا أن هنالك حدا للحرية التي منحوها له ٠ فالمريمقان لم يطلق سراح زعيم المتمردين بسهولة ٠ وهو لن يتردد اذا اقتضى الامر أن يحيله الى محكمة ثورية ويعدمه جزاء لرفعه السلاح في وجه الثورة ٠ ليس جميع ضيوفه اليوم موضع ثقة ينال المطلقة ما عدا يلدار ٠ ومع ذلك فان جراسلان انما يعتمد على الحاضرين اليوم اذا حدث في المستقبل ما لا يحمد عقباه ٠

كان المتخان يفهم كل ذلك جيدا ٠٠٠

## نقر على النافذة

أعاد جراسلان سكينه الحادة ، وبدأ يكسر عظم الرأس بين يديه ٠

ـ أظن أن هذا يجب أن يكون من نصيبك ٠ ـ قال وهو يمد الانف مع لحم الفك الى أستيمر ٠ ومد أستيمر كفيه ، واحدة فوق الاخرى وأخذ حصته ٠

وأمسك جراسلان الباقي من نصف الرأس بيديه واضعا ابهامه عند

المفصل القابل للكسر وقسمه الى قسمين • كان واضحا أن أصابعه ما تزال قويـــة •

ووقف يلدار منتصبا وقال بأدب :

ـ اتسمحون لي أن أقول كلمة ؟ •

ـ قل ، والله سنستمع اليك •

ـ لا أظن أن هنالك من يستطيع أن يبزك في الكلام يا جراسلان • ومـع ذلك دعوني أعبر عما بنفسي • قلت لي قبل قليل : « أن شجرة مقامك تنمو عاليا وأنا أود أن أتفيأ بظلها » • ان شجرتك أيضا لم تيبس بعد يا جراسلان وأرجو من الله أن يبقيها يانعة • كانت شجرتك وارفة الظلال طوال حياتـك فما الذي يمنع أن تلقي بظلالها الآن أيضا ؟ اذا ألقيت بظلك بعض الوقـت الى الخلف ـ فاستدر الآن الينا واجعل ظلك يمتد الى الامام •

ـ لم أفهم •

ـ اسمعني جيدا يا جراسلان • ان المتخان قازجري راهن على كلمتك ، ووثق بعهدك • فهل لديك مانع أن تصبح مرافقا وحارسا له ؟ • ألا يناسبك هذا العمل ؟ ما زلت أذكر جيدا ما قلته لي قبل الحرب : « هيا اذا كنت تريد أن تمتحن شجاعتك ، ها هي الحرب ! » والآن أنا الذي أقول لك « هيا الـى معترك الحياة » أتريد سلاحا ؟ سأعطيك السلاح الذي تريده • وأعتقـد أن قازجري بحاجة الى جماعة • فهو قاض بالاضافة الى أنه زعيم للشريعييـن المتحالفين معنا • وأنا أرى أن تقبل هذا العمل كبداية • ولن يجد المتخـان حارسا يطمئن اليه أكثر منك • وهكذا يحرس زعيم المتمرديـن السابـق ، زعيم أنصار الشريعة • فما رأيك ؟ •

ولم ينبس قازجري ببنت شفة •

بينما غرق جراسلان في تفكير عميق • لقد أمضى حياته وهو يتخذ القرار المناسب في لمح البصر وفي أحلك الظروف • يكر حين يقتضي الكر • ويفر حين لا يجد مناصا من ذلك • وها هو يلدار يفاجئه الآن بهذا الاقتراح الذي لم يجد فيه عيبا ، ولا انتقاصا لكرامته يمنعه من قبوله • ومع ذلك آثر التفكير قبل أن يجيب •

وحثه الموجودون على القبول • وأخيرا ابتسم جراسلان وقال وهو يمسـح نصف شاربيه الضئيل :

ـ ان حارس القاضي ليس نشيطا بما فيه الكفاية ما دام قد تردد الى الآن •

ثم حمل نصف الرأس الذي لم ينته من توزيعه وأردف :

ـ أعجبني اقتراحك يا يلدار ، وأنا أشكرك على هذه الثقة • ولكن يجب

أن ننهي موضوع هذا الرأس ۰ لقد أظهرت الليلة ذكاء وحكمة ۰ ومن الواضح أن ينال لم يخترك عبثا لتقف الى جانبه ، وفقك الله ۰ والله وبالله وتالله لن أخيب ظنك أنا أيضا ۰ أمضيت عمري وأنا موضع للشك والريبة يتهمونني علنا أو سرا بكل ما يحدث من سرقات خيل ومشاكل ، كما يتهمون الذئب بما يفترسه وما لا يفترسه ۰ أنا فداء لمن يضع ثقته في أشكرك يا أخي ۰ أنت الاصغر سنا ولكنك لست الاقصر باعا ۰۰ وأنت يا قازجري أقبل مني هذا رجاء ، حفظ الله مقامك ، فتلك عاداتنا ۰ ـ قال جراسلان ذلك وهو ينزع عين الخروف بسبابته ويقدمها للقاضي ۰

وقف قازجري وانحنى باحترام ثم مد يديه وتناول العين بامتنان كبير وكأنه يمسك بقطعة من الماس ۰۰ في مثل هذه المواقف كانوا يقدمون العين لجراسلان ولو وجد بين الحضور من هو أنبل منه وأعرق أصلا لان العين في العادة من نصيب الذين لهم في المجتمع منزلة العين من الانسان ۰ وها هو جراسلان الآن يقدم العين الى قازجري الذي ليس هو من أصل نبيل ، كما أنه لم يظهر في المعارك بطولات تذكر ۰ فأي تكريم أكثر من ذلك يناله هذا الرجل الذي أمضى معظم سني عمره في المدارس الدينية ۰۰۰

ـ أن ما سمعته اليوم من كلام جميل قد أثلج صدري ـ قال قازجري وهو ما يزال واقفا ـ لقد قلت كلاما سليما يا يلدار وأنا ممتن لك وأنت يا جراسلان اظهرت ما يدل على أن رأيي فيك كان صحيحا ۰ وأنك رجل صادق ، وكلمتك هي كلمة رجل شجاع فعلا ۰ وأنا لن أجد من أعتمد عليه أكثر منك ۰ وسأكون سعيدا جدا بمرافقتك لي ۰ وأنا واثق من أننا سنكون متفاهمين على كل شيء ۰ لقد سرني كثيرا ما قلته اليوم يا جراسلان ، واقتراح يلدار في مكانه تماما ۰ فالاحوال لم تهدأ بعد تماما ، ولا يعلم الانسان ما يتعرض له من مخاطر ۰ لقد جاء في القرآن ما معناه : لن يصيبكم الا ما كتب لكم ، وبما أنه لا يحدث شيء دون ارادة الله ، فيبدو أن الله تعالى أراد قيام السلطة السوفييتية ۰ لذلك لا توجد أية غضاضة في أن تخدم السلطة الجديدة ۰ والله وبالله ، أنا لن أقف في وجه ينال ، ولن أعلن الجهاد ضده ۰ ولا أريد سوى أن نحل كافة المشاكل التي نختلف عليها حلا وديا وأخويا ۰ أنا لست ضده ، ولا أحمل له أية ضغينة على العكس من ذلك ، كان يمكن أن يقتلني أو يقتل أخي ناشخوة آخذا بثار أبيه الذي قتله أبي ، ومع ذلك لم يفعل ۰ وأنا لن أنسى ذلك ۰ والمأخذ الوحيد الذي أخذته على كل تصرفاته العامة والخاصة هو كلامه بحق أخي المرحوم ناشخوة حين أوصى بأن يدفن حسب تقاليدنا ۰

ـ ارحمنا يا رب جميعا ، ولكن كيف استطاع أن يقول شيئا بحق رجل ميت ؟ ـ قال جراسلان مقاطعا ۰

ـ ان ينال ضليع في أمور الثورة والسلطة ولكنه بدأ يتجاهل التقاليد الشركسية ۰ ما معنى الثورة ؟ اليست هي الحرية والعدالة ۰ والشريعة ؟ ألا

تعني أيضا نفس الشيء ؛ الحرية والعدالة !٠ فلماذا يقف ينال بعد ذلك ضد الشريعة ؟ اذا كان دولت وجماعته قد خانوا القرية ؛ فهل الشريعة هي المسؤولة عن خيانتهم ؟ ٠ ان هؤلاء مثل الزبد الذي يطفو على سطح الماء القذر ؛ ويجب التخلص منهم ٠ كان من الخطأ تسليم المسؤولية الى أمثال دولت ٠ ان المسؤولية تليق برجال مثل جراسلان ٠٠ الصادق في تمسكه بالشريعة ؛ صادق مع الناس أيضا ٠ هنالك أشياء كثيرة لم يدركها الناس بعد بشكل صحيح ؛ ولكن سيدركونها فيما بعد ؛ ويجب التحلي بالصبر ؛ فأولئك الذين يعملون دوما مع الناس ؛ هم أدرى بمشاكلهم ٠

لما أنهى قازجري كلامه ؛ رفع كأسه وشرب منه جرعة كبيرة وفي هذه اللحظة أدخلت دومسارا الى الغرفة كمية أخرى من الطعام الساخن ٠ ولكن الجميع كانوا قد شبعوا ؛ كما أن الليل كان قد تأخر ٠

وودع قازجري الجميع بكلمات رقيقة كما ودع دومسارا ثم دخل الى غرفة السيدة أيضا وودعها مصافحا ٠

ـ ستبقى الليلة دون عمل يا حارسي الجديد ٠ ولكننا سنلتقي فيما بعد بارك الله في زادك ؛ واستجاب أدعيتك ٠ ـ قال قازجري موجها كلامه الى جراسلان ـ هيا يا زبير ٠

كان « أبشه زبير » أحد فرسان يلدار مكلفا بحراسة قازجري ٠

ـ سيصبح جراسلان أحد رجالك يا بلدار ٠ يجب أن تعتبر نفسك محظوظا ٠ أليس كذلك يا جراسلان ؟ ٠

ـ أنا تحت تصرفكم ؛ ومستعد لتنفيذ كل ما تطلبونه مني ٠ ولست ممن يميزون بين عمل وآخر ٠ رافقتكم السلامة ٠ ـ واختفى وقع حوافر الجوادين في عتمة الليل تدريجيا ٠

السماء صافية من جهة الجبال التي هبت منها ريح باردة بعثرت أوراق الاشجار اليابسة في البستان ٠ الوقت جاوز منتصف الليل ٠

وجلس بقية الضيوف ثانية ؛ انهم متعبون ٠ وقد داهم النعاس بعضهم وقل كلامهم ولكن أحدا لم يفكر بالانصراف ٠ وغرق جراسلان في أفكاره التي تدور حول اقتراح بلدار ٠

ورفعوا نخبا جديدا ؛ لكن الجميع لمسوا الشراب بشفاههم لمسا خفيفا ؛ وأعادوا أقداحهم الى المائدة ٠ ولام جراسلان نفسه على التعب الذي داهمه ٠ فقد اعتاد أن يسهر ليالي متتالية بطولها دون أن يعرف التعب طريقه اليه ٠ وعاد الرجل يغرق في أفكاره من جديد ٠ اذا قبلت أن تعمل حارسا ومرافقا للمتخان فمعنى ذلك أنك تخدم السلطة السوفييتية وتصبح واحدا من رجال يلدار ٠ ولكن ماذا تفعل بنفسك اذا لم تقبل ؛ والى أين يمكنك أن تذهب ؟ ٠ هل تعود الى الجبال متمردا من جديد ! حتى المتمردون ساءت أمورهم في

الآونة الاخيرة فبعضهم يعود الى بيته وآخرون يلاقي القبض عليهم ·· ولكن هل يقبل بقية المتمردين أن يصبح زعيمهم واحدا من رجال يلدار ! · ان القاغرمس رجل صعب المراس ·

وفي هذه اللحظة سمع نقر خفيف على النافذة ، فأجفل جراسلان ونظر الى يلدار ·

ـ هل ينقر أحدهم النافذة ؟ ـ سأل يلدار وهو يضع يده على مسدسه ·

ـ سوف أرى · قد تكون ويسة التي أرسلتها لتحضر شيئا من بيت الطحان · ـ قال جراسلان وهو يخرج ·

نظر حوله فلم ير أحدا في عتمة الليل التي لم يعتد عليها بسرعة بعد خروجه من الغرفة المضيئة · ولم يجد من المناسب أن يسأل عن الطارق · كان واضحا أن أحد رفاقه القدامى قد جاء ، ولكنه لم يعرف من هو ·

وبعد أن ألفت عيناه الظلمة ، رأى شبح رجل ملتصق بالجدار ، فخطا خطوة نحوه ويده على مقبض خنجره ، وسأل همسا :

ـ من أنت ؟ تفضل ·

ـ أشكرك ، أنا أعرف حبك للضيوف ، ولكنني لست واحدا من الذين تستقبلهم في هذه الايام · ـ قال الرجل متظاهرا بالمرح وهو يغتصب ضحكة عصبية ·

ـ من أنت ؟ ·

ـ ألم تعرفني !

وأخيرا عرف جراسلان الزائر عندما حل ضيف الفجر البرنس عن وجهه : ولم يبق لديه أي شك في أنه زالمجري · « أرالب زالمجري ! » لم يخطر ببال جراسلان في الحلم أن الارالب يمكن أن يزوره ·

ـ أهذا أنت ؟ ·· أما زلت حيا ؟ ·

ـ ألا تعرف اذا كنت قد دفنت جثتي في مقبرتكم ؟ هنالك غيري من يستحق الدفن ولكن لا يزال حيا · كما أنني أنا أيضا ما زلت حيا · ـ قال الارالب وهو يقترب من جراسلان فراعه شحوب وجهه ونحول جسمه وكأنه قادم لتوه من العالم الآخر ·

وسرت قشعريرة في جسم جراسلان وقد خيل اليه أن ما يراه ليس غير شبح ·

ـ سمعت أنهم كانوا قد دفنوا جثتك دون رأس ·

ـ لقد دفنوا جثتي ، ولكن رأسي بقي كما ترى · ورأس الرجل يمكن أن يجد جثة أخرى ·

ـ قال الارالب وهو يغتصب ضحكة عصبية ثانية ـ على أية حال أنا لم آت لنتحدث عن ذلك ، ولدي عمل اخر • ثم ان ضيوفك ينتظرونك ويجب أن تعرف أنني لم آت اليك في هذه الساعة من الليل الا لعمل هام •

ـ تعال نبتعد قليلا كي لا يسمعونا وأخبرني •

وهكذا ابتعد جراسلان والارالب عن البيت • من يصدق أن الارالب ما يزال حيا •• ! لقد دفنوا جثته في قرية « برامته » قبيل القاء القبض على جراسلان ، وحضر على دفنه عدد من أهالي نالتشك • وقيل وقتها أنهم أحضروا جثته ولكن بدون رأس لانهم لم يجدوا رأسه • وها هو الآن حي يرزق ولو أن وجهه يحاكي وجوه الاموات ، ويحمل اسلحته كاملة ، ومسدسه الماوزر ما زال معلقا الى جانبه •

ـ الم تكن تعرف حقا أنني ما زلت حيا ؟•
ـ عرفت أنهم دفنوا جثتك • وهل يعود الميت من القبر !•
ـ أنا أيضا لم أكن أعرف أن الميت يعود من قبره • ولكنه يعود • ـ قال الارالب وكأنه يلقي لغزا ويعرض بصاحبه في نفس الوقت ـ وهل يعود الناس من سجن التشيكا ؟ كيف عدت أنت ! وكم ؟•
ـ ماذا تريد أن تقول ؟•
ـ كم عدد الرجال الذين وشيت بهم للابقاء على حياتك ؟ أم أن الكتاب التافه الذي أرسلته لنا هو الذي تشفع بك ؟ انك بدأت تطعن فينا من الخلف • فقد تفرقت كتيبة الثأر بعد رسالتك • أما كتيبة « أبناء النبي » المؤلفة من النبلاء فقد رحلت صوب الكوبان متجهة الى تركيا • ورحلت مجموعة تيرك نحو الداغستان • أما الباقون فانهم يجوبون الغابات بحثا عن القاغرمس ورجاله • المرضى والجرحى عددهم كبير ولا ندري ماذا نفعل بهم • فأي وضع هذا ؟• كل ذلك بسببك أنت • ولكن ثق تماما أننا ما زلنا نمثل شيئا ، ولنا فاعليتنا ، وسترى بعد حين ما نستطيع عمله • هيا معي الى الجبال يا جراسلان • لقد أرسلوني اليك أفهمت ؟• سنسامحك على كل ما فعلته بنا اذا عدت الينا ••

وكان جراسلان يراقب يد الارالب وهو يستمع اليه خشية أن يسحب خنجره أو مسدسه على حين غرة •

ـ قل شيئا • أم تنوي أن ترسل الينا كتابا آخر ؟• فالبلاشفة أصدقاؤك الآن ، وأنت تأكل وتشرب معهم •• الوحيد الذي يستحق ان تجالسه من بين كل مدعويك الليلة هو قازجري • ولكنه لن يبقى معهم طويلا ؛ فسيأتي يوم نحتاج فيه اليه • أهكذا يحافظ الرجال النبلاء على وعودهم أيها الزعيم ؟ أظن أن يلدار لا يعرف الى الان من الذي اطلق النار على ساريمة • أيمكن أن يغفر لك اذا أخبرناه بالحقيقة ؟•

ـ اخرس ! ـ قال جراسلان هامسا بغضب ـ ألست أنت من جرح الفتاة التي لم تقترف ذنبا ؟٠ كنت تتوعد بقتل العريس ، فما الذي غير رأيك وجعلك تطلق النار على العروس ؟٠ أهو الخوف من مرافقي يلدار ؟ ان اطلاق النار من بعد أسهل من المواجهة أيها الجبان !٠ لن أغفر لك ذلك ، وسنلتقي فيما بعد ٠

ويبدو أن الارالب ندم على تحريكه موضوع ساريمة فتوقف عن الحديث وقد شعر بالخوف من غضب جراسلان ٠ أما الاخير فقد وقف متحفزا مستعدا لان يسحب خنجره في أية لحظة ٠

ـ الله تعالى شاهد على ما نقول يا جراسلان ، فلا تغضب ٠ أنا لم يرسلوني اليك لاستثير غضبك ٠ دعنا نتفاهم ٠ لا تقل « بيتي » « وموقدي » فأنت لم يعد لك بيت ولا موقد ٠ أنت الآن هنا في هذا البيت ، ولكنك لا تدري لمن سيهبونه غدا ٠ سأقتل لك صاحب البيت الجديد اذا أردت ٠

ـ من ؟

ـ يلدار ٠ واذا أردت سأقتل ينال ٠٠ يبدو أن ذلك لا يعجبك ٠ ! اذن اقتله أنت ٠ ليس من الصعب ابعاد المريمقان عن الساحة ٠ تستطيع ان تشعل النار في بيته اذا أردت ٠ أو انصب له كمينا في الطريق ٠ او اقتله في البيت واجعل الامر يبدو وكأنه انتحار ٠ هنالك طرق كثيرة كما ترى لتنفيذ ذلك هل تستطيع أن تقتله ؟ اذا فعلت سنستقبلك بالاحضان وسنتفهم بعد ذلك معنى صداقتك الجديدة للبلاشفة ٠ أتظن أنهم سيجعلونك تعيش هكذا طويلا ؟ من الذي كفلك ، اليس قازجري ؟٠ ومن الذي يتحمل تبعة مقتل أبيه العجوز ؟ أتعرف لماذا لم يستطع الهرب ليلة توقيفه ؟ اذن ابحث عن الذي سرق حصان العجوز الذي كان سيهرب به ٠٠ لا تضع يدك على خنجرك فانت لا تستطيع أن تخفي أنك كنت سيد لصوص الخيل ٠ كما انني لست وحدي هنا ٠ ـ وأطلق الارالب صفيرا خافتا ، فرد عليه صفير مشابه من جهة البستان ـ دعنا ننهي حديثنا يا جراسلان فأمامنا عمل كبير ٠ عد الينا ولن تندم ٠ وداهمه السعال فجأة فكتم صوته بطرف البرنس ثم تابع بعد فنيل :

ـ غدا سيأتي أحدهم لزيارة الطحان ٠ وسيسأله « أعندك طحين يا ترى ؟ » يجب أن لا يعود ذلك الرجل خاوي اليدين يا جراسلان ٠ علينا أن نزيل الخلاف الذي بيننا والذي ليس من مصلحتك بأي حال ٠ ان خلية النحل تقتل ملكتها عندما تصبح غير ذات جدوى للخلية ٠ لا تتركنا يا جراسلان وفكر بالامر جيدا ٠

وخيل للارالب أن أحدا على وشك الخروج من البيت فاختفى بين الاشجار كالقط ٠

ـ الى الجحيم ٠٠! ـ قال جراسلان وهو يخطو بضـــع خطــوات وراءه ولكنه عدل عن ذلك وقفل عائدا ـ رضاكم وغضبكم سيان عندي يا أرالـــب بلغ ذلك لمن أرسلوك ٠

وألقى نظرة الى الغرفة من النافذة فوجد يلدار قد قام ، وأستيمر أيضا يستعد للانصراف ٠ أما آدم الطحان فكان ما يزال جالسا في مكانه ٠

وسمع جراسلان وهو يصعد الدرجات المؤدية الى البيت وقع حوافر جياد تبتعد من جهة البستان ٠ انه الارالب ورفاقه دون شك ٠ وقـــدر أن عـــدد الفرسان أربعة ٠

ودخل الى الغرفة متظاهرا بأن شيئا لم يحدث ، وهو يغني :

البيت الذي ندعو له بدوام البركة ٠

نرجو أن تحرك فيه وعاء القشدة تسع من النساء

وتنظف الدجاج عشر نساء أخرى ٠

وأن يكون الشراب ملء دنانهم ٠

وأن تسلخ فيه جلود الثيران الذبيحة للضيوف ٠

وأن يحطم الطعام رفوف موائدهم

وأن يقضي أهله حياتهم

وهم لا يعرفون عدد الذين يذبحون الخراف في بيوتهم ٠٠٠٠

وعندما عاد رب البيت بشوشا بهذا الشكل : تمهل الضيوف الذيـــن كانوا على وشك الانصراف ٠

ـ لم العجلة ؟ لم يحدث شيء ذو بال ٠ اجلسوا أرجوكم ٠ خيلكم لا تزال في أماكنها ، دعونا نكمل السهرة ٠ ـ قال جراسلان ٠

ولكن الضيوف أصروا على الانصراف ٠

وهكذا انتهت الحفلة ٠

## قطـــــار

من أين جاء تعبير « عربة » النار ؟٠٠ الناس يعرفون العربة ٠ ولما كان القطار أيضا عربة ، ولكن تسير بواسطة النار ، فقد أطلقوا عليه « عربـــة النار » هذا هو التفسير الذي وجده أستيمر لمعنى كلمة القطار ، ردا عـــلى تساؤلات تلاميذه الذين لم يكونوا يتركون شيئا دون أن يسألوا عنه ويدققوا في السؤال ٠ وبعد أن خرجوا من الدرس للاستراحة ٠ وقفوا جميعا في حلقـــة واحدة وأخذوا يتناقشون : « كيف يمكن للقطار أن يســـير دون حصان أو ثور ؟ » كان هذا محور نقاشهم ٠ وأخذ بعضهم يقسم أن عجلات القطـــار تحركها النار كما يحرك الماء مطحنة آدم ٠ ولكن الجميع لم يتفقوا عـــلى

ذلك : وهل تسير المدفأة اذا خلعنا أرجلها ووضعنا لها عجلات ؟·· نعم انهـا تسير · ولم يعترض على ذلك سوى تيمبوت الذي له خبرة أكثر بالآلات : « لماذا لا تسير الدراسة اذن ؟ » ·

وغرق الجميع في تفكير عميق · وروى لهم تيمبوت بعد ذلك ، وقد اتخذ هيئة الضليع بأشياء كثيرة ، كيف زار المحطة برفقة المرحوم بلاتسة ومعهم « لو » أيضا · وكيف رأى القطار في ذلك الحين عن كثب ·

وكان أستيمر يستمع الى الصغار عن بعد متعجبا من تعطشهم للمعرفة، ولما أوشك نقاشهم الحاد أن ينتهي الى جدال بالايدي ، نهرهم فتفرقوا ولكن الموضوع لم ينته عند هذا الحد · ففي الصف عاد ولد اشعث يسأله :

ـ ما الذي يحرك القطار يا أستيمر ؟

وأحرج أستيمر · من يخطر بباله أن المعلم نفسه لا يعرف كيف تسير القاطرة ؟ ولكنه وجد لنفسه مخرجا ·

ـ من المقرر في منهجنا أن نذهب الى نالتشك ونزور المحطة · وهنالك سترون القطار بأعينكم ، وستعرفون كيف يسير ·

وكان هذا ما يريده التلاميذ ففرحوا بذلك · وفي تلك الايام كان أستيمر عضوا في لجنة تأليف الكتب المدرسية باللغة الشركسية ، ويتردد على نالتشك بين حين وآخر · فقرر ان يتوجه الى المحطة في احدى زياراته للمدينة ويطلب من ناظر المحطة أن يشرح للتلاميذ كيفية سير القطار ·

ـ احضرهم في أي يوم تشاء ـ قال الناظر مسرورا ـ سأشرح لهم كل شيء بنفسي ، فقد عملت ميكانيكيا في السكة الحديدية لمدة عشرين يوما·· القطار ··؟ يا له من آلة عجيبة ! تتأجج النار فيغلي الماء ثم يحرك البخار العجلات فتنطلق القاطرة وهي تجر وراءها العربات المحملة بالبضائع والناس · قلت متى يأتي ؟ انه يأتي في يوم الاثنين · أحضرهم في ذلك اليوم ودع الباقي لي ·

لم يصدق أستيمر أن الموضوع انتهى بهذه السهولة ، واتجه الى عمله في المدينة مسرورا · ولكنه كان يفكر : « بخار الماء يحرك عجلات القطار !» هذا شيء جديد يكتشفه المعلم اليوم · لو أخبر تلاميذه بذلك لانتهى الامر دون حاجة الى كل هذا اللف والدوران · ولكن أنى له أن يعرف ذلك من قبل· على أية حال ، لا بأس ·سيأتي التلاميذ الى نالتشك مع العربات القادمة الى سوق المدينة يوم الاثنين ·

## مجريان متعاكسان للنهر

تلاحقت الاحداث سراعا وبشكل فاق كل قدرة على التنبؤ ٠

في ليلة من ليالي أوائل اشهر الشتاء ، سمع جراسلان نقرا على نافذته من جديد ٠ فقد جاء الطحان آدم موفدا من قبل زالمجري ليبلغه أن الموضوع الذي تحدثا عنه قد بدأ ٠ وأنه من الضروري جدا أن يتوجه الى قرية « باتغة » في منطقة القره شاي ، حيث استولى الارالب وجماعته على القرية وما جاورها ، وأقاموا هنالك للتو سلطة جديدة باسم أنصار الشريعة بدلا من السلطة السوفييتية التي قتلوا من تمكنوا منه من رجالها وفر الباقون ٠ وقد ساند المتمردين زعيم محلي من أنصار الشريعة يدعى « تشابدار » ٠ وأصر الفرسان من المتمردين وأنصار الشريعة الذين انضموا اليهم وعددهم يفوق المائة على حضور جراسلان لاستلام القيادة العسكرية للمجموعة ٠

في تلك الليلة لم ينم ينال ٠ وعج مسكنه المؤلف من غرفتين كبيرتين وصالون بالرجال المدججين بالسلاح ٠ بينما وقفت خيلهم المسرجة تنتظر في الشارع ٠ وكان يخيل لمن يراهم أن الحرب قد بدأت من جديد ٠ وغفا بعض الرجال في زوايا البيت ، بينما خلع أحدهم حذاءه المثقوب وأخذ يحشوه بالقش الناعم ٠

كان ينال بانتظار يلدار وقازجري ٠ وأخذ يصدر أوامره لبعض الفرسان لانجاز بعض الاعمال المستعجلة ؛ ويرسل آخرين في مقدمة الحملة لتنبيه أنصارهم في منطقة الحوادث ٠ وكان الفرسان القرهشاي الذين حضروا لاخبار ينال بما حدث ، قلقين وعلى عجلة من أمرهم للعودة الى ديارهم وايقاف المتمردين عند حدهم قبل أن يمعنوا في سفك الدماء ٠ خاصة بعد أن علموا أنهم يخططون للقضاء على كل من فاحت منه رائحة البلشفية ٠ وقد أشاع المتمردون فور وصولهم بأن السطة السوفييتية قد انتهت ، وأن أنصار الشريعة قد استلموا السلطة في طول البلاد وعرضها بقيادة المتخان قازجري٠ وهم ينوون أن يجمعوا كل المتمردين في تلك النواحي والانطلاق في الصباح الباكر من قرية باتغة للهجوم على نالتشك ٠ وبعد أن أبلغوا ينال بكل ما يقلقهم ، سألهم غير مصدق ما يسمع :

ـ أينوون حقا تسليم زمام الامور للمتخان ؟

هذا ما يخططون له بالضبط يا ينال ٠ يريدون أن يقيموا سلطة لانصار الشريعة بقيادة قازجري ٠

وفهم ينال من خلال النقاش معهم أن الاحداث جرت كما يلي : حاصر المتمردون القرية ، بينما توجه قائدهم الى مقر السوفييت فيها رأسا مع بعض الفرسان ٠ فوجد هناك رئيس سوفييت القرية الذي جاوز المائة عام

من عمره • ولم يخطر بباله أن يكون هذا العجوز هو الرئيس نفسه ، فسأله: «أين الرئيس ؟» ودون أن يرف له جفن استطاع العجوز أن يخدعه : «الرئيس ليس هنا ، سأناديه لك اذا أردت» ـ « طبعا نريده ، قل له أن يصل الى هنا بسرعة » وهكذا خرج العجوز وجمع حوالي عشرة فرسان من أبنائه وأبناء عمومته ، وتسلل الى الوادي الذي تطل عليه القرية من مسرب لا يعرفه الا أبناء الجبال الخبيرون واختفى في غمضة عين • ثم توجه الى نالتشك مباشرة لاعلام السلطات بما حدث •

وضحك ينال وصحبه على الطريقة التي خدع بها العجوز المتمردين • بينما أخذ الضيوف يتناقشون فيما اذا كان المتمردون سيختارون تشابدار عمدة للقرية بدل العجوز « قازماي » •

وعندما دخل قازجري ويلدار وجراسلان ورأوا هذا العدد من الرجال بمعاطفهم المصنوعة من الفراء والتي تفوح منها رائحة الجلد المدبوغ ،عرفوا أن ما حدث في منطقة القره شاي هو أمر جلل • وكان شاب من مرافقي قازماي يقول :

ـ قل أن تجد راعيا في كل الوادي لا يرعى عددا من أغنام تشابدار • ومع ذلك لا يحتفظ بأي رأس من الماشية في بيته امعانا منه في التظاهر بالفقر •

ـ انني أعرف تشابداركم هذا جيدا فهو واحد من المخادعين المشهورين•
ـ قال ينال وفي هذه اللحظة رأى المتخان فأردف ساخرا •
ـ قازجري ! أيها الملك الجديد ! تفضل يا حاكم قبارديا • تفضل يا متخان ! •

فنظر اليه قازجري وهو لا يدري شيئا عن سبب هذا الاستقبال • بينما علا صياح فرسان القره شاي ونقاشهم عندما سمعوا كلمة « متخان » الذي لم يسبق لهم أن رأوه • وبدأوا يتفحصونه مندهشين لكون المتمردين يعملون لوضع السلطة في يده • وكانوا قد سمعوا عنه الكثير ، كما سمعوا أناشيده :

تحت خفق البنود
نقيم سلطة الشريعة
من يقف في وجهنا
تصرعه رصاصة المتخان •

جراسلان أيضا سمع النشيد ايام كتيبة الشريعة • أما قازماي العجوز فلم يشغله شيء عن التفكير بالعودة الى القرية دون ابطاء والقضاء على المتمردين قبل أن يوغلوا في ايذاء الناس •

ـ يجب أن ننطلق بسرعة • سأدلكم على طريق مختصرة ، لو حدث هذا وأنا اتمتع بكامل قواي لجئتكم برعيهم مكبلا • يجب أن نسرع •

لم يلق ينال بالا الى قلق العجوز ؛ انما اتجه بحركة مفاجئة الى الخارطة المنشورة على الطاولة ووقف يشير اليها بعد أن شرح لهم خطته بكلمات قليلة . ووقف قازجري بالقرب منه وقد شحب وجهه . ربما عادت به الذاكرة الى لقائه الاول به بعد فراق دام سنوات طويلة . لقد خيل اليه وقتها أن ينال سيقتله على الفور آخذا بثأر أبيه منه . ولكنه بدلا من أن يفعل ذلك قرأ له اشعارا لجلال الدين الرومي . من يصدق أن هذا الرجل الحديدي يصرف وقتا لقراءة الشعر !.

بعد ذلك اللقاء فكر المتخان أنهما لا بد أن يلتقيا لان هدفهما في النهاية واحد . ولكن في هذه اللحظة صار واضحا لديه أنهما لا يمكن أن يتفاهما . وفوق هذا أحس بالقلق من الغضب الذي تجمع في عيني ينال .

ـ هكذا اذن !.. هل فهمت الآن يا قازجري كيف تطورت الاحداث ؟. ـ قال ينال وهو ينظر اليه بعينيه الحادتين اللتين تلمعان من تحت قلبقه القصير الذي غطى جبهته . وقد شحبت شفتاه وارتجفتا رجفة خفيفة من شدة الغضب الذي بذل جهدا واضحا لكبته . بينما وقف قازجري وهو يمسح العرق عن جبينه بعصبية واضحة .

ـ لماذا لا تقول شيئا يا متخان ؟ لقد أصبحت ملكا للمتمردين فلماذا لا تمارس صلاحياتك ؟ يلدار ! هل جهزت كتيبة التشيكا ؟ وهل الجميع مستعدون . أين زعيم المتمردين السابق ؟

ـ ها هو جراسلان . سيأتي معنا أيضا . ـ قال قازجري ـ وهو يريد أن يخبرك بشيء .

ـ ماذا ينتظر اذن ! يلدار طلبت من ستيبان ايليتش أن ينوب عني وعليك أن تترك له بعض رجالك . ـ ثم اقترب ينال من المتخان حتى لاصقه وقال مؤنبا من جديد ـ ألن تكف عن الشكوى يا قازجري ! لقد كتبت الى موسكو ثانية تقول : « ان المريمقان يشدد علينا الخناق ويقول أنه من الواجب القاء المصاحف في سقيفة المساجد » اليس كذلك ! لقد عرضوا علي ما كتبته عندما كنت في موسكو . ماذا سيقولون الان عندما يسمعون أن الجبليين حطموا سلطة السوفييتات وأقاموا في مكانها سلطة الشريعة ؟! وماذا ستكون شكواك القادمة في ظل الظروف الجديدة ؟

ـ لا داعي للسخرية مني ، فأنا لا دخل لي في كل ما حدث . ـ قال المتخان مرتبكا وهو يعبث بالمسن (١) الصغير المعلق بحزامه .

وفكر المتخان بأسى بأن المتمردين قد أساؤوا اليه اساءة بالغة ،وطعنوه في الصميم من حيث لا يدرون ، وشعر بحرج شديد من جراء ذلك . وحاول أن يركز ذهنه ليجد ما يمكن أن يكون مخرجا من هذا الموقف الجديد ، ولكن

---

(١) من مستلزمات الزي الشركسي .

دون جدوى • كان يظن أن الخلاف حول الموقف من الشريعة هو الذي يباعد بينه وبين ينال • لذلك كتب الى موسكو أملا أن توفق بينهما • ولكن المسؤولين في الكرملين سينحازون الى جانب ينال نهائيا بعد هذا الذي حدث •

ـ اليوم يجب اغلاق دواوين الشعر مؤقتا واللجوء الى السلاح • ـ قال ينال وهو ما يزال محتدا ـ أردفنا أنصار الشريعة وراءنا ، فأخذوا يسعون لازاحتنا عن السرج والاستيلاء على الحصان • هذا لن يحصل يا متخان •! لا تعتمدوا على ذلك • كنت تناقشني بوجوب تعليم القرآن في المدارس الرسمية • لم يكن ذلك هدفكم الحقيقي • وانما ما يحصل اليوم هو ما كنتم تسعون اليه •• وعندما صادرنا أراضي النبلاء ولم نبق لاي منهم سوى قطعة أرض يمكن أن يعمل عليها بنفسه رفضتم ذلك قائلين : كيف تحرمون الانسان من أرض أجداده ؟•• هذا كله مفهوم • ولكن لماذا وقفتم ضد فكرة توحيد الشراكسة والقرهشاي بالرغم من أن للشعبين دينا واحدا ويعيشان على أرض واحدة ! زعمتم وقتها أن للشعبين طباعا مختلفة ولا يمكن أن يتفقا • ومع ذلك جاؤوا الينا بأنفسهم طالبين مد يد العون لهم ولم يأتوا اليك •

ـ ولماذا يأتون الي أنا ! لست مسؤولا حزبيا ولا مسؤولا عن التشيكا •
ـ قال المتخان محتجا •
ـ هل استعد الجميع ؟ أين ذلك العجوز ؟ تعال يا قازماي ودلنا على الطريق المختصرة • تعال أنت أيضا يا جراسلان واسمع ما يقوله الدليل • ـ قال ينال ذلك وهو يعود الى الخارطة التي تحلق حولها الجميع • ورغم أن جراسلان لم يكن يفهم شيئا عن الخرائط فقد وقف يحدق في الورقة المليئة بالخطوط باعجاب شديد ••

ونظر ينال بطرف خفي الى جراسلان المأخوذ بالخارطة • ان وجه هذا الرجل مريح أكثر من وجه المتخان رغم أنه تردد كثيرا قبل أن يوافق على اطلاق سراحه •

وأخذ العجوز يؤشر تارة نحو الباب وأخرى نحو النافذة وهو ينظر الى الخارطة ويشرح لهم الطريق الواجب اتباعها • وأصغى جراسلان بانتباه الى ما يقوله العجوز •

تقدم الليل • في أيام الصحو يمكن الوصول الى قرية باتغة خلال ست ساعات على ظهر جواد جيد • ولكن في مثل هذا الجو الممطر وعلى طريق غير مسلوكة كثيرا لا يمكن تحديد المدة اللازمة للوصول الى القرية •• وحسب تقدير المتخان قد يصلون قبل طلوع النهار اذا أسرعوا في سيرهم • وبعد أن هدأ غضب ينال قليلا ، أوجز لهم الخطة للمرة الاخيرة • كانت خطة جريئة وبسيطة في وقت واحد • ينطلق عدد من الفرسان الى داخل القرية متظاهرين بأنهم يقودون رئيس سوفييت القرية الى زعيم المتمردين

فيلقون عليه القبض مع تشابدار • أما القوة الرئيسية من الفرسان فعليهم الذهاب الى حيث يقودهم قازماي للانقضاض على بقية المتمردين •

ـ سندفنهم اليوم كما دفنا الارالب من قبل دون رأس بعد أن نلقي القبض على رئيسهم • وبعد أن استمع جراسلان الى الخطة التي بسطها ينال باعجاب قال :

ـ اتسمح لي بكلمة يا ينال ؟

ـ قـل •

ـ انت مخطىء • زالمجري لم يقتل • انه ما يزال حيا ، وهو الذي قاد المتمردين الذين احتلوا قرية باتغة •

ودهش الجميع لما قاله جراسلان •

ـ لا داعي لان ترسل احدا الى ذلك اللعين ـ تابع جراسلان كلامه ـ فمن يدري كيف سيلاقيهم ، ثم من يضمن نتائج مثل هذا اللقاء ؟ سأقترح تعديل الخطة اذا سمحت •

ـ كيف ؟

ـ دعوني أذهب أنا الى الارالب • انه ينتظرني ظانا أنني سأعود للانضمام اليهم • ـ وهنا نظر الحاضرون الى بعضهم البعض بدهشة •

ـ سترسلك • ـ قال يلدار بعد صمت قصير ـ ولكن ماذا بعد ذلك ، هل ستقتل الارالب وتنضم الى المتمردين ؟•

ـ لا ، سأقتل الارالب لاعود الى بيتي في قرية شعلمفوقة • ـ قال جراسلان دون أن يظهر على وجهه أي انفعال •

وفكر ينال : « أهو صادق يا ترى ؟ أم ينوي خداعنا جميعا • وكيف يمكن أن نعرف مدى صدقه ؟ » • وصمت الجميع بانتظار أن يبت ينال في الموضوع •

في الخارج علا شخير الخيل ، وأوامر الضباط الذين يصدرون تعليماتهم• وكان ينال يعرف جيدا أن سرعة البديهة، والقدرة على اتخاذ القرارات حسب الظروف الطارئة يحددان بشكل حاسم مصير أية معركة • لذلك قرر أن يجرب اقتراح جراسلان :

ـ حسنا يا جراسلان • لك ما تريد ، فأنا أثق بكلمتك • اطلب كل ما تحتاج اليـه •

ـ حصان جيـد •

ـ وماذا بعد ؟

ـ أريد رجلين لا يعرفان معنى للخوف ولا يعرفهما الارالب • ومسدسا رشاشا « ماوزر » • ـ ولمعت عيناه بشكل ظهر منهما عزمه على انجاز عمل خطير •

ونظر ينال الى يلدار ففهم الاخير ما يريد قوله • وصمت الجميع •

ـ خذ مسدسي يا جراسلان • أنا عندي واحد آخر • ـ قال يلدار وهو يقدم مسدسه لجراسلان •

ـ يبدو أن السلاح سيكون وفيرا اليوم • ـ قال وهو يأخذ منه المسدس الذي طالما حلم بامتلاك مثله ، وعلقه على كتفه • ولم يخامر ينال أي شك في انه اتخذ القرار الصحيح •

ـ طلبت رجلين • انني اعطيك كوشوك وجمال • أظن أنك تعرفهما ، ولكن الارالب لا يعرفهما بالتأكيد •

وقلب يلدار الامر على وجوهه المختلفة • قد يخوننا جراسلان وينضم للمتمردين • ولكنه سيكون في المقدمة ؛ وسنسد جميع مخارج الوادي عليهم ولن يستطيع سوى اطالة أمد المعركة حتى لو انضم اليهم •

ـ هيا بنا ، ! ـ قال ينال وهو يخرج من الغرفة أمام الجميع • ـ عندما نلقي القبض على الارالب يا جراسلان سنضع مسدسك الرشاش في المتحف بجانب قميص يلدار وحزام قازجري الذي ورثه عن أبيه • هيا اركبوا بسرعة • أين أنت يا قازجري ! تعال الى هنا ، سنركب معا ، وسأتولى حراستك طالما أن جراسلان قد تركك • أما أنت يا جراسلان فلا تنس أننا سنكون بانتظارك عند سفح الجبل الاجرد • ويجب أن تلاقينا هناك ما دمت حيا لاننا لن نتحرك حتى نعرف أخبارك •

واقترب ينال من جراسلان وأسر في أذنه شيئا ، فحنى الاخير رأسه • ثم اقترب من كوشوك وأسر له بشيء أيضا ، فالتفت اليهما جراسلان بنظرة متفهمة • وفهم الجميع معنى هذه الحركة • انه يعرف انهم لا يثقون به ثقة كاملة • وهذا طبيعي •

ـ لقد فهمت • كل شيء واضح • ولكن هنالك شيء واحد لم أفهمه •
ـ وما هو ؟
ـ كيف ستقوم بحراسة ابن قاتل ابيك ؟ ـ سأل جراسلان وهو يرفع الكلفة بينه وبين ينال • فنظر اليه ينال صامتا ، بينما استغرب قازجري الذي لم يسمع حديثهما أن يكون لدى الرجلين ما يخفيانه •
ـ سنتكلم عن ذلك فيما بعد • ـ قال ينال وهو يتجه الى حصانه •

وانطلق يلدار في مقدمة الحملة بعد أن كلفه ينال بسد كافة مخارج الوادي •

ـ الا تحتاج الى أستيمر يا ينال ؟ ـ سأل يلدار قبل الانطلاق •
ـ وماذا نفعل به ؟• انه الآن معلم • فليعلم الأولاد جيدا وهذا كل ما

نحتاجه منه • لقد افتتح مدرسة جيدة •
وانطلق الموكب • وكانت عتمة الليل تحجب الفرسان بصعوبة •

★ ★ ★

قبيل الفجر وصل ينال وقازجري وعدد لا بأس به من الفرسان بالاضافة الى العجوز قازماي وأولاده الاربعة الى مدخل الوادي • العجوز يعرف طريقه جيدا دون شك • ولشدة انحدار الوادي لم يستطع أحد أن يرى طريقه جيدا • ومع ذلك تقدم العجوز بجرأة وثبات فتبعه الآخرون •

وأخذ الطريق يزداد انحدارا كلما تقدموا ؛ وتلمست الخيل مواطىء أقدامها بحذر شديد ، بينما لم يستطع الفرسان أن يفعلوا شيئا ازاء وعورة الطريق سوى أن يحافظوا على توازنهم فوق ظهورها • وكان الجميع صامتين، يصيخون السمع ويدققون النظر حواليهم في جميع الاتجاهات •

كان ينال وقازجري متلثمين بالبرانس ، وبدأ النهار يطلع وهم ينحدرون ببطء في طريقهم الوعر الذي بدا للفرسان وكأنه بلا نهاية • ولما أسرع الفارس الذي في المقدمة خطاه تنفس الاخرون الصعداء لوصولهم الى قعر الوادي •

تناثرت بيوت قرية باتغة في الوادي متباعدة • وكان الارالب قد احتل بيت العجوز قازماي واستقر فيه بانتظار ان يحضره فرسانه الذين أرسلهم البحث عنه •• وتابع ينال وقازجري وقازماي سيرهم بحذر شديد وهم على استعداد لكل مفاجأة يمكن أن تصادفهم • ولكنهم لم يسمعوا سوى هدير النهر الذي طغى على كل شيء • حتى كلاب القرية كانت صامتة فيما يبدو•

وصعدوا على مرتفع في وسط الوادي ليستطلعوا ما حولهم • بعيدا نحو الجنوب رأوا في ضوء الصباح الباكر بعض الفرسان يتراكضون • ليس هنالك أدنى شك في أنهم من المتمردين •

ـ من الافضل أن ننتظر هنا • ـ قال العجوز قازماي ؛ وأمعن النظر نحو بيته ولكنه لم يستطع رؤية شيء • أما المتخان فقد وقف يتلفت حواليه شاحب الوجه • ووقف ينال صامتا • بينما توجه بقية الفرسان الى المغارة الواقعة في سفح تلة جرداء حيث سينتظرون جراسلان • ثم هبط ثلاثتهم من المرتفع واتجه ينال وقازجري الى المغارة •

ـ لم يحدث الى الآن أي اطلاق للنار • ـ قال المتخان •

ـ ربما لم تسمع بسبب هدير النهر • سننتظر جراسلان هنا على أية حال كما اتفقنا •

ورغم أن الرجلين كانا يتبادلان حديثا عاديا ، الا أنهما كانا يفكـــران بمصير هذه العلاقة التي تجمع بينهما بعد انتهاء احداث اليوم ، وبعد قليل سأل قازجري :

ـ ينال ! لقد وزعنم المخصصات الشهرية على الجميع باستثناء أنصـار الشريعة . لم فعلت ذلك ، أتنوي أن تميتنا جوعا ؟.

ـ وماذا ستفعل بالمخصصات .

ـ عجبا !.

ـ انني جاد والله . ماذا ستفعل بالمخصصات ؟ لقد قررنا ارسالك الى موسكو لتقيم فيها ممثلا دائما لقبارديا . كل أعضاء اللجنة الحزبية وافقوا على ذلك .

ـ دون أن تسألوني رأيي !.

ـ ولماذا نسألك ، الا يعجبك هذا المنصب ؟ أم أنك تفضل البقاء فـــي البلاد ليقيموا سلطة للشريعة باسمك هنا وهنالك ؟ هيا انضم الى جماعتك الآن اذا كان هذا المنصب لا يعجبك .

ـ أنت وستيبان ايليتش متشابهان تماما . يمكنكما أن تتخليا عـــن وطنكما بسهولة ، أما أنا فلا أستطيع العيش بعيدا عن موطني . خاصـــة أنت ، انك معجب بالروس كثيرا .

ـ كفى يا قازجري . لا داعي للعودة الى هذا الموضوع من جديد . أنــت تتحامل على الروس ، ويبدو أن ستيبان ايليتش صار شوكة في حلقـــك ، هل نسيت تفانيه في مساعدتنا .؟ انسان في مثل ثقافتك يجب أن تكون لديه القدرة على التمييز بين القياصرة والضباط الروس الذين عرفناهم في عهـد الملكية ، وبين أفراد الشعب الروسي الذين كانوا مضطهدين مثلنا تماما . لقد سئمت من تكرار هذا الموضوع لك يا قازجري . كفى ! هل لاحظت النهر الذي نبع من موقع يقال له « حفرة ملتش » ؟ وكيف تتوزع ماؤه بعد النبـع مباشرة الى نهرين يجريان باتجاهين متعاكسين ؟.

ـ نعم . أحدهما هو نهر باتغة ، والآخر هو نهر شعلمفوقة . لقد لاحظته مرارا .

ـ اذن فنحن نشبه هذين النهرين . فرغم اننا ننحدر من شعب واحـد أنا وأنت فلنا طريقان مختلفان كل الاختلاف ولا يمكن أن نلتقي أبدا . لقـد خيل الي فيما مضى أن طريقنا يمكن أن يكون واحدا في النهاية . ولكننـــي يئست الآن تماما .

ـ صخرة واحدة هي التي تفرق بين النهرين ، الا يمكن أن نزيل هـــذه الصخرة ؟.

ـ الصخرة بدأت تتحول الى جبل . أزلها أنت ان استطعت .

وارتفعت بعض الاصوات من بعيد فانقطع الحوار بين الرجلين . كـــان

ذلك صوت العجوز قازماي الذي ابتعد لمراقبة التطورات عن كثب • وها هو يعود خببا مستعجلا الوصول الى ينال • وخرج الفرسان من المغارة وصوبوا أنظارهم نحو الجنوب •

## قريــة باتفــة

حدث ما كان يخشاه العجوز قازماي من وقوع ضحايا بريئة • ولكنه تماسك والدموع تملأ عينيه • فقد أمسك المتمردون بأصغر أولاده وقيدوه ورموا به في باحة المسجد • وعرف أن « المجاهدين » ينوون ذبحه والوضوء بدمه • « اذا توضأت بدم بلشفي فان الله يغفر لك جميع ذنوبك » هذا ما أفتى به بعض رجال الدين •

عندما دخل جراسلان على الارالب ، لم يضيعا وقتا طويلا في الجدال، انما سحب كل منهما مسدسه فجأة وأطلقا النار • ويبدو أن جراسلان كان أمهر في اطلاق النار ففضت رصاصته على الارالب أما هو فقد جرح جرحا بليغا قد يقضي عليه ، وقد يبرأ منه • هذا ما رواه كوشوك عما حدث بين الرجلين • وأصدر ينال بعد سماعه هذه الانباء أوامره بالتحرك فورا • وهذا ما أثلج صدر العجوز • وحسبما روى كوشوك لينال وهم في طريقهم الى القرية ، فان المتمردين كانوا يعرفون بقدوم جراسلان •

ـ لقد رأونا بمجرد اقترابنا من القرية ، ولولا أن الارالب كان بانتظار جراسلان لما سمحوا لنا بأن نخطو خطوة واحدة •

ـ وأين وجدتم الارالب ؟

ـ في بيت قازماي • عندما عرفنا أنه هناك ، توجهنا اليه مباشرة فوجدناه يعج بالمتمردين وبعضهم يجلس عند المدخل • اتجه جراسلان اليه مباشرة ومعه جمال بعد أن اوصاني بحراسة حصانه • وعندما سمعوا صوت اطلاق النار • فتح جراسلان عينيه ورآنا فأمرنا بأن نسرع لاخبارك بما حصل • وجاء أحد أقارب قازماي وأخفى الجريح في غمرة فوضى المتمردين بينما عدنا نحن بأقصى سرعة •

انحدر ينال والى جانبه قازجري مسرعين الى القرية وخلفهما عدد من الفرسان كان يبدو قليلا لتهاجم به المتمردين • ولكنهم بسبب الفوضى التي دبت بينهم بعد مقتل قائدهم كانوا مرتبكين • ويجب مباغتتهم في هذه الفترة بالذات قبل أن يستوعبوا ما حدث وينظموا صفوفهم من جديد • ثم انه من المستحيل أن يتركوا الشاب يذبح ذبح النعاج أمام أعينهم دون أن يفعلوا شيئا • هذا ما كان يفكر به ينال وهو ينقض بفرسانه على القرية •

وبعد قليل انقشع الضباب الذي لف القرية فرأوا بيوتها المتناثرة ٠ رغم طلوع النهار فلم يكن أي دخان يتصاعد من مداخنها ٠ وظهر بعض المسنين والاولاد عند احدى الزوايا ، ثم عادوا واختفوا لما رأوا الفرسان ٠ وكانت كل كلاب القرية تنبح معا بعنف ٠

رأوا عددا كبيرا من الناس في باحة المسجد فانقض ينال بفرسانه نحوهم مباشرة ، وأمر باطلاق النار عليهم في حال الانقضاض ٠ ولما رآهم المتمردون تفرقوا مذعورين وهم يطلقون النار عشوائيا ، وقفزوا على ظهور خيلهم وفروا نحو الجنوب ٠

وازداد ينال وقازجري تصميما فأخذا يطلقان النار من مسدسيهما نحو الفارين وهما يجريان بأقصى طاقة حصانيهما والريح تلعب ببرنسيهما ٠ أما المتمردون فلم يتوقفوا ظانين أن جيشا كبيرا قد هاجمهم ، ولم يفطن أحد منهم الى أن المغيرين لم يكونوا سوى اثني عشر فارسا ٠ أما أهل القرية من الرجال الذين كانوا مجتمعين في باحة المسجد ، فقد لاذوا باحدى الزوايا مرتبكين لا يدرون ماذا يفعلون ٠ وصاح ينال فور وصوله :

ـ أيها الكادحون ٠ لقد انتهى الكابوس ٠ لا تخافوا ٠

وترجم قازماي ما قاله ينال الى لغة القرەشاي مضيفا من عنده أشياء أخرى ٠

واطمأن الناس عندما رأوا رئيسهم العجوز وتنفسوا الصعداء ٠ ثم استقبلوا ينال مهللين ، بعد أن عرفوا أنه قاد الحملة لانقاذهم بنفسه ٠

ويبدو أن الانباء التي جاء بها كوشوك صحيحة ٠ فها هو الشاب ملقي في وسط الباحة مقيدا ، والى جانبه وعاء كبير مقلوب كانوا سيصفون دمه فيه لو تأخروا قليلا ٠ وعلى الارض فرش عدد من البرانس السوداء ليصلوا عليها ٠ ولم يؤخرهم سوى انتظار الارالب الذي كان سينحر الشاب بيده ، ولكنه لم يأت ٠ وثمة كومة من الاسلحة جاؤوا بها لتوزيعها على عدد من أهل القرية الذين قرروا ضمهم الى صفوفهم ٠ وعندما سمعوا صوت الرصاصة التي قتلت الارالب ، لم يصدق أحد أن شيئا كهذا يمكن أن يحدث ٠ لكن أحدهم جاء يصيح بأن جراسلان هاجم القرية ومعه جيش كبير ، وقد قتل الارالب لتوه ، وأن البلاشفة سيفلحون القرية بحوافر خيلهم ٠ وهذا النبأ هو الذي زعزع صفوف المتمردين ٠

القى امام المسجد الوعاء والخنجر المعد لذبح الشاب ، وولى الادبار مع الفارين وقد نسي كل شيء عن الشاب الذي كانوا ينوون الوضوء بدمه ٠٠ وكان يلدار رابضا بانتظارهم عند المخرج الرئيسي للوادي من ناحية الجنوب ٠ ووصل النبأ الى عدد من المتمردين الذين كانوا يكمنون في المغاور الجنوبية بأن الارالب قد قتله جراسلان الذي جاء يقود جيشا من البلاشفة فأيقنوا بأن النهاية قد حلت ولم يعودوا يفكرون سوى بالنجاة بأنفسهم ٠

لم يضيع ينال وقتا في القرية ٠ وأخذ يوزع الاسلحة التي خلفهـــا المتمردون من بنادق ومسدسات وخناجر وسيوف على انصارهم من أهـل القرية بالتعاون مع العجوز قازماي الذي لم يخف فرحته بنجاة ولده مـن الذبح ٠

وأثناء ذلك ، كان جراسلان يرقد جريحا فاقد الوعي ، وفكر قازجـري بأن يذهب لمعالجته ولكنه انتظر الى أن يأمره ينال بذلك ٠

ولما كان ينال متأكدا من عودة المتمردين الى القرية ثانيـة بعـد أن يعيدوا تنظيم صفوفهم ويدعموها بعناصر جديدة ، فقد فكر بأن يقطـع عليهم طريق العودة في موقع مناسب يستطيع منه السيطرة بهذا العـدد القليل من الرجال الذين معه ٠ واذا تمكن من ذلك ، وهاجمهم يلدار من الخلف ستكون اليوم نهايتهم المحتومة ٠ لذلك أمر رجاله بالاستعداد للرحيل ومعهم بعض المتطوعين من أهل القرية فرسانا ومشاة ٠

أضيق نقطة في الوادي تقع عند الشلال ٠ فهنالك ممر اجباري يشرف عليه مرتفعان متقابلان ٠ ذلك هو الموقع الذي اختاره ينال لينصب الكمـين المتمردين فيه ٠ وأخذ قازجري يشد حزام سرج حصانه استعدادا للرحيل ٠ ولما رآه ينال اقترب منه :

ـ من الافضل ان تبقى هنا يا قازجري ٠ اذهب الى جراسلان وابـق بجانبه ٠ كيف حاله يا ترى ؟ يحسن أن تأخذ معك مرافقا أيضا ٠

ولم يعارض المتخان ، بل كان هذا ما يريده ٠ فمنذ وصوله الى هنـا داهمه شعور بأنه زائد عن اللزوم ٠ ولم يعره أحد من أهل القرية أي اهتمام رغم معرفتهم بمجيئه ٠

ـ لا أريد أي مرافق ٠ ولولا انه من غير اللائق ترك جراسلان دون عناية لما بقيت ٠ ـ قال ذلك بلهجة من يفضل أن يكون هو المصاب ٠ وعادت بـه الذاكرة الى النقاش الحاد الذي جرى بينه وبين ينال يوم المؤتمـر الاول ٠ وكيف أخذ يضيق الخناق عليه وعلى أنصاره منذ ذلك اليوم ٠ يؤيده في ذلك ستيبان ايليتش واللجنة الحزبية ٠ فماذا سيكون موقفه بعد اليوم ٠ وهـل يستطيع تبرير حقيقة أن المتمردين سعوا الى اقامة سلطة لانصار الشريعة بقيادته هو ؟٠ ان ينال لن يغفر له ذلك أبدا ٠ ويبدو أن القرەشاي لا يفهمون شيئا من أمور الشريعة والا لما وقفوا منه هذا الموقف البارد ٠

تجمهر عدد كبير من النساء والاولاد وبعض الشبان أمام البيت الـذي يرقد فيه جراسلان ، ولما ترجل قازجري عن جواده اقترب منه شاب وأمسك بعنان الحصان ٠ في داخل الغرفة كانت العتمة تعم المكان فوقف متـرددا بعض الوقت دون أن يرى شيئا ٠ ولما اعتادت عينـاه على العتمـة رأى جراسلان راقدا على طراحة من اللباد وقد شحب وجهه شحوب الاموات ٠ ولكن لماذا جاؤوا بجثة الارالب أيضا الى هنا ؟ ٠ كانت جثته ممددة غير بعيد عن

جراسلان وقد غطي ببرنس وفي جبينه ثقب كبير ٠
ويبدو أن بعض المتمردين كانوا هنا ٠ فهذه بقايا طعام على عدة موائد بينها أوان كبيرة مليئة باللبن الخاثر ٠ ورأى بعض الاسلحة هنا وهنالـــك ولا بد أنهم تركوها حين هربوا وهم على عجلة من أمرهم ٠ جثا قازجـــري على ركبتيه بجانب الجريح ووضع أذنه على صدره ٠ ان قلبه ينبض ٠ طلب دواء معينا فأرسل المتجمعون خارج الباب شابا لاحضاره ٠
كان قازجري ماهرا في معالجة الجروح ، كشف عن جرح جراسلان بحـذر شديد فأخذ الجريح يئن بصوت خافت ٠ « أيها المسكين ! كنت تطلب أن يعاد اليك بيتك في قرية شعلمفوقة ولكن يبدو أنك لم تعد بحاجة اليه الان » هكذا فكر قازجري وهو يعالج الجرح ويدهنه بالمرهم الذي أحضروه له بعـــد أن نظفه جيدا ٠ وبعد أن انتهى من تضميده بدا أن الجريح يتنفس بارتياح رغم أنه ما يزال غائبا عن الوعي ٠ « يبدو أن أيامك لم تنته بعد يا رجل ، وقد تعود الى بيتك الزجاجي » ولكن الى أين سأتجه أنا ؟ من الواضـح أن ايام التحالف بيني وبين البلاشفة قد أوشكت على نهايتها ٠ فالى أيـــن يمكنني ان أذهب ؟ وعندما لم يجد جوابا على تساؤله ترك الامر لله ٠ « كل شيء تابع لارادته ٠ فماذا أستطيع أن أفعل أنا تجاه قضائه وقدره ؟ » ٠ قال لنفسه أخيرا وهو يفسر كل ما حدث عندما لم يجد تفسيرا اخر ٠٠ لقـد رأى المتخان بوضوح في تلك اللحظة أنه في ورطة كبيرة ، وأن ما ينتظره في المستقبل قد يكون أصعب مما هو فيه الان ، خاصة اذا ذهب الى موسكـــو ليقيم فيها ٠
بقي المتخان في تلك الغرفة وحده مع الجريح مدة طويلة غارقا فـــي أفكاره وهواجسه ٠ وعندما خرج وجد أن الشمس قد ارتفعت وكاد النهـــار ينتصف ٠ وكانت أعمدة الدخان تتصاعد من مداخن المنازل وترتفـع نحـــو السماء الزرقاء الصافية التي انقشعت عنها غيوم الصباح ٠ وعـاد الاولاد يلعبون في ساحة القرية دون أن يبالوا بما حدث ليلة البارحة وصباح اليـــوم الباكر ٠
ـ كيف حال الجريح الان يا قازجري ؟ لقد قلقنا عليه والله ٠ ـ قال حابج الذي كان واقفا يمسك بعنان حصانه ٠ ووقف الى جانبه قازجري ابن المرحوم بلاتسة ٠
ـ ولكن أراكما هنا ! ماذا تفعلان في القرية ؟
ـ تركنا ينال لحراستك ٠
ـ وقفنا نحرس حصانك ٠

لا أحد يدري ما يمكن أن يحدث فجأة في مثل هده الايام العصيبة ، لذلك ترك ينال الشابين لحراسة المتخان ومرافقته ٠ وفكر قازجري في الامر حائرا : « اذا كان يعتبرني عدوا ، فلماذا هو قلق بشأني ؟ » ٠ ورأى قازماي العجوز

يجلس على صخرة حزينا لان ينال رفض أن يصطحبه « لم تعد شابـــا ، ابق في القرية ودبر أمورها » هكذا أمره قبل رحيله • وها هو يجلس الان دون أن يعرف ماذا يفعل ولا ماذا يدبر • ولم يحاول حتى معرفة من ساعـــدوا الارالب من أهل القرية •

ـ سيعود ينال قبل حلول الظلام وهو يجر المتمردين خلفه كالنعاج • ـ قال قازجري وهو يحاول أن يطيب خاطر العجوز •

ـ وهل ينتهي منهم في يوم واحد ؟ هذا غير ممكن • انهم في غاية المكر • ـ قال قازماي معترضا •

قد يكون العجوز على حق • فالمتمردون لن يستسلموا بسهولة • وربما لا يستسلم أي واحد منهم حيا • بالاضافة الى أنهم يعرفون الوادي والجبـل ومسالكهما جيدا •

ـ ماذا تقول ؟ أقسم انهم لن يشربوا ماء يوم اخر أحرارا • ـ قـال ابن بلاتسة وهو يلتفت الى القاضي • أما القاضي فكان يفكر بشيء اخر •

ـ اسكت أرجوك •

ـ اليوم نهايتهم الاكيدة ولا شك في ذلك ـ كرر ابن بلاتسة مشاكسا ـ يلدار من خلفهم وينال أمامهم فالى أين يستطيعون الذهاب ؟

ـ أنت تتكلم مثل أبيك تماما • ـ قال المتخان وهو ينظر الى الشاب •

ـ هل كنت تعرف أبي ؟ ـ سأله الشاب •

ـ وكيف لا أعرفه يا رجل ؟• اعطاه الله حسن الختام • اعتاد أن يردد كثيرا : « انني أرى النور السماوي • وهو يشبه النور الذي يراه من قضـى ليله بانتظار الفجر • لقد انتظرنا الفجر طويلا وها هو يطل علينا مـــع الثورة » لقد أخطأ المرحوم في هذه النقطة • فالنور السماوي لا يمكـــن أن يكون شيئا اخر غير الشريعة • ايه أيها المرحوم بلاتسة • لست وحـــدك الذي أخطأ في تقدير الامور • أرجو أن تكون الجنة مثواك • لن يأخذ الله أحدا بجريرة غيره وسيلقى كل منا نتيجة أفعاله • ـ قال قازجري وهو ينظر الى العجوز الجبلي •

ـ ربما أنت على حق أيها القاضي • ان لم تميز أنت بين الحق والباطل، فمن يفعل ذلك ! الحمار لا يستطيع أن يعترض على صاحبه اذا ركبه دون « مرشحة » ولكن الانسان لا يمكنه أن يحب مضطهديه • لقد رأيت بعينيـك ما فعلوه بنا اليوم • كل الناس رأوا اولئك الذين كانوا على وشك أن يذبحوا ولدي ليتوضؤوا بدمه • فمن يقبل بهم حكاما !!••

وغرق قازجري في أفكاره من جديد ، لم يعجبه ما قاله العجوز ، ولكنـه عبر بالتأكيد عن رأي عامة الناس في الاحداث الاخيرة • وسمعت طلقـــات الرصاص بوضوح من الجهة الجنوبية • يبدو أن المعارك قد بدأت • ولكـــن

أحدا لم يصدق أنه يمكن القضاء على المتمردين خلال يوم واحد ٠

ـ هنالك شيء لا أفهمه ولا أقبل به ٠ ـ قال قازماي ٠
ـ ما هو ؟
ـ الشراكسة والقرهشاي متباعدون رغم أنهم يعيشون في وطن واحد ٠ لقد اختار الشراكسة النظام السوفييتي ٠ أما القرهشاي فما زالوا منغلقين على أنفسهم ومنعزلين ، أهذا لائق ؟ صحيح أن المساعدة العاجلة قد وصلتنا حين طلبناها ٠ ولكن هذا لا يكفي ٠ يجب أن نتحد ، فهذا سيزيد من قوتنا ٠
ـ أقسم أن هذا صحيح ٠ فاليد الواحدة لا تصفق ٠ ـ قال ابن بلاتسة ٠
ـ كان ذلك سيتم منذ زمن طويل لولا أنصار الشريعة ٠

ووقف قازماي يستمع الى النقاش الذي نشب بين عدد من الشبان الذين تحلقوا حولهم ٠ ارتفعت الشمس الى كبد السماء ولمعت أشعتها الذهبية فوق قمم الجبال المكللة بالثلوج الابدية ٠ وقفز ذهن العجوز فجأة الى ينال وقد أبهجته أشعة الشمس الدافئة وزرقة السماء في هذا اليوم الشتائي ٠

## النداء الاخير

لقد فكر ينال وأستيمر وحتى ستيبان ايليتش بما يشغل بال هذا العجوز الجبلي ٠ وكما يقول المثل : « ان الباحثين عن الحقيقة يلتقون دوما » ولم يتطرق الشك الى نفوسهم في أن الحق هو الذي سينتصر في النهاية ٠

أوشك كتابنا على نهايته ٠ وليعذرنا القارىء اذا أثقلنا عليه ٠ فليس من السهل أن يتصدى روائي لمرحلة كاملة وخطيرة من تاريخ الوطن ٠٠ وهكذا لا بد أن نكون قد أهملنا بعض الاشياء ٠ ولكننا نعتقد أننا كنا أمناء على ذكر أهم الاحداث في تلك الايام العصيبة والمجيدة ٠ ولم يبق أمامنا الا القليل ٠

على خلاف ما توقع العجوز قازماي ، لم تطل المعركة التي قادها ينال بنفسه ضد المتمردين الذين ما أن أحكم الحصار عليهم حتى دب الخلاف بين شراذمهم التي بقيت دون قيادة ٠ فقتل من قتل منهم واستسلم الباقون فساقوهم الى نالتشك لعرضهم في سوق المدينة الاسبوعي ٠ وهكذا وضع حد نهائي في ذلك اليوم لكافة انواع التمرد والخروج على القانون ٠

ويوم السوق الاسبوعي أيضا كان ينال على موعد مع تلاميذه لاصطحابهم الى المحطة ليعرفوا كيف يسير القطار ٠ فاتفق مع أصحاب العربات المتوجهين الى السوق لنقل التلاميذ الى المدينة ٠

وما أن سمعت تشاتشا بهذا النبأ حتى انطلقت محذرة أهالي القرية :

« سوف يضع أستيمر جميع الاولاد في القطار ليرسلهم الى روسيا » • ولم يكن قد بقي سوى القليل جدا من الناس الذين يصدقون ما تقوله • وعندما علم أستيمر بهذه الشائعة علق ضاحكا : « لقد فقدت العجوز عقلها » • وكان الناس مشغولين في تلك الايام بما حدث في قرية باتغة • ولم يصدق بعضهم أنه تم القضاء على المتمردين • ويبدو أن ينال لم يقرر عرضهم في السوق الاسبوعي عبثا • فلن يصدق الناس في النهاية الا ما يرونه بأعينهم •

وبما أن أستيمر لم يرافق الحملة التي قضت على التمرد ، فقد كان على عجلة من أمره للقاء ستيبان ايليتش لمعرفة ما حدث بالضبط منه • لان الاخبار التي وصلته من يرول فعلا عن تشاتشا كانت مشوشة ومرتبكة •

وما أن حل صباح الاثنين حتى حمل اهل القرية بضائعهم المكونة من الطحين واللحم المقدد والدهن ليبيعوها في السوق • وسر استيمر لكثرة عدد المتسوقين والعربات، فوزع تلاميذه عليها • ولما صادفت القافلة مجموعة من فرسان الجيش الاحمر ، أخذ الناس يقسمون الايمان المغلظة بانهم رأوا الارالب أسيرا معهم • ولكن الحقيقة ظهرت لهم بسرعة في السوق • وتناقل أهالي قرية شعلمفوقة شائعة أخرى مفادها أنهم أطلقوا سراح دولت •وأكدت تشاتشا أنه بريء وانه سيعود الى رئاسة سوفييت القرية • وهنالك شائعات أخرى من أبرزها أن ينال وقازجري قد اتفقا أخيرا على تصفية كافة الخلافات التي بينهما • وقد سر الناس بهذه الشائعة بشكل خاص •

في الصباح الباكر من اليوم الموعود جاء يرول الى بيت أستيمر ، ولم يكن « لو » وتيمبوت قد استيقظا بعد •

ـ عجبا والله • كيف تستطيعان النوم الى مثل هذا الوقت اليوم ؟

ـ ماذا حدث يا يرول ؟ تفضل ، لماذا أنت على عجلة من أمرك ؟ ـ قال أستيمر من الداخل وهو يغسل وجهه •

ـ أنا على عجلة من أمرى ، أم أنك أنت لا تدري ما حدث !

ـ وما الذي حدث ؟•

ـ الا تعرف ما حدث وأنت الذي يعتمد عليك أهل القرية ؟•

ـ أقسم أنني لا أعرف •

ـ وهل يجوز هذا ؟ ـقال يرول مراوغا لاستثارة استيمر ولكنه شم رائحة اللحم المقدد الذي تشويه دومسارا على الجمر فقرر فجأة ان يتراجع •

ـ لقد ضاعت السلطة السوفييتية • وأنا أبيعك الخبر برأسماله دون زيادة أو نقصان •

ـ ومن الذي قال ذلك ؟

ـ عجبا والله •!•• اذا كنت مناديا ، ومستخدما في مقر رئاسة سوفييت القرية فسأصادف حتما الكثيرين الذين ينقلون الي اخر الانباء • أنت تتردد على المدينة كثيرا ولكنك تلاحق الحروف والكتب ولم تعد تعرف شيئا

اخر غيرها • أما نحن فاننا نتابع أمور الدولة • يقولون أن الجيش التركي قد عبر سلسلة الجبال • أتظن أن السلطة السوفييتية ستنجو منهم ؟ ألم تسمع بذلك ؟

ـ لم أسمع بذلك ، ولكنني سمعتهم يقولون أن « الدجاجة تنبش السكين التي ستذبح بها » ـ قال أستيمر وهو يعيد المنشفة التي مسح بها وجهه الى مكانها على الحائط •

ـ الحروب والاوبئة لا تنتهي الا اذا وصلت الى حدها • تعاليا وكلا الان لقمة قبل أن يبرد الطعام •

وجلس تيمبوت و « لو » يتناولان طعامهما بجانب الموقد • وعندما عرف يرول أن التلاميذ ذاهبون الى المدينة ليتفرجوا على القطار أعجبه ذلك وقرر أن يغير موضوع الحديث ويكف عن المزاح مع أستيمر • لم يكن قد مضى وقت طويل على تمديد السكة الحديدية الى نالتشك • لذلك لم تكن الفرصة قد أتيحت ليرول أيضا لمعرفة أي شيء عن القطار سوى ما سمعه من الناس • لذلك أبدى استعداده للذهاب الى المحطة معهم •

ـ يا جماعة ، اذا وضعنا عجلات للقدر او للمدفأة ، الا يمكن أن تسير مثل القطار ؟

فانفجر الولدان ضاحكين • وشرق « لو » بطعامه وأخذ يسعل •• ليعذرنا القارىء على لقائنا بالصغير « لو » ثانية ولمدة قصيرة بعد أن ودعناه •• فقد رأينا الكثير في بيت أستيمر • ونظرنا الى العالم من خلال نافذته طويلا • لذلك بتنا نتخيل أننا نجلس بجانب موقدهم كلما جئنا على ذكرهم•
وبعد أن كف « لو » عن السعال قال جوابا على سؤال يرول :

ـ وهل القدر مثل القاطرة ؟ ان القاطرة تسير بقوة النار التي توقد بداخلها • فهل نستطيع أن نوقد النار داخل القدر ؟•
ـ أنت تعرف ذلك جيدا يا ذا الانف الاسود ! ـ قال يرول مصطنعا الغضب •
ـ انني أعرف والله •• عندما ينطلق القطار يقول : « كوفة ، تسيفة » وعندما يسرع في سيره يقول : « كيفة ، تيفة » •
ـ أسكت أنت • ـ قالت دومسارا مقاطعة الصبي •
ـ هيا بنا • ـ قال أستيمر وهو يتأهب للانطلاق •

وانضم أستيمر وصحبه الى قافلة العربات •• وكلما تقدموا نحو المدينة كانوا يقابلون المزيد من الفرسان • وخشي الناس أن تكون الاضطرابات قد تجددت ، فأخذوا يمعنون النظر الى كل من يصادفونهم • وفكر بعضهم بالعودة الى القرية • من يدري ، فقد يكون هؤلاء الفرسان

من المتمردين • وقد يفكرون بنهب السوق ، وعندها يضيع ما يحملونه من بضائع • وعاد بالفعل عدد من الذين يملكون خيلا جيدة مختلقين شتى الاعذار •

وبالقرب من نالتشك التقى أهل القرية بعدد كبير من الفرسان يضعون شارات حمراء على قبعاتهم كما كان الانصار يفعلون أيام الحرب الاهلية • ولما رأى قائدهم أستيمر قال محييا :

ـ مرحبا يا أستيمر ، كيف حالك ؟

ـ بخير ، ادامك الله •

ـ الى أين تذهب بكل هؤلاء الاطفال وهم فوق الاكياس ؟

ـ الى المحطة ، عندنا درس عملي في المحطة ، وسيتفرجون على القطار • قد يصنع أحدهم قطارا في المستقبل • أأنتم قادمون من جلاخستني الان ؟•

ـ طبعا ، لقد جئنا على عجل بعد أن سمعنا أن المتمردين قد احتلوا قرية باتغة وعزلوا ينال •

ـ أنتم متوجهون الى باتغة اذن !

ـ سنذهب والله دون تردد اذا اقتضى الامر • كيف نسمح للاتراك أن يقضوا على السلطة السوفييتية ؟!

ـ لقد انتهى كل شيء أيها الاخوة • قضى ينال على المتمردين بنفسه وعاد الى نالتشك • ـ قال فارس مجهول وصل للتو ـ من الذي أرسل في طلبكم ؟•

ـ وهل كنت تريد منا أن نبقى في بيوتنا حتى يرسلوا في طلبنا ! انها ليست دعوة الى عرس •• وحتى الذين لا ينوون الذهاب الى العرس يسرجون خيلهم احتراما للعروس • ـ قال قائد مجموعة فرسان جلاخستني•

ـ نعم هذا صحيح • من الواجب حماية العروس خاصة اذا كانت مخطوفة • ولكن أتظن أنهم يتنازلون لك عن هذه المهمة بسهولة ؟ والله لن يتنازل قازجري لاحد • ـ قال أستيمر •

ـ من يستطيع أن يخبرنا بحقيقة ما جرى ؟ وأين نجد ينال الان ، والله اننا لفي حيرة بعد كل ما سمعناه من أنباء متناقضة •

ـ اذا كنتم تريدون مقابلة ينال فستجدونه هناك • ـ قال الفارس وهو يشير بسوطه نحو المدينة •

ونظر الجميع الى الجهة التي أشار اليها ، فرأوا ينال على ظهر فرسه ووراءه مجموعة من الفرسان • ان الركب متوجه الى المحطة • يا لها من مصادفة سعيدة • وعند المحطة توقفت العربات القادمة من قرية شعلمقوقة وترجل التلاميذ • وبعد قليل تأكد أستيمر أن ينال متوجه الى موسكو لمقابلة لينين بالذات وعرض أوضاع البلاد ومطاليبها عليه • وسيذهب معه المتخان

أيضا ليقيم في موسكو ممثلا لبلاد قباردیا •

أما الفرسان القادمون للنجدة من منطقة جلاخستني ومناطق أخرى ، فقد ذهبوا الى المحطة لتوديع ينال بعد أن تأكدوا من القضاء على المتمردين• وتوقفت في المحطة عربات أخرى في طريقها الى السوق • بينما اصطحب أستيمر تلاميذه الى داخل المحطة • ولما رآه ينال اقترب منه :

ـ أراك هنا يا أستيمر ، أأنت بصحة جيدة ؟ ولماذا جئت بكل هؤلاء الاولاد ؟

ـ أشكرك ، عندهم درس عملي في المحطة •

ـ كيف حال مدرستك ، هؤلاء تلاميذك اذن ؟ •

ـ نعم يا ينال ، انهم أذكياء ومتعطشون للمعرفة •

ـ حسنا • حسنا يا أستيمر •

ووصل يلدار في هذه اللحظة •

ـ مرحبا • كيف حالك يا أستيمر ؟ انظروا من أرى هنا ! « لو » تيمبوت ؟ يبدو أنك اصطحبت كتيبتك أنت أيضا يا أستيمر •

واقترب منهم ستيبان ايليتش ايضا وأخذوا يمازحون التلاميذ ،وخاصة ينال الذي غرق في نقاش معهم لتشجيعهم • واستغل أستيمر المناسبة ليفهم من ستيبان ما حدث في قرية باتغة بالضبط • وانضمت عربات جديدة الى موكب العربات التي توقفت أمام المحطة ، فبدا المكان أشبه بسوق حقيقي يعرض فيه القرويون ما جلبوه معهم من قراهم من خراف ودجاج ودهن وجلود وسمن وجبن وفاصولياء وغيرها • وارتفع صوت ينادي :

من يريد أن يشتري الدهن ؟ لم يبق منه الا القليل يا جماعة • هيا اشتروا بعض الدهن لتقلوا به المعجنات على أرواح البلاشفة •

ـ سأجعلهم يقلون المعجنات على روحك أنت أيها اللعين ! ـ قال فارس غريب ينتهره •

ـ طحين ، طحين • اشتروا كمية من الطحين تكفيكم حتى يتفق البلاشفة وأنصار الشريعة •• ـ ارتفع صوت رجل ثرثار اخر وهو يزن الطحين لبعض المشترين •

ـ والله أخشى أن يورطنا أنصار الشريعة في نزاعات جديدة • ـ قال اخر يرتدي قميصا من الخيش يبيع حطبا •

ـ كان قازانوقا جباغ يقول : « سياتي يوم يستعير الشراكسة والروس المناخل من بعضهم البعض » • اسألوا ينال اذا كان ذاهبا الى موسكو ليستعير منخلا • ـ قال عجوز بصوت مرتفع •

ـ لماذا تتجاهل الحقائق أيها الزعيم ؟ ان التعاون بيننا وبين الشعب الروسي أقوى من ذلك بكثير الان • ـ قال رجل يضع على قبعته شارة حمراء •

ـ ولكن المتخان غير راض عن ذلك تماما ٠

وفي هذه اللحظة اطلقت القاطرة التي ربطت الى عربات الركـــاب لتوها صفيرها منادية المسافرين فأخذوا يتوافدون الى داخل المحطة ٠ وترك أستيمر تلاميذه برعاية يرول ورافق ينال مودعا ٠ بينما توجه يرول مـــع التلاميذ صوب القاطرة ٠

وحمل مرافقو ينال أمتعته الى داخل القطار ، بينما وقف هو عـــلى الرصيف مع ستيبان ايليتش يتحدثان عن أصدقاء الاخير في موسكـــو الذي أوصى ينال بمقابلتهم حين يحتاج الى مساعدتهم دون ابطاء ، وأعطاه عناوينهم ٠

لم يبق الا القليل على تحرك القطار ولكن المتخان لم يكن قد وصـــل بعد ٠ وخشي ينال أن يغير المتخان رأيه في اخر لحظة ويعدل عن السفر ٠ أما ستيبان ايليتش فلم يفصح عن شكوكه ٠ وأخذ الرجلان ينظران نحو مدخل المحطة منتظرين وصوله في أية لحظة ٠ بينما وقف يلدار مستعدا للانطلاق عند أول اشارة من الرجلين لمعرفة سبب هذا التأخر ٠

وعلق بعض الحاضرين : « قد يكون ذهب الى موسكو من قرية باتغة مباشرة ! » ٠ « انك تخرف والله ٠ وهل يوجد طريق من باتغة الى موسكو ؟» رد عليه اخر ٠ « ربما ذهب الى استامبول اذن ! » قال ثالث ٠ فرد عليـــه رفيقه « ومن أين يجد نقودا توصله الى استامبول ؟ » وهنا تدخل بائـــع الطحين الذي يبدو انه يعرف شيئا ٠

ـ سيعطيه الشيخ سعيد من نقود المسجد ٠ فالذهاب الى استامبـــول يرضي الله أيضا كما يرضيه بناء المسجد ٠

وكان الطحان أدم على علم بأن المتخان ذهب الى الشيخ سعيد بعـــد عودته من قرية باتغة مباشرة وقضيا الليل وهما يتباحثان في مصير حركة أنصار الشريعة بعد الاحداث الاخيرة التي زعزعت أركان تحالفهم مـــع البلاشفة ٠ ولما لم يجدا مخرجا ملائما لرأب الصدع بشكل يحافظون معـــه على مكانتهم السابقة ، قرر المتخان الرحيل الى استامبول ٠ وأيد الشيـــخ سعيد هذا الحل ٠ ولجأ الاثنان الى موسى لان المتخان كان بحاجة الى مبلغ من المال لتغطية نفقات رحلته واقامته ، ولم يجد من المناسب أن يأخذ كـــل المبلغ الذي جمع من أجل بناء المسجد ٠ فوعدهما موسى بأن يدبر مبلغـــا اضافيا من أجل نفقات السفر ٠

وهكذا أرسل موسى الى بعض معارفه الذين سيلتقون في سوق المدينة اليوم طالبا منهم التبرع بمبالغ اخرى لشراء خشب للمسجد ٠

وارتفع النداء الاخير من صافرة القطار حادا مجلجلا ٠

ـ رافقتك السلامة ٠ هيا اصعد ، سيتحرك القطار ٠ ـ قال ناظر المحطة

وهو يقترب من ينال .
ـ نرجو لك التوفيق في مسعاك ، لا تنس موضوع تعميم المدارس في قباردیا . ـ قال أستيمر وهو يلوح له .
ـ دعونا ننتظره بضع دقائق أخرى ، فربما طرأ ما أخره . ـ قال ستيبان ايليتش .

وفي هذه اللحظة رأى الجميع فارسا مسرعا الى المحطة . انه قازجري . وقفز القاضي عن ظهر حصانه وتوجه الى ينال مباشرة .

ـ من عادتك أن تؤخرنا دائما . هيا اصعد . ـ قال ينال مؤنبا .
ـ لن أؤخركم بعد الان .
ـ أين أمتعتك ؟ ـ سأل ستيبان ايليتش وقد قويت شكوكه .
ـ ليست معي أية امتعة يا ستيبان ايليتش . ولم أكن انوي المجيء الى المحطة ، ولكنني لم أر من المناسب أن أترككم دون وداع . انني غير ذاهب الى موسكو ، فطريقي لا تمر بموسكو . ـ قال القاضي وقد احتد من تأنيب ينال ـ بما أن جذور السلطة السوفييتية تبدأ من موسكو ، فاذهب أنت يا ينال رافقتك السلامة .
ـ الى أين ستذهب أنت أيها القاضي ؟ هل ستهاجر الى استامبول ؟ .
ـ لا تتسرع يا قازجري . وأنت يا ينال تمالك أعصابك . ـ قال ستيبان ايليتش مهدئا ـ اذا كان لديك ما تشكو منه فاذهب الى موسكو وقدم شكواك الى لينين نفسه وسينصفك اذا كنت على حق .
ـ ايه يا ستيبان ايليتش . أنا لن أرفع شكواي الى موسكو بعد الان . يجب أن تدرك ذلك جيدا .
ـ الى من ستشكو اذن ؟ ـ قال ينال محتدا من جديد ـ كنت تقول أن البلاشفة وأنصار الشريعة مثل حصانين يجران عربة واحدة . فلماذا تفك حصانك عن العربة الان ؟!.
ـ لماذا لا تتركاني أكمل ما أود قوله ؟
ـ قل .
ـ أنا لم أتخذ قراري الان بشكل مفاجيء . لقد فكرت بالموضوع منذ اليوم الذي عدنا فيه من قرية باتغة . سأتوجه الى استامبول فعلا . ان شجرة الشريعة لا تنمو في بلادنا الا بصعوبة . أما هنالك فقد نبتت منذ زمن طويل ، وقد أستفيد من تجربتهم .
ـ لن تجد هناك ما تبحث عنه . أقسم بالله أنك ستندم يا قازجري . صدقني ، ستندم .

ولما أيقن ينال أن القاضي لن يذهب معه اتجه صوب القطار ، وقال ستيبان ايليتش وهو يعانقه مودعا :

ـ رافقتك السلامة ٠

ـ رافقتك السلامة يا ينال ٠ ـ قال قازجري أيضا وهو يصافح المريمقان مودعا بارتباك ٠ ثم اتجه الى حصانه وغادر المحطة قبل أن ينطلق القطار ٠

والتفت ينال الى رفيقيه وهو يصعد القطار وأوصاهما بأن ينتبها للقاضي، فقد يقوم بحركة يائسة ٠ وكان هذا ما يفكر فيه يلدار وستيبان ايليتش في هذه اللحظة ٠ وانطلق القطار وبدأ يزيد من سرعته رويدا رويدا ٠

كان ينال يبتسم لمودعيه ملوحا بكلتا يديه من نافذة القطار الـــذي أخذ يغادر المحطة ٠ وكان يرول قد سبق القطار مع تلاميذ المدرسة فلمـــا لحقهم تراكضوا يسابقونه وركض يرول وراءهم خوفا عليهم لايقافهم ٠ مما أثار ضحك الذين وقفوا يشيعون القطار ٠ وكان الصغير « لو » قـد سبـــق الجميع ولكنه توقف ثانية وقد اتسعت حدقتا عينيه ٠ وتوقف جميع التلاميذ وقد أيقنوا أنه لا يمكن اللحاق بالقطار جريا على الاقدام ٠٠ وعادلت سعادة « لو » بزيارة المحطة في هذا اليوم ، وربما فاقت فرحة المرحوم بلاتسة عندما كان يتحدث في ساعاته الاخيرة عن النور السماوي الذي يراه من يسهـــر الليل بانتظار الفجر ٠٠٠٠

# الفهـــــرس

## الجـــزء الاول

## الجـــزء الثانـــي

● **الفصل الاول**



● **الفصل الثاني**



● **الفصل الثالث**



● **الفصل الرابع**



● **الفصل الخامس**

● **الفصل السادس**

# هذا الكتاب

« ان العربي الذي سيقرأ هذه الرواية قد قطع طريقا شاقا في دروب التقدم واعتقد انه اطلع خلال مسيرته على الثورة التي انجزناها في بلادنا بقوة سواعدنا . وانا ارجو بهذه المناسبة ان تتحقق امانيه .

... انتقال اي كتاب من بلد الى آخر ، يعني الكثير بالنسبة الى كاتبه وانا سعيد جدا بنقل كتابي هذا الى العربية . فالبلاد العربية ليست غريبة عني ، وقد زرتها مرارا وخلال زياراتي التقيت بالعديد من الاصدقاء العرب وتحدثت معهم . ومن خلال لقاءاتي اطلعت على الكثير من جوانب الحياة وهمومها .

... في هذه الايام بالذات ، يعيش عدد من البلدان العربية ظروفا صعبة نتيجة لما يحاك حولها من مؤامرات . وانني اذ اقدم روايتي « بانتظار الفجر » في مثل هذه الظروف اتمنى من كل قلبي ان تشكل اسهاما متواضعا في مواجهتها .

... انني اتخيل نفسي جالسا الى جوار موقد كل قارىء عربي يحمل كتابي هذا . اتحدث اليه عما قاسته امتي حتى وصلت الى ما هي عليه اليوم . وبهذه المناسبة فانني اغرس شجرة عرفان لمن ترجم كتابي ، لانه بعمله هذا اقام جسرا جميلا بين اللغتين ، جسرا ارجو أن يقوى ويستمر على مر الايام .

وهكذا نحن تعارفنا اليوم ايها القارىء العربي حين نلتقي عبر هذا الكتاب . وارجو ان تزداد وتترثق عرى المودة والصداقة بيننا ، ولا يفقد احدنا الآخر ابدا » .

**عليم كيشيكوف**
**تالتشك ١٩٧٩**



الثمن ١٧ ل.ل.